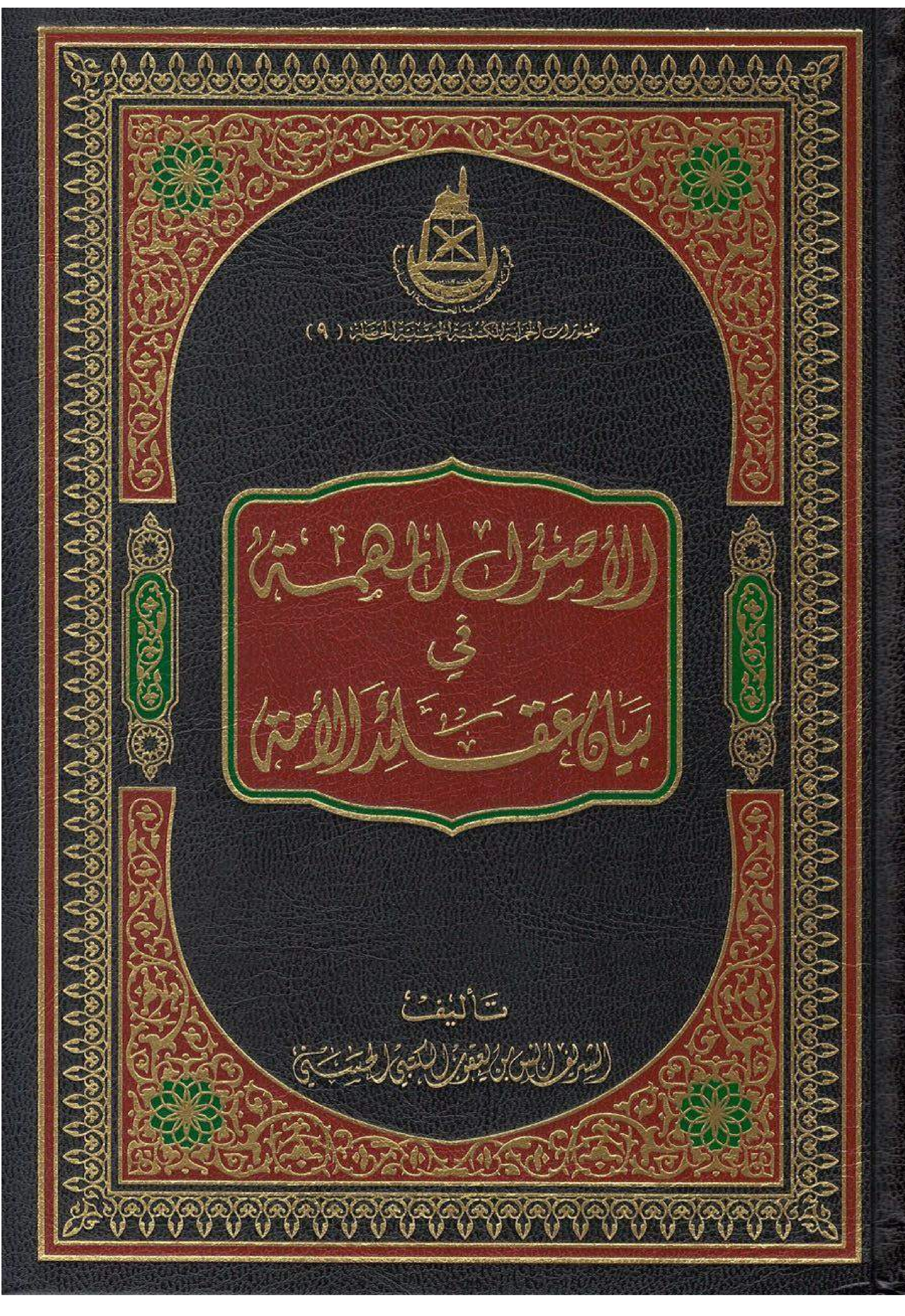
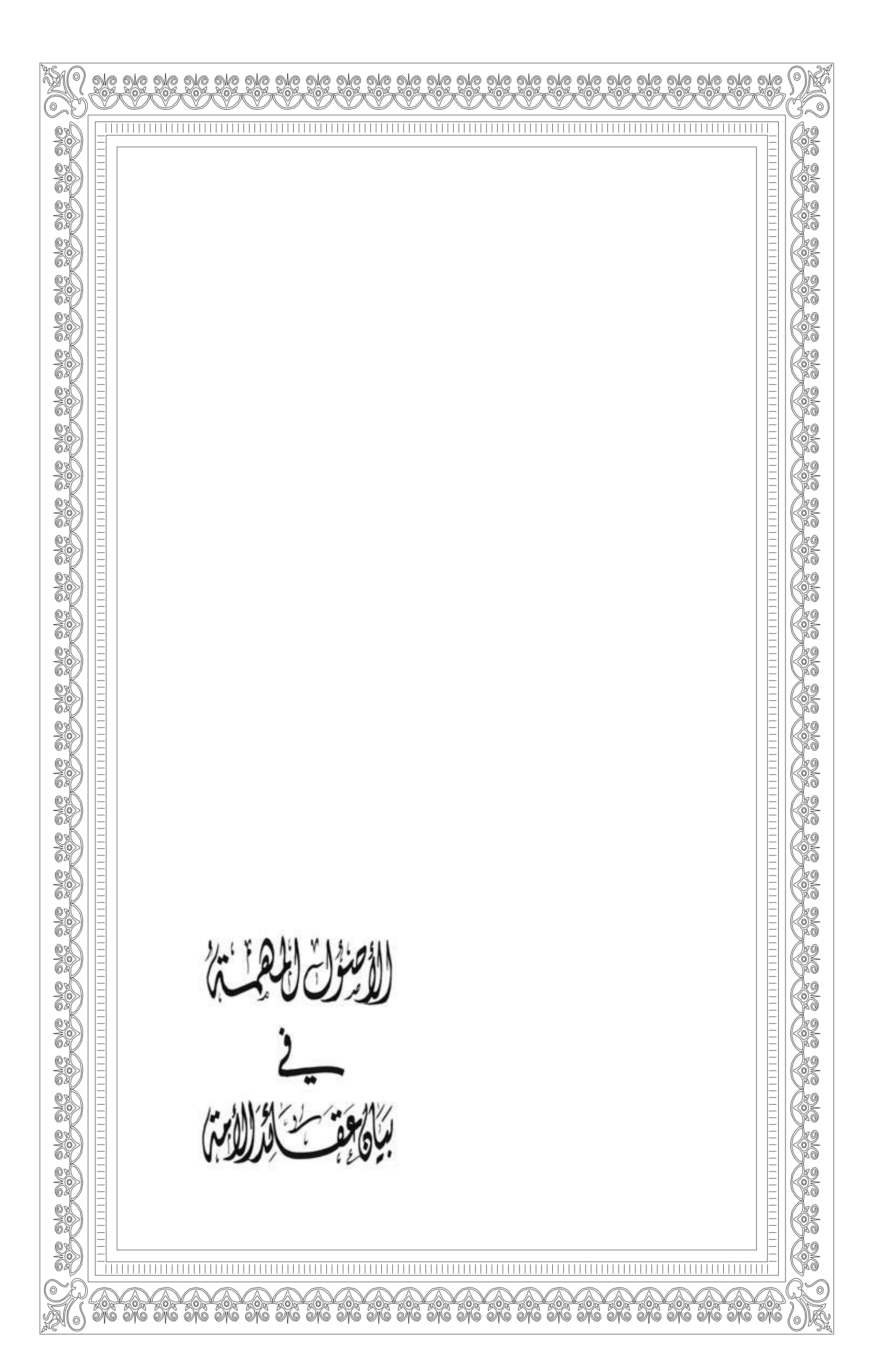

منشورات الخزانة الكتبية الحسينية الخاصة (٩)
الأصول المهمة
في
بيان عقائد الأمة
تأليف
السيد الحسن بن يعقوب الكتبي الحسيني


الأصول المهمة
في
بيان عقائد الأئمة

هُوية الكتاب:

الكتاب: الأصول المهمة في بيان عقائد الأمة

المؤلف: الشريف أنس بن يعقوب الكتبي الحسني

الطبعة: الأولى

منقحة ومستدرك عليها

السنة: ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الخزانة الكتبية الحسنية الخاصة

الحجاز - المدينة المنورة - طريق الهجرة - دار المجتبى

ص. ب ٣٧٥ هاتف ٠٠٩٦٦١٤٩٣١٤٠٣٩

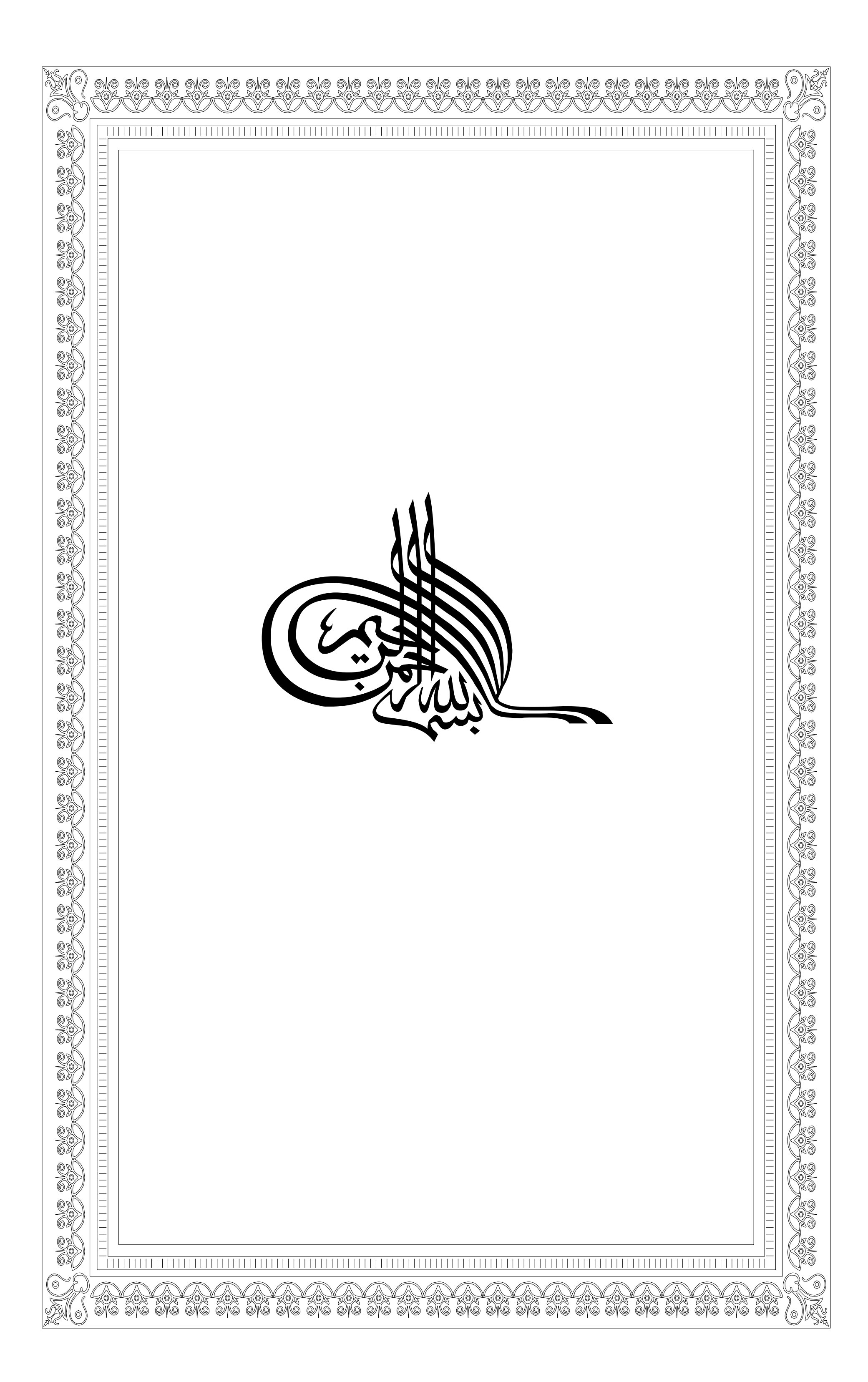
جوال ٠٠٩٦٦٥٠٥٣٠٣٠٣٩

البريد الإلكتروني: aalsharif2002@hotmail.com

الأصول المهمة في بيان عقائد الأمة

تأليف

الشريف أنس بن يعقوب الكتبي الحسني


بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة ومقارنة في العقيدة بين اليهودية والمسيحية وبين الإسلام والتقارب في مسائل الأصول بين المذاهب الإسلامية من أهل البيت (العترة المشرفة) والسنة من الصوفية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية والإباضية وأهل الحديث (السلفية الوهابية) والظاهرية والشيعة الإمامية والزيدية والإسماعلية والعلوية والدروز.

الإهـــداء

إلى أهل الملل والنحل المعترفين بحقيقة السلام وإلى المؤمنين الذين يسعون إلى تحقيقه فيكون إيمانهم بسلامة البشرية من لسانهم وأيديهم، ولم يتنطّعوا ويكفّروا ولم يغيّروا ويبدّلوا باتِّباع هواهم وكانوا ممن أحسنوا القول وقالوا إننا من المسلمين.

المـؤلـف

الإسلام ليس خطاب يَنبذ ويُصارع الآخرين بل هو رسالة سلام تحتوي قلوب من استكبروا وطغت عليهم أوهامهم أن يروا حقيقة الإنسانية وليعلموا أن الحقائق ثابتة ولكن القلوب متقلبة وأنه بالخطاب السمح والمنبر السلمي تتألف القلوب.

مُقَدِّمَة

الحمد لله حمدًا يليق بجلاله، والحمد لله أن جعلني من المؤمنين الموحدين بحقيقة الوجود الآلهية، الحمد لله المحتجب بعزته وجلاله وكبريائه عن درك العيون، المتعزّز بجبروته عن لواحق الظنون والعقول، المتفرّد بذاته عن شبه ذوات المخلوقين، المتنزّه بصفاته من صفات المحدثين، القديم ليس قبله شي ولم يزل والباقي الذي لا يزال، فقد كان ولا مكان، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة أدخرها ليوم الإشهاد وأعوذ بها من الزيغ والإلحاد، شهادة أتخذها ليومِ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتىٰ بقلبٍ صادق موحدٍ بعظمته وجلاله ووحدانيته، والصلاة والسلام علىٰ أنبياء الله أجمعين أصحاب رسالة التوحيد المصطفين من رب العالمين لنشر شرائع الدين للأمم الموحدين من آدم إلىٰ إبراهيم إلىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين محمد الصادق الأمين الذي ختم به النبيّون.

منذ زمن طويل وقضية الصراعات المذهبية والاختلافات العقائدية قائمة، وقد اهتم بها في كثير من العصور، وقد كثر البحث في العصر العباسي في العقائد واتخذ نماذجًا لم تكن علىٰ عهد النبي محمّد ﷺ ولا عهد العصور الأولىٰ من الصحابة والتابعين، ولعلي أجزم أن العصر العباسي أزهىٰ العصور التي تميز بحضارة الفكر في كثير من المجالات، وبرز فيه نخبة من أعلام الأمة الإسلامية في العلوم ومن تلك العلوم علم العقائد ولا شك أن انتشار البحوث أدىٰ منها إلىٰ ظهور علم جديد يسمىٰ علم الكلام وعلىٰ أثره نشأت مدارس كلامية جديدة تتميز كل مدرسة بفكر مختلف عن الآخر إلا أنه يصب في مسألة

التأكيد علىٰ مفهوم الإيمان وحقيقة التوحيد، وقد استمرت تلك الخلافات والحوارات التي كانت دون تكفير أو تنفير بل إن علية القوم كانوا يطرحونها، وهنا أؤكد أن المكتبة الإسلامية في ذلك العصر قد أثريت بما أصبح اليوم هو البضاعة التي يتزود بها أهل العلم، وهذا العصر الذهبي من عصور الفكر الإسلامي الأصيل والذي نتج عن ثقافة المسلمين العريقة، وتأكيد أن الرسالات السماوية لم تأت إلا لمخاطبة البشر لتبين لهم في أصل الأمر حقيقة التوحيد وهي الطريق الأمثل لاكتمال العبادة.

ولعلم العقائد الإسلامية أهمية بالنسبة للفرد المسلم، فالعقائد في الإسلام هي الأصول التي تبنىٰ عليها فروعه ولا شك أنه من المعلوم أن جميع الأعمال الصالحة التي يقوم بها الإنسان والتي يبتغي بها مرضاة الله ﷻ يتوقف قبولها علىٰ صحة العقيدة التي يتكلم عنها هذا العلم فانحراف العقيدة هو انحراف عن أصول الإيمان وذلك مما يؤكد أن هذا العلم يبحث في قضاياه كلها الفصل في الحكم علىٰ الإنسان بالإيمان أو الكفر والفسوق، وبالنجاة أو الهلاك، وبالسعادة أو الشقاء، وقد كان لعلماء الأمة الإسلامية اهتمام خاص وعناية في تعليم هذا العلم، ولعلي وجدت نفسي منذ زمن بعيدًا من أن أشغل فكري في تفاصيل علم الكلام، ولم تكن الصورة ظاهرة بالنسبة ليّ لاسيما أني من ذلك الجيل الذي نشأ وترعرع في زمن قد ظهر فيه التشدد الفكري العقيم المكفر للمخالف، وكان الحوار فيه من الأبواب المغلقة والتي قد تصل بالبعض إلىٰ درجة الملحدين الكافرين، وأقولها وبكل صدق إن مناهجنا الدراسية وحلقاتنا العلمية وإعلامنا قبل مجتمعنا قد أغلقت الباب علىٰ عدم قبول الرأي الآخر، والتشكيك في صحة عقائدهم، وأن أولئك الأقوام يعدون من الزنادقة

والملحدين وأصحاب مذاهب فاسدة واستمر الحال بأن مرور أسماء تلك الفرق كمرور عابر يجعل الرهبة منهم حاصلة، وأنهم أعداء لديننا وعقيدتنا، وكل ذلك كان علىٰ منهج ذم فكر الغير دون طرح آراءهم، ولعل عدم توافر مراجعهم ومؤلفاتهم، وإصدار التعاميم علىٰ محاربتها ومصادرتها وحرقها وإتلافها هو أمر يعمل به النظام، وتعد هذه الكتب محرمة في بلادنا، إذ إن التحذير من قراءتها وتداولها قد يكون أمر يعاقب عليه القانون، ولعل أمر كهذا لشخص حجازي الأرومة وابن الحرمين الشريفين، نشأ في المدينتين المقدستين التي منها كانت العقيدة والتشريع يكون فيه الكثير من الضبابيات، فالأصل في هذه البقعة الطاهرة التوحيد منذ دعوة سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن بعدها انتشار الرسالات السماوية، والحقيقة أن هذه المسألة كانت الشغل الشاغل لكثير من العلماء والمفكرين، وقد انشغلت في ذلك منذ سن مبكرة ولا أنكر أن هول ورهبة المطالعة في علم العقائد قد أصابني، وكثيرًا ما تعطل الأمر لدي وأن هذه القضايا كبيرة الحجم في طرحها، ولكني وجدت أن لهذه الفرق.

أعني أولئك القوم المحظور علينا قراءة كتبهم، أقوالًا وأدلة قوية علىٰ من قرأها بفكر راقٍ غير متعسف سيصل إلىٰ حقائق وبواطن عميقة كلها تدل علىٰ صفاء ونقاء طارحيها في أقوالهم وصلاح عقيدتهم، ولا أنكر أنه قد خالفني الكثير من أبناء جيلي في بداية الأمر وهاجمني الكثير ولا زال، وقد فات علىٰ هذا الأمر ما يزيد علىٰ قرابة الربع قرن من الزمان حيث إنه في ذلك الزمان لم يكن الإنترنت مسيطرًا علىٰ كثير من البيوت ولا تزال المعلومة تأخذ من المناهج والعلماء الأحاديِّ الرأي والإعلام البسيط الذي لا يتجاوز القنوات المحدودة، وسبب هذا أن الكثير من السواد الأعظم في أيامنا وقع بين الإفراط والتفريط،

فعقدت علىٰ أن أكتب في هذا الأمر ولن أنظر إلىٰ أن أفعال المتنطعين وأصحاب المنهج التكفيري الآحادي يسيطرون بفكرهم، لاسيما أنه كان عندي شعور يحدثني أنه لا بد وسيأتي يوم وينكشف الغطاء ويعمل الكثير للبحث عن الحقيقة وستأتي سنوات قادمة ويتحقق ليّ أمنية انتشار الفكر الحر والحوار الراقي الذي نرىٰ فيه مجتمعًا يخلو منه الكثير من التعصبات التبعية للمشايخ وليس التمسك بالأصول العقائدية وهو ما أراه اليوم والحمد لله علىٰ انكشاف الغمة.

ولا شك أن التفرق والاختلاف أمر قضاه الله وقدره، وهو شيٰء معتاد بين الناس، وذلك لتفاوت إرادتهم، وإفهامهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، لكن قد يكون الاختلاف مذمومًا، وهو الذي يبغي فيه بعض المسلمين علىٰ بعض، ويؤدي إلىٰ التحزب والتعصب.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، والاختلاف له حدوده، فعلىٰ المختلفين مراعاة أدب الاختلاف ليكون الاختلاف ظاهرة إيجابية، ومن أدب الاختلاف أن يلجأ الناس فيه إلىٰ الكتاب والسنة للنظر في أدلتهما نظرة صواب والحقيقة أن من أشد وأكثر الأمور التي انتشرت في مجتمعنا هو افتقادنا لأدب وفن الحوار فيما بيننا وهذا ما وصل ببعضهم اليوم إلىٰ التشدد الفكري والتهاون في إطلاق كلمة الشرك وكثرة الاتهامات بكلمة الشرك.

علمتني القراءة أن أجعل عقلي يناقش الاختلاف
وأن لا يكون له مجال في الخوض في أي خلاف
فبالاختلاف يتسع فكري وبالخلاف يضيق صدري

ولا شك عندي أن الخلاف له أسباب أساسية لنشوئه ومنها أسباب داخلية وأخرىٰ خارجية، ومن أهم الأسباب التي أدت إلىٰ ظهور الخلافات:

الجانب السياسي: والذي كان سببًا في الخلاف الديني أحيانًا وبذلك استغل الحاكم ولا زال يستغل المنبر الديني لكثير من قراراته السياسية، فالرياسة وفرض السيطرة في المناهج السياسية يحتاج إلىٰ جمع مؤيدين، وبذلك أصبحت هنالك أحزابٌ وفرقٌ دينية لها رأيها ونجد أن الخلافات السياسية كانت أساسًا في مسألة الإمامة ومن يستحق الخلافة علىٰ منهج السنة النبوية، وهكذا انقسم المسلمون فالخلاف بدأ حول الإمامة لكنه تطور عبر الزمن وتمخض عن هذا الصراع السياسي ظهور الفرق، وقد انتشرت آراء هذه الفرق في ربوع العالم الإسلامي ولا تزال قائمة بين ظهرانينا، ولم تلبث بعض هذه الفرق أن كفرت بعضها بعضًا نتيجة لتفسير كل منها لمدلول الإيمان.

الإعلام السياسي: إن من أشد أسباب الفتنة والفرقة اليوم ما يقوم به الإعلام السياسي من حراك داخل الأوطان الإسلامية لتفريق الأمة وهذا ما نراه اليوم في قنوات فضائية سخرت لمناظرات كلها سباب وشتام وتطاول لا يليق بأن يكون من مسلمين وليس بمنهج علمي لابد أن يكون هناك إعلام يسعىٰ من أجل الحقيقة وليس إعلامًا يتوجه بتوجيه السياسات التي تهدف لوجود القلاقل في الأوطان وتسعىٰ إلىٰ ترويج الإعلام الفاسد، أين الإعلاميون المخلصون؟ لا نريد إعلاميون مسيَّسون ولا إعلامًا فاضحًا لا خير فيه.

في زماننا من الفتن أن الإعلام يظهر نطق كل رويبضة ويغيب وينفر من كل ذي علم ليفتنون الناس بكلام حق يريدون به باطلاً.

الغلو في الدين: وهو منهج مرفوض شرعًا وعقلًا؛ لأنه مخالف للكتاب التي وردت آياته في غير موضع تنهىٰ عنه، ومخالف للسنة أيضًا التي نهت عنه في أحاديث كثيرة، وكذلك هو مخالف للعقل السليم الصحيح وللفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وكما يكون الغلو في الأشخاص يكون في المبادئ، والتداخل بين غلو الأشخاص والمبادئ واقع فهما وجهان لعملة واحدة، والذي يصل بأصحابه إلىٰ التطرف الديني والتشدد الفكري وينتج عنه الإرهاب، وقد حذرنا منه رسول الله ﷺ فقال: «**إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»[1].

(١) أخرجه النسائي: ٢/ ٤٩، وابن ماجه: ٢/ ٢٤٢، وابن خزيمة: ١/ ٢٨٢-٢، وابن حبان: ١٠١١، والحاكم: ١/ ٤٦٦، والبيهقي: ٥/ ١٢٧، وأحمد: ١/ ٢١٥، ٢/ ٣٤٧، عن عوف بن أبي جميلة ثنا زياد بن حصين عن أبي الغالية عن ابن عباس الحديث، وقال الحاكم صحيح علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وليس كذلك فإن زياد بن حصين لم يخرج له البخاري في صحيحه فهو علىٰ شرط مسلم فقط وكذلك صححه النووي في المجموع ٨/ ١٧١.

إن التدين لا يخرجني من دائرة طباع البشر وإن التمسك الحقيقي بالدين يجعلني داخل دائرة البشرية معهم بكل أحوالهم واعتقادي لا يغير نظرتي لهم فالدين لا يظلم أحدًا ومن بتدينه خرج عن دائرة البشر فعليه أن يصحح فهمه للتدين

اتَّباع الهوىٰ: وهو أمر ينتج عن طريق الغلو في الدين والتشدد الفكري، وهو أمر ذمّه الله تعالىٰ في غير آية من كتابه الكريم، وبيّن أنه يؤدي بصاحبه إلىٰ سيّء القول وقبيح الفعل وقد يؤثر علىٰ عقيدة الإنسان المسلم وعلىٰ أخلاقه وسلوكه، لقد حذر الله أنبياءه عليهم السلام وفي ذلك تحذير لأممهم من اتباع الهوىٰ وذكّرهم أنه يقود إلىٰ الضلال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة ص: ٢٦].

ولخطورة هذا المنهج وعندما يخالط الهوىٰ القلوب ويستقر في سودائها ينتهي بأصحابه لإتباع الهوىٰ، والخلاف في الحقيقة وارد علىٰ كل أمة وبين أفراد كل مجتمع لكنه يزول عند الرجوع إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عندما يقدَّمان علىٰ الهوىٰ وهذا منهج القرآن الكريم الذي جاء فيه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ . . . الآية [النساء: ٥٩]، فاتباع الهوىٰ سبب من أسباب هدم الدين، وتفريق كلمة المسلمين لا ينتج عنه إلا الفرقة والضياع والتفكك والابتداع.

فرغ المسلمون بانتهاء العصر الأول من الفتوحات، وبدأ عصر الاستقرار مما جعلهم ينظرون ويبحثون، كدعوتهم إلىٰ التوحيد لأكبر الفرق وأشهر الديانات التي كانت منتشرة في عهد النبي ﷺ بكثرة الردود علىٰ المخالفين والأخذ بوجوه الطعن فاستتبع هذا اختلاف وجهات النظر الذي يؤدي بطبيعة الحال إلىٰ اختلاف الآراء والمذاهب.

هنالك أسباب خارجية كانت لها دور في الصراعات فكثير ممن دخل الإسلام نتيجة الفتوحات الإسلامية كانوا من ديانات مختلفة يهودية ونصرانية ومجوسية وصابئة وبراهمة وغيرها وقد أظهروا آراء دياناتهم القديمة في لباس دينهم الجديد، مما جعل حاجة بعض المتكلمين إلىٰ الفلسفة واضطروا إلىٰ قراءة كتب الفلسفة اليونانية والمنطق والتكلم في شأنها والرد عليها ومواجهة تلك الاراء الدخيلة.



حديث افتراق الأمة:

قال ﷺ: «**ستفترق أمتي إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا ملة واحدة**». فقيل: ما هي يا رسول الله؟ قال: «**هي ما أنا عليه وأصحابي**»[(١)]، هذا الحديث روي بعدة أسانيد، وبصيغ شتىٰ، ولم يرد في الصحيحين، وقد ضعفه جمع من المحدثين، وحسنه وصححه جمع آخر وهو الصواب، وفي الحقيقة لقد تشبثت الفرق بهذا الحديث فكانت فيه الفرقة، فأصبحت كل فرقة من الفرق الإسلامية تعمل بأنها هي الفرقة الناجية، ولم يكتف الأمر علىٰ ذلك بل أن كل فرقة ترىٰ أن الأخرىٰ كافرة أو غير ناجية، وقد أصبح الكثير من العلماء بالتوجه السياسي يقومون بالذم واستعراض أخطاء الغير مجاهرةً، والحقيقة أن كل ذلك هدفه من عدو الدين تمزيق الوحدة الإسلامية ولقد نسي الكثير أن الخلافات ليست حادثة بين المسلمين بل إن بعض الخلافات كانت قائمة منذ عهد النبوة ولكن كان عليه الصلاة والسلام يفصل فيها، فنجد اليوم غلمانًا يصعدون علىٰ المنابر لا يتجاوز إيمانهم حناجرهم يتطاولون علىٰ أئمة أعلام مروا علىٰ مدىٰ التاريخ وكان لهم الدور الكبير في إغناء المكتبة الإسلامية بكثير من الكتب في شتىٰ العلوم، وقد استغلوا المنبر للسباب والشتام والتكفير بدلًا من أن يكون للدعوة وإصلاح قضايا المجتمع والتي أصبحت قائمة وعجز الكثير عن حلها وهو حال أكثر المسلمين اليوم الذي يتدهور في استقامتهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم، وقد استُغل حديث افتراق الأمة لكل فرقة وها نحن نجد اليوم

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٥٠٣-٥٠٤)، والدارمي (٢/ ٢٤١) وأحمد (٤/ ١٠٢)، وكذا الحاكم (١/ ١٢٨) والآجري في «الشريعة» (١٨) وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ١٠٨/ ٢، ١١٩/ ١) واللالكائي في «شرح السنة» (١/ ٢٣/ ١).

الوهابية وقد سيطروا وتربعوا في العالم الإسلامي بمنهجهم التكفيري ولا شك عندي أن العالم اليوم يحصد نتيجة هذا الفكر في كل أنحائه من فتنة التكفير وتصاعد الأمر إلىٰ القتل واستحلال دماء الأبرياء، وعلىٰ الرغم من اختلاف المحدثين في صحة حديث الفرقة الناجية والراجح تصحيحه، ولكن تمسك به في زماننا الوهابية واجتهدوا لتقويته وتقوية زعمهم بأنهم هم الفرقة الناجية وما سواهم ضال، ومع ذلك لو أخذنا بصحته فإننا لا نقر لهم بما ادعوا وما نذهب إليه هو أن الفرقة الناجية هي الفرقة المسلمة التي وافقت ما كان عليه النبي ﷺ في المعتقد وهي التي يسلم المسلمون من لسانها ويدها.

فقد جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**» متفق عليه[1]. وزاد الترمذي والنسائي: «**والمؤمن من أَمِنَه الناس علىٰ دمائهم وأموالهم**»[2] وزاد البيهقي: «**والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله**»[3].

(١) أخرجه: البخاري في «صحيحه» رقم: ١٠٠، ومسلم في « صحيحه» رقم: ٤٠ بعد ٦٤، والترمذىٰ (٤/ ٦٦١، رقم ٢٥٠٤) وقال: صحيح غريب. والنسائىٰ (٨/ ١٠٦، رقم ٤٩٩٩)، والطبرانىٰ كما فىٰ مجمع الزوائد (١/ ٦٠)، قال الهيثمىٰ (١/ ٦٠): رجاله موثقون، والطبرانىٰ فىٰ الأوسط (٢/ ٣٢٣، رقم ٢١٠٦)، وأبو يعلىٰ (١٣/ ٢٧٤، رقم ٧٢٨٨)، وابن حبان (١١/ ٢٠٣، رقم ٤٨٦٢)، والحاكم (١/ ٥٤، رقم ٢٤)، ابن المبارك (١/ ٢٨٤، رقم ٨٢٦).

(٢) أخرجه: الترمذي ٢٦٢٧، والنسائي في «المجتبىٰ» ٨/ ١٠٤، وأحمد في «مسنده» ٢/ ٣٧٩، وابن حبّان في «صحيحه» رقم: ١٨٠- الإحسان، والحاكم في «المستدرك» ١/ ١٠ وصحّحه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي - رقم: ٢١١٨ من حديث أبي هريرة. وانظر: «الصحيحه» رقم: ٥٤٩.

(٣) أخرجه: البيهقي في «الشعب» رقم: ١١١٢٣، وأحمد ٦/ ٢١، وصحّحه الألباني في «الصحيحة» رقم: ٥٤٩.(١/ ٢٣).

وفي هذا الحديث دليل واضح يؤكد أن المسلم المؤمن الكامل الناجي هو من يسلم المسلمون من لسانه من السباب والشتام علىٰ المنابر والمجالس، ومن يسلم من يده أي لا يحارب الناس ظلمًا ويسعىٰ إلىٰ الكتابة حولهم أو التعدي عليهم بيده واليد هنا القوة واستغلال النفوذ علىٰ ما نرىٰ من كثير في هذه الأيام، ونجد في زيادة الحديث الصحيحة خلاف ما نراه اليوم كثيرًا من فرق وجماعات انتسبت إلىٰ الإسلام والإسلام من أفعالهم بريء يرهبون ويقتلون المسلمين ويشردون ويكفرون بحجة الجهاد والدفاع عن الإسلام وحماية الدين، علينا أن نعرف مفهوم الجهاد الحقيقي، لقد وصل الإسلام اليوم إلىٰ أمريكا وأوروبا دون طلقة رصاصة واحدة، اليوم هذا هو الطريق المتاح لنا، أليس ما يفعله الدعاة المخلصون الغير تابعين لجهات وتوجهات سياسية هو جهاد ودعوة في سبيل الله، نعم إن خيار الفرقة الناجية هم من سلم المسلمون من لسانهم ويدهم وهذا ما كان عليه النبي وأهل بيته الأطهار وصحابته الأخيار والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

الكثير في زماننا يرون الدين من خلال بعض المتلبسين بزيه ومتقلدين شعاراته والمخالفين لأفعاله وكأن الدين انحصر في أولئك المتنطعين فينفرون ويضيقون ويحكمون.

لقد أحزنني حال أمتنا الإسلامية، واعلم تمام العلم أنه لن يكون لنا انتصار بهذا الأسلوب من القتل والحرب والسباب والشتام بغير حق، فلم أجد لهذه الحرب إلا أن نسعىٰ إلىٰ العلم والحوار والتقارب الموافق للكتاب والسنة، مع أن كثيرا من المسلمين مع كثرة ما عقدوا من مؤتمرات التقريب، لم يتقدموا في هذا المجال خطوة واحدة، ولا يزال الاحتقان بينهم مستعرًا علىٰ كافة الأصعدة.

لا ترتقي الأمم إلا بثقافة الحوار الراقي الموافق للكتاب والسُّنَّة ونبذ التنطع ولا تتقدم الشعوب إلا بالبعد عن العصبية القبلية المنتصرة للباطل ولا ينجح العمل إلا بالقلوب المتوحدة علىٰ الحق ولا ينتصر القوم إلا بيد الجماعة

نعم نحن لابد أن نكون كذلك، ومنذ ذلك التاريخ وأنا قد عقدت أن أكتب كتابًا حول الأصول المهمة في بيان عقائد الأمة ولم تكن هي مهمة سهلة، ولكن الله يسرها وسلكت فيه منهج المتكلمين والمحدثين، ولست مبالغًا حينما أقول إن هذا الكتاب يعد الأول من نوعه في طرح القضايا بهذا الشكل في حلها وطريقة فهمها، حيث إن مسائل التوحيد في كثير من الكتب تحتاج لبسط مما يجعل النظر إليها صعب بالنسبة لبعض الناس فالكثير يبتعد عن قراءتها لطول السرد مما يصعب جمع شتاتها أو فهم مضمونها، ولا شك أن طرح القضايا كان الأصل فيه الرجوع إلىٰ أمهات الكتب في هذا العلم لمن سبقني من العلماء وكان لهم الفضل في ذلك من التوضيح وسرد الأدلة.

وقد استفدت كثيرًا من بحوث لم ترىٰ النور كانت مراجع هامة في هذا الكتاب لأخي وقرة عيني المحقق الغائب عن ساحة التأليف والعاكف في خلوة التحقيق أبي المثنىٰ الشريف باسم بن يعقوب الكتبي كانت نواة أساسية لهذا العمل فالله أسال أن يجعل له معي في هذا العمل الأجر والمثوبة في ميزان الحسنات إنه سميع مجيب.

وكان الهدف هو جمع ما تفرق وتبسيط ما تعقد، وتيسير ما ظاهره تعسر، وحرصت كل الحرص أن أقدم للقارئ السهولة، دون تحيز لفرقة معينة، مع

إبداء عقيدتي في بعض القضايا مستدلًا بالأدلة النقلية ذات الدلالة القطعية وبالأدلة العقلية والعلمية القديمة والحديثة، أما ما سكت عنه فيعني توقفي في الأمر والله العالِم.

وأني على يقين إن كان في العمر بقية سأقوم بإعادة طباعته والاستدراك والزيادة على هذه الطبعة لأن علم البشر دأبه النقد والخطأ، والله العاصم.

وكان المنهج علىٰ غرر كتب علم العقائد أصول الدين وفروعه فالأصول ما يعتقده المسلم من أصول الدين كالتوحيد والعدل والنبوة والإمامة والبعث والنشور وتعرف بالأصول الخمسة، إما فروع الدين كالصلاة والصوم وما إلىٰ ذلك من الواجبات.

فالأولىٰ: تسمىٰ أصول الدين، **والثانية** تسمىٰ: فروع الدين، وهذا في أغلب إطلاقات العلماء وإلا فقد يراد بأصول الدين وفروعه غير هذا، وهو ما استقر عليه علمنا، والله العالم.

والله أسال أن يوحد صفوف المسلمين وأن ينصرهم نصر عزيزٍ مقتدر وأن يعز الأمة الإسلامية بدينها فالله نعم المولىٰ ونعم النصير، وأن يجعله في ميزان الحسنات وأن يغفر به الزلات.

راجي عفو ربه ومغفرته

أبو الحسنين

الشريف أنس بن يعقوب الكتبي الحسني

الحجاز – المدينة المنورة – دار المجتبىٰ

الجمعة ١ رجب ١٤٣٧هـ الموافق ٨/ ٤/ ٢٠١٦م

حقائق
وآراء حول
الفِرق الإسلامية

۞ حقائق وآراء حول الفرق الإسلامية ۞

لا شك أن الخلاف بين الفرق الإسلامية كان له دور كبير في انشقاق الصفوف وأصاب الكثير من الضعف والوهن علىٰ أمتنا الإسلامية، وتعود الأسباب في ذلك هو التشدد في الآراء، وتمسك كل فرقة بفكرها دون السماح بالطرح الحي في بداية الأمر، ولعلي أجد الآن أن فكرة التشدد لدىٰ المسلمين اليوم أصبحت في نظرهم هي المسألة الأولىٰ المسببة لفرقتهم وعدم توحيد الشمل، ورغم أن الكثير أدرك خطورة الموقف إلا أنه تظل السياسة تستعين لأهدافها بدعم هذه الخلافات، ولا شك إن كان لكل فرقة قوة في زمن اشتد ساعدهم بقوة الحاكم السياسي.

قال أبو بكر الخوارزمي[١]: ليس من فرق الإسلام فرقة إلا وقد وهبت لأهلها رويحة، ودالت لها دولة، كما اتفق المختار بن عبيد الله للكيسانية، ويزيد بن الوليد للغيلانية، وإبراهيم بن عبيد الله للزيدية، والمأمون لسائر الشيعة، والمعتصم والواثق للمعتزلة، والمتوكل للنواصب والحشوية. فما أشبه اليوم بالأمس، فنجد اليوم تلك المناصرة السياسية للمذاهب من بين سنة وشيعة، والذي يستخدم فيه المنبر الديني، ويوجه الإعلام السياسي أكذوبة الدعوة إلىٰ التقارب، بإقامة المجامع العلمية، والدعوة إلىٰ الحوار من خلال تلك المؤتمرات والحوارات، والتي أطلقت بالشعارات الإعلامية العريضة والتي لم نر منها غير الدعاية والترويج السياسي فقط، وعلىٰ النقيض نجد أن المنبر

(١) تاريخ الجهمية والمعتزلة ص٧٠.

الإعلامي يزيد من فكر التطرف بتوجيه وينتج عنه اليوم التعصب والتحزب وهو الذي حمل سيوف المسلمين علىٰ بعضهم البعض وحلل دمائهم وأعراضهم والله نسأل أن يوحد الكلمة ويجمع الشمل وكل ذلك لا يحدث إلا علىٰ أيدي الشعوب والمسلمين أنفسهم بعيدًا عن السلطات الزائفة المسماة بالدينية التي تتبع للأنظمة السياسية.

وقد كانت الخلافة هي المسألة الأولىٰ التي اشتد نزاع المسلمين فيها وعلىٰ أثرها نشأت ثلاث فرق مخالفة للسواد الأعظم وهي من أكبر الفرق وهي:

١- الشيعة الذين يرون أن الأحق بالخلافة بعد رسول الله ﷺ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

٢- والإباضية القائلون بأن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر بين المسلمين.

٣- والمرجئة وهم الذين كرهوا هذا الخلاف وابتعدوا عن الفريقين وأرجئوا الحكم فيهما لله.

ورغم نشوء الخلاف واستمراره ودخول القوىٰ السياسية إلا أنه كان للمسلمين إنجازات من الفتح ودخل في الإسلام كثير من أصحاب الديانات الأخرىٰ: كاليهودية والنصرانية والمجوسية والدهرية وغيرها، وباختلاط هؤلاء الذين أسلموا من جديد في مجتمع المسلمين اتسعت أفق الحوار فأخذت تظهر أفكار جديدة صيغت من قِبَل أولئك الذين كانوا من قَبل ذلك علىٰ غير دين الإسلام.

وفي وسط هذا الاضطراب الفكري والمبادئ والآراء التي ظهرت عند كل فرقة لنفسها كانت هناك جهود من المخلصين الذين يسعون إلىٰ تبسيط الأمر ورغبتهم في عدم اتساع الخلاف، واهتموا بشرح عقائد المسلمين تمسكًا بالقرآن ومنهج السنة.

ومن أشهرهم الحسن البصري، إلا أنه مع ذلك اتسع علىٰ إثر ذلك من أثر اختلافه مع تلميذه واصل بن عطاء أن نشأت فرقة المعتزلة، وكان هذا في أوائل القرن الثاني الهجري.

وفي أواخر القرن الثالث ظهر الإمام «أبو منصور الماتريدي» واشتغل بالرد علىٰ أصحاب العقائد الباطلة وظهرت منه ومن أتباعه الماتريدية.

كما ظهر الإمام «أبو الحسن الأشعري» وأعلن انفصاله عن المعتزلة وأعلن عمّا هو ليه من الأصول الموافقة للشرع والتي وافق بها الكثير من المسلمين وتبعوه عليها وظهرت بهذا فرقة الأشاعرة ومن هاتين الفرقتين -الأشاعرة والماتريدية- كانت جماعة أهل السنة والجماعة.

هذه مقدمة تاريخية عن حقائق نشأة الفرق وسأكتب كلمات موجزة عن الفرق التي قمت باستعراض أرائها العقائدية في كتابنا والتي هي القائمة في زماننا وبالله التوفيق.



مذهب أهل البيت (العترة)

أهل البيت أو آل البيت مصطلح إسلامي يشير إلىٰ قرابة النبي وأهله، المطهرين المزكين، وهم عترته ﷺ ويقال عترة النبي أو العترة النبوية، والعترة: بكسر العين وسكون التاء، عترة الرجل: ولده وذريته وعقبه من صلبه، وبنو أبيه، عترة رسول الله ﷺ.

والمقصود بالعترة نسل الرجل، إلا أن الحكمة الشرعية اقتضت دخول أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام في معنىٰ عترة الرسول ﷺ، كما جاء في حديث الكساء من الإشارة إليهم بهؤلاء أهل بيتي، وعترتي، وغيرها مما لا يحصىٰ.

وقد قال أبو بكر: علي بن أبي طالب عترة رسول الله ﷺ.

قال أبو بكر فيما أخرجه البيهقي في السنن(١) «علي عترة رسول الله ﷺ».

قال المناوي في الفيض(٢): أي الذين حث علىٰ التمسك بهم.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن وقال في هذا الاسناد بعض من يجهل؛ أقول للحديث شاهد يتقوىٰ به عند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها انها قالت: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةً وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ فَجَاءَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِى فَأَدْخَلَهُ ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَدَخَلَ مَعَهُ ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا ثُمَّ جَاءَ عَلِى فَأَدْخَلَهُ ثُمَّ قَالَ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

(٢) فيض القدير ٤/٥٢ حديث ٩٠٠١، (حم ن ك) عن بريدة بن الحصيب قال الهيثمي في موضع: رجاله موثقون وفي آخر: رجاله ثقات وفي آخر: رجاله رجال الصحيح.

إن عترته أهل بيته وخواص قرابته، الذين جللهم بكسائه، وباهل بهم وحرم عليهم الزكاة والصدقة فكانوا ورثة العلوم الدينية، والأسرار والحكم العلية، والأحكام الشرعية.

روىٰ أبو العباس عن ابن الأعرابي أنه قال[(١)]: العِتْرة ولد الرجل وذُريّته وعقبه من صُلْبه. قال فعترة النبي ﷺ: ولد فاطمة البتول عليها السلام.

وروي عن أبي سعيد قال[(٢)]: العترة ساق الشجرة، قال: وعترة النبي ﷺ عبد المطلب وولده. وقيل: عترته أهل بيته الأقربون، وهم أولاده وعلي وأولاده.

وقال ابن المظفر[(٣)]: عِترة الرجل: أقرباؤه من ولد عمّه. وقيل: عترة النبي ﷺ: أهل بيته، وهم آله الذين حُرّمت عليهم الصدقة المفروضة وهم ذوو القربىٰ الذين لهم خُمُس الخمس المذكور في سورة الأنفال « قال الأزهري» وهذا القول عندي أقربها والله أعلم.

ومما لا شك فيه أن أهل البيت النبوي لهم فضائل عظيمة ومناقب جليلة، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية صريحة في فضل هؤلاء السادات أهل البيت الكرام قرابة وعترة وذرية الرسول ﷺ، السادة القادة إلىٰ الصراط المستقيم عليهم سلام الله أجمعين ومن أظهرها آية التطهير قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ولا شك أن السنة النبوية أظهرت الكثير من الروايات عن الصادق المصدوق والتي تتوافق مع الآيات التي نزلت في أهل البيت أصحاب الكساء، من أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا.

---

(١) تهذيب اللغة ج ١/ ٢٤٢، لسان العرب ٤/ ٥٣٨ مادة (عتر)

(٢) تهذيب اللغة ج ١/ ٢٤٢

(٣) تهذيب اللغة ج ١/ ٢٤٢

لقد اختص الله ﷻ آل البيت النبوي العترة الشريفة بأن جعلهم مصدرًا ومنهلًا صافيًا حقيقيًا لنشر الرسالة المحمدية فهم معدن الحكمة والرسالة وهم مدرسة العلوم الشرعية التي تلقت من خير البريّة، فتسابق إليهم القاصي والداني المسلمون لينهلوا من علومهم العَلِيّة، وانبثقت من مدرستهم المدارس الإسلامية، ولا شك أن مذهب أهل البيت القويم هو الشرع المحمدي وبذلك يكون مذهب أهل البيت الأطهار علىٰ طريق السنة المحمدية، ولا شك أن كل المذاهب الإسلامية مع اختلاف آراءهم لا يختلفون مع هذه المدرسة في أصول العقيدة لأنهم تلقوا علومهم الأولىٰ بالسند إلىٰ النبي الأعظم كما هي تلقته منه، ويردون الأمر إليها في كثير من المسائل كيف لا وأهل البيت هم من كانوا في حوزة رسول الله ﷺ من بداية الرسالة وفي أوقات التشريع، لقد كان لأهل البيت الدور في جمع الأمة الإسلامية في أزمان كثيرة، وإن الارتباط بين الرسالة المحمدية والعترة الشريفة، هو ارتباط غير منقطع إلىٰ أن يشاء لله، لأن العترة الشريفة هم حملة الرسالة المحمدية، هم مصب حقيقي لهذه الدعوة وهم باقون إلىٰ ما شاء الله، وبذلك فإن ينبغي المودة والقربىٰ والولاية فيهم، والأخذ بأقوالهم وأفعالهم وتطبيق في كل ما يوافق الشريعة واتباع هديهم الموروث من الهدي النبوي، وحق علىٰ المسلمين اليوم أن يتمسكوا بالمنهج المحمدي والذي يتسم بالوسطية وهذا المنهج موجود في طريق أهل البيت الأشراف المتبعين للشرع القويم، وها نحن اليوم نجد الاختلافات بين المسلمين باتت هي أساس التفرق في عدم الوحدة وتشدد الفكر وقد أكدت السنة النبوية بما جاء في الحديث النبوي الصحيح ضرورة التمسك بالعترة أهل البيت، فهم سفينة النجاة لمن ركبها علىٰ الحق واتبعها علىٰ الصواب فقد نجا من فتنة الصراع الطائفي.

وقد أخبر رسول الله ﷺ في سنته الشريفة ما جاء زيد بن أرقم رضي الله عنه[١] قال: قال ﷺ: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أثقل من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتىٰ يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**.

وفي هذا الحديث الصحيح إشارات ظاهرة عن الثقلين، والمراد من الثقلين هنا القرآن الكريم الذي هو الثِقْلُ الأكبر، والعترة النبوية الطاهرة أهل البيت الذين هم الثِقْلُ الأصغر، ومن ذلك نحدد أن الثقل الأول هو كتاب الله والثقل الثاني هو عترة النبي أهل بيته.

قال القاضي عياض[٢]: (قِيل سُمِّيَا بذلك؛ لعِظَم أقدارهما، وقيل: لشدَّة الأخْذ بهما).

وقال النوويُّ[٣]: (سمِّيَا ثَقلين؛ لعظمهما، وكبير شأنهما).

---

(١) الحديث باللفظ المذكور رواه الترمذي (١٠/ ١٩٧ تحفة الأحوذي) وقال: حسن غريب.

وهو في صحيح مسلم في موضعين: الأول في ٤/ ١٨٧٣ برقم(٢٤٠٨) ولفظه: قام رسول الله ﷺ يوما فينا خطيبا بماء يدعىٰ خُمًا بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر، يوشك أن يأتي رسول ربي، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله، فيه الهدىٰ والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث علىٰ كتاب الله ورغب فيه ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي».

والثاني في ٤/ ١٨٧٤ برقم (٢٤٠٨) ولفظه: «ألا وإني تارك فيكم ثقلين، أحدهما كتاب الله ﷻ، وهو حبل الله، من اتبعه كان علىٰ الهدىٰ، ومن تركه كان علىٰ ضلالة» ... إلخ.

(٢) «مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار» (١/ ١٣٤).

(٣) «شرح صحيح مسلم» (١٥/ ١٨٠).

وقال البغويُّ[1]: (فجَعلهما ثَقلينِ؛ إعظامًا لقدرهما).

قال أبو العبَّاس القرطبيُّ[2]: وقوله: «وأهل بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي - ثلاثًا»؛ هذه الوصية، وهذا التأكيد العظيم يَقتضي: وجوبَ احترام آل النبيِّ ﷺ وأهل بيته، وإبرارَهم، وتوقيرهم، ومحبَّتهم أي تعظيمَهم، هذا مع ما عُلِم من خصوصيتهم بالنبيِّ ﷺ، وبأنهم جزءٌ منه؛ فإنَّهم أصولُه التي نشأ منها، وفروعُه التي تنشأ عنه).

قال ابن حجر الهيتمي في صواعقه[3]: **تنبيه**: سمىٰ رسول الله القرآن وعترته وهي بالمثناة الفوقية الأهل والنسل والرهط الأدنون ثقلين لأن الثقل كل نفيس خطير مصون وهذان كذلك إذ كل منهما معدن العلوم الدينية والأسرار والحكم العلية والأحكام الشرعية ولذا حث علىٰ الاقتداء والتمسك بهم والتعلم منهم وقال الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت.

وقيل سميا ثقلين لثقل وجوب رعاية حقوقهما ثم الذين وقع الحث عليهم منهم إنما هم العارفون بكتاب الله وسنة رسوله إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب إلىٰ الحوض ويؤيده الخبر السابق ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم.

وتميزوا بذلك لأنهم عن بقية العلماء لأن الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا وشرفهم بالكرامات الباهرة والمزايا المتكاثرة وقد مر بعضها وسيأتي الخبر الذي في قريش تعلموا منهم فإنهم أعلم منكم فإذا ثبت هذا العموم لقريش فأهل البيت منهم أولىٰ منهم بذلك امتازوا عنهم بخصوصيات لا يشاركهم فيها

(١) «تفسير البغوي» (٧/ ٤٤٧).

(٢) «المفهِم لِمَا أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٢٠/ ٥١).

(٣) الصواعق المحرقة ٤٠٢.

بقية قريش، وفي أحاديث الحث علىٰ التمسك بأهل البيت إشارة إلىٰ عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك به إلىٰ يوم القيامة كما أن الكتاب العزيز كذلك ولهذا كانوا أمانا لأهل الأرض كما يأتي ويشهد لذلك الخبر السابق في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي إلىٰ آخره ثم أحق من يتمسك به منهم إمامهم وعالمهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لما قدمناه من مزيد علمه ودقائق مستنبطاته) انتهىٰ.

قال السمهودي في جواهره: سمّاهما ثقلين، لعظمهما وكبر شأنهما.

إلىٰ قوله: إذ الثقل (محركًا) يطلق لغة كما في القاموس علىٰ متاع المسافر وكل نفيس مصون؛ قال -أي صاحب القاموس-: ومنه الحديث: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي» والثقلان: الإنس والجن، والأثقال: كنوز الأرض وموتاها، انتهىٰ.

إذن العِترة تابعةٌ لكتاب الله، وفي كتاب الله الأمرُ باتِّباع سُنَّة النبيِّ ﷺ؛ ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾؛ إذن العترة هم حملة السنة الموافقة لكتاب الله والمكملة لشرائع الدين، فكان إقران العِترة بالسُّنة، لهو شرف للعترة ومكانتهم فرعٌ علىٰ شرف من شرَّفهم الله به، وهو رسول الله ﷺ الذي هو أصل السنة وهنا يتبع الفرع ليصل به إلىٰ الأصل ويرد الفرع إلىٰ الأصل، والتأكيد في الحديث إنهما كالحبل الممدود من السماء إلىٰ الأرض وهو الحبل الباقي إلىٰ يوم القيامة، وبذلك فطالما هناك دنيا قائمة ودين الإسلام يتعبد به فلابد من وجود القران الكريم إلىٰ أن يرفع والعترة النبوية إلىٰ أن تفنىٰ، ولا شك أن في الحديث إشارة إلىٰ تفريط المسلمين وإفراطهم في هذين الثقلين، والاختلاف الظاهر والتخلف عنهما فيوصينا الصادق المصدوق

أن حال الأمة لا يكون علىٰ خير إلا بالتمسك بالثقلين الكتاب والعترة، ولا سيما علمه ﷺ أن الأمة ستختلف من بعده إلىٰ فرق وطوائف كثيرة بعدما فرط كثير من الأمة بأمرهم وسعىٰ الحاكم السياسي في عصور كثيرة إلىٰ تغييب دورهم.

أقول: والذي نذهب إليه أن عترته صلوات ربي وسلامه عليه قطعًا في عليٍّ، وفاطمة، وولديهما الحسنين، وكل من أجمع عليهم سواد أهل البيت واختارهم أهل العقد والحل وجمهور علماء وفقهاء الأمة، من ولد السبطين عليهما السلام، وهم الذين حث ووجب علينا التمسك بهم والتشيع لهم.



۞ أهل السنة ۞

المعتزلة - المرجئة - الجبرية - الأشاعرة - الماتريدية - الصوفية - الظاهرية - أهل الحديث السلفية (الوهابية) - الإباضية.

○ المعتزلة ○

فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري، اعتمدت المعتزلة علىٰ العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه علىٰ النقل، وقالوا بأنّ العقل والفطرة السليمة قادران علىٰ تمييز الحلال من الحرام بشكل تلقائي، وأساس نشأتهم اختلاف واصل ابن عطاء(١) مع أستاذه الحسن البصري في حكم مرتكب الكبيرة، وتبعه عمرو بن عبيد في رأيه.

وكان سبب الخلاف حينما دخل شخص علىٰ الحسن البصري فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرةُ عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العمل علىٰ مذهبهم ليس ركنًا من الإيمان

(١) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء المخزومي (٨٠-١٣١ هـ = ٧٠٠-٧٤٨ م)، الملقب بالغزال الألثغ، كان تلميذًا للحسن البصري، من أئمة البلغاء والمتكلمين وهو مؤسس فرقة المعتزلة الإسلامية. وهبه الله من فطانة وفصاحة وحسن تصرف في القول كان صاحب عاهة في نطق حرف الراء، وكان يحسن التأتي لهذا العيب المحرج في النطق، فيجانب لفظ الراء إلىٰ سواه من الحروف، فيجعل البر قمحًا، والفراش مضجعًا، والمطر غيثًا، والحفر نبشًا، توفي في المدينة المنورة.

ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادًا فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول: صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا ولا كافر مطلقًا بل هو في منزلة بين المنزلتين: لا مؤمن ولا كافر ثم قام واعتزل إلىٰ أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به علىٰ جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن: اعتزل عنا واصل فسمي هو وأصحابه: معتزلة[(١)].

ومبدأ أمرهم كان في البصرة، إلا أن مذهبهم انتشر في العراق واعتنقه الكثير في ذلك الوقت حتىٰ إن بعض خلفاء بني أمية اعتنقوه وبعض الخلفاء العباسيين، وقد شهدت سويقة المدينة آنذاك مبايعة واصل بن عطاء إمام المعتزلة، وانتشرت أفكارهم في مختلف مناطق الدولة الإسلامية كخراسان وترمذ واليمن والجزيرة العربية والكوفة وأرمينيا إضافة إلىٰ بغداد.

ويذكر القاسمي في تاريخه عن المعتزلة ما نصه: هذه الفرقة كفرقة أهل السنة والجماعة من أعظم الفرق رجالًا، وأكثرها تابعًا، فإن شيعة العراق علىٰ الإطلاق معتزلة، وكذلك شيعة الأقطار الهندية والشامية والبلاد الفارسية، ومثلهم الزيدية في اليمن[(٢)].

والكثير حينما نتكلم عمّن اعتنق مذهب الاعتزال يخلط في ذلك الأمر من حيث المذهب فالاعتزال مذهب عقائدي أصولي لا مذهب فقهي في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية، أي أنهم اعتنقوا مذهب المعتزلة في الأصول.

---

(١) الملل والنحل ١/ ٦٢.

(٢) تاريخ الجهمية والمعتزلة ص ٥٦.

لقد قام أساس فكر الاعتزال علىٰ الاهتمام بعقيدتهم، ولكن تم تطويرها فيما بعد، ولم يقف عند حدود تلك المسألة، بل تجاوزها ليشكل منظومة من العقائد والأفكار، والتي في مقدمتها الأصول الخمسة الشهيرة عندهم بهذا الاسم والتي لا يعدّونه معتزليًا من لم يقل بها ودان بها، وهي مرتّبة بحسب أهميتها عندهم علىٰ هذا النحو: التوحيد، العدل، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان للمعتزلة آراء كلامية ومبادئ من أهمها عندهم:

١- القول بالمنزلة بين المنزلتين فمرتكب الكبيرة الذي مات ولم يتب فهو عند المعتزلة ليس مؤمنًا ولا كافرًا وإنما فاسق وبذلك اعتبروه وسطًا بين الإيمان والكفر أي دون المؤمن وخير من الكافر لا يرتفع إلىٰ مرتبة الإيمان ولا يهوىٰ إلىٰ حضيض الكفر.

٢- القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه بقدرة أودعها الله فيه، والعياذ بالله من هذا الفساد.

٣- قولهم بما يظنونه «التوحيد»، فقد نفوا صفات الله تعالىٰ القديمة حتىٰ لا يشبه المخلوقين، ودعاهم إلىٰ هذا قيام جماعة تجسد الإله وتشبهه بالحوادث، تعالىٰ الله عن ذلك.

٤- قولهم بأن العقل يحكم بحسن الأفعال وقبحها.

٥- قولهم بخلق القرآن وعدم رؤية الله في الآخرة.

حقائق حول المعتزلة:

تعد المعتزلة من أعظم المدارس الكلامية التي تميزت بالعقل، فقد تمكنوا بفكرهم إعطاء العقل القسط الأوفر، الدراسة الفلسفية، ولم يكن المعتزلة أصحاب هوى كما يراهم الكثير من خصومهم والحقيقة أن كل من أراد الخوض في مسالة الكلام وعلم العقائد، يستند علىٰ أقوالهم وآرائهم والتي تناقلت في كتب خصومهم كانت هي النواة التي ينطلق منها كل من أراد أن يؤلف أو يبحث في علم العقائد، لقد جعل المعتزلة لعلم الكلام هيبة، فأصبح كل من صال في علم الكلام من بعدهم عيال عليهم، ولكن المؤسف أن خصومهم الذين لم يستطيعوا أن يحاوروهم لقوة حجتهم، أدخلوا يد الخيانة التي سعت إلىٰ لأضاعت فكرهم وآثارهم العظيمة، فلم يبقىٰ بين أيدينا من آثارهم إلا الشيء القليل، ورغم قلة القليل إلا أنه يعد هذا القليل المتفرق في كتب خصومهم أو في من تتبع آرائهم بأنصاف، فهو مدرسة صعب علىٰ الكثير الوصول إلىٰ مستوىٰ فلسفتهم، والنزول إلىٰ مضمارهم.

والحقيقة أن نجم المعتزلة قد سطع في أوائل عصر العباسيين وبالأخص في عصر أبي جعفر المنصور، وحتىٰ في عهد المأمون كان لرجال المعتزلة اتصال ببلاطه، وكانت لآرائهم صولات وجولات في الساحة الفكرية، وأصبحت لهم مدرستان إحداهما بالبصرة والثانية ببغداد وقام بين المدرستين جدال وخلاف في كثير من المسائل، ولعل الفتنة الشهيرة والتي عرفت بفتنة أحمد أو فتنة القول بخلق القرآن وموقف الإمام أحمد هو ومن معه من العلماء، ممن اشتدت شوكتهم في عهد المتوكل العباسي يعد الضربة الأولىٰ التي أذنت بأُفُول نجم فرقة المعتزلة، وإقصائهم عن الساحة الفكرية، ولقد كان لهذه الأحداث أثر كبير

في هز شوكتهم وتشتتهم بفضل القوة السياسية حتىٰ بلغوا إلىٰ درجة من الضعف والانحلال، وأخذت خطوطهم العريضة تختفي وبذلك انطوىٰ تراث المعتزلة لقرون ولم يعرف فكرهم وحقيقته بين الناس بعدد ذلك سوىٰ من خلال كتابات آخرين سواء ممَّن أشاروا إليهم عبورًا أو من عارضوهم، وهنا نؤكد أن المعتزلة لم ينقرضوا كفكر بل أنهم تفتتوا كفرقة ولم يصبحوا كما صنفهم خصومهم بالانقراض بل إن فكرهم باقٍ علىٰ مر العصور حتىٰ يومنا هذا، ومن أنكر ذلك فإنه إنما يتبع هواه من العصبية نحوهم أو لعله لا علم له في مجال الفرق اليوم، ولا ينكر أن آثارهم الفكرية قد غُيِّبت، وأعتبره خصومهم من جرائم التاريخ التي لابد من القضاء عليها، ولعمر الله أنها ليست الحقيقة، فأن المتأخرون المعتدلون من أصحاب الفكر الإسلامي ومعهم الكثير من المستشرقون اهتموا بدراسة فكرهم الذي يكمن في حرية الإنسان وأفعاله، كان سببا رئيسيًا لرجوع فكرهم، وذلك بعدما اكتشفوا أن فكر المعتزلة كان موكبًا لعلم العقائد والأصول في كتب العقائد بل إنه منتشر ونواة لكثير من الفرق الإسلامية الموجودة اليوم كالاشاعرة والماتريدية والشيعة قاطبة والإباضية، وها نحن اليوم وبفضل الله نجد حقيقة هذا الفكر باكتشاف آثارهم وانتشار مؤلفاتهم في المكتبة الإسلامية وطباعتها وبذلك نبين حقيقة فكر إسلامي نقي كان له الدور الكبير في علم العقائد واجه الكثير من الاتهامات فكانت في غير مكانها.



○ المرجئة[1] ○

من أوائل الفرق التي تنتسب إلىٰ الإسلام في الظهور، وقد احتلت مكانًا واسعًا في أذهان الناس وفي وقت ظهورها شغلت آنذاك اهتمام العلماء بأخبارهم وبيان معتقداتهم، ووجد لهم مدافعون عنهم ومؤيدون لفكرتهم دفاعًا قد يصل إلىٰ درجة التعصب ولَيّ أعناق النصوص لتوافق بعد تحريف فهمها ما يذهبون إليه، وبين قلة معجب بأدلتهم وبين داحض لها، قد ركز المدافعون جهودهم لتقريب وجهات النظر بين القائلين بالإرجاء وبين مخالفيهم فيه لا سيما أنهم خالفوا رأي الخوارج وكذلك أهل السنة في مرتكب الكبيرة وغيرها من الأمور العقدية، وقالوا بأن كل من آمن بوحدانية الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر، لأن الحكم عليه موكول إلىٰ الله تعالىٰ وحده يوم القيامة مهما كانت الذنوب التي اقترفها، وهم يستندون في اعتقادهم إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾، والعقيدة الأساسية عندهم عدم تكفير أي إنسان أيا كان ما دام قد اعتنق الإسلام ونطق بالشهادتين، مهما ارتكب من المعاصي، تاركين الفصل في أمره إلىٰ الله تعالىٰ وحده.

فكانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

وتعود أسباب نشوء فرقة المرجئة، أنه لما انقسم أتباع الإمام علي عليه السلام، بسبب رضائه بالتحكيم إلىٰ خوارج وشيعة وكان الخوارج يكفرون عليًا ومعاوية والقائلين بالتحكيم، كان هذا سببًا في ظهور جماعة كرهوا هذا النزاع وسلكوا

(١) الفرق بين الفرق (١٩٠- ١٩٥)، والملل والنِّحل للشهرستاني ص (١٣٩-١٤٦)، مقالات الإسلاميين ١/ ٢١٣.

طريقًا خاصًا حتىٰ تنجلي الفكرة فقالوا بإيمان الجميع، وإن كان بعضهم مصيبًا وبعضهم مخطئًا وقالوا: حيث إننا لا نستطيع تعيين المصيب والمخطئ فلنرجئ أمرهم إلىٰ الله لأنهم جميعًا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وسميت هذه الجماعة بالمرجئة، ومشاهيرهم: الجهم بن صفوان، وأبو الحسين الصالحي، ويونس السمري، وأبو ثوبان، والحسين بن محمد النجار، وغيلان، ومحمد بن شبيب، وأبو معاذ التومني، وبشر المريسي، ومحمد بن كرام، ومقاتل ابن سليمان المشبه لله ﷻ بخلقه ومثله الجواربي وهما من غلاة المشبهة، وقد نسب بعض المؤرخين إلىٰ الحسن بن محمد بن الحنفية ولم يثبت ذلك بمفهوم الإرجاء الذي تبعه مجموعة من الذين ذكرنا أسماءهم وكانت آرائهم صريحة في ذلك، ولم تتطور اجتهادات المرجئة في آرائهم الكلامية إلا ما تدرجوا في بحوثهم وتصريحهم فعرفوا الإيمان بأنه معرفة الله ورسوله ثم تغالت هذه الطائفة وقالت: الإيمان: الاعتقاد بالقلب، والعمل لا أثر له مطلقًا حتىٰ قالوا: العبارة المشهورة لهم: **(لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة)**، فمجرد التصديق بالشيء عندهم يعتبر إيمانًا به ظاهرًا وباطنًا، بغض النظر عن العمل علىٰ حسب منهجهم، فإذا تلفظ الشخص عندهم بكلمة الإخلاص -لا إله إلا الله- أصبح بمجرد تلفظه إضافة إلىٰ تصديقه مؤمنًا كامل الإيمان ظاهرًا وباطنًا، ولم يستمر سطوع نجمهم لفترة طويلة من الزمن، فإن فكرهم قد غاب مع استقرار الأوضاع السياسية بسيطرة الأمويين علىٰ الحكم وظهور دولة بني العباس وانشقاق صفوف المسلمين، وكان لهذا دور في عدم ازدياد أتباعهم، وفرقهم كثرة وقت ظهورهم:

مرجئة السنة: وهؤلاء أخروا العمل عن حقيقة الإيمان.

مرجئة الجبرية: وهم الجهمية أتباع جهم بن صفوان، وهم الذين اكتفوا بالمعرفة القلبية وأن المعاصي لا أثر لها في الإيمان، وأن الإقرار والعمل ليسا من الإيمان.

مرجئة القدرية: الذين تزعمهم غيلان الدمشقي، وهم الغيلانية.

مرجئة خالصة: وهم فرق اختلف العلماء في عدهم لها.

مرجئة الكرامية: أصحاب محمد بن كرام، وهم الذين يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب.

مرجئة الخوارج: الشبيبية وبعض فرق الصفرية الذين توقفوا في حكم مرتكب الكبيرة.

ورغم كثرة فرقهم إلا أنهم اندثروا كفرقة واحدة أو أن تعدد آرائهم وتطورها جعل الكثير ممن أخذ بأقوالهم لا يصرح بأنه أخذ بآرائهم، وهذا ما يؤكد عدم اندثار فكرهم، بل إنه قد اختلف كثيرًا في نسبة الإرجاء مؤخرًا، فأصبح لبعض الذين يلبسون زيّ العلماء في العصور المتأخرة بعض التوافق مع آرائهم ولكن دون الانتساب إليهم كفرقة يشار إليها ضمن الفرق الإسلامية المعاصرة.



○ الجبرية ○

الجبرية وهم فرقة إسلامية وزعيمهم جهم بن صفوان وهو من خراسان ومن الموالي الذين أقاموا بالكوفة، وقد نشأت منه ومن أتباعه فرقة الجبرية، القائلين بأن الإنسان مجبور كالريشة في الهواء.

فاندمجت آرائها ضمن كثير من الفرق الإسلامية، ولكن بتطوير النظرية التي طرحوها، وهم كل من قال بأن الخلق مجبورون علىٰ أفعالهم، وليس لهم حرية ولا اختيار، وسواء أكانوا لا يثبتون للعبد فعلًا ولا قدرة علىٰ الفعل أصلًا، أم كانوا يثبتون قدرة غير مؤثرة[1]. أي «إنَّ العبدَ مجبورٌ علىٰ فعلِه، وليس له فعلٌ ولا اختيارٌ، وإنما هو كالريشةِ التي تحركُها الريحُ بغير اختيارها».

وأساس ما يعتقدون به بأن الله تعالىٰ أجبر العباد علىٰ ما يفعلون من خير أو شر، وهذا مخالف لمعتقد أهل السنة والجماعة، ولا تزال عقيدتهم هم وسلفهم يقولون « إن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالىٰ وهي كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الأشجار وإضافتها إلىٰ الخلق مجاز».

(١) الملل والنحل ١/ ٨٥، والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ٤٢.

مبادئ الجبرية:

القول بنفي صفات الله تعالىٰ حتىٰ لا يشبه الناس، وخلق القرآن وإنكار رؤية الله في الآخرة وفناء الجنة والنار بعد نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.
وقد نهض كثير من العلماء للرد عليهم لأمرين:

١- مسألة الجبر، لأنها تدعو إلىٰ التعطيل وترك العمل والركون إلىٰ القدر، لأن الإنسان لا عمل له ولا قدرة.

٢- ومسألة المغالاة في تأويل الآيات التي تثبت صفات الله بما يخالف النقل والعقل.



○ الظاهرية[١] ○

فرقة من الفرق الإسلامية، والتي ظهرت في منتصف القرن الثالث الهجري ونشأة في بغداد، علىٰ يد داود بن علي الأصفهاني الظاهري[٢]، وحقيقة الظاهرية مذهب فقهي، في بداية الأمر ونستطيع أن نقول أنه من الطبيعي أن يكون هنالك أصول فكرية عقائدية، وقد أسس مذهبًا في الفروع، فالمصدر الأول عنده في الفقه هو النصوص بلا رأي تنادي الظاهرية بالتمسك وفق رؤيتها بالقرآن الذي هو كلام الله وسنة الرسول وذلك بحسب الدلالة المتيقنة منهما وإجماع الصحابة، وطرح كل ما عدا ذلك من الأمور التي تعيرها ظنية (كالرأي والقياس واستحسان ومصالح مرسلة وسد الذرائع وشرع من قبلنا)، فالظاهرية تسعىٰ لتقرير مراد الله من العباد في إتباع البراهين وهي الأدلة الثابتة من كتاب الله والسنة وإجماع الصحابة، بعيدًا عن الخلافات، فهم يرون العمل بالقطعيات المتيقنات وترك الظنون والآراء (وأجاز بعضهم الأخذ بغالب الظن) لأن القطعيات هي ما أجمعت عليه الأمة وهو لا يفي أبدًا في إثبات الأدلة من السنن الثابتة، وكثيرًا ما نجد أن الظاهرية آرائهم الفقهية هي الأصل في مذهبهم حتىٰ

---

(١) بحوث في الملل في النحل ٣/ ١٤١-١٤٦، تاريخ الفلسفة الإسلامية ص٤٣٠، الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقة ٢/ ٣٢.

(٢) داود بن علي الظاهري بن خلف، البغدادي المعروف بالأصبهاني (٢٠١-٢٧٠ هـ - ٨١٦-٨٨٤ م)، أبو سليمان، الملقب بالظاهري: أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام، أصبهانيّ الأصل، ومولده في الكوفة، سكن بغداد، وانتهت إليه رياسة العلم فيها، قال أبو محمد ابن حزم: إنما عرف بالأصبهاني، لأن أمه أصبهانية، وكان أبوه حنفي المذهب، وهو مؤسس الطائفة الظاهرية، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة وإعراضها عن التأويل والرأي والقياس. وكان داود أول من جهر بهذا القول.

ظهر ابن حزم الأندلسي الذي تزعم الظاهرية وأظهر شأنهم وأمرهم وكان له دور كبير في إعادة المذهب إلىٰ الساحة وألف حوله كتبًا ورسائل نالت شهرة واحتلت مكانًا في المكتبة الإسلامية، فأصبح يشار إلىٰ الظاهرية مرة أخرىٰ بعد أُفول نجمهم، ولمسعىٰ ابن حزم في التجديد للمذهب، فأصبح اسمه مرتبطًا بالمذهب أكثر من مؤسسه، والحقيقة أن ابن حزم قد انتقل بكثير من جوانب المذاهب الفقهية وهي تعد الفروع إلىٰ الأصول، وأخذ الاستدلال العقلي حتىٰ إنه وافق المعتزلة في بعض مسائل العقيدة، وخالط مذهبه بأقوال الفلاسفة في مسألة صفات الله بما صرفه عن موافقة أهل الحديث في معاني مذهبهم.

وقد كان لبعض علماء الأشاعرة الكثير من المخالفات علىٰ ابن حزم ومسلكه، مما جعل اختلاف الباحثين فيهم اختلافًا شديدًا في منهجهم وعقائدهم وفقههم والحقيقة أن جهود ابن حزم وآراءه غيّرت الكثير من المفاهيم حول الظاهرية.

ولا يزال حتىٰ يومنا من يتبعون المذهب الظاهري، ولهم مشاركات في فتاوىٰ الفقه إلا إن نشاطهم يقتصر علىٰ آرائهم المطروحة في مؤلفاتهم ولا نستطيع أن نصفهم بالأكثرية أو اعتبارهم فرقة تنتشر في الأقطار الإسلامية بل إنهم يمثلون حملة فكر فقط.



○ الأشاعرة ○

هي فرقة إسلامية عظيمة وهم أكثر الفرق انتشارًا في العالم الإسلامي منذ القديم وحتىٰ يومنا هذا في حين يغلب علىٰ الأشاعرة المذهب الفقهي الشافعي والمالكي، ويعتبر الأشاعرة والماتريدية، أنهما الفريقان الرئيسان لأهل السنة والجماعة إلىٰ جانب فضلاء الحنابلة، والداعيان الأشعري والماتريدي كانا في عصر واحد، وليس بينهما صلة فالإمام الأشعري كان يكافح الاعتزال ويناصر السنة في العراق متقلدًا مذهب الشافعي في الفقه، والماتريدي ينازل المعتزلة في أقصىٰ الشرق الإسلامي متقلدًا رأي الأمام أبي حنيفة في الفقه.

قال القاسمي[(١)]: وأما السواد الأعظم في معظم البلاد الإسلامية فعلىٰ مذهب الأشعري.

والأشاعرة هم أتباع أبي الحسن الأشعري[(٢)]، ومن سلك طريقه من تلك العقائد المثبتة في كتب أهل السنة المتداولة، وحقيقة الأشعري أنه كان علىٰ مذهب الاعتزال، فكان الأمر قد انقلب علىٰ المعتزلة في عهد المتوكل العباسي، وسلم زمام السلطة الدينية لأصحاب الحديث، واستمرت الضغوط

---

(١) تاريخ الجهمية والمعتزلة ص٥٧.

(٢) علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن الاشعري، من نسل الصحابي أبي موسىٰ الاشعري (٢٦٠-٣٢٤ هـ = ٨٧٤-٩٣٦ م) مؤسس مذهب الاشاعرة.
كان من الائمة المتكلمين المجتهدين، مولده البصرة، وهو المنظر الأول لمواقف أهل السنة ومؤسس المذهب المعروف باسمه، بعد أن انشقاقه عن المعتزلة إثر خلاف بينه وبين شيخه، كان يريد أن يقيم مذهبا وسطا يجمع بين منهج المعتزلة العقلاني والفكر السني المعتمد علىٰ الرواية والحديث، وكانت وفاته في بغداد، تجاوزت مؤلفاته الثلاثمائة مصنف.

السياسية عليهم حتىٰ عهد المقتدر العباسي، وهي الفترة التي أظهر فيها أبو الحسن الأشعري الرجوع عن الاعتزال، والانخراط في سلك أهل الحديث بغية التقليل من الضغوط المتزايدة التي كانت تمارس من قبل الحكم العباسي علىٰ أصحاب الاعتزال.

كان لظهور الأشاعرة نقطة تحول في تاريخ أهل السنة والجماعة التي تدعمت بنيتها العقدية بالأساليب الكلامية المتعددة، فأثبت أبو الحسن الأشعري بهذا أن تغيير المقدمات المنطقية مع استخدام نفس الأدوات التحليلية المعرفية يمكن أن يؤدي إلىٰ نتائج مختلفة، إلىٰ جانب نصوص الكتاب والسنّة، فإن الأشاعرة استخدموا العقل في عدد من الحالات في توضيح بعض مسائل العقيدة، وهناك حالات استخدم فيها عدد من علماء الأشاعرة التأويل لشرح بعض ألفاظ القرآن الموهمة للتشبيه، وهذا ما يرفضه أدعياء السلفية وينتقدونهم عليه وتكون نقطة اختلاف بينهم فلا يعدهم أهل الحديث منهم.



○ الماتريدية ○

الماتريدية هي فرقة كلامية عظمية، وهي من أكثر الفرق انتشارًا في العالم الإسلامي حتىٰ يومنا هذا وغالب علماء الماتريدية يتبعون المذهب الفقهي الحنفي، ويعتبر الأشاعرة والماتريدية الفريقان الرئيسان لأهل السنة والجماعة، ينتشرون في كثير البلدان وبالأخص في بلاد ما وراء النهر وتركيا والهند وغيرها من البلدان، وزعيمها ومؤسسها وإمامهم هو أبو منصور محمّد بن محمّد بن محمود الماتريدي السمرقندي(١) والذي أرسىٰ قواعده، وأوضح براهينه، بمنهجه الموروث من ابن كلاب في العقائد والكلام أما في الفقه ومبادئه فقد كان علىٰ منهج الإمام أبي حنيفة كما ذكرنا، وهو من تبنىٰ مناضلة المعتزلة في شرق المحيط الإسلامي (ما وراء النّهر)، متقلّدًا مذهب الإمام أبي حنيفة في الفقه فكانت البصرة آنذاك مجمع علم العقائد، كما كانت أرض خراسان مأوىٰ أهل الحديث ومهبطهم، فكانت المعتزلة بعيدة عن شرق المحيط الإسلامي، ولكن وصلت أمواج منهجهم إلىٰ تلك الديار عن طريق اختلاف العلماء بين العراق وخراسان، وعقيدتهم تبنىٰ علىٰ الأدلة العقلية مسترشدة بالأدلة النقلية،

---

(١) هو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي، والماتريدي نسبة إلىٰ ماتريد، وهي محلة بسمرقند فيما وراء النهر، من أئمة علماء الكلام، وإليه ينتسب الماتردية، وهو إمام المدرسة الماتردية التي يتبعها غالبية أتباع المذهب الحنفي في العقيدة، ولد في بيت من البيوت التي شغفت بالعلوم الدينية، فنشأ وتعلم علوم الدين منذ صغره، ولم تذكر المراجع سنة ميلاده بالتحديد والراجح عندي إنه ولد في عهد المتوكل الخليفة العباسي، وإنه يتقدم علىٰ الإمام الحسن الأشعري ببضع وعشرين سنة، كان له العديد من المؤلفات، منها ما كان في علم الكلام والعقيدة، ومنها ما كان في أصول الفقه، ومنها ما كان في تأويل القرءان، توفي بسمرقند سنة ٣٣٣هـ وقبره بها.

وكانوا يسيرون علىٰ طريقة السلف الصالح في فهم العقائد، وقد جعلوا القرآن الكريم المنهل العذب الذي يلجأون إليه في تعرف عقائدهم، فكانوا يفهمون من الآيات القرآنية مسائل العقائد وما أشبه عليهم منها حاولوا فهمه بما توحيه أساليب اللغة ولا تنكره العقول فإن تعذر عليهم توقفوا وفوضوا.

ولم يكن بين الأشاعرة والماتريدية خلاف إلا في أمور يسيرة كمفهوم الإيمان والإسلام ومعنىٰ القضاء والقدر وغير ذلك مما يقع عادة بين أهل الطريقة الواحدة ولا يقتضي تخالفًا جوهريًا في المذهب.



○ الصوفية (أهل السنة والجماعة) ○

الصوفية أو التصوف وفق الرؤية الإسلامية ليست مذهبًا، وإنما هي منهج السلف من أهل السنة منذ عهد النبوة انتشرت بين المسلمين وهي تقوم علىٰ الكتاب والسنة، المتصوفة هم أهل السلف الذين يستمدون أصوله وفروعه من القرآن والسنة النبوية، واجتهاد الصحابة والتابعيين والعلماء فيما لم يرد فيه نص، فهو علم كعلم الفقه له مذاهبه ومدارسه ومجتهديه وأئمته الذين شيدوا أركانه وقواعده كغيره من العلوم جيلًا بعد جيل حتىٰ جعلوه علما سموه بـعلم التصوف، أو علم التزكية، أو علم الأخلاق، فألفوا فيه الكتب الكثيرة بينوا فيها أصوله وفروعه وقواعده وتطور التصوف في القرن الثالث الهجري، إلىٰ يومنا هذا، وتعود نسبة التصوف إلىٰ أهل الصُفة: حيث سموا بذلك نسبة إلىٰ أهل الصفة وكان لقبًا أعطي لبعض فقراء المسلمين في عهد الرسول ﷺ ممن لم تكن لهم بيوت يؤون إليها فأمر الرسول ﷺ ببناء فناء ملحق بالمسجد من أجلهم، وهذا ما يؤكد حقيقة ارتباط ووجود المتصوفة وربط التصوف بعصر النبي ﷺ وأنه أقر النواة الصوفية الأولىٰ، والتصوف أحد الأركان الثلاثة (الإسلام، الإيمان، الإحسان)، فمثلما اهتمت العقيدة بالإيمان، أهتم الفقه بتعاليم شريعة الإسلام، فإن التصوف اهتم بتحقيق مقام الإحسان، (وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وهو منهج أو طريق يسلكه العبد للوصول إلىٰ الله، أي الوصول إلىٰ معرفته والعلم به، وذلك عن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات، وتربية النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة، وتحليته بالأخلاق الحسنة، وبالانكسار إلىٰ الله والزهد والتجرد من الترف، ويذهب غالب المتصوفة المتقدمين والمتأخرين إلىٰ أن الصوفي منسوب إلىٰ لبس

الصوف، كما يرون أن لبس الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المساكين المتنسكين.

قال الحسن البصري رضي الله عنه[١]: لقد أدركت سبعين بدريًا كان لباسهم الصوف.

يقول القشيري[٢]: «اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يَتَسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية عَلَم سوىٰ صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقيل لهم «الصحابة»، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين «الزهاد» و«العُبَّاد».

والحقيقة أن السؤال الذي يطرح هنا هو لماذا لم تنتشر الدعوة إلىٰ التصوف في صدر الإسلام، وعدم ظهور اسم التصوف إلا بعد عهد الصحابة والتابعين؟

لم يكن المسلمون في حاجة في العصر الأول، لأن أهل ذلك العصر من الصحابة والتابعين كانوا صوفيين وإن لم يتسموا باسم المتصوفين صوفيين فعلًا وإن لم يكونوا كذلك اسمًا، كانوا أهل تقوىٰ وورع، وأرباب مجاهدة وإقبال علىٰ العبادة بطبيعتهم، وذلك بحكم قرب اتصالهم برسول الله ﷺ، يتحلون بالزهد وملازمة العبودية، حتىٰ استنارت بصائرهم، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم، وفاضت الأسرار علىٰ جوانحهم، وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين، وهذه العصور الثلاثة كانت أزهىٰ عصور الإسلام وخيرها علىٰ الإطلاق، وقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «**خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه**»[٣]، «**خير الناس قرني هذا ثم الذين يلونهم** . .».

---

(١) التَّصَوُّف المنْشَأ وَالمَصَادِر - إحسان إلهي ظهير ص٢٤.

(٢) الرسالة القشيرية، تأليف: أبو قاسم القشيري، ص٤٨-٥٠.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٠٩) ومسلم (٢٥٣٣).

قال الإمام الشافعي[١]: حبب إليّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف.

فبعد عهد الصحابة والتابعين، دخل في دين الإسلام أُمم شتىٰ وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم، وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص وغيرهم، ثم ظهرت البدعة، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادًا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله ﷻ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم «التصوف» واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة.

وذكر المسعودي في مروجه[٢]: حاكيًا عن يحيىٰ بن أكثم فقال: «إن المأمون يومًا لجالس، إذ دخل عليه علي بن صالح الحاجب، فقال: يا أمير المؤمنين، رجل واقفٌ بالباب، عليه ثياب بيض غلاظ، يطلب الدخول للمناظرة، فعلمت أنه بعض الصوفية».

قال الكندي في ولاته[٣]: «إنه ظهر بالإسكندرية طائفة يسمَّوْن بالصوفية يأمرون بالمعروف»

ولابن خلدون كلام نفيس في تاريخ نشأة التصوف[٤]: «من العلوم الشرعية الحادثة في الملَّة؛ وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف علىٰ

(١) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث علىٰ ألسنة الناس، تأليف: الإمام العجلوني، ج١ ص٣٤١.

(٢) مروج الذهب باب مناظرة المأمون للفقهاء ٢/ ٤٤.

(٣) ولاة مصر «في حوادث سنة المائتين» ص١٩٣.

(٤) مقدمة ابن خلدون علم التصوف ص ٣٢٩.

العبادة، والانقطاع إلىٰ الله تعالىٰ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عامًا في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال علىٰ الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلىٰ مخالطة الدنيا، اختص المقبلون علىٰ العبادة باسم الصوفية).

قال خليفة في كشفه(١): أن أول من سمي بالصوفي «أبو هاشم الصوفي» المتوفىٰ سنة خمسين ومئة.

ويعضد الغماري في انتصاره(٢): ما ذكره ابن خلدون في تاريخ ظهور اسم التصوف بما ذكره الكِنْدي لاسيما وأنه من أهل القرن الرابع، وهو بذلك يؤكد قدم التصوف في المجتمع الإسلامي.

وقد بلغ التصوف ذروته في نهاية القرن الثالث وواصلت الصوفية انتشارها في الحجاز والعراق والشام ومصر والمغرب وبلاد فارس وتركيا وبلاد ما وراء النهر وظهرت من خلالها الطرق الصوفية، ومما لا شك أن المتصوفة الأساس لديهم الاستقامة في العقيدة، والإكثار من دعاوىٰ التزام السنة ونهج السلف، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال علىٰ الله بالعبودية، وبالقلب والهمة، مما دعا أرباب التصوف والزهد إلىٰ أن يعملوا تدوين علم التصوف، ونشر فكرهم بين أوساط المجتمع، التركيز علىٰ شريحة البسطاء وهنا يتضح إثبات شرفه وجلاله وفضله علىٰ سائر العلوم.

---

(١) كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، تأليف: حاجي خليفة، ج١، ص٤١٤.
(٢) الانتصار لطريق الصوفية، تأليف: محمد صديق الغماري، ص١٧-١٨.

وعقيدة المتصوفة حسب مبادئ عقيدة أهل السنة الأشاعرة التي انتشرت وسادت كمذهب عقائدي رسمي لأهل السنة والجماعة، بل وتبناها جمهور علماء أهل السنة والجماعة كالإمام النووي، والإمام السيوطي، والسبكي، وابن عابدين، وغيرهم الكثير فإن كتب المتصوفة قديمًا وحديثًا لا تخرج عن عقيدة أهل السنة سواءً أكانت أشعرية أو ماتريدية، والتاريخ الإسلامي زاخر بعلماء مسلمين انتسبوا للتصوف مثل الغزالي، والعز بن عبد السلام، وابن عربي، والسلاهندي، وابن عطاء السكندري، والكلاباذي، وأبي طالب المكي، والشعراني، والمناوي، والنبهاني وغيرهم ولا زال الكثير من علماء العصر ينتسبون إلىٰ التصوف والحمد لله رغم الهجمة الشرسة التي مرت بها الصوفية خلال النصف قرن المتأخرة، ومع تلك الجهود التي قام بها أهل التصوف، فان التصوف مثله مثل الفرق الإسلامية الأخرىٰ التي حدثت بها شروخ من قبل انتساب غير المتعلمين والجهلة في طرق التصوف وانتمائهم لها، ولا شك أنه نتج عن ذلك ممارسات خاطئة احتسبت علىٰ التصوف، واستغلها المغرضون كسلاح للهجوم علىٰ التصوف حيث إنه لم يكن هنالك طريق لهم من حيث العقيدة أو استطاعوا التشكيك في صحة عقيدة وتعبد المتصوفة، وهذه الأخطاء والتي ليست من صميم طرق ومسلك المتصوفة.

تعرضت الصوفية في بداية القرن الماضي لهجوم من التيار الوهابي والذي أراد أن يسقط سمات التصوف في العالم، لا سيما أن التصوف قد احتل أعلىٰ درجات التمكن في ظل حكومة العثمانيين وكان للحرمين الشريفين وغيره من البلدان الإسلامية الأثر الكبير لممارسة الفكر الصوفي النقي وكانت الزوايا والخلوات الصوفية تنتشر وتحتوي بث الفكر الصوفي لكل مريديه دون إجبار أو تنطع أو اصطدام مع غيره من مدارس الفكر الإسلامي، بل إن السلاطين

العثمانيين أصبحوا من أصحاب الطرق فهذا السلطان عبد الحميد رحمه الله وهو خليفة المسلمين آنذاك كان رفاعي المسلك والمشرب، ثم بدأ مع منتصف القرن الماضي الهجوم من قبل المدرسة الوهابية المدّعية لما يسمّىٰ السلفية الحديثة باعتبارها الصوفية بدعة دخيلة علىٰ الإسلام وأنها ممثلة للثقافة الدينية التي تنشر الخرافات، والحقيقة أن المتتبع للنصوص يتبين له أن التصوف ليس أمرًا مستحدثًا جديدًا، ولكنه مأخوذ من سيرة الرسول ﷺ، والتمسك بعترتة الطاهرة عليهم السلام، وحياة أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، كما أنه ليس مستنبطًا من أصول لا تَمُتُّ إلىٰ الإسلام بصلة كما يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم الذين ابتدعوا أسماء مبتكرة فأطلقوا اسم التصوف علىٰ الرهبنة البوذية، والكهانة النصرانية، والشعوذة الهندية فقالوا هناك تصوف بوذي وهندي ونصراني وفارسي، ليشوه بذلك التصوف، ولا شك عندي أن ذلك الهدف هو سياسي من الدرجة الأولىٰ وهذا الهدف لم يطبق مع التصوف فقط بل إنه طبق مع جميع الفرق والمذاهب الإسلامية من قبل الدعوة الوهابية والتي تدعي السلفية مؤخرًا، ومع أن الفكر الصوفي قد هوجم وحورب إلا أنه حظي باهتمامات أهل الفكر الإسلامي ولا زال رجال الصوفية في جميع أنحاء العالم الإسلامي يمثلون فكرهم ولا تخلو من مشاركاتهم ومؤلفاتهم وأطروحاتهم بل إن انتشاره في جميع البلدان الإسلامية ووصل إلىٰ مسلمي ألمانيا وإنجلترا وإيطاليا وفرنسا والدنمارك ولوكسمبرج وهولندا وروسيا والسويد وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا.

والحق يقال إن أهل التصوف الحقيقيين كانوا ولا زالوا نموذجًا لتطبيق تعاليم الإسلام علىٰ النحو القويم الذي يعمل بالتعبد والدعوة وليسوا نواصب

ولا روافض بل هم للدعوة ميسرين لا معسرين لم نرىٰ من الصوفية علىٰ مر العصور مكفرين بغير حقّ ولا متطرفين إرهابيين، ولم نجدهم عن الحق حائدين بل هم للحق مناصرين لم نرآهم طاعنين وشتامين ولا مكفرين بغير حقّ بل كانوا للنزاهة والتقوىٰ متقربين فهم أهل مسلك قويم وبالدين متمسكين غير مفرطين.



○ أهل الحديث السلفية قديمًا (الوهابية حديثًا) ○

وهي مدرسة الذين يدّعون أنهم أهل الحديث أو أهل الأثر وهي إحدىٰ المدارس السنية الإسلامية، والتي تدّعي التأسّي بالقرون الثلاثة الأولىٰ من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، والتمسك بما نقل عنهم.

وتسمية أهل الحديث الحقيقيين الموافقين لنهج الرسول تبلورت في صدر الإسلام علىٰ يد علماء الحديث وتعود التسمية بأهل الحديث أو أهل السنة والجماعة حينما نشأت علىٰ يد الإمام أحمد بن حنبل، والذي يعتبر إمام أهل السنة في زمانه، وذلك حينما ظهرت فتنة خلق القرآن، فثبت فيها الإمام أحمد وأتباعه أصحاب الحديث، فارتبط المصطلحان أهل السنة والجماعة وأهل الحديث، ويعتبر الإمام أحمد هو أحد أشهر علماء عصره، ومرجع هام عند كل أهل السنة والجماعة باختلاف مشاربهم سواءٌ كانوا حنابلة أثرية أو مالكية وشافعية أشاعرة أو حنفية ماتريدية، لكن هناك اختلاف بين المنتسبين لأهل السنة حول تفسير توجهات ابن حنبل، واختلافات أخرىٰ حول صحة بعض الأقوال المنسوبة إليه، فبينما يرىٰ الكثير ممن يسمون أنفسهم اليوم بالجماعة السلفية أن الإمام أحمد بن حنبل هو المؤسس الحقيقي لمنهجهم وأنه كان علىٰ خلاف حاد مع متكلمي أهل الحديث، وأن السلفية هي الاستمرار التاريخي لمنهج إمام أهل الحديث أحمد بن حنبل، وفي المقابل يرىٰ بقية أهل السنة والجماعة وأغلبهم من الأشاعرة والماتريدية، وجانب من الحنابلة بعدم صحة الكثير من النقولات التي رُويت عن الإمام أحمد بن حنبل، والتي اعتمد عليها مدّعو السلفية في تحديد معالم منهجهم، كما يرىٰ هؤلاء أن نشأة أهل الحديث مرتبطة بنشأة أهل السنة، وأن المصطلحان استخدما في أحيان كثيرة للدلالة

علىٰ العقيدة الجامعة للأثرية والأشاعرة والماتريدية، ويرون أن الخلاف الذي حدث بين ابن حنبل وبعض المتكلمين من أهل السنة هو خلاف لا ينقص من صحة معتقد أحدهما خلافًا لما تقوله الوهابية مدعو السلفية والاقتدار بالنهج القويم، وهو في الحقيقة أبعد ما يكونون عنه.

والحقيقة أننا لانستطيع أن نقول كل المسلمين هم أهل السلف بل السلف هم أهل القرون الثلاثة الأولىٰ، فرغم الكثير من الصراعات التي حدثت بين أصحاب الفرق واحتداد الأمر إلا أنه ليصل بأولئك الأقوام أن يكفروا غيرهم، ولم نجد لهم آراء خالفه غير ما اختلف عليه إلا بالرد منهم بحجج قد أتوا بها.

فمدّعو السلفية الحديثة **(الوهابية)** مصطلح أطلق علىٰ حركة سياسية قامت في منطقة نجد وسط شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، علىٰ يد مؤسسها محمد بن عبد الوهاب[(١)]

(١) محمد بن عبد الوهّاب بن سليمان آل مشرف التميمي (١١١٥-١٢٠٦هـ) (١٧٠٣م-١٧٩١م) عالم ديني، وإليه ينتسب الوهابية، يعتبره أتباع دعوته من مجددي الدين الإسلامي في شبه الجزيرة العربية، ولد في العيينة وسط نجد لأسرة ينسب إليها عدد من علماء الدين، سافر إلىٰ مكة والمدينة لتحصيل المزيد من العلم عبر منهج التلقي عن مشايخه، والتقىٰ في سفره بالعديد من العلماء، ودرس علىٰ يد الشيخ عبد الله بن سيف والشيخ محمد حياة السندي المدني، فأخذ عنهم بقية علومه، ثم توجه إلىٰ الأحساء فأخذ عن شيوخها، وزار البصرة وبغداد ومصر؛ حيث اطلّع علىٰ علوم التصوف وفلسفة الاستشراق، تحالف مع محمد بن سعود للقيام بحركة سياسية في منطقة نجد أواخر القرن الثاني عشر الهجري لنشر الدعوة التي سموها السلفية، وكانت وفاته بالعيينة، ولا تزال أسرته إلىٰ اليوم تتولىٰ المناصب الدينية في المملكة العربية السعودية، وتعرف بأسرة آل الشيخ نسبة له.

ومحمد بن سعود[(١)] حيث تحالفا لنشر الدعوة التي سموها السلفية.

واعتبرتهم المصادر أنهم بذلك خرجوا علىٰ الخلافة الإسلامية التي كانت تحت حكم العثمانيين بينما اعتبرها مناصروهم ومن تبعهم أنها حركة إسلامية لإقامة دولة التوحيد والعقيدة الصحيحة وتطهيرًا لأمة الإسلام من الشرك علىٰ حد زعمهم، بينما يرىٰ الوهابية أنهم هم أهل السنة الحقيقيون، وهم الفرقة الناجية الوحيدة من النار.

جاءت الدعوة الوهابية بالمنهج الذي يسمونه السلفي كغطاء وبهدف ما تعتبره تنقية لعقائد المسلمين والتخلص من العادات والممارسات التعبدية التي انتشرت في بلاد الإسلام وتراها الوهابية مخالفة لجوهر الإسلام التوحيدي مثل التوسل، والتبرك بالقبور وبالأولياء، والبدع بكافة أشكالها ويصفها أتباعها بأنها دعوة إلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والرجوع إلىٰ الإسلام الصافي وهو طريق السلف الصالح في إتباع القرآن والسنة أي عمليًا عدم الاعتماد الكلي علىٰ المذاهب الفقهية السنية الأربعة وتقليدها، ونبذ كل ما أخذ بالرأي وتكلم به المتكلمون، والاعتماد المباشر علىٰ ظاهر النص من القرآن والسنة وعدم تأويلها رغم الحاجة إلىٰ ذلك، وتشنيعهم علىٰ من أوّل أو قال بالمجاز.

(١) محمد بن سعود بن محمد آل مقرن، مؤسس الدولة السعودية الأولىٰ أو بما يسمىٰ إمارة الدرعية انطلق من مدينة الدرعية (المنطقة الوسطىٰ بجانب مدينة الرياض العاصمة الحالية)، التقىٰ بمحمد بن عبد الوهاب، وتوافق الاثنان علىٰ كثير من الامور واتفقا علىٰ إقامة حركة سياسية يتولىٰ الاول السلطة السياسية بالحكم، والاخر السلطة الدينية بالدعوة، توفي في عام ١١٧٩ هـ/ ١٧٦٥ م، وهو جد آل سعود الأسرة السعودية الحاكمة اليوم وكانوا يعرفون بآل مقرن نسبة إلىٰ جدهم مقرن لانهم لم يسموا بآل سعود إلا في عهد سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود.

جاء تسمية «**الوهابية**» بهذا الاسم نسبة إلىٰ مؤسسها محمد بن عبد الوهاب، وأصبحوا مؤخرًا يرفضون أتباع هذه المدرسة تسميتهم بالوهابية، ويعرفون أنفسهم بأنهم امتداد للسلف الصالح، أو أهل السنة والجماعة بأعتبارهم أنفسهم أنهم هم الأحق بهذا المسمىٰ، وأن محمد بن عبد الوهاب لم يبتدع مذهبًا جديدًا لكنه كان مجددًا يدعوا إلىٰ ما كان عليه السلف والأخذ من القرآن والسنة.

لكن مصطلح أهل السنة والجماعة كمصطلح تأريخي له أهميته تتمسك به الصوفية، وأصحاب المذاهب الأخرىٰ السنية، وتجده حتىٰ في أدبيات الفرق الكلامية من أشاعرة وماتريدية مما يجعله مصطلحًا خلافيًا، والحقيقة أن تنصلهم من مصطلح الوهابية هو المسمىٰ الذي نشر دعوتهم بشكل كبير لأن معارضيهم في بداية الأمر كانوا يرفضون نسبتهم إلىٰ «السلف»، وذلك بسبب أن أهل السلف هم أهل القرون الثلاثة الأولىٰ، ورغم اختلافها منذ زمن بعيد إلا إننا نجد أن جميع مذاهب أهل السنة كانوا يقرون لبعضهم أنهم أهل سنة وجماعة ولم يخرجوا بعضهم البعض من دائرة أهل السنة والجماعة فلم يكن هنالك للوهابية طريق في بداية أمرهم أن يتسموا في حركتهم بالسلفية، وبذلك وجدوا في بداية أمرهم أن نسبتهم لمحمد بن عبد الوهاب هي الطريقة الأفضل لتمييزهم عن المذاهب الأخرىٰ.

وعندما امتد نفوذهم وسيطروا علىٰ كثير من البقاع الإسلامية كما نراه اليوم، استطاعوا أن يعبروا عن فكرهم بالمدرسة المسماة الإسلامية السلفية وينعتوا أنفسهم بأهل السنة والجماعة.

كما أن النظام السعودي الحاكم في المملكة العربية السعودية، والذي أصبح مؤخرًا يتحرج من مصطلح الوهابية في نظام الحكم لديه لأنه يرىٰ أنه من الخطأ

أن يربط بين التحالف التاريخي بين السلطة السياسية المالية المتمثلة في محمد ابن سعود، والسلطة الدينية المتمثلة في محمد بن عبد الوهاب اللذين قامت عليهما الدولة السعودية بمذهبها الوهابي.

وهي الحقيقة التي لا يستطيع النظام السعودي والوهابية التخلي عنها أو إنكارها، وأن هذا التحالف لا ينتهي إلا بسقوط أحدهما، لاسيما أنه في ظل العلاقات الدولية المعاصرة، أصبح النظام السعودي الحاكم غير راضٍ عن كثير من الصلاحيات التي تمتلكها المؤسسة التي تمسك شؤون المسلمين الدينية، وأن هذه الصلاحيات التي أصبحت مؤثرة علىٰ استقرار نظام الحكم، خاصة بعد تضجر النظام العالمي من إفرازات وممارسات المؤسسة التي تمسك شؤون المسلمين الدينية في الدولة السعودية القائمة علىٰ الحرمين الشريفين.

وهو يستمد قوته من النظام الحاكم في بلاد الحرمين الشريفين والمسيطر علىٰ المقدسات الإسلامية، والحقيقة أن المدرسة المسماة السلفية الحديثة والتي قامت علىٰ نقولات ابن تيمية وتلاميذه واجتهاداتهم، والتي خالفوا فيها ما كان عليه أهل السلف الحقيقيين.

وخالفوا جمهور علماء الأمة من السلف والخلف في عدة مسائل بآرائهم الشاذة الشنيعة التي بلبلت أذهان المسلمين، ومزقت وحدتهم في كثير من المدن وفرقت جماعتهم في كثير من البلاد، كتحريهم التوسل بالنبي ﷺ بعد مماته، وتحريمهم شد الرحال إلىٰ زيارة قبره المعظم، وخوضهم في أحداث أقرها علماؤهم كمطالبتهم بإخراج قبر النبي ﷺ من المسجد، وهدم القبة الخضراء المقامة علىٰ قبره الشريف، وغيرها من الفتاوىٰ الشاذة المكفرة والمبدعة لكثير من الفرق والطوائف الإسلامية بل للسواد الأعظم، وكانوا بابًا للتفريق لا للتقريب.

○ الإباضية وحقيقة خروجهم عن دائرة الخوارج ○

الإباضية بفتح الهمزة كما تنطق في عمان، أو كسرها كما تنطق في شمال إفريقيا فرقة إسلامية منتشرة في عمان وزنجبار وشمال إفريقيا، وهم أتباع عبد الله بن إباض التميمي(١)، وهو من معاصري معاوية وعاش إلىٰ أواخر أيام عبد الملك بن مروان، وقد اختلف المعاصرون في أمر فرقة الإباضية من بين مدافعين عنهم وهم قلة، والحقيقة في نظري أن من أشد ما تعرضت له هذه الفرقة الخلط الكبير بينهم وبين الخوارج من قبل المؤرخين وأصحاب الملل والنحل ونسب لهم الكثير من الأمور الشنيعة وإلصاقها بهم ووجهت لهم اتهامات لا أصل لها في فكرهم وتسرع بعض المؤرخين حينما لم يتحروا أمرهم ونقلوا ما كتب عنهم دون تحقق، ولعل ذلك نتاج الخلاف بين كثير من الفرق اليوم وتشتتها، ونجد أن الإباضية كانت إحدىٰ مصابات ذلك التشدد والهجوم حيث إن الإباضية صنفوا من فرق الخوارج، والناظر إلىٰ النصوص الواردة في الكتب عندهم تصيبه الحيرة في أمرهم، والتي تجعله بين موقف الأخذ برأي من كتب وهم أئمة أعلام والاكتفاء بالحكم عليهم من خلال ما كتب وبدون إنصاف، أو البحث عن حقيقة ضائعة غائبة متفرقة، نعم نريد أن نعرف هل الإباضية بقايا الخوارج؟ وهل هم خوارج زماننا؟ وبذلك يتحقق أنهم غلاة متطرفون؟، ومبتدعة محرفون؟، أم هم دعاة معتدلون؟

(١) عبد الله بن إباض المقاعسي المري التميمي، من بني مرة بن عبيد بن مقاعس: أحد أئمة الدعوة الإسلامية، رأس الاباضية، وإليه نسبتهم، وهذا يدل علىٰ أنّه كان لعبد الله ابن اباض دور في نشوء هذه الفرقة وازدهارها وفاته في (٨٦ هـ = ٠٠٠-٧٠٥ م).

ويكاد ينعقد الإجماع بين المؤرخين الأقدمين علىٰ أن الإباضية إحدىٰ فرق الخوارج، وفي المقابل فإن الإباضيين أنفسهم وكتابهم المعاصرين، سواء في المغرب العربي أو في المشرق الإسلامي يستنكرون وبشدة تصنيفهم للخوارج، ولا يعدون أنفسهم فرقة من فرق الخوارج حيث إن المؤرخين يعتبرون أن جميع فرق الإباضية بائدة إلا فرقة واحدة تعرف بالأزارقة، وبتتبع ما كتبه الإباضية أنفسهم والحق أحق أن يتبع فإننا حينما نكتب عنهم نستدل من كتبهم لا من كتابات من كتب عنهم فهذا الشيخ علي يحي معمر أحد أشهر علماء الإباضية في بلاد المغرب والذي ألف كتابًا عرض أقوال معارضيهم وحجهم بأدلة مقنعة علمية[١]، ويوافقه أحد أشهر علماء إباضية المشرق وهو الشيخ سالم حمود السيابي، وهما يمثلان الفكر الإباضي في المشرق والمغرب فإنهم يستنكرون وبشدة انتماءهم إلىٰ الخوارج، ولا يعدون أنفسهم فرقة من فرق الخوارج، ويؤكد ذلك السيابي إلىٰ أن الإباضية خالفوا الخوارج في عقائدهم المتطرفة وأنهم لم يخالفوا السنة[٢]، ومن واقع الحقيقة يتضح أن قدماء الإباضية كالقلهاتي والتناوتي يدافعون عن الخوارج ويتفقون معهم في تكفير بعض الصحابة وموقفهم من الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه فهم يخطئونه دون تكفيره، وكذلك من الإمام علي عليه السلام في التحكيم ويخطئونه في حربه، وكذا من شارك في معركة النهروان، فهم بذلك يخرجون عن دائرة الخوارج وهذا لا يعني أننا نعتبرهم هم الخوارج أو أحد فرقهم فأننا برأيهم في التوقف يكونون أقرب عن البعد في الانشقاق سعيًا إلىٰ اللحمة وتوحيد الصفوف ونحسبهم علىٰ ذلك، فهم

---

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية٢٣.

(٢) الحقيقة والمجاز في تاريخ الأباضية باليمن والحجازص١٨ وما بعدها.

فرقة لها ارآئها التي تدل علىٰ فكرهم وقد وصلوا بتمسكهم العقدي إلىٰ الكلام علىٰ الكثير من المسائل الطويلة وحسموا مواقف عندهم كان حدث فيها الكثير من الصراعات في القديم، ونجد أن الإباضية كانت آرائهم في الخلافة أن تكون باختيار حر من المسلمين، وإذا اختير إمام لها فلا يصح أن يتنازل عنها أو يُحكم فيها، وليس بضروري أن يكون الإمام من قريش، ويجب أن يخضع لما أمر الله ونجد أنهم وضعوا مبدأ وهو أن الإيمان ليس اعتقادًا فقط وإنما هو اعتقاد وعمل، ومرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار إذا أصر عليها ما لم يرجع عن كبيرته ويتوب عنها، وهم يتفقون في كثير من عقائدهم مع المعتزلة ويتفق الإباضية في فقههم مع مذاهب أهل السنة في بعض المسائل فنجد أن جابر بن زيد وهو أحد من أخذ عن الصحابة الذين يعتمد عليهم أهل السنة، قد يمتاز عن أصحاب المذاهب الإسلامية في أنه أخذ عن الصحابة مباشرة بينما هم لم يأخذوا في معظمهم إلاّ من التابعين، وكذلك مما يؤكد ذلك أن الأحاديث التي جمعها الإباضية في مسانيدهم كالربيع بن حبيب وغيره ليست إلا أحاديث واردة في الصحيحين البخاري ومسلم وغيرهم من أئمة الحديث كأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والدار قطني والطبراني والبيهقي وغيرهم من أهل السنّة.

هذه هي حقيقة الإباضية بين الماضي والحاضر واثبات حقائق عقيدتهم وفقههم بين الفرق الإسلامية أهل حق وإستقامة في مسائل الدين وبالله التوفيق.



۞ الشيعة ۞

الإمامية الإثني عشرية - الزيدية - الإسماعيلية - العلوية - الدروز.

الشيعة كلمة قديمة كانت تستخدم بين الأقوام علىٰ مر الأزمان إلا أنها أصبحت اليوم لفرقة إسلامية ولا تقال لغيرهم.

قال ابن منظور(١): الشيعة كل قوم اجتمعوا علىٰ أمر فهم شيعة، وكلّ قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيعة، والجمع شيع.

والتشيع ليس تهمة كما يصورها بعض الناس اليوم وينادون بذلك، فلفظ التشيع قديم ورد لفظ شيعة في القرآن الكريم في العديد من الآيات بمعانٍ مختلفة منها، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصافات: ٨٣]، وبذلك فمفهوم التشيع لم يكن غريبًا أو حديثًا علىٰ الإسلام، وليس كما يرىٰ بعض المؤرخين أن التشيع لا أصل له في الدين وأن بذرة التشيع بدأت بعد وفاة الرسول، فقد أطلق لفظ شيعة علىٰ العديد من الحركات الإسلامية بعد وفاة النبي وذلك نتيجة الخلافات التي حدثت بالصراع علىٰ الخلافة، وانقسام صفوف المسلمين فكان هناك شيعة مناصرين للخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه يرون أحقيته بالخلافة عن غيره من الصحابة، ومن هنا نرىٰ أن التشيع للإمام علي كان بداية انطلاقه وأصله أصحاب الرأي القائلين بأولوية آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالخلافة وأحق آل البيت هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فكانت هناك جماعات تناصر بعض الصحابة مثل شيعة عثمان، ومنهم من شايع معاوية ضد الإمام علي عليه السلام، وغيرهم، كان أتباع الإمام علي بن أبي طالب هم الشيعة الذين

---

(١) لسان العرب، ٨، ١٨٨، مادة: شيع.

تمسكوا بتشيعهم بأتباعه وبقيت الصفة ملازمة لشيعة علي واندثرت عن الآخرين وهم اليوم ثاني أكبر طائفة من المسلمين، وهذا ما يؤكد أنهم من أقدم الفرق الإسلامية، ويؤمن الشيعة أن التشيع هو الإسلام ذاته، والشيعة أنفسهم يرون أن المذهب الشيعي أصلًا لم يظهر بعد الإسلام، ويرون أن المسلم التقي يجب أن يتشيع ويوالي علي بن أبي طالب وأهل بيته، والحقيقة وقد ظهروا بمذهبهم في آخر عصر الخليفة عثمان رضي الله عنه ونما وترعرع في عهد الإمام علي عليه السلام، ولما للإمام علي من المكانة المتميزة عند المسلمين أخذوا ينشرون نحلتهم علىٰ الناس، ونجد أن من الأسباب الرئيسية لانتشار التشيع هي المظالم التي وقعت علىٰ العلويين الطالبيين في العصريين الأموي والعباسي، ورأىٰ الناس في علي وأولاده شهداء هذا الظلم فانتشر المذهب الشيعي وكثر أنصاره، وكان التشيع يغلب علىٰ كثير من البلدان الإسلامية قديمًا، وللتشيع تقادم في أرض الحجاز لاسيما في المدينة المنورة ونواحيها، وأرض اليمامة من بلاد نجد، والعراق، واليمن، ومصر والمغرب وبعض نواحي افريقيا وبلاد الهند وماوراءالنهر وغيرها.

قال إبن زولاق في فضائل مصر وأخبارها وخواصها[1]: قال الحسن بن إبراهيم: كانت مصر دار تشيع منذ أيام محمد بن أبي بكر، وهرب من مصر جماعة من شيعة المعافر عند دخول مروان بن الحكم إليها وما صنعه بأصحاب مسجد الأقدام، وكان أهل مصر لا يعملون في فتاويهم إلا بما يرد جواب جعفر ابن محمد الصادق رضي الله عنه.

(١) فضائل مصر وأخبارها وخواصها لابن زولاق ص٤٣.

وقال أيضًا[(١)]: قال يزيد بن أبي حبيب فقيه مصر: أقلبت أهل مصر عن التشيع إلا جماعة: يعني بيت بني لهيعة وبني نباته، وكان أهل مصر يكتبون بمسائلهم إلىٰ جعفر الصادق ﷺ ولا يعدلون عن فتياه، ولما قدم عليهم إسحاق[(٢)] بن جعفر حفوا به كالكعبة.

قال الأشعري في مقالاته[(٣)]: والتشيع غالب علىٰ أهل قم وبلاد إدريس بن إدريس وهي طنجة وما والاها والكوفة.

ويعد الشيعة اليوم بطوائفهم يمثلون العدد الكبير بين المسلمين الذي لا يوازي أهل السنة، وينتشر مذهبهم في الحجاز واليمن والخليج، والعراق وسوريا ولبنان وتركيا والهند وباكستان، وبلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطىٰ)، وبلاد فارس وغيرها من البلدان وينقسم الشيعة اليوم إلىٰ عدة فرق.

---

(١) فضائل مصر وأخبارها وخواصها لابن زولاق ص٤٨، النجوم الزاهرة ١/ ١٤١ احداث سنة ٣٧ ولية محمد بن أبي بكر: وفيه اشارة عن التشيع وقدمه في مصر علىٰ عهد معاوية.

(٢) إسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان من أشبه الناس رسول الله ﷺ، وكان محدّثًا جليلًا، وكان ابن كاسب إذا روىٰ عنه يقول: حدّثني الثقة الرضي إسحاق بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين، دخل مصر مع زوجته السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ولم تزل به إلىٰ أن توفيت في شهر رمضان سنة ثمان ومائتين، ولما ماتت عزم المؤتمن إسحاق بن جعفر الصادق علىٰ حملها إلىٰ المدينة ليدفنها هناك، فسأله المصريون بقاءها عندهم، فدفنت في الوضع المعروف بها اليوم بين مصر والقاهرة.

(٣) مقالات الإسلاميين ص٤٧.

مبادئ الشيعة:

١- إن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلىٰ نظر الأمة، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبي إغفالها، بل يجب عليه تعيين إمام يدير شئون الأمة والإمامة من أهم الأصول لدىٰ الشيعة بالإجماع مع اختلاف فرقهم.

٢- عيَّن رسول الله ﷺ عليًا للخلافة بنصوص متواترة والتي تتبعها الوصية ولقب علي الوصي، فهو إمام بالنص لا بالانتخاب.

٣- عليّ أفضل الخلق في الدنيا والآخرة بعد رسول الله ﷺ والأنبياء فمن عاداه أو حاربه فهو عدو الله إلا إن ثبتت توبته ومات علىٰ حبه.

٤- ولم يقتصروا علىٰ القول باستحقاق الإمام علي عليه السلام للخلافة دون سائر الصحابة بل حكم بعضهم بتكفير كل الصحابة وعلىٰ رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان ولعنهم رضي الله عنهم وقال البعض بالتوقف، وقال آخرون بعدم الترضي عنهم ولا ذكرهم، وأن بيعة الخلفاء الثلاثة غير شرعية ومغتصبة ومأخذهم علىٰ زوجة النبي أمِ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

٥- ولم يكن الشيعة علىٰ درجة واحدة، بل كانوا كغيرهم منهم المغالي والمقتصد وقد اقتصر المعتدلون علىٰ تفضيل الإمام علي عليه السلام علىٰ بقية الصحابة من غير تكفير أو تفسيق لأحد واعترفوا بصحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل، وقالوا ليس بين النبي ﷺ وبين علي إلا مرتبة النبوة وأعطينا عليًا ما عداها من الفضل المشترك، أما المغالون المتطرفون فلم يكتفوا بتفضيله علىٰ جميع الخلق عدا النبي وعصمته بل رفعوه إلىٰ مرتبة النبوة، ومنهم من ألهه أي زعم حلول الإله فيه، ومنهم من قال كل روح إمام حلت في الألوهية تنتقل إلىٰ الإمام الذي يليه.

○ الإمامية الإثنىٰ عشرية ○

وقد أطلق عليهم الإمامية لأنهم جعلوا من الإمامة القضية الأساسية التي تشغلهم وتركيزهم في آرائهم حول الإمامة وسُمُّوا بالإثنىٰ عشرية لأنهم قالوا بإمامة اثنى عشر إمامًا، وهم القائلون بأن إمامة علي ثابتة بالنص عليه بالذات من النبي ﷺ نصًا ظاهرًا من غير تعريض بالوصف، ولا بإشارة بالعين، وآخر أئمتهم الإمام الثاني عشر وهو المهدي المنتظر الحجة الغائب عن الأنظار والذي دخل في سرداب سامراء، ولم يأذن بخروجه وهم ينتظرون خروجه ويدعون بعجل فرجه ومن لم يؤمن بغيبة الإمام الثاني عشر وظهوره لا يكون شيعيًا إماميًا إثني عشريًا(١).

أصول مذهب الإمامية الإثنىٰ عشرية:

١- النص علىٰ الإمام بالذات، ولهذا نص النبي ﷺ علىٰ إمامة علي، لأنه ليس في الدين أمر أهم من تعيين الإمام حتىٰ تكون مفارقة النبي للدنيا علىٰ فراغ قلب من أمر الأمة لأنه بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملًا، بل يجب عليه أن يعين شخصًا يرجع إليه، ويستدلون علىٰ تعيين الإمام علي عليه السلام بالذات بما يرونه من أحاديث وروايات في ذلك وغيرها من الأدلة كقصة غدير خم، وإعطاء الراية يوم خيبر والتي يرون فيها إثبات حجتهم، والتي قد يتفق معهم بعض الفرق الأخرىٰ عليها مع مخالفتهم في أمور أخرىٰ وقد أوصىٰ علي لمن بعده وهكذا علىٰ كل إمام أن يوصي لمن بعده.

---

(١) وقد فصلنا في ترجمته وعلاماته في موضعه من كتابنا النور المبين تحت عنوان البيان في أخبار ظهور المهدي آخر الزمان ص٤٤٨-٤٦٨.

٢- القول باختفاء الأئمة ورجعتهم.

٣- قولهم إن الاعتراف بالإمام جزء من حقيقة الإيمان وبدونه يكون الشخص كافرًا.

٤- جعلهم سلسلة الخلافة بعد علي في أولاد فاطمة، فاتفقوا علي إمامة الإمام علي عليه السلام، وأنه قد نص وأوصىٰ علىٰ إمامة ولديه الإمام الحسن والإمام الحسين فكل إمام يعين الإمام الذي يليه بوصية منه، ويسمونهم الأوصياء، وتأكيد علىٰ ذلك فإن الإمامة من بعد الإمام الحسين تسلسلت في الأئمة الإثنىٰ عشر من ذرية الإمام الحسين عليهم السلام.

٥- **البراءة**: يتبرؤون الإمامية من الخلفاء الثلاثة: أبي بكر، وعمر، وعثمان ويبغضونهم ولا يحبونهم ولا يترضون عنهم والبعض منهم يكفرونهم وينالون كذلك من كثير من الصحابة باللعن، ولا يتورعون في النيل من أمهات المؤمنين عائشة وحفصة رضي الله عنهما ويخطئونهم وقال بعضهم بكفرهما، وبذلك لم يقتصروا علىٰ القول باستحقاق الإمام علي عليه السلام للخلافة دون سائر الصحابة بل صرحوا بالبراءة منهم.

٦- **العصمة**: كل الأئمة عندهم معصومون عن الخطأ والنسيان، وعن اقتراف الكبائر والصغائر وقد خالفوا بذلك الشيعة الزيدية ووافقتهم الإسماعلية والعلوية والدروز.

٥- **العلم اللدني**: كل إمام من الأئمة الإثنىٰ عشر معلمون عندهم أُودع العلم من لدن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بما يكمل الشريعة، وهو يملك علمًا لدنيًا، ولا يوجد بينه وبين النبي من فرق سوىٰ أنه لا يوحىٰ إليه، وأنهم قد استودعهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسرار الشريعة ليبينوا للناس ما يقتضيه زمانهم.

٦- **التقية**: يؤمن ويعمل الشيعة عامةً بالتقية والإمامية خاصةً، وهي عندهم واجبة لا يجوز رفعها حتىٰ يخرج القائم المنتظر، ويستدلون علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، ويستندون بذلك إلىٰ رواية عن الإمام محمد بن علي زين العابدين الباقر عليه السلام بقوله: «**التقية ديني ودين آبائي ولا إيمان لمن لا تقية له**»[١]، وقد توسع الإمامية في مفهوم التقية في عصرنا الحالي.

٧- **ولاية الفقيه**: هي مصطلح سياسي ظهر حديثا في الفقه الشيعي بعد الثورة الإيرانية علىٰ يد زعيمها روح الله الخميني[٢]، حيث يعتبرونها فقهاء ولاية وحاكمية الفقيه الجامع للشرائط في عصر غيبة الإمام الحجة، حيث انه ينوب الولي الفقيه عن الإمام الغائب في قيادة الأمة وإقامة حكم اللّه علىٰ الأرض.

٨- **البداء**: والبداء لغة: نشأة الرأي الجديد.

قال الفراء: بدا لي بداء أي: ظهر لي رأي آخر[٣].

قال الجوهري: بدا له في الأمر بداء أي: نشأ له فيه رأي[٤].

---

(١) أصول الكافي ٢: ٢١٩/ ١٢، باب التقية.

(٢) روح الله بن مصطفىٰ بن أحمد الموسوي الخميني، زعيم ديني شيعي سياسي إيراني (١٩٠٢-١٩٨٩، وكان فيلسوفًا ومرجعًا دينيًا شيعيًا، قاد الثورة الإيرانية حتىٰ أطاح بالشاه محمد رضا بهلوي، وأطلق عليها الجمهورية الإسلامية الإيرانية) حكم إيران في الفترة من (١٩٧٩-١٩٨٩)، وكان كالأب الروحي لعدد من الشيعة داخل إيران وخارجها.

(٣) لسان العرب (١٤/ ٦٦).

(٤) الصحاح (٦/ ٢٢٧٨).

ومن أصول الاثني عشرية القول بالبداء على الله ﷻ عن ذلك علوًا كبيرًا، وقد بالغوا في أمره مما لا يجوز على الله عدم العلم بما سيحدث أو البداء له بما سيحدث ويراه أهل السنة نسبة للجهل إلى الله ﷻ، ومن الكلمات الدارجة بين علمائهم أنّ النسخ والبداء صنوان، غير أنّ الأوّل في التشريع، والثاني في التكوين، وقد اشتهرت بالقول به وهذا ما تختلف جميع الفرق فيه معهم ويرد الإمامية على أن الاختلاف بينهم وبين أهل السنة لفظي، وان القول بالبداء في حق الله من باب المجاز ولهم في ذلك أقوال يدعون فيها أهل السنة بضرورة التقريب في وجهات الأقوال وأن البداء لديهم ليس كما يفهم من الجهل على الله.

التشيع اليوم بين الحقيقة والرفض:

الرافضة أو الروافض ومفردها رافضي مصطلح قديم يدل على عدم القبول والمعارضة في الرأي.

قال ابن منظور في اللسان(١): الرفض تركك الشيء تقول: رفضني فرفضته رفضت الشيء أرفضه رفضًا.

واستخدم المصطلح من قبل بعض الطوائف الإسلامية على بعض المسلمين الشيعة، فقد افترقت الشيعة إلى رافضة، ويعود ذلك إلى قصة الرافضة الذين رفضوا بيعة الإمام زيد بن علي والذي كان يرى الخروج على أئمة الجور فلما ظهر بالكوفة في أصحابه الذين بايعوه سمع من بعضهم الطعن في أبي بكر وعمر فأنكر ذلك على من سمعه وسئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما، فرفضه قوم فتفرقوا عنه بعض الذين بايعوه فقال لهم: رفضتموني فسُمّوا رافضة لرفضهم إياه.

---

(١) لسان العرب: ٧/ ١٥٧، مادة رفض.

ويعلل ابن رستم الطبري[١]: سبب هذه التسمية أنهم إنما قيل لهم رافضة لأنهم رفضوا الباطل وتمسكوا بالحق.

وروي أنّه كان عبد الملك بن مروان لمّا سمع من الفرزدق قصيدته المعروفة في مدح الإمام علي بن الحسين قال له: أوَرافضي أيضًا أنت؟ فقال الفرزدق: إن كان حبّ آل محمّد رفضًا فأنا هذاك[٢].

قال الشافعي في إحدىٰ قصائده قوله[٣]:

يا راكبًا قف بالمحصّب من منىٰ — واهتف بقاعد خيفها والناهضِ

سَحَرًا إذا فاض الحجيج إلىٰ منىٰ — فيضًا كمُلتطم الفرات الفائضِ

إن كان رفضًا حبّ آل محمد — فليشهد الثقلان أنّي رافضي

وقد ذكر البيهقي أن الشافعي قال تلك الآبيات حينما نسبته الخوارج إلىٰ الرفض حسدًا وبغيًا، وقال في قصيدة أخرىٰ يمدح عليًا وأبا بكر[٤]:

إن نحن فضلنا عليًا فإننا روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل

وفضل أبو بكر إذا ما ذكرته — رميت بالنصب عند ذكري للفضل

فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما — بحبيهما حتىٰ أوسد في الرمل

ومن هنا نقول إن حب أهل البيت والتشيع لهم لا يرفض خلفائه الكرام وزوجاته أمهات المؤمنين ﭬ أجمعين فهم من الدين بمكان مكين، وما أصدق من قول الله فيهم في كتابه العظيم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ

(١) ابن رستم الطبري: دلائل الإمامة ص ٢٥٥، الرازي: الزينة الورقة ٢١٦.
(٢) أمالي السيد المرتضىٰ: ج١ ص٦٨ في التعليق.
(٣) ديوان الشافعي: ٥٥، مناقب الشافعي للبيهقي ص ٧١.
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ص٦٩-٧٠.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠]، وأن خيار صحابة رسول الله ﷺ نجوم يقتدىٰ بهم فقد اهتدوا بهديه ﷺ، إن التشيع لأهل بيت رسول الله حقيقة عمل بها الكثير نعم نتشيع لأهل بيت رسول الله ونرفض من ظلمهم ولا نقبل فيهم قول ونناصر من ناصرهم، ونتبعهم بالقول والعمل لأنهم معدن الحكمة والرسالة وننهج من نهجهم الذي ورثوه عن جدهم الأعظم ونتبعهم بما وصفهم به القران العظيم وبما فضلهم به الذكر الحكيم، وهذا التشيع الذي تشيع الأولون به.

إن التشيع لأهل بيته الطيبين الطاهرين لا يجعلنا أن نتعدىٰ علىٰ غيرهم، ولا نقبل في صحابة رسول الله إلا محاسنهم، إن التشيع الحقيقي هو حب رسول الله وحب من أحبهم رسول الله ومن صحبهم رسول الله، نعم إنهم صحابته الذين جاهدوا في الله حق جهاده واجتهدوا، ولا نعصمهم عن الخطأ، وإن كان في المقابل أن أهل السنة اجتهدوا بمسألة عدالة الصحابة لتوازي العصمة لدى الشيعة.

إن أهل البيت أنفسهم كانوا يحبون صحابة رسول الله، لم تكن لهم تقية في أصحاب رسول الله، نعم والله لو كان لهم في ذلك قول لم يترددوا عن قوله فهم أهل الحق والشجاعة والحق معهم حيث يكونوا ويدوروا، ولم يثبت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من متقدمين ومتأخرين منذ عهد جدهم أمير المؤمنين علي عليه السلام، وابناه السبطان الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة،، فهذا الإمام زين العابدين علي السجاد سيد العلماء العاملين في زمانه، وابنه زيد الإمام الخارج علىٰ الجائرين، وأخوه الإمام محمد ابن علىٰ باقر علوم الدين،

والإمام جعفر الصادق إمام أئمة الدين، وكذا الائمة الكاظم والرضي والجواد والهادي والعسكري والحجة، والحسن المثنىٰ والإمام النفس الزكية، وإدريس ويحيىٰ وغيرهم من ائمة وسادات أهل البيت عليهم سلام الله أجمعين، إلا الخبر اليقين بالترحم والترضي عن صحابته الأخيار الميامين، ولا كانوا سبابين فهم علىٰ منهج جدهم سيد المرسلين، ومن قال إنهم كانوا في عدم السب واللعن علىٰ التقية سائرين فقد طعن في صلاحهم للإمامة ليوم الدين ولو أتىٰ بأدلة فهي في غير موضعها المتين ولا مقصدها المبين فتقيتهم لم تكن علىٰ حساب الدين، لقد كانوا أهل بيت رسول الله قوامين لأعمدة الدين وللحق سابقين وللظلم مناهضين لا تأخذهم في الحق لومة لائمين، لقد جابهوا الظالمين وخرجوا عليهم فكانوا للأئمة الجور نابذين، ولا شك أن القرون السالفة من الأول والثاني لم يصل أهل التشيع في الغلو مما تحقق فيما بعد بالرفض إلىٰ الصحابة والطعن فيهم وجعل ذلك أصل من مبادىٰء التشيع والحقيقة خلاف ذلك عن أهل الحق من العترة الطاهرة.

قال التفتازاني في شرحه[١]: وللروافض سيما الغلاة منهم مبالغات في بغض البعض من الصحابة ﵃ والطعن فيهم بناء علىٰ حكايات وافتراآت لم تكن في القرن الثاني والثالث فإياك والإصغاء إليها فإنها تضل الأحداث وتخيرالأوساط، وإن كانت لا تؤثر فيمن له استقامة علىٰ الصراط المستقيم، وكفاك شاهدا علىٰ ما ذكرنا أنها لم تكن في القرون السالفة ولا فيما بين العترة الطاهرة بل ثناؤهم علىٰ عظماء الصحابة وعلماء السنة والجماعة والمهديين من

(١) شرح المقاصد ٣٠٤.

خلفاء الدين مشهور وفي خطبهم ورسائلهم وأشعارهم ومدايحهم مذكور والله الهادي.

روىٰ الذهبي في سير أعلام النبلاء[١]: قال ابن فضيل، عن سالم بن أبي حفصة: سألت أبا جعفر وابنه جعفرا عن أبي بكر وعمر، فقلا لي: يا سالم، تولهما وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامي هدىٰ[٢].

وفي رواية[٣]: عن إسحاق الازرق، عن بسام الصيرفي، قال: سألت أبا جعفر عن أبي بكر وعمر، فقال: والله إني لاتولاهما وأستغفر لهما، وما أدركت أحدا من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما[٤].

ونحن علىٰ منهجهم إلىٰ يوم الدين ونعمل بما قال سيد المرسلين قال رسولُ اللّهِ ﷺ[٥]: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحِدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ**».

إن ما يحدث اليوم يسوؤنا نحن المسلمون حينما نسمع من يسبون رموز الدين القويم، كيف ينادون بالتقريب وهذا المنهج يخالف الدين، إن الدعوة التي تنادي بالتقريب بين الأديان من جهة، والتقريب بين أهل السنة والشيعة من جهة أخرىٰ، تحتاج إلىٰ أن تعرف أهمية رموز الدين الحق القويم، إنني ادعو من ينادي بهذا التقريب، إن عليه أن يعلم أن الأساس في التقريب والوحدة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٠٢.

(٢) ابن عساكر ١٥/ ٣٥٥ ب، وانظر ابن سعد ٥/ ٣٢١.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٠٣.

(٤) ابن عساكر ١٥/ ٣٥٥ ب، وانظر ابن سعد ٥/ ٣٢١.

(٥) صحيح البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) والسياق لمسلم دون البخاري.

الإسلامية الكف عن النيل من الصحابة الخلفاء الثلاثة الراشدين وزوجاته أمهات المؤمنين، والحقيقة أنني التقيت مع الكثير من علماء الشيعة الإمامية الذين يرفضون هذا المنهج في السب والتعدي، وطلبت منهم إيقافه واستصدار بيانات تدعو إلىٰ التوقف عن هذا المنهج المشين، فكانوا لذلك مستجيبين اخلاصًا منهم وحرصًا علىٰ الدين والوحدة الإسلامية، وقد أصدر المرشد الأعلىٰ للثورة الإيرانية السيد علي خامنئي فتوىٰ حرّم بموجبها الإساءة إلىٰ أم المؤمنين السيدة عائشة زوجة النبي محمد ﷺ أو النيل من الرموز الإسلامية لأهل السنة والجماعة(١)، ومع ذلك فأنني أجد للأسف أن التعصب للباطل يزداد، وفي هذا الأمر خطورة في هذا العصر الذي صارت فيه الصراعات بسبب التنازع بين أهل الحق والباطل أو بين من يحب الرياسة والتحزّب للباطل، وكيف يكون هناك تقريب بين السنة والشيعة، في حين أن ظاهر الكثير من الشيعة الرافضة يلعنون الصحابة، ويهدمون بذلك طريق التقريب بينهم وبين السنة بالتعدي علىٰ رموز أهل السنة والجماعة، وفي المقابل نجد بعض أهل السنة يهاجمون رموز وعلماء الشيعة بأحاديث وطعون لا تمثل حقيقة التشيع وتؤدي إلىٰ صراعات ونزاعات وبذلك تحدث الفرقة في الدين ولا شك أن المستفيد هو عدو الدين والذي يسعىٰ للتبعيد لا التقريب.

أقول: كيف يكون تقريب بين أهل السنة والرافضة، وهم يسبون الخلفاء الثلاثة، والسب أنواع، فبعضه قد يفضي إلىٰ الطعن في الرسول ﷺ، وقد أجدها في بعض الأحداث عبارة عن اجتهادات ناتجة عن ردة فعل للمعاندين،

---

(١) فتوىٰ صادرة في ٢٠١٠/٩/٣٠م، وقد سبقتها فتوىٰ كذلك بنفس النص في عام ٢٠٠٦م.

وليست من أصول المذهب، لابد أن يتوقف الرافضة عن التعدي والسب لصحابة ﭬ ولزوجاته أمهات المؤمنين ﮇ، وليعلم الجميع من السنة والشيعة أنه لا طريق للوحدة بين المسلمين إلا بمحاربة كل ما يهدم قواعد الدين، وليعلم الجميع أن النيل من أهل البيت والصحابة الأخيار وزوجات رسول الله ﷺ الأطهار خطوط حمراء بيننا وبين من يدعوننا إلىٰ التقارب وهو فراق بيننا وبينهم ولا نتجمع في ذلك تحت راية الوحدة التي لا يسعىٰ إليها إلا المخلصون لهذا الدين العظيم.

الخبر اليقين في فضائل الخلفاء الثلاثة الميامين

لقد نال الخليفتان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﭭ شرفًا ﭬ بحضورهم البيعة، وقد اختارهم الله ﮀ لمصاحبة رسول الله في الدنيا وجعلهم من أنصاره ومواليه فقد نزلت الآية الكريمة فيمن حضر تلك البيعة، قال تعالىٰ: ﴿۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ [الفتح: ١٨]، إنّ كلام الباري ﮋ فيمن حضر البيعة ظاهر واضح، فقد منّ عليهم برضاه، والمقصود هنا رضي الله عن الذين بايعوه بعد أن علم ﮀ ما في قلوبهم وزادهم إيمانًا وأثابهم بذلك.

قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٩٥].

أقول: وهل هناك بيان أعظم من كلام الله في حق الصديق والفاروق، وهل هناك رضىٰ بعد رضىٰ الله عنهم، وأن الخلاف في أمر الخلافة لا يجعل في التقديم مسلكًا، فما وقع من الاختيار فهو اختلاف علىٰ المختار وليس خلاف في الاختيار، واتفقوا علىٰ ما جرىٰ، وقد كثر الخلاف والكلام، والجدل في الأُمةَّ، وتكلم الكثير في حق الخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم وأرضاهم، بسبب

أمر الخلافة وغيرها من القضايا والتي في حقيقة الأمر لا تقدم أو تؤخر من فضل الإمام علي عليه السلام وكان تجاوز الكلام وصل في مطعن الخليفة أبي بكر الصدِّيق ثاني اثنين إذ هما في الغار، والخليفة الثاني عمر بن الخطاب الفاروق سراج أهل الجنة، والخليفة الثالث ذو النورين عثمان في أمرهم، وهم من عاشوا منذ يومهم الأول في الإسلام يدافعون، ويفدون بأرواحهم وأنفسهم دين الله ورسوله، ويؤثرونه علىٰ أنفسهم، ومواقفهم عظيمة.

لقد نال صحابته الكرام من الفضائل والمنازل التي تجعلهم يتجاوزون القنطرة، فإن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما صهران لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووزيراه في حياته، وضجيعاه بعد مماته، ومن ينال هذه المنزلة، وقد جاهدا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع غزواته، وعثمان رضي الله عنه زوج ابنتين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قال في حقه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الكثير الكثير، والله لا يختار لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلا خيرة الأصحاب، فكيف لو كان العكس لم يبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم عداوة الخلفاء الثلاثة للإسلام، ويحذر منهم إن كانوا صادقين بزعمهم، فقد قدم أبا بكر في المسجد راضيًا للصلاة، وزوج عمر ابنته أم كلثوم، فهل يُصاهر الإمام علي عليه السلام كافرًا أو يُبايع كافرًا؟ بل سب هؤلاء الثلاثة رضوان الله عليهم فسق وتشويه وهم في منزلة قد اختصهم الله بها، وفضيلة يغبطون عليها، وقد وردت أحاديث عظيمة في فضائل الصحابة الكرام والتي تدل علىٰ مكانتهم من الدين بمكان مكين سأذكر منها حديثًا فيه إشارة وبشارة عظيمة لهما من رب العالمين علىٰ لسان رسوله الأمين أختم به الحديث عنهما رضي الله عنهما وأرضاهما وجمعنا بهما في مقعد صدق عند مليك

مقتدر، فقد جاء في الجامع الكبير للإمام الترمذي[١]: قال حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيىٰ بن سعيد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس حدثهم أن رسول الله ﷺ صعد أحدا وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال رسول الله ﷺ اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان.

الخبر المبين في فضائل أمهات المؤمنين

أعلم يرعاك الله أن الباري ﷻ قد خص زوجات النبي ﷺ بخصائص ومناقب، فقد كرمهن وجعلهن ليس كغيرهن من النساء وسماهن أمهات المؤمنين فوضعهن في دائرة كرامة، بمعنىٰ أن كل امرأة تزوجها النبي ﷺ يقال لها أم المؤمنين، فيقال أم المؤمنين خديجة، وأم المؤمنين أم سلمة، وأم المؤمنين عائشة، وأم المؤمنين حفصة، وأم المؤمنين صفيه،،، ألخ.

أقول: ألا يكفيك إيه الحصيف أن تسمع قول الباري ﷻ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

---

(١) الجامع الكبير باب المناقب ج٦/ ٦٧حديث ٣٦٩٧، أخرجه الطيالسي (١٩٨٥)، وأحمد ٣/ ١١٢، وفي فضائل الصحابة له (٢٦٤) و (٨١٨)، والبخاري ٥/ ١١ و١٤ و١٩، وأبو داود (٤٦٥١)، والنسائي في فضائل الصحابة (٣٣)، وأبو يعلىٰ (٢٩١٠) و(٢٩٦٤) و(٣١٩٦) وابن حبان (٦٨٦٥) و(٦٩٠٨)، والطبراني في الأوسط (٦٥٦٢)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٥٦، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٣٥٠، والخطيب في تاريخه ٥/ ٣٥٦، والبغوي (٣٩٠١)، تحفة الأشراف ١/ ٣٠٧ حديث (١١٧٢)، والمسند الجامع ٢/ ٤١٦ حديث (١٤٣٤)، وصحيح الترمذي للعلامة الألباني (٢٩١٧)، والسلسة الصحيحة له تحت الرقم (٨٧٥).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره[١]: وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلىٰ بناتهن وأخواتهن بالإجماع.

وقال الشوكاني في فتحه[٢]: وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ أَيْ: مِثْلُ أُمَّهَاتِهِمْ فِي الْحُكْمِ بِالتَّحْرِيمِ، وَمُنَزَّلَاتٌ مَنْزِلَتَهُنَّ فِي اسْتِحْقَاقِ التَّعْظِيمِ، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ، كَمَا لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِأُمِّهِ، فَهَذِهِ الْأُمُومَةُ مُخْتَصَّةٌ بتحريم النِّكَاحِ لَهُنَّ، وَبِالتَّعْظِيمِ لِجَنَابِهِنَّ، وَتَخْصِيصُ الْمُؤْمِنِينَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُنَّ لَسْنَ أُمَّهَاتِ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا بَنَاتُهُنَّ أَخَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا إِخْوَتُهُنَّ أَخْوَالَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ[٣]: الَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّهُنَّ أُمَّهَاتُ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ تَعْظِيمًا لِحَقِّهِنَّ عَلَىٰ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

قال الطباطبائي في ميزانه[٤]: وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ جعل تشريعي أي أنهن منهم بمنزلة أمهاتهم في وجوب تعظيمهن وحرمة نكاحهن بعد النبي ﷺ.

وقد أختلف أهل العلم في عدد زوجات النبي ﷺ، إلا أنهم اتفقوا علىٰ أنه دخل بإحدىٰ عشرة امرأة هن: خديجة بنت خويلد، وعائشة الصديقة بنت الصديق، وسودة بنت زمعة، وحفصة بنت عمر الصوامة القوامة، وزينب بنت خزيمة، وأم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة العاقلة الراشدة التي رأت جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن صخر، وصفية بنت حيي بن أخطب، وميمونة بنت الحارث.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣٧.
(٢) فتح القدير٤/ ٢٦١.
(٣) تفسير القرطبي١٤/ ١٢٣.
(٤) تفسير الميزان١٦/ ٤١٢.

فهذه إحدىٰ عشرة امرأة لا خلاف بين أهل العلم علىٰ أنهن زوجات للنبي ﷺ قد دخل بهن، والله العالم.

ولقد أمرنا الباري ﷻ بتعظيم النبي ﷺ وتوقيره، وعدم إيذائه في زوجاته أمهات المؤمنين، وقد يظهر من إحدىٰ صور إيذائه صلوات ربي وسلامه عليه الخوض والطعن في زوجاته، قال الباري ﷻ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

أخرج الإمام البخاري في صحيحه[1]: قال حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ حَدَّثَنَا هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «كَانَ النَّاسُ يَتَحَرَّوْنَ بِهَدَايَاهُمْ يَوْمَ عَائِشَةَ قَالَتْ عَائِشَةُ فَاجْتَمَعَ صَوَاحِبِي إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَقُلْنَ يَا أُمَّ سَلَمَةَ وَاللَّهِ إِنَّ النَّاسَ يَتَحَرَّوْنَ بِهَدَايَاهُمْ يَوْمَ عَائِشَةَ وَإِنَّا نُرِيدُ الْخَيْرَ كَمَا تُرِيدُهُ عَائِشَةُ فَمُرِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ أَنْ يُهْدُوا إِلَيْهِ حَيْثُ كَانَ أَوْ حَيْثُ مَا دَارَ قَالَتْ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ أُمُّ سَلَمَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ فَأَعْرَضَ عَنِّي فَلَمَّا عَادَ إِلَيَّ ذَكَرْتُ لَهُ ذَلك فَأَعْرَضَ عَنِّي فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ ذَكَرْتُ لَهُ فَقَالَ يَا أُمَّ سَلَمَةَ لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرِهَا».

أقول: قد حرم الباري ﷻ الزواج من زوجات النبي ﷺ، من بعد وجعله إيذاء له.

أقول: فما بال من يقوم بالسب والطعن وقد وصل الحد به إلىٰ تكفيرهن، نعوذ بالله من عاقبة السوء.

وقد تتطاول قوم ممن ضعف دينهم ولبس عليهم إبليس اللعين علىٰ زوجات النبي ﷺ، وأخص منهن أمهات المؤمنين عائشة وحفصة رضي الله عنهما.

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري باب فضل عائشة رضي الله عنها برقم **٣٧٧٥**، والنسائي ٧/ ٦٨-٦٩، والترمذي برقم **٤٢١٧**.

أقول: لقد رويت الأخبار الصحيحة في أنهما تظاهرتا علىٰ النبي ﷺ، وحدث منهن الخطأ والزلل كما بينت لنا سورة التحريم، وقد حذرهما الباري ﷻ علىٰ أن يبدلهما الله بخير منهن، أن لم يتوبا وقد رويت ولله الحمد والمنة الأخبار الصحيحة في ثبوت توبتهما، وإنهما زوجتاه صلوات ربي وسلامه عليه في الجنة.

فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده[1]: من حديث أبي وائل أنه قال: لَمَّا بَعَثَ عَلِيٌّ عَمَّارًا، وَالْحَسَنَ إِلَىٰ الْكُوفَةِ لِيَسْتَنْفِرَاهُمْ، فَخَطَبَ عَمَّارٌ، فَقَالَ: إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَكِنَّ اللهَ ﷻ ابْتَلَاكُمْ لِتَتَّبِعُوهُ أَوْ إِيَّاهَا».

وأخرج الحاكم أيضًا من طريق قيس بن زيد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَلَّقَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا خَالَاهَا قُدَامَةُ وَعُثْمَانُ ابْنَا مَظْعُونٍ، فَبَكَتْ وَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا طَلَّقَنِي عَنْ شِبَعٍ، وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «**قَالَ لِي جِبْرِيلُ** عليه السلام: **رَاجِعْ حَفْصَةَ، فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ، وَإِنَّهَا زَوْجَتُكَ فِي الْجَنَّةِ**»[2].

أما مناقبهما فكثيرة لو ذكرناها لطال المقام، لكن يكفيهما شرفًا صحبته صلوات ربي وسلامه عليه زوجاته في الفردوس الأعلىٰ.

إلا أن المعاند قد اختص بجهالته عجبًا لمن غيّر وبدل وحكم في حالكما بتبرؤه منكما، ولم يعلم أن الله اختصكما، فطوبىٰ لمن عظمكما ووقركما، وحزنًا علىٰ من بغضكما ولم يعظمكما واتبع هواه.

---

(١) مسند أحمد (١٨٣٣١) وأخرجه البخاري (٣٧٧٢)، والبزار في «مسنده» (١٤٠٩) مختصرًا، وأبو يعلىٰ (١٦٤٦)، والبيهقي في «السنن» ٨/ ١٧٤).

(٢) أقول: أخرجه الحاكم (٤/ ١٧)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٦٥) وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح، وصححه السيوطي في الجامع وحسنه الألباني في صحيح الجامع، وللحديث شواهد صحيحة تزيده صحة علىٰ صحته، والله العالم.

○ الزيدية ○

من أشهر فرق الشيعة وتنسب نفسها إلىٰ إمامها زيد[١] بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، وكان من أعلم أهل زمانه تلقىٰ علمه الأول بالمدينة ثم في البصرة وتتلمذ علىٰ والده وعلىٰ كبار علماء عصره من التابعين، ويؤكد الشهرستاني أنه تتلمذ علىٰ واصل بن عطاء وأخذ علوم الاعتزال منه، رغم أنه البعض ينفي ذلك بحجة أن واصل كان من أقران الإمام زيد وهذا في نظري لا يمنع زيدًا من طلب العلم من أقرانه ولا شك عندي في أن الإمام زيدًا تأثر بأفكار واصل، لاسيما أن الزيدية تتوافق مع كثير مما أتت به المعتزلة فهذا دليل علىٰ أن المعتزلة كانت إحدىٰ مدارس الزيدية في بداية الأمر ويؤكد ذلك أبو القاسم عبد الله البلخي وأحمد بن يحي المرتضىٰ[٢] علىٰ أن زيد يعد من طبقات المعتزلة، خرج زيد داعيًا لنفسه علىٰ هشام بن عبد الملك فقتله وصلبه سنة ١٢١هـ وخرج بعده ابنه يحيىٰ فقتل سنة ١٢٥هـ، وانتشر مذهب الزيدية في الحجاز ونواحيه ووصل إلىٰ بلاد المغرب وطبرستان وبلاد الديلم وبعض أجزاء إفريقيا والحقيقة أن الزيدية كانت قديمًا تغلب علىٰ أرض الحجاز بالأخص في ينبع ومكة وبعض نواحي المدينة، فمن كان من الشيعة في المدينة المنورة فكانوا علىٰ الأغلب إمامية إثنىٰ عشرية، ولا يزال مذهب الزيدية في بلاد اليمن قائم

(١) زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: الامام، أبو الحسين العلوي الهاشمي القرشي الطالبي (٧٩-١٢٢ هـ = ٦٩٨-٧٤٠ م)، ويقال له (زيد الشهيد) ولد بالمدينة، ونشأ في أحضان والده الإمام زين العابدين، عده الجاحظ من خطباء بني هاشم. وقال أبو حنيفة: ما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أسرع جوابا ولا أبين قولا، كانت إقامته بالكوفة واستشهد بالثاني من شهر صفر.

(٢) مقالات الإسلاميين للبلخي (باب ذكرالمعتزلة) ص٧٥، والمنية والآمل ص١٢.

ويتبعه جل أهلها، ويتركزون باليمن الشمالي في محافظات صعدة وصنعاء وعمران وذمار والجوف وحجة، وتتواجد أقلية زيدية صغيرة من مواطني السعودية في منطقة نجران في جنوب السعودية علىٰ الحدود السعودية اليمنية ويرىٰ بعض أهل السنة أن الزيدية أقرب الفرق الشيعية إلىٰ مذهب أهل السنة فهي لم تغل في عقائدها ولم يكفر الأكثرون منها أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ ولا يعارضون الصلاة خلف إمام من أهل السنة.

وأنقسم الزيدية كغيرهم من الفرق إلىٰ ثلاث فرق طعن بعضها في الشيخين فكانوا رافضة وبذلك نستطيع نقول إن الزيدية قد انقسمت إلىٰ ثلاثة أقسام في مسألة الحكم علىٰ الصحابة وهي: الترضية، والتوقف، والسب، ولعل يحيىٰ بن حمزة والشوكاني يتعرضان إلىٰ الموقفين الأول والثاني ويتجنبان عرض الثالث لأنه يسيء إلىٰ المذهب الزيدي ولا شك أن الأصل في السب كان متأخرًا وهو ما وجد بالأكثر عند طائفة الجارودية من الزيدية وهم نعتبرهم رافضة الزيدية وهذا الموقف نجده منتشرًا لدىٰ أحمد بن سليمان أحد أشهر أئمة الزيدية في تعرضه للصحابة الخلفاء الثلاثة مرورًا بأم المؤمنين عائشة، كما مال بعضها عن القول بإمامة المفضول، وهذه الفرق هي:

الجارودية: أصحاب أبي الجارود زياد بن أبي زياد وهم أقرب فرقة إلىٰ الشيعة الاثنىٰ عشرية.

الصالحية: أصحاب الحسن بن صالح بن حي.

البترية: أصحاب كثير النوىٰ الأبتر.

والفرقتان الصالحية والبترية متفقتان ومتماثلتان في الآراء.

أصول مذهب الزيدية:

١- عندهم الإمام منصوص عليه بالوصف لا بالاسم وأوصاف الإمام أن يكون فاطميًا ورعًا تقيًا سخيًا شجاعًا يخرج داعيًا الناس لنفسه، ولا يقولون بالتقية، ولا يؤمنون بالعصمة إلا للأئمة الثلاثة الأولين وهم علي بن أبي طالب والحسن والحسين بالإضافة لإيمانهم بعصمة النبي محمد ويرفضون مبدأ الغيبة وتوارث الإمامة ويؤمنون بأن كل من تتوفر فيه شروط الإمامة بإمكانه الخروج ومواجهة ما يعتبرونه ظلما شروط الإمامة عندهم أن يكون عالمًا بالشؤون الدينية، لا يعاني من عيوب جسدية وأنه من العترة.

٢- يجوز عندهم إمامة المفضول مع وجود الفاضل، لأن هذه الصفات للإمام الأمثل فهو بها أولىٰ من غيره فإن اختار أهل الحل والعقد إمامًا لم يستوف الشروط وبايعوه صحت بيعته، موقفهم من الصحابة الخلفاء الراشدين أقل حدة من باقي الشيعة فهم لا يطرونهم ولا يسبونهم ولا يقولون بتكفيرهم ولكنهم يؤمنون كسائر الشيعة أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كان أحق بخلافة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويعتبرون أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب مغتصبين وأن بيعتهم ليست شرعية لما يرونه حقًا شرعيًا لعلي بن أبي طالب وموقفهم أكثر تسامحًا من الشيعة الاثنىٰ عشرية والإسماعلية، وبذلك أقر بعضهم علىٰ هذا صحة بيعة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقد خالف زيدًا أكثر الشيعة لقوله بهذا الأصل رغم أننا نجد أن بعض الزيدية لا يقرون بصحة البيعة وأنها مغتصبة وفي ذلك خلاف في هذه المسألة عندهم.

٣- يجوز عندهم خروج إمامين في قطرين مختلفين، ولا يجوز خروج إمامين في قطر واحد.

٤- عندهم القول بتخليد مرتكب الكبيرة في النار ما لم يتب توبة نصوحًا.

دراسة تحليلة حول الزيدية ومقارنة بينها وبين المعتزلة والإمامية:

إن المتتبع لمذهب الزيدية منذ نشأته علىٰ يد مؤسسه زيد بن علي اعتمادًا علىٰ ما ورثه عن آبائه من القضايا التي يتمسك بها أهل البيت وشيعتهم من العدل والتوحيد ومكافحة الجبر والتشبيه، وكأحقية أهل البيت في الخلافة، وعمله علىٰ رواية الحديث عن آبائه وتقديمه القطعي بتفضيل الأحاديث الواردة عنهم علىٰ غيرها، وتقليدهم، وفي الفروع فقد التفّت الزيدية حول القياس والاستحسان والإجماع، وجعلوا الثالث بما هو حجة، كما قالوا بحجية قول الصحابي وفعله، وبذلك صار يعتبهم البعض أكثر فرق الشيعة انفتاحًا، ورغم أن مؤسس الزيدية الإمام زيدًا كان كغيره من الذين يفضلون الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام علىٰ سائر أصحاب رسول الله ﷺ إلا أنه يختلف عن الشيعة فهو يتولىٰ أبا بكر وعمر وعثمان ويترضىٰ عنهم ولا يكفرهم، وكان للإمام زيد رأي في الخروج علىٰ أئمة الجور، وكان لخروجه أثر كبير في انتشار مذهبه، فكان بعده مفكرون وعامة وهم بين دعاة للمذهب، أو بناة للدولة في اليمن وبلاد الديلم وجيلان وطبرستان، وبذلك ساهموا في إرساء المذهب الزيدي والذي تقارب في الأُصول والعقائد مع المعتزلة وفي بعض أصول الفقه وكيفية الاستنباط مع الحنفية مع قولهم بثبات حقيقة العدل والتوحيد مع أهل البيت وشيعتهم من رفض الجبر والتشبيه ومن هنا نجد أن لهذه المدرسة الزيدية فكرًا استقلاليًّا ونجدهم يلتقون مع المعتزلة في الأصول الثلاثة:

١- الوعد والوعيد.

٢- القول بالمنزلة بين المنزلتين.

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

حيث أضافوا هذه الأصول في مذهبهم ورتبوا عليه الآتي:

أ- قولهم بخلود مرتكب الكبيرة في النار إذا مات بلا توبة، وحرمانه من الشفاعة لأنها للعدول دون الفسق.

ب- قولهم بأن الشفاعة لمعنىٰ ترفيع الدرجة لا الحط من الذنوب.

ت- قولهم بأن الفاسق في منزلة بين المنزلتين، فهو عندهم لا مؤمن ولا كافر بل فاسق.

وهنا نأتي برؤوس عقائدهم التي يلتقون في بعضها مع المعتزلة والإباضية والإمامية ويوافقهم في بعضها بعض أهل السنة:

١- قولهم صفات الله عين ذاته.

٢- قولهم إن الله سبحانه وتعالى لا يرىٰ ولا يجوز عليه الرؤية.

٣- قولهم العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها.

٤- قولهم الله سبحانه وتعالى مريد بإرادة حادثة.

٥- قولهم إنّه سبحانه وتعالى متكّلم بكلام، وكلامه سبحانه وتعالى فعله: الحروف والأصوات.

٦- قولهم أفعال العباد ليست مخلوقة لله سبحانه وتعالى.

٧- قولهم تكليف ما يطاق قبيح، خلافًا للمجبرة والأشاعرة.

٨-قولهم المعاصي ليس بقضاء الله.

٩- قولهم الإمامة تجب شرعًا لا عقلًا خلافًا للإمامية.

١٠- نصُّهم علىٰ إمامة زيد والحسنين عند الأكثرية.

١١- قولهم بخطئ المتقدمين علىٰ الإمام علي في الخلافة قطعي.

١٢- قولهم بأن خطأ طلحة والزبير وعائشة قطعي.

١٣- قولهم بأن توبة الناكثين صحيحة.

١٤- اعتبارهم معاوية بن أبي سفيان فاسق لبغيه لم تثبت توبته.

فهذه هي حقيقة المذهب الزيدي من حيث النشأة والتكوين ولا شك أن الزيدية تمثل الفكر الإسلامي الحر المنفتح، والذي قبل في كثير من الأوساط الإسلامية، ولم يصطدم مع غيره من الفرق الإسلامية، بالمقارنة مع غيرهم من المتشددين الأشد تطرُّفًا.



◦ الإسماعيلية ◦

الإسماعيلية إحدىٰ فرق الشيعة، وتشترك الإسماعيلية مع الإثنىٰ عشرية والزيدية في مفهوم الإمامة، إلا أن الانشقاق وقع بينهم وبين باقي الشيعة بعد موت الإمام السادس جعفر الصادق، إذ رأىٰ فريق من جمهور الشيعة أن الإمامة في ابنه الأكبر الذي أوصىٰ له إسماعيل المبارك[1]، بينما رأىٰ فريق اخر أن الإمام هو أخوه موسىٰ الكاظم لثبوت موت إسماعيل في حياة أبيه وشهادة الناس ذلك.

الإمامة ومسائل الخلاف بين فرق الشيعة

يتفق الشيعة الزيدية والإمامية والإسماعيلية في مسألة الإمامة وضرورتها وأنها أصل من أصول العقائد لديهم إلا أنهم يختلفون فيما بينهم، فالإمامة المنصوصة خلافتهم وإمامتهم بعد النبي ﷺ، فعند الزيدية تنعقد في ثلاثة من أهل الكساء الإمام علي وابنيه الحسن والحسين عليهما السلام، وباستشهاد الإمام الحسين أغلق الزيدية مسألة التنصيص، وانتقلت إلىٰ مرحلة الانتخاب بالبيعة، أما الإمامية فهم قائلون بأنّ الأئمة المنصوص عليهم اثنا عشر إمامًا اخرهم هو غائبهم المنتظر، وقد جعل الإمامية مسألة ولاية الفقيه وهي عندهم أن تحال الأمور إلىٰ العارف بالأحكام والسنن ليقضي مصالح الأُمة في زمن الغيبة، وَأَمّا الإسماعيلية فقد

(١) إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أمه فاطمة بنت الحسين الأَثرم بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ولد في المدينة المنورة عام ١١٠هـ وتوفي عام ١٥٨هـ قبل أبيه جعفر الصادق في العريض، وكان أكبر إخوته وكان أبوه شديد المحبة له والبر به والإِشفاق عليه، عند موته حُمل علىٰ رقاب الرجال إلىٰ أبيه في المدينة حتىٰ دفن في البقيع.

قرروا بأن الإمامة بالتنصيص من النبي أو الإمام القائم مقامه، وهي تنتقل عندهم من الآباء إلىٰ الأبناء، ويكون انتقالها عن طريق الميلاد الطبيعي، ويكون ذلك بمثابة نص من الأب بتعيين الابن، وإذا كان للأب عدة أبناء فهو بما أُوتي من المعرفة يحدد الإمام من بعده الذي وقع عليه النص.

ويعتبر الإمام الأول للإسماعيلية والمؤسس للمذهب ومن سمي المذهب باسمه هو إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق -ث، وقد توفي إسماعيل في حياة أبيه وهو أكبر أبناء الإمام جعفر وكان شديد المحبة له، ويرىٰ الإسماعيلية في أخبارهم أن وفاته بعد وفاة أبيه ليؤكدوا بذلك إمامته، ويرىٰ الإمامية الصلاح في إسماعيل ويؤثقونه إلا أنهم لا يرون له أي دعوة للإمامة وأن الإمامة منصوصة لأخيه موسىٰ الكاظم، ونجد أن الإسماعيلية قد أعطت للإمامة درجة عالية، وأن الإمام عندهم يدخل في كهف الاستتار، وظاهرًا يملك جاهًا وسلطانًا في المجتمع، وأنه باستتارهم نشروا الدعوة سرًا وكتمانًا، فكان هناك أئمة مستورون وآخرون ظاهرون، ومن هنا استمرت دعوتهم علىٰ تعاليم خاصة واتبعت التنظيم السري الشديد في بث دعوتها، وتؤمن الإسماعيلية باستمرار الإمامة إلىٰ يوم القيامة.

الأئمة المستورون عندهم:

إسماعيل بن جعفر الصادق بعد إسماعيل في ابنه محمد الشهير بالمكتوم المتوفىٰ **١٩٣**هـ، ثم من بعده ابنه عبد الله الملقب بـ«الوفي» المتوفىٰ **٢١٢**هـ، ومن بعده انتقلت الإمامة إلىٰ ابنه أحمد الملقب بـ«التقي» المتوفىٰ **٢٦٥**هـ وهو الذي نقل دعوته إلىٰ مدينة السلمية القريبة من مدينة حماة السورية، وجعلها مركز الإمامة لنشر الدعوة، وانتقلت الإمامة بعد وفاته إلىٰ ابنه الحسين الملقب

بـ«الرضي» المتوفىٰ **٢٨٩**هـ، ويعتبر هؤلاء الخمسة أئمة الإسماعيلية المستورون.

الأئمة الظاهرون عندهم:

عبيد الله المهدي المتوفىٰ **٣٢٢**هـ وهو أول الأئمة الظاهرين عندهم، هاجر إلىٰ المغرب وأسس هناك الدولة الفاطمية، وهو من جاهر بدعوتهم وأخرجها من الاستتار، ونجد أن الدعوة الفاطمية في عهده اتسمت بدعوتهم وبالحكم السياسي الذي جمع بين دينهم ودولتهم، ثم بعد وفاته انتقلت دعوتهم إلىٰ ابنه محمد الملقب بـ«القائم بأمر الله» المتوفىٰ **٣٣٤**هـ، وانتقلت الإمامة إلىٰ ابنه إسماعيل الملقب بـ«المنصور بالله» المتوفىٰ **٣٤٦**هـ، ثم من بعده انتقلت شئون الإمامة إلىٰ ابنه معد الملقب بـ«المعز لدين الله» المتوفىٰ **٣٦٥**هـ وهو المنتقل إلىٰ مصر ومؤسس الدولة الفاطمية بها، وبذلك عادت الخلافة عندهم من المغرب إلىٰ المشرق مرة أخرىٰ، وكانت ولاية العهد في يدي ابنه الذي أصبح عندهم إمامًا بعد وفاة أبيه واستمرت خلافته إحدىٰ وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف، وبعد رحيله بويع بالخلافة ابنه منصور الملقب بـ«الحاكم بأمر الله» وهو الذي شيد أعمال إصلاحية ظاهرة، وساد مصيره الغموض باختفائه ومجمل القول أنه فقد في سنة **٤١١**هـ، وبسبب ذلك انشقّت فرقة عن الإسماعيلية ذهبت إلىٰ غيبته وهم المعروفون اليوم بـ«الدروز»، إلا أن الإسماعيلية بايعت ابنه علي الملقب بـ«الظاهر لإعزاز دين الله» المتوفىٰ **٤٢٧**هـ، وهو الذي شن حربًا علىٰ الدروز محاولًا إرجاعهم إلىٰ العقيدة الفاطمية الأصيلة، واستمرت الخلافة من بعد وفاته إلىٰ ابنه معد الملقب بـ«المستنصر بالله»، المتوفىٰ **٤٨٧**هـ، وبوفاته انقسمت الإسماعيلية الفاطمية مرة أخرىٰ إلىٰ نزارية شرقية ومستعلية غربية

والسبب في هذا الانقسام أن المستنصر بالله قد نص علىٰ أن يليه ابنه نزار لأنه الابن الأكبر، لكن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي نحَّىٰ نزارًا وأعلن إمامة المستعلي وهو الابن الأصغر كما أنه في نفس الوقت ابن أخت الوزير، وقام بإلقاء القبض علىٰ نزار ووضعه في سجن وسدَّ عليه الجدران حتىٰ مات، وبذلك فإن الإسماعيلية حملت هذا الانشقاق دون الاختلاف في أصول المذهب كما حدث في المرة الأولىٰ عند انشقاق الدروز عنهم.

الإسماعيلية المستعلية:

استمرت الدعوة الإسماعيلية رغم انشقاق صفوفها فهذه المستعلية تواصل دعوتها وتبايع الإمام أحمد بن معد بن علي المستعلي بالله المتوفىٰ **٤٩٥**هـ، وتستمر دعوتهم في مبايعة ابنه بعد وفاته الإمام منصور الآمر بأحكام الله المتوفىٰ **٥٢٤**هـ، ويثبت ابن خلِّكان[١] موت الآمر بأحكام الله ولم يعقب وفي رواية أخرىٰ أنه مات وامرأته حامل بابنه الطيب، مما جعله يعهد بالخلافة من بعده إلىٰ أبناء عمه وبحكم أنهم لم يكونوا من صلب الإمام السابق فإنهم سمّوا دعاة حيث لم يكن في الساحة إمام لهم، وكان أولهم الداعي عبد المجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر الملقب بـ «الحافظ لدين اله» المتوفىٰ **٥٤٤**هـ، ومن بعده إسماعيل بن عبد المجيد الملقب بـ «الظافر بأمر الله»، المتوفىٰ **٥٤٩**هـ، ومن بعده الداعي عيسىٰ بن إسماعيل الملقب بـ «الفائز بنصرالله» المتوفىٰ **٥٥٥**هـ، ومن بعده عبد الله بن يوسف الملقب بـ «العاضد لدين الله» المتوفىٰ سنة **٥٦٧**هـ، وهو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن

---

(١) وفيات الاعيان ٧/ ١١٢.

المهدي، وفي عهده فوّض الوزارة إلىٰ القائد صلاح الدين الأيوبي، الذي كان له الدور الكبير في إضعاف الدولة الفاطمية والسعي للقضاء علىٰ التشيع الإسماعيلي في مصر. ويصف المؤرخون كالمقريزي في خططه وغيره قوة نفوذ صلاح الدين وإضعاف دور العاضد باستنفاد ما عنده من المال وغير ذلك من التخبط الإداري، فلم يزل أمر العاضد في نقصان ووهن حتىٰ انحل أمره، ولم يبق له سوىٰ إقامة ذكره في الخطبة وأن يُذكر بكلام يحتمل التلبيس علىٰ الشيعة فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك. وتتبع صلاح الدين جند العاضد، وأخذ دور الأمراء وإقطاعاتهم، وبعث إلىٰ أبيه وأخواته وأهله، فقدموا من الشام عليه، وعزل قضاة مصر الشيعة، وأبطل العمل بما زيد في الأذان من قولهم (حي علىٰ خير العمل، محمد وعلي خير البشر) ثم أمر بعد ذلك بأن يُذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي رضي الله عنهم جميعًا، وزادت المضايقات من قبل صلاح الدين بقوة نفوذه علىٰ العاضد وأهل بيته والشيعة الإسمياعيلية حتىٰ مرض ومات وهو اخر الخلفاء الفاطميين بمصر وكانت مدتهم بالمغرب ومصر منذ قيام عبيد الله إلىٰ وفاة العاضد **٢٧٢**هـ منها بالقاهرة **٢٠٨** سنين(١)، توقفت الإمامة عند المستعلية ودخلت بعد اختفاء الطيب بالستر، وما تزال تنتظر عودته وتوقفت عن السير وراء ما يسمونه الركب الإمامي واتبعت ما يسمىٰ نظام الدعاة المطلقين الذين تتابعوا إلىٰ زمان **٩٩٩**هـ، وعند ذلك افترقت المستعلية إلىٰ فرقتين: داودية وسليمانية، وذلك بعد وفاة المسمىٰ الداعي المطلق داود بن عجب شاه،

---

(١) الخطط للمقريزي (٢/ ٢٦٦)، اتعاظ الحُنفاء (٣/ ٣١٧) للمقريزي، كتاب الروضتين (٢/ ٢٤١).

انتخبت مستعلية كجرات داود بن قطب شاه خلفًا له، ولكن اليمنيين عارضوا ذلك وانتخبوا داعيًا اخر لهم يدعىٰ سليمان بن الحسن، ويقولون: إن داود قد أوصىٰ له بموجب وثيقة ما تزال محفوظة، ولا تزال الإسماعيلية اليوم تسير بمنهج ما يسمونه الدعاة، والداعي المطلق عند الفرقة الإسماعيلية المستعلية الداودية اليوم هو سلطان البهرة مُفضل سيف الدين وهو الداعي الثالث والخمسون من سلسلة الدعاة المطلقين الفاطميين، ويقيم في بومباي الهند، أما المسمىٰ الداعي المطلق للفرقة المستعلية السليمانية فهو الداعي أحمد بن علي الجمالي ويقيم في نجران بالحجاز والمعين والعضد له علي بن حاسن المكرمي.

الإسماعيلية النزارية:

النزارية وهم من قال بإمامة نزار بن معد، وبذلك استمر ما يسمونه الركب الإمامي بعد وفاة المستنصر بالله، واتفقت النزارية في بداية الأمر علىٰ إمامة المصطفىٰ بالله نزار بن معد ثم الإمام جلال الدين حسن بن أعلىٰ محمد ثم من بعد ابنه الإمام علاء الدين ثم ابنه الإمام ركن الدين فور شاه ثم ابنه الإمام شمس الدين، وبعد خلافة الأئمة الخمسة وبوفاة ءاخرهم الإمام شمس الدين بن ركن الدين ظهر اختلاف من نوع جديد، فالمعلوم أنه كان لمحمد شمس الدين ثلاثة أولاد هم: مؤمن شاه، وقاسم شاه، وكيا شاه، ومن هنا تمر الإسماعيلية بمرحلة انشقاق جديدة داخل انقسام قائم فكانت النزارية مؤمنية وقاسمية.

النزارية المؤمنية: من اعترفت بإمامة مؤمن شاه وسارت وراءه ومن وراء ولده من بعده حتىٰ آخرهم أمير محمد بن حيدر (الأمير الباقر) المتوفىٰ سنة **١٢١٠**هـ، وهو اخر إمام من أسرة مؤمن الذين وصل عددهم إلىٰ **٢٢** إمامًا عندهم، ودخلت الإمامة من بعده في الستر.

النزارية القاسمية: من ذهبت إلىٰ القول بإمامة قاسم شاه وسارت وراءه ومن وراء ولده من بعده إلىٰ يومنا هذا حيث وصلت إلىٰ النوبة أسرة آغا خان، والآغاخانية هم الفرقة المنحصرة باستمرار ما يسمونه الإمامة في أولاد إسماعيل، وفق المذهب الإسماعيلي، وإمامهم اليوم كريم بن علي بن محمد المعروف بآغا خان الرابع.

والإسماعيلية كغيرها من المذاهب الإسلامية والتي اهتمت بالأصول والفروع ولعل الإسماعيلية يتفقون مع الكثير من الفرق الإسلامية في مسائل الأصول الخمسة: التوحيد والعدل والنبوّة والمعاد والإمامة، ومع ذلك فإن الكلام عن عقائدهم ليس بالأمر السهل لأنها تخضع عندهم للاستتار والإخفاء وعدم جعلها في متناول أيدي الآخرين إلا القليل والذي نستنتج منه اتخاذهم من التصوف والفلسفة اليونانية وإدخال فيها الشيء الكثير كالقول بالأفلاك التسعة والعقول العشرة مما يصعب علىٰ الكثير فهمه، ومن أشهر تلك المصادر التي تعرض عقائدهم الكتاب المسمىٰ «راحة العقل» للكرماني كبير دعاة الإسماعيلية والذي يعود تأليفه علىٰ عهد الحاكم بأمر الله، وكتاب «تاج العقائد ومعدن الفرائد» للمسمىٰ الداعي الإسماعيلي اليمني وهو أسهل فهمًا من «راحة العقل».

أما الفروع عندهن فلا تختلف الإسماعيلية كثيرًا مع المسلمين في مسائل المعاملات بل يقلدون المسلمين في كثير من المسائل المتعلقة بالمعاملات، ويظهر ذلك في ما كتبه القاضي التميمي المتوفىٰ **٣٦٣**هـ، في كتابه الشهير بـ «دعائم الإسلام».

والإسماعيلية اليوم ينتشرون في الوقت الحاضر ويتركزون في شبه القارة الهندية وباكستان وأفغانستان وسوريا تحديدًا في السلمية ومصياف وبعض قرىٰ طرطوس، وفي جنوب وشرق شبه الجزيرة العربية في اليمن ومنطقة نجران جنوب الحجاز، وفي شرق أفريقيا.



○ العلوية وحقائق حول نسبتهم إلىٰ «النصيرية» ○

العلوية وتسمىٰ كذلك النصيرية هي إحدىٰ الفرق الشيعية الجعفرية الاثني عشرية، والحقيقة أن الكتابة عن العلوية أمر صعب، وفيه الكثير من الغموض، ولابد من نشر الحقائق حول هذه الفرقة الإسلامية، والذين تلقفتهم أقلام كثير من ذوي الأقلام السيّالة وهم في الحقيقة بعيدون عن معرفتهم بهم، ولاسيما بسبب الانغلاق الفكري الذي عاشه العلويين بسبب الضغوط السياسية، وقد اختلطت كثيرًا من عقائدهم مع فرقة النصيرية البائدة، ولعل الضعف الذي أصاب السواد الأعظم من طائفة العلويين والتوجه السياسي الحاكم في سوريا بالأخص وانخراطهم في السلك السياسي والتصاق الكثير من القرارات السياسية التعسفية كان له الدور في طمس حقيقة مذهبهم حيث إن النظر إليهم من حيث العقيدة يظهر لنا من جهة القرارات السياسية التي مع الوقت ألصقت بمذهبهم، وأصبح الحكم علىٰ مذهب العلويين ينظر من خلال السياسة الممارسة داخل بيت الحكم، وبذلك اختلط الأمر علىٰ الكثير من المؤرخين، ولعل ما حدث في سوريا من قبل النظام حول حركة الإخوان المسلمين، التصق في الدرجة الأولىٰ بالعلويين في سوريا، وإن هذا الحدث انقلب من حركة نظام داخلية إلىٰ جزء من عقيدة العلويين، رغم أن مواجهة جماعة الإخوان كانت في ذلك الوقت في كثير من الدول الإسلامية، ولكن بأس النظام السوري العسكري كان أشد في تعامله معهم أكثر من غيرهم، ولسنا هنا بصدد التدخل في جانب النظام السوري، ولعل هنالك عنف استخدم من قبل النظام مع الشعب لخمد فتنة كان يراها للحفاظ علىٰ بقائه علىٰ كرسي الحكم، ولكن دفع ثمن ذلك العلويون أنفسهم من حيث رميهم بأنهم فرقة ليسوا مسلمين نتيجة ما فعله النظام، واختلط

ذلك علىٰ كثير من المسلمين، فالنظر إليهم أصبح من خلال تطبيق سياسة النظام داخل القطر السوري، والحقيقة أنك إن تتبعت عقيدتهم وجدت أنهم من الفرق المسماة الإمامية الاثني عشرية لاسيما بإيمانهم بالدعوة الباطنية، وهي سرية في تعاليهما وممارسة لطقوسها وما يعتقدون أنه العبادة، ومن أهم الأسباب التي أضاعت مدرسة وفكر العلويين واختلطها بالنصيرية هو عدم اعتمادهم علىٰ نظام المرجعيات والذي يعد أساسيًا عند من سواهم من الفرق، ويعد من أهم ما يرتكز عليه المذهب الشيعي الإثنىٰ عشري في قضايا الفروع والأحوال الشخصية، وبذلك عُدِم نتاج المؤلفات الحديثة التي تتطرح فكرهم لغيرهم من الناس، إلا القليل من الكتب في ما يسمونه الفقه والحديث عندهم والتي بين أيديهم وتعتمد بشكل أساسي علىٰ الكتب الشيعية وعلىٰ رأسها الكتب الأربعة، ومصنفات أخرىٰ كثيرة يشتركون فيها مع بقية الاثنىٰ عشرية، ونجد اليوم وقد انتشرت مؤلفاتهم الحديثة والتي تؤكد توافق عقيدتهم وانتمائهم إلىٰ الإمامية الاثنىٰ عشرية[١]، ولا شك أن مسألة إيمانهم في وقت من الأوقات بكون محمد بن نصير النميري أحد نواب الإمام المهدي في فترة الغيبة الصغرىٰ، كان سبب انحرافهم مع سرية هذه الفرقة وتخفيهم وانطوائهم علىٰ أنفسهم جعلهم أرضًا خصبة لتوجيه سيل من الاتهامات تاريخيًا، فوصفهم بعض الشيعة بالغلو، والكثير من أهل السنة تصفهم بأنها فرقة تستر عقائد باطنية كفرية وهذا ما بين أيدينا مما يذكر عنهم في معاجم الفرق مليئ بذمهم وتفسيقهم وتكفيرهم، وهو ما تداوله وتناقله المؤرخون عن بعضهم البعض، ومن الانصاف نحن نكتب

(١) الشيخ عبدالرحمن الخير وكتابه المسمىٰ عقيدتنا وواقعنا نحن المسلمين الجعفريين (العلويين)، محمد أمين غالب الطويل تاريخ العلويين، الشيخ علي سليمان المسلمون العلويون.

عنهم لنكشف الغطاء عن حقائق تُعتمد بالرجوع إلىٰ معرفة تلك الفرقة، وهذا ما حرصت عليه أن أقف علىٰ عقائدهم وخفايا أُصولهم.

فالحقيقة أن تسمية العلويين المنتشرين الذين يتواجدون اليوم في سلسلة الجبال الممتدة من عكار جنوبًا إلىٰ جبال طوروس شمالًا، وهي الجبال الساحلية السورية ومقرهم الرئيسي بشمال سوريا بالجبال المعروفة بجبال النصيرية، ويتوزع بعضهم في ريف حماة وحمص، ولواء اسكندرون وقيليقية وأضنة في تركيا، والعراق وتركيا وإيران، وقد نسبوا إلىٰ فرقة النصييرية البائدة، وذلك اعتمادًا علىٰ أفعال نسبت إليهم ينكرها هم أنفسهم العلويين اليوم.

أما تسمية العلويين بالنصيرية ففي ذلك يوضح لنا العلويون أنفسهم هذه الشبهة فيما ذكره مؤرخهم محمد أمين غالب الطويل بقوله: أنه لما فتحت جهات بعلبك وحمص استمد أبو عبيدة الجراح نجدة، فأتاه من العراق خالد بن الوليد، ومن مصر عمرو بن العاص، وأتاه من المدينة جماعة من أتباع الإمام علي وهم ممّن حضروا بيعة غدير خم وهم من الأنصار وعددهم يزيد عن أربعمائة وخمسين، فسميت هذه القوة الصغيرة نصيرية، فقد سميت الأراضي التي حررها جماعة النصيرية جبل النصيرية، وهو عبارة عن جبل الحلو وبعض قضاء العمرانية المعروف الآن، ثم أصبح هذا الاسم علمًا خاصًا لكل جبال العلويين من جبال لبنان إلىٰ أنطاكية[١].

ويؤكد الفقيه المحقق المعاصر الشيخ جعفر السبحاني هذا الرأي بقوله: إن هذا الرأي أقرب إلىٰ الصواب، ذلك أن المؤرخين الصليبيين أطلقوا علىٰ هذا الجبل اسم (**النصيرة**) ويبدو أن هذا الاسم قد حرف إلىٰ نصيرية علىٰ هذا الجبل

(١) تاريخ العلويين ص ٩٧-٩٨.

لم يظهر إلا أثناء الحملات الصليبية، أي بعد عام **٤٩٨**هـ[١].

أما النصيرية فهم فرقة أحدثها محمد بن نصير النميري من موالي بني نمير، وكان شيعيًا إماميًا من أتباع إمامهم الحادي عشر الحسن العسكري وقد أسس الطائفة النصيرية علىٰ مبادئ معينة أحل فيها الكثير من المحرمات والتي أنكرها عليه كبار علماء السنة والشيعة.

قال الشيخ الأشعري في مقالاته[٢]: في أصناف الغالية: أن فرقة من الرافضة يقال لهم النميرية أصحاب النميري يقولون إن البارئ كان حالًا في النميري.

قال الشيخ الطوسي في غيبته[٣]: محمد بن نصير النميري من أصحاب أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام فلما توفي أبو محمد ادعىٰ مقام أبي جعفر محمد بن عثمان أنه صاحب إمام الزمان وادعىٰ البابية، وفضحه الله تعالىٰ بما ظهر منه من الإلحاد والجهل.

والحقيقة أن هذه هي النصيرية التي تعد من الفرق الإسلامية والتي حكم عليها علماء الأمة قاطبة بعدم نسبتها للإسلام، وهي من الفرق البائدة اليوم ولا تجد أحدًا يتبنىٰ أفكارها بين المسلمين، وإن كانت قد تفشت في وقت من الزمن علىٰ العلويين في سوريا واختلطت عليهم الأمور علىٰ العلويين في سوريا بسبب تفشي الجهل لديهم أكثر مما هم فيه أساسًا، حتىٰ التفت إليهم علماء الإمامية وأعادوهم إلىٰ طريقهم الأول، وفي ذلك دلالة علىٰ أنهم علىٰ مذهبهم الإمامي الاثني عشري، وبذلك فإن فرقة العلويين إحدىٰ فرق الشيعة الإمامية

(١) المذاهب الإسلامية ٣٥٠.

(٢) مقالات الإسلاميين ١٨.

(٣) غيبة الطوسي ٣٩٨-٣٩٩.

الاثني عشرية، وعقيدتهم تتلخص في: التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد.

أقول وما نحن عليه أن العلويين اليوم في سوريا وتركيا ونواحيها من الفرق الإسلامية الشيعية وهو ما وفقنا واهتدينا إليه والله العالم.



○ الدروز (المسّمون الموحدين) ○

الدرزية أو ما يسمىٰ بمذهب التوحيد وأتباعها الدروز ومفردها درزي، ويتسمون بالموحدين، والحقيقة أن الدروز يستنكرون تسميتهم إلىٰ هذه النسبة حيث إنهم يعتبرون ذلك التصاق في فكر وعقيدة الداعي نوشتكين الدرزي والذي ينتقدون آراءه، وقد يرمونه في بعض المواضع بالإلحاد وشذوذه عن أصل دعوتهم وعقيدتهم ولا شك أن نسبتهم وتسميتهم بالدروز هو ما نتناوله وتناوله المؤرخون علىٰ مر التاريخ.

والدروز طائفة من الفرق الباطنية التي لها عقائد سرية، ذات أتباع ويذكر محمد كامل حسين مواضع الدروز في العالم[١] وقد نقلت شيئًا من كلامه وما ثبت لدي أنهم متفرقون بين جبال لبنان وهنا انشتارهم الأكثر في القسم الجبلي المعروف بالغرب الأسفل من الشويفات إلىٰ دير القمر، وفي الغرب الأعلىٰ من دير القمر إلىٰ عالية ونهر الغابون، وفي محافظة السويداء من الجمهورية السورية حيث جبل حوران والذي يعرف بجبل الدروز والجبل الأعلىٰ من أعمال حلب بينها وبين أنطاكية، وفي فلسطين عند جبل الكرمل وصفد تسكن قبائل عربية مختلفة تتمذهب بالعقيدة الدرزية، وفي بلاد المغرب بالقرب من مدينة تلمسان بعض قبيلة تدين بالعقيدة الدرزية دون أن يعرف جيرانهم حقيقة مذهبهم ويعتبرون أن نسبتهم الصحيحة هي الموحدون الدروز، نسبةً إلىٰ عقيدتهم الأساسية في «توحيد الله» أو بتسميتهم الشائعة «بنو معروف» ويعتقد الباحثون أن هذا الاسم هو لقبيلة عربية اعتنقت الدرزية في بداياتها أو ربما هو لقب بمعنىٰ أهل المعرفة والخير، وأما اسم «دروز» فأطلق عليهم نسبة إلىٰ نشتكين الدرزي وهم يرفضون

---

(١) طائفة الدروز تاريخها وعقائدها ص٧.

هذه التسمية أحيانًا، ويؤكدون إلىٰ أن هذا الاسم غير موجود في كتبهم المقدسة ولم يرد تاريخيًا في المراجع التي تكلمت عنهم، وقد ثبت لدي أن هذا الرجل داعٍ مستقل وهو أحد أتباع الباطنية التي كان له آراء تصادمية مع الفرقة مما جعلهم يتبرئون منه، كما ذكرت مسبقًا، وهم ليس أتباعه رغم قوته التي تظهر من تسميتهم باسمه ولا شك والثابت أنهم أتباع الحاكم بأمر الله، والحقيقة أن من أراد قديمًا الكتابة عن الدروز، قد لا يجد شيئًا يصح الاعتماد عليه، لاسيما أنهم من الطوائف التي لا تنشر عقائدها، فبذلك لم يجد أهل الملل والنحل ما يعتمد عليه من المراجع، وبذلك أصبحت العقيدة الدرزية موضع شك وشبهة، ولا شك أن الجذور الحقيقة للدرزية أنهم كانوا علىٰ العقيدة الإسلامية كما هو الثابت تاريخيًا، وهو ما يثبته أهل الفرقة الإسماعلية أنفسهم، أنهم منشقين زمن الإمام الحاكم بأمر الله الإسماعيلي حينما قالوا بغيبته وعدم موته، وسبب هذا الانشقاق أن الحاكم استدعىٰ حمزة بن علي بن أحمد الزوزني[(١)] الفارسي، وأمره أن يذهب إلىٰ بلاد الشام ليتسلم رئاسة الدعوة الإسماعلية فيها ويجعل مقره «وادي التيم» ولقبه بالإمام بالسيد الهادي، وتمكن حمزة بن علي في وقت قليل من نشر الدعوة الإسماعلية، وقد عمل الرجل علىٰ تغيير ما رسخه نشتكين الدرزي في مسألة العقيدة وما وصل به أهل الطائفة هناك، إلىٰ أن وصل إليه خبر وفاة الحاكم بأمر الله وتصدر ابنه الظاهر لمقام الولاية عندهم، ولم يؤمن حمزة وقتها بوفاة الإمام الحاكم بأمر الله، وادعىٰ أنه غاب، وبقي متمسكًا بإمامته، ومنتظرًا لعودته ومن هنا تبدأ قصة انفصال الدرزي عن الإسماعلية، وأسس

(١) الزوزني: نسبة إلىٰ زوزن بزائين معجمتين، مفتوحتين بينهما واو ساكنة بلدة بين هراة ونيسابور.

الفرقة الدرزية سنة ٤١١هـ[(١)]، ويعتمد علماء الدروز علىٰ العديد من الأدلة للقول بإسلامهم منها قولهم: إن الحاكم بأمر الله كان مسلمًا (بنىٰ الجوامع وأقام الصلاة في أوقاتها وأقام دعائم الإسلام)، وقولهم إن التقاليد الاجتماعية الدرزية المشابهة تمامًا لنظيرتها الإسلامية مثلًا طقوس الزواج والعزاء وشعيرة عيد الأضحىٰ، ويقول الدروز إن رسائل الحكمة التي تعتبر من مصادر العقيدة الدرزية والتي يعتبرها الدروز تفسيرًا لكتاب القرآن لا تحتوي أي شيء يخالف القرآن، وأما بعض الرسائل التي فيها بعض الشك فيقول الدروز إنها: «كتبت في عصور لاحقة بعد اختفاء الحاكم، وقد أثبت التحليل الكيميائي ذلك»، وينطق الدروز بالشهادتين باللسان وأنهم يؤمنون بالرسول محمد ﷺ وبالقرآن الكريم والقضاء والقدر واليوم الآخر، ويعتقد الموحدون الدروز أن الله واحد أحد لا إله إلا هو ولا معبود سواه الواحد الأحد الفرد الصمد المنزه عن الأزواج والتعدد وهو الحاكم الفعلي والأزلي للكون ويقولون إن ما في القرآن (علىٰ العرش استوىٰ) و(أحكم الحاكمين) فهو الحاكم الأحد المنزه عن عباده ومخلوقاته فالله تعالىٰ عن وصف الواصفين وإدراك العالمين وهو في مواضع كثيرة من رسائل الحكمة، ويقولون هو حاكم الحكام المنزه عن الخواطر والأوهام جل وعلا فلا مجال لتشبيه ألوهيته أو حلوله في أحد من البشر، وإن الغاية من علوم التوحيد هو رفع البشر إلىٰ منازل عالية وهي تبدأ من مرحلة الموحد وهي إتباع حلال الحلال أي أفضله ومبادئ التوحيد الفضائل العفية والعدل والطهارة ثم منزلة حرف الصدق ثم منزلة الحدود ثم منزلة المؤانسة أو الناسوت وهي سعادة السعادات وغاية الغايات من خلق النفوس وهي جوهر

(١) تاريخ الدعوة الإسماعلية مصطفىٰ غالب ص ٢٢٥-٢٣٨.

التوحيد عندهم، وبذلك نجد في عقيدتهم الصياغة الفلسفية التي لا تختلف كثيرًا عن مدرسة الفكر الإسماعيلي العقائدي الفلسفي، مما يؤكد أن هذا المذهب هو أحد مدارس المذهب الإسماعيلي.

واختلفت آراء العلماء والباحثين والمفكرين حول عقيدتهم، وقد كانت الضبابية في أمرهم كبيرة جدًا، والسؤال المهم هل ينتسبون إلىٰ الإسلام؟ وهنا تتعدد الإجابات والتي قد تزيد من الضبابية إلىٰ العتمة، فهناك من لا يعتبرون أنهم من الفرق الإسلامية، ومنهم من اعتبر الدرزية مذهبًا من المذاهب الإسلامية إلىٰ الإسلام، ومنهم من اعتبر أن الدرزية ديانة مستقلة بحد ذاتها، وفي نفس الوقت نجد أن الدروز أنفسهم ومشايخهم كالشيخ محمد أبو شقرة يقولون عن أنفسهم ورعاياهم إنهم مسلمون، كما إننا نجد اليوم مؤلفاتهم الحديثة تنادي بأنهم فرقة إسلامية قد اتهمت اتهامات استهدافية لا أصل لها في حقيقة مذهبهم كالدكتور سامي نسيب مكارم، محمد علي الزعبي، حافظ أبو مصلح، فؤاد الأطرش، والدكتور صالح زهر الدين[١]، وهناك كلام يذكره الأمير شكيب إرسلان الملقب بأمير البيان العربي حول مذهب الدروز، والذي يثبت في طياته لغة الإسلام التي تخاطب العقل بروح الإيمان والتسامح والدعوة إلىٰ جمع الشمل وتوحيد الصفوف[٢].

(١) محمد علي الزعبي، الدروز ظاهرهم وباطنهم، حافظ أبو مصلح، واقع الدروز، فؤاد الأطرش، الدروز مؤامرات وتاريخ وحقائق، صالح زهر الدين تاريخ المسلمين الموحدين (الدروز).

(٢) مقال في جريدة الشورىٰ في ١٥/ جمادىٰ الثانية سنة ١٣٤٤هـ بعنوان (الدروز فرقة من الفرق الإسلامية)، نقلًا عن كتاب طائفة الدروز ص ١٢٤.

ومن جهةٍ أخرىٰ وعلىٰ صعيد العالم الإسلامي أصدر الأزهر فتوىٰ تقول بانتماء الدروز إلىٰ الإسلام[(١)]، وفي سوريا مؤخرًا صدرت فتوىٰ من مفتي الجمهورية وهو أحد علماء السنة اعتَبر فيها الدروز والعلويين والإسماعيليين مسلمين، وكما نجد أن مجموعة من كتاب تاريخ الفكر والمذاهب الإسلامية من أهل السنة والذين شغلتهم هذه الطائفة، وتبنوا دراسة عن حقيقة عقيدتهم فأخرجوا لنا الكثير من حقائق الدروز ليؤكدوا لنا أنهم أحدىٰ الفرق الإسلامية، وأجمعوا علىٰ أن الدروز مسلمون، ومنهم عبد الله النجار، الدكتور محمد حسين كامل، مصطفىٰ الشكعة، الدكتور عبد الرحمن بدوي[(٢)].

ومع ذلك نجد العديد من الفتاوىٰ التي تكفّر الدروز علانية، وتخرجهم من البيت الإسلامي وأنهم من الفرق التي توقف في الحكم عليهم مستندين في توقفهم علىٰ أن معتقدات الدروز لا تعد ظاهرة لهم كغيرهم من الفرق فلا يعرفون إلا أنهم يقولون كما يقول المسلمون وهذا يؤخر الحكم عليهم حتىٰ تنتشر كتبهم ويبين حالهم.

أقول وبعرض ما ذكرناه حول فرقة الموحدين الدروز، فإننا نراهم ونقرهم من الفرق الإسلامية، وهو ما وفقنا واهتدينا إليه والله العالم.

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) صحيفة القبس الكويتية، عددها الصادر بتاريخ ٢/ ١٠/ ١٩٨٣. وبتوقيع رئيس لجنة الفتوىٰ الشيخ محمد عبد اللطيف السبكي.

(٢) عبد الله النجار، مذهب الموحدين الدروز ط٢، ص٢١٥ -٢١٧ الدكتور محمد كامل حسين، طائفة الدروز، تاريخها وعقائدها ص ١٢٦-١٢٧ الدكتور عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، الدروز ص ٦٤٧-٦٤٨ مصطفىٰ الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص ٢٩٢.

أقول: وهذا كتاب ذكرت فيه أهم أصول الدين وقسمتها إلى خمسة أصول نهجت فيه نهج أصحاب الكلام وأهل الحديث، وكل أصل شرحنا فية عدة مسائل، وعلى الله التكلان:

الأصل الأول

التوحيد

وفيه مسائل:

اللاهوت:

ما يسمىٰ علم اللاهوت واسمه عند الأوربيّين ثيولوجيا (theology) وهو عندهم علم الذات الإلهيّة، والصفات الربوبيّة، والقواعد الدينيّة.

أقسامه: أربعة وهي عندهم:

١- التاريخ المقدّس.

٢- تفسير الكتاب المقدّس.

٣- علم المذاهب النصرانيّة.

٤- علم الأخلاق[١].

---

(١) يستخدم المصطلح -علم اللاهوت- اليوم بمعنيين، أحدهما ضيق والآخر واسع. وتشتق لفظة (الثيو لوجيا - علم اللاهوت) من كلمتين يونانيتين هما: (ثيوس Theos) بمعنىٰ (الله)، و(لوجوس Logos) بمعنىٰ: (كلمة) أو (عقيدة) أو (علم). ومن ثم يعرف (الثيولوجيا - علم اللاهوت) في المفهوم الضيق المحدود أنه: «التعليم عن الله». أما في مفهومه الأوسع والأكثر شيوعًا فيضمون في المصطلح (الثيولوجيا) كل العقائد النصرانية، ليس فقط توحيد الله، لكن أيضًا كل العقائد التي تعالج كل ما يسمونه العلاقات بين الله والكون، وفي إطار هذا المفهوم الواسع فإنهم يعرفون ما يسمىٰ علم اللاهوت علىٰ أنه: « العلم الذي يبحث في المعرفة بالله وبصلاته وعلاقاته بالكون ». انظر: ما يسمىٰ علم اللاهوت النظامي، القس جيمس أَنِس، راجعه ونقَّحه وأضاف إليه: القس منيس عبد النور، ص١-١٣.

اللَّه:

هذا الاسم العظيم الكريم عَلَمٌ علىٰ الذات المقدّسة الذي نؤمن به ونعرف أنّ حياتنا بخلقه وإليه مصيرنا.

والله -تبارك وتعالىٰ- أهلٌ أن يحمد ويمجد، وأهل أن يشكر ويناب إليه، وهو أهل التقوىٰ وأهل المغفرة، لا نُحصي عليه ثناءً.

الوجود:

وجود الله جلّ جلاله:

مسألة وجود الله تعالىٰ تعلم بالعقل البشري منذ القديم، فتمخّض عن ذلك إيمان كثير من الناس الناس بوجود الله ﷻ، وقد آمن كثير من الناس بعد أن اهتدوا وحكّموا عقولهم وابتعدوا عن الهوىٰ والشطط، وعرفوا وجوده جلّ جلاله ونظروا في الكون ودقائقه وأسراره، ومع ذلك فما عرفوا قدره وعظمته جلَّ جلاله.

المنكرون: أنكر الملحدون الضالّون أهل الضلالة وجود الله جلّ جلاله وقد ادّعوا حريّة العقل؛ لأنّ الحواس لم تدركه، والغيب لا يعوّل عليه في إثبات وجوده.

أقول: قد يقول قائل وكيف يكون الإنسان محتاجًا إلىٰ أدلّة تثبت أنّ الله تعالىٰ موجود، فالحقيقة الإنسانية والفطرة البشرية تدلاّن علىٰ أنّ ما من إنسان إلاّ وعنده شعور ذاتي أقوىٰ من الشعور بالجوع والعطش أنّه مخلوق وله خالق.

إنّ للعالم الذي يعيش فيه ويتمتّع به موجودًا حكيمًا رحيمًا قويًا قادرًا علىٰ كلّ شيء، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا

تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠]، فما من عقل يفكّر تفكيرًا سليمًا من غير تأثر بمؤثّرات فاسدة إلاّ وعلم أنّ الخالق هو صانعه وخالقه.

إنّ من فكّر وظنّ أنه لا وجود لله تعالىٰ في وقت من الأوقات شعر بالضياع، فالوحدانيّة لا تكون إلاّ لله، ولكن كلّ من أنكر وجود الله متأثّرًا بالمضلّين الخاسرين في هذه الحياة يمكن إلاّ وجاءت لحظات وحدّثه ضميره وسمع النداء وصراخ ذاته الباطنة وهتاف وجدانه والكلّ يقول له: إنّك من صنع الله وعبد لله ومخلوق لله.

حقيقة الباطن معناها يتوقّف العقل السليم وتذهب كلّ خرافة وهراء وضلال، كما أنّ الإنسان الجحود بنعمة ربّه قد يأتيه فكر في داخله يؤكّد وجود الله، ويتحوّل إلىٰ شعور حسّي مسموع ترتفع فيه الأيدي وتخضع النفوس وتنحني لله فانحنىٰ ونكس رأسه فانثنىٰ وقد أرعشت الخشية من الله رجليه سالت دموعه علىٰ خدّيه وهو يدعو بيا أرحم الراحمين، يخشىٰ غضب الله وسخطه ويطلب عفوه.

كلّ ذلك يؤكّد أنّه لا مردَّ له إلاّ إليه تبارك وتعالىٰ، عظمة الله وجلاله أنه لا يحتاج إلىٰ أحد ويحتاج إليه كل أحد. والقرآن الكريم عبّر في أكثر من آية عن هذا الشعور الذي يظهر في الإنسان، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢].

وقد عبّر القرآن الكريم في سورة الأنبياء عن أنّ التوجّه بالدُّعاء في السرّاء والضرّاء يكون إلىٰ الله، وهذا لم يكن فقط مع عباده العاصين بل مع أنبيائه

وعباده الصالحين أيضًا، وإليك بعض هذه الآيات القرآنيّة:

فهذا نبيّ الله أيّوب عليه السلام قد مسّه الضرّ وهو يعلم أنّ الله أرحم الراحمين وهو نبيّه، فقال تعالىٰ:

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

وقوله تعالىٰ:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦].

وقوله تعالىٰ:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وقوله تعالىٰ:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ﴾ [الأنبياء: ٨٨-٨٩].

إنّ الله هو الواجد الغنيّ الذي يعوزه شيء القادر علىٰ كل شيء من الممكنات وهذه أدلّة عظيمة أنْ لا شيء أوجدته الطبيعة إنّما هو الخالق الصانع المقدّر الله تعالىٰ نعبده ونقدّسه ونمجّده، خلق الأكوان وصوّرها فالويل لبعدٍ يجحده، يهدي من شاء إلىٰ خير، ويريه الحق وَيُرشِدُه، إن كان تقيًّا يُسْعِدُه أو كان شقيًّا يُبْعِدُه، وهو الله يمتحن عباده فيتضرعون إليه بالدعاء في السراء والضراء وليس

في حال مستهم الضراء فقط، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فالعالم وهذا الكون المصنوع والذي فيه منتهىٰ الدقّة لا يأتي من صنع الصدفة ولا من الطبيعة، إنّ الذي يصدِّق بالصدفة ولا يصدِّق بقدرة الله علىٰ كل شىٰء وأنه هو قادر علىٰ إيجاد عوالم أكبر من هذا العالم بل يقول بأن الصدفة أوجدت هذا العالم وتتصرّف فيه بحرّية وكمال دقّة فهذا القائل هو إنسان بالتأكيد فقَدَ سلامة عقله وضلّ طريق الصواب. اللّهُمَّ لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠].



۞ عقيدة الألوهيّة عند الفلاسفة ۞

وإليك طائفة من أقوال الفلاسفة الذين يعترفون بأنّ الإيمان بوجود الله تعالىٰ ضروري لا يحتاج إلىٰ دليل، وأنّ من ينكر وجوده تعالىٰ لا يكون عادلًا ولا محكِّمًا عقله وضميره:

قال الفيلسوف باسكال: «كلّ شيء غير الله لا يشفي لنا غليلًا»[١].

قال شاتوبريان: «لم يتجرّأ علىٰ إنكار الله غير الإنسان»[٢].

قال لاتييه: «الكلمة التي تجحد الخالق تحرق شفة المتلفّظ بها»[٣].

وقال المسيو يوشيف في كتابه المسمّىٰ «التذكرة في تاريخ البرهان علىٰ وجود الخالق»:

«اعتقاد الأفراد والنوع الإنساني بأسره في الخالق اعتقاد اضطراريّ قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالّة علىٰ وجوده، ومهما صعد الإنسان بذاكرته في طفولته فلا يستطيع أن يجد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق، تلك العقيدة التي نشأت صامتة، وصار لها أكبر الآثار في حياته، فقد حدثت هذه العقيدة في أنفسنا ككلّ المدركات الرئيسيّة علىٰ غير علم منّا»[٤].

وأقوال الفلاسفة حافلة بالكثير من الأفكار العميقة التي تؤكّد جزم كثير منهم بوجود الله لاسيما أنّ باحثي العصر الحديث قد تكلّموا عن صفات الله في ما

(١) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي: ١/ ٤٨٢.
(٢) المرجع السابق: ١٠/ ٣٧١، ٣٧٢.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٨٣.
(٤) المرجع السابق: ١/ ٤٨٤.

هم ظنُّوا اعتمادًا علىٰ النظر في حدود ما وصلوا إليه من البحث المجرّد في آفاق الطبيعة وأسرارها وقوانينها.

والفلاسفة القدامىٰ أسموا الله: الصانع، والعقل الأوّل، وواجب الوجود، وسبب الأسباب، والقديم، وغير ذلك من الأسماء التي اصطلحوا عليها. وفي الشرع لا يجوز تسمية الله إلا بما سمَّىٰ به نفسه.

قال «هرشل»[(١)]: «كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية علىٰ وجود خالق أزلي لا حد لقدرته ولا نهاية، فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا، وتضامنوا علىٰ تشييد صرح العلم»[(٢)] يريد أنه لهم يصلوا إلىٰ معرفة إلا القليل عن حقائق مخلوقات الله.

ويقول سقراط فيما نقل عن تلميذه أفلاطون:

«هذا العالم يظهر لنا علىٰ هذا النحو الذي لم يُترك فيه شيء للمصادفة، بل كلّ جزء من أجزائه متّجه نحو غاية، وتلك الغاية متّجهة إلىٰ غاية أعلىٰ منها، وهكذا يتمّ الوصول إلىٰ غاية نهائية منفردة وحيدة».

وإذا ما نظرنا إلىٰ العناصر التي تحتوي عليها الكائنات كثيرة إلىٰ درجة لا يمكن أن يحصرها العقل، كان من المحال أن نحمل وجود ذلك كلّه علىٰ المصادفة، فلابدّ إذن من وجود عقل أعلىٰ[(٣)]

---

(١) من علماء الفلك الإنكليز في القرن الثامن عشر.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي: ١/ ٥٠٣.

(٣) تسمية الله ﷻ بأنّه عقل تسمية فلسفيّة يونانيّة لا يستعملها علماء المسلمين.

وهو الصانع الوحيد؛ لأنّ الطبيعة أثر يتجلّىٰ فيه الاتّحاد الدالّ علىٰ وحدانيّة الصانع، الذي ينفذ حكمه بدون أي خطأ[١] اهـ.

تنبيه: لا يجوز تسمية الله بالعقل بل هو كفر وإلحاد.

يقول اللورد «**كلفن**»[٢]: «يتعذّر علىٰ الإنسان أن يتصوّر بداية الحياة أو استمرارها دون أن تكون هنالك قوّة خالق مسيطر، وإنّي لأعتقد من صميم نفسي أنّ بعض العلماء في أبحاثهم الفلسفيّة عن الحيوان قد أغضوا إغضاءً عظيمًا مفرطًا عمّا في نظام هذا الكون من حجّة دامغة، فإنّ لدينا فيما حولنا براهين قويّة قاطعة علىٰ وجود نظام مدبّر، وهي براهين تدلّنا بواسطة الطبيعة علىٰ ما فيها من أثر إرادة حرّة وتعلّمنا أنّ جميع الأشياء «الحيّة» تعتمد علىٰ خالق واحد أحديّ أبديّ»[٣].

ويقول أنشتاين[٤]: «إنّ جوهر الشعور الديني في صميمه هو أن نعلم بأنّ ذلك الذي لا سبيل لمعرفة كُنْه ذاته موجودٌ حقًا ويتجلّىٰ بأسمىٰ آيات الحكمة وأبهىٰ أنوار الجمال. وإنّي لا أستطيع أن أتصوّر عالِمًا حقًا لا يدرك أنّ المبادئ الصحيحة لعالم الوجود مبنيّة علىٰ حكمة تجعلها مفهومة عند العقل. فالعلم بلا إيمان يمشي مشية الأعرج، والإيمان بلا علم يتلمَّس تلمّس الأعمىٰ»[٥].

---

(١) عقيدة المسلم، ص٢٠-٢١.

(٢) لورد كلفن (١٨٢٤م-١٩٠٧م) فيزيائي ومهندس اسكتلندي ولد في إيرلندا الشمالية باسم وليام طومسون وهو مؤسس الفيزياء الحديثة.

(٣) الشيخ نديم الجسر (قصة الإيمان ص ٤٢٣-٤٢٥) بتصرف، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م منشورات المكتب الإسلامي، بيروت.

(٤) ألبرت أينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥) ألماني سويسري أمريكي الجنسية، يهودي الخلفية، أحد أهم العلماء في الفيزياء. يشتهر بأبو النسبية كونه واضع النظرية النسبية الخاصة والنظرية النسبية العامة الشهيرتين اللتان كانت اللبنة الأولىٰ للفيزياء النظرية الحديثة.

(٥) عقيدة المسلم، ص٢١.

أقول: نحن لا نعتمد علىٰ أقوال بعض الفلاسفة وتعابيرهم إنما ننقل أقوالهم ونظهر أنهم يحاولون التعبير عمّا يجدون في أنفسهم من جزم بأن هذا العالم لا بدّ له من خالق قدير مشيئته نافذة، وإلا فلا نطلق علىٰ الله إلا ما أطلق هو علىٰ نفسه ولا نقع في شباك الإلحاد كإطلاق: العقل أو الريشة أو القوة أو السبب أو العلّة علىٰ الله حاشىٰ لله.



الأدلّة على وجود الله تعالى

كلّ شيء في الكون دليل ناطق ومؤكّد علىٰ وجود الله تعالىٰ، وقد استدلّ العلماء علىٰ وجوده تعالىٰ بأدلّة كثيرة:

١- سُئِلَ أعرابيّ عن الدليل علىٰ وجود الله تعالىٰ، فقال: البعرة تدلّ علىٰ البعير، والروثة تدلّ علىٰ الحمير، وآثار الأقدام تدلّ علىٰ المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج، أما تدلّ علىٰ الصانع الحليم العليم القدير[1]؟

٢- يروىٰ أنّ بعض الزنادقة أنكر الصانع عند الإمام جعفر الصادق عليه السلام، فقال الإمام جعفر عليه السلام: «هل ركبت البحر؟ قال: نعم. قال: هل رأيت أهواله؟ قال: بلىٰ، هاجت يومًا رياح هائلة فكسرت السفن وأغرقت الملاّحين فتعلّقت أنا ببعض ألواحها، ثمّ ذهب عنّي ذلك اللوح، فإذا أنا مدفوع في تلاطم الأمواج حتّىٰ دفعت إلىٰ الساحل. فقال الإمام جعفر عليه السلام: قد كان اعتمادك أوّلًا علىٰ السفينة والملاّح ثمّ علىٰ اللّوح حتّىٰ يُنجيك، فلمّا ذهبت هذه الأشياء عنك هل أسلمت نفسك للهلاك، أم كنت ترجو السلامة بعدُ؟ قال: بل رجوت السلامة. قال عليه السلام: ممّن كنت ترجوها؟ فسكت الرجل. فقال الإمام جعفر عليه السلام: إنّ الصانع هو الذي كنت ترجوه في ذلك الوقت، وهو الذي أنجاك من الغرق. فأسلم الرجل علىٰ يده[2].

---

(١) من خطبة لقس بن ساعده. انظر: جوهر الأدب لأحمد الهاشمي ٢/ ١٩، والبيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٦٣.

(٢) تبسيط العقائد: ٤٢.

٣- كان أبو حنيفة رَحِمَهُ الله سيفًا علىٰ الدهريّة، وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه، فبينما هو يومًا في مسجده قاعد إذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة، وهمّوا بقتله، فقال لهم: «أجيبوني عن مسألة ثمّ افعلوا ما شئتم، فقالوا له: هات، فقال: «ما تقولون في جليس يقول لكم: إنّي رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال وقد احتَوَشَها في لجّة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاّح يجريها، ولا متعهّد يدفعها، هل يجوز ذلك في العقل؟ قالوا: هذا شيء لا يقبله العقل! فقال أبو حنيفة: «يا سبحان الله»! إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهّد ولا مجرٍ فكيف يجوز قيام هذه الدُّنيا علىٰ اختلاف أحوالها، وسَعة أطرافها، وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ؟ فبكوا جميعًا وقالوا: «صدقت» وأغمدوا سيوفهم وتابوا[١].

٤- **سألوا الشافعي** رَضِيَ الله عَنْهُ: ما الدليل علىٰ وجود الله؟ فقال: (ورقة الفرصاد «التوت» طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم؟ قالوا: نعم، قال: فتأكلها دودة القزّ فيخرج منها الإبريسم[٢]، والنحل فيخرج منها العسل، والشاة فيخرج منها البعر، وتأكلها الظباء فينعقد في نوافحها المسك، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أنّ الطبع واحد؟ فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا علىٰ يده وهم سبعة عشر[٣].

(١) تبسيط العقائد، ص٤٣.

(٢) الإبريسم: أحسن الحرير، المعجم الوسيط، باب الهمزة.

(٣) تفسير الرازي: ١/ ٣١٤.

٥- **سُئل أحمد بن حنبل** ﷺ **عن ذلك فقال**: (هاهنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضّة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح «يعني البيضة إذا خرج منها الفرخ»[١].

جاء في مجلّة «كوليرز» التي تصدر في نيويورك ويكتب فيها كثير من علماء الذرّة والبيولوجيا والرياضة وأكّدوا «أنّ لديهم أدلّة وقرائن كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظّم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حدَّ له»[٢].

يقول الدكتور «راين»: «إنّه ثبت من أبحاثه في المعامل أنّ في الجسم البشري روحًا أو جسمًا آخر غير منظور»[٣].

وقال عالم آخر: «إنّه لا يشكّ في أنّ الكائن الأعظم -وهو ما تسمّيه الأديان «الله»- هو الذي يسيطر علىٰ الطاقة الذريّة وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة في هذا الوجود»[٤].

قال الأُستاذ مومنيه: «إن افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل أنّ الكون خُلق اتّفاقًا بلا فاعل مريد مختار، وأنّ الاتّفاقات المتكرّرة توصّلت إلىٰ تكوين رجل، فهل يعقل أنّ الاتّفاقات أو المصادفات تكوّن كائنًا آخر مماثلًا له تمامًا في الشكل الظاهري ومباينًا له في التركيب الداخلي وهو المرأة بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها؟! قال: «أليس يدلّ هذا وحده علىٰ أنّ

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٥٩.
(٢) عقيدة المسلم، ص٢٦.
(٣) عقيدة المسلم، ص٢٦.
(٤) عقيدة المسلم، ص٢٦.

للوجود خالقًا مريدًا مختارًا أبدع الكائنات، ونوّع بينها وغرز في كلّ نوع غرائز ومتّعه بمواهب يقوم بما أمره ويرتقي عليه نوعه؟»[(١)].

قول ديكارت: الذي أعطىٰ علىٰ وجود الخالق أدلّة ثلاثة[(٢)]:

أوّلها: قال: إنّي مع شعوري بنقص ذاتي أحسّ في الوقت ذاته بوجوب وجود ذات كاملة، وأراني مضطرًا للاعتقاد بأنّ هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلّية بجميع صفات الكمال، وهو الله.

ثانيًا: قال: إنّي لم أخلق ذاتي بنفسي، وإلاّ فقد كنت أعطيها سائر صفات الكمال التي أدركها. إذن أنا مخلوق بذات أُخرىٰ وتلك الذات يجب أن تكون حائزة جميع صفات الكمال، وإلاّ اضطررت أن أطبّق عليها التعليق الذي طبّقته علىٰ نفسي.

ثالثًا: إنّ عندي شعورًا بوجود ذات كاملة لا تفترق في الوضوح عن شعوري بأنّ مجموع زوايا أي مثلّث تساوي زاويتين قائمتين إذن فالله موجود.

والفيلسوف ديكارت لم يصل إلىٰ هذه الحقائق إلاّ بعد أن تخلّص ممّا مُلِئ به ذهنه من حشو رَثّ من العقائد والتقاليد والوراثات، فقال: فأردت أن أتخلّص من هذه الأحمال الثقيلة ولو مرّة في حياتي، وأنظر مجرّدًا عن كلّ وراثة إن كنت أُريد الوصول إلىٰ حقائق ثابتة من العلم[(٣)].

قول نيوتن[(٤)] وقد سأله الناس من كلّ مكان أن يأتيهم بدليل علىٰ وجود الله يكون في درجة المحسوسات، فأجابهم قائلًا:

---

(١) مجلّة الكوسموس سنة ١٨٩٢م.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين: ١/ ٤٩٠.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) نيوتن: عالم إنجليزي فلكي من أكبر علماء الفلك في عصره وهو مكتشف قانون الجاذبيّة مولده ١٦٤٢م، ووفاته سنة ١٧٢٧م.

«لا تشكّوا في الخالق فإنّ ممّا لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هي قائدة الوجود؛ لأنّ الضرورة عمياء متجانسة في كلّ زمان ومكان، لا يتصوّر أن يصدر منها هذا التنوّع في الكائنات، ولا هذا الوجود كلّه بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيّرات الأزمنة والأمكنة، بل إنّ كلّ هذا لا يعقل أن يصدر إلاّ من كائن أزلي له حكمة وإرادة، ومن المحقّق أنّ الحركات الحاليّة للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرّد فصل الجاذبيّة العامّة؛ لأنّ هذه القوّة تدفع الكواكب نحو الشمس. فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن يوجد ما يدفعها علىٰ الخطّ المماس لمداراتها.

ثمّ قال: ومن الجليّ الواضح أنّه لا يوجد أي سبب طبيعي استطاع أن يوجّه جميع الكواكب وتوابعها للدوران في وجهة واحدة وعلىٰ مستوىٰ واحد بدون حدوث أي تغيير يُذكر، فالنظر لهذا الترتيب يدلّ علىٰ وجود حكمة سيطرت عليه، ... ثمّ إنّه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يعطي هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسبًا دقيقًا مع مسافتها بالنسبة للشمس ولمراكز الحركة. تلك الدرجات الضروريّة لأن تتحرّك هذه الأجرام علىٰ مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها. فلأجل تكوين هذا النظام بين جميع حركاته يجب وجود من علم حقيقة هذه المواد وكمّيات المادّة الموجودة في الأجرام السماويّة المختلفة والمسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها وساتورن، وجوبيتر، والأرض، والسرعة التي يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكزها.

إذن فالعلم بهذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظامًا يشمل كلّ هذه الاختلافات بين أجزائه، كلّ هذا يشهد بوجود «خالق» لا أعمىٰ ولا حادث بالاتّفاق ولكن علىٰ علم.

ثمّ قال: ليس هذا كلّ ما في المسألة، فإنّ وجود (الخالق) لا بد منه لجعل هذه الأجرام تدور علىٰ بعضها، وهو الأمر الذي لا يمكن أن ينتج من مجرّد قوّة الجاذبيّة كما أن تخصيص وجهة هذه الدورات لتتّفق مع دورات الكواكب لا يكن لوحده، كما يرىٰ ذلك في الشمس والكواكب وتوابعها، بينما ذوات الأذناب تدور في كلّ جهة علىٰ السواء.

ثمّ قال: ففي تكوّن الأجرام السماويّة كيف أنّ الذرّات المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلىٰ قسمين:

* القسم المضيء منها انحاز إلىٰ جهة ليشكل قسم الأجرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم.

* القسم المعتم يجتمع في جهة أُخرىٰ ليشكل قسم الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها. كلّ هذا لا يعقل حصوله وحده بلا موجِد.

ووصف الحيوانات بخلقتها بالآتي:

كيف تكوّنت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة، ولأيّ المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميسه؟ والأُذن بدون علم بقوانين الصوت؟ كيف يحدث أنّ حركات الحيوانات تتجدّد بإرادتها ومن أين جاء هذا الإلهام الفطري في نفوس الحيوانات؟

وهذه الكائنات كلّها وقياسها علىٰ أبدع الأشياء وأكملها ألا تدلّ علىٰ وجود إله منزّه عن الجسمانيّة حيٍّ حكيم يرىٰ حقيقة كلّ شيء بذاته ويدركه أكمل إدراك(١).

قال «لينيه»(٢): إنّ الله الأزلي الكبير العالم بكلّ شيء والمقتدر علىٰ كلّ شيء قد أظهر لي بدائع صنعه حتّىٰ صرت دهشًا متحيّرًا فأيّ قدرة وأيّ حكمة وأيّ إبداع أبدعُ من مصنوعاته سواء في أصغر الأشياء أو أكبرها. إنّ المنافع التي نستخدمها من هذه الكائنات تشهد بعظم رحمة الله التي سخّرها لنا، كما أنّ جمالها وتناسقها ينبئ بواسع حكمته، وكذلك حفظها عن التلاشي وتجدّدها يقرّ بجلاله وعظمته»(٣).

ولقد كانت هنالك كلمة يقولها الحمزة بن عبد المطّلب عمّ النبيّ ﷺ مؤمنًا بوجود الله ويرىٰ ما تفعل قريش فكان يخرج إلىٰ الصحراء؛ أي بطحاء مكّة، فقال ذات يوم لقريش: لِمَ لا تؤمنون بالله خالق الكون؟ وله مقولة مشهورة وهي: « «يا محمد، يا ابن أخي..! عندما أجوب الصحراء بالليل أُدْرِك أنّ الله أكبر من أن يوضع بين أربعة جُدران» ».



(١) دائرة معارف القرن العشرين: ١/ ٤٩٧.

(٢) عالم فرنسي فزيولوجي.

(٣) دائرة المعارف: ١/ ٤٩٩.

○ أدلّة وجود الله ○

المتكلِّمون ودليل الحدوث:

بنىٰ المتكلِّمون علىٰ أدلّة الحدوث دليلين، هما:

١- **العالَمُ حادث**: أي العالم كلّ ما عدا الله ﷻ فهو حادث؛ لأنّه حدث وظهر بعد أن لم يكن، فالحادث هو: ما كان معدومًا ثمّ وجد.

٢- **كلّ حادث** لابدّ له من محدِث.

وبذلك تكون النتيجة: العالَم لابدّ له من مُحدِث يحدثه، أي: يرجع وجوده علىٰ عدمه وهو الله ﷻ.

ونؤكّد ذلك لتكون النتيجة صحيحة بالأدلّة التالية:

الأدلّة علىٰ أنّ العالم حادث:

أوّلها: العالم متغيّر، وكلّ متغيّر حادث = فالعالم حادث.

ثانيها: العالم متركّب من جواهر وأعراض، وكلّ الجواهر والأعراض متغيّرة، فالعالم متغيّر.

فالجوهر: هو ما قام بنفسه.

والعرض: هو ما قام بغيره؛ كالألوان والحركة والسكون.

فالحجر جوهر وعرَض، فمادّته جوهر، وألوانه أو حركته، وسكونه عَرَض.

والأعراض حادثة بدليل:

أ- مشاهدة تغيّرها من وجود إلىٰ عدم، ومن عدم إلىٰ وجود، ومن سكون إلىٰ حركة، ومن حركة إلىٰ سكون، والتغيّر علامة الحدوث.

ب- احتياجها إلىٰ مخصّص بوقت حدوثها، دون ما قبله وما بعده، فلابدّ من مرجِّح لوقوعها في ذلك الوقت؛ لأنّ الترجيح من دون مرجِّح محال.

ج- افتقارها إلىٰ جسم يقوم بها.

والجواهر حادثة أيضًا، وذلك لأنّها ملازمة للأعراض لا تنفصل عنها، فهي لا تخلو عن الحركة والسكون والألوان، والأعراض حادثة كما تقدّم، وملازم الحادث حادث.

فإذا ثبت أنّ الجواهر والأعراض حادثة، لزِم أن يكون العالم المكوَّن منها حادثًا.

وبذلك تسلم لنا المقدّمة الأُولىٰ وهي: «العالم حادث».

أمّا الدليل علىٰ أنّ كلّ حادث لابدّ له من محدث فهو: أنّه لو حدث حادث بلا محدث، للزم أن يترجّح وجوده علىٰ عدمه بلا مرجّح، وهو مستحيل بالبداهة(١).

ومعنىٰ الرجحان بدون مرجّح هو: أن يكون الشيء جاريًا علىٰ نسق معيّن، ثمّ يتغيّر عن نسقه، ويتحوّل عنه بدون وجود أي مغيّر!

وهذا واضح البطلان؛ لأنّ جميع العقلاء يعلمون أن لابدّ لتحويل الشيء عن حالته السابقة من محوِّل ومؤثِّر، يفرض عليه هذا الوضع الجديد وينسخ حاله

(١) المواقف للعضد الإيجي وحاشية السيّد الشريف الجرجاني عليه، ص٤٦٦، المسامرة علىٰ الميامرة، ص١٧-٢١، وحاشية قاسم بن قطلوبغا علىٰ المسايرة، ص١٨-١٩، والعقائد الصفدية وحاشية المرجاني، والجلال الدواني عليها، والكلبنوي علىٰ الدواني: ١/٢٢٦-٢٢٩، وشرح الدردير علىٰ الخريدة البهيّة، وحاشية الصاوي عليه، ص٤٦/ ٤٩-٥٥، أُصول الدِّين الإسلامي، ص٦٥-٦٩.

القديمة، فإنّك لو تركت كفّتي ميزان متساويتين لا ثقل في إحداهما، وزعمت أنّ إحداهما قد ترجّحت، دون مؤثّر خارجي كنفخة هواء أو حجر . . . ولو زعمت للناس أنّ جهاز المذياع أوصل إليك أخبار العالم، دون أن تدير صمّامه، لضحكوا منك وأشفقوا عليك.

وعلىٰ ذلك نقول: كان العدم محلّ العالم قبل وجوده، ولكن حين خلق هذا العالم ترجّح وجوده علىٰ العدم والوجود والعدم أمران متساويان، وترجيح أحد هذين الأمرين المتساويين علىٰ الآخر بلا مرجّح مستحيل وباطل بالبداهة.

فالقول بأنّ العدم قد تحوّل إلىٰ وجود العالَم دون مسبِّب لهذا الوجود باطل ومستحيل استحالة دعوىٰ صاحب الميزان والمذياع[1].

وبذلك تسلم لنا المقدّمة الثانية وهي: «أنّ كلّ حادث لابدّ له من مُحدث».

الوجوب:

موجد هذا الكون إمّا أن يكون واجبًا أو مستحيلًا أو ممكنًا؛ لأنّ كلّ أمر لابدّ أن يتّصف بواحد من الأُمور الثلاثة السابقة ولا رابع لها؛ لأنّها أقسام الحكم العقلي.

تعريف الحكم: هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه بواسطة الشرع أو العادة أو العقل. فهو ثلاثة أقسام:

١- الحكم الشرعي: «وسيلة إثباته الشرع» كإثبات الوجوب للصلاة[2].

٢- الحكم العادي: «وسيلة إثباته العادة والتجربة» كإثبات الإحراق للنار.

---

(١) كبرىٰ اليقينيّات الكونيّة، ص٨١-٨٢.

(٢) انظر في تعريف الحكم الشرعي: البحر المحيط، للزركشي: ١/١١٧، ١٣٢.

٣- الحكم العقلي: «وسيلة إثباته العقل» كإثباته الزوجيّة للعدد **٤٠٠٢**.

ويعدّ الحكم العقلي هو العمدة في ردّنا علىٰ الملحدين في مسائل في العقائد لأنهم لا يؤمنون بالشرع. وينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

١- واجب.

٢- مستحيل.

٣- جائز.

١- الواجب: وهو الثابت الذي لا يقبل الانتفاء، أو هو ما لا يُتصوّر في العقل عدمه كوجوب القدرة لله تعالىٰ وكوجوب الحدوث للمتماثلات.

٢- المستحيل: هو النفي الذي لا يقبل الثبوت فلا يمكن وجوده ولا يُتصوّر حدوثه مطلقًا، أو هو ما لا يُتصوّر في العقل وجوده كإثبات شريك لله وكتقدّم الابن علىٰ أبيه في الوجود.

٣- الممكن «الجائز»: وهو الذي يقبل الثبوت تارةً والنفي تارةً أُخرىٰ. أي: يمكن وجوده إذا ترجّح وجوده علىٰ عدمه، أو هو ما يصحّ في العقل وجوده وعدمه علىٰ السواء ولا يوجد إلاّ بمرجّح.

وبذلك يكون الآتي:

١- لا يجوز أن يكون موجِد العالم مستحيلًا؛ لأنّ المستحيل لا يُتصوّر وجوده مطلقًا، فهو عدم محض، فلا يمكن أن يوجد غيره، فكيف يكون المستحيل موجِدًا؟!

٢- كما لا يجوز أن يكون موجِد العالم ممكنًا؛ لأنّ الممكن لا يوجد إلاّ مِن مُوجِدٍ هو أوجَدَهُ، وهذا المُوجِدُ إن كان ممكنًا فعندئذ يحتاج إلىٰ موجِدٍ

آخر . . . إلخ، وهكذا. وهذا يلزم منه الدَّوْر أو التسلسل، وكلاهما باطل -كما سيأتي بيانه بعد قليل- فما أدّىٰ إليهما فهو باطل، فلزم ألا يكون موجِد الكون ممكنًا.

٣- ولمّا ثبت أنّ موجد العالم ليس بمستحيل ولا بممكن، وجب أن يكون موجد العالم واجب الوجود[١] فلا يحتاج إلىٰ موجِدٍ، بل هو موجِد هذا العالم[٢].

معنىٰ الدَّوْر ودليل بطلانه:

الدَّوْر: هو أن يكون شيئان كلّ منهما متوقف وجودُه علىٰ وجود الآخَر[٣]؛ كقولك: زيد أوجد عَمْرًا، وعمرو أوجد زيدًا. فكلّ من زيد وعمرو يتوقّف وجود أحدهما علىٰ الآخر، وهو الدور الباطل، وكلّ منهما يظلّ معدومًا.

الدور باطل سواء كان من مرتبة واحدة «ويسمّىٰ الدور المصرّح» كما يتوقّف (أ) علىٰ (ب) وبالعكس.

أو من مراتب متعدّدة «ويسمّىٰ الدور المضمر» كما يتوقّف (أ) علىٰ (ب)، و(ب) علىٰ (ج)، و(ج) علىٰ (أ)[٤].

(١) معنىٰ واجب الوجود: هو أنّه لا يجوز عليه العدم، فلا يقبل العدَم أزلًا وأبدًا. انظر: شرح الخريدة للدردير، ص٥٥، والباجوري في شرح الجوهرة: ١/ ٤٧.

(٢) المواقف وشرحه، ص٤٦٦، حاشية الدواني: ١/ ٢٢٧، الباجوري علىٰ الجوهرة، ص٤٧-٤٨.

(٣) المواقف، ص١٧٧.

(٤) التعريفات للجرجاني، ص٩٤، مقاصد الطالبين وشرحه للتفتازاني: ١/ ١٦٤.

أسباب بطلان الدَّوْر:

هو أن يستلزم أن يكون كلّ واحد منهما سابقًا صاحبه متأخّرًا عنه في وقت واحد، وهذا يعني استلزام تقدّم الشيء علىٰ نفسه وهو تناقض[(١)]!

فعمرو يتوقّف علىٰ زيد وزيد يتوقّف علىٰ عمرو وهذا يعني أنّ عمرًا متوقّف علىٰ عمرو، بعد حذف الحدّ الأوسط «زيد».

وهذا يستلزم تقدّم الشيء علىٰ نفسه، أي: يلزم أن يتقدّم عمرو علىٰ عمرو؛ لأنّه علىٰ الفرض سابق ومسبوق، فيلزم أن يكون عمرو موجودًا قبل أن يوجد، وهذا باطل!

فإذا قيل: إن ثبت حدوث العالم فهو بالتفاعل الذاتي المجرّد في الموجودات بتأثير الضغط والحرارة والبرودة بمرور الزمان.

الإجابة علىٰ ذلك: أنّ هذا هو الدور الباطل، لأنّه يعني: أنّ وجود العالم متوقّف علىٰ بعضه «الضغط والحرارة والبرودة . . .» وبعضه متوقّف في وجوده علىٰ العالم. وهذا يعني تقدّم الشيء علىٰ نفسه، وهو باطل[(٢)].

معنىٰ التسلسل ودليل بطلانه:

التسلسل هو أن يستند الممكن في وجوده إلىٰ علّة مؤثّرة فيه، وتستند تلك العلّة المؤثّرة إلىٰ علّة أُخرىٰ مؤثّرة فيها، وهلمّ جرًّا إلىٰ ما لا نهاية[(٣)].

---

(١) المواقف، ص١٧٧، المقاصد: ١/ ١٦٤، الدردير علىٰ الخريدة، ص٩١، والباجوري علىٰ الجوهرة: ١/ ٤٨، والوسيلة في شرح الفضيلة، ص٤٦١.

(٢) كبرىٰ اليقينيّات الكونيّة، ص٨٩-٩٠.

(٣) المواقف، ص١٧٩.

فالتسلسل يعني: أنّ المخلوقات متوالدة عن بعضها، إلىٰ ما لا نهاية في جهة الماضي بحيث يكون كلّ واحد منهما معلولًا لما قبله، وعلّة لما بعده[١].

دليل بطلان التسلسل:

١- إنّه يؤدّي إلىٰ القول بوجود خالقين لا نهاية لهم كلٌّ منهم متّصف بالحدوث والافتقار والعجز، وهو باطل؛ لأنّه منافٍ للألوهيّة وما يتصف به الخالق من القدرة التامّة والاستغناء عن كل ما سواه، إذ العاجز الفقير لا يصحّ أن يكون خالقًا للعالم البديع الإتقان[٢].

٢- التسلسل منقوض بالحسّ والمشاهدة؛ ذلك لأنّه هنالك مخلوقات انقرضت، فلو صحّ أنّ الموجودات تتسلسل إلىٰ ما لا نهاية -بأن تكون كلّ حلقة فيها معلولًا لما قبلها، وعلّة تامّة لما بعدها- لما انقرضت هذه الموجودات؛ لأنّ الحلقة الأخيرة فيها معلولة فقط، وليست بعلّة كسابقتها[٣].

٣- برهان التطبيق وهو أشهر أدلّة المتكلِّمين، وهو:

أنّك لو فرضت سلسلتين، وجعلت إحداهما من الآن إلىٰ ما لا نهاية في جهة الماضي والأُخرىٰ من الطوفان إلىٰ ما لا نهاية في جهة الماضي أيضًا.

وطبّقت بينهما بأن قابلت بين أفرادهما من أوّلهما، فكلّما طرحت من الآنيَّة «نسبة إلىٰ الآن، أي: الوقت الحاضر» حلقة واحدة طرحت في مقابلها من الطوفانية «نسبة إلىٰ الطوفان» واحدة وهكذا . . . فلا يخلو: إمّا أن يفرغا معًا،

---

(١) كبرىٰ اليقينيّات الكونيّة، ص٨٤.

(٢) الدردير علىٰ الخريدة، ص٦١.

(٣) كبرىٰ اليقينيّات الكونيّة، ص٨٤ وما بعدها، موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين: ١/ ١٨٢.

فيكون كلّ منهما له نهاية وهو خلاف الفرض، وإن لم يفرغا -كما فرضنا- لزم مساواة الناقص للكامل، وهو باطل، وإن فرغت الطوفانيّة دون الآنيّة، كانت الطوفانيّة متناهية، والآنيَّة أيضًا كذلك؛ لأنّها إنّما زادت علىٰ الطوفانيّة بقدر متناهٍ وهو ما من الطوفان إلىٰ الآن، من المعلوم أنّ الزائد علىٰ شيء متناهٍ بقدرٍ متناهٍ يكون متناهيًا بالضرورة(١).

ومثال بطلان التسلسل:

أ- إذا رأيت رقمًا حسابيًا طويلًا، يتراصف إلىٰ جانبه عدد كبير من الأصفار فإنّك تسرع لتنظر قبل كلّ شيء إلىٰ الرقم العددي الأوّل، وما لم تقع عيناك علىٰ ذلك الرقم، فإنّك لا تعطي قيمة للأصفار الكثيرة ما لم تستند إلىٰ رقم ذاتي قبلها؛ لأنّ الرقم الذي يملك قيمة ذاتيّة في داخله هو الذي يضفي الحياة والقيمة علىٰ الأصفار المتسلسلة التي عن يمينه، فسلسلة الأصفار التي لم تنتهِ إلىٰ رقم عادي هي خالية عن أيّة قيمة، وافتراض التسلسل اللانهائي فيها لا يمثل لها أيّة قيمة.

ب- لو ادُّعِيَ أمامك حقيقة علميّة، وحين سألت عن الدليل أُجِبتَ ببرهان يتوقّف علىٰ برهان آخر، وحين سألت عن برهان أُجِبت ببرهان يتوقّف علىٰ آخر . . . وهكذا، فإنّك تكذّب المدّعي في دعواه، بل تكذّب وجودها أصلًا، فكلّ من هذه البراهين المتسلسلة التي فُرِضَ أنّه لا نهاية لها في جهة الماضي ليست إلاّ ظلالًا تنتظر أنت أصلها الأوّل، فإن لم يوجد ذلك الأصل، فهذه الظلال نفسها غير موجودة، ومن ثمّ فإنّ الحقيقة المدّعاة أيضًا تكون غير موجودة.

(١) الباجوري علىٰ الجوهرة: ١/ ٤٨، المواقف: ١٧٩ وما بعدها، المقاصد: ١/ ١٦٥، الوسيلة، ص٤٦١-٤٦٥، أصول الدِّين الإسلامي، ص٧١/ ٧٤.

وإذا بطل الدَّوْر والتسلسل، بطل ما أدّىٰ إليهما، وهو كون موجِد العالَم ممكنًا، وعندئذ وجب أن يكون الموجِد واجب الوجود.

ولا يخرج عن هذين الدليلين الدليل الذي ذكره بعض فلاسفة الغرب، وهو أقوىٰ الأدلّة وأبسطها لديهم، المسمّىٰ ببرهان الخلْق أو الدليل الكوني[١].



(١) وخلاصة هذا الدليل: هو أنّ الموجودات لابدّ لها من موجد، لأنّنا نرىٰ كلّ موجود منها يتوقّف علىٰ غيره، ويرىٰ غيره هذا يتوقّف علىٰ موجود آخر دون أن نعرف ضرورة توجب وجوده لذاته.

الدليل الثالث

◦ البرهان العلمي ◦

دليل العناية والاختراع:

وهذا الدليل من أجلىٰ الأدلّة علىٰ وجود الله تعالىٰ وأوضحها، وهو الذي ذكره ابن رشد في مناهج الأدلّة باسم العناية والاختراع، وذكر أنّه يمكن أن يتّخذه:

أ- الجمهور طريقًا لإثبات وجود الله تعالىٰ، فيقتصرون منه علىٰ ما هو مدرَك بالمعرفة الأُولىٰ المبنيّة علىٰ الحسّ.

ب- والعلماء، فيزيدون علىٰ ما يُدرك من هذه الأشياء بالحسّ ما يُدرك بالبرهان.

وهذا الدليل هو الذي نبّه عليه القرآن الكريم، واعتمده الصحابة ﭫ، وبيانه فيما يأتي:

الأوّل - دليل العناية:

وهذا يظهر في العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله، ويُبنىٰ علىٰ أصلين:

أ- إنّ جميع الموجودات التي هاهنا موافقة لوجود الإنسان.

ب- إنّ هذه الموافقة هي «ضرورة» من قبل فاعل قادرٍ شاءٍ لذلك مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتّفاق.

والموافقة تحصل باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الزمان والمكان الذي هو فيه أيضًا، والحيوان والنبات والجماد والأمطار والأنهار والبحار والنار والهواء . . .

وكذلك أيضًا تظهر العناية في أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان، أي: كونها موافقة لحياته ووجوده.

الثاني – الاختراع:

وهو ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات؛ كاختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسّية، والعقل.

ويدخل فيه: وجود الحيوان كلّه، ووجود النبات، ووجود السماوات، وهذا الدليل يبنىٰ علىٰ أصلين موجودين في فِطَر الناس، هما:

أ إنّ هذه الموجودات مخترَعة، فإنّا نرىٰ أجسامًا جماديّة، ثمّ تحدث فيها الحياة فنعلم قطعًا أنّ هاهنا موجِدًا للحياة ومُنعمًا بها، وهو الله تبارك وتعالىٰ.

وأمّا النجوم المتحركة التي في السماوات، فنعلم من قبل حركتها التي لا تفتر، أنّها مسخّرة لنا، والمسخّر مخترَع ليس هو اخترع نفسه ضرورة.

ب- إنّ كلّ حادث له موجِد أحدثه، فعلىٰ مَن أراد يستدل علىٰ وجود الله يكفيه أن ينظر في جواهر الأشياء، ليقف علىٰ الاختراع الحاصل في الموجودات.

والدليل العلمي هو الذي أكّد عليه الباحثون في العصر الحاضر خاصّةً بعد أن اتّسع نطاق العلم بالتجربة، وظهرت المخترعات الحديثة التي كانت سببًا في استكشاف آفاق الفضاء، والوقوف علىٰ كثير من أسرار الطبيعة، ومعرفة

خفاياها، ممّا دعا كثيرًا من الخاضئين في العلوم الكونية في مختلف ميادينه إلىٰ أن يتحدّثوا عن ءاثار قدرة الله تعالىٰ وعظمتها وحيرة العقل الإنساني أمام تلك الأسرار في المخلوقات.

ودليل العناية والاختراع هو الذي ذكره بعض فلاسفة الغرب باسم الدليل الغائي أو برهان الغاية، الذي يتّخذ من المخلوقات دليلًا علىٰ وجود الخالق، ووجود هذه المخلوقات تدلّ علىٰ إرادة مكوِّنها، وحكمته في تسييرها وتدبيرها، فالنظام والانسجام والاتفاق الظاهر في الطبيعة ومظاهرها المختلفة المتنوّعة طريق ظاهرة لإثبات وجود الله تعالىٰ(١).



(١) الله - العقاد، ص١٩٦-١٩٧، دراسات في الفِرق والعقائد الإسلاميّة، ص١٧٩، أُصول الدِّين الإسلامي، ص٧٦-٨٤.

الدليل الرابع

○ الدليل الوجودي ○

ويسمّىٰ برهان الاستعلاء والاستكمال، وقد صاغه الأسقفّ (أنسلم كانتربري) في صورته الأُولىٰ، وهو قوله: أنّ فكرة الإله موجودة في العقول، فالملحدون لا يجحدون أن العقل يقبل وجود إله خالق، وإنّما يجحدون وجود الإله في الحقيقة، ونقّح هذا الدليل اللّاحقون بأنسلم حتّىٰ بلغ صورته الحاليّة في فلسفة ديكارت وأوشكَ أن ينسب إليه فحواه في صورته هذه قائلًا:

إنّ العقل الإنساني كلما تصوّر شيئًا عظيمًا، تصوّر ما هو أعظم منه؛ لأنّ الوقوف عند مرتبة قاصرة يحتاج إلىٰ سبب، والعقل الإنساني لا يعرف سبب القصور، فما من شيء كامل إلاّ والعقل الإنساني متطلّع إلىٰ أكمل منه، ثمّ أكمل منه ... إلىٰ نهاية النهايات وهي غاية الكمال المطلق التي لا مزيد عليها ولا نقص فيها. وهذا الوجود الكامل موجود لا محالة؛ لأنّ وجوده في التصوّر أقلّ من وجوده في الحقيقة، فهو في الحقيقة موجود؛ قال: لأنّ الكمال المطلق ينتفي عنه بسبب عدم الوجود، ولا يبقىٰ له شيء من الكمال، بل نقص مطلق وهو عدم الوجود، فمجرّد تصوّر هذا الكمال مثبتٌ لوجوده[١].

ثم علَّق علىٰ القدماء ممن يسمّون بالحكماء والمتكلِّمين في تحديدهم للوجود والعدم، فقال: إنّهم أرادوا بذلك تعريف لفظ الوجود ومثل هذا التعريف سائغ في المعلومات الضروريّة، إذ هو بمنزلة تبديل لفظ بلفظ أوضح منه[٢].

---

(١) «الخالق الله» للعقّاد، ص١٠٠، دراسات في الفرق والعقائد الإسلاميّة، ص١٧٠-١٧٤، أصول الدِّين الإسلامي، ص٨٥.

(٢) الشفاء لابن سينا: ٢/ ٢٧، الفصل الخامس من المقالة الأُولىٰ من الإلهيّات.

وذكر فخر الدِّين الرازي في الكلام علىٰ تعريف الوجود وجهين:

الأوّل: أنّ التصديق بالتنافر بين الوجود والعدم بديهي إذ كلّ عاقل علىٰ الإطلاق يعلم بالضرورة أنّه لا يمكن اجتماع وجوده وعدمه والتصديق متوقّف علىٰ التصوّر، وما يتوقّف عليه البديهي أولىٰ بأن يكون بديهيًا، فيكون تصوّر الوجود والعدم بديهيًا.

الثاني: أنّ تعريف الوجود لا يجوز أن يكون نفسه وإلاّ دار، ولا بأجزائه لأنّ تلك الأجزاء إن كانت وجودات لزم تعريف الشيء بنفسه، وإن لم تكن وجودًا فعند اجتماعها إن لم يحصل أمرٌ زائد كان الوجود محض ما ليس بوجود هذا خلف، وإن حصل أمرٌ زائد علىٰ الوجود كان التركيب مقابل الوجود أو فاعله لا فيه ولا بالأُمور الخارجة عنه؛ لأنّ الخارجي إنّما يصلح للتعريف لو كان مساويًا للمعرّف، لأنّ الأعمّ لا يفيد التمييز الذي هو أقلّ مراتب التعريف، والأخصّ أخصّ، وقد حذّر في المنطق عن التعريف به لكن العلم بالمساواة يتوقّف علىٰ العلم بالماهيّة فليزم الدور.

وهذان الوجهان باطلان؛ فالأوّل لأنّ التصديق البديهي لا يجب أن تكون تصوّراته بديهيّة.

والثاني: لأنّ ما ذكره في نفس تركيب الوجود عائد علىٰ كلّ ماهيّة مركّبة علىٰ الإطلاق، فهو باطل بالضرورة[1].



(١) كشف المراد، ص٣٢.

الدليل الخامس

○ الدليل الأخلاقي ○

وقد صاغ هذا الدليل الفيلسوف الألماني (كَنْت)، وصورته عنده هي أن يقال:

إنّ علامة الوازع الأخلاقي، أو علامة الواجب، أو علامة الضمير لا توجد في النفس الإنسانيّة بغير وجود إله، إذ كيف يدين الإنسان نفسه بالحقّ إن لم يكون في الكون من يغرس في نفسه هذا الوجود؟ وكيف تقرّر في طبع الإنسان أنّ الكريه لديه أولىٰ به من طاعة الهوىٰ المحبّب إليه، وإن لم يطّلع علىٰ دخيلة سرّه أحد؟

فإن قيل: إنّ العادة الاجتماعيّة هي التي رسَخَتْ في النفس حتّىٰ استحالت إلىٰ رغبة مقبولة، أُجيب:

بأنّ معرفة السبب لا تفضي بإبطال الغاية أو بفقدان الحكمة، فنحن نعلم أنّ القطار يتحرّك بغليان المِرْجَل فيه، وأنّ المهندس قد مدَّ قضبانه لأنّه يكافأ علىٰ مدّها بأجر يحتاج إليه، وأنّ نظّار المحطّات يسيرون في حركة القطار لأنّهم مجزيّون علىٰ ذلك أو معاقبون علىٰ إهماله.

ولكن ذلك كلّه لا يُبطل الغاية، ولا يفضي بمسير القطار لغير حكمة وقيام العمل كلّه بغير تدبير[١].

(١) أُصول الدِّين الإسلامي، ص٨٥-٨٦.

۞ المصادفة ۞

قالوا: إنّ المصادفة هي التي أوجدت ودبّرت ما في الكون علىٰ هذا الشكل.

والجواب: لابدّ من التفريق بين أمرين:

أوّلهما: خلق الشيء، وفكرة المصادفة تُستبعد منه؛ لأنّه يؤدّي إلىٰ الدَّوْر الباطل المتقدّم شرحه مسبقًا.

ثانيهما: ترتيب الشيء وتركيبه، وهي محلّ النظر والبحث.

صيغة قانون المصادفة الحرفيّة التي صاغها الفلاسفة هي قولهم: «إنّ خطّ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانات المتكافئة المزدحمة».

لكن تطبيق هذا القانون إنّما يتمّ علىٰ المادّة غير الحيّة، فدراسة الاحتمال علىٰ ضغط غاز في وعاء أو خليط من غازات قد يصحّ، ولكن علىٰ الخليّة والأحياء الأُخرىٰ فإنّه يقف؛ لأنّ الترابط في الخليّة مع ظاهرة الحياة معجز ومحيّر إلىٰ حدّ يجعل هذا القانون غير ساري المفعول في هذا المجال[1].

وإليك بعض أقوال الباحثين حول معنىٰ المصادفة:

قال الرياضي الشهير (جوزيف برترند)[2]: إنّ المصادفة ليس لها وجدان ولا ذاكرة[3].

---

(١) المسمَّىٰ الطب محراب الإيمان، ص١٤، أصول الدِّين الإسلامي، ص٨٦-٨٧.

(٢) برتراند أرثر ويليام راسل «بالإنجليزية: Bertrand Russell ١٨٧٢م-١٩٧٠م) إيرل راسل الثالث، فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني.

(٣) الطب محراب الإيمان، ص١٤.

قال (بول كلارنس ابرسولد): إنّ هذا النظام الرائع المعقول الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وإنّ معجزة واحدة في حدّ ذاتها لها بداية كما أنّ وراءها توجيهًا وتدبيرًا خارج دائرة الإنسان[١].

وقال أحد الباحثين في علم الطبيعة: إنّ العلم وحده والعقل لا يملك أيَّ تفسير للحقائق إلا افتراضات، والقول بأنّه حدثت «اتّفاقًا» إنّما يعتبر تحدّيًا وتصادمًا مع الرياضيات[٢].

وقال (شادفاش): إنّ من الممكن أن نسأل أيَّ رجل مُصَدِّقًا بِوُجُودِ اللهِ كان أو منكرًا له، نسأله أن يثبت كيف يمكن أن يكون هذا التوازن في صالحه، إذا كان الكون قد وُجد بمحض الصدفة.

وقد اعتبر (أفلاطون) من أوائل الفلاسفة اليونانيين القائلين بوجود الله تعالىٰ، وبأنّه الخالق للعالَم والمدبّر لأمره، وبرهن علىٰ ذلك بعدّة براهين أهمّها: برهان النظام، حيث قال: إنّ العالم آية في الجمال والنظام، ولا يمكن أبدًا أن يكون هذا نتيجة علل اتّفاقيّة (مصادفة) بل هو صنع حكيم كامل، رتّب كلّ شيء عن مشيئة وحكمة[٣].



(١) المسمَّىٰ الله يتجلّىٰ في عصر العلم، ص٢٨.

(٢) الإسلام يتحدّىٰ، ص٦٠.

(٣) قصّة الإيمان، ص٤٠.

۞ جريمة الإلحاد ۞

إنّ الإلحاد يُعدّ جريمة في مجتمع الإنسان، لأنّ العقاب عليها لابدّ أن يكون من أشدّ العقوبات، وحيث إنّ الإلحاد ليس له مكان بين الناس العقلاء، ومن كان طريقه الإلحاد تعس في الدُّنيا والآخرة ولم يكن مطمئنًا فقد سخط الله علىٰ صاحب ذلك العقل الذي تكبّر وظنّ أنّه لا وجود لله رغم أنّه يناقض نفسه في التفكير ولا يجد جوابًا لكثير من الأسئلة المحيّرة له بل يتعالىٰ أن يخضع ويصدق بأنّ الله موجود وهو خالق كلّ شيء.

يقول (كاميل فلامريون): «الإلحاد أحقر من أن ينتسب إلىٰ العلم أو العقل أو أن يسمّىٰ مذهبًا إنسانيًا، وأقلّ وأصغر من أن يُهتمّ بشأنه، بل الإلحاد وهمٌ ببعض العقول المستعدّة لهمزات شياطين الوساوس.

إنّ الإحساس بالعقيدة ألصق بفؤاد الإنسان من كلّ إحساس فيه، وليس المنكر لها بأقلّ إحساسًا بها من سواه، بل ربّما كان تظاهره بالجحود والنكران حجّة ناطقة علىٰ أنّه أشدّ الناس تأثّرًا بها إلاّ أنّه ضلّ الطريق وأخطأ المهيع فقذفت به حيرته إلىٰ متائه من النظريات هي ظلماتٌ بعضها فوق بعض، فلم يرَ المخلَص منها إلاّ فرض الفروض وابتكار السفسطات التي لو خلا بها يومًا وحكّم فطرته لضرب بها عرض الحائط ولعلم أنّ إحساسه في وادٍ وما تخيّله في وادٍ آخر، وإنّا لو سألنا يومًا عمّن هو أكذب الناس علىٰ نفسه لقلنا بدون تردّد: هو الرجل يزعم أنّه ملحد[1].

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين: ١/ ٥٣٤-٥٣٥.

قال (لورد كليص) -وهو من الباحثين في علم الطبيعة البارزين في العالم- هذه العبارة:

«إذا فكّرت تفكيرًا عميقًا، فإنّ العلوم سوف تضطرّك إلىٰ الاعتقاد في وجود الله».

ويقول الدكتور (وتز) عميد كلّية الطبّ بباريس وعضو أكاديميّة العلوم، وهو كاتبٌ مشهور: «إذا أحسستُ في حين من الأحيان أنّ اعتقادي بوجود الله قد تزعزع، وجّهت وجهي إلىٰ أكاديميّة العلوم لتثبيتها».

وقال (أينشتاين): «إنّ الإيمان هو أقوىٰ وأنبل نتائج البحوث العلميّة».

وقال أيضًا: «إنّ الإيمان بلا علم، ليمشي مشية الأعرج، وإنّ العلم بلا إيمان ليتلمّس تلمّس الأعمىٰ».

وقال (أدمون هربرت)[(١)]: «العلم لا يمكن أن يؤدّي إلىٰ الكفر ولا إلىٰ المادّية ولا يفضي إلىٰ التشكيك»[(٢)].

فانظر إلىٰ هؤلاء الغربيين كيف يحاولون أن يدافعوا عن أنه لا بد من التصديق بوجود الله، إنّ الذين ينكرون وجود الله بحجّة أنّهم لم يدركوه بحواسّهم فهؤلاء يتصوّرون بأنّ الحواس هي طريق المعرفة، فهم يؤمنون بالجاذبيّة والمغناطيسيّة والكهربائية والعقل ولم يروا شيئًا منها بل رأوا آثارها فقط.

---

(١) جيولوجي ذائع الصيت ومدرّس بجامعة السوربون.

(٢) الطب محراب الإيمان، ص٢٥٧، روح الدِّين الإسلامي، ص٦١.

من أسباب الإلحاد:

الاعتقاد بوجود الله تعالىٰ هو اعتقاد الفطرة التي فطر الناس عليها وهو أساس كلّ جزئيّة يشتمل عليها الدِّين الإسلامي.

أمّا الإلحاد فهو طارئ علىٰ النفس، وتعتبر أسباب الإلحاد كثيرة منها:

١- **الكِبر**: هو الغرور بالنفس الذي يدفع صاحبه إلىٰ تصوّر الحياة هي كلّ شيء وأنّه أصبح أعلم من فيها وأنّه ليس وراءها إلاّ العدم.

٢- **الانحراف**: عدم السير نحو الطريق الصحيح والإذلال للناس، فأصبح يظنّ أنّه هو الأعلىٰ كما فعل فرعون.

٣- **الظلم**: ظلم النفوس بمخالفة الحقّ والتنكّر له.

٤- **الجهل**: أي عدم القدرة علىٰ استيعاب الحق.

والعلم الصحيح لم يدعُ في يوم ما إلىٰ الكفر والإلحاد؛ لأنّه يتّبع المنهج السليم في الوصول إلىٰ حقائق الوجود ومظاهر الكون، ولم يقل في يوم إنّ هذا النظام الذي يجري عليه العالَم قد نشأ صدفةً؛ لأنّ الصدفة فوضىٰ والباحث الذي حلّل في المختبر أو عاش مع المنظار والمرصد أو تعامل مع الأعداد . . . قد لا يعترف إلاّ بالنظام وربط الأسباب بالمسبّبات والمقدّمات بالنتائج ويقطع متيقّنًا بأنّ الظواهر الطبيعية كالجاذبيّة والكهرباء واللاسلكي و . . . وغيرها من ملايين الصور ما هي إلاّ آثار تدلّ علىٰ المؤثّر وهو الله ﷻ، وقد أوضح العلماء والباحثون هذا الجانب بشكل جليّ.

يقول الدكتور (ماريت شافلي كونجدن) أحد مشاهير الباحثين في علم الطبيعة في العالم:

«إنّ جميع ما في الكون يشهد بوجود الله، ويدلّ علىٰ قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتّىٰ باستخدام الطريقة الاستدلاليّة، فإنّنا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته».

إن عدنا لوجدنا أنّ كثيرًا ممّن اتُّهم بالإلحاد لم يكن منكرًا لوجود الله حقًا وإنّما بنظر أهل الكنيسة التي كانت تحكم في وقتها علىٰ من يخالفها كان ملحدًا، فتولستوي مثلًا كان ملحدًا في نظر أهل الكنيسة ولكنّه كان في الحقيقة مصدِّقًا بوجود الله مع أنه لم يكن مسلمًا ولا نسميه مؤمنًا لأنه لا إسلام بلا إيمان ولا إيمان بلا إسلام فهما كالظهر مع البطن كما قال أبو حنيفة رضي الله عنه، وقد عرف هذا عن تولستوي كما هو واضح في كتابه «اعترافات تولستوي».

الإيمان بالله بين اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام

إنّ الإلحاد في حقيقة الأمر لم يكن مذهبًا أو ديانة إنّما هو عبارة عن موقف حدث بسبب ظروف خاصّة إمّا عن طريق ضيق الفكر والتحجّر أو غيره، فالإيمان الصحيح والعلم الصريح لا يتعارضان لأن دين الإسلام لم يأت إلا بمجوّزات العقول، وما حدث في الكنيسة في السابق نتج عنه الإلحاد بشكل أكبر، وما تقوم به الصهيونيّة واليهوديّة في العالم الإسلامي والدول الأُخرىٰ لا يُعدّ ولا ينطوي تحت محاربة الإلحاد بل هي سياسة تُستخدم لهدم الأُمم وتنفيذ الأهداف السياسيّة والاقتصاديّة البحتة، وهذا ما يخشىٰ علىٰ أُمّة الإسلام؛ فقد بدأت مجتمعاتنا المسلمة التأثر بالمنهج التعسّفي في التكفير والتنفير والوسم بالإلحاد، فالإسلام تفكير لا تكفير والإسلام تيسير لا تعسير، رأينا من يتّهم الأشاعرة والماتريدية بالكفر وهم أهل السنة والجماعة، ورأينا من يتهم المعتزلة والإباضية والشيعة بالزندقة والإلحاد، ورأينا من يهاجم ومن يتّهم

مدّعي السلفيّة باليهوديّة والتجسيم ويدافع عنهم، ورأينا من يتّهم الصوفيّة بالحلول والاتّحاد.

وقد أصبحت أغلب وسائل الإعلام الطريق الأسهل للشتم والتهجّم والتهكّم علىٰ أهل الحقّ.

إنّ الإعلام يا معشر المسلمين هدفه الأول أن يكون إعلامًا ناصحًا صالحًا قبل أن يكون إعلامًا فاضحًا فاسدًا، وإلا فإن كان ولا بُدّ فهو منبر للتحذير من الضلال والفساد.

وعلينا أن نعلم أن الله قد خلق البشر وفطرهم علىٰ الفطرة بوجود الله ذي الجلال والإيمان بوحدانيته.

قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

فالله الواحد القهار الخالق المدبر، لا يعزب عنه مثقال ذرة، فكيف يتجرّأ عقل بشر حقيرٌ يزيله مرض أو عارض أن ينكر وجوده! نحن نتمسك بمنهج المسلمين الذي يعرف حدود الله ويدرك حقوقه علىٰ عباده، ما أسهل اليوم أن يكفّر الشخصُ ويتّهم بالإلحاد غيره إذا كان متسرِّعًا، لكن عاقبة هذا الأمر وخيمة، والتسرع في التكفير بغير حقّ يؤدي إلىٰ تفكيك المجتمع وانتشار الضغائن والأحقاد، فالإنسان صاحب فكر حرّ كما فطره الله لكن عليه أن يستعمل هذا الفكر فيما يوافق دين الله، عليه أن لا ينتج أفكارًا توقعه في الكفر والإلحاد والذي كثيرًا من الأحيان لا يصدر إلاّ نتيجة فراغ وابتعاد عن طريق

الهدىٰ الذي بيّنه شرع الله، لقد وجدنا من يتكلّم في علم العقيدة وصفات الله وهو ليس أهلًا للكلام في هذا، فعلينا أن نعرف الله ونؤمن بالله ولا نتعدّىٰ حدود الله، ونرىٰ أنّ أهمّ ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو التمسّك بالاعتقاد السليم الذي أمر به الشرع، وأين يعلم الشخص ويعلّم غيره أنّ هذا العالم مهما يحصل فيه من خير أو شرّ فالله تعالىٰ هو خالق كل هذه الأشياء ولا يعرف الله علىٰ الحقيقة إلا الله، فالسلامة تكون بالتسليم، فما سَلِم في دينه ودنياه إلا مَن سَلَّم لله.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

أقول: إن الأديان السماوية الثلاثة التي أعانت علىٰ تكوين عقليّة الناس في العصور الوسطىٰ مجمعة كلّها علىٰ أنّ هنالك عقليّة كونيّة هي الله الواحد الأحد ذو الجلال، غير أنّ المسيحيّة قد أضافت إلىٰ هذه العقيدة أنّ الله الواحد يظهر في ثلاثة أقانيم مختلفة، أمّا اليهوديّة والإسلام فيريان أنّ هذا الاعتقاد ليس إلاّ شركًا مقنّعًا، وتعلنان وحدانيّة الله بأقوىٰ الألفاظ وأشدّها حماسة، وما من شكّ أنّ الديانات السماويّة التي نزلت علىٰ الرسل قبل الإسلام لم تكن عامّة، وإنّما كانت خاصّة، مقصورة علىٰ علاج بعض ما فشا من عيوب وآثام جماعة معيّنة، ولذا نجد بعض الرُّسل أُرسل إلىٰ مائة ألف (كسيّدنا يونس)، وكذلك نجد نبيّين في زمن واحد كلّ منهما أُرسل إلىٰ جماعة معيّنة في بقعة معيّنة، كما هو الشأن بالنسبة إلىٰ سيّدنا إبراهيم ولوط، وكلّ الرسالات السماويّة كان دأبها الدعوة إلىٰ توحيد الله فاطر السماوات والأرض الذي أنشأها إنشاءً وأعطىٰ كلّ شيء خَلْقه ثمّ هدىٰ وأنه لا يشبه شيئًا من المخلوقات، وإلىٰ جانب التوحيد والإيمان بالنبيّ المرسل إليهم من عِند الله كانت تشمل الرسالة الحضّ علىٰ الفضائل والأخلاق

والامتناع عن الموبقات والآثام كالقتل والزنا والسرقة والغشّ في المكيال والميزان في التعامل، والتزام الصدق والبُعد عن الكذب والخيانة والتحلّي بالتواضع والتسامح، وكانت آخر الديانات السماويّة قبل الإسلام هي المسيحيّة، وقد حرّفتِ اليهود والنصارىٰ دين الله، وقد حُرّفت كما حُرّفت تعاليم اليهوديّة من قبلها في قوامها الأصلي، فالدين عند الله الإسلام الذي لا دين صحيح سواه.

فقالت اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقالت النصارىٰ: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، وبدأ الخلاف علىٰ تحريف قواعد التوراة والإنجيل اللّتين يجمعهما كتابٌ واحد اسمه الكتاب المقدّس الجزء الأوّل منه يطلق عليه «العهد القديم» «التوراة» والجزء الثاني يُطلق عليه «العهد الجديد» «الإنجيل» وقد أكّدوا أنّ الألواح الأُولىٰ التي نزل بها الوحي علىٰ موسىٰ وعلىٰ عيسىٰ عليهما السلام ليست واردة بنصّها وأغلب الظنّ أنّها ضاعت، لذلك فإنّه لا يوجد اليوم أي نصّ أصلي لأي جزء من الكتاب المقدّس وربما حوىٰ «العهد الجديد» تغييرات أكثر وأبلغ من «العهد القديم» ثمّ جاءت الحركة المعاصرة لتحقيق ما في الكتاب المقدّس تحقيقًا علميًا وتأريخيًا بالرجوع إلىٰ الآثار القديمة واللفائف والحفريات، ممّا أدّىٰ إلىٰ إعادة النظر في شروح هذا الكتاب المقدّس وتهذيب التفسيرات القديمة، حتىٰ وصل الأمر إلىٰ أنه لم يعد يوجد كما لا يوجد اليوم توراة أصلية غير محرّفة أو إنجيل أصليّ غير محرّف.

فدأب النصارىٰ واليهود علىٰ كتابة كُتبٍ لهم سمّوها الإنجيل والتوارة أو الكتاب المقدّس علىٰ زعمهم، وأوّل ما كُتب باللغة العبرية القديمة وباللغة الكوئينيّة أي الإغريقيّة إلاّ أنّ الترجمة وكلّ الترجمات كانت ناقصة، وقد عجز

الأسقفّ (جيروم) نفسه عن إرضاء الكنائس المعاصرة له والتمشّي مع أذواقها وميولها وأهوائئها إلىٰ ما تريده من الاعتقادات، وذلك رغم أنّ ما يسمّونه البابا عندهم كان اعتمد تلك الترجمة اللاتينيّة سنة **١٤٥٣**م.

فلا عجب بعد ذلك أن يحتدم الصراع بين رؤساء دين النصارىٰ في مجمع نيقية وخصوصًا في كلامهم حول سيدنا عيسىٰ المسيح الذين ادّعوا ربوبيته وكلامهم علىٰ طبيعته وحياته وكان ذلك في زمن (قسطنطين) إمبراطور الرومان، فتدخّل هذا الإمبراطور وجمع البطارقة والأساقفة، فاجتمع في مدينة نيقية سنة **٣٢٥**م ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة، وقد «كانوا مختلفين في الآراء والمذاهب أشدّ اختلاف، فمنهم من يقول: إنّ المسيح وأُمّه إلهان من دون الله، ومنهم من يقول: إنّ المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، ومنهم من قال: لم تحمل به مريم تسعة أشهر وإنّما مرَّ في بطنها كما يمرّ الماء في الميزاب لأنّ الكلمة دخلت في أُذنها وخرجت من حيث يخرج الولد لساعتها، ومنهم من يقول: إنّ المسيح إنسان خُلق من اللاهوت أي من الإله كواحد منها في جوهرة وأنّ ابتداء الابن من مريم، وأنّه اصطُفي ليكون مخلّصًا للجوهر الإنسي فصحبته النعمة الإلهيّة، ومنهم من قال: إنّهم ثلاثة آلهة».

يقول (ديورانت): (قسطنطين) إنّ المسيحيّة كانت عنده وسيلة لا غاية، وهداه شيطانه الوثني أن يسخّر المسيحيّة ورجال الدِّين لخدمة سياسته، فاستبقىٰ من الأساقفة **(٣١٨)** فقط وصرف أكثر من **(١٧٠٠)**، واستطاع أن يشتري من استبقاهم فانتهىٰ المجمع إلىٰ القول بألوهيّة المسيح والأمر بتحريق كلّ كتاب يخالف ذلك، ولم يستطع قسطنطين وجَمعُه أن يقضي علىٰ حدّة التناقض بين المسيحيّين[1].

---

(١) قصّة الحضارة: ١١/ ٣٧٨.

وهنا نعرض رأي بعض فرض النصارىٰ حول طبيعة المسيح:

النسطوريّة: وتنسب إلىٰ (نسطور) الذي كان بطريقًا للقسطنطينيّة، وكان نسطور يرىٰ أنّ مريم لم تَلِد الإله وإنّما ولدت الإنسان ثمّ اتّحد هذا الإنسان بعد ولادته بالأقنوم الثاني اتّحادًا مجازيًا حقيقيًا. فطرد هذا البطريق من منصبه ونفي إلىٰ أخميم بمصر حتّىٰ مات.

اليعقوبيّة: وتنسب إلىٰ راهب بالقسطنطينيّة يدعىٰ (يعقوب البراذعي)، وخلاصة رأي هذه الفرقة أنّهم يقولون: المسيح ذو طبيعة واحدة امتزج فيها عنصر الإله بعنصر الإنسان -أعاذنا الله من هذا الكفر القبيح- ويقولون إنه تكوّن من الاتّحاد طبيعة واحدة «اللاهوت والناسوت» وذلك كامتزاج الماء واللبن، وبسبب ذلك انعقد (مجمع خلكدونية) الذي قرّر أنّ المسيح له طبيعتان، ولذلك انفصلت الكنيسة المصريّة التي تدين بأنّ المسيح ذو طبيعة واحدة عن الكنيسة الرومانيّة.

الملكانيّة: نسبة إلىٰ (ملكا) الذي ظهر بالروم واستولىٰ عليها، وهي فرقة تدين بأنّ المسيح جوهر واحد له مشيئتان وطبيعتان، ويقولون إنَّ اتّحاد الله بعيسىٰ كان قائمًا حال صلبه، فيزعمون أنّ عيسىٰ إله تامّ وإنسان تامّ والإنسان منه هو الذي صُلب وقُتل وأمّا الإله فلم ينَلْه شيء، ويزعمون أنّ مريم ولدت الإله والإنسان وأنّهما معًا شيءٌ واحد ابن الله، تعالىٰ لله عن ذلك عُلُوًّ كبيرًا.

المارونيّة: أتباع (يوحنا مارون) الذي قرّر أنّ المسيح ذو طبيعتين وأنّ له مشيئة أي إرادة واحدة، ولقد قرّر المجمع العام السادس بالقسطنطينيّة سنة ٦٨٠م فسادَ ذلك وقرّر نفي ما دُوِّن وتكفيره، ولهذه الطائفة بطرك خاص مقرّه لبنان.

الأرثوذكس: وتمثّلهم الكنيسة الشرقيّة بالقسطنطينيّة، ويقولون: للمسيح طبيعة واحدة، وقالوا: إنّ الإله الأب أفضل من الإله الابن، وإنّ روح القدس نشأ عن الاثنين معًا.

الكاثوليك: وتمثّلهم الكنيسة الغربية في (روما) ويقولون بأنّ المسيح له طبيعتان ومشيئتان، ويقولون بالمساواة التامّة بين ما يسمّونه الإله الابن والإله الأب.

البروتستانت: وَيُسَمُّونَها الإنجيلية، إشارة منهم إلىٰ أنّهم يتّبعون الإنجيل فقط علىٰ زعمهم، وحملوا علىٰ بدع الكاثوليك والأرثوذكس معًا ولا سيما مسألة ما يسمُّونه العَشاء الربّاني الذي يتكوّن من خبز وخمر وبعد تلاوة خاصّة من رؤساء الكفر عندهم يوم الفصح فيقولون: يستحيل الخبز إلىٰ لحم المسيح والخمر إلىٰ دم المسيح، وأنَّ من أكل منه يصبح مسيحًا آخر تحرم عليه النار. ولقد علّق أحد المؤرِّخين النصرانيين علىٰ هذا بقوله: «وبهذه الطريقة تعظّم الحضارة الأوربيّة والأمريكيّة شعيرة من أقدم الشعائر وهي: تأكل الآلهة».

وقد رفض البروتستانت ما يسميه غيرهم من طوائف النصارىٰ «صكوك الغفران» لمن يشترك في الحروب الصليبيّة ضدّ الإسلام والمسلمين وكلّ هذه بدع ما يُسَمَّون بالباباوات حيث بدأوا يُدخلون الأُمور الدينية في أمورهم الدنيويّة لأجل تحصيلهم أكبر منفعة دنيوية ونسبوا لأنفسهم ما ليس لهم حقّ فيه من العقاب والثواب والغفران للناس من دون الله، وقد قال «مارتن لوثر» صاحب مذهب طائفة البروتستانت: «إنّ الباباوات يتغفّلون الناس ويسلبون أموالهم عن طريق بيع صكوك الغفران، وادّعىٰ الباباوات في روما أنّهم خلفاء الله في الأرض وأنّ لهم حقَّ تعديل التعاليم الدينيّة فأحلّوا ما حرّم الله وحرّموا بعض ما

أحلّه وضربوا الجزية علىٰ الناس وعلىٰ البهائم وخصّوا أنفسهم وشرعوا علىٰ من يعارض سلطانهم طرده من ملكوت رحمة الله في الأرض والسماء واعتدوا علىٰ سلطان الملوك والأُمراء والحكّام وانتشرت في القرون الوسطىٰ في أوروبا عادة تتويج الحكّام والأُمراء ثمّ استغلّ الملوك والأُمراء هذه الشرعيّة في الحكم التي يضفيها عليهم البابا فادّعوا أنّ لهم علىٰ الشعوب حقًا إلهيًا مقدّسًا، فلهم أن يفعلوا بالشعوب ما شاؤوا دون اعتراض من الناس، فلا حقّ لأحد ولا حريّة لأحد ولا مال لأحد إلاّ بقدر ما يسمح ويشرع الملِك لأهل مملكته ما دام قد تلقّىٰ حقّه الإلهي عن طريق الممثّل المباشر لله في الأرض وهو البابا، وكان الملوك يدفعون الكثير من الأموال للباباوات لقاء تسليطهم علىٰ شعوبهم، وكانت كلّ مملكة في أوروبا تتكوّن من عدّة إمارات، وكان كلّ أمير علىٰ إقطاعيّة يدفع الكثير إلىٰ الملك مقابل أن يملك الإقطاعيّة بدورة أرضها وساكنيها من أُناس وحيوانات ويستبدّ بالجميع كيف شاء، حتّىٰ إنّ أمير الإقطاع كان إذا باع أرضه التي يملكها أو بعضها يتبعها ويدخل في البيع ما عليها من زرع وشجر وحيوان وإنسان» هذا علىٰ ما ذكره زعيم طائفة البروتستانت.

وقال بعض المؤرِّخين: كلّ تلك الأفعال غيّرت حال العَيش في أوروبا في القرون الوسطىٰ، وبلغ الاستبداد بالناس مبلغًا لم يبلغه في زمنٍ قطّ في عصر من عصور التاريخ القديم في أوروبا، وسيطر الباباوات زاعمين أنّ لهم صفات دينيّة علىٰ عقول الشعب ممّا أدّىٰ بكثير من الناس الذين يتّبعون دين النّصارىٰ إلىٰ كراهية الكنيسة وتعاليمها فأدَّىٰ هّا إلىٰ أن ظهر كثيرٌ من حالات الخروج من دين النصارىٰ وتوصّلهم إلىٰ إنكار وجود الخالق، وقد ساد جوّ من الفساد المتفشّي في العصور الوسطىٰ علىٰ الانفتاح والانحلال الأخلاقي وزادت نقمتهم علىٰ

دين النّصارىٰ وصارُوا يَعمَدُون إلىٰ معارضته بتحليلهم كثيرًا من الأُمور المحرّمة عند النّصارىٰ، فالدين المسيحي كسائر الأديان السماوية يَدعو إلىٰ الأخلاق والالتزام الإنساني تجاه البشر وهو ما حقق بفضل الله في دين المسلمين السَّمْحِ الذي انتشر في ربع قرين من الشرق إلىٰ الغرب، وإلىٰ يومنا هذا يعاني الغرب ومجتمع النصارىٰ من ذلك الانفتاح والانحلال الذي حصل في العصور الوسطىٰ، فما يحدث الآن في الغرب من انحلال وتردٍّ أخلاقي ناتج عمّا حدث في ذلك العصر من رجال دينهم المتنطعين الباباوات وقد استمرّ الحال حتّىٰ طفح الكيل عند كثير من أهل متجمعهم فثار الناس علىٰ هذه الأوضاع وقام «مارتن لوثر» مناديًا بالإصلاح الديني وتبعه الكثيرون من الناس ونشأ المذهب البروتستانتي، وكان من آثاره رغبة الشعوب في التحرّر من سلطان الملوك، وقامت الثورات ومن أشهرها الثورة الفرنسيّة، ونادىٰ المفكّرون والأدباء والحكّام بفصل أُمور دينهم النصرانيّ عن أُمور الدنيا، وكان هذا الفصل عندهم سهلًا ممكنًا مستساغًا لهم لأنّ دين النصارىٰ لا يشمل عندهم أُمور دنياهم ولا يتدخل في حياتهم في تفاصيلها بدعوَىٰ تنظيمها تنظيمًا كاملًا.

وبدأت أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر من ميلاد المسيح حسب التأريخ الرُّومي تسعىٰ لتنظّم أُمور المجتمع كما هي ترىٰ من بيع وشراء ورهن وتعامل فيما بين الناس ووضعت لذلك القوانين الوضعيّة ومنها ما يحدّد العلاقة بين الحكومات والأفراد وما يحدّد العلاقات بين الدول بعضها مع بعض وكلّ تلك القوانين مستمدّة من نظام العدل السماوي في المساواة بين الناس وهو ما تدعو إليه الأديان السماوية من عدل وإنصاف وغير ذلك.

وخلاصة القول: أنّ هذه الاضطرابات التي مرّت علىٰ الأمة الأوروبية من أصحاب الديانة النّصرانية كانت أتت نتيجة تمسّك بعض زعماء دين النّصارىٰ بأنّ ديانتهم لا تكون إلا مذهبًا واحدًا وعدم قبولهم بتفرع مذاهب أُخرىٰ عن دين النّصارىٰ يتزّعمها غيرهم من بين النّصارىٰ وعدم قبولهم بأيّ مخالِف لهم في ممارسة شعائر النصرانيّة، فالدولة والحكّام في أوروبا ألزَمُوا النصارىٰ هناك بقيود تجعل لهم دينهم النصرانيّ طريقًا يوصل الحكّام إلىٰ أهدافهم الاقتصادية والسياسيّة ممّا جعل نصارىٰ أوروبا تتنفّر منهم وتنحلُّ أخلاقيًا.



۞ حال أكثر المسلمين اليوم بين التمسّك والانحلال ۞

أقول: انتشر اليوم التشدّد والتزمّت من قِبَل كثير ممَّن يُسَمَّون «مشايخ السُّلْطَة» وهم بعض الفرق الإسلامية الذين يُطلِقون ألستنهم بالتكفير بغير حقّ، فنرهم يُخرجون الناس من الإسلام ويعيدونهم إليها بالحُكم عليهم وكأنهم يظّنون أنهم حملوا شيئًا يشبه ما سمّاه النّصارىٰ «صكوك الغفران» في أنّهم يدّعون بغير حقٍّ صلاح من يرغبون به ويدّعون فساد من يبضغونه غير أنهم أحلّوا ما حرّم الله وأفتوا بما يرضي الحاكم وألصقوا فتواهم بحجّة الهدي النبوي لخدمة الهوىٰ الذي عندهم مما نتج عنه تحير الحائرين وهم كُثر الذين وصل بهم الحال إلىٰ ضيق الخناق ودخلوا في ضيق الفكر وتغيّروا عمّا كان عليه آباؤهم وأجدادهم من الشريعة السمحاء شريعة خير الرسل والأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام وتبعوا ما جاء به غيرهم من الهوىٰ والزيغ والتحريف، وقد رأيت من يكفِّر أباه وجدّه ويكفّر الناس بغير حقّ، وَرأيت مَنْ شذَّ عن الحقّ وتاه في ظلمات الضلال ومَنْ شذَّ شذَّ في النار، ورأيت من عبد الدينار الذي يقف علىٰ باب الملوك ألا تعس عبد الدينار، ورأيت من يكفِّر إخوانه في بلاد المسلمين بغير حقّ ليدّعي أنه هو المسلم فقط والعياذ بالله من هذا الغرور المهلِك، وَرأيت أقوام اتخذوا من الإسلام طريق لدعواهم وهواهم الفاسد، وفي الحقيقة أن الإسلام منهم براء، كلٌّ منها تدّعي أنّها الفرقة الناجية، يا أُمّة الإجابة كلّنا مسلمون وأما من لم يكن مسلمًا فلا نسمّيه مسلمًا بل هو كافرٌ كما فُهِم من القرءان والحديث تصريحًا في كثير من النصوص وإجماع الأمة.

إنّي أخشىٰ أن يحدث في بعض مجتمعات المسلمين ما يجعلها تصل إلىٰ أسوأ مما وصلت إليه أوروبا في العصور الوسطىٰ من انحلال أخلاقي

وانحراف، وللأسف أرىٰ ذلك، وقد أعدَّ أعداء الدِّين لذلك؛ فالماسونية قد وجّهت وجهتها إلىٰ بلاد المسلمين بعدما انتهت من أوروبا وقرّرت أن تحيك مؤامرتها ضد شعوب دول المسلمين وعقائدها.

نحن معاشر المسلمين لدينا أسس لا نرضىٰ أن نحيد عنها ولدينا مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، حيث تحنّ قلوب المسلمين وأفئدتهم إليها، هاتان المدينتان المقدّستان اللّتان هما مقصد المسلمين من كلّ بقاع الأرض، وكل مسلم زائر لهما بقلب سليم ونيّة صادقة يحبّ أن يعمل العبادات فيهما بكلّ سلام دون إيذاء من إخوانه ممّن لهم مذاهب معتبرة مختلفة عنه موافقة للشرع، بلاد الحرمين وأهلها المسلمون ينبغي أن يكونوا إخوة لجميع قاصديهم المسلمين الموافقين لهم في أصول العقيدة وإن اختلفوا معهم في بعض الفقهيات، فعلىٰ مدىٰ مئات السنين لم نر في بلاد الحرمين الشريفين من يجاهر بمذهب الإلحاد وإنكار وجود الله ولكن ظهرت مؤخرًا بعض النماذج التي دعمت من قبل الإعلام الفاسد والتي تمثلت في الجهر بالفساد والضلال، وإن قيل: هل هم ملحدون أم هم أشخاص تضاربت عليهم الأقوال والأفعال فوصلوا إلىٰ شذوذ الفكر واستغلهم أعداء الإسلام لتحقيق مآرب سياسية، وبالأخص في مجتمع الحرمين الشريفين نحن المسلمون أهل السنّة والجماعة لا نقبل بغير الوسطية والاعتدال وليس لدينا إلا فكرنا الإسلامي النقي المعتدل الذي يدعو إلىٰ عبادة الله وحده وأن لا يُشرَك به شيء، وقد رأيت من الوقاحة أنه يوجد من يجاهر اليوم بأنه علماني وهو يعنون بذلك إمّا أنهم لا يدينون بدين الإسلام فهم كُفّار أو أنهم لا يظهرون تعاليم الدين من صلاة وصيام والكلام علىٰ ديننا الحنيف ونشره فنجد من يدندن حول ذلك وهو لا يعلم ما هو أساس ما يهدفون إليه أولئك المخربون ووجدت في وسائل الإعلام الكثير من الترويج لأصحاب الفكر العلماني وأنا علىٰ يقين أنهم يقادون لتحقيق أهداف داخل مجتمعنا الإسلامي وإلا فأيّ غرض يريدون.

إنّ للحرمين قدسيّة خاصّة وموقع عند المسلمين لابدّ أن لا يتعدّاها أحد، وللحرمين الشريفين جوانب لا يمكن أن تكون في غيرها من كلّ بلاد العالم، لكنّ العلمانية لا نقبل بها في مكة والمدينة ولا في غيرهما إلا أننا نغتاظ ونهبّ لوأد فتنة يحاول البعض إثارتها لا سيّما في الحرمين الشريفين.

دعونا نسأل أنفسنا: لماذا انحرف الكثير من الأبناء المنتسبين إلىٰ الدِّين الإسلامي في بلاد المسلمين واتّهموا بالإرهاب؟ مَن السبب؛ حكوماتهم أو مشايخهم المفسدين أو الخطة الأمريكية والتي تمثّل الصهيونيّة؟! إنّنا كمسلمين ليس لدينا أي مشاكل أو خلافات مع أهل الأديان السماويّة الأُخرىٰ بل الواجب علينا احترامهم، ولكن مشكلتنا مع الغرب الصهيوني الماسوني، وهذه ليست مشكلة المسلمين وحدهم بل هي مشكلة غالب أهل الأرض من المسلمين وغير المسلمين، فالشعوب بأجمعها لن نرتاح إلا بأن تتخلّص من الماسونيّة الصهيونيّة التي تُحرِّك العالم من خلال أمريكا.

أنا اليوم لا أعلن الحرب علىٰ الشعب الأمريكي أو الشعوب الأوروبيّة أو الشعب اليهودي أو سائر الشعوب الغير مسلمة ولا أكرههم بل أحبهم في الإنسانية، لكن أرفض علانيةً ممارسات حكوماتهم الجائرة علىٰ المسلمين وتنفيذ المخطط الصهيوني البائس، فقد استطاعت حكوماتهم تسخير الإعلام الكاذب الموجّه إليهم والذي سعىٰ إلىٰ تشويه صورة الإسلام والمسلمين في الأرض.

أقول: إن خطرًا كبيرًا يظهر من خلال البيت الأبيض إحدىٰ أعتَىٰ قواعد الإرهاب في العالم، ومحطّ انطلاق جميع عمليّات الإخلال المنظّمة في العالم تقريبًا، وليعلم أن مركز دراسات الإرهاب الذي يضع مخطّطات العمليات الضخمة العلانية في العالم هو البنتاجون وهذه الأعمال كلّها بدعم قصر باكنجهام الملكي.

الإسلام الأمريكي:

إن الغرب يطرح على المسلمين اليوم الإسلام الأمريكي تحت مظلة الكيان الصهيوني ليكون داخل المجتمعات الإسلامية، بنموذجين: الإسلام التكفيري، والإسلام العلماني، ليشوهوا بهما حقيقة صورة الإسلام الأصيل، ويسعى من خلالهما إضعاف الإسلام الأصولي المعتدل والعقلاني، لقد نجحوا في إشعال ثورات المنطقة، وهدفوا من تلك الثورات بالتلويح حول الديمقراطية، بالحراك الشعبي، والانتخابات الحرة في إطار أصول الثورات، والحقيقة أنهم أرادوا من ذلك الديمقراطية التقليدية من الدرجة الثانية للسقوط في شِراك الليبرالية والتخلي بها عن الشورى التي ينادي بها الإسلام والدين القويم، والتمسك بالعلمانية، وهو ما يدفع إلى الدخول في شِراك الرأسمالية الغربية والروح الاستهلاكية، والانحطاط الأخلاقي، وسيتحقق بذلك مسلمون علمانيون.

أما النموذج الآخر وهو الإسلامي التكفيري والذي يحمل كل معاني التعصب والتحجر والعنف في العلاقة بين المسلمين أنفسهم بمذاهبهم الإسلامية المختلفة وبين أهل الأديان السماوية، والذي يخالف روح السماحة والعقلانية والتي تعتبر هي من أركان الفكر والحضارة الإسلامية وهو الطريق الذي سوف يتخلى به الكثير عن الدين.

إن الإسلام الغربي الأمريكي يدعو اليوم إلى الفكر العلماني المتغرب أو الفكر التكفيري المتطرف، أنه إسلام يسعى لقبول الكيان الصهيوني، ورفض المذاهب الإسلامية والسعي لتفريق وحدتهم، وإشغال الداخل بحروب قِبلية وفتنة مذهبية، إنه إسلام يتولى الكافرين، إسلام يخالف منهاج النبوة، رجاله أشداء على المؤمنين رحماء بأعداء الدين الكافرين.

نريده إسلامًا على منهاج النبوة
ويريدونه إسلامًا أمريكيًّا صهيونيًّا علمانيًّا وتكفيريًّا
هم يريدون ونحن نريد والله فعَّال لما يريد

○ نداء إلىٰ الأُمّة الإسلاميّة واليهوديّة والمسيحيّة ○

إنّ الرسالة الإسلاميّة تتميّز باليُسر والسهولة والتكليف بمستوىٰ القدرة والطاقة والقابليّة واحترام العقل، والواقعيّة وعدم التناقض والموازنة، والدعوة إلىٰ ضرورة الإخلاص ونبذ الخلافات والتعصّب والعمل علىٰ إظهار صورة الإسلام المشرقة في جميع أنحاء العالم، وتظلّ الحياة بين الشعوب تسير نحو نقطة هامّة من الميلاد حتّىٰ الوفاة هي حقيقة الإيمان بالله والجزم بوجوده جلّ جلاله، وهذه باتّفاق جميع طبقات البشر هي الركيزة الأُولىٰ للأديان السماويّة؛ فالمؤمنون بالله من مسلمين ويهود ومسيحيين يتّفقون في أمر هامّ يقطع ويسهّل الكثير من التعقيدات الاجتماعيّة؛ لأنّنا في نهاية الأمر سنصل إلىٰ طريق واحد هو «الله» ولا نعبد إلاّ إيّاه ولا نشرك به أحدًا.

وقد قدّر الله لهذا الكون تقديرات وتنظيمات لا تكون إلاّ بأمره؛ وهي خلق الأرض والمخلوقات وخلق الإنسان في الدرجة الأُولىٰ وجعله خليفته فيها، ومنذ اليوم الأوّل للإنسان في الأرض وهو يعيش ضمن قوانين ونُظم تعوَّد عليها من الفطرة، ومع ظهور الأديان السماوية من مبدأ الأمر والتي كلّها تدعو في نهاية المطاف إلىٰ وحدانيّة الله، وعدم الشرك به وعبادة غيره مع اختلاف تلك الأديان والأنبياء والكتب السماويّة المنزلة وشدّة الخلافات في هذا الأمر، إلاّ أنّ النتيجة النهائية واحدة وهي الإيمان بالله وبوجوده والإقرار له بالطاعة، لكن كان لهذه النفس البشريّة والتي تكون تحت الخير والشرّ والإنكار والجحود وتوالي الرسالة من السماء حتّىٰ خاتمة الأديان ألا وهو الدِّين الإسلامي.

وقد صرحت الكتب السماويّة الأُخرىٰ قبل القرآن بوجود نبيّ سيظهر علىٰ وجه الأرض وتكون له كرامات، كلّ ذلك كان من الإيمان بالله وما جعل هذه

الأُمم التي خلقت علىٰ الفطرة تؤمن بوجود الله وتعلن إيمانها خضوعًا له من أوّل يوم خُلقت فيه البسيطة وجاء علىٰ رأسها الإنسان وكان هذا الكون الذي يسير بنظام غاية في الإتقان بتقدير من العليّ العظيم مع مرور الأيّام وتداولها وتغيير الأديان وتفرّع المذاهب في الأديان وانتشار الإسلام آخر الأديان في جميع مشارق الأرض ومغاربها ودخول الكثير من أهل الأديان السماوية الأُخرىٰ فيه ليقينهم بصحّة حقيقة الإيمان وعدم الاختلاف في أصل الإيمان، وكلمة الإسلام تخصّ جميع المؤمنين بالله كما جاء في كتاب الله أنّ سيّدنا إبراهيم كان من المسلمين وهو لم يكن علىٰ دين سيّدنا محمّد ﷺ بل هو أبو الأنبياء.

ولم يكن لليهود ما يميّزهم عن غيرهم من الشعوب والذي يحفظ عليهم وحدتهم وهم مشتّتون بل أن تمسكهم بشعائرهم الدينية هو هدفهم للحفاظ علىٰ وحدتهم، رغم أن المسالة العقائدية هي أصل الأديان ونجد أن المسيحيّة لم تسعىٰ لأكثر الوحدة دون التوسّع فيها قبل ظهور الدين الإسلامي، بل هي قواعد الطقوس والمراسم المعقّدة تعقيدًا ثقيلًا، وبذلك نجد أن المسيحيّة كانت تناشد الوحدة عن طريق توحيد العقيدة، أمّا اليهوديّة فكانت تنشدها عن طريق توحيد الشعائر.

وتتّفق الأديان الثلاثة علىٰ أنّ المبادئ الأخلاقية الفطرية -غير الدينيّة- تصلح لأن تكون قواعد عمليّة للإنسانيّة، وترىٰ أنّ الكثرة الغالبة من الناس لا يمكن أن تُحمل علىٰ المسلك الحسن والخُلق القويم إلاّ عن خوف الله، ولهذا أقامت الأديان الثلاثة قانونها الأخلاقي علىٰ مبادئ رئيسيّة واحدة: أنّ لله عينًا تبصر كلّ شيء، يدًا تسجّل كلّ شيء، وأنّ القانون الأخلاقي منزل من عند الله، وأنّ

يد الله ليست كيد الإنسان، وعينه ليست كعين الإنسان، فيده القوّة وعينه علمه، وأنّ الفضيلة تتّفق في آخر الأمر مع السعادة بما يناله المحسن بعد الموت من الثواب والمسيء من العقاب، ولم يكن من المستطاع في الدينين الساميين فصل القوانين الثقافيّة والأخلاقيّة عن الدِّين، فلم تكن هذه القوانين تجيز التفرقة بين الجريمة والخطيئة، أو بين الشرّ والشريعة، بل إنّ من مبادئها المقرّرة أنّ كلّ فعل ذميم يعدّ إساءة إلىٰ الله وانتهاكًا لحرماته ولاسمه جلّ جلاله.

وتتّفق الأديان الثلاثة فضلًا عن هذا في بعض قواعد الأخلاق: تتّفق في حرمة الأُسرة والمسكن، وفيما يجب للآباء وكبار السنّ من تكريم وإجلال، وفي حبّ الأبناء ورعايتهم، وفي عمل الخير لجميع الناس، ويتّفق المسلم والمسيحي واليهودي أنّ البشريّة تصبح مهدّدة بالزوال إذا ما فقدت قوّتها، وأوامر الدِّين التي تقضي بوجوب إنجاب الأبناء.

قد أسلفنا الحديث عن الحياة المسيحيّة، ودعنا نتكلّم عن حياة اليهود في العصور الوسطىٰ؛ فقد اتّخذوا الشريعة بوجه عام ويتّخذها درعًا لا يقيه اللعنة الأبدية، وكان كلّ بيت في بلاد اليهود كنيسًا، وكلّ مدرسة معبدًا، وكلّ أب كاهنًا، فصلوات الكنيس وطقوسه كان لها مثيلات موجزة، والصوم والأعياد الدينيّة يحتفل بها، وكان من عادة ربّ الأُسرة في كلّ يوم جمعة مساء السبت أن يجمع أفراد عائلته والعاملين في بيته ويباركهم فردًا فردًا، ويؤمّهم في الصلاة وفي القراءة من الكتب الدينيّة والأغاني المقدّسة، وكان يضع ورقات يكتب عليها بعض النصوص من الكتب اليهوديّة كالإصحاح تذكّره بأنّ إلهه واحد يجب عليه أن يحبّه من كلّ قلبه وروحه وبكلّ قوّته.

ويعتبر الكنيس ليس معبدًا فحسب، بل كان مجمعًا ومركزًا اجتماعيًا للعشيرة

اليهوديّة وكانوا يُحضرون أبناءهم في سنٍّ مبكّرة أي في الرابعة من عمرهم إلىٰ الكنيس لتعلّم الدِّين، واعتبروا أنّ هذا السنّ هو أكثر السنين تأثيرًا في تكوينه، والمسيحيّة أيضًا كانت لها الطقوس الدينيّة المعروفة التي تُنشئ المجتمع علىٰ الخُلق الديني والحفاظ الأخلاقي، وكان دور الكنيسة أنها مركز اجتماعي للاحتفال بالزواج وإقامة مراسم الزواج وكذلك الأموات حيث تكون الكنيسة آخر عهدهم بالدُّنيا، ومن ثمّ إلىٰ القبر.

والغرض من استعراض هذه الأُمور التأكيد علىٰ أنّ حقيقة الأديان السماويّة مع اختلاف الأنبياء والرُّسل إلاّ أنّها ترشد إلىٰ طريق واحد هو الإيمان بالله والإعداد لمجتمع ذي أخلاق سامية.

وإنّني وبرغم معرفتي بحقيقة الأديان؛ مع احترامي للديانتين اليهوديّة والمسيحيّة، وأنا مسلم.

أقول: إنّ الأُمّة بأجمعها من إسلاميّة ويهوديّة ومسيحيّة لابدّ أن تتحرّر من ظلم الحاكم، وأنّنا لن نتحرّر إلاّ بأنفسنا وليس بحكّامنا، ولن يسعىٰ هؤلاء الحكّام إلاّ لمصالحهم السياسيّة والاقتصاديّة؛ فإنّ القانون الإلهي يفرض علينا الالتزام نحو الأخوّة الإيمانيّة وممارسة طقوسنا الدينيّة في بلادنا علىٰ أن تتدخّل الممارسات السياسيّة بتصوير حقوق ليست لنا كما يحدث في القدس والتحريض علىٰ هدمه وإعادة بناء حائط المبكىٰ، ولنا فيما فصّله الصحابي الجليل ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطّاب ﵁ في زيارته للقدس ودخوله إلىٰ الكنيسة وزيارتها احترامًا للديانة السماويّة المسيحيّة، دعونا ننبذ الطائفية والفرقة كنت أرىٰ في سوريا منهج جيد في زمننا حول نبذ الطائفية ولكن هذا الأمر يجعل

أعداء الوحدة الأنسانية يمهل سوريا السير نحو ذلك كثيرًا فأثيرت الفتنة وتفرق ذلك النموذج الذي كان بذرة يانعة لما نريد.

لقد كانت تعجبني مقولة تتداول بين عامّة الناس في بلاد مصر حينما يجتمعون من مسلمين ويهود ومسيحيين في نحو أمر يتعلّق ببلادهم فيقولون: موسىٰ نبيّ وعيسىٰ نبيّ ومحمّد نبيّ، ومن يحب النبيّ يصلِّ عليه.

أقول: اللّهُمَّ صلِّ علىٰ أنبياء الله أجمعين.



۞ الصفات الإلهيّة ۞

قسّم بعض علماء الكلام الصفات الإلهيّة إلىٰ ما يأتي:

١- الصفة النفسيّة، وهي الوجود.

٢- الصفة السلبيّة، وهي خمس:

القِدم، والبقاء، ومخالفة الحوادث، والقيام بالنفس، والوحدانيّة.

٣- صفات المعاني، وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام. واختلفوا في صفة التكوين، علىٰ ما سيأتي بيانه في محلّه.

الصفة النفسيّة (الوجود):

وجود الله ﷻ: صفة ثبوتيّة: يدلّ الوصف بها علىٰ نفس الذات، دون معنىٰ زائد عليها.

شرح التعريف:

صفة: لفظ يدخل فيه سائر الصفات.

ثبوتيّة: نسبةً إلىٰ الثبوت؛ لكونها ثابتة في الذهن، فتخرج الصفات السلبيّة كالقِدم والبقاء.

بها: فنقول: الله موجود، ولا نقول: الله وجود.

علىٰ نفس الذات: أي أنّها لا تدلّ علىٰ شيء زائد علىٰ الذات، فالذات نفسها لا تتعقّل إلاّ بوجودها، ولذلك سمّيت نفسيّة، فيخرج الكلام علىٰ صفات المعاني والمعنويّة.

دون معنىٰ زائد عليها: تفسير للقول: «علىٰ نفس الذات».

ووجود الله تعالىٰ وجود كامل ذاتي، أي: أنّه موجود لذاته، لا لعلّة مؤثّرة فيه؛ لأنّ من خصائص من وجوده ذاتي: أنّه لا يقبل العدم.

أمّا وجود غيره «كلّ ما سوىٰ الله تعالىٰ» فهو وجود ناقص مفتقر، أي: أنّه يفتقر في وجوده إلىٰ غيره واحتاج في ذلك إلىٰ مَنْ أوجده؛ لأنّ من خصائص المفتقر: أنّه لابدّ أن يصير موجودًا بعد أن معدومًا.

الوجود والعدم:

إنّ الكلام علىٰ الوجود والعدم واسع مسهب ومبحث طويل. فاعلم أنّ جماعة من المتكلِّمين والحكماء حدّوا الوجود والعدم؛ وأمّا المتكلِّمون فقالوا: الموجود هو الثابت العين، والمعدوم هو المنفي العين.

والحكماء قالوا: الموجود هو الذي يمكن أن يُخبر عنه، والمعدوم هو الذي لا يمكن أن يُخبر عنه.

الاعتقاد:

وليعلم المؤمن أنّ المعتقد في الله أنّه تعالىٰ واحد أحد فرد صمد خالق ليس كمثله شيء، قديم كان ولا مكان ولا يجري عليه الزمان لم يزل ولا يزال سميعًا، بصيرًا، عليمًا، حكيمًا، حيًّا، قيّومًا، قادرًا، غنيًّا، لا يشبّه ولا يجسَّم ولا يصوّر بحركة ولا عرض ولا طول ولا ثقل فهو كان قبل خلق الأكوان والزمان والمكان وهو الآن علىٰ ما كان عليه.

وإنّ الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحدٌ، وليس له صاحب، ولا ضدّ، ولا مَثَل، ولا شريك. وهو خالق كلّ شيء لا إله إلاّ هو، أبدي لا نهاية له، لا انقطاع له، لا ذهاب له، موصوف بنعوت الجلال، لا يقضىٰ

عليه بالانقضاء بتصرّم الآباد وانقراض الآجال بل ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

وإنّ ذاته تعالىٰ مخالف لسائر الذوات، فهو منزّه عن المثل والسند، وإنّه تعالىٰ ليس في جهة ولا مكان، وخالف فيه المشبّهةُ وخصّصوه بجهة الفوق، ثمّ اختلفوا ككون الأجسام وقالوا هو مماسّ للصفحة العليا من العرش، وقالوا: يجوز عليه الانتقال وتبديل الجهات، وهذا ما عليه اليهود، فلو كان في مكان لزم قِدم المكان وقد أثبت أنّه لا قديم سوىٰ الله والمتمكّن محتاج إلىٰ مكانه والمكان مستغنٍ عن المتمكّن.

ولتعلم أنّ الله ليس بجسم مصوّر ولا جوهر محدّد مقدّر وأنّه لا يماثل الأجسام لا في التقدير ولا في الانقسام، وأنّه ليس بجوهر ولا تَحُلّه الجواهر -أي الأجسام- ولا بعَرَض ولا تحلّه الأعراض، وأنّه تعالىٰ لا يحدّه المقدار ولا تحويه الأقطار ولا تحلّ به الحوادث؛ أي أنّه تعالىٰ ليس محصورًا في مكان كالأرض أو السماء، ومن الخطأ قول كثير من الناس: «الله في كلّ مكان» لأنّها تُوهم سامعها بأنّ الله تعالىٰ بذاته في كلّ مكان وإن كان قائلها لا يقصد إلاّ العلم، قال الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «كان الله ولا مكان وهو الآن كما كان»[1]، ورفع الأيدي عند السؤال إلىٰ جهة السماء فهو لأنّها قبلة الدّعاء فهو جلّ جلاله مستوٍ علىٰ العرش علىٰ الوجه الذي قاله وبالمعنىٰ الذي أراده، وقد جاءت بعض الآيات الكريمة في الاستدلال بالظواهر موهمة للتجسيم لذا يجب رفها عن الظاهر وتأويلها إما بالتفويض أو التعيين علىٰ الأشبه، ومن هذه

(١) الفرق بين الفرق: **٣٣٣**.

الآيات: قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢].

العرش

العرش وما أدراك ما العرش، ولعمر الله إن أمر العرش لهو دليل علىٰ عظمة الباري والحديث فيه تقشعر منه الأبدان ويفوق العقل، وإن العقل الذي خلقه الباري يُعجز عن الكلام فيه وتتوقف الأفكار ولا تستهدي إلا بنعمة الإيمان بوجوده وملكوته مع آلاف التصورات التي قد تخطر لمتصورِه، وما أعظم وأوسع المعاني في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ [البقرة: ٥٥].

قال أبو حيان في بحره المحيط[1]: عن عرش الرحمن، وعن أبي الفضل بن النحوي أنه قال الْعَرْشِ مصدر عرش يعرش عرشا والمراد بالعرش في قوله ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ هذا وهذا ينبو عنه ما تقرر في الشريعة من أنه جسم مخلوق معين.

وقال أيضًا: ولفظة الْعَرْشِ مشتركة بين معان كثيرة فالعرش سرير الملك ومنه ورفع أبويه علىٰ العرش نكروا لها عرشها والْعَرْشُ السّقف وكل ما علا وأظل فهو عرش والْعَرْشُ الملك والسلطان والعزّ.

وقال أيضًا: والعرش الخشب الذي يطوىٰ به البئر بعد أن يطوىٰ أسفلها بالحجارة والعرش أربعة كواكب صغار أسفل من العواء يقال لها: عجز الأسد ويسمّىٰ عرش السّماك والعرش ما يلاقي ظهر القدم وفيه الأصابع.

---

(١) البحر المحيط(٥/ ٦٥).

أقول: عرش الرحمن جسم عظيم له قوائم تحمله الملائكة مسبحة حامدة لله، ولا يحيط بها علمًا إلا الباري ﷻ.

ودليلنا قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٧].

وقوله صلوات ربي وسلامه عليه: «لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الأُولَىٰ»[١].

قال ابن بطال: في شرحه للحديث[٢]، وفيه: أن العرش جسم وأنه ليس العلم كما قال سعيد بن جبير لقوله: (آخذ بقائمة من قوائم العرش)، والقائمة لا تكون إلا جسمًا، ومما يؤيد هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، ومحال أن يكون المحمول غير جسم.

وقال أيضًا[٣]: (فإذا موسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش) فوصفه تعالىٰ بأنه مربوب كسائر المخلوقات ووصفه ﷺ بأنه ذو أبعاض وأجزاء منها ما سمّي قائمة، والمتبعض والمتجزئ لا محالة جسم، والجسم مخلوق.

---

(١) (أحمد: ١١٣٦٥)، (البخاري: ٢٤١٢)،وبمعناه (مسلم:٦١٥١).

(٢) في باب إذا لطم المسلم يهوديًا (٥٦٨/٨).

(٣) (٤٤٧/١٠).

قال ابن حجر في فتح الباري[١]: (رب العرش العظيم) إشارة إلىٰ أن العرش مربوب وكل مربوب مخلوق وختم الباب بالحديث الذي فيه فإذا أنا بموسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش فإن في إثبات القوائم للعرش دلالة علىٰ أنه جسم مركب له أبعاض وأجزاء والجسم المؤلف محدث مخلوق.

قال العيني في العمدة[٢]: قوله بآخذ اسم فاعل من أخذ قوله بقائمة هي كالعمود للعرش وفيه أن العرش جسم وأنه ليس بعلم كما قال سعيد بن جبير لأن القائمة لا تكون إلا جسما.

وهو مخلوق قبل السموات والأرض، قال الباري ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧].

وعرش الرحمن سقف الفردوس أعلىٰ الجنة، فقد صح عنه صلوات ربي وسلامه عليه قوله:

«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ قَالَ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَىٰ الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ، عَنْ أَبِيهِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»[٣].

(١) فتح الباري باب (وكان عرشه علىٰ الماء» ٧/ ٥٣٩).

(٢) عمدة القاري (١٦/ ١٩٣).

(٣) (احمد: ٨٤٢١)، البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣).

كلّ ذلك مخاطب علىٰ قدر عقل الإنسان الذي لا يستطيع معرفة حقيقة ذات الله وعلمه وقدرته ووجوده، فاستواؤه ليس جلوسًا ومجيئيته ليس حركةً بعد سكونٍ، واعلم أنّه لا يجوز التشبيه لله بأنّه شاب أو رجل طويل أو عريض أو وصفه علىٰ صورة الإنسان وهو كفر وضلال مُبين، فحاشىٰ أن يكون الخالق كالمخلوق، وهو سبحانه مع ذلك كلّه قريب من كلّ موجود بعلمه فهو أقرب للعبد من حبل الوريد.

قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ . . . [البقرة: ١٨٦].

إذ لا يكون قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام، وأنه لا يحدّ في شيء ولا يحلّ فيه شيء؛ تعالىٰ أن يحويه مكان كما تقدّس عن أن يحدّه زمان، وأنّه بائن أي غير مشابه ولا مماثل لخلقه بصفاته أو في ذاته، وأنّه تعالىٰ مقدّس عن الانتقال والتغيير، لا تحلّه الحوادث ولا تعتريه العوارض؛ أي لا تكون له صفة نقص كالمرض والغفلة فهو منزّه؛ تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وهو في صفات كماله مستغنٍ عن زيادة الاستكمال وذاته معلوم الوجود بالعقول يُعرف في الدنيا ولا يُرىٰ فيها بالأبصار.

واعلم أنّه تعالىٰ حيٌّ قادر جبّار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ولا نقص ولا تأخذه سِنةٌ ولا نوم ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنّه بيده ملكوت كلّ شيء وإليه الرجوع، والخلق مقهورون له، وله الخلق والأمر وحده لا شريك له، وهو تعالىٰ المقدّر والمدبّر وإليه تصير الأُمور، ولا أحد منّا يستطيع إحصاء مقدوراته

وموجوداته، وأنّه العالم ولم يزل الله تعالىٰ سميعًا بصيرًا عليمًا حكيمًا قادرًا عزيزًا حيًا قيّومًا واحدًا قديمًا، وهذه صفات ذاته، فهو العالم بجميع المعلومات، عالم بالغيبيّات، وأنّه عالم لا يَعْزُب عن علمه مثقال ذرّة في الأكوان بل يعلم دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء ويعلم ما في الأرحام وما تخفي الصدور، ويعلم السرّ وأخفىٰ ويطّلع علىٰ هواجس الضمائر وخفايا السرائر، ويعلم خائنة الأعين بعلم قديم أزلي، لا بعلم متجدّد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال، ولنعلم أنّه تعالىٰ مريد شاءٍ.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠].

فهو مريد للكائنات مدبّر للحادثات، فلا يجري في الملك والملكوت قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شرّ، نفع أو ضرّ، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر، فوز أو خسران، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان إلاّ بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

هو المبدئ والمعيد الفعّال لما يريد لا رادّ لأمره ولا معقِّب لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلاّ بتوفيقه ورحمته ولا قوّة له علىٰ طاعته إلاّ بمشيئته وإرادته، فلو اجتمع الإنس والجنّ والملائكة والشياطين علىٰ أن يغيّروا ما قدّره الله دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك، وأنّ إرادته ثابتة له كسائر صفاته الأزلية الأبدية، لا شريك له فيها، كذلك لا يزال موصوفًا بها مريدًا في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدّرها فوجدت في أوقاتها كما أراده في الأزل من غير تقدّم ولا تأخّر، وأنّه تعالىٰ إذا أراد شيئًا أي في الأزل فلا يردُّ ولا تتغيّر إرادته لا لدعوة نبيّ ولا لدعوة وليّ، وحديث إنّ الدّعاء يرد القضاء لا يجُوز حملُه علىٰ ظاهرِه لا بُدّ مِن التأويل وتأويلُه أنّ الشّيْءَ يكونُ في اللّوح مكتُوبًا إنْ

فعَل فلانٌ كذا فعُمره كذا وإنْ فعَل فلانٌ كذا فإنّه يَسلَمُ منْ بَلاءِ كَذا وإنْ تصَدّق ووصَل رحمَه يَسلَم مِن كذا فيتصَدّق ذلك الإنسان أو يصِل رحمَه فيُعصَم مِن ذلك البلاء هذا يُسَمُّونَه القَدر المعلَّق فيكونُ ذلكَ مِن باب دَفْع القَدَر بالقَدَر كما أنّ المرَضَ يزُول بالعِلاج والدّواء، فالمرض قدَرٌ والعِلاجُ قَدَر يكونُ اندَفع القَدَرُ بالقَدَرِ، الله تعالىٰ شاء وعلِمَ في الأزل أنّ هذا الإنسان يُصابُ بمَرض كذا ثم يتَداوَىٰ بدواءِ كذا فيَزُول عنهُ ذلكَ المرض فإصابَةُ المرض لهُ قدَر وزوالُه بالعلاج والدّواءِ قَدَر؛ لأنّ الله شاء وقدّر بتقديره الأزليين السرمديين أن يكون الكون فكان، ولا يغيّر ذلك بتغيّر الأحوال والمكان.

واعلم أنّ الله يسمع ويُبصر فهو السميع البصير وصفاته سمعه وبصره ثابتة له، ولا يَعْزُب عن سمعه مسموع وإن خفي علينا ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دقّ ولا يدفع رؤيته ظلام، يرىٰ من غير حدقة وأجفان ويسمع من غير أصمخة وآذان فصفاته لا تشبه صفات الخلق وليست ذاته كذوات الخلق.

واعلم أنّه تعالىٰ متكلِّم وكلامُه كلامٌ واحِد هو أَمرٌ ونهيٌ ووَعدٌ ووعيدٌ وسؤال وإخْبارٌ كما أنّ حياتَه شيْءٌ واحِد لا يدخلُها تقَطّع ولا زيادةٌ ولا نُقصان، وهذا معنىٰ أنّ صفاتِ الله أزلية أبدية، فكلامه أزلي قديم قائم بذاته أي ثابت له لا يشبه كلام الخلق؛ أي ليس بشَفَة أو لسان ولا حروف وأصوات فلا يوصف الله بهذا، والقرآن والتوراة والإنجيل كتبه المنزلة علىٰ رسله عليهم الصلاة والسلام.



۞ الأدلّة على مخالفة الله للحوادث ۞

وأقوال جميع الفرق في هذه المسئلة:

١- إنّه تعالىٰ ليس بعَرَض: لما يأتي:

أ- لأنّ العَرَض يحتاج إلىٰ جسم يقوم به فقد ثبت أنّ الله موجده.

ب- لأنّ احتياجه إلىٰ من يقوم به علامة الحدوث.

٢- إنّه تعالىٰ ليس بجوهر: لما يأتي:

أ- لأنّ الجوهر ملازم للعَرَض، والعَرَض حادث فيلزم حدوثه.

ب- لأنّه يقتضي التركيب والتحيّز.

٣- وليس بجسم: لأنّ الجسم مؤلَّف من جواهر وأعراض، وقد أثبتنا حدوثهما فيما تقدّم وذلك خلافًا للمجسّمة الذين قالوا بأنّه تعالىٰ جسم حقيقةً كفرًا منهم، لكنّهم اختلفوا؛ فقال بعضهم: هو مركّب من لحم ودم، وبعضهم قال: إنّه نور يتلألأ كالسبيكة البيضاء، وبعضهم قال: علىٰ صورة إنسان شاب أمرد، وبعضهم قال: علىٰ صورة شيخ أشمط الرأس واللّحية، تعالىٰ الله عمّا يقولون، حاشىٰ أن يكون المخلوق كالخالق!

٤- وليست له صورة أو لون أو رائحة أو عوارض النفس من لذّة وألم وفرح؛ لأنّ ذلك من خواصّ الأجسام.

٥- ولا يوصف بالصغر والكبر يُراد به الحسن، أمّا المعنوي كالكبير فيوصف به.

كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

٦- ولا متمكّنًا بمكان.

٧- ولا مختصًا بجهة، لما يأتي:

أ- لأنّ الجهات الستّ حادثة بإحداث الإنسان وغيره فيها، فإنّ معنىٰ الفوق: ما يحاذي رأس الإنسان، أو ظهر من يمشي علىٰ أربع من جهة العلو، وهي جهة السماء، ومعنىٰ السفل: ما يحاذيه من جهة الأرض. ثمّ إنّ الجهات اعتباريّة غير حقيقيّة.

ب- إنّ الله تعالىٰ موجود في الأزل، ولم يكن شيء من المخلوقات؛ لأنّ كلّ ما سواه حادث.

ج- إنّ الاختصاص بجهيّة هو اختصاص بحيّز، والحيّز مختصّ بالجوهر والجسم، والمشبِّهة والمجسِّمة قالوا باستقراره علىٰ العرش[١]. وهذا القول باطل بإجماع العقلاء.

٨- ولا يجري عليه زمان.

٩- ولا تصحّ عليه الحركة والانتقال.

١٠- ولا الاتّصال في الذات، بأن يكون مركّبًا.

١١- ولا الانفصال عن العالم؛ لأنّ هذه الأُمور من صفات الحوادث والله ليس بحادث.

١٢- والاتّصاف بالألوان والأشكال، وذلك خلافًا للمشبِّهة الذين شبَّهوا الباري بالمخلوقات.

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٥١، لوامع الأنوار الإلهيّة: ١/ ١٩٠.

١٣- ولا الاتّحاد ولا الحلول؛ خلافًا للنصارىٰ القائلين باتّحاد جسده بجسد المسيح، ولغُلاة الصوفيّة القائلين بحلوله بالسالكين المنتهين في سلوكهم إلىٰ النهاية[1]. ولغُلاة بعض الشيعة القائلين بحلوله بالإمام علي وأولاده عليهم السلام.

وهذه الاستدلالات هي ما يؤيّد ما ذهب إليه جميع أهل الفرق وعلماء الإسلام المتكلمين من أهل البيت قديمًا والماتريدية والأشاعرة والصوفية، والظاهرية، والشيعة الإمامية، والزيدية، والإسماعلية، والعلوية، والدروز، وسائر علماء أهل السنّة والجماعة المقتفين آثار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

مسالك الفرق في أسماء الله وصفاته:

وردت في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة نصوص، تضيف إلىٰ الباري عز وجل صفات خبريّة ظاهر اللفظ منها يوهم التشبيه، كالاستواء والمجيء والنزول، وافترق الناس فيها بين أهل الحق والباطل علىٰ أربعة مسالك مع تصرح أهل الحقّ بتنزيه الله تعالىٰ عمّا لا يليق بجلاله.

١- التفويض:

أي تفويض الأمر والتوقّف من غير جنوح إلىٰ التأويل أو سقوط في التشبيه، وهو مذهب أكثر السلف، فهؤلاء آمنوا بهذه الصفات الخبريّة، وأجروها علىٰ ظاهرها، ولم يتعرّضوا لمعناها ببحث ولا تأويل، مع تغليبهم أدلّة التنزيه لوضوح دلالتها وكثرتها، وعلمهم باستحالة التشبيه،وقد قال الكثير منهم:

(١) المسايرة، ص٢٥، ٣١، وشرح ابن قطلوبغا علىٰ المسايرة، ص٢٥، المواقف وشرحه للجرجاني، ص ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٨، والدردير والصاوي عليه، ص٦٣، ٧٣، ومقاصد الطالبين وشرحه: ٢/ ٦٥، وعقائد الإماميّة، ص٢٦.

«اقرؤوها كما جاءت» أي: آمنوا بأنّهما من عند الله، ولا تتعرّضوا لتأويلها ولا تفسيرها[١]؛ لأنّ التأويل أمرٌ ظنّي بالاتّفاق يحتمل الخطأ إن عُيِّنَ معنًى واحد.

قال مالك إمام دار الهجرة في تفسير الآية: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، بقوله: «الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيفيّة غير معقولة، والسؤال عنه بدعة»[٢].

قول الآجري:

جاء في كتاب الشريعة: «اعلموا -وفّقنا الله وإيّاكم للرشاد من القول والعمل- أنّ أهل الحقّ يصفون الله ﷻ بما وصف به نفسه ﷻ وبما وصفه به رسول الله ﷺ، وهذا مذهب العلماء ممّن اتّبع ولم يبتدع، ولا يقال فيه كيف؟ بل التسليم به والإيمان به»[٣].

وقد سئل ابن خزيمة عن الكلام في الأسماء والصفات فقال: ولم يكن أئمّة المسلمين وأرباب المذاهب أئمّة الدِّين مثل: مالك وسفيان، والأوزاعي والشافعي، وأحمد وإسحاق ويحيىٰ ابن يحيىٰ، وابن المبارك وأبي حنيفة،

---

(١) مقدّمة ابن خلدون، ص٤٦٣.

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، ص٥١٦ من طريقين، وذكر الحافظ في الفتح: ١٣/ ٤٠٦- ٤٠٧ وحكم بأن إسناده جيد؛ ورواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة رقم (٦٤٤ ج٢/ ٣٩٨) وأبو عثمان الصابوني في عقيدة السلف ضمن الرسائل المنيرية: ١/ ١١١؛ وأبو نعيم في الحلية: ٦/ ٣٢٥؛ والدارمي في الرد علىٰ الجهمية، ص٢٧.

(٣) الشريعة للآجري، ص٢٧٧.

ومحمّد بن الحسن، وأبي يوسف يتكلّمون في ذلك، ويمنعون أصحابهم عن الخوض فيه ويدلّونهم علىٰ الكتاب والسنّة[١].

وهذا التفويض، أو بمعنىٰ آخر التوقّف في تحديد معنًىٰ علىٰ التحديد هو ما عليه السلف وأهل الحديث المتقدمون وإن لم يجرِ علىٰ اصطلاحهم تسميته تفويضًا[٢]، والصوفية وبعض أهل الظاهر.

٢- المشبهة أو المجسمة:

وهم الذين شبهوا الباري ﷻ بالأجسام فقالوا له حد ونهاية ويكون في جهة ومكان، ويجري عليه ما يجري علىٰ الأجسام، واختلفوا في مقالاتهم:

فقال قوم إن الباري جسم يشبه الأجسام محدود في جهة من الجهات، وقال آخرون إن ذات الباري تشبه ذات غيره، ومنهم من شبّه صفاته بصفات غيره، وقال صنف أنه جسم لا يشبه الأجسام[٣].

تعالىٰ الله عما يقولون علو كبيرًا.

٣- التأويل:

وهم الذي ينزهون الباري ﷻ عن المشابهة والمماثلة.

وهو ما ذهب إليه عامّة المسلمين السواد الأعظم أهل السنّة ماتُريدية وأشاعرة، وفي ذلك يقول الإمام الرازي: «جميع فرق الإسلام مقرُّون بأنّه: لابدّ من التأويل في بعض ظواهر القرآن والأخبار»[٤].

(١) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات، ص٦٢.

(٢) منهج الاستدلال عن مسائل الاعتقاد عند أهل السنّة والجماعة: ٢/ ٥٧٩-٥٨٠.

(٣) مقالات الإسلاميين: ١٢٦، الفرق بين الفرق: ٢٤٣،٢٥٣،

(٤) أساس التقديس للرازي، ص٧٩.

٤- المثبتون:

وهو ما ذهب إليه من ينتسب اليوم إلىٰ أهل الحديث من المتأخرين فأثبتوا الأسماء والصفات علىٰ ظاهرها، وقالوا لا مجاز في القرآن واللغة[١]، وقالوا نثبت الصفة علىٰ ما جاء في الكتاب والسنة ونأخذ بظاهر النصوص، ولا نؤول ولا نفوض.

قال ابن الجوزي الحنبلي: «وهو من نُفاة التشبيه»: «اعلم أنّ عموم المحدّثين حملوا ظاهر ما تعلّق من صفات الباري سبحانه علىٰ مقتضىٰ الحسّ، فشبّهوا؛ لأنّهم لم يخالطوا الفقهاء، فيعرفوا حمل المتشابه علىٰ مقتضىٰ الحكم»[٢].

ولعمر الله لقد جانبوا الصواب في بعض الصفات، وانزلقوا مزلاق المشبهة، وشابهوهم في مقالتهم.

يقول كاتب هذه السطور العبد الفقير ذو العجز والتقصير راجيًا من الله القبول والعفو والمغفرة من خطأ أو زلال خاض فيه وقد طالعت واستعرضت الأقوال الكثيرة، فاطمئن قلبي وانشرح صدري لما كتبه القاضي عياض في كتابه الشفا وهو قول فتح الله به عليه فكان غاية في الحسن وقطعة من الجمال فيما نصه[٣]:

قال القاضي أبو الفضل: وفقه الله، وها أنا أذكر نكتةً أذيل بها هذا الفصل، وأختم بها هذا القسم، وأزيح الإشكال بها فيما تقدم عن كل ضعيف الوهم، سقيم الفهم، تخلصه من مهاوي التشبيه، وتزحزحه عن شبه التمويه، وهو أن يعتقد أن الله تعالىٰ جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته، وحسنىٰ أسمائه،

(١) مختصر الصواعق (٢/ ٦٩٠)، شرح العقيدة السفارينية لابن عثمين، ٢٥٨.
(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي، ص١١٢ طبعة المنيريّة.
(٣) الشفا ٣٠٤-٣٠٥.

وعلىٰ صفاته، لا يشبه شيئًا من مخلوقاته، ولا يشبه به، وأن ما جاء مما أطلقه الشرع علىٰ الخالق وعلىٰ المخلوق، فلا تشابه بينهما في المعنىٰ الحقيقي إذ صفات القديم ليست كصفات المخلوق، فكما أن ذاته لا يشبه الذوات كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض، وهو تعالىٰ منزه عن ذلك، بل لم يزل بصفاته وأسمائه منزَّهًا عن مشابهة غيره من الخلق، وكفىٰ في هذا قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ: ٤٢، ١١].

ولله دَرُّ من قال من العلماء العارفين المحققين: التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطة عن الصفات.

وزاد هذه النكتة الواسطي رحمه الله بيانًا وهي مقصودنا، فقال: ليس كذاته ذات ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ اللفظ في بعض الألفاظ، وجل الله عن أن يكون له صفة حادثة، كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة، وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة رضي الله عنهم. اهـ

أقول: مهما تكلّم المتكلِّمون وأثبت المثبتون ونزّه المنزّهون، وفوّض المفوّضون في معرفة الباري عز وجل، ما قدروا الله حقّ قدره ولا عرفوه حقّ معرفته ولا وصفوه حقّ وصفه، وما وصلوا إلىٰ معرفة حقيقة ذات الله وصفاته. غفر الله زلّتنا وتجاوز عن سيّئاتنا، فكلّ ما خطر بالبال من صور وتصوّر في وهمك فالله لا يشبه ذلك.



۞ الخلاف في صفات المعاني ۞

القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام.

وقد أضاف الماتريدية إلىٰ هذه الصفات السبع التكوين المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ومعنىٰ كونها صفات معانٍ: أنّ كلّ صفة منها معنىٰ وجودي قائم بذات الله تعالىٰ أي ثابت له.

وسمّيت الصفات الذاتية: لأنها لا يجوز أن لا يوصف الله بها أزلًا وأبدًا، وذلك كالحياة والقوّة والعلم والقدرة والملك والعظمة والكبرياء، والمجد والعلو والجلال والوجه والقَدم[(١)] وغيرها.

ووجوديّة: لأنّها متحقّقة أي ثابتة ليست منفيّة، وهي: قديمة كعلمه تعالىٰ، وحادثة كعلمنا[(٢)].

ويتّفق المسلمون جميعًا، علىٰ أنّ الله تعالىٰ يتّصف بصفات الكمال الثبوتيّة أي الواجبة لذاته تعالىٰ والتي أطلقها الله تعالىٰ علىٰ نفسه، إلاّ أنّ بعض الناس خالفوا في تفسير صفات المعاني فكانوا علىٰ قولين:

الرأي الأوّل: قول أهل البيت والمعتزلة والإماميّة، والإسماعيليّة والزيديّة، والإباضيّة والعلويّة والدروز.

وهو نفي الصفات الزائدة علىٰ الذات.

فقولوا: الله عالم بالذات بلا علم، وقادر بالذات بلا قدرة، وسميع بالذات بلا سمع، بصير بالذات بلا بصر، وبذلك أكّدوا في قولهم: إنّ القديم ذات

(١) علو الله علىٰ خلقه، ص ٦٥.

(٢) الدردير والصاوي، ص٧٥-٧٦، والوسيلة، ص٤٩١.

واحدة قديمة ولا يجوز إثبات ذوات قديمة؛ فهم قالوا: نحن لم نعطّل صفاته، وقالوا: لو كانت موجودة قبله فهو باطل لاستلزامه أن يكون الله حادثًا، تعالىٰ عن ذلك، وأمّا أن تكون موجودة بعده فهو باطل أيضًا لاستلزامه أن تكون الذات تعالىٰ قبل وجود تلك الصفات غير متّصفة بالكمالات[١].

ودليلهم علىٰ ذلك بأنّ القول بتعدّد القدماء -الذات والصفات- كفر بالإجماع، وبه كفرت النصارىٰ حين قالوا: الذات الإلهيّة أقانيم ثلاثة قديمة.

الرأي الثاني: وهو قول أهل الحقّ الأشاعرة والماتُريدية، وتبعهم أهل الظاهر:

إنّ صفات الله تعالىٰ هي قائمة بذاته أي ثابتة له، إنّ الله سميع بصفة تسمّىٰ سمعًا وبصير بصفة تسمّىٰ بصرًا، وعليم بعلم وقادر بقدرة ومريد بإرادة وحيٌّ بحياة.

١- ومن أدلّتهم: أنّ الله تعالىٰ أطلق علىٰ نفسه هذه الأسماء في كتابه وعلىٰ لسان نبيّه، والمفهوم في اللغة من عليم: ذات له علم، ومن قدير: ذات له قدرة، بل يستحيل عند أهل اللغة: عليم بلا علم، كاستحالة علم بلا معلوم أو باستحالة عليم بلا معلوم، فلا يجوز صرف الظاهر عن معناه إلاّ لنصّ ثابت أو قاطع عقلي، ولم يوجد فيه ما يصلح شبهة فضلًا عن وجود دليل[٢].

---

(١) المواقف وشرحه، ص٤٧٩، وشرح ابن أبي شريف علىٰ المسايرة، ص٧١، والاقتصاد في الاعتقاد، ص١٥٠، ١٥٥، والمقاصد وشرحه: ٧٢/٢، تجريد الاعتقاد وشرحه كشف المراد، ص٢١٠، ٤١٤، مشارق أنوار العقول: ص ٢٣٢، عقائد الشيعة الإماميّة، ص٣٩، الموجز لأبي عمار: ١٤٦/٢، البعد الحضاري، ص٢٣٠.

(٢) المسامرة، ص٧١، المواقف وشرحه، ص٤٨٠.

وبذلك يتّضح لنا أنّ هذا الاختلاف بين الفرق الإسلاميّة لا ينتهي إلاّ بنقطة هامّة يسلِّم بها الجميع إلىٰ القول بوحدانيّة الله تعالىٰ وتنزيهه عن كلّ ما لا يليق به، وأنّ هذا الاختلاف في الرأي لا يحقّ لأحد الأطراف أن يتّهم الآخر بالتعطيل أو التجسيم، وقد توسّعت شُقَّة الخلاف في العصور السابقة وبلغت ذروتها اليوم، ولا تزال الفرق الإسلاميّة تكفّر بعضها، ولكنّي أرىٰ أنّ المسألة تتّفق مع العقل والأدلّة بالعلم وذلك يظلّ في حدود الوحدانيّة والتنزيه ولا يحقّ أن يكون هنالك تشبيه للخالق بالمخلوق بل كانت التسمية محلّ الإرشاد للعقل البشري الذي لا يستطيع أن يصل إلىٰ ملكوت الله وصفاته وقِدَمه فالجميع الآن وقد وضحت المعالم ومحّصت الأقوال، وهدأت النفوس واقتنع الجميع أنّ النزاع لا يصل إلىٰ الحقيقة، ولا يجوز التكفير بل هذا عقل الإنسان يرىٰ أمامه الأقوال وليذهب إلىٰ صواب الأمر فلن يكون هنالك شذوذ في فكره أي كان مع الطرفين لابدّ لنا أن نحترم رأي الآخرين دون تحيّز ولا تعسير. يقول الإمام (الدواني) في حاشيته علىٰ العقائد الصفديّة:

«واعلم أنّ مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها، ليست من الأُصول التي يتعلّق بها تكفير أحد الطرفين».

كلمة أخيرة:

لقد عرضنا أقوال الطرفين دون الخوض في مسائل التصحيح أو الأخذ برأي أحد الطرفين، فقد جعلت للقارئ الاطّلاع دون الخوض في أسباب النزاع أو الاستدلال بأقوال العلماء والذين كان بعضهم متهجّمًا علىٰ أحد الطرفين وبذلك لا يأخذ بما لا يتّصف، فالرأي لا يعدّ ملكًا أو حكرًا علىٰ أحد ولا يحقّ لعلماء الأُصول أن يفرضوا قولهم علىٰ القارئ أو يصحّح عقيدة غيره طالما هي مسألة خلاف عامّة بين أكثر من طرف.

١- **القدرة**: هي صفة أزليّة وظيفتها إيجاد كلّ ممكن وإعدامه[١]. ضدّها: العجز.

قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة: ٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

٢- **الإرادة**: صفة أزليّة، يخصّص الله بها الممكن ببعض ما يجوز عليه من وجود أو عدم ومقدار وزمان، ومكان وجهة[٢]. وضدّها الإكراه، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢].

والإرادة فيها اختلاف بين الفرق:

فمن قال: إنّ الله تعالىٰ يريد الكفر من الكافر ويشاؤه، ولا يرضاه، ولا يحبّه وهذا ما عليه أهل الحديث والظاهرية والزيديّة والإسماعيليّة والإباضية.

وخالف في ذلك المعتزلة وقالوا: إنّ الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر[٣]، وهذا كفر وضلال.

وقالت الشيعة الإماميّة: علىٰ ما نُقِلَ عنهم: إنّ الله تعالىٰ أراد أن يكون معصية العاصين خلاف طاعة المطيعين، وأراد أن تكون المعاصي غير منسوبة إليه من جهة الفعل[٤].

---

(١) شرح الدردير علىٰ الخريدة، ص٧٨.
(٢) الدردير علىٰ الخريدة، ص٧٨.
(٣) أصول الدِّين الإسلامي، ص ١٣٧.
(٤) كشف المراد شرح تجريد الاعتقاد، ص٤٠١.

٣- **السمع والبصر**: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥، لقمان: ٢٨]؛ صفة أزليّة يسمع بها كلّ مسموع وإن خفي عنّا، وضدّها الصمم، والبصر صفة أزليّة يبصِر لله بها كلّ مبصَر وإن لطف[١]؛ وضدّها العمىٰ، وقد اتّفق المسلمون كافّة علىٰ أنّه تعالىٰ سميع بصير، وأثبت الأشاعرة وجماعة من المعتزلة كونه تعالىٰ سميعًا بصيرًا غير صفة السمع والبصر، فإنّ القرآن قد دلَّ عليه وإجماع المسلمين علىٰ ذلك، فالسمع والبصر في حقّ الإنسان يكون بآلات جسمانيّة وكذا غيرهما من الإدراكات وهذا ممتنع في حقّه تعالىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

٤- **العلم**: صفة أزليّة يعلم الله بها كل المعلومات، وضدّها الجهل وما في معناه كالظنّ والشكّ والوهم والذهول والغفلة والنسيان والسهو[٢]، وكل ذلك علىٰ الله مُحال.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

٥- **الحياة**: اتّفقت الناس علىٰ أنّه تعالىٰ حيّ لكنّ منهم من شبّه ومنهم من جوّز عليه الفناء وغير ذلك، فالحياة صفة أزليّة ثبوتيّة يستحيل أن لا يوصفَ الله بها، فهو موصوف بها كوصفه بالعلم والإرادة وباقي صفات المعاني والمعنويّة. قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

---

(١) المياسرة، ص٦٨، الباجوري علىٰ الجواهر: ١/ ٦٦.

(٢) رسالة التوحيد للطائي، ص٤٨.

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

فكلّ قادر عالم حيّ بالضرورة، وضدّ الحياة الموت، وحياته تعالىٰ بلا روح بخلاف حياة الخلق فإنّها بالروح.



۞ مسألة الكلام ۞

○ جلاء الأفهام في معرفة صفة الكلام ○

الكلام صفة من صفات الله الثابتة له وأنّه تعالىٰ متكلّم بكلام قديم أزلي وكلامه لا يشبه كلام الخلق، كلام الله واحد هو خبر واستخبار وأمر ونهي ووعد ووعيد.

وقد ذهب المسلمون كافّة إلىٰ أنّه تعالىٰ متكلِّم وأنّ الكلام صفة من صفاته تعالىٰ لكنهم اختلفوا في «ماهيّة هذا الكلام»، والكيفية عن الله وعن صفاته منفيّة، ولعلّي أتوسّع في هذه المسألة والتي تُعدُّ من أهمّ المسائل في أصل العقائد مستعرضًا للأقوال كلّها.

واختلف المتكلِّمون في مسئلة كلامه تعالىٰ علىٰ ثلاثة أقوال:

القول الأول: قالت الصوفية والأشاعرة والماتريدية، ووافقتهم الإباضية: قالوا إنّ الكلام: كلام نفسي وكلام لفظي حادث، والله منزّه عن الكلام اللفظي الحادث:

أ- **كلام نفسي**: وهو صفة ذاتيّة لله تعالىٰ يثبت بها كماله ﷻ وينفىٰ بها عنه النقص، وأما المعبّر عنه بالألفاظ في القرآن فهو حروف وإن قرئ فيُسمَع من القارئ صوت؛ ثُمّ إثبات الكلام له تعالىٰ فيه نفي لضدّه وهو الخرس، كما أنّ إثبات العلم نفي للجهل، وبذلك فهي صفة أزليّة قائمة بذاته تعالىٰ أي ثابتة له منافية للسكوت والآفة، وكلامه قديم لامتناع وصفه تعالىٰ بصفة حادثة، تعالىٰ الله عن مشابهة الخلق.

وكلامه تعالىٰ لا نهاية له ولا بداية له، لا يبتدأ ولا يُختَتم، كعلمه وسائر صفاته أزلية أبدية.

وقول الإباضيّة المتّفقين مع الأشاعرة في إثبات الكلام النفسي في كونه يختلف عن سائر كلام المخلوقين في أنه ليس حروفًا ولا أصواتًا ولا جملًا ولا كلمات تقوم بذاته ﷻ، فالبكم منفيّ عنه تعالىٰ وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين.

قال (أبو الحسن الأشعري): الكلام كلّه ليس من جنس الحروف، ولا من جنس الأصوات بل الأصوات والحروف علىٰ وجه مخصوص دلالات علىٰ الكلام القائم بنفس المتكلّم.

قال الإمام (الاسفرائيني) في التعبير: اعلم أنّ كلام الله تعالىٰ ليس بحرف ولا صوت؛ لأنّ الحرف والصوت يتضمّنان جواز التقدّم والتأخّر، وذلك مستحيل علىٰ القديم سبحانه.

ب- **كلام لفظي**: وهو الحروف والأصوات وهو ما يوصف به المخلوق، فهذا الكلام لا يجوز علىٰ الله لأنّ من جوّزه علىٰ الله فقد قال بحدوث صفة لله تعالىٰ.

القول الثاني: قول المعتزلة والإماميّة والزيديّة والإسماعيليّة والعلويّة والدروز:

قالوا: كلامه تعالىٰ حروف وأصوات ولكنّها ليست قائمة بذاته وإنّما يختلقها الله في غيره كاللّوح المحفوظ أو الملك جبرائيل أو النبيّ، وهو حادث.

فالمعتزلة يقولون: إنّه تعالىٰ أوجد حروفًا وأصواتًا وأجسام جماديّة دالّة علىٰ المراد؛ أي حدوث الكلام؛ لأنّ خلقه في بعض الأجرام، وقالوا بعدم الضرورة

إلىٰ إثبات صفة أزليّة تسمّىٰ كلامًا اكتفاءً منهم في نفي الخرس عنه سبحانه بصفة القدرة، وقد وافق بعض الإباضية هذا الرأي وقالوا: بأنّ الكلام النفسي راجع إلىٰ صفة العلم، إن كان المدلول خبرًا، وراجع إلىٰ صفة الإرادة إن كان أمرًا أو نهيًا.

وقالت الإماميّة: إنّ الرأي هذا يستند علىٰ كونه تعالىٰ قادرًا علىٰ كلّ مقدور لا شكّ في إمكان خلق أصوات في أجسام تدلّ علىٰ المراد[1] قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ . . . الآية [الشورىٰ: ٥٠].

القول الثالث: وهو للمجسّمة الذين يسمّون أنفسهم في بعض الأحيان أهل الحديث؛ وقد أجمعوا علىٰ ثبوت كلام الله من غير تحريف وقالوا: هو كلام حقيقي يتعلّق بمشيئته بحروف وأصوات مسموعة[2].

وسائر أهل الحديث متّفقون علىٰ أن يتكلّم بمشيئته وأنّه لم يزل متكلِّمًا إذا شاء وكيف يشاء[3]، وعقيدتهم أنّ الله تعالىٰ من صفاته صفة الكلام وهي صفة قائمة به غير بائنة عنه لا ابتداء لاتّصافه بها ولا انتهاء يتكلّم بها بمشيئته واختياره وكلامه تعالىٰ أحسن الكلام ولا يشابه كلام المخلوقين -مع أنهم قالوا هو بحرف وصوت وقالوا أن الحروف والأصوات أزلية- ويكلّم به مَن شاء وبغيرها ويُسمعه علىٰ الحقيقة مَن شاء من ملائكته ورسله، ويسمعه عباده في الدار

(١) الباجوري علىٰ الجوهرة: ١/ ٨٤، الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، ص ١٨٩، كشف الحقّ، ص ١٨-١٩، توحيد الصدوق، ص ٢٢٨، أوائل المقالات، ص ١٩، كشف المراد، ص ٤٠٣، تاج العقائد، ص٣٤، الحقّ الدامغ، ص ١٠٠، المواقف وشرحه، ص ٤٩٦، عقيدتنا وواقعنا العلويين،ص ٢٥.

(٢) لمعة الاعتقاد، ص ٧٢.

(٣) جامع الرسائل لابن تيميّة، المجموعة الثانية: ٤/ ٥.

الآخرة بصوت نفسه، كما كلّم موسىٰ وناداه حين أتىٰ الشجرة بصوت نفسه فسمعه موسىٰ، كما قالوا إنّ كلماته تعالىٰ لا نهاية لها[١].

وقد تبعهم في ذلك بعض الحنابلة المتأخرين الذي الإمام أحمد بن حنبل منهم بَراء، فقالوا: كلامه تعالىٰ عبارة عن حرف وصوت يقومان بذاته تعالىٰ وهو قديم[٢]، وهذا قولٌ باطل مردود.

أساس الخلاف بين الفرق الثلاثة في مسألة الكلام:

أقول: إنّ حقيقة الخلاف بين الفرق الثلاث تنحصر في مسألة الكلام النفسي: **فالأشاعرة والماتريدية والإباضية** يرون أنّ الكلام صفة لله، وقولهم: إنّ الله قد كلّم موسىٰ بمعنىٰ أنه أكرَم موسَىٰ عليه السلام بالكَلَام أي بأنْ أسمعَه كلامَه الأزليّ الأبديّ الذي لا يُشبهُ كلامَ العالمين وهو في الأرض أي أنّ موسىٰ انفَرد بسَماع كلام الله الأزلي مِن بينِ أهلِ الأرض قاطِبةً، بعض الماتريدية يقولون موسىٰ لم يسمع كلام الله الذي ليس حرفًا ولا صوتًا إنما سمع صوتًا يَدُلُّ عليه، نقول القرءان كلام الله لأن هذا القرءان الذي هو حرف وصوت يدل علىٰ كلام الله الذي ليس حرفًا ولا صوتًا هذا الكلام الذي تقرأه بالحرف والصوت يدل علىٰ كلام الله الذي هو ليس حرفًا ولا صوتًا، أما ذلك الكلام الذي ليس حرفًا ولا صوتًا فيسمعه في الدنيا جبريل وسمعه سيدنا محمد ليلة المعراج وموسىٰ سمعه في الطور لكن في الآخرة كل واحد منا يسمع كلام الله الذي ليس حرفًا ولا صوتًا.

---

(١) المسمَّاة العقيدة السلفيّة في كلام ربّ البريّة، ص ٦٣.

(٢) المواقف وشرحه، ص ٤٩٥، والمسامرة، ص ٧٧، وابن قطلوبغا علىٰ المسايرة، ص٧٩.

أمّا أهل البيت والمعتزلة والإماميّة والزيديّة والإسماعيليّة والعلويّة والدروز:

قالوا: بأنّ الكلام النفسي لا يسمّىٰ كلامًا، بل هو كلام كسائر المحدثات التي أوجدها الله ﷻ، وقالوا: نرىٰ في مسألة أنّ الله كلّم موسىٰ عليه السلام، فالمسألة هنا تتعلّق بأنّ الله تعالىٰ أوجد الصوت والكلام حادثًا في الشجرة لا بكلام نفساني، لأنّ الله كلّم موسىٰ والتفسير هنا والمراد الكلام الحادث في هذه المسألة وليس كلام الله تعالىٰ الذي يعنيه الكلام النفسي للمخلوقات، وهي لا شكّ أنّها معجزة نبيّ بأن وصل إلىٰ الوادي المقدّس طوًىٰ وخلع نعليه في طور سيناء، فإن قيل: إنّ الله كلّم موسىٰ بصوته -كما يزعم البعض- فالله لا يحدّ بمكان ولا زمان ولا جهة ولا صوت بل وحي أوحي إلىٰ موسىٰ ليسمع كلام الله تحقيقًا لعظمة الله وجلالته، وكل ذلك محدثات أوجدها الله رغم قدَمه الأزلي.

وبذلك فإنّ الأمر عائد إلىٰ إثبات الكلام النفسي ونفيه، فمن نفىٰ صفة الكلام الواجبة لله لا يكون من المسلمين.

وقالت هذه الطوائف: الكلام الذي سمعه موسىٰ عليه السلام من الشجرة لا يخلو إمّا أن تكون الشجرة محلاً له أو يكون الله محلاً له نطق به كما ينطق ذو الآلة. فالشجرة محلّ له خلقه الله فيها، فهذا اعتقادنا وهو يدلّ علىٰ أنّه محدَث؛ لأنّ الشجرة محدَثة ولا يصحّ أن يُقال: إنّ الشجرة قديمة ولا أنّ الكلام الذي سمعه موسىٰ قديم فيها، فلا يجوز أن يكون الكلام في غير محلّ.

وبذلك أكتفي بهذا القدر في الحديث عن هذه المسألة، اللّهمَّ اغفر لنا ذنوبنا، اللّهُمَّ آمين.

أقول: إنّ الخوض في هذه المسألة يجعلنا قد نخطئ أو نَزِلَّ، فاللّهمَّ اغفر لنا غلطاتنا عن غير قصد، اللّهُمَّ آمين.

۞ ما يستحيل في حقّه تعالى ۞

يستحيل علىٰ الله تبارك وتعالىٰ أضداد الصفات الواجبة له والتي أثبتناها، وهي:

العدم ضدّ الوجود.

الحدوث ضدّ القِدَم.

الفناء ضدّ البقاء.

المماثلة للحوادث ضدّ المخالفة للحوادث.

الافتقار إلىٰ المحلّ والمخصّص ضدّ القيام بالنفس.

التعدّد ضدّ الوحدانيّة.

العجز ضدّ القدرة.

الكراهيّة ضدّ الإرادة.

الجهل ضدّ العلم.

الموت ضدّ الحياة.

الصمم ضدّ السمع.

العمىٰ ضدّ البصر.

ويجب له الكلام، فلو لم يتّصف بها لزم أن يتّصف بأضدادها، وهذه الأضداد نقائص، والنقص عليه تعالىٰ محال فهذه الأضداد محالة عليه تعالىٰ.

ما يجوز في حقّه:

يجوز في حقّه تعالىٰ فعل كلّ ممكن أو تركه كالخلق والرحمة والعذاب والإماتة والإحياء.

فلا يجب عليه شيء، فهو الفاعل المختار المتصرّف في ملكه كيف يشاء، لا يشاركه في التصرّف ولا يحُول دون تصرّفه أحد.

ويفعل الله تعالىٰ ما يشاء في خلقه، سواء علمنا مما خلق الحكمة أو جُهلناها[١].

الدليل العقلي:

لو وجب عليه تعالىٰ فعل شيء من الممكنات، أو استحال عليه، لصار الممكن واجبًا أو مستحيلًا، وهو باطل[٢].

قال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

الرؤية بين من قال بالجواز ومن قال بالاستحالة

اختلفت الفِرَق في هذه الأُمّة واشتدّ النزاع في أمر الرؤية في اليوم الآخر، ولعمر الله أنّه كلامًا تقشعرّ منه الجلود بسؤال عظيم في حقّ عظيم، وتتصدّع به الحال فإنّه من الجرأة علىٰ الله تعالىٰ، كيف وقد أخذت بني إسرائيل الصاعقة بسؤالهم ﷻ، فعجزت علىٰ أن أخوض في القضيّة بحثًا، وأنّي أعلم مدىٰ خطورة الكلام في هذه المسألة، ولكن سوف أعرض أقوال الفرق كلّها دون الترجيح لأيّ الفريقين، سائلًا المولىٰ أن لا يوقعنا في خلل أو زلل.

(١) رسالة التوحيد للطائي، ص ٢٧، وغاية المرام في عقائد أهل الإسلام، ص ٣٠.

(٢) الباجوري علىٰ السنوسية، ص ٢٨.

أقول متوكّلًا عليه: جاء في القاموس وشرحه للزبيدي ما نصّه: «الرؤية» بالضمّ إدراك المرئي، وذلك أضْرُب بحسب قوىٰ النفس:

الأوّل: «النظر بالعين» التي هي الحاسّة وما يجري مجراها.

الثاني: بالوهم والتخيّل.

الثالث: بالتفكير.

الرابع: بالقلب(١).

وقال ابن (سيده): الرؤية: النظر بالعين والقلب(٢).

قال (الفيروزآبادي) في قاموسه: «الرؤية»: النظر بالعين وبالقلب، ورأيته رؤية ورأيًا وراءة ورئيانًا واسترأيته، والحمد لله علىٰ رؤيتك، والراء كشداد: الكثير الرؤية(٣).

أقول: كثر الخلاف وكُتب ما كُتب في هذه المسألة بين الفرق كلّها؛ فأهل البيت ومَنْ وافقهم ينفون الرؤية في الآخرة سواء بحواسّنا هذه أم غيرها، والأشاعرة ومَنْ وافقهم يثبتون الرؤية للمؤمن فقط دون الكافر، وقد خالفهم بعض وقال: إنّه يُرىٰ حتّىٰ للكفّار. وقد استدلّ كلّ صاحب رأي بأدلّة في الإثبات والنفي.

القول الأوّل:

تجوز الرؤية: وهو قول الصوفية والأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث، وتبعهم الظاهرية، قالوا: يُرىٰ من غير تكيّف بكيفيّة من الكيفيّات المعتبرة في

(١) تاج العروس: ١/ ١٣٩.

(٢) لسان العرب: ١٩/ ٢.

(٣) القاموس المحيط: ٤/ ٣٣٣.

رؤية الأجسام، ومن غير إحاطة أي أنّ المؤمنينَ يرَونَ الله في الآخِرة بعدَ استِقرارِهم في الجنَّة بأعيُنِهم يرونَه مِن غيرِ أن يكونَ بينَهُم وبينَ اللهِ مِسَاحَة ولا جِهة ولا تشبِيه يرَونَه لا كما يُرىٰ الأشياء وبهذا يعرفونَه لما يرونَه أنّه هو اللهُ ليسَ غيره، لو كانَ الله تبارك وتعالىٰ بينه وبين خلقه مَسافة أو له هيئة أو تأليف في ذاتِه لاحتارُوا، ما هذا، هل هذا الجِرم جِرمٌ مِن الأجرام، هل هو ملَك منْ ملائكةِ العَرش أو مَلَك منْ ملائكة الجنَّة أتباع رِضوانَ خَازن الجنَّة أو غيرُ ذلك منْ ملائكة الله.

وقد بالغ أهل الحديث في رؤية الله في الآخرة فوصفوها بأوصاف لا تليق بجلاله وعظمته في أحاديث أسندوا أقوالهم إليها:

الدليل من المنقول: قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [**القيامة: ٢٢-٢٣**].

ناضرة: أي جميلة، وناظرة من النظر أي الرؤية؛ ذلك لأنّ النظر: يفيد الرؤية إذا تعدّىٰ بإلىٰ، كما في هذه الآية ويقيّد الانتظار إذا تعدّىٰ بنفسه.

كقوله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [**الحديد: ١٣**].

ويفيد معنىٰ التفكّر والاعتبار إذا تعدّىٰ بفي، مثل: نظرت في الكتاب والأمرد، ويفيد معنىٰ الرأفة إذا تعدّىٰ باللاّم مثل: نظر السلطان لفلان[١].

قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

---

(١) الدواني علىٰ العقائد العقدية: ٢/ ١٧٦، شرح العقيدة الطحاوية، ص ١٤٣، وحادي الأرواح لابن القيم، ص ٢٣٠، أصول الدِّين للبغدادي، ص ١٠٠، كتاب التوحيد لابن خزيمة، ص ١٥٦.

والحُسنىٰ: الجنّة، والزيادة: الرؤية كما ثبت بالحديث الصحيح الذي رواه مسلم[١].

قوله تعالىٰ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، والاستدلال بها علىٰ الرؤية من وجوه:

أ- إنّه لا يظنّ بكليم الله ورسوله الكريم، وأعلم الناس بربّه في وقته، أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو من أعظم المحال[٢]، إذ لا يجوز علىٰ أحد من الأنبياء الجهل بشيء كهذا[٣]، وإذ يكون سيّدنا موسىٰ أعلم فيما يجب لله تعالىٰ ويستحيل عليه، فالمقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام الدعوة إلىٰ العقائد الحقّة والأعمال الصالحة[٤] وهم أعلم الناس بدين الله.

ب- قال تعالىٰ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل إنّي لا أُرىٰ، أو لا تجوز رؤيتي، أو لستُ بمرئيّ، والفرق بين الجوابين ظاهر، ألا ترىٰ أنّ من كان في كمّه حجر، فظنّه رجل طعامًا، صحَّ أن يُقال: إنّك لن تأكله. وهذا يدلّ علىٰ أنّه سبحانه وتعالى يُرَىٰ، ولكن موسىٰ لم يمكنّه الله من رؤيته في هذه الدار -أي الدُّنيا- لضعف قوىٰ البشر فيها عن رؤيته تعالىٰ.

ويوضحه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾.

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص١٤٣-١٤٤، لوامع الأنوار البهيّة للسفاريني: ٢/ ٢٤٠، الباجوري: ٢/ ١٧.

(٢) حادي الأرواح، ص ٢٢٣، والمسايرة والمسامرة عليها، ص ٤٠.

(٣) الباجوري علىٰ الجوهرة: ٢/ ٢٠، المواقف، ص ٥٤.

(٤) الدواني: ٢/ ١٦٨، المسامرة، ص ٤١.

ج- قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ووجه الاستدلال بها: أنّ الله تعالىٰ إنّما ذكرها في سياق التمدّح، ومعلوم أنّ المدح إنّما يكون بالصفات الثبوتيّة، ويكون بالنفي إذا تضمّن أمرًا وجوديًا، كمدحه بنفي السِّنة والنوم المتضمّن كمال القيّوميّة، وبنفي الموت الذي يتضمّن كمال الحياة.

فالآية تدلّ علىٰ كمال عظمته تعالىٰ، وأنّه أكبر من كلّ شيء عظَمةً، وهم أي الأبصار لا تحيط به أما هو فيحيط بأبصار العباد، المؤمنون يرونه من دون أن يحدوه من غير أن يحددوه من دون أن يحيطوا به، من دون أن يدركوا له شكلًا ولا هيئة لأنه موجود لا شكل له ولا هيئة ولا صورة(١).

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وجاء عن السنّة النبويّة حديث صهيب رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ «أنّ رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قال: إذا دخل أهل الجنّة الجنّةَ، نادىٰ منادٍ: يا أهل الجنّة، إنّ لكم عند ربّكم موعدًا، يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقِّل موازيننا، ويبيِّض وجوهنا، ويدخلنا الجنّة، ويُجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، قال: فوالله ما أعطاهم شيئًا أحبّ إليهم من النظر إليه، ولا أقرُّ لأعينهم(٢).

---

(١) حادي الأرواح، ص ٢٢٨، التذكرة للقرطبي، ص ٤٩٢، شرح العقيدة الطحاوية، ص١٤٤.

(٢) حديث صحيح أُخرج بعدّة طرق أخرجه مسلم في صحيحه (١٨١)، وابن ماجه (١٨٧)، والترمذي (٢٥٥٢)، وأحمد (٤/ ٣٣٢)، وابن أبي عاصم (٤٧٢)، وإسناده علىٰ شرط مسلم.

وحديث: «**إنّكم سترون ربّكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر**»[١].

قال مالك رضي الله عنه: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلّىٰ لأوليائه حتّىٰ رأوه، ولو لم يرَ المؤمنون ربّهم يوم القيامة، لم يُحجب الكافرون بالحجاب[٢].

ويفضّل بهذه الفضيلة المؤمنون، ويحجب جميع أعدائه عن النظر إليه من مشرك ومتهوّد ومتنصّر ومتمجّس ومنافق ومشبّه وغيره من أصناف الكافرين، كما أعلم في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾.

وقال (الشافعي): لما أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل علىٰ أنّ أولياءه يرونه في الرّضا[٣].

دليل المعقول لدىٰ الفرقة الأُولىٰ:

أ- إنّ الله تعالىٰ موجود، وكلّ موجود يصحّ أن يُرىٰ، فالباري عز وجل يصحّ أن يُرىٰ[٤].

ب- كما جاز أن يُعلم الباري عز وجل من غير كيفيّة وصورة، جاز أن يُرىٰ من غير كيفيّة وصورة[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ مختلف: ٦/ ٢٧٠٣ (٦٩٩٩).
(٢) شرح الباجوري علىٰ الجوهرة: ٢/ ١٧-١٨.
(٣) أحكام القرآن للشافعي، ص٤٠، شرح العقيدة الطحاوية، ص ١٤٤، حادي الأرواح، ص ٢٢٨.
(٤) الباجوري علىٰ الجوهرة: ٢/ ١٧.
(٥) المسامرة، ص ٤٣.

القول الثاني:

وهذا القول ما ذهب إليه أهل البيت قاطبةً ومن وافقهم من المعتزلة والشيعة الإماميّة والزيديّة، والإسماعيليّة والعلويّة والإباضيّة، وجماعة قليلة من المنتسبين إلىٰ أهل السنّة إلىٰ أنّ الله تعالىٰ لا يُرىٰ في الدارين وهو منزّه عن ذلك سبحانه وتعالى[(١)].

تشكّل قضيّة نفي الرؤية لدىٰ الفرقة الثانية بمعنىٰ التنزيه لله تعالىٰ الوجهَ الآخرَ لنفي الجسميّة عنه تعالىٰ، فاستحالة الجسميّة علىٰ الله تعالىٰ تقتضي عندهم حتمًا استحالة الرؤية، لقولهم إنّ من أحكام الرؤية حدوث اتّصال ما بين الرائي والمرئي.

ورؤية الله في الآخرة بقول المعتزلي (القاضي عبد الجبّار): «وممّا يجب نفيه عن الله تعالىٰ الرؤية، وهذه مسألة خلاف بين الناس، وفي الحقيقة الخلاف في هذه المسألة إنّما يتحقّق بيننا وبين هؤلاء الأشعريّة الذين لا يكيّفون الرؤية، فأمّا المجسِّمة فهم يسلّمون أنّ الله تعالىٰ لو لم يكن جسمًا لما صحّ أن يُرىٰ، ونحن نسلّم لهم أنّ الله تعالىٰ لو كان جسمًا لصحّ أن يُرىٰ، والكلام معهم في هذه المسألة لغو»[(٢)].

وتقول الفرقة الثانية: إذا كان مقابلًا أو في حكم المقابل، أو حالاً في المقابل احتاج أن يُرىٰ أو لزم أن يُرىٰ بالحاسّة، ولو جاز أن يُرىٰ بغير هذه الشروط لاستوىٰ في ذلك الأعمىٰ والبصير، وهذا هو التشبيه - جلَّ الله عن ذلك وتعالىٰ علوًّا كبيرًا.

---

(١) رسائل السقاف: ١/ ٣١١، كشف المراد، ص٤١١، مشارق الأنوار، ص ١٨٧، تاج العقائد ٢٧، ص العلوية عقيدتنا ٢٣

(٢) شرح الأصول الخمسة، ص ٢٣٣، المحيط بالتكليف، ص ٢٠٨ ابن متويه.

فالواضح أنّ الاستدلال هنا يعتمد علىٰ اعتبار وجود الشيء هو العلّة في صحّة رؤيته بحيث يمكن القول بأنّ كلّ موجود يصحّ أن يُرىٰ، وقد أورد أحد شيوخ الإماميّة أربعًا وعشرين رواية كلها عن الأئمّة وأنها تدور كلّها حول استحالة الرؤية علىٰ الله تعالىٰ وحول استنكار أئمّة آل البيت لمن يسألهم عن جواز الرؤية، وأنّ استنكارهم علىٰ استحالة الإحاطة بالله تعالىٰ ولما تستلزمه الرؤية من الإدراك الحسّي ومن المشابهة بالحوادث ومن معاني التجسيم وكلّها مستحيلة علىٰ الله تعالىٰ.

استنادهم إلىٰ ما سمَّوه الاستدلالات العقليّة:

وتنحصر عندهم في طريقين:

١- **دليل المقابلة**: وقالوا: هو أنّ الواحد منّا يرىٰ بالشعاع والرائي بالشعاع إنّما يرىٰ ما كان متحيّزًا مختصًا بجهة يتّصل بها الشعاع، وينحصر ذلك في ثلاثة شروط:

أ- وجود الحاسّة الصحيحة، وهذه وحدها لا تكفي لصحّة الرؤية.

ب- وجود المرئي في مقابلة الحاسّة أو حلول المرئي في شيء يقابل الحاسّة كالمرآة مثلًا.

ج- إنّ المرئي لابدّ أن يختصّ بجهة إذ لو كان في جهة لكان متحيّزًا والتحيّز من صفة الأجسام وقد نفىٰ الجسميّة عنه تعالىٰ.

٢- **دليل الموانع**: قالوا: إنّ الله تعالىٰ موصوف بصفة لو رُئي لَمَا رُئي إلاّ لكونه عليها، والواحد منّا موصوف بالصفة التي لو رُئي لَمَا رُئي إلاّ لكونه عليها من صحّة الحاسّة وارتفاع الموانع، فلو صحّت رؤيته تعالىٰ لوجب أن نراه الآن.

وهذا الدليل اعتمدوا فيه علىٰ ثلاثة أصول:

أ- قولهم: إنّ القديم تعالىٰ حاصل علىٰ الصفة التي لو رُئي لَمَا رُئي إلاّ لكونه عليها لا خلاف في ذلك، لأنّ الأكثر يقولون: إنّ الشيء إنّما تصحّ رؤيته إمّا لأجل صفته المقتضاة، أو لأجل صفته الذاتيّة بشرط الوجود، وهو مذهب البصري والأشعريّة وغيرهم، وهذه الأُمور متحقّقة في حقّه تعالىٰ.

ب- قولهم: بامتناع رؤية الله تعالىٰ الآن ليس بسبب وجود موانع الرؤية؛ لأنّها لا تعلُّق لها به وإذن فسبب امتناع الرؤية بزعمهم ليس إلاّ أنّ هذه الرؤية لله تعالىٰ غير جائزة من أساسها، وارتفاع الموانع ووجود المدرَك -بفتح الراء- وهذه الأوصاف كافية في الإدراك . . . قالوا: ذلك لأنّا وجدنا الإدراك يحصل عند اجتماعها وينتفي بانتفائها أو بشيء منها علىٰ طريقة واحدة ووتيرة مستمرّة، فعلمنا أنّها كافية في الإدراك وأنّه لا يفتقر إلىٰ أمر سواها . . أمّا صحّة الحاسّة فظاهر، وأمّا ارتفاع الموانع فلأنّ الموانع منحصرة في ثمانية وحصرها الآتي: الرقّة، واللّطافة، والحجاب الكثيف، والقرب والبُعد المفرطان، وكون المرئي في خلاف الرائي، وكون عمله في بعض هذه الأوصاف، وعدم الضياء المباشر علىٰ العين، وكلّها إنّما تمنع من رؤية الأجسام والألوان والله تعالىٰ ليس جسمًا ولا لونًا فلا تكون «عندئذ» مانعة من رؤيته.

ج- إقولهم: لو جازت رؤيته في حال من الأحوال لوجب أن نراه الآن؛ فلأنّه إذا حصل الموجب للإدراك؛ وهو كون أحدنا حاصلًا علىٰ الصفة التي تجعله مدركًا وهو كونه عليمًا، فالموانع مرتفعة، وجب حصول المقتضىٰ وهو الإدراك وإلاّ خرج المقتضىٰ عن كونه مقتضيًا وذلك علىٰ زعمهم محال.

وبذلك نستنتج الآتي:

إنّ الرؤية البصرية المعهودة في انطباع صورة المرئي في حدقة الرائي بقوّة الذبذبات الضوئيّة الملتقطة للصور ولها شروط:

١- سلامة الحاسّة.

٢- أن يكون المرئي جائز الرؤية فيخرج بذلك ما كان ممتنعًا كالروح والعقل والروائح والأصوات.

٣- أن لا يكون في منتهىٰ اللطافة كالنسيم.

٤- مقابلته للباصرة من جهة من الجهات أو انعكاس صورته في شيء مقابل للرائي، وتدخل في ذلك الصور المرئيّة في المرايا أو الشاشات.

٥- أن لا يكون قريبًا جدًا فإنّ الالتصاق بالأبصار يحجبها عن الرؤية، ولذلك تحجب الأجفان الأحداق عن رؤيتها.

٦- عدم غاية البُعد، فإنّ البعيد جدًا يضعف البصر عند رؤيته.

٧- عدم الحجاب الحائل وهو الجسم الكثيف أو ما في حكمه كالضباب المتراكز.

كلّ هذه الشروط تمسك بها مانعو الرؤية للقول بأن أنّ المرئي محدود في مكان وأنّه حالٌّ أو محلول أو في حكم الحالّ، أو جسم أو لون وإذا كان بهذه الصفات كان محدَثًا مصنوعًا، فالله لا يتغيّر بالأزمان والأمكنة(١).

---

(١) التوحيد، ص ١٠٧-١٢٢، كشف المراد، ص ٤١٠، مشارق أنوار العقول، ص١٩٨، تاج العقائد، ص٢١-٢٣، شرح الأُصول الخمسة، ص٢٥٥، المحيط بالتكليف: ١/ ٢١٠-٢١١، شرح القلائد، ص ٣٣-٣٥، الفرق بين الفرق، ص١٥٢، حقائق المعرفة، ص ١٨٠، البُعد الحضاري، ص ٢٩٨، الشافي شرح أصول الكافي: ١/ ١١٢-١١٣.

الأدلّة السمعيّة في نفي الرؤية:

قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ووجه الاستدلال بالآية بالنسبة لهم أنّه تعالىٰ تمدّح فيها بأنّ الأبصار لا تُدركه وإدراكها الرؤية، قالوا: فتبيّن منها أن عدم رؤيته بالأبصار صفة ذاتيّة؛ أي التمدح بنفي الإدراك ومن تفسير الإدراك بمعنىٰ رؤية البصر.

ويصف (الشريف المرتضىٰ) التمدّح بمجموع أمرين: الأوّل: أنّه لا يُرىٰ، والأمر الثاني: أنّه يَرىٰ، وقيل: إذا زال موجب التمدح وجب النقص وقد مدح نفسه بأنّه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وأنّه لم يتّخذ صاحبةً ولا ولدًا، وأنّه لا يظلم العباد، فلو جاز أن يفعل شيئًا ممّا نفاه عن نفسه في وقت من الأوقات لزال التمدُّح ووجب النقص، والنقائص في حقّه تعالىٰ غير جائزة بأيّ حال من الأحوال، وهو تأكيد بأنّ أقوال الله لا تتبدّل، قال تعالىٰ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ . . . [سورة ق: ٢٩]، وكلمة «لا» نفيها مطلق وليس مقيّدًا بدوام.

وقد قال (ابن الخطيب الزملكاني): إنّ «لا» نافية بانقطاع النفي بأولاها ودوام النفي بأُخراها ولا ممدودة وشبه ذلك في التفريق بين الرؤية والإدراك، وبذلك يؤكّد الإدراك ونفي الرؤية في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وتدلّ الآية علىٰ عدم رؤية الأبصار له، لكنّها لا تدلّ علىٰ عدم رؤية المبصرين إيّاه؛ لجواز أن تكون نافية للرؤية بالجارحة مواجهة وانطباعًا كما هو العادة، فلا يلزم منه نفي مطلق الرؤية. وخلاصة ذلك علىٰ ما قالوا: إنّ ما في الآية من امتداح إنّما هو بنفي المبصريّة لا بنفي الرؤية[1].

(١) محاسن التأويل: ١٦/ ٢٤٥٠-٢٤٥٢، المواقيت وشرحه، تفسير الفخر الرازي: ١٣/ ١٢٨، والنسفي والآلوسي في تفسير الآية.

وقد قالوا: إنّ أساطين العربيّة المهَرة وشواهدها الصريحة الثابتة دالّة علىٰ أنّ الإدراك ليس بمعنىٰ الإحاطة بل لكلّ منهما معنىٰ مستقلّ عن الآخر.

وجاء في تاج العروس: «الدَرَكُ محرّكة: اللّحاق» وقد «أدركه» إذا لحقه، وهو اسم الإدراك.

وفي الصحاح: الإدراك اللّحوق، يُقال: مشيت حتّىٰ أدركته، وعشت حتّىٰ أدركت زمانه[1].

ونصّ كلام (الجوهري) في الصحاح: «الإدراك اللّحوق، يُقال: مشيت حتّىٰ أدركته، وعشت حتّىٰ أدركت زمانه، وأدركته ببصري رأيته»[2].

وفي اللسان: «الدَّرك: اللحاق -إلىٰ أن قال:- وتدارك القوم: تلاحقوا»[3].

وفي التنزيل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

فقالوا: هذه التعريفات تؤكّد أنّ الإدراك لا يدلّ علىٰ الإحاطة ولا يمكن حمل اللحوق أو اللِّحاق عليها.

وممّا روي في ذلك ما أخرجه الإمام الربيع في مسنده، والشيخان في صحيحيهما عن مسروق قال: «كنت متّكئًا عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة، ثلاث مَنْ تكلّم بواحدة منهنّ فقد أعظم علىٰ الله الفِرَيةَ: مَنْ زعم أنّ محمّدًا ﷺ رأىٰ ربّه فقد أعظم علىٰ الله الفِرْية، قال: وكنت متّكأً فجلست، وقلت: يا أُمّالمؤمنين، أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]؟ فقالت: أنا أوّل هذه

---

(١) تاج العروس: ٧/ ١٢٦.

(٢) الصحاح: ٤/ ١٥٨٢.

(٣) لسان العرب ٣/ ١٣٦٣.

الأُمّة سأل عن ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: إنّما هو جبرائيل لم أرَهُ في صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرّتين، رأيته منهبطًا من السماء سادًا عِظَم خلقه ما بين السماء والأرض. فقالت: أولم تسمع أنّ الله يقول: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وقد أخرج الإمام الربيع رَحِمَهُ اللهُ عن عليّ وابن عبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنّهما استدلاّ علىٰ نفي الرؤية لله تعالىٰ بهذه الآية الكريمة[١]، نقول وإن صحّ هذا فالمراد به نفي الرؤية بالعين الفانية في الدنيا، حتىٰ وإن قيل: لا سيّما أنّ الصحابة وغيرهم من المتكلِّمين استدلّوا علىٰ نفي الرؤية بأنّهم عربٌ أقحاحٌ طُبعوا علىٰ فصيح الكلام العربي بتربيتهم العربيّة الأصيلة، وزادهم القرآن الكريم الذي كان ينزل بين ظهرانيهم علمًا بمعانيها وخبرةً باستعمالها، فأنّىٰ يجهلوا الفرق بين رؤية البصر وإدراكه لو كان بينهما فرق؟.

الإستدلال الثاني من القرآن:

قال تعالىٰ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قالوا: فإنّه نفيٌ مطلقٌ غير مقيّد بزمان (لن) ناهية أبديّة ولا تبديل لكلمات الله فلو حصلت الرؤية في أيّ وقت من أزمان الدُّنيا أو الآخرة لكان ذلك منافيًا لصدق هذا الخبر، وما حدث من الحوار لموسىٰ في الوادي المقدّس طُوىٰ كان منه اندكاك الجبل الذي عُلقت الرؤية علىٰ استقراره، قالوا: وإنّه تعالىٰ علّق الرؤية علىٰ الاستقرار لا مطلقًا بل علىٰ استقرار الجبل حالَ حركته واستقرار الجبل حالَ الحركة محالٌ فلا يدلّ علىٰ إمكان المطلق، وقد كان اندكاكًا هائلًا ليكون آية بيّنة تستأصل أطماع

(١) مسند الإمام الربيع: ٣/ ٢٢٦-٢٢٧، الحقّ الدامغ، ص ٧٣.

المتطاولين علىٰ الله بطلب أو تمنّي ما يستحيل عليه ويتنافىٰ مع كبريائه، وقد جاء طلب موسىٰ عليه السلام بعد إلحاح قومه فاستأذن الله؛ قالوا: لأنّه لو يعلم أنّها مسموح بها لما استأذن وقد عاقب الله القوم بطلبهم لأنّهم هم الذين سألوا موسىٰ، والسؤال كان تعدّيًا وفيه إثمٌ عظيم وبذلك يدلّ قوله تعالىٰ: ﴿فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣].

وقالوا: فلو كان يجوز أن يُرىٰ في وقت من الأوقات لما عاقبهم الله علىٰ ما يجوز في وقت من الأوقات والعبد يسأل الله في الدُّنيا المغفرة والجنّة والرزق والثواب فلا يُعاقب علىٰ ذلك وقد سأل قوم عيسىٰ عليه السلام المائدةَ فلم يعاقَبوا ولم تأخذهم الصاعقة.

أنّ موسىٰ عليه السلام علم أنّ الله لا يجوز عليه الرؤية، وإنّما سأل الله ﷻ أن يُريه ينظر إليه عندما ألحَّ عليه قومه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ -في حال تزلزله- ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ والمعنىٰ هنا واضح أنّك لن تراني يا موسىٰ؛ لأنّ الجبل كان عُلق علىٰ الاستقرار؛ لأنّ الجبل لا يكون ساكنًا متحرّكًا في حال أبدًا وهذا مثل قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: ٤٠].

ولن: تفيد تأكيد النفي أو تأبيده أو هما معًا، قالوا: فتحصّل من جميع ذلك أنّ رؤيته مستحيلة فإنّ النفي مقيّد بالحياة الدُّنيا والآخرة فإنّ صفات الله لا تتبدّل، وكبرياءه لا تتحوّل فقد جاءت (لن) في مواقع أُخرىٰ من الآيات القرآنية التي تؤكّد نفيها الأبدي كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا﴾ [الحج: ٧٣]، وهنا معلوم قطعًا أنّ هذا نفي أبدي.

وكان سؤال بني إسرائيل في طلب الرؤية هو الذي عوقبوا عليه وقد وصفه الله تعالىٰ في كتابه الكريم، والآية تؤكّد أنّ السؤال كان لموسىٰ فكثير منّا يطلب شيئًا ليس لنفسه بل لغيره وهو يعلم أنّه لا يحققّ له طلبه، فهو لا يعتقد جواز الرؤية؛ إذ هو معصوم كغيره من الأنبياء الذين لا يطلبون ما كان مستحيلًا تحقّقه.

وهنا يروا أنّ سيدنا موسىٰ ﷺ يعلم المنعَ من الرؤية من جهة الله ولكن استأذن ربّه لكي يعرف أصحابه أنّ ذلك مستحيل عليه تعالىٰ؛ لأنّهم لم يقتنعوا بقوله ﷺ ولم يعاقب الله موسىٰ ولو كان موسىٰ سأله كسؤالهم لكان معاقَبًا مثلهم.

وذكر (الزمخشري) في تفسيره حول الآية الكريمة: «بأنّ (لن) تفيد التأبيد، فقال: فإن قلت: كيف اتّصل الاستدراك في قوله تعالىٰ: «ولكن انظر»؟ قلت: اتّصل به علىٰ معنىٰ أنّ النظر إليّ مُحالٌ فلا تطلبه، ولكن اطلب نظرًا آخر وهو أن تنظر إلىٰ الجبل وبذلك أنّ الرؤية محال مطلقًا في الدُّنيا والآخرة»[١]. وهو شخص لا نسمّيه لغويًّا ولا يؤخذ عنه علم.

وجاء حول طلب سيّدنا موسىٰ ﷺ إثر إفاقته ممّا حصل له من الصعق بعد هذا الحدث: ﴿سُبۡحَـٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فقالوا: بادر ﷺ أوّلًا إلىٰ تنزيه الله سبحانه إعلانًا بحقّ ربوبيّته وتأكيدًا لنفي الرؤية واستحالتها، وإن كان قلبه بريئًا من قصد ما دلَّ عليه ظاهر قوله بادئ الأمر؛ لأنّه لم يسأل ما سأل إلاّ لتَبْكيْت قومه وإلاّ لكان معاقَبًا معهم، وقد نفىٰ عن نفسه بقوله تعالىٰ: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

---

(١) الكشّاف: ٢/ ١١٣، الدر المصون: ٣/ ٣٣٨-٣٣٩.

وزادوا أيضًا بقولهم: ثمّ أتبع ذلك التوبة النصوح ممّا وقع فيه تصرفًا منه لمعرفته تعالىٰ. إنّها توبة من سؤال الرؤية «ولم تكن هذه التوبة من ذنب؛ لأنّ الأنبياء معصومون من الذنوب، لا يذنبون ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا. وختم كلامه بأنّه عليه السلام أوّل المؤمنين بأنّ الله تعالىٰ لا يُرىٰ - وهو الذي أخرجه ابن جرير عن ابن عبّاس رضي الله عنه وفي هذا تقرير عقيدة الحقّ المنزّهة لله عن دَرْك الأبصار ما لا يخفىٰ علىٰ ذي بصر[(١)].

وجاء عن الشيخ المفيد: «إنّه لا يصحّ رؤية الباري سبحانه بالأبصار، وبذلك شهد العقل ونطق القرآن وتواتر الخبر عن أئمّة الهدىٰ من آل محمّد صلوات الله عليهم، وعليه جمهور أهل الإمامة وعامّة متكلّميهم إلاّ مَنْ شذَّ منهم لشُبهة عرضت له في تأويل الأخبار، والمعتزلة بأسرها توافق أهل الإمامة في ذلك وجمهور المرجئة وكثير من الخوارج والزيديّة وطوائف من أصحاب الحديث، ويخالف فيه المشبِّهة وإخوانهم من أصحاب الصفات[(٢)]».

الإستدلال الثالث من القرآن:

قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. تقف الفرقة الثانية من الآيات الدالّة علىٰ إثبات الرؤية لدىٰ الفرقة الأُولىٰ موقف التأويل؛ إذ أنّهم يرون أنّ الآية التي استدلّوا بها في نفي الرؤية ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ آية محكَمَةٌ، أمّا الآيات الأُخرىٰ التي قد يفهم منها

(١) تجريد الاعتقاد، ص ٤١٤، حقائق المعرفة، ص ١٨٢، الحقّ الدامغ، ص ٨٦-٨٧، راحة العقل: ١٣٥، شرح الأصول الخمسة، ص ٢٦٠-٢٦٣، الكشّاف: ٢/ ١١٣، القلائد، ص ٣٦-٣٧، العدّة، ص ١١٤-١١٦، الخلاصة النافعة، ص ٨٣.

(٢) أوائل المقالات، ص ٥٩-٦٠.

إثبات الرؤية وهي التي استدلّت بها الفرقة الأُولىٰ علىٰ مذهبهم -وهو الحقّ- في جواز الرؤية آياتٌ يجب تأويلها بما يتّسق مع مدلول قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، ومنها استدلال في التفرقة بين النظر وبين الرؤية؛ فالنظر قد يكون بمعنىٰ التفكّر، وقد يكون بمعنىٰ الانتظار للرحمة، وقالوا: إنّ (ناظرة) هنا بمعنىٰ الانتظار؛ أي: هذه الوجوه النضرة منتظرة ثوابَ ربّها يوم القيامة ولا يكون بمعنىٰ الرؤية إلاّ إذا كان مقرونًا بالبصر، وقالوا: معنىٰ (ناظرة) هنا في الآية هو الانتظار وليس الرؤية البصريّة، ويرون أنّ الآية محتملةٌ، وبالتالي لا يصحّ عندهم أن يحتجّ بها علىٰ الآية السابقة التي لا تحتمل التأويل.

يقول القاضي (عبد الجبّار) من المعتزلة: «فإن قال: فقد قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ فعنىٰ هذا إثبات الرؤية؟ قيل له: لَم ناظرة بالبصر وقد يكون الناظر ناظرًا علىٰ وجوه بأن يكون مفكّرًا ومنتظرًا للرحمة وطالبًا للرؤية، فهو محتملٌ إذًا ولا يُترك به ما لا يحتمل، وتأويله: منتظرة لرحمة الله وناظرة إلىٰ ثوابه ونعيمه في الجنّة»[(١)].

وقيل: أي منتظرة من الرحمن الخلاصَ.

يقول الإمام القاسم الرسي في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]: «تأويل ذلك: أنّهم لا يرجون من الله ثناءه ثوابًا، ولا يفعل لهم خيرًا، وأهل الجنّة ينظر الله إليهم وينظرون إلىٰ الله، ومعنىٰ ذلك أنّهم يرجون من الله خيرًا ويأتيهم منه خيرٌ ويفعله بهم، ليس معنىٰ ذلك أنّهم ينظرون إليه جهرةً بالأبصار عزّ ذو الجلال

---

(١) مختصر أصول الدِّين: ١/ ١٩٠-١٩١.

والإكرام، وكيف يرونه بالأبصار وهو لا محدود ولا ذو أقطار، كذلك جلّ ثناؤه لا تُدركه الأبصار، ومَن أدركَتْه الأبصار فقد أحاطت به الأقطار وكان محتاجًا إلىٰ الأماكن وكانت محيطة به والمحيط أكثر من المحاط . . . إلىٰ آخره[١].

قالوا: ومن هذه الآيات قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]؛ ممّا يدلّ علىٰ أنّ غير الكفّار ليسوا بمحجوبين عنه تعالىٰ، ويؤول هذه الآية بأنّ المراد في الآية أنّهم محجوبون عن رحمته وذلك بُعدًا عن التأويل لجواز رؤيته إذ تستوجب كونه جسمًا في مكان، وهو أمرٌ واضح الاستحالة[٢].

وعلىٰ هذا النحو في التأويل ذهبوا في الآيات الأُخرىٰ، مع أنّ هناك بعض التكلّف في تأويل بعض الكلمات، كتأويل أبي علي الجبَّائي حرف الجرّ «إلىٰ» بأنّه في الآية الآنفة (القيامة ٢٣) بمعنىٰ النعمة وجعل اشتقاقه من الآلاء[٣].

ونجد أنّ الشريف المرتضىٰ ذهب في تأويل الآية السابقة (القيامة ١٣)، إلىٰ أنّ النظر لا يفيد الرؤية وهو يذكر أنّ أصحابه من الإماميّة يقسّمون النظر إلىٰ أقسام كثيرة؛ منها تقليب الحدقة الصحيحة حيال المرئي طلبًا لرؤيته، ومنها النظر الذي هو الانتظار، ومنها النظر الذي هو التعطّف والرحمة، ومنها النظر الذي هو الفكر والتأمّل[٤].

---

(١) رسائل العدل والتوحيد: ١/ ١٠٦.
(٢) مختصر أصول الدِّين: ١/ ١٩١.
(٣) ابن حزم الفِصَل: ٣/ ٤.
(٤) أمالي المرتضىٰ: ١/ ٣٦.

ثمّ يقول: «واحتجنا جميعًا إلىٰ طلب تأويل للآية من غير جهة الرؤية، وتأوّلها بعضهم علىٰ الانتظار للثواب . . . وسلَّم بعضهم أنّ النظر يكون الرؤية بالبصر وحمل الآية علىٰ رؤية أهل الجنّة لنِعَم الله تعالىٰ عليهم»(١).

وقد خالف الطوسي القول بأنّ نفي الرؤية عن الله تعالىٰ انطلاقًا من استحالة الجسميّة عليه؛ وهو تأثّره بمنهج الفلاسفة فهو يرجع إلىٰ وجوب الوجود؛ لأنّ وجوب الوجود يقتضي تجرّده تعالىٰ ويلزم من تجرّده نفي الجهة والحيِّز، فيلزم أن تنتفي الرؤية عنه بالضرورة(٢).

وتؤكّد الآراء لدىٰ الفرقة الثانية تمسّكهم بأنّ الله تعالىٰ لا يرىٰ نفسه؛ إذ -كما يرون- أنّ الذي تصحّ رؤيته في نفسه فإنّه يصحّ أن يراه غيره، ويفترضون أنّه لو قدّر أن يرىٰ الله في الآخرة فإنّ ذلك لا يستلزم أن يكون من جنس المرئيّات: الأجسام والألوان(٣).

الرؤية في اعتقادي:

إنّ الخلاف في مسألة الرؤية لله تعالىٰ ليس بالأمر الخطير ما دام الفريقان ينزّهان الله تعالىٰ عن الجهة والتجسيم، فالذين قالوا بالجواز تقدّموا بالأدلّة من الكتاب والسُّنَّة، ومن قالوا بالاستحالة هم كذلك تقدّموا بأدلّة مثبتة وإنكارهم للرؤية لا يقدَح في عقيدتهم التنزيهيّة، وأنّ الغاية التي يقصدونها هي أسمىٰ من اللفظ والتأويل؛ وهي نفي كلّ ما من شأنه التشبيه والتجسيم في حقّه تعالىٰ.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تجريد الاعتقاد، ص ٢٣٠.

(٣) شرح الأصول الخمسة، ص ٢٦٨، المقالات للأشعري: ١/ ٢٨٦، الإرشاد، ص٧٦.

واعتقادي في هذه المسألة ليست لفرقة معيّنة ولا جهة مخصوصة، ولعمر الله إنّ ذلك أعظم النِّعم لو كان مسموحًا، بأن يُرىٰ الله وإن كان من المحال، فقد رضينا بما كان عليه الحال، وإنّا إن شاء الله من الشاكرين، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

رؤية الله في الدُّنيا:

ليُعلم أنّ القول الصحيح أنّ الله تعالىٰ لا يراه أحدٌ من البشر في الدُّنيا بهذه العين الفانية، إلاّ أنّهم اختلفوا في رؤية النبيّ ﷺ ربَّه في الدُّنيا فمنهم مَنْ أثبتها ومنهم مَنْ نفاها، وكلٌّ من الفريقين يستدلّ بالأدلّة؟!

وقال المختلفون في ذلك:

ولما كان التنازع في هذه المسألة مأثورًا فقال بكلٍّ منها بعض الصحابة، ولما كان الاحتمال للقولين ممكنًا فلا يدعو عندئذ إلىٰ الجزم بواحد من القولين[1].

وعقيدتنا في ذلك أنه لم يراه.



(١) الشفا للقاضي عياض: ١٩٥، شرح العقيدة الطحاوية: ١٥١.

۞ صفة الكلام وألفاظ القرآن بين الحدوث والقِدَم ۞

لم يختلف المتكلِّمون علىٰ أنّ «الكلام» صفة من صفات الله، لكنهم اختلفوا في ماهيّة الكلام، وكذلك لم يختلفوا أنه يطلق علىٰ القرآن أنه كلام الله، لكنّهم اختلفوا هل هو مخلوق حادث أم قديم أزلي.

وقد أحدثت هذه القضيّة جدلًا ونقاشًا بين المتلكمين من أتباع **أهل البيت والمعتزلة والخوارج قديمًا الإباضيّة حديثًا، والإماميّة، والإسماعيليّة، والعلويّة، والدروز، مع الأشاعرة، والماتريدية، وكان الظاهريّة علىٰ رأيٍ بين الطرفين**، فيطرح البعض أسئلة: هل الله تعالىٰ متكلِّم؟ وإذا كان كذلك فأيّ نوع من الكلام كلامه؟ والحقيقة أن الله متكلم بكلام ليس ككلامنا ليس بحرف ولا صوت ولا لغة عربية ولا أعجمية، وقد شغلت هذه القضيّة كثيرًا من الناس وأحدثت في صفوف كثير من مجتمعات المسلمين شقاقًا، وقد جرَّهم هذا الخلاف إلىٰ التنازع بين الإثبات والنفي، وإنّني قرّرت أن أستعرض الأمر ليعلم القارئ ما هي الحقيقة، وما هي أدلّت واستدلات كلّ فرقة؟ **فقد قال الفريق الأوّل**: إنّ صفة الكلام أزليّة وكونها قديمة قائمة بذاته تعالىٰ، وقد عبّر عن هذه الصفة تعالىٰ بما أوحاه إلىٰ رسله من الكتب والصحائف، وهي كما عرّفها (الأشعري) في حقّه تعالىٰ عبارة عن الكلام النفسي وليس كلامه كلامًا منطوقًا مجسّمًا في الحروف والأصوات، وبناءً علىٰ ذلك فإنّ كلامه تعالىٰ قديم والقرآن الكريم أي اللفظ المنزّل عبارة عن كلامه تعالىٰ فلا تكون الحروف قديمة.

و(الأشعري) في هذا الصدد يميّز ما بين إطلاقين من الكلام: كلام أزلي قديم وهو الخاصّ به تعالىٰ، وهو أثبت صفة الكلام له تعالىٰ في كونه متكلِّمًا.

وإطلاق علىٰ المحدَث وهو الكلام المتعارف عليه من حروف مكتوبة وأصوات مسموعة، بهذا الأخير عبّر تعالىٰ عن أمره ونهيه وخبره واستخباره ووعده ووعيده[١].

يقول الشهرستاني في ملله: حاكيًا مذهب الأشعري في الكلام والمتكلّم: «وكلامه واحد هو أمرٌ ونهي وخبر واستخبار ووعدٌ ووعيد، وهذه الوجوه ترجع إلىٰ اعتبارات في كلامه لا إلىٰ عدد من في نفس الكلام والعبارات، إذ للألفاظ المنزلة علىٰ لسان الملائكة إلىٰ الأنبياء عليهم السلام، دلالات علىٰ الكلام الأزلي والدلالة مخلوقة محدَثة، والمدلول قديم أزلي والفرق بين القراءة والمقروء، والتلاوة والمتلوّ، كالفرق بين الذِّكر والمذكور، فالذِّكر محدَث والمذكور قديم، والكلام عند الأشعري ومَنْ وافقه معنىٰ قائم بالنفس سوىٰ العبارة، بل العبارة دلالة عليه من الإنسان، فالمتكلّم عند مَنْ قام به الكلام، وعند المعتزلة من فعل الكلام[٢].

ونرىٰ قول أهل البيت وموافقهم يعرّفون الكلام بأنّه: «ما حصل فيه نظام مخصوص من هذه الحروف المعقولة، حصل في حرفين أو حروف، فما اختصّ بذلك وجب كونه كلامًا، وما فارقه لم يجب كونه كلامًا»[٣].

(١) العقائد النسفيّة، ص ٨٠ - ٨١؛ جوهرة التوحيد، ص ٤٣.

(٢) الملل: ١/ ١٤٣.

(٣) المغني للقاضي عبد الجبّار: ١٧/ ٦.

ويضيف ابن متويه: بكونه من قادر واحد، فلو فعل أحد الحرفين غير فاعل الآخر لم يكن كلامًا[(١)].

ويقول في كلام الله بأنّه: «من جنس الكلام المعقول في الشاهد، وهو حروف منظومة وأصوات مقطّعة، وهو عَرَض يخلقه الله في الأجسام علىٰ وجه يُسمع ويُفهم معناه، ويؤدّي الملك (الوحي) ذلك إلىٰ الأنبياء بحسب ما يؤمر به ويعلمه صلاحًا ويشتمل علىٰ الأمر والنهي والخبر»[(٢)].

وإذا كان كلام الله من جنس الكلام المعقول، فإنّه لا يجوز عند المعتزلة وصف الله بأنّه متكلّم بهذا المعنىٰ؛ أي التعلّق بالحروف والأصوات، وإنّما يجوز أن يُوصف بأنّ الله متكلّم بمعنىٰ أنّه فاعل الكلام؛ أي خالق له، لذلك قالوا في حقيقة المتكلّم: بأنّه من فعل الكلام لا مَنْ قام به، والذي يدلّ علىٰ صحّة ذلك كما يقول القاضي عبد الجبّار: «هو أنّ أهل اللغة لما اعتقدوا تعلّق الكلام بفاعله سمَّوه به، وعلىٰ هذا فإنّهم أضافوا كلام المصروع إلىٰ الجنّي فقالوا: إنّ الجنّي يتكلّم علىٰ لسانه لما رأوا أنّ ذلك الكلام لا يتعلّق به تعلّق الفعل بفاعله»[(٣)]. وهو تعالىٰ، كما يقولون، لو لم يكن فاعلًا للكلام «لَلزِمَ أن يكون تعالىٰ هاذيًا عابثًا فيما لم يزل، وأن يكون مخاطبًا للمعدوم فهو يقول فيما لم يزل: يا موسىٰ، يا عيسىٰ، يا إبراهيم، وغير ذلك ممّا احتوىٰ عليه القرآن الكريم من التهديد والوعد والوعيد والقصص والمواعظ، كلّ ذلك يحدِّث به نفسه ويهذو به، تعالىٰ الله عن ذلك»[(٤)].

---

(١) شرح القلائد، ص٧.

(٢) المغني: ٧/ ٢.

(٣) المغني: ٧/ ٢، شرح الأصول الخمسة، ص ٥٢٩.

(٤) شرح القلائد، ص٧١.

ويقول السيّد أبو طالب: إنّ «كلامه تعالىٰ إمّا أن يكون من جنس الأصوات والحروف أو مخالفًا لذلك، فإن كان من جنس الحروف والأصوات فلا شبهة في حدوثه، وإن كان مخالفًا لذلك لم يصحّ أن يكون كلامًا، وأن يُفهم به شيءٌ، فالمثبت كلام مخالفٌ للكلام المعقول فيما بيننا؛ فإنّه في حكم ما يثبت جسمًا مخالفًا لسائر الأجسام[1].

ورأىٰ أبو الهذيل وأبو علي: إثبات كلام موافق للمسموع والمقروء، وهو بالنسبة للبعض في حقيقة الأمر نفس ما أثبته (الأشعري) من الكلام النفسي وإنّما حاولوا الخروج من القول بذلك، أو بمعنىٰ آخر من القول بصفة الكلام الأزليّة. وعلىٰ نفس هذا المنوال كان أبو هاشم حاول القول بإطلاق لفظة الصفات وسمّاها (أحوالًا) بدلًا من ذلك، وإنما الأشعري كان أصاب في التعبير خلافًا للجبَّائي وسمّاها بالكلام النفسي مخالفًا لقول الحشويّة الذين «قضوا بكون الحروف والكلمات قديمةً»[2].

ومن الممكن أن يكون رأي أبي الهذيل وأبي علي مبنيًا علىٰ رأيهما في بقاء الأعراض أكثر من زمنين، فيكون الكلام عندهم من ثَمَّ باقيًا بتجدّدها فيوجد في أي وقت وأيّ مكان[3].

وأمّا جمهور أهل البيت والمعتزلةوالإباضية والشيعة الإماميّة والزيديّة والعلوية فقد نفَوا بقاء الأعراض أكثر من زمنين وقالوا: إنّ كلام الله موجود حقيقةً من حيث إنّه قاله وأنشأه، أمّا الألفاظ والأصوات فألفاظنا وأصواتنا.

---

(١) الإيضاح للصفدي، ص ٨٤، والمنهاج للقرشي، ص ١٢١.

(٢) الملل: ١/ ١٤٣.

(٣) مقالات الإسلاميّين: ٢/ ٢٦٨.

أمّا إن قيل: إنّ الكلام عَرَض ومن أحكام الأعراض أن لا تبقىٰ أكثر من زمنين، فيكون كلام الله بعد أن أوجده قد عُدم في الوقت الثاني، فيردُّ (القرشي): «قلنا: هو كلام الله بالحقيقة العرفيّة كما نقوله الآن في قصيدة امرئ القيس: إنّها قوله علىٰ الحقيقة، وكذلك شعر سائر الشعراء وخطب الخطباء، فإنّها مضافة إليهم علىٰ الحقيقة، وإن كانت أصواتهم فعلوها قد عُدمت في الوقت الثاني. والمعنىٰ أنّهم أوّل مَنْ أنشأه وقاله»[١].

وأما اختلاف أهل الحقّ مع مخالفيهم في أنّ كلام الله هو غير هذه الأصوات والحروف.

فالإماميّة يوافقون أهل البيت والمعتزلة والإباضية والزيديّة والإسماعيليّة والعلوية أنّ كلامه لسائر المحدثات.

قال العلامة الحلّي: لا شكّ أنّ الله تعالىٰ متكلّم علىٰ معنىٰ أنّه أوجد حروفًا وأصواتًا مسموعة قائمة بالأجسام، كما كلّم موسىٰ من الشجرة، فأوجد فيها الأصوات والحروف[٢].

ويقول أيضًا: والعقل والسمع يتطابقان علىٰ أنّ كلامه محدَثٌ ليس بأزلي؛ لأنّه مركّب من الحروف والأصوات ويمتنع اجتماع حرفين دفعة واحدة، فلابدّ وأن يكون أحدهما سابقًا علىٰ الآخر، والمسبوق حادث بالضرورة، والسابق علىٰ الحادث بزمان متناهٍ حادثٌ بالضرورة فقط[٣].

(١) المنهاج، ص ١٢٢، الصلة، ص ١٨٠.
(٢) كشف الحقّ ونهج الصدق، ص ١٨.
(٣) كشف الحقّ ونهج الصدق، ص ١٩.

ويقول الشيخ المفيد: إنّ كلام الله تعالىٰ محدَث وبذلك جاءت الآثار عن آل محمّد ﷺ، وعليه إجماع الإماميّة والمعتزلة بأسرها والمرجئة إلاّ مَنْ شذّ عنها، وجماعة من أصحاب الحديث وأكثر الزيديّة والخوارج[١].

وأمّا الذين يسمُّون أنفسهم السلفية (الوهابية) فجاء عن ابن خزيمة في كتاب المسمَّىٰ التوحيد والبيان قوله: إنّ كلام ربّنا ﷻ لا يشبه كلام المخلوقين؛ لأنّ كلام الله كلام متواصل، لا سكت بينه ولا صمت لا ككلام الآدميّين الذي يكون بين كلامهم سكت وصمت؛ لانقطاع النفس أو التذاكر، أو العيّ، منزّه الله مقدّس من ذلك أجمع -تبارك وتعالىٰ-[٢].

ويرون إيضًا: أنّ الناس في الدار الآخرة يسمعون كلام الله بصوت نفسه[٣]. وقد استدلّوا بأحاديث واردة في هذه المسألة.

وقال ابن خزيمة: إنّ الله يكلّم الكافر والمنافق أيضًا يوم القيامة تقريرًا وتوبيخًا[٤].

وخلاصة ما يتّفق عليه السلفية (الوهابية) وموافقوهم بأنّ الله تعالىٰ متكلّم بالكلام وهو قديم بكلامه كما هو قديم بجميع صفاته، وكلامه غير مخلوق ولا مختلَق ولا حادث ولا محدَث[٥].

---

(١) أوائل المقالات: ١٩/ ٥٢.
(٢) التوحيد لابن خزيمة، ص ١٢٤.
(٣) جامع الرسائل لابن تيميّة، المجموعة الثانية، ص ٤-٥.
(٤) التوحيد، ص ١٣٠.
(٥) أصول الدِّين البزدوي ص ٦٢.

إلاّ أنّي أجد في نفسي شيئًا من هذا الأمر حول أنّ كلام الله يكون بصوت نفسه وأنّ الشجرة كانت كلام الله بصوته، فالله منزّه مقدّس عن ذلك لا يُوصف بكلام لا يسمع بصوت كلامه وصوته ليس ككلام ولا كصوت، وإن كان هناك كلام لله في الدار الآخرة لكان كلامه في الدُّنيا لموسىٰ بصوت نفسه. اللّهمَّ لا تأخذنا بكلمة أو خلل أو زلل، يا الله يا بديع السماوات والأرض.



۞ مسألة القول بخلق القرآن ۞

القول بأن كلام الله هو غير هذه الأصوات بل هو أزلي هو مذهب أهل الحقّ، والقول بأنّه من نوعها كما هو رأي أهل البيت وموافقيهم، وإنّما يتّصل أصلًا بموضوع القول بمسألة قِدَم القرآن أو خلقه أو حدوثه، وهذه من أهمّ المسائل التي ثار حولها الجدل والنقاش وقد سُمّيت في تاريخ الفكر الإسلامي علىٰ ما عَبَّر بعضهم بـ(**محنة خلق القرآن**) وقد ينسب البعض أنّ فكرة خلق القرآن هي فكرة كانت للمعتزلة وحدهم، وهذه ليست حقيقة، وقيل: إنّ هذه المسألة ظهرت في أواخر العهد الأموي علىٰ يد معلّم آخر خلفاء بني أُميّة مروان بن محمّد، كان أوّل قائلها هو الجعد بن درهم ثمّ تلقّاها عنه الجهم بن صفوان، وقد كان هذان الشيخان يقولان بهذه الفكرة انطلاقًا من مبدأ نفي الصفات، ومن الملاحظ أنّ الجعد وجهمًا كانا معاصرين لواصل بن عطاء، وقد نقلت لنا كتب المقالات الإسلاميّة في إجماع أنّ واصلًا أخذ عنهما القول بنفي الصفات[١].

وقيل: واصل هو من شيوخ المعتزلة لم يؤثر عنه أنّه كان يقول بخلق القرآن - وممّا لا شكّ فيه أنّ عقيدة واصل الدينيّة هي فوق الشبهات والطعون وذلك باعتراف مخالفيه في عصره، لا سيّما أنّ بعض المقالات ذكرت أنّ واصل قد استقىٰ علومه من أبي هاشم محمّد ابن الحنفيّة ابن علي بن أبي طالب عليه السلام. والسؤال الذي يدور حوله: لماذا واصل المعتزلي لم يتكلّم في مسألة خلق القرآن؟

(١) النشأة: ١/ ٣٩١، ١٨٠.

أقول: إنّ مسألة خلق القرآن لم تكن عقيدة تبنّاها المعتزلة وحدهم إنّما هي مسألة قديمة في العصر الإسلامي، ويعتبر واصل أحد كبار شيوخ المعتزلة وأحد تلاميذ الإمام الحسن البصري لم يُؤثَر عنه الكلام في هذه المسألة؛ لأنّها تعتبر من العقائد التي يقول بها المعتزلة قاطبةً، وهو ليس قولًا محدثًا عليها حتّىٰ الخلاف الذي حدث بين واصل وشيخه البصري والذي يعدّه المعتزلة من طبقاتهم لم يكن في هذه المسألة وإنّما كان في مسألة المنزلة بين المنزلتين، وكذلك لم يكن خلاف المعتزلة كالزيديّة والإماميّة والخوارج في هذه المسألة، بل إنّ أئمّة أهل البيت من الزيديّة ثبت عنهم القول بخلق القرآن ويتّفق معهم الخوارج، إلاّ أنّ الإماميّة لم يخالفونهم في حدوثه ولكنّهم قالوا: كلمة الخلق للقرآن لا تليق في المقال وإنّما اتّفقوا جميعهم علىٰ حدوثه، وتجد من ذلك أنّ مسألة القول بأنّ أوّل مَن ابتدع هذه المقولة هو الجعد بن درهم وأخذها عن الجهم بن صفوان وتلميذهم واصل بعيد؛ لأنّ هذه المسألة لم يتفرّد بها الجعد أو الجهم أو واصل، بل كانت مسألة قال بها أئمّة أهل البيت من الزيديّة والمعتزلة والخوارج، إذن هي مسألة لم تكن محدَثة في عهد العبّاسيّين وبالأخصّ في عهد الخليفة المأمون الذي تذكر لنا المصادر التأريخيّة أنّه هو الذي تبنّىٰ هذه الفكرة مع شيوخه المعتزلة بل القول في هذه المسألة أقدم من ذلك، إلاّ أنّ النزاع ظهر في هذه المسألة في عهد الخليفة المأمون، وذلك بسبب تعصّب شيوخه المعتزلة وإجبار مخالفيهم علىٰ القول بهذه المسألة فبلغت الفتنة أشدّها علىٰ مَنْ يخالفهم ويقول بعدم حدوثه وكان ما كان من الإمام أحمد ابن حنبل رَحِمَهُ اللهُ[1].

---

(١) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الذهلي (١٦٤-٢٤١هـ/ ٧٨٠-٨٥٥م) فقيه ومحدِّث مسلم، ورابع الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الحنبلي في الفقه الإسلامي. اشتُهر بعلمه الغزير وحفظه القوي، وكان =

وقد تبنّىٰ المعتزلة هذه المسألة وتعنّتوا فيها لا سيما أنّهم أُعينوا بمساعدة الحكّام ولقوا العداء من الأوساط الشعبيّة، وكانت مسألة خلق القرآن هي الطريق لذلك رغم أنّ أهل المذاهب الأُخرىٰ والقائلين بخلق القرآن لم تصل الفتنة عندهم كما وسم بها المعتزلة، فقد استغلّ أعداؤهم الساحة للتنكيل بهم ورموهم بالزندقة والإلحاد، وكانت مسألة خلق القرآن هي الطريق لذلك رغم أنّ أهل المذاهب الأُخرىٰ والقائلين بخلق القرآن لم تصل الفتنة عندهم كما وسم بها المعتزلة وتحمّلوا مشاقّها من خصمائهم فقد رموا المعتزلة بها وكأنّهم وحدهم القائلون بذلك ونجد أنّ المسألة كان لها التظاهر والعلانية بالقول في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد(١) فجاء بشر المريسي(٢) وقد دعا لها وألّف

= معروفًا بالأخلاق الحسنة كالصبر والتواضع والتسامح، وقد أثنىٰ عليه كثير من العلماء منهم الإمام الشافعي بقوله: «خرجتُ من بغداد وما خلَّفتُ بها أحدًا أورع ولا أتقىٰ ولا أفقه من أحمد بن حنبل»، ويُعدُّ كتابه «المسند» من أشهر كتب الحديث وأوسعها، مرض أحمد بن حنبل ثم مات، وكان عمره سبعًا وسبعين سنة.

(١) هارون الرشيد بن محمد المهدي هو الخليفة العباسي الخامس، يعتبر من أشهر الخلفاء العباسيين.حكم بين عامي ٧٨٦ و٨٠٩ م (١٧٠ هـ إلىٰ ١٩٢ هـ). ولد (حوالي سنة ٧٦٣م في مدينة الري وتوفي سنة ٨٠٩م في مدينة طوس (مشهد اليوم) كان يحج عاما ويغزو عاما، وانه أول خليفة عباسي قاد الغزو بنفسه، وقد نقل ابن خلكان أن الرشيد قد حجّ تسع مرّات وكان يصلي في اليوم مائة ركعة.

(٢) أبو عبد الرحمن بشر بن غياث المريسي،ولد حوالي سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٥ م، كان أبوه يهوديًا فأسلم وصار من موالي آل زيد بن الخطاب. بدأ بشر حياته كفقيه ومحدث، فأخذ الفقه عن أبو يوسف القاضي، وروىٰ الحديث عن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة، ولكنه بعد ذلك تأثر بالمعتزلة وصار منهم. توفي سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م وهو في الثمانين من عمره.

العديد من المؤلّفات فيها واستمرّ في ذلك نحو أربعين عامًا حتّىٰ أخيرًا تهدّده الرشيد بالقتل.

ونجد أنّ خصوم المعتزلة استغلّوا المسألة لصالحهم، وكتب الباحثون حول هذه المسألة وقال بعضهم: إنّها فكرة يهوديّة وشحذ المستشرقون أفكارهم ليجدوا لها الأُصول الخارجيّة بعدم صحّة خلق القرآن إنّها في الأصل فكرة يهوديّة، وذهب آخرون بأنّها فكرة مسيحيّة.

أقول: إنّ القائل بذلك لا يناقش الحقيقة؛ لأنّ المعتزلة انطلاقًا من رفضهم أيّة شبهة تؤدّي إلىٰ القول بتعدّد القدماء، وأنّ المنطلق الأساس لهم هو منطلق تنزيهي بحتٌ لا علاقة له بقِدَم أو خلق الكلمة يخالف قول لبيد بن أعصم اليهودي بخلق التوراة، كما أنّه لا علاقة له بالمساس بقدسيّة القرآن كما أظهر ذلك مخالفوهم، فالمعتزلة قالوا: إنّ القرآن كلام الله محدَث ومخلوق . . .، وجدّوا واجتهدوا في هذه القضيّة ورأوا أنّها كانت الباب الذي دخل منه «التثليث» فأفسد توحيد المسيحيّة الأولىٰ! . . . ذلك أنّ القرآن يقرّر أنّ عيسىٰ عليه السلام هو «كلمة الله» ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ **[آل عمران: ١٥٥]**، فلو كانت «كلمة الله» ومن ثمّ «كلامه» -ومنه القرآن- موصوفًا بالقِدَم لتعدّد القدماء، ولَصحّت عقيدة التثليث النصرانيّة! . . . ذلك كان منطلق المعتزلة في قولهم بخلق القرآن، والحرص علىٰ نقاء التوحيد.

ولقد كان أحمد بن حنبل لا يقول بقِدَم القرآن هكذا علىٰ إطلاق اللفظ، لكنّه كان يقول: إنّ كلام الله غير مخلوق ويرفض الزيادة، أو التفصيل أو التحديد.

أمّا الأشعريّة فإنّهم قد جاؤوا في هذه القضيّة مفصِّلين برأي حسبوه وسطًا بين المعتزلة وبين الحشويّة.

لكن التدقيق فيه يجعله في معسكر الاعتزال.

فقد ميّزوا بين الكلام النفسي أو الأزلي، والذي هو معنىٰ قائم بالنفس، وبين الدلالات التي تدلّ علىٰ هذا الكلام النفسي الأزلي القائم بذات الله سبحانه، من مثل «الألفاظ المنزلة علىٰ لسان الملائكة إلىٰ الأنبياء» وما يرتبط بها من حروف وأصوات.. فقالوا بقِدَم الكلام النفسي -المدلول- وبحدوث الألفاظ والحروف والأصوات -الدلالات- وخلقها ... وقالوا: إنّ المنزل علىٰ محمّد ﷺ، هو الألفاظ التي هي دلالات علىٰ الكلام الأزلي القائم بالذات، فالمنزل مُحدَث ومخلوق

وإمام الحرمين الجويني يؤكّد رأي الأشعري هذا ويفصّله ... ثمّ يحدّد أنّ تنزيل القرآن علىٰ النبيّ ﷺ لا يعني إنزال شيء من السماء إلىٰ الأرض، فالانتقال خاصّ بالأجسام، وإنّما يعني أنّ الروح الأمين جبرائيل عليه السلام «وهو في مقامه، فوق سبع سماوات، أدرك كلام الله ثمّ نزل إلىٰ الأرض فأفهم الرسول ﷺ ما فهمه عند سدرة المنتهىٰ، من غير نقل لذات الكلام»[1].

وهذا يعني أنّ كلّ ما عدا الكلام النفسي، القائم بذات الله «وهو المدلول الذي فهمه جبرائيل» ... إنّ كلّ ما عدا ذلك من القرآن فهو مخلوق من الألفاظ والحروف والأصوات.. وأنّ «العبارة» - التي هي دلالة علىٰ هذا الكلام النفسي هي من الإنسان!

(١) مذاهب الإسلاميّين: ١/ ٧٣٣-٧٣٧، الإرشاد: ٣٩، ١٠٣، ١٢٣.

موقف داود الظاهري من مسألة خلق القرآن:

نُقل عن داود الظاهري قوله: إنّ القرآن محدَث، فيذكر ابن السبكي عن الخلال أنّه قال: «سمعت أحمد بن صدقة، سمعت محمّد بن الحسين بن صبيح، سمعت داود الظاهري يقول: القرآن محدَث، ولفظي بالقرآن مخلوق»(١).

ونقل عن الخطيب البغدادي أنّ أبا عبد الله الورّاق وكان يورِّق علىٰ داود أنّه سمعه -وقد سُئل عن القرآن- فقال: أمّا الذي في اللّوح المحفوظ فغير مخلوق، وأمّا الذي بين الناس فمخلوق، ونحن لا نعتقد أنّ داود قال هذا.

وفي رواية أُخرىٰ: أخبرني الأزهري، حدّثنا محمّد بن حميد اللخمي، حدّثنا القاني ابن كامل -إملاءً- قال: حدّثني أبو عبدالله الورّاق، قال: كنت أورّق علىٰ داود الظاهري وكنت عنده يومًا في دهليز مع جماعة من الغرباء فسُئِلَ عن القرآن فقال: القرآن الذي قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقعة: ٧٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ [الواقعة: ٧٨] غير مخلوق، وأمّا الذي بين أظهرنا يمسّه الجنب والحائض فمخلوق(٢).

ويقول الذهبي عن المِرْوَزِي قال: كان داود قد خرج إلىٰ إسحاق بن راهويه فتكلّم بكلام شهد عليه اثنان أنّه قال: القرآن محدَث(٣).

ولعلّنا نجد الموقف الظاهري لم يكن بعيدًا عن القائلين في مسألة الحدوث والاتّفاق مع مَنْ قال بالخلق، ولو كان ذلك بمفهوم علمي عقلي كما أنّنا نجد

(١) طبقات الشافعيّة: ٢/ ٤٣.
(٢) تاريخ بغداد: ٨/ ٧٤.
(٣) ميزان الاعتدال: ٢/ ١٥.

من ذلك الموقف المتشدّد والمتعنّت من أحمد بن حنبل في هذه المسألة والاختصام مع كلّ من قال بها وعدم قبول الأخذ والعطاء بها أو المناظرة فيها وقد تجد أنّ موقف أحمد بن حنبل المتشدّد استمرّ حتّىٰ يومنا هذا في التشدّد وتكفير من يقولون بخلق القرآن أو حدوثه.

وجاء عن أبي الهذيل العلاّف وأبي علي الجبَّائي أنهما يقولان: الذي بين دفَّتي المصحف المقروء والمتلوّ في المحاريب وأماكن العبادة هو كلام الله في الحقيقة وهو يوجد في أماكن متعدّدة فيوجد مع الصوت مسموعًا ومع الكتابة مكتوبًا ومع الحفظ محفوظًا، وغير ذلك من الأحكام المتعدّدة التي يخالف بها هذا الملفوظ، وأطلق ذلك شاهدًا وغائبًا[١]، وهذا مِن أعجب ما قِيل في هذه المسئلة.

وللإماميّة والإسماعيليّة والعلويّة في إطلاق هذه الصفة: مذهب لا يصحّ ولا يليق، وأنكروا علىٰ الأشاعرة وأتباعهم الذين جعلوه قديمًا مغايرًا لما جاء به الوحي.

يقول الشريف المرتضىٰ: وقد روي عن جماعة من الأئمّة من آل الرسول عليهم السلام في هذا المعنىٰ ما يمنع إطلاق هذه الجملة في القرآن؛[٢] أي: خلق القرآن.

وقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: القرآن اللفظ المنزل محدَث غير مخلوق وغير أزلي مع الله سبحانه[٣].

(١) شرح القلائد، ص ٧١.
(٢) أصول الدين للمرتضىٰ، ص ٤٤٥.
(٣) التوحيد للصدوق، ص ٢٢٨.

وجاء عن الإمام الهادي عليه السلام أنّه قال: «نحن نرىٰ أنّ الجدل في القرآن بدعةٌ، اشترك فيه السائل والمجيب، فتعاطىٰ السائل ما ليس له وتكلّف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلاّ الله وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله لا تجعل له اسمًا من عندك فتكون من الضالّين[1].

وصف بعضهم القرآن بأنّه مخلوق:

الخلق لغةً: هو الإبداع علىٰ غير سبق مثال، وفي اصطلاح أصحاب الديانات: هو إخراج الشيء من العدم إلىٰ الوجود.

والقرآن بأحد إطلاقيه هو الكلام المنزل بحروفه وكلماته علىٰ النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم المعجز بتراكيبه ومعانيه المنقول عنه بالتواتر القطعي المحفوظ من ربّ العزّة والجلال.

نزل بلغة قريش، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ٣]، وهو كلام أوحي إلىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وجرىٰ في لسانه وخرج بقيد «بحروفه وكلماته» ما كان من الأحاديث النبويّة، فإنّ صوغه من الحروف والكلمات راجع إلىٰ الأنبياء الناطقين بتلك الأحاديث، إذ لم تنزل عليهم ألفاظها وإنّما نزلت عليهم معانيها، وخرج بقيد تنزيله علىٰ النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم سائر الكتب السماويّة التي أُنزلت علىٰ غيره من النبيّين، كصحف إبراهيم، وصحف موسىٰ، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وخرج بقيد الإعجاز الأحاديث القدسيّة الربّانية علىٰ فرض نقلها بالتواتر فإنّها لم تنزل للإعجاز كالقرآن، وخرج بقيد النقل التواتريُّ.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

أقول: وهنا يجب أن نضع في الاعتبار قبل عرض أدلّة القائلين بخلق القرآن وحدوثه، إنّ أهل السُّنَّة والمعتزلة وجميع المتكلِّمين متّفقون علىٰ القول بأنّ هذا الكلام الذي بين دفَّتي المصحف المقروء المتلوّ بالأصوات هو كلام حادث وهو ما في عقيدتنا، وإنّما الاختلاف يرجع في الأصل إلىٰ الاختلاف حول إثبات المعنىٰ القائم بذات الله، فالأشعري وموافقوه من أهل الحديث وغيرهم أثبت صفة ذاتيّة هي معنىٰ قائم به زائدًا علىٰ كونه ذاتًا في نفي الآخرين هذه الذاتيّة فهم قالوا: إنّها صفة فعليّة؛ إذ كما يرون أنّ هذا الكلام «القرآن» هو جزء من العقل الإلهي وهو كالنوع البشري أو أيّ شيء من مخلوقاته أوجده علىٰ سبيل الاختراع والإيجاد من العدم، وأرىٰ فكرة ابن تيميّة عن صفات الذات والأفعال ممتازة حينما نفىٰ بإطلاق قياس الغائب علىٰ الشاهد، وقال: بأنّ العالم الإلهي؛ أي: ما يتعلّق بالذات الإلهيّة، لا مقارنة البتّة بينه وبين ما في هذا الوجود من مخلوقات من حيث التشابه في صفات الذات والأفعال، بل ومن حيث إثبات اليد والجنب والنزول وما إلىٰ ذلك كما ورد في آيات الأخبار وأحاديث الصفات، وهذا الأخير أهمّ ما أُخذ علىٰ ابن تيميّة في ذلك.

وممّا يجب أن يستقرّ في الأذهان عند الحديث عن خلق القرآن، أنّه لا يقصد بالقرآن علم الله بما أنزله من كتبه علىٰ رسله، فإنّه لا يماري أحد في قِدم علمه تعالىٰ بهذه الكتب، إلاّ الذين قالوا بحدوث صفاته سبحانه، ولا يُعبأ بهم، غير أنّ قِدم العلم لا يقتضي قِدم المعلوم، فالله سبحانه عليم بكلام البشر علمًا أزليًا، كما أنّه عليم بكلامه، وعليم بكلّ مخلوقاته، فهو عليم بما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون، ولكن لا يستلزم ذلك قِدم شيء من هذه المعلومات بحال، ولذلك قال بعض السلف: القرآن حادث، وعلم الله به قديم[١].

(١) الحقّ الدامغ، ص ١٠٣.

وفي هذا يقول المحقّق الخليلي رَحِمَهُ الله: وقد كان علم الله الذي هو من صفات ذاته ولا توراة معه ولا إنجيل، ولا زبور ولا صحف ولا قرآن، وهو الآن علىٰ ما هو عليه كان؛ لأنّ الصفات الذاتيّة لا يجوز عليها التكثّر ولا التبديل ولا التغيّر أصلًا. وإنّما تختلف آثار القدرة والمربوبات وتتعدد الكتب المنزلة التي فيها ما هو عبارة عن كلام الله الذي ليس حرفًا ولا صوتًا، والآثار كلّها مخلوقة[١].

وقد وصف القران الذي هو اللفظ المنزّل بأنّه مخلوق من وصفه استنادًا إلىٰ المعنىٰ اللغوي وما جاء في ذلك من الآيات القرآنية فقالوا: إنّ الخلق في اللّغة يعني: التقدير.

أمّا ما جاء في الآيات القرآنية بمعنىٰ الخلق فكقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠]؛ أي: بقدر، وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]؛ أي: المقدّرين[٢].

أمّا في الاصطلاح فهو إيجاد الفعل مطابقًا للمصلحة من غير زيادة ولا نقصان، وفي رأي آخر لبعض المعتزلة هو: إيجاد الفعل مخترعًا وبناءً علىٰ المعنيين اللغوي والاصطلاحي كما يقول القرشي: «فإنّ معنىٰ الخلق حاصل في القرآن؛ إمّا بالمعنىٰ اللغوي فهو أنّه مقدور، وإمّا بالمعنىٰ الاصطلاحي فهو أنّه

(١) تمهيد قواعد الإيمان، ص ٩-١٠.

(٢) يقسم أبو هاشم الخلق علىٰ معنىٰ الإرادة وقد أخذ الزمخشري في كشّافه بهذا التفسير فتجده يقول في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾: أي خلقناه عربيًّا غير أعجمي إرادة أن تعقله العرب. الزمخشري: ٣٠/ ٤٧٧.

ويذهب أبو عبد الله البصري إلىٰ أنّ الخلق معنىٰ من قبيل الفكر، وقال: لولا السمع لما أطلق الاسم علىٰ الله. المنهاج ق١٢٥ القرشي، الصلة، ص ١٨٣.

مطابق للمصلحة من غير زيادة ولا نقصان وكلّ شيء»[١]، لابدّ أن يكون إمّا خالقًا أو مخلوقًا، فإن لم يكن القرآن خالقًا ثبت أنّه مخلوق، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، والجعل هنا هو الخلق، مثله في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]؛ أي خلق. وقال ﷺ: «كان الله ولا شيء معه، ثمّ خلق الذكر»[٢].

وقد قرّر القاضي عبد الجبّار مذهب المعتزلة في مسألة القول بخلق القرآن وحدوثه بقوله: «أمّا مذهبنا في خلق القرآن» فهو أنّ القرآن كلام الله تعالىٰ ووحيه، وهو مخلوق محدَث، أنزله الله علىٰ نبيّه ليكون علمًا دالاًّ علىٰ نبوّته، وجعله لنا علىٰ الأحكام لنرجع إليه في الحلال والحرام واستوجب منّا بذلك الحمد والشكر والتحميد والتقديس، وإذن هو الذي نسمعه اليوم ونتلوه، وإن لم يكن محدَثًا من جهة الله فهو مضاف إليه علىٰ الحقيقة كما يضاف اليوم من

(١) يطلق علىٰ المعتزلة والزيديّة لفظة شيء ضمن التسمية علىٰ الله وإنّما اختلفوا في الدلالة علىٰ ذلك هي من جهة العقل أم السمع أم بهما معًا؟ أبو هاشم يذهب إلىٰ أنّ القديم يسمّىٰ شيئًا عقلًا علىٰ قاعدة العقل، وسمعًا لورود ذلك في لسان أهل الشرع وللإجماع عليه.

وقال أبو عبد الله البصري وأبو علي: بل إنّما يسمّىٰ القديم شيئًا سمعًا فقط لا عقلًا، حتّىٰ أنّه لم يرد السمع بتسمية شيء لم تطلق عليه هذا اللفظ، إذ لفظ شيء لا يفيد صفة ولا معنىٰ من المعاني، بل هو كاللقب في عدم إفادة معنىٰ، ولما لم يفد معنىٰ لم يجز إطلاقه عليه. الشجري شرح القلائد، ص ٥١.

ويفيد الإمام القاسم بن محمّد من أهل البيت إطلاق لفظة شيء بلا كالأشياء فيقال: الله تعالىٰ شيء لا كالأشياء ليفيد المدح لله والتنزيه له عن المشابهة. العدّة، ص ١٦٢.

(٢) منهاج التحقيق، ص ١٢٥-١٢٦.

قصيدة امرئ القيس علىٰ الحقيقة، وإن لم يكن محدَثًا لها من جهته الآن[١].

وهذا مذهب أهل البيت فيما نقله أئمّة الزيديّة في مسألة القول بحدوث القرآن[٢].

الأدلّة من جهة العقل:

١- إنّ هذا القرآن مرتّب في الوجود بعضه يتقدّم بعضًا، فالألف من «الحمد» متقدّمة علىٰ اللاّم واللاّم علىٰ الحاء . . . وكلّ ما تقدّم غيره فهو محدَث.

٢- أن لا شكّ أنّ القرآن مقيّد بالمواضعة من حيث إنّه نزل بلغة العرب إنّما تقيّد المعاني بالمواضعة، فحروف القرآن هي نفس الحروف التي ينتظم منها كلام العرب نثره ونظمه، سجعه ومرسله، رجزه وقصيده، ويشاركه فيها سائر كلام البشر فإن كان القرآن الي هو اللفظ المنزّل قديمًا لزم قِدَم كلام الناس لتركُّب كلامهم من هذه الحروف بعينها، ويلزم من ذلك كون الكلام سابقًا علىٰ المتكلّمين به وإلاّ فكيف يتألّف القديم من الحوادث، ولذلك لا تختلف دلالة الألفاظ بحسب اختيارهم ومواصفاتهم لها.

٣- ثبت أنّ القرآن الكريم بسوره وءاياته معجز والمعجز لا يكون إلاّ محدَثًا، حيث إنّ المعجز هو الفعل الخارق للعادة المتعلّق بدعوة المدّعي للنبوّة.

٤- إنّه لا شكّ أنّ القرآن الكريم بمعنىٰ اللفظ المنزّل مكوَّن من حروف وأصوات، وأنّ الأصوات والحروف من قبيل الأعراض، وجميع الأعراض حادثة ومحتاجة إلىٰ محالٍّ محدثة.

---

(١) شرح الأصول الخمسة، ص ٥٢٨.

(٢) منهاج التحقيق، ص ١٢٤، الإيضاح، ص ٨٥، الصلة، ص ١٨٤.

٥- إنّ القرآن الكريم المقروء بألستنا من أعظم نِعَم الله علىٰ خلقه وأجلِّها، به يتميّز الحلال من الحرام وإليه يُرجع في كثير من الأحكام، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧]، ولا يعقل كونه نعمة ومنَّة إلاّ إذا كان محدَثًا.

الأدلّة من جهة النقل:

وردت بعض الآيات القرآنية التي تدلّ علىٰ كون القرآن الذي يطلق علىٰ اللفظ المنزّل مخلوقًا محدَثًا، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ [الشعراء: ٥].

فقد وصفت الآيتان الحدوث وما كان قديمًا لا يوصف بالقِدَم، ولا شكّ أنّ المراد بالذِّكر هنا هو القرآن الكريم اللفظ المنزّل بدليل قوله تعالىٰ في الآية الأُولىٰ: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ وكذا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٥٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

قوله تعالىٰ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١].

ووجه الاستدلال به أنّ الله تعالىٰ وصفه فيه بالإحكام والتفصيل، ولا يجوز أن يكون المخلوق قديمًا أزليًا؛ لضرورة أن يكون خالقه أزليًّا، والمخلوق حادث؛ لأنّه -بداهة- كائن بعد أن لم يكن.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

وصفه تعالىٰ بأنّه منزل ووصفه بالحديث، والقديم لا يكون حديثًا ولا يصحّ منه النزول.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢].

ووجه الاستدلال ثلاثة أُمور:

١- إنّ المجيء به نقلٌ له من حال إلىٰ حال، وهو مستحيل في القديم كما سبق بيانه.

٢- للإخبار عنه أنّه مفصّل، وقد سبق نظيره.

٣- إنّ تفصيله حاصل علىٰ ما أراده الله وعلمه سبحانه، فلابدّ من أن يكون محدثًا به.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ووجه الاستدلال به أنّ الله أخبر عنه بأنّه مفروق والمفروق لا يكون إلاّ حادثًا.

عقيدتنا وقولنا الفصل:

نجد أنّ مسألة القرآن بين قائل فيها بالخلق والحدوث ومعارض له قد تداولت علىٰ مدىٰ حقبة زمانيّة ليست بالطويلة، ولكن كانت فيها تلك الأحداث والخلافات بين مشاهير من الأُمّة وتفرّقهم، بيدَ أنّه استعان كلّ طرف بقوّته في السلطة؛ فالمعتزلة قد تشدّدوا في الأمر والآخرون كذلك شيّعوا وسوّدوا تاريخ خصمائهم.

وأجد في نفسي أنّ العقول تختلف بين المبادئ والتفكير، فمن قال بالعقل ضاق أُفق من خالفه حيث إنّ الجميع يسير في حياته بمدىٰ تفكيره وعقله، ولكن المعتزلة كانت عقيدتهم الاعتزاليّة والتي تقدّم العقل علىٰ النصوص؛ لأنّهم يرون أنّ العقل خُلق من أجل العمل علىٰ الحقّ، كان ذلك مخالفًا لكثير من معاصريهم فوجدوا الكثير من الطعن والقدح لا سيما في مسألة القرآن والتي سمّيت في كتب التاريخ الإسلامي بـ(محنة القرآن).

وهذه القضيّة حكم فيها الكثير ولا تزال قائمة لكن لا نعيب علىٰ أحد من الفريقين ولا نكفّر مَنْ يقول بالخلق أو عدمه ولكنّنا نخالف مَنْ يقول بقِدَمه.

يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: «ولقد أصاب أئمّة السُّنَّة بامتناعهم من الإجابة إلىٰ القول بخلق القرآن وحدوثه وحفظ الله بهم أُمّة نبيّه عن الابتداع ولكنّهم (قدس سرهم) جاوزوا ذلك إلىٰ الجزم بقِدمه ولم يقتصروا علىٰ ذلك حتّىٰ كفّروا مَنْ قال بالحدوث، بل جاوزوا ذلك إلىٰ تكفير من قال: لفظ القرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلىٰ تكفير مَنْ وقف. وليتهم لم يجاوزوا أحدًا لوقف وإرجاع العلم إلىٰ علاّم الغيوب؛ فإنّه لم يُسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم إلىٰ وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة شيءٌ من الكلام ولا نُقل عنهم كلمة في ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلىٰ ما دعوا إليه والتمسّك بأذيال الوقف، وإرجاع علم ذلك إلىٰ عالمه هو الطريقة المثلىٰ وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، والأمر لله سبحانه[1].

وقد ذهب المعتزلة البغداديّون إلىٰ أبعد من غيرهم فقالوا: إنّ كلمة مخلوق تعني الاختلاق والكذب ممّا يوهم ذلك في حقّ القرآن ويبيّن رأي هؤلاء

(١) فتح القدير: ٣/ ٥٤٤.

البغداديّة (محمّد بن شجاع الثلجي) فيقول: «إنّ القرآن حقيقة محدَث ولكنّه لا يُوصف بأنّه مخلوق، وإن كان معنىٰ الخلق حاصلًا فيه لإيهامه أنّه مكذوب؛ لأنّ الخلق قد يُستعمل في اللغة بمعنىٰ الكذب نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [سورة ص: ٧]، فلذلك منع وصفه بالمخلوق.

أقول: والحقيقة أنّ أهل البيت والمعتزلة والإماميّة والزيديّة، والإسماعيليّة والعلويّة والظاهريّة والإباضيّة قالوا بحدوثه، والآخرين قالوا بالقِدم، ومنهم مَنْ قال بقِدم الكلام في اللّوح وحدَثِ ما في المصحف، علىٰ ذلك فإنّ القرآن الكريم هو كلام الله أنزله سبحانه في ليلة القدر من اللّوح المحفوظ إلىٰ السماء الدُّنيا جملةً واحدة، ثمّ أُنزل بواسطة جبريل عليه السلام من السماء الدُّنيا إلىٰ النبيّ الأمين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم منجّمًا ومفرّقًا وهو علىٰ ما نزل عليه محفوظ من الزيادة والنقصان، ومَنْ قال فيه بالزيادة والنقصان فقد كفر بكلام الرحمن؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وهو المعجزة الخالدة إلىٰ يوم الدِّين، ومَن قال بالصرفة فقد سلك مسالك الشياطين، ولا نقول فيه قديم ولا مخلوق بل هو محدَث من ربّ العالمين.



۞ الصَّرْفة[1] ۞

رافق القول بالصرفة القول بإعجاز القرآن، بل كان هذا القول الباعث الأوّل للبحث في وجوه إعجاز القرآن ومن ثمّ نشوء علم البلاغة عامّة.

مصدر القول بالصَّرْفة:

عرف العرب في قرارة نفوسهم أنّ عجزهم عن أن يأتوا بمثل القرآن تابع من ذاتيّة القرآن، يتّضح ذلك من أقوالهم المرويّة عنهم. وبقي الأمر كذلك إلىٰ العصر العبّاسي حيث أولج الناس بالفلسفة واطّلعوا علىٰ فلسفة الهند والفرس واليونان، وصارت الطبقة المثقّفة من غير علماء الدِّين شعارهم الإغراب في الأقوال والأفكار، لما وصلوا إليه مما يسمونه تَرَفًا عقليًّا، واطّلع بعض المتفلسفين من علماء المسلمين علىٰ أقوال البراهمة في كتابهم (الفيدا)[2] وهو الذي يشمل مجموعة من الأشعار ليس في كلام الناس ما يماثلها -في زعمهم- ويقول جمهور علمائهم: إنّ البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها؛ لأنّ

(١) الصرفة لغة: علىٰ وزن فَعْلَة - بفتح الفاء واللام وسكون العين: رد الشَّيء عن وجهه، يقال: صرفه يصرفه، صرفًا، فانصرف،وصارف نفسه عن الشيء:صرفها عنه. قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ﴾ أي: رجعوا عن المكان الذي استمعوا منه، وقيل: انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا. لسان العرب: ٧/ ٣٢٨ (مادة صرف).
والصرفة في الاصطلاح: أن الله صرف همم العرب عن معارضة القرآن، فصار معجزة كسائر المعجزات. البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٩٣؛ والسيوطي: الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١١٨.

(٢) الفيدا: كتاب يشمل أربعة كتب مقدسة للهندوس، وقد كتب باللغة السنسكريتية. مشكلة الألوهية، محمد غلاب، ص٩٧.

(براهما)[١] صرفهم عن أن يأتوا بمثلها، ولكن خاصّتهم يقولون: إنّ في مقدورهم أن يأتوا بمثلها ولكنّهم ممنوعون من ذلك احترامًا لها[٢].

وعندما دخلت الأفكار الهنديّة في عهد أبي جعفر المنصور ومَنْ والاه من حكّام بني العبّاس، تعلّق الذين يحبّون كلّ وافد من الأفكار ويركنون إلىٰ الإغراب في أقوالهم، فدفعتهم الفلسفة إلىٰ أن يعتنقوا ذلك القول ويطبّقوه علىٰ القرآن -وإن كان لا ينطبق- فقال قائلهم: إنّ العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه، بل كان لأنّ الله تعالىٰ صرفهم عن أن يأتوا بمثله.

ومن هنا ظهرت فكرة الصَّرْفة، والتي لم يتكلّم فيها إلاّ القليل؛ لعدم استساغتها، فهي تؤدّي إلىٰ أنّ القرآن الكريم ليس في درجة من الفصاحة والبلاغة تمنع محاكاته، وتعجز القدرة البشريّة عن أن يأتوا بمثله. فالإعجاز عند القائلين بالصَّرْفة ليس من صفات القرآن الذاتيّة، وبالتالي ما دام أنّ بلاغة القرآن لا تزيد علىٰ بلاغة سائر الناس فمؤدّىٰ كلامهم أن يكون القرآن من جنس كلام البشر!

والواقع أنّ هذه الفكرة قد نشأت -أوّل ما نشأت- في بيئة المتكلّمين منذ أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث؛ ذلك أنّ مسألة إعجاز القرآن كانت قضيّة من القضايا الاعتقاديّة المتّصلة بالنبوّة، وقد استأثرت بالجدل والنقاش من قِبَل كثير من النّاس المعاندين، وهي ممّا يقع في صلب مواضيع علم الكلام. وبتعبير المعتزلة: هو أبرز ما عني بالنظر العقلي في مسائل الاعتقاد.

---

(١) براهما: من آلهة الهندوس، وهو عندهم مرادف للمطلق الأعلى أو (الأتمان). المرجع السابق، ص٩٨.

(٢) المورد: ١٠/ ٨٢، مباحث في إعجاز القرآن، ص ٥٨.

القائلون بالصَّرْفة:

١- النظّام: إبراهيم بن سيَّار بن هانئ النَّظَّام البصري[(١)].

اقترن اسم الصَّرْفة باسم النَّظَّام واشتهر أنّه أوّل المنادين والمظهرين لهذا القول، وهو أقدم مَنْ ذهب لهذا المذهب في قول: «إنّ العرب لم يعجزوا عن معارضة القرآن، وإنّما صرفهم الله عن تلك المعارضة» لكن النَّظَّام لم يعالج هذه الفكرة بشيء من البيان والتفصيل، أو أنّه قال بها «من غير تحقيق لكيفيّتها وكلام في نصرتها» كما حلّل ذلك الشريف المرتضىٰ[(٢)].

وقد استهوت فكرة الصَّرْفة عددًا من تلامذة النَّظَّام كان أبرزهم الجاحظ الذي مالَ إليها علىٰ الرغم من تصديقه بتفوّق النظم القرآني الذي ألّف فيه كتابًا مستقلاً.

لكن الجاحظ شأنه شأن سلفه النَّظَّام، لم يكشف عن أبعاد المذهب ولم يبسط القول فيه، فلم يُفرِد له بابًا في كتاب، وإنّما ذكره ذكرًا عابرًا في معرض حديث له عن ملك النبيّ سليمان عليه السلام، حين قال ما أورد من شواهد: «ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن

---

(١) النظام: هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانيء البصري، المشهور بالنظام، وهومن أئمة المعتزلة، تبحر في علوم الفلسفة، واطلع على أكثر ما كتبه رجالها، وانفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت (النظامية) يقال: إنه اشتهر بالنظام لإجادته نظم الكلام، وكان شاعرا أديبا بليغا، وله كتب كثيرة في الفلسفة والاعتزال. توفى سنة ٢٣١هـ. الأعلام للزركلي: ١/ ٤٣؛ والفرق بين الفرق للبغدادي، ص١١٣؛ وتاريخ بغداد: ٦/ ٩٧.

(٢) الذخيرة في علم الكلام، ص ٣٧٨.

تحدّاهم الرسول بنظمه، ولذلك لم نجد أحدًا طمع فيه ولو طمع فيه لتكلّفه . . . »[١].

وهذا الصرف -في رؤية الجاحظ- نظير ما وقع لبني إسرائيل في التيه «فقد كانوا أُمّة من الأُمم يكسفون أربعين عامًا في مقدار فراسخ يسيرة ولا يهتدون إلىٰ المخرج. وما كانت بلاد التّيه إلاّ من ملاعبهم ومنتزهاتهم . . . ولكنّ الله صرف أوهامهم ورفع القصد من صدورهم»[٢].

ويفهم من كلام الجاحظ أنّ الصَّرْفة عنده إنّما كانت لحماية القرآن من معارضة الذين يتكلّفون هذه المعارضة؛ ليموّهوا علىٰ أغرار الناس ومَنْ لا علم له بمزايا نظم القرآن، وإلاّ فإنّ القرآن كان وما يزال معجزًا في هذا النظام.

٢- الشريف المرتضىٰ (عليّ بن الحسين علم الهدىٰ)[٣]:

وهو من أبرز من استوفىٰ الكلام عن الصَّرْفة من بين المتكلِّمين المعنيين بأمر القرآن؛ فإنّه كان يذهب إلىٰ القول بالصَّرْفة وتحدّث عن خطوط الموضوع

(١) الحيوان: ٤/ ٣١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) هو السيد الشريف أبو القاسم علي بن طاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى. لقب بالمرتضى ذي المجدين، علم الهدى. كان أوحد أهل زمانه علما وكلاما وحديثا وشعرا فكانت بذلك مثالا للثقافة الكاملة.ولد السيد الشريف المرتضى في رجب سنة ٣٥٥ هـ-٩٦٦ م في بغداد، وتوفي بها في الخامس والعشرين من ربيع الأول من سنة ٤٣٦ هـ-١٠٤٤ م، وسنه يومئذ ثمانون سنة وثمانية أشهر، ودفن في داره أولا ثم نقل إلى جوار جده الحسين عليه السلام، حيث دفن في مشهده المقدس مع أبيه وأخيه وقبورهم ظاهرة مشهورة. انظر: رسائل الشريف المرتضى المجموعةالأولى -مطبعة سيد الشهداء- قم ١٤٠٥ هـ، ص ٣٩.

الكبرىٰ في كتابه (الذخيرة في علم الكلام)، ثمّ لما وجد أنّ المسألة تقتضي المزيد من البسط والإيضاح وردّ الاعتراضات، أراد أن يجلّي الصورة التي يراها لهذا اللون من الإعجاز، فألّف كتابًا خاصًا في الموضوع أسماه «الموضع عن جهة إعجاز القرآن أو الصَّرْفة».

وقد فسّر المرتضىٰ الصَّرْفة بأنّ الله قد تحدّىٰ العرب بالقرآن فأوقعهم بأن سلبهم العلوم التي يُحتاج إليها في معارضة القرآن والإتيان بمثله.

ومؤدّىٰ كلامه أنّهم أُوتوا القدرة علىٰ المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة، فهم قادرون علىٰ النظم والعبارات ولكنّهم عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن بسبب أنّهم سُلبوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن في معناه.

٣- ابن حزم الظاهري[١]:

فقد قال في كتاب «الفِصَل» في سبب الإعجاز: لم يقل أحد إنّ كلام غير الله معجز، لكن لما قاله الله تعالىٰ، وجعله كلامًا له، أصاره معجزًا، ومنع من

---

(١) أبومحمد، علي بن أحمدبن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح الأندلسي القرطبي اليزيدي مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي، ولد في سنة ٣٨٤ هـ في قرطبة وتوفي سنة ٤٥٦هـ. أندلسي أصله من بادية ولبة، من أكثر الناس تصنيفا وتأليفا بعد الطبري، وهو متكلم، أديب، وشاعر، وناقد محلل، بل وصفه البعض بالفيلسوف، وزيرسياسي لبني أمية يعد من أكبر مشاهير الأندلس. قام عليه جماعة من المالكية وشرد عن وطنه توفي في منزله في أرض أبويه. انظر: سيرأعلام النبلاء، ١٨/ ١٨٤-٢١٣، وانظر كتاب ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي، وهو أطروحة للماجستير للدكتور عبدالباقي السيد عبدالهادي الظاهري.

مماثلته . . . ثمّ قال: وهذا برهان كان لا يحتاج إلىٰ غيره[(١)].

ونجد تعليقًا للباحث محمّد أبو زهرة علىٰ كلام ابن حزم: « ولئن كان كلّ من النظّام والمرتضىٰ متّهمًا بنوع من التهمة في عقيدته، فالنظّام قد اتُّهم بالإلحاد والزندقة، والمرتضىٰ اتُّهم باطّلاعه علىٰ فلسفة المعتزلة وكلامهم، فإنّ ابن حزم يمكن أنه لم يُتَّهم بشيء من ذلك، وإنّما يفسّر قوله بالصَّرْفة تمشّيًا مع مبدئه في عدم جواز تعليل كلام الله وشرعه، فقد ألزم نفسه بالأخذ بظاهر النصوص من غير تعليل، فالاتّجاه إلىٰ تعليل الإعجاز الوارد في

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤] وغيرها من الآيات بأنّ السبب فيه بلاغته التي علَتْ عن طاقة العرب والتي يخرّون صاغرين بين يديه من غير مِراء ولا جدال بعد هذا تعليلًا، وهو من باب الرأي الذي ينفيه[(٢)].

٤- ابن سنان الخفاجي[(٣)]:

يقول في كتاب (سرّ الفصاحة): « وإذا عدنا إلىٰ التحقيق وجد وجه إعجاز

---

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم: ٣/ ١٧-٢١. وانظرد. مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن، ص ٦٣.

(٢) المعجزة الكبرى، ص ٨٠.

(٣) هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي، من علماء القرن الخامس، وهوشاعر وناقد ورائد في علم البلاغة، من بني خفاجة الذين كانوا يسكنون حلب، و كان أبوه من أشرافها. أخذ العلم والأدب عن علماء عصره، وممن أخذ عنهم وأثروا فيه أبوالعلاء المعري، مولده ووفاته (٤٢٢- ٤٦٦هـ) ويقال: إنه مات مسموما. وترجع شهرته في تاريخ النقد العربي إلى كتابه (سرالفصاحة) الذيحاول فيه أني رجع السمات الأدبية إلى الفصاحة، ويبحث من احي هذه الفصاحة مستلهم التراث النقدي للمتقدمين، ومن مؤلفاته أيضا الصرفة في الإعجاز؛ والحكم بين النظم والنثر؛ وعبارة المتكلمين في أصول الدين، وكتاب في رؤية الهلال؛ وكتاب في الفروض؛ وحكم منثورة.الأعلام للزركلي: ٤/ ١٢٢؛ تاريخ النقد العربي: ٢/ ٢٥٤.

القرآن صرف العرب عن معارضته، بأن سُلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكّنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك . . . فمتىٰ رجع الإنسان إلىٰ نفسه، كان معه أدنىٰ معرفة بالتأليف المختار وجَد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه»(١).

حقيقة القول بالصَّرْفة:

فالقائلون بذلك يجمعهم قولهم: «لقد عُرف العرب منذ جاهليّتهم بفصاحة الكلم، فلهم القصيد الطويل والنثر البديع، والرجز اللّطيف والسجع الغريب ولهم المعلّقات، وقد كانت ندواتهم ومحافلهم تُقام لمعرفة ما استجدَّ من أفانين القول، فكيف يعجزون عن الإتيان بمثل أقصر سور القرآن بمثل سطر واحد لا تتجاوز كلماته العشرة، فإن ثبت عجزهم فليس ذاك إلاّ أنّ صارفًا صرفهم عن الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه بأن سلب منهم العلوم التي تمكّنهم معارضةَ القرآن بواسطتها أو صرفهم عن الاهتمام بالمعارضة، ولولا ذلك لأمكنهم الإتيان بمثل القرآن».

خلاصة القول:

ممّا سبق فإنّه يتّضح لنا قولان أو مذهبان للقائلين بالصَّرْفة:

١- النظَّام ومَن تبعه: ذهبوا إلىٰ أنّ العرب صُرفوا عن المعارضة أصلًا ولم يتوجّهوا إليها، ولو توجّهوا لقدروا علىٰ الإتيان بمثل القرآن.

٢- قول الشريف المرتضىٰ وابن سنان الخفاجي ومَنْ تابعهما؛ إذ ذهبوا إلىٰ أنّ الله سلب من العرب علومهم التي يُحتاج إليها في معارضة القرآن والإتيان بمثله، ولو توجّهوا لما استطاعوا أن يأتوا بمثل القرآن.

---

(١) سر الفصاحة، ص ٨٩.

أقول: إنَّ الإجماع منعقد علىٰ إضافة الإعجاز إلىٰ القرآن فكيف يكون معجزا وليس فيه صفة إعجاز بل المعجز هو الله تعالىٰ حيث سلبهم القدرة علىٰ الإتيان بمثله. وأيضا فيلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي وخلو القرآن من الإعجاز وفي ذلك خرق لإجماع الأمة أن معجزة الرسول العظمىٰ باقية ولا معجزة له باقية سوىٰ القرآن.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني في إعجازه[1]: ومما يبطل القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا وإنما يكون بالمنع معجزا فلا يتضمن الكلام فضيلة علىٰ غيره في نفسه قال: ليس هذا بأعجب من قول فريق منهم إن الكل قادرون علىٰ الإتيان بمثله وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به ولا بأعجب من قول آخرين إن العجز وقع منهم وأما من بعدهم ففي قدرته الإتيان بمثله وكل هذا لا يعتد به.

إنّ قضيّة الصَّرْفة هي مسألة فلسفة من المتكلّمين الذين قالوا بها.

وعقيدتنا فيها أنّها مسلك من مسالك الشياطين، فالله أعجز الأُمّة بكلامه في القرآن، وإنّنا لو قلنا بالصرف أو السلب فإنّنا نضع للإنسان المحدَث أنّ له من الأفعال التي تساوي أفعال الله من الخلق والإنزال والقدرة، وهذا لا يحقّ فيما هو من عند الله قدره بأن لا يكون إلاّ له ولا يأتي إلاّ من عنده، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

---

(١) إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني ص٥٤.



الأصل الثاني

النبوّة

المطلب الأوّل

○ النبوّة ومهمّتها ○

النبيّ والرسول في اللّغة:

النبيّ في أصل اللّغة: وردت لفظة (النبيّ) مهموزة وغير مهموزة:

١- فإذا كانت اللفظة بالهمزة (النَّبِيء) فهي:

أ- إمّا مشتقّة من النَّبَأ، وهو الخبر فالنبي هو المخبر (المنْبِي) عن الله تعالىٰ.

ب- أو أن تكون من (النَّبيء) الذي هو الطريق الواضح؛ لأنّ الأنبياء هم الطرق الموصلة إلىٰ الله تعالىٰ.

٢- وإن كانت بلا همزة (النبي) فهي:

أ- إمّا أن تكون همزتها مخفّفة.

ب- وإمّا أن تكون مشتقّة من النبوة أو النَّباوة، أي: الارتفاع؛ لأنّ النبي مرتفع الرتبة علىٰ غيره[1].

---

(١) لسان العرب: مادة (نبأ)، وكتاب سيبويه: ٢/ ١٧٠، واشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجي، ص ٥٠٤، والبيان في غريب إعراب القرآن: ١/ ٨٧-٨٨، والمسامرة، ص٢٣٢.

الرسول في أصل اللّغة:

لفظة الرسول مأخوذة:

أ- من قولهم: جاءت الإبل رسلًا؛ أي متتابعة، فالرسول هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه[١].

ب- من: رسل اللّبن إذا تتابع درّه؛ لأنّ الرسول هو الذي يتتابع عليه الوحي[٢].

قال القاضي عبد الجبّار: إنّ هذه اللفظة مأخوذة من إرسال المرسل له، كما أنّ معلومًا مأخوذ من علم العالم به[٣].

النَّبي والرسول في الاصطلاح:

جاء القرآن الكريم بهاتين الكلمتين معًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢].

وقد اختلف العلماء في بيان معناهما علىٰ أقوال أهمّها:

القول الأوّل: النبي: إنسان أُوحي إليه بشرع -أي أحكام- سواء أُمر بتبليغه والدعوة إليه أم لا، فإن أُمِرَ بذلك فهو نبيّ رسول، فالفرق بينهما بالأمر بالتبليغ وعدمه[٤].

أقول: النبيّ لا بُدَّ أنه مأمور بالتبليغ الأنبياء الماضون منهم من كان يرسل واحد إلىٰ ناحية وءاخر إلىٰ ناحية ومنهم من يرسل إلىٰ قومه يُنص له بالوحي يقول له جبريل أنت رسول الله إلىٰ قومك أما محمد قيل له أنت رسول الله إلىٰ

(١) لسان العرب: مادة (رسل).
(٢) اصول الدين للبغدادي، ص ١٥٤.
(٣) المغني للقاضي: ١٥/ ٩.
(٤) المسامرة، ص ٢٣١، والدردير على الخريدة، ص ١٨.

كافة الخلق جبريل قال له إلىٰ كافة الخلق أما غيره لم يقل له ذلك، لكن إنكار المنكر والتبليغ من حيث المعنىٰ هو مأمور به لأنه لا معنىٰ من إرسال نبي من دون أن يكون مأمورًا بالتبليغ لا يرسل النبي لنفسه فقط.

فالنبيّ أعمّ من الرسول؛ أي: يلزم من كونه رسولًا أن يكون نبيًا ولا عكس[١]. وهذا القول هو المشهور[٢]. وبه قال الجمهور وعامّة الأشاعرة[٣]، وصحّحه المهدي والقاضي عياض في كتابه الشفاء حيث قال: والصحيح والذي عليه الجمع الغفير، أنّ كلّ رسول نبيّ، وليس كلّ نبيّ رسولًا[٤].

وهو ما عليه أهل البيت والإمامية والزيديّة والإسماعيليّة والعلويّة والإباضيّة وأهل الحديث.

القول الثاني: النبي: إنسان بعثه الله لتبليغ ما أُوحي إليه وكذا الرسول، فلا فرق بينهما، بل هما بمعنىٰ واحد[٥]، وهو الذي عزاه (ابن الهمام) إلىٰ بعض المحقّقين[٦]، وهو مذهب المعتزلة[٧].

---

(١) الصاوي على الدردير، ص ١٨، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، ص ١٠٥، لوامع الأنوار: ١/ ٤٩، ٢/ ٢٥٨، وذكر في شرح العقيدة الطحاوية، ص ١٠٥ أيضا: «ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل بالعكس، فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها».

(٢) المسامرة، ص ٢٣١، ولوامع الأنوار: ٢/ ٢٥٨، والصاوي، ص ١٨.

(٣) حاشية المرجاني: ١/ ١٢.

(٤) الشفاء: ١/ ٢٥١؛ تفسير القرطبي: ٧/ ٤٤٧٢.

(٥) المسايرة والمسامرة عليها، ص ٢٣١، والصاوي على الدردير، ص ١٨، أعلام النبوة للماوردي، ص ٣٨، المقاصد: ٢/ ١٧٣.

(٦) المسايرة، ص ٢٣١.

(٧) حاشية المرجاني: ١/ ١٢، الكلنبوي: ١/ ٩.

وعقيدتنا هو قول الجمهور؛ لما جاء في الكتاب قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [**الحج: ٥٢**]، فلو كان النبيّ مساويًا للرسول لما عطف عليه؛ لأنّ نفي أحد المتساويين يستلزم نفي الآخر[١].

وقد تكلّم العلماء في هذه المسألة وأكثر ما كان عليه الجمهور ما نحن عليه في عقيدتنا، وهناك أقوال أُخرىٰ فمن أراد التوسّع فليرجع إليها[٢].

وقد اتّفق المسلمون والفلاسفة وغيرهم من أهل الأديان علىٰ وجوب بعثة الرُّسل من الله سبحانه وجوازه عقلًا وثبوته نقلًا، فالعقل وحده لا يكفي لإدراك كلّ ما هو حسن وقبيح واقعًا، وقد اتّضح أنّ القائلين بالحسن والقبيح العقليّين لم يُثبتوا للعقل الإحاطة بكلّ شيء، وأنّ كثيرًا من الأشياء لم يدرك من أمرها شيئًا إلاّ بعد أن كشف الشارع عن حسنها أو قبحها.

وقد دلّت النصوص القرآنية علىٰ أنّه سبحانه لا يعاقب أحدًا إلاّ بعد إتمام الحجّة عليه.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] بإرسال الرّسل وتسهيل أسباب الطاعة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [**الإسراء: ١٥**]، والرسول لطف من الله ﷻ، وممّا لا شكّ فيه أنّ الرسول الذي يبلّغ عن الله، ويبيّن

(١) المسامرة، ص ٢٣٢؛ الكلنبوي: ١/ ٩.
(٢) الكلنبوي على الدواني: ١/ ٩؛ المرجاني على الدواني: ١/ ١١ - ١٣؛ أعلام النبوة، ص ٣٨؛ شرح المقاصد: ٢/ ١٧٣؛ تفسير الطبري: ٢/ ٤٤٧، تفسير البيضاوي، ص ٣٣٠، المسامرة، ص ٢٣١.

للناس ما يترتّب علىٰ الطاعات من الجزاء وعلىٰ المعاصي من العقاب من مظاهر اللّطف من الله سبحانه، وما كانت تتمّ الواجبات السمعية إلاّ بالرسل.

والأشاعرة وموافقوهم يقولون: بأنّ العقل لا يدرك حسنًا ولا قبحًا استقلالًا، ولا يستقلّ في أحكامه فينحصر التعرف بها عندهم بطريق النقل، ومهما كان الحال فلم يخالف في وجوبها سوىٰ البراهمة وقالوا: إنّ الرسول إن جاء بما يوافق العقل ونفوا التكليف الشرعي وجحدوا الرُّسل؛ وعلَّتهم أنّ الصانع عالم حكيم، والعالم الحكيم لا يُرسل الرّسل وهو يعلم أنّه يُعصىٰ. وقد وافقهم علىٰ ذلك الصابئة القائلون بالتناسخ.

وذهب البراهمة: إلىٰ نبوّة آدم لا غير، وأضاف بعضهم إليه إبراهيم، كما يدّعي الصابئة نبوّة إدريس وشيث لا غير.

وقال أبو هاشم الجبَّائي: لا تجب بعثة الرسل إلاّ إذا أراد الشارع الحقيقي تشريع أُمور لا يستقلّ بها العقل.

أمّا والد الجبَّائي: فقد أوجبها حتّىٰ ولو لم يأت الرسول إلاّ بما حكم به العقل، وقال: إنّه يكفي من فوائدها أن تؤكّد أحكام العقل.

وبعض المنكرين للنبوّات قالوا: إنّها لا تكون إلاّ بالمعجزة، وهي مستحيلة عادةً، وادّعىٰ آخرون بأنّ المعجزة وإن لم تكن مستحيلة لكنّها لا تدلّ علىٰ صدق مدّعيها، وبالغ آخرون فقالوا: بأنّها حجّة علىٰ من شاهدها؛ لأنّها تفيد العلم، أمّا الغائبون فلا يفيدهم العلم، ولو تواترت، فالتواتر لا يفيد إلاّ الظنّ، والظنّ لا يكفي في العقليّات، إلىٰ غير ذلك من المذاهب، والآراء الفاسدة[1].

(١) المواقف، ص ٢٣٠، شرح التجريد، ص ١١٧، معالم الفلسفة، ص ١٦٠.

والله ﷻ لطيف بعباده وأرحم بهم من آبائهم وأُمّهاتهم، وعلاقته بهم في المعاملة قائمة علىٰ الكرم الإلهي والعفو والمغفرة، وإنارة سُبل الحياة السعيدة في الدُّنيا والآخرة، ولا يأخذ الله تعالىٰ عبده بالشدّة إلاّ ليريه نتيجة انحرافه فينأىٰ عن الضلال ويستقيم مع ربّه.

وتعتبر هذه هي أُصول المعاملة بين الله وبين عباده، ولا يمكن معرفة الخطّ الإلهي الحكيم وإدراك التشريع الربّاني الكامل والشعور بما بين العبد وربّه من علاقة طيّبة رحيمة جميلة إلاّ إذا نزل بذلك من عند الله كتابٌ فيه ما يريد الله أن يقول لعباده، وما يأمرهم به وينهاهم عنه، ويرشدهم إليه؛ لتتحقّق مصالحهم في دُنياهم، وليجازيهم بما رتّبه علىٰ أوامره ونواهيه من جزاء.

وعن طريق الأنبياء عُرِف مصير الإنسان وجزاؤه في اليوم الآخر بالجنّة أو النار، وفيه غير ذلك ممّا لا يمكنه الوصول إليه عن طريق آخر غير طريق الوحي المنزل علىٰ نبيٍّ أو رسول اختاره الله سبحانه واصطفاه؛ ليلقىٰ إليه وحيه ويبلّغ الشريعة إلىٰ الناس ويسير فيهم علىٰ هُدىٰ هذا الوحي منفّذًا له ومطيعًا بدقّة لكلّ ما فيه من تشريعات وأخلاق وآداب.

فالكلام علىٰ النبوّات يشتمل علىٰ:

١- الكلام علىٰ النبيّ والرسول الذي اختاره الله لوحيه ورسالته وأيّده بمعجزته.

٢- الكتاب الذي أُنزل عليه.

٣- كيفيّة التلقّي عن الملك في الوحي.



۞ الفرق بين النبيّ والرسول ۞

النبي: هو مَن أوحىٰ الله تعالىٰ إليه بشرع، وسمّي نبيًا؛ لأنّه نُبِّئ وأُخبر من قبل الله تعالىٰ، وهو مأمور بالتبليغ لا شكّ؛ لأنّ الله أرسله وبعثه إلىٰ خلقه ليبلّغهم شرعه، فهو إذن مبعوث من عند الله تعالىٰ إلىٰ الخلق برسالة معيّنة، ومن أجل ذلك سُمّي نبيًّا وإن كان أُمِرَ بنسخ بعض شرع مَن قبله أو أوحي إليه بشرع جديد سُمِّيَ رسولًا، فكلّ رسول نبيّ ولا عكس.

فإذا انتفت النبوّة عن شخص انتفت الرسالة عنه ولابد؛ لأنّه لا يرسل إلاّ إذا أنبأه الله وأخبره بأنّه اختاره واصطفاه لوحيه أولًا، ثمّ يخبره بأنّه أرسله إلىٰ مَنْ أرسله إليهم، فالنبوّة هي طريق الرسالة، ولا رسالة بدون نبوّة، لذلك كان إخبار الله تعالىٰ في القرآن بأنّ سيّدنا محمّدًا ﷺ خاتم النبيّين دليلًا حتميًا علىٰ أنّه لا نبيّ ولا رسول بعد سيّدنا محمّد ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولم يصحّ أنّ نبيًا من الأنبياء كان عبدًا مملوكًا لأحد من الناس كما لم يتأكّد أنّ أحدًا منهم كان أُنثىٰ، أو أنّ رسولًا كان من الجنّ أو الملائكة إلىٰ الناس وأُرسل إلىٰ الإنس ليعيش معهم.

وقد قال بعضهم في تعريف النبيّ: «إنّه إنسان -ذكر حرّ- أُوحي إليه بشرع، فإن أمر بتبليغه فهو رسول أيضًا، وإن لم يُؤمر بتبليغه فهو نبيّ فقط» وهذا قول مردود فإن لم يؤمَر بالتبليغ فما وظيفته؟!

وهذا قول المشهور في الفرق بين الرسول والنبيّ[(١)].

والصحيح: أنَّ الرسول مَنْ بعثه الله بشريعة مجدّدة يدعو الناس إليها، والنبيّ يشمله ويشمل مَنْ بعثه الله لتقرير شرع مَنْ قبله مثل أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، وقيل: إنّ الرسول مَنْ جمع إلىٰ المعجزة كتابًا منزلًا عليه، والنبيّ غير الرسول مَنْ لا كتاب له، وقيل: الرسول مَنْ يأتيه الملَك بالوحي، والنبيّ يُقال له ولمن يوحىٰ إليه في المنام، وكلّ هذه أقوال لكنّ ما نراه الصحيح هو قولنا الأوّل.

الإيمان بالأنبياء والرُّسل:

الإيمان بالأنبياء والرُّسل جميعهم واجب؛ لأنّه أصل من أُصول الدِّين مَنْ أخلَّ به كفر، والآيات من كتاب الله كثيرة حول ذلك:

قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ويجب علىٰ كلّ مؤمن الإيمانُ إجمالًا بجميع أنبياء الله ورسله بدون حصر؛ لأنّ حصرهم غير معلوم بنصّ القرآن، قال تعالىٰ: ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: ٧٨].

وإرسال الرسل فيه الحكمة لا بُدَّ ونذكر منها وجهين:

(١) التعريفات للجرجاني، ص ٥٨-١٢٥، إرشاد الأنام في عقائد الإسلام، ص ١٢٣.

١- إنّ شكر المنعم واجب شرعًا وهو عدم استعمال طاعته في معصيته، والعقل لا يهتدي لمعرفة الشريعة بطريق التفصيل إلاّ بالسمع، والسمع بإرسال الرُّسل فكان يُحتاج إلىٰ الرّسل.

٢- إنّ في بعث الرسل إثبات الحجّة وقطع الحجّة للحكم وتحقيق ما وعد الله ﷻ بالجنّة والنار، قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥].

لهذه الحكمة فيكون واجبًا، ونفىٰ بالوجوب أنّ من قضيّة الحكمة أن يوجد لا محالة لا أنّه يجب علىٰ الله تعالىٰ بإيجابه أو بإيجاب غيره عليه -تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-(١).

وقد خالف المعتزلة رأي أهل السُّنَّة والجماعة، فرأوا أنّ إرسال الرُّسل من الواجبات التي تجب علىٰ الله تعالىٰ، وحجّتهم في ذلك أنّ إرسال الرُّسل لطفٌ من الله تعالىٰ ورحمة للعالمين؛ لما فيها من حِكَم ومصالح لا تُحصىٰ، فالنظام المؤدّي إلىٰ إصلاح حال النوع الإنساني علىٰ العموم في المعاش والمعاد لا يتمّ إلاّ ببعثة الرسل وكلّ ما هو كذلك فهو واجب في رأيهم علىٰ الله تعالىٰ، وهذا رأي الفلاسفة أيضًا(٢).

عدد الأنبياء:

جاء في الروايات حول عدد الأنبياء بأنّهم مائة وأربعة وعشرون ألفًا، وأنّ عدد المرسلين منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولًا؛ فقد رُوي أنّ أبا ذرٍّ

---

(١) أصول الدين للغزنوي، ص ١٢٠-١٢١.

(٢) ضوء جديد على شرح جوهرة التوحيد، ص ١٠٩-١١١.

الغفاري رضي الله عنه قال: «قلت: يارسول الله، أيّ الأنبياء كان أوّل؟ قال: آدم، قلت: يارسول الله، أوَ نبيّ كان؟ قال: نعم نبيّ مكلّم، قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: ثلاث مئة وبضعة عشر جمًّا غفيرًا»[(١)].

ونؤمن بالمرسلين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم وعددهم خمسة وعشرون وهم كالتالي: آدم، نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، داود، سليمان، أيّوب، يوسف، موسىٰ، هارون، زكريّا، يحيىٰ، إدريس، يونس، هود، شعيب، صالح، لوط، إلياس، اليسع، ذو الكفل، عيسىٰ، محمّد، صلوات الله عليهم أجمعين.

ونقول إنّ الإيمان بهم تفصيلًا بمعنىٰ أنّه يتعيّن التصديق برسالتهم بأشخاصهم لأنّهم ذُكروا في القرآن الكريم.

أمّا بقيّة الأنبياء فيجب الإيمان بهم جملةً بمعنىٰ أن نصدّق بأنّ هناك أنبياء غير هؤلاء الذين ذُكروا في الكتاب العزيز، وقد تقدّم ذكر ذلك.

وأولو العزم من الرُّسل كانوا خمسة: نوح،وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، ومحمّد عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ **[الأحقاف: ٣٥]**.

وإنّما سمّوا بـ**(أُولي العزم)** لأنّهم صبروا علىٰ أذىٰ قومهم وكانت عزائمهم قويّة وابتلاؤهم كان شديدًا، وجهادهم كان شاقًّا ومريرًا، فبقوا أولي العزم كلّهم أو ذوو، واضطُهدوا فتحمّلوا الأذىٰ والعذاب وصبروا علىٰ البلاء والشدّة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ

(١) رواه أحمد: ١٧٨/٥، ولمزيد من التفاصيل حول عدد الأنبياء يراجع شرح الفقه الأكبر، ص ٢٩٠؛ شرح جوهرة التوحيد للقاني، ص ٨-٩.

ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ولهذا استحقّوا أن يكونوا قادة الأنبياء وسادة الرّسل الذين جاهدوا لإظهار الحقّ ومحو الضلالة والسير إلىٰ نور التوحيد والإيمان.

هل بعض الأنبياء أحياء؟

اختلف حول حياة بعض الأنبياء من أُولي العزم وأنّهم لم يموتوا، وأنّ لهم العودة إلىٰ الدُّنيا وهم أربعة: عيسىٰ، وإدريس، والخضر، وإلياس.

وقد كَثُر الحديث في هذه المسألة ولم يستطع أحدٌ أن ينفي حجّة الآخر، ولعلّي هنا أُوضح بعض ما ذُكر حول هذه المسألة باختصار، وسوف أبدأ بـ:

١- إدريس:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦-٥٧].

وقد جاءت روايات كثيرة عن قبضه ورفعه إلىٰ السماء الرابعة، وأنّ الملائكة دفنت جثّته؛ قال ابن كثير: إنّ رسول الله ﷺ قد مرَّ به ليلة الإسراء في السماء الرابعة[1].

وقال ابن نجيح عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال: إدريس رُفع ولم يمت كما رُفع عيسىٰ[2].

وقد كُتب الكثير في أمر سيّدنا إدريس فمَنْ أراد التوسّع فليراجَعْ ما نقله القرطبي في خلاف هذا الرأي وفيه كلامٌ طويل[3].

---

(١) البداية والنهاية: ١/ ٩٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٢٦، قصص الأنبياء لابن كثير: ١/ ٨٠-٨١، فتح القدير للشوكاني: ٣/ ٣٣٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٣٢-٢٣٣.

وعقيدتنا في حياة إدريس أنّه مات وقُبض وحياته حياة الأنبياء في قبورهم.

٢- **الخضر**: اختلف العلماء في الخضر عليه السلام الذي ورد ذكره في القرآن بالعبد الصالح في سورة الكهف وذلك عند قوله تعالىٰ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [**الكهف**: ٦٥].

وقد جاء الخلاف حوله من عدّة وجوه، منها:

- في اسمه، وهل هو نبيّ أو رسول أو وليّ؟ كما اختلفوا في زمانه، وهل هو حيٌّ أم ميّت؟

أمّا عن الاختلاف في اسمه: «فقد قيل: إنّ اسمه يليا بن ملكا، أو يليان بن ملكان، ومنها إيلياء المعمر، وأرميا، وخضرون، وايليا، وعامر وأحمد»[١].

أمّا اللقب فهو: الخضر، والخضر بفتح أوّله وكسر ثانيه، أو كسر أوّله وإسكان ثانيه.

أمّا السبب في لقبه هذا فقد أورد البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّما سمّي الخضر؛ لأنّه جلس علىٰ فروة بيضاء فإذا هي تهتزّ من خلفه خضراء»[٢].

- أمّا الخلاف في كونه نبيًا أو رسولًا أو وليًا، فقد قال جمهور من المفسّرين والأُصوليّين والمحدّثين والمؤرِّخين بنبوّته، ويقولون: لا يوجد حديث صحيح ينصّ علىٰ نبوّته[٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ١٢٩.

(٣) ابن الصلاح في الفتاوى، ص ٢٤، روح المعاني: ١٥/ ٣٢٠، وقد نقل النووي جملة ممن قال بنبوته منهم المازري والثعلبي وغيرهما. صحيح مسلم بشرح النووي: =

وقصّته مع النبيّ موسىٰ عليه السلام تدلّ علىٰ نبوّته.

وقد استدلّ من قال بنبوّته بالآيات الواردة في سورة الكهف وبعض القصص في سورة الكهف التي قال بعضهم: إنّها لا تكون إلاّ للأنبياء، ونجد أنّ القول بنبوّته مستدلٌّ من الكتاب والسُّنَّة، وقد قال العلماء: إنّ مَنْ لم يؤمن بنبوّته وإثباتها ليس بكافر؛ لعدم قوّة الحجّة في ذلك، وقد فصّل ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء من عدّة وجوه ثبوت نبوّته، وقال: بأنّ ذلك لا ينافي حصول ولايته بل ولا رسالته كما قال آخرون[١].

- أمّا مسألة الخلاف بأنّه لا يزال حيًا فقد قال بعض العلماء -واتّفق معهم الإماميّة والإسماعيليّة وقاطبة الصوفية-: بأنّه حيٌّ، ولهم في ذلك حكايات في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه، وقد ذكر النووي أنّ جمهور العلماء علىٰ ذلك. واستدلّ القائلون بأنّ الخضر نبيّ معمَّر بأحاديث مرويّة وعدّة أخبار؛ من ذلك ما أخرجه الدارقطني وابن عساكر وما نقله العقيلي عن ابن عبّاس وأخرجه الحاكم في المستدرك.

أقول: إنّ هذه الروايات التي اعتمدوا عليه في أسانيدها مقالٌ ولم يثبت أنّ سيّدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم قد اجتمع به.

قال الإمام الحافظ العراقي في المغني: «ولم يصحّ في حديث قطّ اجتماع الخضر بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولا عدم اجتماعه، ولا حياته ولا موته»[٢].

= ٨/ ١٥٣ باب فضائل الخضر عليه السلام، فتح الباري: ١/ ١٩٤، قصص الأنبياء لابن كثير: ٢/ ٥٥٢-٥٢٣، التسهيل: ٢/ ٣٥٠.

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٢/ ٥٢٢-٥٢٣.

(٢) إحياء علوم الدين: ١/ ٣٣٦.

أمّا مَنْ قال بموته فتمسّك بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

ومن قال بذلك إبراهيم الحربي وشرف الدِّين ابن عبد الله محمّد بن أبي الفضل المرسي، وابن الجوزي والقاضي أبو يعلىٰ وغيرهم، وقد سئل البخاري عنه وعن إلياس عليهما السلام: هل هما حيّان؟ فقال: كيف يكون هذا وقد قال النبيّ ﷺ أي قبل وفاته بقليل: «لا يبقىٰ علىٰ رأس المئة ممّن هو اليوم علىٰ ظهر الأرض أحدٌ»، والذي في صحيح مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ قبل موته: «ما من نفس مَنْفوسة يأتي عليها مئة سنة وهي يومئذٍ حيّة»[1].

ومَنْ أنكر نبوّته فلا يكون كافرًا وإنّما مخالفًا للأقوال حول نبوّته التي ليس عليها إجماع.

فالخلاصة: الخضر نبيّ عند أكثر العلماء وعندَ بعضِهم وليٌّ، الأكثَرُون يقولون هوَ حيٌّ لم يمُت بعدُ لكن سيَموتُ عندَ رفْع القرآن، والأقَلُّون قالوا مات.

وعقيدتنا في الخضر ونبوّته التوقّف في ذلك؛ لا ننكرها ولا نثبتها، ولكنّا نقول بصحّة حصولها وصحّة ولايته ورسالته، والله أعلم.

٣- إلياس عليه الصلاة والسلام:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٣٣٦.

لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ **[الصافات: ١٢٣-١٣٢]**.

فقد جاء في بعض الروايات أنّ إلياس عليه الصلاة والسلام لا يزال حيًا، وهذا مرويّ عن مكحول، عن كعب، وقد تعقّب ابن كثير الروايات الواردة في هذا الشأن فقال: «وقد قدّمنا قول مَنْ ذكر أنّ الياس والخضر يجتمعان في كلّ عام في شهر رمضان ببيت المقدس، وأنّهما يحجّان كلّ سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلىٰ مثلها في العام المقبل، وأوردنا الحديث الذي فيه أنّهما يجتمعان بعرفةَ كلّ سنة وبيّنّا أنّه لم يصحّ شيء من ذلك، وأنّ الذي يقوم عليه الدليل أنّ الخضر مات وكذلك إلياس -ث» انتهىٰ كلامه[1].

وعقيدتنا في سيّدنا إلياس عليه الصلاة والسلام أنّه مات وقُبض وحياته حياة الأنبياء في قبورهم، والله العالم.

٤- المسيح عيسىٰ ابن مريم عليهما الصلاة والسلام:

إنّ من القضايا التي لها أثر كبير في تاريخ الإنسانيّة هي مسألة المسيح عيسىٰ ابن مريم النبيّ الرسول صاحب الرسالة المسيحيّة كسائر أنبياء الله المبعوثين من عند الله، ومن أعظم القصص في القرآن الكريم قصّته، وقد ذكرت قصّة المسيح عيسىٰ ابن مريم إلىٰ قيام الساعة، ووردت في ذلك أقوال بين رجوعه إلىٰ الدُّنيا وبين رفعه إلىٰ مكان غير معلوم، ولا سيّما أنّ المتّفق عليه بين علماء الأُمّة أنّ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام قد رفعه الله تعالىٰ ولكن كان لمسألة الرفع مذهبان:

الأوّل: فريق يرىٰ أنّ الرفع تمّ بالروح والجسد، وقد ذهب إليه أكثر أئمّة التفسير والحديث من قدامىٰ ومحدّثين؛ فقد أورد ابن جرير الطبري في الآية

(١) قصص الأنبياء: ٢/ ٥٤١.

الكريمة: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٥]؛ يعني بذلك جلّ ثناؤه أنّ القوم الذين حاولوا قتل عيسىٰ مع كفرهم بالله وتكذيبهم عيسىٰ بما آتاهم به من عند ربّهم لم يقدروا علىٰ ذلك.

وقال الله جلّ ثناؤه: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ فإذن صلة من قوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ﴾ يعني مكر الله بهم حيث قال الله لعيسىٰ: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ فقد توفّاه ورفعه إليه.

وقد أورد ابن كثير وابن جرير الطبري وغيرهما من المفسّرين: أنّ المسيح لما قرب وقت القبض عليه ندب أصحابه ثلاث مرّات طالبًا أن يتقدّم واحدٌ منهم ليفديه ويقدّم نفسه إلىٰ اليهود عوضًا عنه ويكون جزاؤه الجنّة، فلم ينتدب له في كلّ مرّة إلاّ واحد بعينه، فلمّا جاء أعداؤه ألقىٰ الله علىٰ صاحبه الذي انتدب له شبه المسيح، وصار لا يشكّ أحد من الكفار في أنّه هو، فأُلقي القبض عليه وصُلب وقُتل. قال تعالىٰ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

وقد اختلف أهل التأويل في معنىٰ الوفاة والرِّفعة التي ذكرها الله ﷻ في آياته البيّنات؛ فقال بعضهم: هي وفاة نوم وكأنّ معنىٰ الكلام: إنّي مميتك ورافعك في نومك، ثمّ ذكر أدلّة كلّ فريق وخلص إلىٰ القول: «وأولىٰ هذه الأقوال بالصحّة عندنا قول مَنْ قال: معنىٰ ذلك: إنّي قابضك من الأرض ورافعك

إليّ . . . لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنّه قال: « . . . فينزل عيسىٰ ابن مريم فيقتل الدجّال ثمّ يمكث في الأرض -مدّة ذكرها اختلفت الرواية في مبلغها- ثمّ يموت فيصلّي عليه المسلمون ويدفنونه»[١].

والحديث المذكور له روايات عديدة[٢].

أمّا الفريق الثاني فقال: إنّ الرفع كان بالمرتبة والدرجة وليس بالجسم، واستدلّوا بالأُمور التالية بقولهم:

١- ليس في القرآن نصّ يلزم باعتقاد أنّ المسيح عليه الصلاة والسلام رُفع بجسده إلىٰ السماء.

٢- عودة عيسىٰ عليه السلام جاءت بها أحاديث صِحاح وردت في السُّنَّة، ولكنّها أحاديث آحاد وأحاديث الآحاد توجب العمل ولا توجب الاعتقاد.

وأمّا الفريق الأوّل فقد استدلّ إلىٰ جانب الآيات التي ذكرها سابقًا بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [آل عمران: ٤٦].

والعلم في الآية الأُولىٰ بفتح العين واللاّم «في قراءة أُخرىٰ» من عَلَم؛ أي: دليل وعلامة علىٰ قيام الساعة.

قال (الجوهري): العَلَم بفتحتين «العلامة». والكهل في الآية الثانية: الرجل الذي جاوز الثلاثين وخطّه الشيب[٣].

---

(١) جامع البيان للطبري: ٣/ ٢٩١.

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٢٩٣٧)، والترمذي برقم: (٢٣٤١)، وأبو داود برقم، (٤١٥٢، ٤٢٩٩)، وابن ماجه برقم: (٤٠٧٥)،والحاكم في المستدرك: (٤/ ٤٩٢ - ٤٩٤)، وأحمد في المسند (٤/ ١٨١).

(٣) مختار الصحاح، ص ٤٥١، ٨١٥.

وقد استحسن الإمام الرازي: الرأي الأوّل وقال: «**إنّي متوفّيك**» أي: متمّم عمرك فحينئذ أتوفّاك فلا أتركهم حتّىٰ يقتلوك بل أنا رافعك إلىٰ سمائي ومقرّبك من ملائكتي وأموتك عن أن يتمكّنوا من قتلك»[(١)].

وقد أخرج ابن جرير الطبري عن وَهْب أنّه قال: توفّىٰ الله عيسىٰ ابن مريم ثلاث ساعات من النهار حتّىٰ رفعه إليه. وفي رواية للحاكم عنه: أنّه توفّاه سبع ساعات ثمّ أحياه.

وقد قسّم (عبد الوهاب النجار) في كتابه (قصص الأنبياء)الأقوال إلىٰ ثمانية أوجه[(٢)]:

١- **المعنىٰ**: رافعك إليّ ومتوفّيك وأنّ الكلام فيه تقديم وتأخير.

٢- **المراد**: إنّي مستوفٍ أجلك ومميتك حتفَ أنفك لا أُسلّط عليك مَنْ يقتلك، فالكلام كناية عن عصمته من الأعداء وما هم بصدده من الفتك به عليه السلام؛ لأنّه يلزم من استيفاء الله أجله موته حتفَ أنفه.

٣- **المراد**: قابضك ومستوفٍ شخصك من الأرض، من: توفّىٰ المال بمعنىٰ: استوفاه وقبضه.

٤- **المراد**: بالوفاة هنا النوم؛ لأنّ النوم والوفاة يطلق كلٌّ منهما علىٰ الآخر.

وقد رُوي عن الربيع أنّ الله تعالىٰ رفع عيسىٰ عليه السلام إلىٰ السماء وهو نائم رفقًا به.

٥- أجعلك كالمتوفّىٰ؛ لأنّه بالرفع أشبه.

---

(١) التفسير الكبير: ٨/ ٧١.

(٢) قصص الأنبياء للنجار، ص ٤٢٣.

٦- المراد: آخذك وافيًا بروحك وبدنك فيكون «ورافعك إليّ».

٧- المراد: بالوفاة موت القوىٰ الشهوانيّة العائقة عن اتّصاله بالملكوت.

٨- إنّ المراد: مستقبل عملك. قال الآلوسي: ولا يخلو أكثر هذه الأوجه من بُعد ولا سيّما الأخير.

وقد قرّر الشيخ محمّد أنور شاه الكشميري أنّ عيسىٰ عليه السلام كان في الثمانين من عمره قبل أن يُرفع[1].

مذهبنا وعقيدتنا في أمر روح الله عيسىٰ عليه السلام:

اعلم أنّ هناك أُمورًا كان ارتباطها في قيام الساعة بسيّدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، وأنّ لهذه الدُّنيا نهاية ولا تكون هذه النهاية إلاّ بعلامات ودلائل وهي كُثر، ولكن من أشهرها ما جاء في الحديث الصحيح عن نزول روح الله عيسىٰ ابن مريم إلىٰ الدُّنيا وقتله المسيح الدّجال والالتقاء بالإمام المهدي المنتظر عليه السلام، فجاء أنّه ينزل بالمنارة البيضاء شرقي دمشق متّكأً علىٰ مَلَكين عن يمينه وملك عن يساره والناس في صلاة العصر، وقيل: في صلاة الفجر، إنّه حينما ينزل يدخل المسجد ويقعد علىٰ المنبر فتتسامع الناس به فيدخل عليه المسلمون واليهود والنصارىٰ فيزدحمون هناك حتّىٰ يطأ بعضهم رأس بعض، ويكسر عيسىٰ ابن مريم الصليب ويقتل الخنزير[2].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حاكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع**

---

(١) عقيدة الإسلام للكشميري، ص ٣٥.

(٢) النور المبين للمؤلف: ٣/ ٤٥٥.

الجزية ويقبض المال، حتّىٰ لا يقبله أحدٌ».

وزاد في رواية أُخرىٰ: «**وحتّىٰ تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدُّنيا وما فيها**».

ثمّ يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] الآية.

وفي أُخرىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم فيكم؟**».

وفي رواية «**فأمّكم**» وفي أُخرىٰ: «**فأمّكم منكم**».

قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمّكم منكم؟ قلت: تخبرني. قال: فأمّكم بكتاب ربّكم ﷻ وسُنَّة نبيّكم.

وفي أُخرىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لينزلنّ ابن مريم حاكمًا عادلًا فليكسرنَّ الصليب، وليقتلنَّ الخنزير، وليضعن الجزية، وليتركن القِلاص فلا يسعىٰ عليها، وليذهبنَّ الشحناء، والتباغض، والتحاسد، وليدعونَّ إلىٰ المال فلا يقبله أحد**»(١).

ثمّ إنّ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام يحجّ إلىٰ بيت الله الحرام ويزور قبر سيّدنا محمّد ﷺ فيمرض هناك فيموت ويُدفن هناك جوار قبر رسول الله ﷺ، والمرويّ أنّ الإمام المهدي هو الذي يغسّله ويكفّنه ويُصلّي عليه ويدفنه(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع: حديث (٢٢٢٢) باب قتل الخنزير؛ ومسلم، كتاب الإيمان: حديث (١٥٥)، (٢٤٢) باب نزول عيسى بن مري محاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) النور المبين: ٣/ ٤٠٦.

أقول: أقول: إنّ مسألة نزول عيسىٰ عليه الصلاة والسلام جاءت عن الأخبار الواردة في كتب الحديث منها مرفوع إلىٰ رسول الله ﷺ، ومنها آراء للمفسّرين، ومنها عن مُسلمة اليهود ككعب ووَهْب، إلاّ أنّه لم يكن هنالك ما هو صريح من كتاب الله في هذا الشأن، وتظلّ هذه الأحاديث والمرويّات في هذا الأمر مهما كان من شأنها وصراحة عبارتها فهي أحاديث آحاد، ولا تبلغ أن تكون لها قوّة صريح القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، ولا يمكن أن تكون هذه المسألة في محلّ الجزم أو الاعتقاد اليقيني؛ إذ أنّه لا يحقّ لمن علم بها أن يشهد علىٰ الله أنّه نقل المسيح عيسىٰ حيًا أو ميّتًا إلىٰ السماوات، ويشهد مطمئنًا بتلك الشهادة، وأنّه يقينًا سوف ينزل إلىٰ الأرض أو يحدّد كيف ذلك ومَنْ سيكون، ولكنّا نقول: إنّ روح الله عيسىٰ ابن مريم قد رفعه الله إليه ولا نستطيع أن نقول إلىٰ السماء؛ لأنّ الله ليس محدّدًا بمكان فلا يجوز أن نقول: إنّ عيسىٰ رُفع إلىٰ السماء، وبذلك فإنّنا نقول: إنّ الله في السماء، وهذا لا يجوز في حقّ الباري، وعليه نقول: أمّا صعوده إلىٰ السماء فلا يوجد فيه نصٌّ قاطع الثبوت والدلالة، ولا حجّة للجمهور في القول بأنّه رُفع إلىٰ السماء؛ لأنّه لا يوجد ذكر في الآية الكريمة إلىٰ السماء بإزاء قوله: «ورافعك إليّ» وكلّ ذلك تأكيد بأنّ الله ﷻ قد نجّاه وقرّبه وأبعده عن المكان الذي هم فيه؛ أي إلىٰ مكان لا يستطيعون أن يصلوا إليه، وهذا حتمًا يكون في استحالة وصولهم إليه؛ أي: أنّه لا يمكن أن يكون علىٰ وجه الأرض، وهذا علىٰ ما ذهب إليه بعض المفسّرين.

قال الفيروزآبادي: رفعه كمنعه ضدٌّ، ومنعه كرفعه، وارتفعه فارتفع، والبعير في سيره: بالغ، ورفعته أنا لازم متعدٍّ، والقوم: أصعدوا في البلاد[1].

(١) القاموس المحيط، فصل الراء: ١/ ٩٣٣.

وقد جاء القائلون بوجوده في السماء بأنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام قد أخبر عن وجود الأنبياء في السماء أحياء وهذا تناقض؛ فيحيىٰ بن زكريا قد رآه ويحيىٰ مات مقتولًا فلا فرق بين الرؤيتين، ورآه آدم وموسىٰ وهارون وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء، فلو كان رؤيته لعيسىٰ دليلًا علىٰ رفعه حيًا إلىٰ السماء لكانت دليلًا أيضًا علىٰ رفع هؤلاء أحياء، ولما كان الثاني باطلًا كان الأوّل مثله؛ لأنّ الأنبياء ليستحياتهم في قبورهم في السماء.

وعقيدتنا وما نذهب إليه في أمر عيسىٰ ابن مريم ﷺ **هو**: «أنّ الله تعالىٰ قد نجّاه ورفعه مكانًا عليًّا لا يعلم، وأنّه تعالىٰ قال: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]؛ فدليل ذلك أنّ عيسىٰ لابدّ من موته، وهذا يؤكّد عودته إلىٰ الأرض وموته فيها، كما أنّ النبيّ محمّدًا ﷺ خاتم الأنبياء علىٰ وجه الأرض، ولا نبيّ بعده، وكان اختتم الله به رسالته، وبذلك فإنّ الله قد كتب في أمره عليه الصلاة والسلام ما لا نعلم وقصّ علينا ما علمنا، وبذلك قد فوّضنا العلم بذلك إلىٰ الله تعالىٰ، فالتفويض أسلم في العاقبة مع إيماننا برفعه، ونؤمن بتوفّيه المؤقت للرفع دون تحديد الزمان المتوفّىٰ فيه علىٰ التَّحديد وما ذلك علىٰ الله بعزيز، ونؤمن بنزوله إن كان ذلك مكتوبًا عند الله في علم الغيب ولا نخالفه، فكلّ شيء هالكٌ إلاّ وجهه والله أعلم.

قصّة نوح وامرأته وإزالة الشبهات:

اختلف المفسِّرون وبعض العلماء في أمر امرأة نوح ولوط وابن نوح؛ فقد جاء أنّهما كانا خائنين، ونحن لا نقول بزناهما ولكن نقول: إنّ خيانتهما كان كفرهما ونفاقهما في الدِّين فزوجات الأنبياء لا يرتكبن الفاحشة، وهذا لا يعني أنّه لابدّ من صلاح أبناء الأنبياء، ولعلّي أتحدّث عن مسألة ابن نوح وهل كان

ابنه حقيقةً؛ قال بعضهم: إنّه كان ابن امرأته من غيره ولم يكن ابنًا حقيقيًا له، بل كان ربيبًا نشأ علىٰ أن يناديه نوح بلفظ ابنه، وكان كافرًا وظنّ نوح أنّ وجوده في حِجْره يُدخله في أهله الذين وعد الله بنجاتهم. وقال غيرهم: إنّه كان من الزّنا، ونوح لا يعلم بذلك، ولا عبرة بهذا القول، ويستأنسون لذلك بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: ٤٦]، وبقوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم: ١٠].

والحقيقة في الأمر أنّه ابنه من صلبه وهو ظاهر القرآن، وإنّما نفىٰ كونه من أهل نوح؛ لأنّ النجاة لم تكن إلاّ للمؤمن، والمعنىٰ أنّه ليس من أهلك الذين وعدتك نجاتهم معك؛ والردّ علىٰ من قال بأنّه ربيبه فهذا يخالف الظاهر، أمّا القول بأنّه ولد من السفاح والزنا فهذا لا يصحّ لأنّ المقصود أنّه ليس من أهلك أي: ليس علىٰ دينك فكفره أخرجه عن أن يكون له أحكام أهله، والآية القرآنية واضحة في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ [هود: ٤٢].

ولعلّ الذين يريدون إبعاد ابن نوح الهالك عنه يرون في ذلك أمرًا عظيم أن يكون ابن النبيّ المرسل كافرًا، وأنّي لا أرىٰ في ذلك غضاضة أو نقصًا علىٰ النبيّ؛ فإبراهيم كان أبوه كافرًا يعبد الأصنام وهؤلاء اليهود أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم قد كفر بعضهم ولعنهم الله وهم بنو الأنبياء قال تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾ [المائدة: ٧٨].

أمّا من قال بزنا امرأته فهذا أبعد أن تكون زوجة نبيّ زانية رغم أنّ الكفر أشدّ ذنبًا من الزنا، ولكن قد نجد الكفّار لا يزنون؛ لأنّ الزنا يعتبر جريمة عند كثير من طوائف الكفّار تدني بصاحبها، وقد جاء في الحديث: «**تخيّروا لنُطَفكم فإنّ العِرق دسّاس**»[1]، وهذا أمرٌ مفروغ منه إلاّ أنّها كانت عاصية كافرة عدوّة له خائنة لرسالته، وهذا ما قد يحدث في مقتضىٰ البشريّة وحدث من الأعداء لجميع الأنبياء من الزوجات والأبناء والأقرباء وغيرهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وبذلك فإنّ عقيدتنا في ذلك أنّه ابنه من صلبه وهي زوجته، ولكن لم يُنجيهما الله لأنّهما أعداء لرسالته وكفروا بما أتىٰ به.

قصّة إبراهيم وابنه الذبيح:

من أعظم قصص القرآن والتي يمتثل فيها الأنبياء عليهم السلام إلىٰ ربّهم عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا

(١) هذا الحديث غير صحيح فهو ليس حديث بهذه الصيغة المشهورة على الألسن، فهو مركب من حديثين، أحدهما حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا: «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم» أخرجه ابن ماجه (١٩٦٨) والحاكم (٢/ ١٧٦، ١٧٧) وصححه، وضعفه غيره، والشطر الثاني ما جاء في حديث آخر، وفيه: «وانظر في أين صابت ضع ولد كف إنا لعرق دساس» أخرجه ابن عدي (٦/ ١٧٨)، والقضاعي (٦٣٨)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٠٠٧)، وفي لفظ: «تزوجوا في الحجز الصالح فإن العرق دساس» أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٠١٥)، وفي لفظ: «في الحي الصالح» أخرجه ابن عدي (٧/ ٧٢) وهي ألفاظ كلها ضعيفة، وضعفها شديد.

تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ [الصافات: ٩٩-١١٣].

والقصّة تبدأ برؤية إبراهيم عليه السلام في المنام والذي جاءه كالوحي والأمر المباشر؛ فقد رأىٰ أنه أُمر أن يقدّم ابنه قربانًا لله وكان ابنه الوحيد إسماعيل، وقد اختلفت الروايات فمنها ما ورد بأنّه إسماعيل -وهو الأصحّ والثابت عندنا- ومنها ما ورد بطرق ضعيفة بأنّه إسحاق، وهذا ما يتحدّث به اليهود وذلك حرصًا منهم علىٰ أن يكون أبوهم هو الذبيح جادَ بنفسه في طاعة ربّه وهو في حالة صغره، ووافقتهم طائفة وجاءوا بأخبار واردة لكنّها لا تضاهي صحّة إسماعيل بأنّه الذبيح، وهذا ما ذهب إليه الجمهور والسواد الأعظم من آيات قرآنيّة وأحاديث نبويّة، وقال بعضعم: فقد دلّت الآية الكريمة علىٰ أنّ إسماعيل هو الولد الوحيد المقصود حين حدوث الواقعة، وقد بشّر الله إبراهيم بغلام من بعده نبيًا وهو إسحاق المقصود، كما أنّ مسألة فديه ارتبط أمرها إلىٰ يومنا هذا حينما يضحّي المسلمون في كلّ عام.

وهذا ما يؤكّد أنّ الأديان السماويّة كلّها تهدف إلىٰ ربّ واحد خالق تدعوه تضرّعًا وخيفة، لولا أنّ اليهود والنصارىٰ حرّفوا وعصوا الأمر.

وتذكر لنا الروايات أنّ إسحاق عليه السلام تمنّىٰ أن يكون هو الذي أُمر أبوه بذبحه، فكان يصبر لأمر الله ويسلِّم له كصبر أخيه من قبله إسماعيل الذبيح الحقيقي، والمعنيّ بالأمر حتّىٰ ينال هو درجة الثواب.

وقد جاء عن النبيّ ﷺ قوله: «أنا ابنُ الذَّبيحين»[(١)].

أقول: إنّ القرآن الكريم لم يذكر النبوّة بإزاء آدم كما ذكر ذلك بإزاء غيره من الأنبياء كإسماعيل الذبيح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم، ولكن الله خاطبه من وراء حجاب بدون واسطة وشرع له في ذلك الخطاب، أي أراد: أو كلامًا يسمعه العبد من غير ناطق مشاهد، كما سمع موسىٰ عليه الصلاة والسلام الكلام من الشجرة وليس بين الله وبين خلقه حجابٌ؛ لأنّه لو كان بينه وبين خلقه حجاب لكان مشابهًا لخلقه، ولكان غائبًا عن المحتجب منه، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. فأمره ونهاه، وأحلَّ له وحرّم عليه، بدون أن يرسل إليه رسولًا، لأنّ الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا هو كلّ معاني النبوّة. أمّا عن رسالته فالأمر مختلف فيه فالقول: إنّ رسالته كانت بعد ولادة البنون والبنات لم تلزم إليه الحاجة إلىٰ شرع الأحكام، فلابدَّ من رسول وهو كان متعيّنًا للرسالة حالَ صغر أولاده، وكان أيضًا مع حوّاء يحتاجان إلىٰ الأحكام، فلابدّ من رسول وهو كان متعيّنًا للرسالة.

---

(١) ورد لفظ نحو هذا اللفظ عند الحاكم في (المستدرك ٢/ ٥٥٤)،وعند ابن جرير في تفسيره (٢/ ٥٥٤)، وهو ضمن حديث قال فيه أعرابي: يارسول الله، خلفت البادية يابسة، هل كالمال وضاع العيال، فعد علي بما فاء الله عليكيا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله النبي ﷺ ولم ينكرعليه. وهذا الحديث قال عنه الذهبي في (التلخيص) (٩) سنده واه، وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٨): هذاحديث غريب جدا. وبين السيوطي علته في (الحاوي للفتاوى) (٢/ ٣٥) بقوله: فيإسنادهم لايعرف، فالحديث لايصح، والله أعلم.

رسالة آدم عليه السلام ومسألة الخطيئة والجنّة في قصّة الشجرة:

يختلف بعض الناس حول إن كان آدم عليه الصلاة والسلام نبيًا أو رسولًا، وقد أنكر بعض الجهّال المتعالمين أنّه كان رسولًا والعياذ بالله من ترك طريق الحق، ووجه قولهم: إنّ الله تعالىٰ حين خلق آدم لم يكن أحدٌ من الناس حتّىٰ يكون رسولًا إليهم، فلو صار رسولًا كان ذلك بعدما وُلد له بنون وبنات، وأنّه عصىٰ والعاصي لا يكون رسولًا، واعتمادهم علىٰ هذا: لأنّ الله تعالىٰ أخبر أنّه عصىٰ وغوىٰ، فقالوا هذا غير لائق بصفات الرّسل -عليهم الصلاة والسلام- **فإنّهم معصومون عن الكبائر بالإجماع، عند أهل البيت والمعتزلة والسلفية والإماميّة والزيديّة، والإسماعيليّة، والعلويّة والإباضيّة، والظاهريّة، وهذا هو الحقّ المبين.**

والردّ عليهم أنّ معصية ادم لم تكن كفرًا ولا كبيرة ولا صغيرةً فيها خِسّة نَفْسٍ ودناءة، إنما خطيئة صغيرة لا خِسّة فيها ولا دناءة.

قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

والرسول هو المصطفىٰ دون العامّة، فإنّه اصطفاه من بين العالمين، وهو صفة الرُّسل، ولأنّه جمع بينه وبين نوح في الاصطفاء، ونوح -صلوات الله عليه- من جملة الرسل الأنبياء.

مسألة العصيان والغوىٰ الشيطاني قبل النبوّة:

أمّا مسألة المعصية فإنّ الأمر معروف، فمن الأفعال التي يسير عليها البشر هو وجود الرجل والمرأة ليتزوّجا ويُنجبا الأبناء ومنهما تكون الحياة الدُّنيا؛ فقد أكل آدم عليه السلام من الشجرة المعنية رغم أنَّ ادم بلغه النهي عن الأكل من الشجرة

هو وزوجته بطريق الملك قبل أن يبعث إليه، الملك قال له إن ربك ينهاك عن هذه الشجرة وأحل لك ما سواها، وقد وسوس الشيطان لهما، لكن الشيطان لا يدخل صدر الأنبياء، طرد إبليس اللّعين من الجنّة وكان إنظاره إلىٰ يوم البعث المعلوم يترتّب عليه أنّ كلّ مَنْ يغوىٰ ويتبعه فعليه ما عليه لما عرف الناس التوبة أبدًا، فالعصيان الذي يعتبر كان مقدّرًا، فنقول: إنّ عصيانه كان عن نسيان، قال تعالىٰ: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، فكانت معصية ولم تكن كبيرة ولا صغيرة فيها خسّة ودناءة، وبه لا يخرج أن يكون صالحًا للرسالة فإنّهم قد يصدر منهم مثل هذا، قال تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

كما أنّ ذلك مقدّر في مبدأ الرسالة للبشرية؛ إذ كان ذلك قبل النبوّة المستلزمة للعصمة من المعصية، وهي من أسباب الهداية التي اهتدىٰ بها الإنسان من بعد. وقال تعالىٰ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

الجنّة التي كان فيها آدم وحوّاء:

اختلف بعض المفسِّرون حول الجنّة التي أسكن الله بها آدم وحوّاء وأخرجهما منها؛ أهي جنّة المأوىٰ التي وعد الله المتّقين يدخلونها في الآخرة؟ أم هي جنّة من جنّات الأرض؟

والجمهور علىٰ أنّها جنّة المأوىٰ أخذًا بظواهر الآيات والأحاديث كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وحديث مسلم عن أبي هريرة: «يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزدَلِف لهم الجنّة، فيأتون

آدم فيقولون: يا أبانا، أتفتح لنا الجنّة؟ فيقول: وهل أخرجكم من الجنّة إلاّ خطيئةُ أبيكم؟»[١].

وهذا علىٰ قول من يقول بأنّها جنّة المأوىٰ.

قال ابن كثير[٢]: وهذا فيه قوّة جيّدة ظاهرة في الدلالة علىٰ أنّها جنّة المأوىٰ.

وقال فريق من المعتزلة: إنّ الجنّة التي سكنها آدم وحوّاء كانت من جنّات الدُّنيا؛ لأنّه كُلِّف فيها ألا يأكل من الشجرة، ولأنّه نام فيها وأُخرج منها ودخل عليه إبليس فيها ووسوس إليه فغوىٰ آدم وعصىٰ أمر ربّه فيها، وهذا ينافي القول بأنّها جنّة المأوىٰ، قال إنما هي بستان بأرض اليمن.

أقول: ونحن نذهب إلىٰ القول بأن الجنة التي أخرج منها آدم عليه السلام هي جنّة المأوىٰ والله العالم.

إثبات النبوّة:

كلّ من ادّعىٰ النبوّة وأظهر المعجزة تصديقًا لدعواه فهو نبيّ[٣].

كيف تأتي النبوّة؟

النبوّة والرسالة لا يمكن لأحد أن يكتسب إحداهما عن طريق المجاهدة أو العبادة والتقوىٰ؛ لأنّهما فضل وهِبة من الله تعالىٰ لمن يختصّ ويشاء من عباده، كما أنّها لا تكون بالوراثة، فهما من الله وحده ولا دخل للخلق فيهما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه حديث رقم (٢٩٣).

(٢) قصص الانبياء ١/ ٣٨.

(٣) شرح المواقف، ص ٥٥٧، شرح المقاصد: ٢/ ١٧٣، المسامرة، ص ٢٤٠، الدواني على العقائد العضدية: ٢/ ٢٧٧.

بأيّ وجه من الوجوه[١] في اختيار أو غيره.

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: ٧٥].

مهمّة الأنبياء:

الأنبياء والرُّسل هُداة البشر إلىٰ الصراط المستقيم، وأهل المبادئ التهذيبيّة التي عالجت المشاكل المادّية والروحيّة، فهم يهدون الناس ويصلحون المجتمع حينما يظهر الفساد ويعمّ الظلم، فيدعون إلىٰ عبادة الله وحده وألا يُشرَك به شيء، ويبشّرون الناس بالجنّة ويدعونهم إلىٰ التوحيد ومعرفة الخالق، ويُنذرون بالنار أهل الفساد والكفر فهم يتلقّون الوحي والعلم والدِّين علىٰ الوجه والكيفيّة التي يختارها الله تعالىٰ، ثمّ يشرحون تعاليم الدين ويبيّنون للناس ما أُبهم عليهم منها ويعقلون دين الله وينشرونه بين الناس، وقد أرسلهم الله تعالىٰ إلىٰ من شاء، فكّل أُمّة لها رسول، وبذلك لا يكون علىٰ الناس حجّة.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤].

---

(١) لوامع الأنوار: ٢/ ٢٦٧، الباجوري على الجوهرة: ٢/ ٣٠، المواقف وشرحه للجرجاني، ص ٥٤٥، شرح المقاصد: ٢/ ١٧٣.

القتل لمن قتل النبيّ:

اعلم أنّ جميع الأنبياء والرسل يشتركون في قدر أمرٍ وهو النبوّة والرسالة، ولذا اتّفق علماء الإسلام جميعًا علىٰ كفر مَنْ كذّب نبيًا معلوم النبوّة من الدين بالضرورة، وكذا مَنْ سبَّ نبيًا أو انتقصه، ويُقْتَل بدلالة القرآن الكريم: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٤٩-١٥١].

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

وبذلك علمنا مدىٰ أهمّية الرُّسل بالنسبة لمقامهم عند الله ولعلمهم في أُممهم، ومن أجل هذا رأىٰ العلماء أنّ الرسل يجب لهم أن يتّصفوا بصفات معيّنة لا يُقبَل انتفاء صفة منها عن أيّ رسول، وقد انحصرت هذه الصفات في خمس علىٰ جهة العموم هي:

١- العصمة.

٢- التبليغ.

٣- الفطانة.

٤- الصدق.

٥- الذكورة.

فيجب اتّصاف الرسل بهذه الصفات الخمسة وما يلحقها من تفرّعات، ويستحيل عليهم أضدادها كاستحالة الأمراض المنفّرة عليهم التي تمنعهم من التبليغ.

وإليك تفصيل الكلام في ذلك في فصل مستلزمات النبوّة.

۞ مستلزمات الرُّسل والأنبياء ۞

أ- صفات الأنبياء:

الصفة الأُولىٰ - العصمة أو الإمامة:

العصمة لغةً: الحفظ.

وهي حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبّس بمعصية كبيرة أو صغير فيها خسّة ودناءة، ويستحيل عليهم ضدّها وهي الخيانة، فهم محفوظون ظاهرًا من الزنا وشرب الخمر والسرقة والكذب وأمثال ذلك من المنهيّات والمستقبحات، كما أنّهم محفوظون باطنًا من الحسد والكبر والرياء وأمثال ذلك من المنهيّات الباطنة، والدليل علىٰ وجوب اتّصافهم بالأمانة أنّهم لو خانوا بفعل المعصية لكان أتباعهم اتّبعوهم بفعل المعصية التي فعلها الرسول لأنّ أتباع الرسل مأمورون باتّباع الرسل في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم من غير تفصيل.

إذن فالأنبياء إذن معصومون من الله تعالىٰ عن الوقوع في المعصية سواء أكانت هذه المعصية صغيرة أو كبيرة.

الصفة الثانية - التبليغ:

والتبليغ: هو أن يوصلوا كلّ ما أمر الله به أن يوصل بالتبليغ إلىٰ الْمُرسَل إليهم[1]، ويستحيل عليهم ضدّه وهو كتمان شيء ممّا أُمروا بتبليغه، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

(١) الدردير على الخريدة، ص ١٠٨.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

الصفة الثالثة – الفطانة:

وهي حدّة العقل وذكاؤه وقوّة الفهم وسداد الرأي وسرعة البديهة، ويكون النبيّ الرسول أو النبيّ قويّ القريحة حضر الذهن لإلزام خصومه وإفحام المعاندين والمكابرين وبذلك تكون بيده الحجّة، قال تعالىٰ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ [سورة ص: ٢٠].

الصفة الرابعة – الصدق:

يجب الاعتقاد بصدق الرسل عليهم الصلاة والسلام وبأنّه يستحيل عليهم الكذب في العاديّات والشرعيات ويستحيل عليهم سبْق اللسان أيضًا في العاديّات والشرعيّات.

فأمّا وجوب صدقهم واستحالة كذبهم فيما يبلّغون عن الله تعالىٰ فدليله: أنّهم لو كذبوا لاتفعت ثقة الناس بهم ولَما أخذوا منه شيئًا، فقد ثبت صدقهم فيما يبلّغون عنه تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

الصفة الخامسة – الذكورة:

اتّفق العلماء علىٰ أنّ الذكورة شرط في النبيّ، فلا يجوز أن تكون المرأة نبيّة، بل إنّ بعضهم[1] نقل الإجماع علىٰ هذا القول.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩].

---

(١) نقل الإجماع على عدم نبوة النساء. الكرماسي في شرح البخاري، حاشية المرجاني: ١/ ٩، وحكى الإجماع على عدم نبوة مريم البيضاوي وغيره، المسامرة، ص ٢٣١، البيضاوي، ص ٦٨.

والنبوّة والرسالة تقتضي: الاشتهار بالدعوة والتردّد إلىٰ مجامع الناس وإظهار المعجزة ولزوم الاقتداء، والأُنوثة توجب الستر، ففيها تنافٍ.

أمّا بعض أهل الظاهر وغيرهم فلم يشترطوا الذكورة في النبيّ وقالوا بنبوّة مريم مستدلّين بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ [آل عمران: ٤٢] لكن لم يقولوا برسالتها، واستدلّ بعضهم بإرسال الروح القدس جبريل إليها بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧].

وقالوا أيضًا بنبوّة أُمّ موسىٰ بوحي الله تعالىٰ إليها بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] وهو بعيد من الصواب.

وردّ الجمهور علىٰ هذا: بأنّ تبشير مريم وإرسال جبرئيل إليها لم يكن وحيًا بشرع، إذ لا دلالة عليه والآيات المذكورة إلىٰ أُمّ موسىٰ لا يُراد بها إلاّ معنىٰ الإلهام.

ب- الوحي:

الوحي هو االصلة ولإعلام بين الله تعالىٰ لمن ينبؤه بأمر مًا، فيوصل الله تعالىٰ إليهم ما يريد إيصاله من علم وحكم وأمر ونهي وإرشاد وغير ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

أصل معنىٰ الوحي:

معنىٰ الوحي يطلق علىٰ التفهيم وعلىٰ الإعلام بالشيء في خفاء، سواء كان هذا التفهّم والإعلام بكلام أم بكتابة، أم بإشارة أم بإلهام أم برؤيا.

ومن الوحي بالإشارة قوله تعالىٰ في شأن زكريّا عليه الصلاة والسلام: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

ومن الوحي بالإلهام قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧].

ومعنىٰ الوحي في اصطلاح أهل الشرع: كلام الله المنزل علىٰ نبيّ من أنبيائه.

أنواع الوحي:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾ [الشورىٰ: ٥١].

الله تعالىٰ حينما يكلِّم نبيًا من أنبيائه بوحي فإنّما يكلّمه بأحد الأوجه الآتية:

١- وحيًا: أي إمّا عن طريق الوحي وهو:

أ- الإلهام والقذف في القلب؛ كما أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ أُمّ موسىٰ أن أرضعيه، ومنه قوله ﷺ: «إنّ روح القدس نفَثَ في رُوْعي[1] إنّ نفسًا لن تموت حتّىٰ تستكملَ أجلها وتستوعب رزقها» وهذا الإلهام في اليقظة.

ب- **الرؤيا في المنام**: كما أوحىٰ الله إلىٰ إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، قال تعالىٰ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]، والثابت أنّه وحي كان في المنام.

٢- أو (من وراء حجاب) قال تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]؛ أي: وإمّا علىٰ أن يسمعه يزيل عنه الحجاب المعنوي فيسمع كما سمع موسىٰ الصوت من الشجرة، وكذا جبريل الذي يسمع كلام الله الذاتيّ الأزليّ.

---

(١) الروع: «بضم الراء» العقل والقلب. والحديث أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغيربرقم (١/ ٤٢٠) برقم ٢٠٨٥.

٣- (أو يرسل رسولًا) أي: وإمّا علىٰ أن يرسل إليه رسولًا من الملائكة، فيبلغ ذلك الملك الوحي إلىٰ الرسول البشري ورسول الله إلىٰ الملائكة هو جبرائيل عليه السلام[(١)] وقد يأتي بالوحي غير جبريل من الملائكة.

فقد ورد مجيء جبريل إلىٰ رسول الله ﷺ علىٰ أساليب مختلفة، هي:

أ- أن يأتي إلىٰ النبيّ ﷺ علىٰ صورته الحقيقيّة الملكية وهي مرّتين في الأرض ومرّة في السماء.

ب- كان يأتي النبيّ علىٰ صورة رجل كما جاء في حديث الإيمان والإسلام والإحسان.

ج- أن يأتي النبيّ ﷺ خفيةً دون أن يراه أحد فيظهر عليه أثر التغيّر والانفعال.

والرسول ﷺ يصف حالته عند نزول الوحي فيقول -كما في صحيح البخاري-: «**أحيانًا يأتيني مثل صَلْصَلَة الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فيفصِم عنّي وقد وعيتُ عنه ما قال**»[(٢)].

قال الخطابي: والمراد أنّه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتىٰ يفهمه بعد ذلك.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ١٨٦، تفسير القرطبي: ٨/ ٥٨٧٢، روح المعاني للآلوسي: ٢٥/ ٥٤، زاد المعاد: ١/ ١٨، الإتقان: ١/ ٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدءالوحي،باب (٢) أحيانايأتيني مثل صلصلة الجرس، حديث رقم (٢).

والحكمة في تقدّمه: أن يفرغ سمعه للوحي، فلا يبقىٰ في مكان لغيره. وفي الصحيح كما تقدّم آنفًا وقيل: إنّ هذه الحالة أشدّ حالات الوحي عليه.

قيل: إنّه إنّما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية وعيد أو تهديد(١).



(١) زاد المعاد: ١/ ١٨؛ الإتقان: ١/ ٤٤؛ وإرشاد الساري شرح صحيح البخاري: ١/ ٥٨، والنووي على صحيح مسلم: ٩/ ١٨٣.

۞ الجائز في حقّ الرسل والأنبياء ۞

والجائز عليهم هو كلّ الأعراض البشرية التي لا تؤدّي إلىٰ نقص في مراتبهم ومكانتهم، فالرسل من البشر يجوز عليهم كلُّ ما يجوز علىٰ البشر من الأُمور الغريزيّة والعاطفيّة في حدود مكانة رسالتهم وما يتّفق مع منزلتهم كرُسل من الله إلىٰ عباده، وتكون هذه الأفعال لهم هي مثال للمؤمنين برسالتهم فهم بذلك يهذّبون النفوس ويؤدّبون البشر ويحسّنون الخلق، فيجوز عليهم الأكل والشرب والزواج، كما أنّهم يرضون ويفرحون ويغضبون ويستحيون ويخافون الخوف الطبيعي، كما يجوز أن يمرضوا بالأمراض التي لا تعجزهم وتمنعهم هذه الأعراض من نشر الدين، فهم ينقلون إلىٰ البشر مثلهم آداب الطعام والحديث والحلم عند الغضب والصبر عند البلاء، ويموتون بسكرات الموت وتُقبَض أرواحهم كالبشر.

أمّا السهو والنسيان كنسيان آدم في أكله من الشجرة وسهو الرسول ﷺ في الصلاة فقد يحصل منهم، فلا يجوز عليهم إلاّ فيما يتّصل بأمر التشريع فقط لتعليم الأُمّة من التشريع فيما يحدث للعام من البشر دون خصوصية الأنبياء،ووجه الاستدلال أنّهم كان لهم من المصائب ما يقودهم إلىٰ الصبر والتضرّع إلىٰ الله خفيةً، فهذا أيّوب قد مسّه الضرّ فنادىٰ ربّه، وهذا إسماعيل وإدريس وذو الكفل كانوا من الصابرين، وهذا ذو النون إذ ذهب في كرب فنادىٰ ربّه ونجّاه الله من الكرب العظيم، وزكريا إذ دعا ربّه ليرزقه الأولاد ويصلح له زوجه، وهذا نبيّنا وحبيبنا محمّد ﷺ أُوذي من قومه وصبر حتّىٰ نال مكانًا عليًا.

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا

وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٩٠].

عصمة الأنبياء والرُّسل

وعقيدتنا أنّ العصمة للأنبياء والرُّسل من الكفر محضٌ لا خلاف فيه فهم معصومون مطهّرون من كلّ كفر وكبيرة وصغيرة فيها خسّة ودناءة قبل البعثة وبعدها، وأنّهم موصوفون بالكمال والتمام وهم أعلم خلق الله بدين الله ﷻ، وحياتهم في قبورهم ليست كأيّ حياة فهم أحياء في قبورهم يصلّون.

قال أهل البيت والمعتزلة والإماميّة، والزيديّة والإسماعيليّة والعلويّة: لا تجوز الكبيرة علىٰ الأنبياء لا قبل البعثة ولا بعدها، وقد جوَّز جماعة من المعتزلة والزيديّة في غير تبليغ الرسالة الصغائر إمّا علىٰ سبيل السهو أو علىٰ سبيل التأويل.

وأمّا الإماميّة والإسماعيليّة والعلويّة فقالوا: إنّه تجب عصمتهم من الذنوب كلّها صغيرها وكبيرها قبل البعثة وبعدها[١].

(١) شرح الأصول الخمسة، ص ٥٧٣، أوائل المقالات، ص ٦٢، اعتقادات الصدوق، ص ٩٦، تاج العقائد، ص ٤٨، حقائق المعرفة، ص ٤٢٩.

وقال بعض الأشاعرة وأهل الحديث وأهل الظاهر والإباضيّة: القول بعصمة الأنبياء عن كلّ الذنوب بعد النبوّة.

وقال قسم من الأشاعرة وأهل الحديث: إنّهم معصومون عن كلّ الذنوب بعد النبوّة عن الكبائر دون الصغائر التي لا خسّة فيها ولا دناءة ما عدا السهو والخطأ، وأجازوا عليهم الذنوب الصغيرة التي لا خسة فيها ولا دناءة قبل النبوّة إلاّ الكفر والكذب[1].

وقالت الإباضيّة: إنّهم معصومون بعد النبوّة من الكبائر مطلقًا ومن خسيس الصغائر[2].

التفاضل بين الأنبياء:

وبعض الأنبياء أفضل والرسل منهم أفضل، ولا خلاف في أفضليّة الرسالة علىٰ النبوة لأنّها تلَقٍّ وتبليغ والرّسل متفاوتون فيما بينهم، وإنّ سادة الأنبياء الخمسة أصحاب الشرائع أُولو العزم: نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمّد صلوات الله عليهم أجمعين، والذي لا خلاف فيه أنّ سيّدنا ونبيّنا محمّدًا أفضل الأنبياء والرُّسل، وهو الذي جاء بالحقّ وصدَّق المرسلين، وأنّ الله لم يخلق أفضل منه، وأنّه أحبّ الخلق إلىٰ الله، وأقربهم إليه، وأنّه قد كتب اسمه تحت عرشه قبل خلق آدم عليه السلام، وأنّه صاحب الشفاعة العظمىٰ، وخاتم النبيّين صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) أصول الدين الغزنوي، ص ١٣٨، المواقف الإيجي، ص ٣٦٥.

(٢) مشارق أنوار العقول، ص ٢٩٦.

۞ الكتب السماويّة ۞

اعلم أنّه لابدّ من الإيمان والاعتقاد الجازم بأنّ الله تعالىٰ أنزل علىٰ رسله كتبًا فيها أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وما شاء الله تعالىٰ، وتشكّل هذه الكتب أساس الإيمان لدىٰ كلّ مؤمن يهوديًا كان أو مسيحيًا أو مسلمًا، وكلّ مؤمن يعدُّ كتابه تسجيلًا مادّيًا لوحي إلهي، وقد يكون هذا الكتاب منزلًا بشكل مباشر كما يتعلّق الأمر بإبراهيم أو بموسىٰ فقد تلقّيا الوصايا من الله بإلهام إلهيّ يقذفه الله في قلوبهم، وقد لا يكون منزلًا بشكل غير مباشر كما هو الحال فيما يختصّ بالمسيح أو بسيّدنا محمّد ﷺ؛ فقد أعلن المسيح أنّه يتحدّث باسم الأب، وليس لكلّ نبيّ كتاب يختصّ به، إنما هي مائة وأربعة كتب، فأفضل كتاب أنزله الله تعالىٰ هو القرءان وهو سيد الكتب، هو أفضل الكتب السماوية، ونحن أهل القرءان، أمة محمد يقال لهم أهل القران، الكتاب العزيز، أما إذا قيل أهل الكتاب لَمَّا يذكر في القران يا أهل الكتاب معناه يا يهود ويا نصارىٰ، اليهود والنصارىٰ الله تعالىٰ سماهم أهل الكتاب وهم إلىٰ الآن لم يزالوا ينتسبون بالقول إلىٰ التوراة والإنجيل، لكنهم خالفوا التوراة والإنجيل ولم يتركوا الاسم، فهؤلاء لأنهم ينتسبون إلىٰ التوراة والإنجيل يقال لهم أهل الكتاب لا لأنهم متمسكون بالإنجيل الحقيقي الأصلي والتوراة الحقيقية، لا يتبعون إنما تمسكوا بالاسم لذلك الله سماهم أهل الكتاب. وسيّدنا محمّد ﷺ قد بلّغ الرسالة التي نقلها إليه جبرائيل القرآن الكريم المنزل علىٰ محمّد ﷺ، ويليه في الفضل التوراة المنزلة علىٰ موسىٰ عليه السلام، ثمّ الإنجيل الذي أُنزل علىٰ عيسىٰ عليه السلام، ثمّ الزبور وهو كتاب داود عليه السلام، كما يؤمن بأنّ الله أنزل صحفًا مذكورةً في القرآن كصحف إبراهيم وموسىٰ والقرآن الذي أتىٰ بعد هذه الكتب

والصحف بقرون طويلة يتناول أمورًا جاءت في التوراة والإنجيل، ويوصي القرآن كلّ مسلم بالإيمان بالكتب السابقة، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

ومن هذا كلّه فإنّه يجب الإيمان بأنّ من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل قد حصل فيها تحريف وتغيير وتبديل، وأمّا القرآن الكريم فهو كتابٌ محفوظٌ لم يُغيَّر فيه حرف واحد؛ وذلك أنّ الكتب السابقة وكّلَ حفظها إلىٰ أهلها فلم يحفظوها ولم يشأ الله أن تُحفَظ من التحريف اللفظي، وأمّا القرآن الكريم فإنّ الله تعالىٰ هو الذي تولّىٰ حفظه من تحريف ألفاظه؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].



۞ المعجزة ۞

المعجزة لغةً: مأخوذة من العجز ضدّ القدرة(١).

واصطلاحًا: هي عبارة عمّا قُصد به إظهار صدق مَن ادّعىٰ أنّه رسول الله(٢).

فالمعجزة دليل حسّي معنوي يعجز جميع البشر الموجودون عند إرسال الرسول عن الإتيان بمثله.

والله أجرىٰ المعجزة علىٰ يد النبيّ ليثبت للمرسل إليهم أنّه تعالىٰ هو الذي أرسل هذا الرسول إليهم، وأنّهم مكلّفون باتّباعه والعمل بما جاء به من دين وشرع.

وقد عرّف الفقهاء المعجزة بتعاريف عدّة، ولكنّها تؤكّد المعنىٰ الواحد للمعجزة؛ فهي أمرٌ يُظهره الله بخلاف العادة في دار التكليف علىٰ يد مدّعي النبوّة عند تحدّي المنكرين علىٰ وجه يعجز المنكرون عن الإتيان بمثله(٣).

وقد اشترط المحقّقون فيها الشروط الآتية(٤).

---

(١) القاموس المحيط: باب الزين فصل العين؛ شرح المقاصد: ٢/ ١٧٥.

(٢) المواقف وشرحه، ص ٥٤٧.

(٣) اصول الدين للبغدادي، ص ١٧٠، الفصول، ص ٧١.

(٤) اليواقيت والجواهر: ١/ ١٥٦-١٦١، شواهد الحق للتهامي، الرسالة القشيرية، ص١٧٠، رسالة التوحيد، ص ٧٣-٧٤، الباجوري على الجوهرة: ٢/ ٣٥-٣٦، المواقف وشرحه، ص ٥٤٧-٥٤٨، المقاصد وشرحه: ٢/ ١٧٥-١٧٧، العقائد النسفية، ص ١٣٣-١٣٤، تجريد الاعتقاد، ص٤٧٥، الخلاصة النافعة، ص ١٦٠، المغني كتاب النبؤات، تاج العقائد، ص ٩٧، مشارق أنوار العقول، ص ٢٨٦-٢٨٩، حقائق المعرفة، ص ٤٢١.

وهذه الشروط قد اتّفق جمع من أهل العرف والعلم علىٰ:

١- أن تكون أمرًا من الله تعالىٰ، ليصدق مدّعي النبوّة، وتشمل:

أ- **القول**: كالقرآن الكريم.

ب- **الفعل**: كنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ.

ج- **الترك**: كعدم إحراق النار لسيّدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

٢- أن تكون خارقة للعادة التي اعتاد عليها الناس، واستمرّوا عليها مرّة بعد أُخرىٰ.

وهذا الشرط يفيد أنّ غير الخارق لا يكون معجزة، كما إذا قال: آية صدق طلوع الشمس من حيث تطلع، وغروبها من حيث تغرب.

٣- أن تكون علىٰ يد مدّعي النبوّة أو الرسالة ليعلم أنّه تصديق له؛ أي: أنّ صاحبها يقوم بدعوة إلىٰ دين الحقّ والعدل وهو الإسلام الذي فيه الإسعاد في الدُّنيا وحسن المنازل في الآخرة وعندها لا تدخل في المعجزة الأُمور التالية:

أ- **الإهانة**: وهي ما يظهر علىٰ يد كاذب فاسق مدّعٍ للنبوّة كما قطع لمسيلمة الكذّاب حين بصق في عين أعور لتبرأ، فعميت الصحيحة!

ب- **الاستدراج**: وهي ما يظهر علىٰ يد فاسق خديعةً ومكرًا؛ أي: يستدرج الناس لزيادة غيّهم حتّىٰ يأتيهم أمر الله وهم غافلون، كما يحدث لمدّعي الألوهيّة كالمسيح الدجّال.

ج- **المعونة**: وهو ما يظهر علىٰ يد العوام تخليصًا من شدّة.

د- **الكرامة**: وهي ما يظهر علىٰ يد صالح تقيّ[١].

(١) سوف نتحدث عن الكرامة في فصل مستقل.

٤- أن لا تكون متقدّمة علىٰ دعوىٰ النبوّة، بل مقارنة لها أو متأخّرة عنها بزمن يسير يُعتاد مثله.

إذن فالمعجزة شهادة علىٰ صدق المدّعي والشهادة لا تتقدّم الدعوىٰ، فخرج بذلك:

الإرهاص: «مشتقّ من أرهصت الحائط؛ أي: أسّسته»: وهو كان قبل النبوّة من الخوارق تأسيسًا لها كتظليل الغمام لنبيّنا محمّد ﷺ قبل بعثته، وشقّ صدره، وككلام عيسىٰ عليه الصلاة والسلام في المهد.

٥- أن تكون موافقة لدعوىٰ النبوّة.

فخرج بذلك المخالف لها، كما ورد في آية انفلاق البحر، وانفلاق الجبل.

٦- أن لا تكون مكذّبة للمدّعي، فلو قال إنسان: معجزتي نطق هذا الجماد فنطق الجماد مكذّبًا له فإنّ تكذيبه يعتبر دليلًا علىٰ كذب المدّعي.

٧- أن تتعذّر معارضته بالمثل والسحر.

وخرج بذلك:

السحر: وهو قواعد يقتدر بها علىٰ أفعال غريبة بالنظر لمن جهل قواعده ويمكن اكتسابه بالتعلّم والممارسة.

الكهانة: وهي التنبؤ بالمغيَّبات لا عن دليل.

الشعوذة: وهي خفّة اليد بوساطتها يرىٰ الشخص أشياء علىٰ أنّها حقيقة وليست كذلك في الواقع كما يقع للحواة «جمع حاوي».

٨- أن لا تكون في زمان نقض العادة وذلك كزمن طلوع الشمس من مغربها، وتكلّم الدابّة، وظهور المسيح الدجّال؛ لأنّ كلّ ما يظهر عند ظهور أشراط الساعة وانتهاء التكاليف لا يشهد بصدق الدعوىٰ؛ لكونه زمان نقض العادات.



۞ إثبات نبوّة سيّدنا محمّد ﷺ ۞

تواتر عن النبيّ ﷺ أنّه ادّعىٰ النبوّة بلا خلاف من أحد تواترًا ألحقه بالعيان والمشاهدة، وقد تقدّم أنّ إثبات النبوّة لا يكون إلاّ باجتماع أمرين:

أوّلهما: ادّعاء النبوّة.

وثانيهما: إظهار المعجزة.

وثبت الأوّل في ادّعاء النبوّة.

أمّا إظهار المعجزة؛ فقد ظهرت المعجزات علىٰ سيّدنا محمّد ﷺ، وإليك بعض معجزاته ﷺ التي أيّده الله بها، فهي كثيرة منها ما هو متواتر كالقرآن، ومنها ما هو ليس متواترًا كتسبيح الحصىٰ في كفّه ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ.

فمَنْ أنكر المتواتر من المعجزات كان كافرًا، ومَنْ أنكر الصحيح المشهور منها كان فاسقًا.

وتنقسم معجزاته ﷺ عند بعضهم إلىٰ قسمين:

١- معنويّة كالقرآن الكريم.

٢- حسّية كنبع الماء وغيرها من المعجزات التي سيتمّ عرضها.

وقد أيّده الله تعالىٰ بمعجزات عقليّة ليدركها أصحاب العقول السليمة فيقنعوا وينقادوا، كما أيّده بالمعجزات الحسّية لتطمئن نفس المتردّد، وتنقطع حجّة الجاحد، وبهذا لا يكون لمكلّف عذر أيّا كان إدراكه.

فقد بعث الله محمّدًا ﷺ رسولًا ونبيًا، بشيرًا ونذيرًا، ومعجزاته أظهر من ذلك كانشقاق القمر بإشارته، ومجيء الشجرة من موضعها إليه عند إشارته إليها

وعودها إلىٰ مكانها، وتسليم الحجر عليه، وتكليم الشجرة له، وتسبيح الحصىٰ في يده، ونبع الماء من بين أصابعه، وحنين الجذع، وشكاية الناقة إليه، وإخبار الشاة المصليَّة إليه عن السمّ الذي كان فيها، وإبراء المريض بلمسة، وإشباعه الخلقَ الكثير من الطعام القليل، وكذا شرب الماء الكثير من البشر من الماء القليل، والسحاب الذي كان يظلّه حالَ سفره، وما كان من خاتم النبوّة بين كتفيه، وأنّه كان أطيب الناس رائحةً من ريح المسك، وإخباره عن الغيوب في الماضي والمستقبل فكان كما أخبر، وبشارة عيسىٰ عليه السلام ببعثه، ونزول الملائكة عليه، وغير ذلك ممّا لا يُحصىٰ ولا يُعدُّ.

أمّا النوع الثاني من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم نوع خالد خلود الدهر، ماثل كلَّ حين، وهو الشاهد الحقّ يوم القيامة وهو اليوم بين أيدينا وهو محفوظ من الله من التحريف اللفظيّ؛ فإنّ العرب بأسرهم مع فصاحتهم وبلاغتهم وتمييزهم عجزوا عن الإتيان بمثله أو بسورة من مثله، ولعمر الله إنّه المعجزة الكبرىٰ.

معجزة القرآن:

القرآن هو المعجزة الأساسيّة التي اعتمد عليها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في إثبات رسالته وإعجازه قومَه، وهو معجزة عقليّة معنويّة باقية إلىٰ يوم القيامة، والقرآن هو أحد الكتب السماويّة ولكنّه آخرها وأفضلها وبينه وبين الكتب الأُخرىٰ فوارق لابدّ من توضيحها:

١- الكتب التي نزلت من قبل ضاعت نسخها الأصليّة. أمّا القرآن فهو محفوظٌ بلفظه وكلماته التي أنزلها الله تعالىٰ علىٰ نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ووصل إلينا بشكل متواتر.

٢- القرآن لم يختلط به شيءٌ حتّىٰ من كلام الرسول ﷺ، ولقد منع النبيّ من كتابة الحديث في بداية نزول القرآن لئلاّ يختلط الحديث بالقرآن، وكتب الحديث والفقه والتفسير مستقلّة تمامًا عن القرآن كما هو معروف.

٣- القرآن كلّه صلاح ومنزّه عن الفاحشة وليس فيه ما يخالف العقل.

وغير ذلك من الميزات التي لأجلها أمر الناس باتّباع القرآن وحده دون سواه.

معجزة الإسراء والمعراج:

قصّة الإسراء والمعراج من أعظم المعجزات التي كانت للنبيّ ﷺ، وهذه المعجزة من أهمّ دعائم الرسالة المحمّدية فيها حبيبنا ﷺ رأىٰ من آيات الله الكبرىٰ، وفُرضت الصلاة، واشتدّ أمر الرسالة وانكشف الأمر.

وقصّة الإسراء والمعراج هي من أعلىٰ درجات الوحي الإلهي إلىٰ نبيّنا ﷺ.

والإسراء من السرىٰ: كالهدىٰ وهو سير عامّة الليل، ويذكر: سرىٰ يسري سرىٰ ومسري وسرية، ويُضمّ، وأسرىٰ وسرىٰ به وأسراه .. وأسرىٰ بعبده ليلًا تأكيد أو معناه سيّره[1].

والمعراج هو من: عرج عروجًا ومعرجًا.

أي: ارتقىٰ .. والمعراج والعرج هو: السُّلّم والمصعد[2].

وليعلم أنّ الإسراء والمعراج حقّ ولا خلاف في صحّتهما؛ إذ هو بما جاء بالإلزام في النصّ القرآني في سورتي الإسراء والنجم علىٰ سبيل الإجمال، وجاء شرحه وتفصيله في أحاديث كثيرة صحيحة متواترة ومشهورة عن جماعة من

(١) القاموس المحيط: ٤/ ٣٤١ باب الياء فصل السين.

(٢) المصدر السابق نفسه: ١/ ١٩٩.

خيار الصحابة، وإنّما الخلاف في كيفيّته، والصحيح أنّ الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة.

فاختلف العلماء علىٰ أقوال:

الأوّل: وهو القول الصحيح الذي عليه الجمهور أنّه كان بالروح والجسد معًا، يقظةً لا منامًا من مكّة إلىٰ بيت المقدس إلىٰ السماوات العُلىٰ إلىٰ سدرة المنتهىٰ حيث شاء العليّ الأعلىٰ.

الثاني: إنّ الإسراء كان بالجسد يقظةً إلىٰ بيت المقدس وإلىٰ السماء بالروح، وهو قول ذهب إلىٰه طائفة بالدليل أنّ الإسراء كان محدّدًا سيرًا إلىٰ المسجد الأقصىٰ يقظةً وإلىٰ السماء بالروح.

الثالث: إنّ الإسراء كان بالروح وإنّه رؤيا منام مع اتّفاقهم أنّ رؤيا الأنبياء وحيٌ.

عقيدتنا وقولنا في أمر الإسراء والمعراج أنّه كان بالروح والجسد معًا يقظةً لا منامًا، وقد نطق به القرآن ولا يدفعه مسلم، وما قاله بعضهم: إنّ ذلك كان في المنام فظاهر البطلان؛ وهو لا ما ليتّفق مع القول الأوّل فنحن نجوّزه ونقول: نحن الآن في زمننا هذا علمنا مَنْ يصعد إلىٰ الفضاء بالمعدّات في يقظته لا في منامه وبالطائرات يقظةً ويعود إلىٰ الأرض، والأمر واضح في قصّة الإسراء أنّه ﷺ أُسري به بجسده، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ . . . [الإسراء: ١]، والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أنّ الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، وهذا هو المعروف عند الإطلاق وهو الصحيح فيكون الإسراء بهذا المجموع، وهذا لا يمتنع عقلًا ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وقد قلت: إنّ البشر الآن في زماننا

هذا يصعدون إلىٰ الفضاء، فكيف بالنبيّ ﷺ الذي كان قد صعد بأمر إلهيّ، وعلينا أن نعلم أنّ عقولنا لا تصل إلىٰ العلم بكل حقائق ما حدث، وعلينا أن نؤمن بصحّته دون البحث في كيفيّاته الدقيقة، فما أُوتينا من العلم إلاّ قليلًا، ووصل إلىٰ سدرة المنتهىٰ.

وعقيدنا أنّه لم يصل إلىٰ العرش وأنّ سدرة المنتهىٰ هي الموضع الذي ينتهي إليه علم الخلق فلا يجاوزه، والله أعلم.

ما اختصّ به محمّدًا ﷺ:

لقد اختصّ الله نبيّنا محمّدًا ﷺ دون غيره من الرسل بأُمور كثيرة وردت الأدلّة الصحيحة بها، نوجز أهمّها:

١- عموم رسالته.

٢- خاتم النبيّين والمرسلين.

٣- نصره الله بالرعب وبينه وبين عدوّه مسيرة شهر.

٤- جعل الله له ولأُمّته الأرض مسجدًا وطهورًا.

٥- أحلَّ الله الغنائم له ولأُمّته.

٦- أعطاه الله الشفاعة العظمىٰ[1].

٧- جعل من أُمّته خير أُمّة أُخرجت للناس.

٨- جعله الله تعالىٰ أفضل المرسلين.

٩- وهو ﷺ صاحب المقام المحمود والحوض المورود.

---

(١) سنتحدث عن الشفاعة في هذا الفصل.

۞ كتابة النبيّ الأمّيّ ﷺ ۞

كثر الكلام حول كتابة رسول الله ﷺ، وظلّ الأمر معلّقًا بين الحقيقة الضائعة بين اختلاف أقوال المسلمين ودسائس المستشرقين وتجنّب العقلانيين، رغم أنّ الأمر سهل ولا يحتاج إلىٰ إشعار، فنحن نعلم مَنْ هو محمّد عليه الصلاة والسلام المعلِّم والمعلَّم صاحب الرسالة؛ أي: ولا شكّ في ذلك أنّ محمّدًا هو الإنسان الكامل، ولعلّ هذه الكلمة تثير بعض الأوهام والجدل، ولكنّنا لابدّ أن نأخذها بكلّ معانيها دون الخوض في تفسيرها، وعلينا أن نؤمن بكلّ ما تحمله في معانيها حول هذا الإنسان الكامل،فهو بذلك مميّز عن غيره وليس فيه نقص يقدح فيه، وهذا من شروط النبوّة والرسالة.

إنّ هذه المسألة والتي كان للمستشرقين فيها قول حول الأُمّية وليس كان هدفهم هو الإقرار بنبوّة سيّد الخلق بل علىٰ العكس التقليل من شأن معجزاته عليه الصلاة والسلام، وقد اختلف في معنىٰ الأُمّية لغةً واصطلاحًا علىٰ هذا النحو:

١- **الأُمّي**: الذي لا يكتب[١].

قال أبو عبيد وابن قتيبة وإبراهيم النخعي: ولهذا فسّر بعضهم الأُمّي بمَنْ لا يحسن أن يكتب ولكنّه يعرف الكتابة؛ لأنّه يقرأ[٢].

---

(١) غريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٣٨٤، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس: ١/ ٢٨، وتفسير القرطبي: ١٨/ ٩.

(٢) تفسير الشوكاني: ١/ ١٠٦.

٢- **وقيل الأُمّي**: الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب[١].

وقد اختلف المفسّرون واللّغويّون في سبب تسمية الأُمّي وأصل الاشتقاق علىٰ عدّة آراء:

١- إنّ هذا المعنىٰ مأخوذ من الأُمّ وهي الوالدة.

٢- إنّه مأخوذ من «أُمّة» وسقطت التاء في النسبة كما سقطت في المكّي والمدني[٢].

ثمّ اختلفوا في المراد بالأُمّة المنسوب إليها، قيل: الأُمّيون: هم العرب وسُمّوا أُميّين؛ لأنّه لم يكن لهم كتاب سماوي وكان اليهود يطلقون علىٰ جميع الأُمم لفظ الأُمّية بالإضافة إليهم هم.

والأُمّية التي وصف بها العرب هي أُميّة من نوع خاصّ وهي أُميّة مَنْ لا كتاب لهم من عند الله، وإن كان هذا لا يمنع تفشّي الأُمّية بينهم وهي أُميّة الجهل بالكتابة والقراءة.

إنّ العقيدة في هذا الأمر بعيدًا عن ما ورد وأُثير حول ذلك، فالنبيّ ﷺ لا يأتي إلىٰ النبوّة إلاّ وقد اكتملت علامات نبوّته حتّىٰ إذا دعا يكون كاملًا، وقد عرفنا معجزاته ﷺ وأنّه لَمِنَ الغلط أن يتكلّم المسلمون في مسألة كهذه؛ لأنّه كان يقرأ ويكتب وهو معلَّم من عند الله، ولعلّ القارئ حينما يعود إلىٰ تاريخ الحجاز وبالأخصّ مكّة المكرّمة وقريش وسيادتها يجد أنّ لقريش كانت السيادة

(١) تفسير ابن جرير: ٢/ ٢٥٧، وقال في أخرى الذي لا يكتب فقط كما في: ٢/ ٢٠٩، والمفردات للراغب، ص ٢٣، والوجوه والنظائر للدامغاني، ص ٤٥-٤٦، والمحرر لابن عطية: ١/ ٣٢٩، السنن الكبرى للبيهقي: ٧/ ٤٢.

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة «أمم».

علىٰ مكّة وبالأخص بني هاشم، وهذا النبيّ هو محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم، فجدّه عبد المطّلب أحد سادات مكّة، فالحياة الاجتماعيّة لمكّة آنذاك هي حياة حاضرة لا سيما أنّ مكّة كانت مركزًا استراتيجيًا لوفود الكثير عليها في كلّ عام، ولم يكن الرسول ﷺ من بيت غير معروف، بل كان من أعزّ بيوت مكّة وكان مولده فرحةً لقريش، وفرح به جدّه عبد المطّلب الذي أسماه، فقد نشأ النبيّ في ظلّ التربية الراقية المميّزة واعتُني به تمام الاعتناء من قِبَل جدّه وأعمامه. هذه العوامل تجعلنا نجزم أنّ النبيّ ﷺ قد تعلّم مبادئ القراءة والكتابة في بداية حياته قبل البعثة، حتّىٰ أنّ الوحي حينما نزل عليه من قبل جبرائيل عليه السلام لم يكن يستغرب القراءة، بل إنّه سأل جبريل ماذا يقرأ وغير ذلك، وإنّي أجد أنّ مَنْ كتب في هذا الأمر قد أعمّ القضيّة علىٰ ما كان في مكّة والحجاز ولم يستثن أنّ النبيّ ﷺ قد أُرسل من ربّ العالمين وأنّ هذه الرسالة والتي ارتبطت بهذا الإنسان الكامل محمّد بن عبد الله ﷺ لا تُقاس علىٰ الوضع المحيط به في مجتمعه الحجازي، وقد نبّهنا القول بتعلّمه عليه الصلاة والسلام، علىٰ أنّهم قد انقسموا في ذلك حول مرحلتين ما قبل البعثة وما بعدها؛ ومن هؤلاء القاضي عياض والشعبي وابن أبي شيبة وأبو ذرّ الهَرَوي وأبو الوليد الباجي والآلوسي والسيّد المرتضىٰ والطبرسي ... وغيرهم، والمنقول عن أهل البيت في روايتهم كالإمام عليّ بن موسىٰ الرضا: إنّه سُمِّي الأُمّي؛ لأنَّه لم يكن يُحسِن أن يكتب، فقال: أنّىٰ ذلك والله يقول في محكم كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، فكيف يعلِّمهم ما لا يُحسن؟![1].

(١) مجلة جامعة الأمير عبد القادر، مقال د. الدوري، ص٦٦-٦٧.

ويقول إسماعيل حقّي: والمشهور عند أهل الفقه أنّ الأُمّي مَنْ لا يعلم شيئًا من القرآن.

أقول: والصواب ما ذهب إليه الإمام علي بن موسىٰ الرضا، وتشير الروايات أنّ الوحي قد ظلّ يتنزّل علىٰ النبيّ ﷺ مدّة ثلاث وعشرين سنة، ولكنّه لم يشاهَد يومًا وهو يحمل أداة التدوين من أدوات وقرطاس وما شابه ذلك، وهذه المسألة تؤكّد إن كان يريد التدوين فكان عن طريق أصحابه وكُتّابه حتّىٰ يكون الانتشار أكثر والنقل أسرع؛ لأنّ النبيّ ﷺ لو كتب بنفسه لكانت هذه الورقة يحرص عليها الصحابة باقتنائها لأنفسهم لا سيما أنه يكون جمع شتات هذه الأوراق صعبًا، وبذلك يلزم الأمر علىٰ النبيّ ﷺ أن يكتب لهم المصحف مرةً واحدةً وأن يجمعه لهم، فالآيات كانت تنزل علىٰ أوقات متعدّدة وأحداث معيّنة، وأنّ الوحي كان ينزل في أحوال خاصّة بالنبيّ ﷺ كما سبق وأنْ ذكرنا طريقة نزول الوحي، وقد كثر الحديث حول كتابة النبيّ ﷺ في صلح الحديبيّة ومحو النبيّ ﷺ، وكلٌّ أدلىٰ دلوه، وأنّ حديث الدواة والكتف، وقد أورده البخاري عن ابن عبّاس وجاء بطرق عديدة كلّها كانت تشير حول: «**هلمُّوا أكتبْ لكم**»[1]، وجاء في رزيّة الخميس قوله: «**ائتوني بدواة وصحيفة . . .**»، وتأتي المسألة هنا فاصلة إلىٰ أنّه لابدَّ مِنَ القول بأنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام كان معلّمًا قبل البعثة وبعدها، وأنّ وصفه بالأُمّية لم يقصد به جهله بالكتابة والقراءة، فهذا النبيّ الكامل معلَّم معلِّم.

ورویٰ ابن ماجه في سننه بسند حسن قال: حدّثنا عبيدالله بن عبد الكريم، حدّثنا هشام بن خالد، حدّثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه، عن أنس بن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: ٤/ ١٦١٢ حديث رقم (٤١٦٩).

مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيتُ ليلةَ أُسريَ بي علىٰ باب الجنّة مكتوبًا: الصدقة بعشر، والقرض بثمانية عشر، فقلت: يا جبريل، ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأنّ السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلاّ لحاجة**».

أقول: رواه ابن ماجه في باب القرض (**٢٤٣١**) واختلف في روايته من طريقه الأوّل عن عبيد الله بن عبد الكريم، والآخر عن أبي حاتم، والصحيح ما أثبتناه من تهذيب الكمال «طبعة المعرفة».

أقول: في هذا الحديث دلالة علىٰ قراءة النبيّ ﷺ وقد ضعَّف كثير من الحفّاظ هذا الحديث بقولهم: لضعف خالد بن يزيد حيث قال عنه ابن حجر: ضعيف، مع كونه فقيهًا ولم يحكم عليه الذهبي في الكاشف، وإنّما قال: ضعَّفوه.

وتردّد فيه ابن حبان بعد حرجه وقال: وما أقربه من نفسه من التعديل وهو ممّن أستخير الله ﷻ فيه، وقال أيضًا: كان صدوقًا في الرواية ولكنّه يخطئ كثيرًا.

أقول: خطؤه يخطئ كما يخطئ الناس إلاّ أنّه عندي ثقة: وثّقه أبو زُرعة الدمشقي وأحمد بن صالح المصري والعجلي وابن شاهين، وقال ذحيم: صاحب فتيا، ووثّقه ابن عدي هو وأباه قائلًا: وأبوه يزيد فقيه أهل دمشق، ولم أرَ من أحاديث خالد هذا إلاّ كل ما يُحتمل في الرواية أو يرويه ضعيف عنه فيكون البلاء من الضعف لا منه.

أقول: وجاءت الرواية من ثقتين هما: عبيد الله بن عبد الكريم، عن هشام بن خالد؛ وهو إمام حافظ ثقة مشهور كما قال ابن حجر في التقريب، وثّقه النسائي

وقال عنه أحمد: ما جاوز الجسر أفقه من إسحاق ولا أحفظ من أبي زُرعة ووثّقه ابن حبّان.

وهشام بن خالد بن زيد الأزرق ثقة؛روىٰ عنه جمع غفير منهم أبو داود، وبقي بن مخلّد وهما لا يرويان إلاّ عن ثقة، وأبو هاشم وقال عنه: هو وابن حجر صدوق. ووثّقه أبو علي الجبَّائي ومسلمة بن قاسم الأندلسي والذهبي، وذكر ابن حبان من الثقات ووثّقاه شعيب وبشار في التحرير.

أقول: وإن كان جاء الحديث من طريق أبي حاتم أيضًا فهو إمام حافظ ثقة.

فانظر -رعاك الله- إلىٰ سند الحديث وكلام ابن عدي تجدْ رواته ما بين ثقة وصدوق، فلا ريب عندي في صحّة الحديث وهو حديث حسن غريب؛ لتفرّد ابن ماجه به، والله أعلم.

أقول: إنّ في الخبرين الصحيحين الذي أوردتهما كلامي الأوّل: ما رواه البخاري في صلح الحديبيّة من كتابة النبيّ ﷺ، والثاني ما رواه ابن ماجه في قراءة النبيّ ﷺ دلالة علىٰ قراءة وكتابة النبيّ ﷺ.

وقد وقع الخلاف في تعلّمه القراءة والكتابة قبل الإيحاء أو بعده، والذي أذهب إليه أنّه كان متعلّمًا قبل الإيحاء، والله العالم.

وقد استدلّ الكثير بما أخرجه البيهقي وابن أبي شيبة عن عبدالله بن عتبة بن مسعود قال: ما مات النبيّ ﷺ حتّىٰ كتب وقرأ[1]. قال عجالة: فذكرت ذلك للشافعي فقال: صدق؛ سمعنا قومًا يذكرون ذلك.

(١) سنن البيهقي الكبرى: ٧/ ٤٢ حديث رقم (١٣٦٩).

أقول: إنّ الأمر واضح في مسألة الأُمّية، وإنّنا لا ندخل أنفسنا في أمر يظلّ أخذه بالعقل يدلّ علىٰ صحّة كتابته عليه الصلاة والسلام لا سيما أنّ ما في العقل قد وافق ما في النقل من الكتاب والسُّنَّة وهو ما نذهب إليه.



۞ الشفاعة ۞

تعتبر الشفاعة أحد أهمّ الثوابت الاعتقاديّة التي لا جدال فيها، وقد صرّح القرآن الكريم في آيات عديدة ونطقت بها الأحاديث الواردة عن النبيّ ﷺ، ولا ريب في أنّ النبيّ ﷺ شافعٌ مشفَّع ولا شفيع أشفع منه، روحي فداه، اللّهمّ لا تحرمنا شفاعته يوم الفزع الأكبر.

والشفاعة: هي عبارة عن طلبه من المشفوع إليه أمرًا للمشفوع له، فشفاعة النبيّ ﷺ هي الوسيلة فهو صاحب الوسيلة؛ وهي طلب الخير للغير لغفران الذنب وقضاء الحوائج.

فالشفاعة نوع من الدّعاء والرّجاء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

وأنّ مَنْ أنكر شفاعة النبيّ ﷺ فقد ضلَّ عن الحقيقة، ولنعلم أنّ الشفاعة من الأنبياء والصالحين والملائكة، إلاّ أنّ المعتزلة والزيديّة والإماميّة اختلفوا فيمن تكون له الشفاعة فهم يقولون: إنّما تكون لأهل الجنّة من المسلمين وذلك بترقيتهم من درجة كانوا فيها إلىٰ درجة أعلىٰ منها، ومن نعيم صاروا إليه إلىٰ نعيم أسنىٰ منه وأعظم، أمّا الذين ارتكبوا الكبائر فلا حظَّ لهم في شفاعة النبيّ ﷺ، وقد جانبهم الصواب في ذلك؛ ألم يسمعوا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وبذلك فإنّ المعتزلة والزيديّة لا يجادلون في ثبوت الشفاعة ولكنّهم يجادلون فيمن تثبت له هذه الشفاعة.

أمّا المحدثون والأشاعرة والإماميّة فإنّهم ذهبوا إلىٰ أنّها تثبت لأهل الكبائر من أُمَّته، ويؤكّد القاضي عبد الجبّار من المعتزلة علىٰ أنّها تثبت للتائبين، ويؤكّد أبو هاشم أنّ الشفاعة تحسن «مع إصرار المذنب علىٰ الذنوب كما في العفو»(١). والصواب ما ذهب إليه.

ويرىٰ الإماميّة زيادة عن أهل الحديث والأشاعرة والإباضيّة أنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته، وأنّ الأئمّة من آل محمّد (عليه وعليهم السلام) يشفعون كذلك وينجي الله بشفاعتهم كثيرًا من الخاطئين(٢).

ونرىٰ أنّ بعض المتصوّفة كان لهم في الكلام علىٰ شفاعة الأولياء والصالحين، ونرىٰ هنا السلفية «الوهابية» يخالفون ذلك وينكرونه بشدّة ويعتبرون ذلك فيه شيء من الشرك بجعل الوسائط بين العبد وربّه، وقد كان رأيهم مخالفًا لجميع الأُمم، والله أعلم.

والذي أذهب إليه: أنّ الشفاعة تبدأ بسيّد الخلق والتي لا تساويها شفاعة أحد من خلقه تعالىٰ، وهو الأمر الذي لا خلاف فيه، وما زاد علىٰ ذلك في أمر الشفاعة فذلك يعود بالإذن الإلهي الذي يعطيه الله من ارتضىٰ من عباده وقد وردت الاستدلالات في ذلك من الأخبار الصحاح ولكل فريق أدلته التي يتمسك بها ولا التفات لمن منع الشفاعة لأصحاب الكبائر فالله غفور رحيم عدل فعال لما يريد، اللّهم نسألك أن تُجزل لنا حظّنا من شفاعة حبيبك خير الخلق أجمعين صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) شرح الأصول الخمسة، ص ٦٨٩، البعد الحضاري، ص ٦٦٥.

(٢) أوائل المقالات، ص ٤٧، الاعتقاد، ص ٦٦، الاقتصاد، ص ٢٠٦.

۞ توقير الرسول الأعظم ﷺ ۞

١- محبّته أكبر من النفس والولد والمال والناس.

كيف يكون ذلك فبحبّه يكمل الإيمان وبحبّه ندخل الجنّة، علينا أن نحبّ النبيّ ﷺ بالفعل والعمل، علينا أن نعلِّم أولادنا محبّة رسول الله ﷺ ونؤكّد لهم أنّ الفخر لهم هو اتّباع رسول الله ﷺ، والمحبّة تكون بالاتّباع والطاعة في كلّ ما أمر، علينا أن نقول: إنّنا نحبّ محمّدًا ﷺ ونرفض مَنْ لا يحبّه.

إنّ محبّته صلوات ربي وسلامه عليه لا نقف بها عند حدّ أو مقدار إلىٰ أن نموت، فحبّه لا يوصف، رأيت مَنْ يقول: غاليتم وأفرطتم في محبّة النبيّ ﷺ! كيف لا نعشق محمَّدًا أكثر من أنفسنا والحقّ تعالىٰ أخبرنا بأنَّهُ أولىٰ بِنَا من أنفسنا قلتُ ومِن أولادنا ووالدينا، إنّ محبّة النبيّ ﷺ ليس فيها إفراط ولا مغالاة إن لم يجاوِز الشخص بها حدود الشرع، حبّذا لو نعيش في بيوتنا كما عاش رسول الله ﷺ، ونتعامل مع بعضنا كما تعامل رسول الله ﷺ، ونأكل ونشرب كما فعل رسول الله ﷺ، ونتعبّد كما تعبّد رسول الله ﷺ، بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، روحي فداك حيًا وميّتًا، يا حبيب الله، علينا وعلينا وعلينا، ومهما عملنا فإنّنا لن نوفيك حقّك وقدرك يا خير خلق الله.

كيف نتعلّم حبّ رسول الله ﷺ؟ إنّ المحبّة تكون علانيةً لا سرًا، وهذه المحبّة لا تتجلّىٰ إلاّ في طاعته الله طاعةً كاملة موافقة للشرع، وبذلك نكون قد أطعنا الله والرسول الأكرم ﷺ. قال النبيّ ﷺ: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان (١/ ٥٨) حديث رقم (١٥)؛ومسلم: كتاب الإيمان =

٢- تبجيله واحترامه حيًا وميّتًا.

وهو أن نحترم رسول الله ﷺ وهو في قبره وعند ذكره وفي مسجده، وزيارته في مسجده وشدّ الرِّحال إلىٰ مسجده وقبره، والوقوف أمام حجرته والتأدّب في الوقوف فلا يُرفع الصوت عند قبره أو في مسجده، وعلينا أن نعلم أنّ حجرته هذه هي داره في الدُّنيا، وفي مماسّتها علينا أن ننصت ونتأدّب عند سماع حديثه والرضا بما قال، فلله درّ أرضٍ وطئتها قدم الحبيب، وعدم الخروج عليه وزيارته والصلاة عليه والوقوف بخشوع وطمأنينة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [**الحجرات: ٢**]، والتبرّك بآثاره، وزيارة الأماكن التي ذهب إليها والمحافظة علىٰ قدسيّتها والتبرّك بها.

٣- عدم إيذائه بأيّ نوع من أنواع الأذىٰ.

والإيذاء شامل للسبّ أو الطعن أو بشرعه أو بوالديه أو قرابته أو بزوجاته أُمّهات المؤمنين الطاهرات بما فيه تعرّض له، أو الطعن بآل بيته الطيّبين أو أصحابه الطاهرين بما فيه تعرّض له، فنحبّ مَنْ أحبّ ونكره مَنْ كرِه، ونوقّر مَنْ صحبه ولا نسبُّ أحدًا من صحبه بغير حقّ، ونُعادي مَنْ عاداه وعانده في حياته ومماته. قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ

= (١/ ٦٧، ٧٠)؛وأخرجه: أحمد ٣/ ١٧٧ و٢٠٧ و٢٧٥ و٢٧٨؛وابن ماجه (٦٧)؛ والنسائي ٨/ ١١٤-١١٥ وفي الكبرى، (١١٧٤٤)؛ وأبو عوانة: ١/ ٤١؛ وابن حبان (١٧٩)؛ وابن منده في الإيمان (٢٨٤) و(٢٨٥) و(٢٨٦)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٧٤)؛ والبغوي (٢٢) من حديث أنس بن مالك،به.

خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة: ٦١].

٤- **الصلاة والسلام عليه عند ذكره،** فالبخيل مَنْ ذُكر عنده اسم الرسول ولم يصلِّ عليه ﷺ، واحترامه وتوقيره وتعزيره واتّباعه، وذكره بالألفاظ والتوقير كسيّدنا وحبيبنا وشفيعنا ونبيّنا وغير ذلك.

٥- **التأسّي بالرسول ﷺ**؛ قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

والتأسّي هو الاقتداء به في كلّ أقواله وأفعاله ﷺ.



○ أهل النبيّ ﷺ
في قضيّة الإيمان والتوحيد ○

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

اختلف القول في مسألة أهل الفترة ومَنْ في حكمهم، والثابت أن أهل النبيّ ﷺ من أجداده ووالديه وأعمامه من أهل الفترة، وقد تبنّىٰ كثير من العلماء والباحثين والمفكّرين والمحدِّثين هذه القضيّة وقالوا فيها ما قالوا؛ ليؤكّدوا أنّ أجداد النبيّ ﷺ ووالديه وأعمامه في النار، وفي نفس الوقت ردّ كثير من أعلام الأُمّة وصنّفوا الكتب في الدفاع وردّ الحقائق إلىٰ أنّ والديّ النبيّ ﷺ وأجداده وعمّه أبا طالب كانوا مؤمنين موحِّدين.

أقول: ولعمر الله إنّه لإيذاء للنبيّ ﷺ أن نكفِّر أجداده ووالديه، ولقد عجبت من أُولئك الذين حملوا العدّة وتصدروا الأمر ليخرجوا للأُمّة كتابًا يقول بكفر والدي النبيّ ﷺ وعمه وأجداده، وليتهم قد أفلحوا وقد خابوا بإيذاء النبيّ عليه الصلاة والسلام وجعلوا خصمهم أهل النبيّ ﷺ يوم القيامة، ولا أدري ماذا يستفيد هؤلاء من هذه القضيّة أن يظهروا أنّ والدي النبيّ ﷺ وأجداده وعمه كانوا مشركين وحكمهم في النار، مع أنّ هذا خلاف الصّواب.

ومن هنا عزمت علىٰ أن أكتب في هذه القضيّة رغم قناعتي أنّ الأمر فيها ظاهر كالشمس في رابعة النهار، ولكن دفاعًا عنهم إكرامًا لسيّدي رسول الله ﷺ روحي فداه.

اختلف الناس في الفترة، والأصحّ أنّه ما بين عيسىٰ ومحمّد ﻋﻠﻴﻬﻤﺎ السلام، فالفترة هي التي بين نبوّة عيسىٰ ابن مريم وظهور رسالة سيّدنا محمّد عليه الصلاة

والسلام، وهذا هو المؤكّد بأن لم تكن هنالك رسالة نبويّة بين الاثنين وهي تلك الفترة، فقد جاء الصحيح: «**أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ ابن مريم والأنبياء إخوة لعَلَّات، وليس بيني وبينه نبيّ**»(١).

الراجح عندي في مسألة الفترة ومدّتها ما قال به مقاتل، عن ابن عبّاس، لما أيّده البخاري في صحيحه «**أنّ الفترة بين عيسىٰ ومحمّد** ﷺ **ستمائة سنة**»(٢)، والله أعلم.

وينقسم أهل الفترة إلىٰ قسمين:

١- مَنْ بلغته الدعوة.

٢- مَنْ لم تبلغه الدعوة وبقي علىٰ حين غفلة.

ويشمل القسم الأوّل نوعين:

أ- مَنْ بلغته الدعوة ووحَّد ولم يُشرك.

ب- مَنْ بلغته الدعوة ولكنّه غيّر وأشرك، وهذا ما صنّف فيه البعض في والدي النبيّ ﷺ وعمّه أبي طالب، وسوف نستعرض ذلك بعد الانتهاء من شرح أهل الفترة.

القسم الثاني: وهذا ما عليه أكثر أهل الجاهليّة، قال تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس: ٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: ٣/ ١٢٧١ حديث رقم (٣٢٥٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام سلمان: ٣/ ١٤٣٥ حديث رقم (٣٧٣٢).

وقد قسّم العلماء هذا القسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

١- مَنْ مات ولم تبلغه الدعوة مات ناجيًا: وهذا ما قال به الأشاعرة من أهل الكلام والأُصول وبعض الشافعيّة من الفقهاء[(١)]، فهم معذورون؛ لعدم إرسال رسول إليهم لذا فهم في الجنّة.

٢- مَنْ مات ولم تبلغه الدعوة فهو في النار: قال به المعتزلة وجماعة من الحنفيّة والماتريدية، قالوا: بأنّهم مكلّفون وإن لم يُرسَل إليهم رسول، وعليهم أن يستدلُّوا بعقولهم علىٰ وجود الله، فزادت المعتزلة أنّ ما استحسنه العقل فهو حسن وما قبَّحه العقل فهو قبيح، وأنّ الله سبحانه يعذّب في النار مَنْ لم يؤمن وإن لم يُرسَل إليه رسولٌ لقيام الحجّة عليه بالعقل، وهذا يدلّ علىٰ أنّ هناك ثوابًا وعقابًا قبل بلوغ الدعوة وبعثة الرُّسل[(٢)].

٣- قول من قال بأنّ مَنْ مات ولم تبلغه الدعوة فإنّه يُمتحَن بنار في عرَصات يوم القيامة: وهو أنّ أهل الفترة يُمتحَنون في عرَصات القيامة بنار يأمرهم الله ﷻ بدخولها؛ فمَنْ دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا ومَنْ لم يدخلها فقد عصىٰ الله تعالىٰ فيُدخله فيها.

وهذا القول قال به ابن تيميّة وابن القيّم وابن كثير، وحكاه أبو يحيىٰ الأشعري عن أهل السُّنَّة والجماعة، وقال به أبو محمّد ابن حزم وغيرهم[(٣)].

---

(١) الحاوي للفتاوي: ٢/ ٣٥٣.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/ ٣١١، جمع الجوامع ١/ ٦٢؛ أحكام أهل الذمة ٢/ ٦٢٣، وانظر طريق الهجرتين ٣٦٢،وانظر كلام ابن تيمية، الفتاوى ٢٤/ ٣٧٢؛ الإبانة للأشعري ص٣٣؛ فتح الباري ٣/ ٢٤٦، والتمهيد لابن عبد البر ١٨/ ١١١؛ أهل الفترة ومن في حكمهم لموفق شكري، ص ٩٨.

(٣) الجواب الصحيح: ١/ ٣١٢؛ طريق الهجرتين لابن القيم، ص٦٨٩؛ الاعتقاد =

التكليف في الآخرة:

تنبني علىٰ هذه المسألة -مسألة امتحان أهل الفترة في الآخرة- مسألة أُخرىٰ وهي: هل الآخرة دار تكليف أم لا؟

الأوّل: ذهب كلٌّ من ابن تيميّة وابن القيم وابن كثير وابن حزم وغيرهم مِمَّن شَذَّ إلىٰ إثبات التكليف في الآخرة، وأنّ كون الآخرة دارَ جزاء لا يتنافىٰ ذلك مع أن يكون هناك تكليف في عرَصاتها.

الثاني: ذهب ابن عبد البرّ وجماعة من المالكيّة والجمهور إلىٰ أنّه لا تكليف في الآخرة، وأنّ الآخرة دار جزاء لا دار تكليف[1].

القول عندي: إنّ أهل الفترة قد اختلف الأمر فيهم بانقطاع الرُّسل فهم أقرب إلىٰ النجاة من العذاب أي يدخلون الجنّة لإنقطاع الدعوة والله رؤف رحيم.

التبيان في حقيقة الإيمان

أخرج مسلم في صحيحه من حديث أنس أنّ رجلًا قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: في النار، فلمّا قضا دعاه فقال: إنّ أبي وأباك في النار[2].

= للبيهقي، ص١٧٠؛ تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٥؛ فتح الباري: ٣/ ٤٤٥؛ الفصل في الملل والنحل لابن حزم: ٤/ ٧٤.

(١) تجريد التمهيد لابن عبد البر، ص ٣٢٦.

(٢) أخرجه مسلم برقم ٤٩٩، وأخرجه أبو داود برقم ٤٧١٨، والبيهقي في السنن الكبرى ودلائل النبوة: ١/ ١١٩١؛والحديث أخرجه أيضا النسائي في (السنن) (١/ ٢٨٦)؛ وابن ماجه في (٦- كتاب الجنائز، ٤٨- باب: ما جاء في زيارة قبور المشركين ٢/ ٤٩/ ٥٠- رقم: ١٥٧٣)؛ والبزار والبيهقي بسندعلى شرط الشيخين (٢/ ٤٣٤). ورواه الطبراني في الكبير عن عمران بن الحصين بلفظ آخر: ١٨/ ٥٤٨-٥٤٩.

وأخرج أيضًا من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استأذنتُ ربّي في أن أستغفر لأُمّي فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذنَ لي»[١].

أقول: اختلفت أقوال الأُمّة في أمر والديّ النبيّ ﷺ، ولعمر الله إنّه أمرٌ لا يحتاج إلىٰ خلاف ولكن الله يمتحن قلوب الذين آمنوا بصدق إيمانهم، وهنا أستعرض الأقوال؛ لكي يعرف القارئ حقيقة الإيمان لوالديّ النبيّ ﷺ وأهله.

القول الأوّل: إيمانهما، وعليه إجماع أهل البيت وجمع من المعتزلة والإباضية والإماميّة والزيديّة والإسماعيليّة وجمع من الصوفيّة[٢].

قال الطبرسي الإمامي في المجمع: إنّ آباء النبيّ ﷺ إلىٰ آدم كلّهم كانوا موحِّدين، وأجمعت الطائفة علىٰ ذلك، وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: لم يزل ينقلني الله في أصلاب الطاهرين إلىٰ أرحام المطهّرات حتّىٰ أخرجني في عالمكم هذا لم يدنَّس بدنس الجاهليّة. ولو كان في آبائه كافر لم يصف جميعهم بالطهارة، وقالوا: إنّ والديّ النبيّ ﷺ وأعمامه كلّهم مؤمنون عدا أبي لهب الذي غيّر وأشرك فحكم الله في أمره وسيصلىٰ نارًا ذات لهب[٣].

القول الثاني: مَنْ قال بنجاتهما، وفيه عدّة مسالك:

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٧١، رقم ٩٧٦)؛ وأحمد (٢/ ٤٤١، رقم ٩٦٨٦)؛ وأبو داود (٣/ ٢١٨، رقم ٣٢٣٤)؛ والنسائي (٤/ ٩٠، رقم ٢٠٣٤)؛ وابن حبان (٧/ ٤٤٠، رقم ٣١٦٩)؛ وأخرجه أيضا: ابن أبى شيبة (٣/ ٢٩، رقم ١١٨٠٧)؛ وابن ماجه (١/ ٥٠١، رقم ١٥٧٢)؛ والحاكم (١/ ٥٣١، رقم ١٣٩٠) وقال: صحيح على شرط مسلم؛ والبيهقي (٤/ ٧٠، رقم ٦٩٤٩)؛ وأبو يعلى (١١/ ٥٥، رقم ٦١٩٣).

(٢) انظر: الحاوي للفتاوي، للسيوطي: ٢/ ٤٣٦؛ الدين الخالص: ٨/ ٨٣/ ٨٩؛ سدادالدين، وسدادالدين: ٨٤/ ٣٨٨، ٣٨٩.

(٣) مجمع البيان: ٩/ ١٥١، أوائل المقالات، ص ٤٥، الاعتقادات: ٤٠/ ١٠.

المسلك الأوّل: أنّهما من أهل الفترة وما بلغتهما الدعوة ولا عذاب علىٰ مَنْ لم تبلغه الدعوة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وإليه ذهب جمهور الأشاعرة والماتريدية وجمع من الصوفية.

المسلك الثاني: أنّهما أُحييا له ﷺ وآمنا به، رووا في ذلك أحاديث منها عن عائشة رضي الله عنها: «إنّ الله أحياهما في حجّة الوداع»[١].

وروىٰ **السهيلي عن عائشة** رضي الله عنها **في الروض الأُنُف**: «أنّ رسول الله ﷺ سأل ربّه أن يُحيي أبويه فأحياهما فآمنا به ثمّ أماتهما»[٢].

أقول: قال أئمّة المحدّثين ومنهم السيوطي: إنّ هذه الأحاديث منهم ضعيفة، بل قيل: إنّها موضوعة، إلاّ أنّه قال بضعفه لا وضعه، وبالأخصّ الحديث الذي أورده السهيلي، وقد كنت أوردت في تحقيقي لكتاب تحفة الطالب حديثًا عن إحياء أبوي النبيّ ﷺ إلاّ أنّه بانَ لي وضعه[٣].

قال السيوطي في الدرّة المنيفة في الآباء الشريفة عن حديث حجّة الوداع عندما روىٰ الحديث: إنّهم جعلوه ناسخًا لما خالفه من الأحاديث المتأخّرة؛ لتأخّره ولم يبالوا لضعفه؛ لأنّ الحديث الضعيف يُعمل به في الفضائل والمناقب دون الموضوع.

قال العلاّمة ملاّ علي قاري في شرح الشفا: «وأمّا ما ذُكر من إحيائه عليه الصلاة والسلام أبويه فالأصحّ أنّه وقع علىٰ ما عليه الجمهور الثقات كما قاله

---

(١) أخرجه الخطيب في السابق واللاحق، والدارقطني وابن عساكر في غرائب مالك، وابن شاهين في الناسخ والمنسوخ.

(٢) انظر: الروض الأنف في شرح غريب السير: ١/ ٢٩٦.

(٣) تحفة الطالب، ص ١٢.

السيوطي في رسائله الثلاثة المؤلّفات»[١].

المسلك الثالث: أنّ أهل الفترة يُمتحنون في عرَصات القيامة بنار يأمرهم الله ﷻ بدخولها، فمَنْ دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومَنْ لم يدخلها فقد عصىٰ الله تعالىٰ، فيدخله الله فيها، ودليلهم بما أخرجه أحمد في مسنده: حدّثنا عليّ بن عبدالله، حدّثنا معاذ ابن هشام، قال: حدّثني أبي، عن قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع أنّ نبيّ الله ﷺ قال: أربعة يحتجّون يوم القيامة: رجلٌ لا يسمع شيئًا، ورجلٌ أحمق، ورجلٌ هرِم، ورجلٌ مات في الفترة، فأمّا الأصمّ فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا، وأمّا الأحمق فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبصر، وأمّا الهرِم فيقول: لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، وأمّا الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ ما أتاني كتابٌ ولا رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعه، فيرسل إليهم أن: ادخلوا النار، فوالذي نفس محمّد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا»[٢].

قال السِّندي علىٰ سنن النسائي: وأن يوفّقهما للخير عند الامتحان.

وهذا القول قال به السلف، إلاّ أنّ بعضهم من أهل الحديث اقتصر قوله في أهل الفترة وكفروا والديّ النبيّ ﷺ وأهله ولم يعدّوهم من أهل الفترة وحكموا بشركهم، وهو بعيد من الصواب.

---

(١) الشفا: ١/ ٦٥١.

(٢) أخرجه أحمد: **١٦٣٠١**، وابن حبان: **٧٣٥٧**، والطبراني: **٨٤١**، والبزار: **٢١٧٤**، وابن أبي عاصم: **٤٠٤**، وأخرجه الهيثمي في المجمع وقال: هذا لفظ أحمد ورجاله في طريق الأسود بن سريع وأبي هريرة رجال الصحيح: ٧/ ٢١٦، وكذلك رجال البزار فيها. قلت: الحديث إسناده صحيح.

القول الثالث: التوقّف في أمرهما، قاله بعض المتكلِّمين من الأشاعرة والماتريدية وأكثر المعتزلة[(١)] والإباضيّة[(٢)].

القول الرابع: مَنْ قال بشركهما وأنّهما في النار، قال به ابن تيميّة والنووي والعظيم أبادي وغيرهم، وإنّ هذا القول مردود أيضًا،واعلم أنّ مَنْ تبنّاه بعض الفِرَق كأهل الحديث وتكلّفوا في إثبات دخولهم النار وحملوا الراية بزعمهم أنّه الحقّ، وقد خابوا وكانوا من الأخسرين عملًا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدُّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعًا، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۝١٠٤﴾ [**الكهف**: ١٠٣-١٠٤].

وقام متأخّروهم الوهابية من مُدَّعِي «السلفيّة» في هذا العصر بتقديم البحوث وتحقيق الرسائل الجامعيّة بزعمهم ومناقشتها في جامعاتهم وتباهَوا بذلك؛ أي بتكفير والِدَي النبيّ، وقالوا: إنّه من كمال الأدب القول بكفرهما، وإنّ القول بنجاتهما هو هدمٌ لقواعد الاعتقاد، وأخذتهم العزّة بالإثم، ولو أنّهم سكتوا لكان خيرًا لهم، فلا أدري كيف بَدَا لهم هذا!!

ولله درُّ القاضي أبي بكر ابن العربي أحد أئمّة المالكيّة وصاحب التفسير حينما سُئل عن رجل قال: إنّ أبا النبيّ ﷺ في النار، فأجاب: بأنّ مَنْ قال ذلك

---

(١) وقالوا عن الحديثين اللذين أخرجهما مسلم في أبيه وأمه: هما من الأحاديث الآحاد التي لا يؤخذ بها في باب الاعتقاد؛ لأنه لا يهمل بالظنيات، وليس لأحد أن يحكم عليه بأنه في الجنة أو في النار إلا إذا ثبت بنص من كتاب الله أو تواتر السنة لا بآحادها كما قضى أمر الله في مسألة عمه أبي لهب.

(٢) قال شيخي الشيخ أحمد الخليلي أطال الله عمره مفتي عمان: «ما نقول في والدي المصطفى إلا خيرا ونكل أمرهما لله» أفادني بذلك عبر رسالة مؤرخة في يوم الاثنين ١٤٢٧/٩/١٧هـ.

فهو متكلّم بغير علم من عنده، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ [الأحزاب: ٥٧].

قال: ولا أذىٰ أعظم مَنْ أن يُقال عن أبيه: إنّه في النار[١].

وقال السيوطي في الحاوي: قال الإمام موفّق الدِّين ابن قدامة الحنبلي في المقنع: ومَنْ قذف أُمّ النبيّ ﷺ قُتل مسلمًا كان أو كافرًا[٢].

وسوف نستعرض أدلّتهم ونردّ عليهم بما فتح الله علينا، وها هي أدلتهم:

أخرج ابن ماجه في سننه بسند صحيح أنّ أعرابيًا جاء إلىٰ النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ أبي كان يصِل الرحم وكان وكان، فأين هو؟ قال: في النار، قال: فكأنّه وجد من ذلك، فقال: يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ «حيثما مررت بقبر مشرك فبشّره بالنار، قال: فأسلم الأعرابي بعدُ، وقال: لقد كلّفني رسول الله ﷺ تعبًا؛ ما مررت بقبر كافر إلاّ بشّرته بالنار».

قال السِّندي في حاشيته: «وفي رواية مسلم عن أنس أنّه قال: «إنّ أبي وأباك في النار»[٣].

قال السيوطي: ومن ذكرها حماد بن مسلمة، عن ثابت، وقد خالفه معمر بن ثابت فلم يذكره ولكن قال: «إذا مررت بقبر كافر فبشّره بالنار» ولا دلالة في هذا اللفظ علىٰ حال الوالد، وهو أثبت فإنّ معمرًا أثبت من حمّاد فإنّ حمّادًا تُكُلِّم في حفظه ووقع في أحاديث مناكير ولم يُخرج له البخاري ولا خرَّج له مسلم في الأُصول إلاّ من روايته عن ثابت، وأمّا معمر فلم يُتكلَّم في حفظه ولا استُنكر شيء من حديثه، واتّفق علىٰ التخريج له الشيخان فكان لفظه أثبت.

(١) القول الجلي بنجاة أبوي النبي، ص ١٣٦، سداد الدين، ص ١٠٢.

(٢) الحاوي للفتاوي: ٢/ ٢٣٣.

(٣) حاشية السندي على ابن ماجه: ١٥٧٣.

وقال السِّندي أيضًا نقلًا عن السيوطي من محاسن الأجوبة أنّه لما وجد الأعرابي في نفسه لاطفه النبيّ ﷺ وعدَل إلىٰ جواب عام في كلّ مشرك ولم يتعرّض إلىٰ الجواب عن والده ﷺ ولا إثبات(١).

أقول: فهذا الحديث يعارض ما أخرجه مسلم عن والد النبيّ ﷺ وكذلك يعارض ما أخرجه مسلم من زيارة النبيّ ﷺ قبرَ أُمّه. لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

من زيارته لقبر أُمّه فلو كانت مشركة لما زار قبرها ولا طلب الاستغفار لها؛ لأنّ الاستغفار لا يكون إلاّ للمؤمن لا سيّما أنّ رواية الحديث حدث فيها بعض الاختلاف حول وجود القبر في الحجون والآخر المعروف بالأبواء، وعلىٰ كلّ حال الأمر واضح حول الحديث.

قال الآلوسي: في تفسير الآية عند قوله تعالىٰ: «منهم» خاصّ بالمنافقين وإن كان بقيّة المشركين يُلحقون بهم قياسًا، وقد صحّ في حديث الزيارة أنّه استأذن ربّه في ذلك فأذِنَ له، وهذا الإذن عندي يُستدلّ به علىٰ أنّهما من الموحِّدين لا من المشركين كما هو اختياري، وجه الإستدلال به أنّه نهاه عن القيام علىٰ قبور الكفّار وأذِنَ له في القيام علىٰ قبر أُمّه، فدلَّ علىٰ أنّها ليست منهم، وإلاّ لما كان يأذن له فيه.

أقول: كذلك اختلفت الأُمّة في زيارة قبور الكفّار فأجازته الشافعية والحنابلة والظاهريّة، وخالفهم الماوردي من الشافعيّة فذهب إلىٰ تحريم زيارة قبر الكافر في الحاوي، واستدلّ علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ

(١) المصدر السابق نفسه.

قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾، ولم أرَ قولًا للإماميّة والزيدية والإسماعلية والعلوية والإباضيّة والمالكيّة والحنفيّة يجيز زيارة قبور الكافرين.

أقول وبالله التوفيق: بعد ذكري لجميع الأقوال: لابدّ لي من الإيضاح حول هذا الأمر الذي قد حصحص الحقّ فيه، فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**بُعِثْتُ مِن خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا حَتَّىٰ كُنْتُم نَال قَرْنِ الَّذِي كُنْتُفِيهِ**»[١].

وأخرج مسلم في صحيحه عن واثلةَ بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»[٢].

وروىٰ عبد الرزّاق عن ابن عيينةَ، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه الباقر عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] قال: «**لم يُصبْه شيءٌ من ولادة الجاهليّة، وقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرَجْ مِنْ سفَاحٍ**»[٣].

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٣٠٥، رقم ٣٣٦٤)؛ وابن سعد (١/ ٢٤)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٣٩، رقم ١٣٩٢). وأخرجه أيضا: أحمد (٢/ ٣٧٣، رقم ٨٨٤٤)، وأبويعلى (١١/ ٤٣١، رقم ٦٥٥٣)، والديلمي (٢/ ١٢، رقم ٢٠٩٥).

(٢) رواه مسلم واللفظ له في: كتاب الفضائل. باب: فضل نسب النبي ﷺ، حديث رقم ٢٢٧٦ (٤/ ١٧٨٢)، وروى الترمذي (٥/ ٥٨٣) نحوه. وأحمد (٤/ ١٠٧)، ورواه ابن سعد انظر: الطبقات (١/ ٢٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف كما في الدرالمنثور: ٣/ ٥٢٤، وزاد نسبته السيوطي =

قال ابن كثير في البداية والنهاية: هذا مرسلٌ جيّد، ورواه الهيثمي في المجمع[1]: عن الطبراني في الأوسط وقال: فيه محمّد بن جعفر بن محمّد بن علي صحّح له الحاكم في المستدرك، وبقيّة رجاله ثقات، وللحديث شواهد من حديث ابن عبّاس، وعن عليّ وأبي هريرةَ، فالحديث حسنٌ إن شاء الله.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩].

قال جمعٌ من المفسّرين: إنّ معناه أنّ نوره ﷺ يتقلّب من ساجد إلىٰ ساجد؛ أي: من مُصَلٍّ إلىٰ مُصلٍّ.

وروىٰ أبو جعفر النحّاس عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: تقلُّبه في الظهور حتّىٰ تُخرجه نبيًا.

قال الإمام (فخر الدِّين الرازي): قيل: إنّ آزَرَ لم يكن والدَ إبراهيم، بل كان عمَّه واحتجّوا عليه بوجوه:

منها: أنّ آباء الأنبياء ما كانوا كفّارًا، ويدلّ عليه وجوه:

منها: قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩].

قيل: معناه أنّه ينقل نوره من ساجد إلىٰ ساجد، وبهذا التقدير فالآية دالّة علىٰ أنّ جميع آباء النبيّ ﷺ كانوا مسلمين.

= لابن جرير وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، وأبي الشيخ عن جعفر بن محمد، عن أبيه، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال: ١١/ ٤٢٩، رقم ٣٢٠١٦، وعزاه لعبدالرزاق وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا: «ما ولدني سفاح الجاهلية وما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام».

(١) مجمع الزوائد ٨/ ٣١٤

هذه الأخبار دلّت علىٰ أنّه ﷺ في كلّ عصر آباؤه كانوا خير الناس وأسياد قومهم، فلا نقول أنه لا بدّ أن يكونوا مسلمين في كلّ عصر، ولا يقدح فيه ﷺ كون أحد أجداده من أهل الفترة، فالإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام ودين محمّد ﷺ ملّة إبراهيم عليه السلام قال تعالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

ودعوة سيّدنا إبراهيم عليه السلام تؤكّد الغرض من إسكانه بعضَ ذرّيته وهو إسماعيل، وهذا يرتبط بعمارة البيت الشريف بالصلاة والطواف والحجّ وغيرها، وبذلك دوام العبادة بدوام البيت، ودعا أن يجعل ذرّيته الذين أسكنهم عند البيت في كلّ زمان أُمّة مسلمة، وهذا ما يتّفق ووجود الحنيفيّة إلىٰ وقت دعوة سيّدنا محمّد ﷺ وإن كان حصل انقطاع بانتشار الكفر في فترة خمسمائة عام من الجاهلية الثانية.

وقد أخرج ابن جرير في تفسيره الآية قال: «استجاب الله له وجعل البلد آمنًا، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إمامًا، وجعل ذرّيته مَنْ يقيم الصلاة»[(١)].

وروىٰ ابن إسحاق عن عبدالله بن رزين أنّه سمع عليّ بن أبي طالب عليه السلام في قصّة حفر عبد المطّلب جدِّ النبيّ ﷺ بئرَ زمزم، ولا مجال هنا لسرد القصّة، فمَنْ أراد التوسّع فعليه بالرجوع إلىٰ أُمّهات الكتب في الفقه وهي أشهر من أن تُذكر[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري: ١/ ٣٩٦.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ودلائل النبوة للبيهقي، وابن سعد في الطبقات، وسندها صحيح.

وروىٰ عبد الرزّاق في المصنّف والدارقطني والحاكم وصحّحه عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ: «**ماء زمزم لِمَا شُرب له، إن شربته لتستشفي شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وهي هزمة[1] جبريل وسُقيا الله إسماعيل**»[2].

أقول: الحديث صحيح، قال محمّد بن شهبة: الحديث صحّحه الحافظ الدمياطي، وأقرّه الحافظ العراقي في مقدّمة ابن الصلاح[3].

وقصّة نذر عبد المطّلب أحد أبنائه لله ووقوع القرعة علىٰ عبدالله والد النبيّ ﷺ.

قال (حكيم بن حزام بن خويلد): وُلدتُ قبل الفيل بثلاث عشر سنة وأنا أعقل حين أراد عبد المطّلب أن يذبح ابنه عبدالله.

وما رواه الحاكم في مستدركه من أنّه ﷺ ابنُ الذَّبيحينِ.

وقال الحاكم بعد ذكره الروايةَ: وقد ذكره الواقدي بأسانيده، وهذا القول عن أبي هريرةَ وعبدالله بن سلام وعمير بن قتادة الليثي وعثمان بن عفّان وأُبي بن كعب وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمر، والله أعلم.

---

(١) قال الزمخشري في الفائق: إن زمزم هزمة جبرئيل من: هزم في الأرض هزم إذا شق شقة. وقال ابن الأثير في النهاية: هزمها؛ أي: ضربها برجله فنبع الماء، والهمزة: النقرة في الصدر، وهزمة البئر؛ إذا حفرتها. وقال ابن الجوزي في غريب الحديث: زمزم هزمة جبريل؛ أي: ضربها برجله. وفي الحديث: اجتنبوا هزم الأرض؛ أي ما تهزم منها؛ أي: تشق.

(٢) أخرجه الدارقطني في سننه: ٢/ ٢٨٩ حديثرقم(٢٣٨)؛والحاكم (١/ ٦٤٦).

(٣) السيرة النبوية الصحيحة، ص ١٥٨٨، مقدمة ابن الصلاح، ص ١٣، المصنف للصنعاني: ٥/ ٩١٢٥.

أقول: بعد التحقّق من الرواية فإنّها ضعيفة وقد ضعّفها الكثير؛ منهم الذهبي والسيوطي واستغربها ابن كثير.

إلاّ أنّ الرواية مشهورة وفيها إقرار النبيّ ﷺ بعمل جدّه عبد المطّلب وأنّ ذبح ابنه كان لله، والرسول ﷺ لا يُقرّ إلاّ ما هو حقّ، وكان عبد المطّلب جدّ النبيّ ﷺ أوّل مَنْ سنَّ دية النفس مئةً من الإبل، وأبو طالب أوّل مَنْ سنَّ القسامة في الدّم، وأقرّهما النبيّ ﷺ، وقصّته مع أبرهة حينما قال أبرهة لعبد المطّلب: أتكلّمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلّمني فيه؟! قال له عبد المطّلب: إنّي أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربًا سيمنَعُه. وفي رواية: يحميه(١).

وقد عرفت قصّة قريش حينما انصرف عبد المطّلب إلىٰ قريش بخبر أبرهة وأمرهم بالخروج من مكّة والتحرّز في شعَف الجبال والشِّعاب تخوّفًا من معرَّة الجيش، ثمّ قام عبد المطّلب فأخذ بحَلْقة من الكعبة وقام معه نفرٌ من قريش يدعون الله ويستنصرونه علىٰ أبرهة وجنده(٢).

أقول: ممّا أوردناه عن عبد المطّلب في الإرهاصات والأعمال من نذره ذبحَ ولده اقتداءً بإبراهيم عليه السلام، وأنّه أمر بحفر زمزم، وأنّه نبع له الماء في الفلاة، وقوله لأبرهة وغير ذلك لا يدلّ علىٰ إيمانه وأنّه كان من الموحِّدين هو وآباؤه إلىٰ إبراهيم عليه السلام.

---

(١) الروض الأنف: ١/ ٦٩.

(٢) الروض الأنف: ١/ ٧٠.

قال ابن أبي الحديد في الشرح[(١)]: فلم يكن من العرب المعطِّلة -وهم قليل- متألِّهون أصحاب الورع والتحرّج عن القبائح، وهم قلّة أمثال عبد المطّلب وعبدالله وأبي طالب وزيد ابن عمرو بن نفيل وقيس بن ساعدة وجماعة غير هو، فعبد المطّلب مات علىٰ الإيمان، وكذلك اصطفاه الله ﷻ لهذا البيت فهو مؤمنٌ كاملَ الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام: ٧٨].

ولم يثبت عن والدي النبيّ ﷺ شركٌ أو عبادة الأصنام لا برواية صحيحة ولا حتّىٰ ضعيفة، ولم يتكلّم أحدٌ من الصحابة والتابعين بعدم إيمانهما.

قال البرزنجي في سداده: فقد قال بنجاتهما جمعٌ كثير وجمٌّ غفير ممّن جمع بين الحديث والفقه والأُصول كابن العربي وابن شاهين وابن المنير وابن ناصر الدِّين الدمشقي، والإمام فخر الدِّين الرازي والسبكي والقرطبي، والآبي والمحبّ الطبري وابن سيّد الناس والشرف المناوي، ونقله ابن الجوزي في كتاب (مرآة الزمان) عن جماعة، والحافظ ابن حجر العسقلاني والإمام حافظ الدِّين الحنفي. وممّن اشتهر بهذه المسألة خاصّة الحافظ الإمام المجتهد مجدّد المئة التاسعة أبو الفضل جلال الدِّين عبد الرحمن السيوطي، فإنّه ألَّف في المسألة خمس تأليفات[(٢)]، وبسط القول فيها. والإمام العلَّامة المحقّق الشهاب أحمد بن حجر الهيتمي المكّي فإنّه بسط القول فيها بالعجب العجاب، ووقفت لبعض متأخّري الحنفيّة من أهل الروم علىٰ رسالة أحسن القول فيها وأتىٰ فيها بالتحقيق، جزاهم الله خيرًا[(٣)].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٢٠.

(٢) الأصح أنها تسع رسائل، ولعله لم يطلع إلا على خمس.

(٣) سداد الدين، ص ١٠٤-١٠٥.

وممّن لم يذكرهم وتقدّموا الشيخ عبدالله البسنوي الرومي، والسيد أحمد زيني دحلان وغيرهما.

وذهب العلامة المفسر الشيخ محمد الامين الشنقيطي رحمه الله صاحب تفسير أضواء البيان في بعض دروسه بالمسجد النبوي الىٰ ان والدي رسول الله ﷺ من أهل الفترة وبين ما يقول أهل العلم فيهم ورد علىٰ المعترض بقوله قلت ما قلت اعتمادًا علىٰ نص من كتاب الله قطعي المتن وقطعي الدلالة بقوله وما كنت لأَرِد نص قطعي المتن قطعي الدلالة بنص ظني المتن ظني الدلالة عند الترجيح بينهما، وذهب ان الاحاديث الواردة في عدم نجاة والدي النبي ﷺ هي احاديث احاد ظنية الدلالة مرجوحة لا ترد النص القراني القطعي المتن[1].

أقول: والحقّ أن يُقال في والدي النبيّ ﷺ أنّهما ماتا علىٰ الإيمان، وهو الذي نذهب إليه، وقد ذهب إليه أجدادنا وسلفنا من أهل البيت وموافقيهم، والله تعالىٰ أعلىٰ وأعلم، وقولنا يتّفق علىٰ أنّه لم يثبت لا من الكتاب ولا من السُّنَّة ولا من الإجماع ولا من القياس علىٰ أنّ الأبوين الشريفين في النار، وبذلك لم يثبت عنهما كفرٌ «**ربِّ اغفر لي ولوالديّ**».



(١) مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي، ص٤٠-٤٢.

۞ خلاصة المطالب في إيمان أبي طالب ۞

اعلم أنّه لثبوت إيمان والدي النبيّ ﷺ وثبات إيمان آبائه إلىٰ آدم عليه السلام ممّا أُثبت بالأدلّة القاطعة وطريق الإنصاف فكان بالعدل أن يكون أبو طالب مؤمنًا موحِّدًا، هذا الرجل مؤمن قريش وبطلها صاحب المواقف العظيمة في انتشار الدعوة، ولعلّنا نعلم ماذا فعل أبو طالب وقد دعا بني عبد المطّلب قبل وفاته وحثَّهم علىٰ اتّباع أمر الدعوة، وأمرهم بمعاونة النبيّ ﷺ والوقوف إلىٰ جواره، وقد كان موقفه أمام قريش عظيمًا في الدفاع عن النبيّ ﷺ، وكلّ هذا يؤكّد إيمانه ونجاته، وتذكر لنا كتب السِّيَر أنّ الأذىٰ الذي أصاب النبيّ ﷺ أشدّ بعد وفاة عمّه أبي طالب؛ فقد كان لا يقبل إيذاء النبي ﷺ وكانت قريش تهابه ولم تذكر لنا كتب السِّيَر والحديث أنّ أبا طالب قد عارض النبيّ ﷺ في دعوته بل علىٰ العكس، وممّا يؤكّد إيمانه أنّه جعل ابنه عليًا عليه السلام يتربّىٰ في حوزة النبيّ ﷺ، لكن الدعوة كانت يجب أن تسير بشكل معيّن وبتقديرات إلهيّة، فلو قام أبو طالب بحرب مع قريش لكانت هذه الدعوة تنفّر الناس في الدخول في دين محمّد ﷺ وذلك لخوفهم من الخوض في الحروب، ولكن قد رسمت السياسة في انتشار الدعوة ودعمت من الله ﷻ، وقد بارك أبو طالب لابن أخيه محمّد ﷺ الشروع في إظهار دين الحقّ، وتظلّ مسألة إيمان أبي طالب مختَلَفًا فيها إلاّ أنّ اختلاف الأقوال كان يدور حول نقاط أساسيّة؛ فأهل البيت وموافقوهم من الإماميّة والزيديّة والإسماعيليّة والعلويّة وبعض شيوخ المعتزلة كأبي القاسم البلخي وأبي جعفر الإسكافي وغيرهما، وبعض الإباضيّة والصوفيّة علىٰ أنّه ما مات إلاّ مسلمًا، وخالفهم أكثر أهل الحديث والعامّة من شيوخ

المعتزلة البصريّين وغيرهم من أنّه مات علىٰ دين قومه[١].

ويظهر من كلام ابن أبي الحديد أنّه متوقّف في إيمان أبي طالب.

وقد احتجّ مَنْ قال بكفر أبي طالب بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ومَنْ يقول بكفره أنّه مات علىٰ ملّة عبد المطّلب، وقد ثبت بالدليل القاطع إيمان عبد المطّلب، فبثبوت إيمان عبد المطّلب يصحّ إيمان ابنه أبي طالب.

أقول: إنّ مسألة إيمان أبي طالب حُسمت في عدّة مواضع، والعقل والحقائق تؤكّد أنّ إيمانه لا شكّ فيه.

فقد روي أنّ عليّ بن الحسين-ث سُئل عن إيمان أبي طالب فقال: «واعجبًا! إنّ الله تعالىٰ نهىٰ رسوله ﷺ أن يقرَّ مسلمةً علىٰ نكاح كافر وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلىٰ الإسلام ولم تزل تحت أبي طالب حتّىٰ مات»[٢].

هذا يؤكّد أنّه كان مسلمًا حنيفًا علىٰ دين قومه وموحّدًا.

وقالت بعض الزيديّة: إنّ أبا طالب أسند المحدّثون عنه حديثًا ينتهي إلىٰ أبي رافع مولىٰ رسول الله ﷺ، قال: سمعت أبا طالب يقول بمكّة: حدّثني محمّد ابن أخي أنّ ربّه بعثه بصِلَة الرّحم، وأن يعبده وحده لا يعبد معه غيرَه، ومحمّدٌ عندي الصادق الأمين[٣].

وقد أجمع أهل البيت علىٰ إيمانه، ووافقهم الإماميّة والإسماعيليّة والزيديّة والعلويّة وبعض المعتزلة والإباضية أنّه مات مسلمًا، واحتجّوا بوجوه:

---

(١) وقد فصل ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة كثيرا من الأقوال: ١٤/ ٦٥-٨٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٤/ ٦٦ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق نفسه: ١٤/ ٦٨.

أحدها: قوله ﷻ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قالوا: ولا يقدر أحدٌ يدّعي أنّ أحدًا نصر محمّدًا ﷺ ووقّره نصر أبي طالب له حين لا ناصر من الخلق سواه حتّىٰ حارب قريشًا بأسرها في نصرته(١).

وقالت الإماميّة: وقوله ﷺ: «لا توارثَ بين أهل ملّتينِ»(٢) نقول بموجبه: لأنّ التوارث تفاعل ولا تفاعل عندنا في ميراثهما، واللّفظ يستدعي الطرفين كالتضارب لا يكون إلاّ من اثنين، قالوا: وحبّ رسول الله ﷺ لأبي طالب معلوم مشهور، ولو كان كافرًا ما جاز له حبُّه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وكلّنا يعلم خطبة النكاح المشهورة والتي خطبها أبو طالب عند نكاح النبيّ ﷺ خديجة ﵂.

وردَّ علىٰ حديث الضَّحْضَاح والذي رُوي في كثير من كتب الحديث(٣). وهذا الحديث هو الذي اعتمد عليه جماعة من أهل السُّنَّة ومعهم الكثرة الكاثرة من علماء الفقه والحديث أنّه مات علىٰ الشرك، وأنّه من أهل النار، وأنّ الله تعالىٰ

---

(١) الإشارات الإلهية: ٢/ ١٠١.

(٢) أخرجه الترمذي: ٤/ ٤٢٤، برقم ٢١٠٨؛ سنن أبي داود: ٢/ ١٤٠، برقم ٢٩١١. قال الألباني: حسن. انظر: إرواء الغليل: ٦/ ١٥٨، برقم ١٧١٩.

(٣) انظر: البخاري: ٧/ ١٩٣ في مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، وفي الأدب، باب كنية المشرك، وفي الرقاق باب صفة الجنة والنار؛ ومسلم: ١/ ١٩٤ حديث رقم (٢٠٩) في الإيمان، بابشفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه. والضحضاح: مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين واستعير في النار.النهاية في غريب الحديث: ٣/ ٧٥.

يخفِّض عنه عذاب جهنّم فيكون في ضَحْضَاح من النار. سبحان الله العظيم، الله الرحيم الغفور العدل المتَّصف يجعل من نصر الدعوة وناصر نبيِّه لنشر كلمة التوحيد في النار.

وإرسال أبي طالب ابنه عليًا وجعفر ليتربّيا في حوزة النبيّ ﷺ وليتعلّما تعاليم الدِّين الحنيف الذي جاء به نبيّ الرحمة من عند الله، شاهدٌ عظيم علىٰ إيمان أبي طالب.

وتدلّ الأشعار التي كان يقولها أبو طالب علىٰ أنّه كان مسلمًا وتصريحه بنبوّة النبيّ ﷺ، ومن شعره في النبيّ ﷺ القصيدة العظيمة حينما حصر قريش لهم في الشِّعْب وأخبر قريشًا أنّه غير مُسلِّم محمّدًا رسول الله ﷺ لأحد أبدًا حتّىٰ يهلك دونه، ومدحه فيها مدحًا بليغًا وأتىٰ فيها بكلام صريح في أنّه مصدّقٌ بنبوّته ومؤمن بها، ومنها:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَىٰ الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثمال[1] اليتامىٰ عصمةٌ للأراملِ[2]

ولنعلم لماذا فعل كلّ هذا أبو طالب؛ هل من أجل حبّه لمحمّد ﷺ أو لأنّه ابن أخيه فأخذته العصبيّة إليه للوقوف في وجه قريش؟ لا والله إنّه إيمانه وتوحيده وصدقه مع الدعوة، فهذا أبولهب هو عمّ النبيّ ﷺ ولكن كان موقفه موقف الكفر وقد حكم الله في أمره، أمّا أبو طالب شيخ مكّة وصاحب الكلمة فيها لم يستطع أن ينكر وحدانيّة الله ويتخلّىٰ عن دين آبائه وأجداده، ولكنّه لو أعلن ذلك لكان الدِّين لم ينتشر سرًا وأصبح انتشار الدعوة مُحالًا؛ لكثرة الحروب التي

---

(١) الثمال: بالكسر الملجأ والغياث. وقيل: هو المطعم في الشدة. النهاية في غريب الحديث: ١/ ٢١٦.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٥٢؛ العقدالفريد: ٣/ ٢٣٢، ٤/ ٢٦٤.

كانت تحدث، وهي حكمة الله في ذلك أن يكون إيمانه سرًا كإيمان أهل الكهف أسرّوا الإيمان وأظهروا الكفر فآتاهم الله أجرهم مرّتين، وهذا أبو طالب مات علىٰ دين والده عبد المطّلب كما قال أكثر أهل العلم، فعبد المطّلب مؤمنٌ موحّدٌ، وقد روت القصّة المشهورة في الكتب عندما كان أبو طالب في سكرات الموت فنظر إليه العبّاس وهو يحرّك شفتيه، فأصغىٰ إليه بأُذُنه، قال العبّاس: يابن أخي لقد قال أخي الكلمة التي أمرتَه أن يقولها، فقال رسول الله ﷺ: «**لم أسمع**»[(١)].

أقول: إنّ أبا طالب مؤمن قريش كان علىٰ الحنيفيّة وما جاء به محمّد ﷺ يتّفق مع إيمانه وإيمان كلّ مَنْ كان علىٰ الحنيفيّة، إلاّ أنّ ما فرض من الشرائع لم يكن موجبًا علىٰ أبي طالب وغيره بالعمل بها فكانت لقريش وبالأخصّ مَنْ كان منهم علىٰ الحنيفيّة تلك الطقوس الدينيّة الموحّدة لله، وهذا معروف مشهور في كلماتهم وأفعالهم في أُمور نكاحهم وانتظارهم للمَعاد، لكن أبا طالب والذي بعث بأبنائه إلىٰ الرسول ﷺ بعد إيمانه بظهور الدعوة الإلهيّة وعودة النبوّة وانعقادها في ابن أخيه، وعلمه أنّ ما هو عليه من توحيد وإيمان يتّفق مع ما جاء به محمّد ﷺ. ويظهر لنا من طالب ابن أبي طالب والذي كان يمدح الرسول ﷺ وعُدَّ من التائهين في الأرض والذي كان علىٰ دين والده وأيّد ابن عمّه في دعوته حتّىٰ خفي أمره ولم يعلمه إلاّ الله ﷻ، فلم يُعرف عنه كفر ولا شرك ولا معارضة للنبيّ ﷺ بل كانت أشعاره كلّها مدحًا للنبيّ ﷺ ودينه.

(١) البداية والنهاية: ٣/ ١٢٣.

وقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد وغيرهم كثيرٌ بروايات مختلفة من طريق سعيد بن المسيب وابن عبّاس[١] عن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦].

كما تشير المصادر عن أهل السُّنَّة كافّة بنزول الآية الكريمة في أبي طالب عمّ النبيّ ﷺ حين حضرته الوفاة.

وللمفسّر الآلوسي كلام نفيس في ذلك، أنقله بتصرّف: «ومسألة إسلامه خلافيّة، وحكاية إجماع المسلمين والمفسّرين علىٰ أنّ الآية نزلت فيه لا تصحّ، فقد ذهب الشيعة وغير واحد من مفسّريهم إلىٰ إسلامه وادّعوا إجماعَ أئمّة أهل البيت علىٰ ذلك، وأنّ أكثر قصائده تشهد له بذلك، وكأنّ مَنْ يدّعي إجماعَ المسلمين لا يعتدُّ بخلاف الشيعة ولا يعوِّل علىٰ رواياتهم، ثمّ إنّه علىٰ القول بعدم إسلامه لا ينبغي سبُّه والتكلُّم فيه بفضول الكلام؛ فإنّ ذلك ممّا يتأذّىٰ به العلويّون بل لا يبعد أن يكون ممّا يتأذّىٰ به النبيّ عليه الصلاة والسلام الذي نطقت الآية بناءً علىٰ هذه الروايات بحبِّه إيَّاه، والاحتياط لا يخفىٰ علىٰ ذي فهم، ولأجل عينٍ ألفُ عينٍ تُكرَمُ»[٢].

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١٤٠٩ حديث رقم (٣٦٧١)؛ وأخرجه أحمد ٢/ ٤٣٤ (٩٦٠٨) قال: حدثن ايحيى. وفي ٢/ ٤٤١ (٩٦٨٥) قال: حدثنا محمد بن عبيد. و«مسلم» ١/ ٤١ (٤٣) قال: حدثنا محمد بن عباد، وابن أبي عمر، قالا: حدثنا مروان. وفي (٤٤) قال: حدثنا محمد بن حاتم بن ميمون، حدثنا يحي يبن سعيد. و«الترمذي» ٣١٨٨ قال: حدثنا محمد بن بشار،حدثنا يحي يبن سعيد. و«أبويعلى» ٦١٧٨ قال: حدثنا الحارث، حدثنا مروان. و«ابن حبان» ٦٢٧٠ قال: أخبرنا أبويعلى، قال: حدثنا الحارث بن سريج، قال: حدثنا مروان بن معاوية.

(٢) تفسير الآلوسي للآية ٥٦ من سورة القصص.

أقول: وأنّه لخير ما نطق به الآلوسي رحمه الله، وقد تكلّم الكثير من المتأخّرين والمتقدِّمين فقالوا بإيمانه كالشيخ محمّد أبو زهرة في خاتم النبيّين وسبقه البرزنجي والدحلان، والسبكي والقرطبي والشعراني، والسحيمي علىٰ جوهرة اللقاني، وألّف علماء الشيعة الكثير حول هذا الأمر. والرأي عندي أنّ أئمّة أهل البيت وموافقيهم من الإماميّة والزيديّة والإسماعيليّة والعلويّة، وجمعًا من المعتزلة والإباضيّة وكثيرًا من أهل السُّنَّة والصوفيَّة والأشاعرة بأنّه ناجٍ ومؤمنٌ ونحن علىٰ ما عليه أجدادنا أهل البيت.



۞ حقيقة الزيارة والتوسّل والتبرّك ۞

الزيارة لغةً: القصد، يُقال: زاره، يزوره زيارةً وزورًا، فهو زائر وزور، وفي العرف: قصد المزور إكرامًا وتعظيمًا له واستئناسًا به(١).

وقال (تقيّ الدِّين السبكي) الشافعي(٢):

لفظ الزيارة يستدعي الانتقال من مكان الزائر إلىٰ مكان المزور، كلفظ المجيء الذي نصّت عليه الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ٦٤﴾ [النساء: ٦٤].

فالزيارة إمّا نفس الانتقال من مكان إلىٰ مكان بقصدها، وإمّا الحضور عند المزور من مكان آخر، وعلىٰ كلّ حالٍ لابدّ في تحقيق معناها من الانتقال، ولهذا إنّ مَنْ كان عند الشخص دائمًا لا يحصل الزيارة منه، ولهذا تقول: زرتُ فلانًا من المكان الفلاني(٣).

أقول: الزيارة هي الانتقال من مكان إلىٰ مكان بقصد الزيارة والتقرّب إلىٰ المزار وتأكيد محبّته وقدره لدىٰ الزائر، والسلام علىٰ المزار والاستئناس بزيارته، وهي ليست فرضيّة بل إنّها من سلامة النفس وطيب الخاطر. والزيارة لدىٰ الشيعة هي الحضور في أحد المشاهد المقدّسة(٤).

---

(١) المصباح المنير، ص ٣٥٤.

(٢) السبكي صاحب كتاب شفاء السقام، ترجمة (معجم المؤلفين: ٧/ ١٢٧).

(٣) شفاء السقام، ص ١٠١.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية باب زيارة النبي.

ويظلُّ المفهوم الصحيح لدىٰ المسلمين: أنّ الزيارة حضور ولقاء والْتِقاء قلبي معنوي يشعر به الزائر في كَنَف مَزُوره.



۞ زيارة المؤلف راجي الشفاعة والقبول بالوقوف على أعتاب قبره الشريف ۞

○ الزيارة السنية لسيّد خير البريّة ○

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السلام عليك يا سيّدي يا رسول الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا رحمةً للعالمين، وخاتَم النبيّين وسيِّد المرسلين، وقائد الغرِّ المحجَّلين، السلامُ عليك يا خير خلق الله، السلام عليك يا مَنْ علىٰ خُلُق عظيم، السلام عليك يا صاحب الحوض المورود والمقام المحمود، السلام عليك يا صاحب الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، السلام عليك يا سيّدنا وحبيبنا وقرّة أعيننا، بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، طِبْتَ حيًا وميّتًا.

الصلاة والسلام عليك يا مَنْ صلّىٰ الله عليه وملائكته المقرّبون، أشهد أن لا إله إلاّ الله شهادةً أدّخرها ليوم الأشهاد، وأعوذ بها من أهل الزيغ والإلحاد.

وأشهد أنك رسول الله ونبيه الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراط الله المستقيم.

الصلاة والسلام علىٰ مَنْ تنحلُّ به العُقد وتنفرج به الكُرب، وتقضىٰ به الحوائج، يا مَنْ لا يكمل الإيمان إلاّ بحبّه، السلام عليك وعلىٰ آلك الطيّبين الطاهرين المطهّرين؛ مَنْ أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا.

وقد صدق الله فيما أنزل عليك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وها أنا جئتك قاصدًا وقد ظلمتُ نفسي وعَظُمت ذنوبي وذلك لجهلي وتقصيري وغفلتي، فقصدتُ قبرك زائرًا وقد ضاقت حيلتي وأنت وسيلتي، فدعوتُ الله بصوت حائل خفيٍّ لأستغفر لذنبي من عند ربّي وأستشفعك وأنت شفيع المذنبين والمقبول الوجيه عند ربّ العالمين، وقد عرفت خطئي وأقررت بذنبي متوسِّلًا بك إلىٰ الله، مستشفعًا بك إليه؛ ليغفر الله لي ويكون عليَّ توّابًا رحيمًا.

اللّهُمَّ إنّي أسألُكَ وأتوجّهُ إليك بنبيّك محمّد نبيّ الرحمة، يا رسول الله إنّي أتوجّه بك إلىٰ ربّي في قضاء حاجتي ونجاح طلباتي.

اللّهُمَّ بحقّ هذا النبيِّ الأعظم اغفر لي من ذنوبي ما تقدَّم منها وما تأخَّر واعفُ عنّي وأمِتْني علىٰ سُنَّته ومحبَّته وارزقني حُسنَ الأدب معه.

اللُّهُمَّ إنّي أسألُكَ أن لا تحرمنا من الورود علىٰ حوضه المورود، واللِّقاء به والنظر إلىٰ وجهه الشريف، والشرب من حوضه شربةً هنيئةً مريئةً لا نظمأ بعدها أبدًا، واجعلني يا الله في زُمرته وتحت لوائه.

اللَّهُمَّ واجعله شفيعي المشفَّع يوم الفزع الأكبر يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلاّ مَنْ أتىٰ الله بقلب سليم.

اللَّهُمَّ بحقِّ هذا النبيّ ومنزلته عندك لا تصرفني من هذا المقام إلاّ وقد بلَّغتني حاجتي وغفرت ذنبي وقبلت توبتي، إنّك أنت السميع المجيب الغفور الرحيم ذو العرش المجيد، فعّالٌ لما تريد، ربّنا آمنَّا بما أنزلت واتَّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

اللَّهُمَّ صلِّ علىٰ سيّدنا محمّد وآله صلاةً دائمةً ناميةً لا انقطاع لأبدها ولا منتهىٰ لأمدها، واجعل ذلك عونًا لي في الدِّين والدُّنيا، إنّك واسعٌ كريمٌ.

ثمّ السلام علىٰ المخلصين أصحابك في الدُّنيا وضجيعيك في القبر المبشّرين بالجنّة أبي بكر الصدِّيق ثاني اثنين إذ هما في الغار، وعمر الفاروق سراج أهل الجنّة، جزاكم الله تعالىٰ عن صحبة نبيّكم وعن الإسلام خيرًا، وسلامٌ عليكم بما صبرتم فنِعْمَ عُقبىٰ الدار.



الصحابة يلتجؤون إلى قبر النبي ﷺ

أخرج الحافظ الحاكم في مستدركه(١) من حديث زيد بن أسلم عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ عُمَرَ، خَرَجَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ يَوْمًا فَوَجَدَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ عِنْدَ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَبْكِي، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا مُعَاذُ؟ قَالَ: يُبْكِينِي حَدِيثٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: **«الْيَسِيرُ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ، وَمَنْ عَادَىٰ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَبْرَارَ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ، الَّذِينَ إِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَىٰ، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَة»**.

خير الكلام في المداومة علىٰ زيارة قبر سيد الأنام

مما لا شك فيه أن زيارة قبر النبي الأعظم من أعظم الأعمال ولا شك أنه تشد الرحال إلىٰ قبره الشريف ولولا وجود القبر لما كان للمكان غاية يشد إليها فالمكان بالمكين والدار بساكنيها وقد أكدت السنّة استحباب زيارة قبر النبيّ ﷺ حيث روىٰ ذلك وعمل جُل الصحابة وتبعهم السلف الصالح من التابعين واهتم أهل المذاهب والفرق بذلك وعني به أئمة المذاهب الأربعة وأصحاب السنن والمسانيد في كتبهم.

---

(١) المستدرك على الصحيحن ١/ ٤، وأخرجه ابن ماجه برقم (٣٩٨٩)، والطبراني في «الكبير» ٢٠/ (٣٢١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (٢/ ٤٦١)، والطحاوي في الشرح (١٧٩٩)، وصححه الحاكم وقال حديث صحيح ولم يخرج في الصحيحين، ووافقاه المنذرى والذهبى، وصححه الدويش في التنبيه (ص٩٤٩، والشحود في الخلاصة (ص١٩٠).

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي**»[١] وقد حاول البعض من أهل الصنعة الحديثية بتضعيف هذا الحديث إلا أن جمعًا من الأئمة الأعلام قد وفقوا بالرد عليهم علىٰ منهاج المحدثين فلم يكن لتضعيفهم أثر في ذلك.

ولَمّا ظهرت بدعة التشكيك في زيارة قبر النبيّ الأعظم وكان أشهر المخالفين في هذا الأمر ابن تيمية فلم يخالف ويشكك في ذلك سوىٰ ابن تيميه ومن سار علىٰ ركابه.

---

(١) رواه الدارقطني في سننه- كتاب الحج، رقم الحديث: **٢٦٦٩**، السنن الكبرى ﷺ البيهقي **٥: ٢٤٥**، شعب الايمان ﷺ البيهقي **٣: ٤٩**، الاحكام السلطانية ﷺ الماوردي: **١٠٩**، نيل الاوطار ﷺ الشوكاني **٥: ١٠٨**. رواه أبو علي بن السكن في السنن الصحاح، وعبد الحق في الأحكام، والشيخ تقي الدين السبكي من المتأخرين وصححه باعتبار مجموع طرقه **(٢/ ٢٦٧)** من تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير لابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى، وقد رواه ابن خزيمة في صحيحه، وابن أبي الدنيا، والطبراني، والمحاملي، والبزار، والعقيلي، وابن عدي، والدارقطني، والبيهقي، وأبو الشيخ، وابن عساكر، وأبو طاهر السلفي، وعبد الحق، والذهبي، وابن الجوزي، كلهم عن عمر -رضي الله تعالى عنه- وصححه عبد الحق، وحسنه الذهبي. قلت: وبعد الحسن فلا شك في صحته لكثرة الطرق، ففي الباب عن بكر بن عبد الله، رواه أبو الحسن يحي بن الحسن في أخبار المدينة وعن عمر الفاروق، وعن ابن عباس، وعن أنس بن مالك، وعن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وقال الشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي في كتابه المغني، وهو من أعظم كتب الحنابلة التي يعتمدون عليها: فصل: يستحب زيارة قبر النبي ﷺ. وذكر حديث ابن عمر من طريق الدارقطني ومن طريق سعيد بن منصور عن حفص، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه من طريق أحمد: ما من أحد يسلم علي عند قبري.

قال ابن تيمية في كتابه المسمىٰ الجواب الباهر في زوار المقابر ما نصه[١]:
وأما من قصد السفر لمجرد زيارة القبر ولم يقصد الصلاة في مسجده وسافر إلىٰ مدينته فلم يُصل في مسجده ﷺ ولا سلم عليه في الصلاة بل أتىٰ القبر ثم رجع فهذا مبتدع ضال مخالف لسنة رسول الله ﷺ ولإجماع أصحابه ولعلماء أمته.

وقد قام جمع من الأئمة الأعلام بالرد علىٰ عليه وعلىٰ المشككين والمضعفين، وممن كان له السبق في هذا الباب وأقام الحجة الإمام تقي الدين السبكي الذي جمع ما رواه الحفّاظ، وصحّح كثيرًا من أسانيدها.

وقد قام بنفس ما قام به الإمام السبكي الكثير من العلماء والحفاظ والمحدثين من تصحيح للإسناد وذكر لمصادر الروايات علىٰ وجه بديع.

ولعلّي اليوم لا أضيف جديدًا بقدر أني عيال علىٰ ما كتبه من قبل الأئمة الإعلام ولكني عملت بمنهج أصولي في عقيدة المؤمنين في فضل لزيارة قبر النبي الأعظم عليه الصلاة والسلام فعملت علىٰ انتقاء الأقوال باختصار ليس لإقامة الحجة في أمر فصل فيه وإنما لننير بصيرة من طمست أعينهم عن الحقيقة وتنطعوا وتزمتوا لمشايخهم وجمدوا عقولهم علىٰ آراء مشايخهم ولم يجعلوا للعمل بالقديم أصل وجادلوا من غير علم ولا فهم وإنما ردوا ووقفوا في هذا الأمر تبعًا لما أملي عليهم واداءًا لمهامهم الوظيفية فالله أسال أن يريهم الحق ويعلمهم الصواب.

وسأتعرض باختصار لأقوال أئمة الإعلام لتبيان الحقيقة الفصل في هذا الأمر وبالله التوفيق:

---

(١) الجواب الباهر في زوار المقابر (ص٢٢).

قال الحافظ ابن حجر عن زيارة قبر النبي ﷺ في الفتح(١): قال الكرماني: وقع في هذه المسألة في عصرنا في البلاد الشامية مناظرات كثيرة وصنف فيها رسائل من الطرفين؛ قلت: يشير إلىٰ ما رد به الشيخ تقي الدين السبكي وغيره علىٰ الشيخ تقي الدين بن تيميه وما انتصر به الحافظ شمس الدين بن عبد الهادي وغيره لابن تيميه وهي مشهورة في بلادنا والحاصل أنهم ألزموا ابن تيميه بتحريم شد الرحل إلىٰ زيارة قبر سيدنا رسول الله ﷺ وأنكرنا صورة ذلك وفي شرح ذلك من الطرفين طول **وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيميه** ومن جملة ما استدل به علىٰ دفع ما ادعاه غيره من الإجماع علىٰ مشروعية زيارة قبر النبي ﷺ ما نقل عن مالك أنه كره أن يقول زرت قبر النبي ﷺ وقد أجاب عنه المحققون من أصحابه بأنه كره اللفظ أدبا لا أصل الزيارة فإنها من أفضل الأعمال وأجلّ القربات الموصلة إلىٰ ذي الجلال وأن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع والله الهادي إلىٰ الصواب.

وقال المحدث الكشميري في الفيض(٢): وقد افتتن الحافظُ ابنُ تيميةَ لأجل هذا الحديث في الشام مَرَّتين. فَحُبِس مرةً مع تلميذِه ابنِ القيِّم، وأخرىٰ وَحدَه حتىٰ تُوَفِّي فيه. وكانَ مِنْ مذهِبه أنَّ السفرَ إلىٰ المدينةِ لا يجوز بِنِيَّة زيارةِ قَبْره ﷺ لأجل هذا الحديث نعم يُستحَب له بنيةِ زيارةِ المسجد النبويّ، وهي من أعظمِ القُرُبات، ثُم إذا بلغ المدينةَ يُستحب له زيارةُ قَبْرِه ﷺ أيضًا، لأنه يصيرُ حينئذٍ من حوالي البلدة، وزيارةُ قبورها مُستحبةٌ عنده.

(١) فتح الباري (٢/ ٦٦٤).

(٢) فيض الباري شرح صحيح البخاري ٣/ ٢١٥ حديث ١١٨٩.

وقال الحافظ النووي في الأذكار[١]: إنه ينبغىٰ لكل من حج أن يتوجه إلىٰ زيارة قبره ﷺ أكان ذاك صوب طريقه أم لم يكن، فإنها من أعظم القربات وأنجح المساعي وأفضل الطلبات.

قال الإمام العيني شارح صحيح البخاري[٢]: قوله: قال: وحكىٰ الرافعي عن القاضي بن كج أنه قال: إذا نذر أن يزور قبر النبي ﷺ فعندي أنه يلزمه الوفاء وجهًا واحدًا.

قال الحافظ أبو زرعة العراقي[٣]: لو نذر إتيان مسجد المدينة لزيارة قبر النبي ﷺ لزمه ذلك لأنه من جملة المقاصد التي يؤتىٰ لها ذلك المحل.

قال الشيخ منصور البهوتي الحنبلي في كشافه[٤]: «فصل: وإذا فرغ من الحج استحب له زيارة قبر النبي ﷺ وقبري صاحبيه. إلىٰ أن قال: (تنبيه) قال ابن نصر الله: لازم استحباب زيارة قبره ﷺ استحباب شد الرحال إليها لان زيارته للحاج بعد حجه لا تكن بدون شد الرحال فهذا كالتصريح باستحباب شد الرحل لزيارته ﷺ».

قال الإمام عز الدين بن جماعة في هدايته[٥]: «قوله: (إذا انصرف الحجاج والمعتمرون عن مكة شرفها الله تعالىٰ وعظمها استحب لهم استحبابا مؤكدا أن يتوجهوا إلىٰ مدينة سيدنا رسول الله ﷺ للفوز بزيارته ﷺ فإنها من أهم القرب وانجح المساعي)».

---

(١) الأذكار في كتاب الحج (ص٢٦٨).
(٢) عمدة القارى شرح صحيح البخارى ج٧ص٢٥٤.
(٣) طرح التثريب في شرح التقريب(٦/ ٤٠).
(٤) كشاف القناع على متن الاقناع ج٢ ص ٥٩٨.
(٥) هداية السالك الى المذاهب الاربعة فى المناسك ج ٣ ص ١٣٦٩.

قال الإمام الفيروزآبادي[١]: اعلم أن الصلاة علىٰ النبي ﷺ عند قبره آكد فيستحب إعمال المطىٰ لأدراك الفوز بهذا الشرف العظيم والمنصب الكريم. . إلىٰ أن قال: وممن صرح باستحبابها وكونها سنة من أصحابنا الرافعي في آواخر باب إعمال الحج والغزالي في الإحياء والبغوىٰ في التهذيب والشيخ عز الدين بن عبد السلام في مناسكه وأبو عمرو بن الصلاح وأبو زكريا النووي رحمهم الله، ومن الحنابلة: الشيخ موفق الدين والإمام أبو الفرج البغدادي وغيرهما، ومن الحنفية: صاحب الاختيار في شرح المختار له عقد لها فصلا وعدّها من أفضل المندوبات المستحبات، أمّا المالكية: فقد حكىٰ القاضي عياض عنهم الإجماع علىٰ ذلك. وفي كتاب تهذيب المطالب لعبد الحق الصقلي عن الشيخ أبي عمران المالكي أن زيارة قبر النبي صلىٰ الله عليه واجبة. قال: عبد الحق: يعنىٰ من السنن الواجبة.

قال الشوكاني الزيديّ في نيله[٢]: فائدة: زيارة قبر النبي ﷺ إلىٰ أن قال: وقد اختلفت فيها أقوال أهل العلم فذهب الجمهور إلىٰ أنها مندوبة وذهب بعض المالكية وبعض الظاهرية إلىٰ أنها واجبة وقالت الحنفية إنها قريبة من الواجبات وذهب ابن تيميه إلىٰ أنها غير مشروعة.

وجاء في الموطأ[٣]: من رواية يحيىٰ الليثي عن مالك عن عبد الله بن دينار، أنه قال: رأيت عبد الله بن عمر يقف علىٰ قبر النبي ﷺ، فيصلىٰ علىٰ النبي، وعلىٰ أبي بكر، وعمر.

---

(١) كتاب الصلات والبشر ص ١٤٧.

(٢) نيل الاوطار الجزء الخامس ص ١٠٧.

(٣) الموطأ (٤٥٨)، أخرجه ابن أبي شيبة (١١٩١٥)،و البيهقي في الكبرى (١٠٥٧١).

قال الآجري في الشريعة[١]: ما أحد من أهل العلم قديمًا وحديثًا ممن رسم لنفسه كتابًا نسبه إليه من فقهاء المسلمين فرسم كتاب المناسك إلا وهو يأمر كل من قدم المدينة ممن يريد حجًا أو عمرة أو لا يريد حجًا ولا عمرة وأراد زيارة قبر النبي ﷺ والمقام بالمدينة لفضلهما، إلا وكل العلماء قد أمروه ورسموه في كتبهم وعلّموه كيف يسلم علىٰ النبي ﷺ وكيف يسلم علىٰ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، علماء الحجاز قديمًا وحديثًا، وعلماء أهل العراق قديمًا وحديثًا، وعلماء أهل الشام قديمًا وحديثًا، وعلماء أهل مصر قديمًا وحديثًا، وعلماء أهل خراسان قديمًا وحديثًا، وعلماء أهل اليمن قديمًا وحديثا، فلله الحمد علىٰ ذلك.

وقال الحليمي في المنهاج[٢] **عن تعظيمه صلوات ربي وسلامه عليه**: فهذا كان من الذين ورثوا مشاهدته وصحبته، فأما اليوم فمن تعظيمهم زيارته.

وقال الماوردي في الحاوي[٣]: فأما زيارة قبر النبي ﷺ فأمور بها ومندوب إليها.

وقال البيهقي في الشعب[٤]: أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدِ بْنُ أَبِي عَمْرٍو، أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا، حَدَّثَنِي الْحَسَنُ بْنُ الصَّبَّاحِ، حَدَّثَنَا مَعْنٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُنِيبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «رَأَيْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ أَتَىٰ قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ فَوَقَفَ فَرَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ افْتَتَحَ الصَّلَاةَ فَسَلَّمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ».

---

(١) الشريعة (٢/ ٥٧٢).
(٢) المنهاج (٢/ ١٣٠).
(٣) الحاوي (٤/ ٢١٤).
(٤) شعب الإيمان (٣٨٦٧).

أقول: أَعَلَّ البعض هذا الخبر برواية منيب بن عبد الله، قلت: منيب بن عبد الله بن أبي أمامه بن ثعلبة الأنصاري، مدني من أتباع التابعين، وثقه ابن حبان، وقال الذهبي في الكاشف: وثق، وابن حجر في التقريب: مقبول.

وقال القاضي عياض في الشفا[١]: زيارة قبر رسول الله (صلىٰ الله عليه وآله): سنّة، أجمع عليها المسلمون. وروىٰ غيره إجماع المسلمين قولًا وفعلًا علىٰ استحباب زيارته، وصريح بعضها.

وقال القاضي عياض في الشفا أيضًا[٢]: وقال نافع: كان ابن عمر يسلم علىٰ القبر، رأيته مئة مرة وأكثر، يجيء إلىٰ القبر فيقول: السلام علي النبي ﷺ، السلام علىٰ أبي بكر، السلام علىٰ أبي، ثم ينصرف.

وقال السبكي في الشفاء[٣]: قال القاضي أبي الطيب: ويستحب أن يزور النبي ﷺ بعد أن يحج ويعتمر.

وقال المرداوي الحنبلي في الإنصاف[٤]: فإذا فرغ من الحج: استحب له زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه، هذا المذهب وعليه الأصحاب قاطبة، متقدمهم ومتأخرهم.

قال الكشميري في فيضه: وقال الشيخ ابن الهُمام رحمه الله تعالىٰ[٥]: إن زيارة قبره ﷺ مستحبة، وقريب من الواجب، ولعله قال قريبا من الواجب نظرا إلىٰ

(١) الشفا (ص٥٨٢).
(٢) الشفا (ص٥٨٦).
(٣) شفاء السقام (ص١٥٥).
(٤) الإنصاف (٤/ ٤٩).
(٥) فيض الباري شرح صحيح البخاري ٣/ ٢١٥حديث ١١٨٩.

هذا النزاع، وهو الحق عندي، فإن آلاف الألوف من السلف كانوا يشدون رحالهم لزيارة النبي ﷺ ويزعمونها من أعظم القربات، وتجريد نياتهم أنها كانت للمسجد دون الروضة المباركة باطل، بل كانوا ينوون زيارة قبر النبي ﷺ قطعا.

قال ابن الملقن في توضيحه[١]: ومن الموضوعات: حديث ابن عمر المرفوع «ما بين منبري وقبري و(اصطوانة) التوبة روضة من رياض الجنة.

إذا تقرر ذلك، فالصحيح في الرواية «بيتي» وروي مكانه «قبري»، وجعله بعضه تفسيرًا لـ«بيتي»، قال زيد بن أسلم، والظاهر بيت سكناه، والتأويل الآخر جائز، لأنه دفن في بيت سكناه، وروي[٢]: «ما بين حجرتي ومنبري»، والقولان متفقان في حجرته، وهي بيته.

وقام الإجماع علىٰ أن قبره أفضل بقاع الأرض كلها.

إلىٰ أن قال: فيكون معناه التحريض علىٰ زيارة قبره ﷺ، والصلاة في مسجده.

خلاصة القول وعقيدتنا في ذلك: فقد أوردنا نتف من أفعال الصحابة والسلف وبعض من أقوال العلماء في زيارة قبر النبي ﷺ، وبذلك الحق أن يلازم ذلك الموضع بالطاعة يؤدي بالفضيلة عن غيره طوبىٰ لمن بلغ العلا بزيارته وكشفت له أسرار شفاعته وحسنت أعماله بالوقوف في حضرته متأدبًا، وهنيئًا لمن زار وداوم علىٰ زيارة قبره الشريف ﷺ، اللهم أدم علينا نعمة مداومة الزيارة والوقوف بحضرته وقبره الشريف.

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ٩/ ٢٤٩-٢٥١.

(٢) رواه أحمد ٢/ ٥٣٤.

عذرًا أيها الحبيب إن كان هنالك أناس من أمتك لهم في حقك جفاء، فقد حرموا أنفسهم من خيرك في الدنيا والآخرة.

عذرًا يا حبيب الله أن كان لك جيران لا يقفون بقبرك ولا يعرفون قد مجاورتك.

عذرًا يا سيدي يا رسول الله لمن وقف بقبرك متنطعًا وأساء الأدب في حضرتك لمن قصد قبرك.



۞ كلمة إلى من تشدد وتنطع ۞

أقول وبالله التوفيق والزيارة الشرعيّة لسيّد خير البريّة هي ارتباط ديني بين المخلوق وربّه، وتمثّل زيارة الرسول الأعظم ﷺ ارتباطًا معنويًا وتعلُّقًا ممّا جعلَها محلَّ اهتمام المسلمين من أهل بيت رسول الله ﷺ وصحابته الكرام والتابعين من بعدهم والسلف الصالح، فهي من الأعمال التَّقرُّبية التي اهتمّت بها جميع الفرق الإسلاميّة منذ صدر الإسلام إلىٰ وقتنا هذا، ولذا فقد كان المسلمون -ولا زالوا- يشدُّون الرِّحال من مختلف بقاع الأرض متحمِّلين مشاقَّ ومخاطر شتَّىٰ ومصاريف ماليَّة باهظة؛ لكي يتسنَّىٰ لهم زيارة بيت الله جلَّ وعلا والاستئناس بزيارة قبر حبيبه المصطفىٰ ﷺ وصحابته المخلصين، والوقوف في هذه المشاهد للوصول إلىٰ المقاصد وإظهار مدىٰ الشغف والتعلّق الروحي بقبر الحبيب المصطفىٰ ﷺ، كيف لا وهم بحضورهم هناك فعندما يحلُّون عند قبر رسول الله ﷺ يكونوا قد حلُّوا بروضة من رياض الجنّة وحُجرات الرسول في بيته الذي تعلَّم منها الناس الوحدانيّة وشعائر دينهم من صلاة وصوم وزكاة وحجٍّ، من تلك الحُجرات انتشر الإسلام إلىٰ جميع بقاع الأرض، فتلك البقعة التي ضمّت جسد أشرف خلق الله كلِّهم وقبَّلت ذرَّات ترابها أعضاءه فهي في الأصل محلُّ قيامه وقعوده، وموضع ركوعه وسجوده وتسبيحه وتهليله وتكبيره، ذلك الموضع الذي طالما ناجىٰ فيه خير الرُّسل ربَّه جلَّ جلاله، وارتبطت ببارئها روحه، وأطال وقوفه وسجوده وسالت دموعه تضرّعًا في تلك البقعة التي ما برِح فيها تسبيح الملائكة ونداء خاتم الرسل يتموّج فيه، فوضع في هذا المكان المقدّس جبهته حيث موضع سجوده ﷺ، ما أزكىٰ أن يسير العبد للوصول إلىٰ قبره وتعفير وجهه بتربته الطاهرة، فهناك صلّىٰ ملائكة الله المقرّبون علىٰ الحبيب

المصطفىٰ عند انتقاله عن الدُّنيا، هناك مهبط الملائكة في كلّ صباح ومساء، ومزار الأولياء الصالحين، ومهوىٰ أفئدة العباد المتزلّفين لربّ العالمين.

هذه هي حقيقة الطقوس الدينيّة لعباد الله في هذا المكان في كلّ عام تهوي القلوب للحجّ إلىٰ بيت الله الحرام ثمّ لزيارة قبر الحبيب المصطفىٰ ﷺ، ويحجّ المسلمون كلُّهم علىٰ شكل واحد مع اختلاف ألوانهم وتنوّع درجاتهم الدنيويّة؛ فالفقير الذي طالما يجمع مالًا طيلة حياته ليحجَّ إلىٰ بيت الله ويزور مسجد وقبر نبيّه ﷺ بعدما تحمّل جميع المشقّات وركب جُلَّ أنواع المواصلات فيتمَّ حجّه ويتَّجه إلىٰ مدينة رسول الله ﷺ ليتقرَّب بالزيارة ويمتِّع ناظريه بتلك الأماكن العظيمة وأثرها في الدعوة الإسلاميّة لا سيَّما أرض قد آوت جسد رسول الله ﷺ.

اعلم يا أخي: أنّه جاء لزيارة سيّدنا محمّد وليس لعبادة سيّدنا محمّد ﷺ، واعلم أنّه جاء لزيارة شفيعه يوم القيامة وليس لإشراكه مع الله في العبادة، واعلم أنّه جاء موحِّدًا لله ومصدِّقًا لرسوله محمّد ﷺ، واعلم أنّه جاء وقد آمن علىٰ الفطرة، واعلم أنّ الإيمان لا يكمل إلاّ بوحدانيّته الصادقة ومحبّة محمّد ﷺ، واعلم أنّ دينه الإسلام ونبيّه محمّد ﷺ، واعلم يمن تشدد وتنطع أنّ السرائر لا يعلمها إلاَّ الله.

فيا حسرتاه علىٰ مَنْ جازف وكفَّر واعتلىٰ منبره وندّد وبدَّع وشرَّك، وليس أيّ منبر وليس أيّ محراب، بل منبر ومحراب رسول الله ﷺ، اعلم أنّك تخطب وجارك رسول الله ﷺ وقد أستقبلت زواره لتحطّم قلوبهم وتَّنبهم أنّكم تعنَّيتم وتكلَّفتم فزيارتكم للمدينة والرسول ﷺ غير واجبة وليس لكم هنا داعٍ أو مجيبٌ.

ولله درّ الإمام المجتبىٰ ابن الإمام عليّ عليهما السلام حينما حضرته الوفاة وكان يوصي أخاه الإمام الحسين عليه السلام «أنّه إذا غسَّلتموني وكفَّنتموني وصلَّيتم عليَّ فردُّوني إلىٰ قبر جدّي لأُجدّد به عهدًا قد مضىٰ»، هذا الإمام الحسن سبط الرسول وأحد مَنْ أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا، وهو علىٰ عهد قريب بجدّه ولكنّه جعل ذلك من وصاياه؛ لأنّه يعلم ما في الزيارة وما في ذلك الموضع الشريف من بركة تُرجىٰ وشفاعة تُؤمَّل. اللَّهُمَّ اكتبنا من الذين رضيت عنهم وعرفوا قدر حبيبك المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وسلم.

ولم يكن أمر زيارة المدينة للمسلمين في الحجّ والعمرة منكرًا بل علىٰ اختلاف المذاهب يُنصُّ بإجماع علىٰ أنّ زيارته لهي من أفضل الأعمال.

التبرّك والتوسّل وإثبات ذلك

لقد حظيت مسألة التوسُّل والاستغاثة بالأنبياء باهتمام المسلمين علىٰ طول التاريخ؛ لِمَا لهم صلوات الله وسلامه عليهم من المنزلة والقُرب من الباري جلَّ وعلا.

وممّا لا شكّ فيه أنّ شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم موضع احترام وتقديس للمسلمين في حياته ومماته باعتباره أشرفَ المخلوقات وأقربها إلىٰ الله تعالىٰ، وقد اختاره الله تعالىٰ شفيعًا لأُمّته ووسيلةً لبلوغهم الولاية والرُّقيّ في حياته وبعد مماته صلى الله عليه وآله وسلم.

ولَعلِّي قبل الخوض في مسألة التوسّل لابدَّ لي أن أُعرِّف التوسُّل.

فالتوسُّل: من: وسلت إلىٰ ربّي وسيلة: عملت عملًا أتقرّب به إليه.

وقال (الجوهري): الوسيلة ممّا يُتقرّب به إلىٰ الغير. والجمع: الوُسُل والوسائل[(١)].

ولا أرىٰ أنّ مسألة الوسيلة تُعدُّ محلَّ خلاف بما تحمل في مضمونها؛ لأنّ ذلك أمرٌ قد حُسِم كما عرفت، ولا نريد كما فعل أصحاب البقرة بقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ قالوا: ما لونها؟! حتّىٰ حصلوا علىٰ أوصافها ثمّ قالوا: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾، ولم يذبحوا فعصوا أمر ربّهم. والقصّة أشهر من أن تُعرض فهي من القصص القرآنيّة، وكان لهذه القصّة سورة في كتاب الله باسمها؛ لعظمة ما جاء فيها من الأحداث التي تؤكّد جحود الإنسان في عبادته وأفعاله.

فقد أمر الله ﷻ عباده بدعائه بأسمائه الحسنىٰ فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف: ١٨٠].

كما أنّ التوسّل بالقرآن الكريم والسؤال به توسّل بفضله ﷻ ورحمته التي وسعت كلَّ شيء، ومع ذلك كلِّه يجب علىٰ المتوسِّل التحقُّق من وجود دليل علىٰ جواز هذا النوع من التوسُّل.

من التوسُّل بالأعمال الصالحة وذلك فإنَّ المتوسِّل يقوم بتقديم شيء منَ الأعمال إلىٰ ربِّه بطاعته؛ ليستجيب دعاءه، فلا شكَّ أنَّ العمل الصالح أحسن ما يتقرَّب به العبد إلىٰ ربِّه؛ فقد توسَّل سيِّدنا إبراهيم عليه السلام إلىٰ ربِّه بعمله الصالح لربِّه وامتثاله له، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا

---

(١) الصحاح، مادة «وسل».

مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

فسيِّدنا إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام عَمِلا لله تبارك وتعالىٰ عَمَلًا وهي بناء البيت وَطلبَاْ عدَّة أُمور وهي ربَّنا تقبَّل منَّا، واجعلنا مسلمين لك، ومن ذرِّيتنا أُمَّة مسلمة لك، وأرِنا مناسكنا، وتُبْ علينا.

وهذا يؤكِّد أنّ هنالك صلةً بين العمل الصالح والدُّعاء، وأنّه تمسَّك بالأوّل ليستجيب دعاءه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

وكذلك ترىٰ أنّ عطف طلب الغفران بالفاء علىٰ قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ ففاء التفريع تُعرِب عن صلة بين الإيمان وطلب الغفران، فما من مصلحة إلاّ ويرجو العفو والمغفرة ليرتقي بها إلىٰ الجنّة.

وقد ذكرنا مسبقًا أنَّ للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم مكانةً مرموقةً عند ربّه ليس لأحد مثلها، والقرآن الكريم أشار إلىٰ تلك المكانة المرموقة ولزوم توقيره وتكريمه في مواضع كثيرة، بل إنَّ هذا اختصَّ بأُمور عدَّة كالشفاعة والوسيلة والدرجة الرفيعة.

فكانت لهذه المنزلة عند الله بأنَّه حثَّ المسلمين علىٰ التوسُّل بالنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّه تبارك وتعالىٰ قد حثَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مرارًا علىٰ الاستغفار للمؤمنين وذلك في عدَّة آيات بيِّنات، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ [الممتحنة: ١٢].

ومن هذه الآيات يتبيَّن لنا أنَّ النبيَّ تُستجاب دعوته ويُقبل استغفاره، ولأجل تلك الخصوصيّة نرىٰ أنّه صلى الله عليه وآله يأمر المذنبين من المسلمين إلىٰ التمسُّك بذيل

دعائه، ويأمرهم بأن يحضروا الرسول الأعظم ﷺ ويستغفروا الله في مجلسه ويسألونه أن يستغفر لهم أيضًا.

إنَّ التوسُّل بدعاء الإنسان الأمثل كان رائجًا في الأمم السابقة، حيث نرىٰ أنَّ أبناء النبيِّ يعقوب عليه السلام بعدما كُشف أمرهم وبانَ ظلمهم توسَّلوا بأبيهم ليستغفر لهم الله تعالىٰ، قالوا له: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يوسف: ٩٧].

وقد استجاب لهم ووعدهم وأكّد لهم المغفرة وحسن ظنِّه بالله بقوله: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: ٩٨].

وفي هذه الآيات دلالة واضحة علىٰ أنّ رحمة الله الواسعة تارةً تنزل علىٰ العبد مباشرةً وبدون واسطة، وأُخرىٰ تنزل علىٰ طريق أفضل خلائقه وأشرف رسله، بل مطلق رسله.

أقول: فكيف يُعدُّ هذا الدُّعاء منافيًا للتوحيد، وكيف يُعدُّ من الشرك علىٰ زعمهم؟!

فعدم ورود الاستنكار والوعيد علىٰ الأبناء بتوسُّلهم هذا بأبيهم، وكذلك استجابته عليه السلام لهم، يدلُّ دلالة قاطعة علىٰ المشروعيَّة التامَّة لمثل ذلك.

وبهذا فقد علم أنَّ التوسُّل بالأنبياء وخاصّةً نبيّنا وحبيبنا المصطفىٰ سُنَّة حسنة مستندة إلىٰ القرآن ومبنيَّة علىٰ السُّنَّة المطهَّرة كما جاء في أحاديث وروايات عديدة، ولكنَّنا نجد أنَّ بعض علماء الناس قد انفردوا بمخالفة هذا الأمر ووصفوا التوسُّل بالنبيِّ ﷺ بأنّه بدعة وقالوا: إنَّ البدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النار، فهم بذلك أقرُّوا بالشرك وهذه مجازفة كبرىٰ بالتكفير، ومَن كَفَّر مسلِمًا بغير حقٍّ هو الكافر.

مشروعيّة التوسُّل بالنبيِّ ﷺ:

سوف أعرض مشروعيَّة التوسُّل من كلِّ الجوانب؛ فقد جاء حول توسُّل آدم عليه السلام به قبل وجوده، فقد جاء في الحديث أنَّ آدم توسَّل بالنبيِّ ﷺ قال الحاكم في المستدرك: حدَّثنا أبو سعيد عمرو بن محمّد بن منصور العدل، حدَّثنا أبو الحسن محمَّد بن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، حدّثنا أبو الحارث عبد الله بن مسلم الفِهري، حدّثنا إسماعيل بن سلمة، أنبأنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جدِّه عمر رضي الله عنه وقال: قال رسول الله ﷺ: لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا ربّ! أسألك بحقِّ محمَّد لَمَا غفرتَ لي، فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمَّدًا ولم أخلقه؟ قال: يا ربِّ، لأنّك لما خلقتني بيدك -أي بعنايتك- ونفخت فيَّ من روحك -أي الرُّوح المشرَّفة عِندَك- رفعتُ رأسي فرأيت علىٰ قوائم العرش مكتوبًا: لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله، فعلمت أنّك لم تُضِف إلىٰ اسمك إلاّ أحبَّ الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم؛ إنَّه لأحبُّ الخلق إليَّ، اُدعني بحقِّه فقد غفرت لك، ولولا محمَّد ما خلقتك[١].

والكلام في سند الحديث بأنَّ رجاله ثقات، إلاَّ أنَّه وقع الكلام في واحد منهم وهو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فقد ضعَّفه كلٌّ من النسائي والدار قطني والعقيلي والبيهقي، وقال فيه البخاري: «ضعَّفه علي جدًا».

التوسُّل والاستغاثة: وهي جواز التوسُّل بالنبيِّ واستغاثته في الشدَّة والكرب وطلب الاستغفار منه بالتوجُّه به إلىٰ الله ﷻ في حياته ومماته وفي كلِّ الأحوال، فهو حيٌّ في قبره يسمع ويرىٰ ويصلي ويستغفر وتُعرض عليه الأعمال.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه إذ قال: هذا حديث صحيح الإسناد. ورواه الحافظ السيوطي في الخصائص النبوية وصححه.

أقول: وقد صحَّحه الحاكم علىٰ شرط الشيخين ورواه السيوطي في الخصائص النبويَّة وصحَّحه[١]. ورواه البيهقي في دلائل النبوَّة وهو لا يروي الموضوعات كما صرَّح بذلك في مقدِّمة كتابه، وصحَّحه أيضًا القسطلاني والزرقاني في المواهب اللدنيَّة، والسبكي في شفاء السقام، وقال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وفيه مَنْ لم أعرفهم، وتكلَّم فيه مؤخَّرًا المالكي في كتابه مفاهيم يجب أن تُصحَّح، وعرض شواهد له. وجاء من طريق آخر عن ابن عبّاس بلفظ: «فلولا محمَّد ما خلقت آدمَ ولا الجنَّة ولا النار»[٢].

وقد اختُلف في أمر رجال الحديث فتكلّم في درجة الحديث وردّه وحكم بوضعه كالذهبي وغيره، وبعضهم حكم بضعفه، وبعضهم حكم بنَكارَته[٣].

وبهذا يظهر لنا أنّه في هذا الحديث لم تتّفق الكلمة علىٰ حكم واحد؛ فهو بين الإثبات والنفي والقبول والردّ والتوقّف بناءً اختلافهم في درجة الحديث إمّا من ناحية السَّند وعدم ثبوت الحديث، وفي تصوّري أنّ الحكم لبعض من يدّعي أنه من أهل الحديث هنا يكون علىٰ الأهواء والعصبيّة وغيرَ مجانب للحقّ، ولعلّنا نجد التناقض بين بعض مؤلّفات المنتسبين إلىٰ السلفية «**الوهابية**» في مسألة الأحاديث؛ إذ أنّه يضعِّف حديثًا قد ضعَّفه مَنْ علىٰ منهجهم فيكونون كلمة

(١) ذكر السيوطي الحديث في تفسيره الدر المنثور، وفي الخصائص، وفي كتاب الرياض الأنيقة، ص ٤٩، وقال: أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه البيهقي في دلائل النبوة وقال: تفرد به عبد الرحمن وهو ضعيف، ونقل شاهدا له في الخصائص عن ابن عباس، وقال: أخرجه الحاكم وصححه.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك وقال، صحيح الإسناد، وصححه شيخ الإسلام البلقيني، وأورده ابن الجوزي ونقله ابن كثير في البداية.

(٣) المسمى مفاهيم يجب أن تصحح، ص ١٢١.

واحدة ويستشهدون بمثله في موضع آخر، فقد ذكر ابن تيميّة حديثين في هذا الموضوع، فقال: روىٰ أبو الفرج الجوزي بسنده إلىٰ ميسرةَ قال: «قلت: يا رسول الله، متىٰ كنت نبيًا؟ قال: لما خلق الله الأرض واستوىٰ إلىٰ السماء فسواهنَّ سبع سماوات، وخلق العرش كتب علىٰ ساق العرش: محمَّد رسول الله خاتم الأنبياء، وخلق الجنّة التي أسكنها آدم وحوّاء فكتب اسمي علىٰ الأبواب والأوراق والقِباب والخيام، وآدم بين الروح والجسد، فلمَّا أحياه الله تعالىٰ نظر إلىٰ العرش فرأىٰ اسمي فأخبره الله أنَّه سيِّد ولدك، فلمّا غرّهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه».

وروىٰ أبو نعيم الحافظ في كتابه دلائل النبوّة من طريق الشيخ أبي الفرج، حدّثنا سليمان بن أحمد، حدّثنا أحمد بن رشيد، حدّثنا أحمد بن سعيد الفِهري، حدّثنا عبدالله بن إسماعيل المدني، عن عبد الرحمن بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطّاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال: يا ربّ! بحقِّ محمَّد إلاّ غفرتَ لي، فأوحىٰ إليه: وما محمَّد ومَنْ محمَّد؟ فقال: يا ربّ إنّك لما أتممت خلقي رفعت رأسي إلىٰ عرشك فإذا عليه مكتوب: لا إله إلاّ الله محمَّد رسول الله، فعلمت أنَّه أكرم خلقك عليك؛ إذ قرنت اسمه مع اسمك، فقال: نعم، قد غفرت لك وهو آخر الأنبياء من ذرّيتك ولولاه ما خلقتك**».

فهذا الحديث يؤيّد الذي قبله، وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة[١].

وللحديث شاهد ثالث معهم وهو ما أخرجه ابن المنذر في تفسيره عن محمَّد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام قال: لما أصاب آدم الخطيئة عظُم كربه واشتدّ ندمه فجاءه جبرائيل عليه السلام فقال: يا آدم! هل

---

(١) الفتاوى: ٢/ ١٥٠.

أدلُّك علىٰ باب توبتك الذي يتوب الله عليك منه؟ قال: بلىٰ يا جبريل، قال: قُمْ في مقامك الذي تناجي فيه ربّك فمجِّده وامدَح، فليس شيءٌ أحبّ إلىٰ الله من المدح، قال: فأقول ماذا يا جبريل؟ قال: قل: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يُحيي ويُميت وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير كلُّه وهو علىٰ كلّ شيء قدير، ثمّ تبوء بخطيئتك فتقول: سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك لا إله إلاّ أنت، ربِّ إنِّي ظلمتُ نفسي وعملت السوء فاغفر لي إنَّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت، اللَّهمَّ إنّي أسألُكَ بجاه عبدك وكرامته عليك أن تغفرَ لي خطيئتي» قال: ففعل آدم، فقال الله: يا آدم مَنْ علَّمك هذا؟ فقال: يا ربّ، إنّك لما نفخت فيَّ الروح فقمتُ بشرًا سويًا أسمع وأُبصر وأعقل وأنظر رأيت علىٰ ساق عرشك مكتوبًا: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له محمَّدٌ رسول الله، فلمّا لم أرَ علىٰ إثْر اسمك ملكًا مقرّبًا ولا نبيًا مرسلًا غير اسمه علمت أنَّه أكرم خلقك عليك، قال: صدقت، وقد تُبتُ عليك وغفرتُ لك[١].

أمّا الشاهد الرابع فهو ما رواه أبو بكر الآجري في كتابه الشريعة قال: حدّثنا هارون بن يوسف التاجر قال: حدّثنا أبو مروان العثماني، قال: حدّثني أبو عثمان بن خالد، عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد، عن أبيه، أنّه قال: منَ الكلمات التي تاب الله بها علىٰ آدم قال: اللَّهُمَّ إنِّي أسألك بحقِّ محمَّد عليك، قال الله تعالىٰ: وما يدريك ما محمَّد؟ قال: يا ربّ، رفعت رأسي فرأيت مكتوبًا علىٰ عرشك: لا إله إلاّ الله محمَّد رسول الله، فعلمت أنّه أكرم خلقك[٢].

(١) الدر المنثور للسيوطي: ١/ ١٤٦.

(٢) الشريعة للآجري، ص ٤٢٧.

القول في التوسُّل:

تظلُّ العلَّة في هذا الحديث إجمالًا في سنده والذي ضعَّفه جمعٌ من الأئمَّة الأعلام؛ وهو عبد الرحمن بن زيد وهو رجل وصفه مالك بالعبادة والتقشُّف وغيره بالصلاح والعبادة، وقال أبو حاتم: ليس بقويٍّ في الحديث كان في نفسه صالحًا، وقال ابن عدي: له أحاديث حِسَان وهو ممّن احتمله الناس وصدّقه بعضهم وهو ممّن يُكتب حديثه، وترجم له ابن الجوزي وضعَّفه ولكن لم يكذِّبه أو نسبته إلىٰ الوضع، بل وصفه بالصلاح والصدق والعبادة والتقشّف، وبذلك ظهر لي أنّه ليس أحد من أهل الحديث كذَّب عبد الرحمن بن زيد أو اتَّهمه بالوضع لا سيّما أنّ الرجل من أبناء الثقات، وأبو زيد بن أسلم من الثقات، وقد ذكر الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب حديث: «أعطوا الأجير أجْرَه قبل أن يجفَّ عرقه» قال عقبه ما نصُّه: رواه ابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وقد وُثِّق.

أقول: وقد بالغ بعضهم في أمر هذا الحديث وتعرَّض فيه إلىٰ جرح الحاكم واتَّهم الحديث بالوضع وقالوا: إنّ الحاكم أبا عبدالله كان لا يبالي بوضعه بعدم المبالاة في تصحيح الموضوعات، واستشهد بقول البيهقي الذي روىٰ الحديث بعد مقدِّمة الدلائل بتصرُّف: أردت -والمشيئة لله- أن أجمع بعضَ ما بلغنا من معجزات نبيّنا محمَّد ﷺ ودلائل نبوَّته، فاستخرت الله ﷻ في الابتداء بما أردته واستعنت به علىٰ إتمام ما قصدته علىٰ نحو ما شرطته في مصنَّفاتي من الاكتفاء بالصحيح من السقيم والاجتزاء بالمعروف من الغريب إلاّ فيما لا يتَّضح المراد من الصحيح من السقيم أو المعروف عند أهل المغازي والتواريخ، ثمّ قال: وقد شرطت في أوَّل الكتاب أن لا أخرج في هذا الكتاب حديثًا أعلمه موضوعًا.

وبذلك يتَّضح أنّ البيهقي لا يروي الموضوع ولكنَّه يقبل الضعيف مع الإشارة إليه أو إلىٰ ضعف رجاله، وقد قال الذهبي عن كتاب الدلائل: «عليك به فإنَّه كلَّه هدىٰ ونور» كذا في شرح المواهب اللدنيَّة.

والظاهر عندي في حال عبد الرحمن بن زيد صدوقٌ، وأنّه من أهل الصلاح والعبادة.

والحاصل: أنَّ هذا الحديث صحَّحه بشواهده ونقله جماعة من فحول العلماء وأئمَّة الحديث وحفَّاظه كالحاكم والسيوطي والسبكي والبلقيني، ومؤخّرًا أبو الفضل الغماري.

ونقله البيهقي ولم يصحّحه وحكم بضعفه.

وذكره ابن كثير في البداية ولم يتكلَّم فيه بشيء، واستشهد به ابن تيميَّة في الفتاوىٰ.

واطَّلعت علىٰ شواهد مؤيِّدة له لأحد أعلام أهل البيت الثقات وساداتهم وأئمَّتهم الإمام محمَّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام «أبو جعفر الباقر» خرَّج له الستَّة وروىٰ عن جابر وأبي سعيد وابن عمر.

وللحديث شاهدٌ آخر قد ذكرته مرفوعًا فروىٰ ابن الجوزي في كتابه الوفا بفضائل المصطفىٰ بسند، وقد قال الحافظ في الفتح: وإسناد هذا الحديث قويّ.

ويقول أبو الفضل الغماري: وهو أقوىٰ شاهد وقفتُ عليه[1].

وأخرجت ما رواه الآجري في كتابه الشريعة وهو أثرٌ يقوي الحديث بذلك فقد تشدَّد الذهبي رحمه الله بالحكم بوضعه، وقال الغماري: إنّ حديث توسُّل آدمَ

(١) الرد المحكم المتين، ص ١٣٨.

حسنٌ لغيره فيُحتجُّ به بلا نزاع، والذي نراه بالشواهد المذكورة أنّه يرتقي إلىٰ درجة الحسن، فهو عندنا حديث حسن غريب، والله أعلم.

توسُّل اليهود به ﷺ:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

قال ابن كثير في تفسيره: وحكي القرطبي وغيره عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ يهود خيبر اقتتلوا في زمان الجاهلية مع غطفانَ، فهزمتهم غطفانُ، فدعا اليهود عند ذلك فقالوا: اللَّهمَّ إنَّا نسألك بحقِّ النبيِّ الأُمِّي الذي وعدتَنا بإخراجه في آخر الزمان إلاَّ نصرتنا عليهم، قال: فنُصروا عليهم، قال: وكذلك كانوا يصنعون؛ يدعون الله فيُنصرون علىٰ أعدائهم ومَنْ نازلهم[1].

التوسُّل بالنبيِّ في حياته وبعد مماته:

التوسُّل برسول الله ﷺ في حياته لا يختلف عن التوسُّل به قبل مولده ومبعثه، وقد أجمعت الأُمَّة علىٰ أنَّه يجوز التوسُّل والاستغاثة والتشفُّع بالنبيِّ ﷺ إلىٰ ربِّه سبحانه وتعالى في حياته وبعد مماته، ولم يُنكر أحدٌ ذلك من أهل الإيمان، ولكن اختلف ابن تيميّة وشذَّ عنهم وتبعه مقلِّدوه، والحقُّ مع الجماعة،

(١) ابن كثير الآية ٨٩ من سورة البقرة، والقرطبي: ٢/٢٦-٢٧، ونقلها أئمة التفسير من المحدثين المعتبرين كابن أبي حاتم والبغوي والآلوسي والسيوطي في الدر المنثور وابن الجوزي في زاد الميسر.

ولا خلاف في التوسُّل به ﷺ، وهذا ثابتٌ؛ لأنَّه لا وجه حقّ للإنكار من الكتاب والسُّنَّة والمتواتر، ولا يمكن حصرها.

وسأستشهد بما في حياته أوَّلًا:

حديث الأعمىٰ المتوسِّل بالنبيِّ ﷺ:

ما أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات قال: حدّثنا محمود بن غيلان، حدّثنا عثمان بن عمر، حدّثنا شعبة، عن أبي جعفر، عن عمارة بن خزيمة بن ثابت، عن عثمان بن حنيف[١] أنَّ رجلًا ضرير البصر أتىٰ النبيَّ ﷺ فقال: ادعُ الله أن يعافيَني، فقال: إن شئتَ دعوتُ وإن شئتَ صبرتُ فهو خيرٌ لك، قال: فادْعُه، قال: فأمَره أن يتوضَّأ فيُحسن الوضوء ويدعو بهذا الدُّعاء: «**اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ وأتوجَّه إليك بنبيِّك محمَّد نبيِّ الرحمة، يا محمَّد، إنِّي توجَّهتُ بك إلىٰ ربِّي في حاجتي هذه لتُقضىٰ لي، اللَّهمَّ فشفِّعه فيَّ**»[٢].

وفي رواية: «**فإن كان لك حاجةٌ فمثل ذلك فافعل**»، وهي زيادة حمَّاد بن سلمة، وفي الزيادة إذنٌ بالتوسُّل في سائر الأحوال، قال عثمان بن حنيف:

(١) عثمان بن حنيف، صحابي جليل شهد أحدا وبعدها (انظر الإصابة: ٦/ ٣٨٦) (سير أعلام النبلاء: ١٢/ ٣٢).

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٥٧٨) والنسائي في السنن الكبرى: ٦/ ١٦٩، وابن ماجه برقم ١٣٨٥، والإمام أحمد: ٤/ ١٣٨، والحاكم في المستدرك: ١/ ٥٢٦-٥٢٧، وقال، صحيح على شرط البخاري، وأقره الذهبي، ورواه الطبراني في الكبير ٩/ ٣٠، ٣١، والصغير، ص ٢٢٠-٢٢١، وصححه ورواه ابن خزيمة برقم ١٢٩١، والبيهقي في كتابه الدعوات الكبير: ١/ ١٥١، ودلائل النبوة: ٦/ ١٦٦-١٦٧، وابن السني في عمل اليوم والليلة: ٥٨١-٥٨٢.

«والله ما تفرَّق بنا المجلس حتَّىٰ دخل بصيرًا كأنْ لم يكن به ضرٌّ».

قال الشوكاني في تحفته[١]: وفي الحديث دليل علىٰ جواز التوسل برسول الله ﷺ إلىٰ الله ﷻ مع اعتقاد أن الفاعل هو الله ﷻ وأنه المعطي المانع ما شاء كان وما يشأ لم يكن.

وتَّفق الروايات علىٰ أنَّ الذي دعا هو الرجل الضرير لا النبيُّ ﷺ، ولهذا ترجم له البيهقي في دلائل النبوَّة[٢] بقوله: باب ما جاء في تعليمه الضرير ما كان فيه شفاؤه حين لم يصبر، وما ظهر في ذلك من آثار النبوَّة، وقد استعمل بعض الصحابة ذلك بعد موته ﷺ، وهذا يؤكِّد أنَّهم لم يفهموا إلاَّ المعنىٰ المقصود من جواز التوسُّل بذات النبيِّ ﷺ وهو ما أجمعت عليه الأُمَّة، وحديث الضرير لا خلاف فيه ولا قول عليه فهو ثابت كثبوت الشمس في رابعة النهار نصًا ومضمونًا، حتَّىٰ لو أثاروا شبهةً حول الحديث وعباراته، ولم أرَ لمن اعترض علىٰ هذا الحديث وعباراته وجهَ حقٍّ إلاَّ أنَّ الأهواء لتضارب أقوالهم وذهابهم عن منهجهم في شرح الأحاديث؛ وذلك لمخالفة الآخرين، نسأل الله لهم الهداية.

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] وهي تتعلَّق بالمجيء إليه ﷺ والاستغفار عنده واستغفاره لهم، وقالوا إنَّها تتعلَّق بزمان حياة الرسول ﷺ ولا تشمل ما بعد مماته؛ لأنَّ رتبة الاستغفار للمؤمنين كمقام الشفاعة لا يُقطعان ولا ينتهيان عند مماته ﷺ وليس هناك ما يدلُّ علىٰ أنَّ

(١) تحفة الذاكرين ص١٨٠.

(٢) دلائل النبوة: ٦/ ١٦٦.

هذا المقام يسلب منه بعد مماته فذلك من مختصَّات النبوَّة، وهذه الرتبة ثابتة له ﷺ حتَّىٰ في عالم البرزخ لا سيَّما أنَّه نزل القرآن للعمل بما فيه من أعمال تعبُّدية كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك، وآية الاستغفار قد أُويّدت من الكتاب والسُّنَّة، فحديث عرض الأعمال يؤكِّد أنَّ استغفار النبيِّ ﷺ في حياته ومماته فهي علىٰ العموم لحالتي الموت والحياة لا سيما حياة الأنبياء في قبورهم، فقد جاء في سنن أبي داود(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ يسلِّم عليَّ إلاَّ ردَّ الله عليَّ روحي حتَّىٰ أردَّ عليه السلام»(٢)، وقد اتَّفقت الأُمَّة علىٰ أنَّ الرسول ﷺ يردُّ السلام علىٰ مَنْ يسلِّم عليه، ولا خلاف في ذلك، وهذا يوافق صحَّة أحاديث التوسُّل والاستغفار.

قصَّة العُتبي عن الأعرابي:

وحكاية الأعرابي المشهورة التي ذكر المصنِّفون في مناسكهم، وفي بعض طرقها أنَّ الأعرابي ركب راحلته وانصرف، وذلك يدلُّ علىٰ أنّه كان مسافرًا.

وقد ذكرها جماعة من الأئمَّة عن العتبي واسمه: محمَّد بن عبيد الله بن عمرو، أدرك ابن عيينة وروىٰ عنه وهي مشهورة حكاها المصنِّفون في المناسك من جميع المذاهب واستحسنوها، ورأوها من أدب الزائر، وذكرها ابن عساكر

---

(١) سنن أبي داود كتاب المناسك باب زيارة القبور حديث رقم: ٢٠٤١.

(٢) قال ابن حجر في تلخيص الحبير: ٤١٨/٧ في أحاديث الزيارة وأصح ما ورد في ذلك ما رواه أحمد وأبو داود من طريق أبي صخر حميد بن زياد عن يزيد بن عبدالله بن قسيط عن أبي هريرة مرفوعا: «ما من أحد يسلم» الحديث، وبهذا الحديث صدر البيهقي الباب. وقال في الصارم المنكي، ص ١٨٩: روى الإمام أحمد حديث أبي هريرة هذا في مسنده: ٥٢٧/٢، وانظر تحفة الأشراف: ٤٢١/١٠.

في تاريخه، وابن الجوزي في (مثير الغرام الساكن) وغيرها بأسانيد إلىٰ محمَّد بن حرب الهلالي قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبيِّ ﷺ فزُرته وجلست بحذائه، فجاء أعرابي فزاره ثمَّ قال: يا خير الرُّسل، إنَّ الله أنزل عليك كتابًا صادقًا قال فيه: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وإنِّي جئتك مستغفرًا ربَّك من ذنوبي، مستشفعًا بك إلىٰ ربِّك، وفي رواية: وقد جئتك مستغفرًا من ذنبي مستشفعًا بك إلىٰ ربِّي. ثمَّ بكىٰ وأنشأ يقول:

يا خيرَ مَنْ دُفنت بالقاع أعظُمه فطاب من طيبهنَّ القاع والأكمُ

نفسي الفداءُ لقبـر أنت ساكنُه فيه العفافُ وفيه الجود والكرمُ

ثمَّ استغفر وانصرف، فرقدت فرأيت النبيَّ ﷺ في نومي وهو يقول: «الْحَق الرجلَ وبشِّرْه أنَّ الله قد غفر له بشفاعتي» فاستيقظت فخرجت أطلبه فلم أجده[1].

وقد نقل السَّمهودي نُبَذًا ممَّا وقع لمن استغاث بالنبيِّ ﷺأو طلب منه شيئًا عند قبره فأُعطي مطلوبه ونالَ مرغوبه[2].

---

(١) شفاء السقام، ص ١٥١-١٥٢.

(٢) وفاء الوفا: ٤/ ١٣٨٠-١٣٨٧.

۞ عمل الصحابة بالتوسّل ۞

استسقاء الفاروق عمر بالعبّاس:

وقد عمل الصحابة علىٰ التوسّل بمن له نسبة من النبيّ ﷺ، عن أنس، أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إذا قُحط استسقىٰ بالعبّاس بن عبد المطّلب رضي الله عنه ويقول: اللّهمَّ إنّا كنّا إذا قُحطنا توسّلنا بنبيّنا فتسقينا وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا محمّد ﷺ فاسقنا، قال: فيُسقَون(١).

التوسّل بالنبيّ ﷺ بعد موته:

عن أبي إمامة بن سهل بن حنيف، عن عمّه عثمان بن حنيف: أنّ رجلًا كان يختلف إلىٰ عثمان بن عفّان في حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكي ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائتِ الميضأة فتوضّأ، ثمّ ائتِ المسجد فصلِّ فيه ركعتين، ثمّ قل: اللّهمَّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّنا محمّد ﷺ نبيّ الرحمة، يا محمّد إنّي أتوجّه بك إلىٰ ربّي فتقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتك، ورُحْ حتّىٰ أروح معك. فانطلق الرجل فصنع ما قاله، ثمّ أتىٰ باب عثمان بن عفّان، فجاء البوّاب حتّىٰ أخذ بيده فأدخله علىٰ عثمان بن عفّان، فأجلسه معه علىٰ الطَّنْفَسَةِ(٢) فقال: حاجتك؟ فذكر

---

(١) أخرجه البخاري: ٢/ ٤٥٣ كتاب الاستسقاء باب ٦٤٠ سؤال الناس الإمام إن قحطوا برقم ٩٤٧؛ المعجم الكبير: ١/ ٧٢ برقم ٨٤؛ كنز العمال: ١٣/ ٥٠٤ برقم ٣٧٢٩٦، ص ٥٠٨ رقم ٣٧٣٠٢ وص٥١٦ برقم ٣٧٣٢٨؛ وذخائر العقبى: ١٩٨؛ نيل الأوطار: ٤/ ٦؛ البداية والنهاية: ٦/ ١٠١؛ ابن شيبة: ٢/ ٧٣٨.

(٢) الطنفسة بكسر طاء وفاء وضمهما وبكسر ففتح بساط له خمل رقيق وجمعه طنافس. النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/ ٢١١.

حاجته وقضاها له، ثمّ قال له: ما ذكرت حاجتك حتّىٰ كان الساعة، وقال: ما كان لك من حاجة فاذكرها.

ثمّ إنّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيرًا، ما كان ينظر ولا يلتفت إليّ حتّىٰ كلّمته فيَّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلّمته ولكنّي شهدت رسول الله ﷺ، وأتاه ضرير فشكي إليه ذهاب بصره فقال له النبيّ ﷺ: «فتصبر» فقال: يا رسول الله، ليس لي قائد وقد شقَّ عليَّ، فقال النبيّ ﷺ: «ائتِ الميضأة فتوضّأ ثمّ صلِّ ركعتين، ثمّ ادعُ بهذه الدعوات» **قال ابن حنيف**: فوالله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتّىٰ دخل علينا الرجل كأنّه لم يكن به ضرٌّ قطًّ»[1].

---

(١) المعجم الكبير: ٩/ ٣٠ برقم ٨٣١١؛ والمعجم الصغير: ١/٣٠٦ برقم ٥٠٨، وقال: الحديث صحيح، وفي الدعاء له: ٢/ ١٢٨٩.

وهذا الحديث أخرجه الترمذي: ٥/ ٥٦٩ برقم ٣٥٧٨، وقال: حديث حسن صحيح غريب.؛ والنسائي في السنن الكبرى: ٦/ ١٦٨ برقم ١٠٤٩٤، ٦/ ١٦٩ برقم ١٠٤٩٥، ورقم ١٠٤٩٦؛ وأخرجه في عمل اليوم والليلة: ١/ ٤١٧-٤١٨؛ وأحمد في المسند: ٤/ ١٣٨؛ وابن ماجه: ١/ ٤٤١ برقم ١٣٨٥.

وقال أبو إسحاق: هذا حديث صحيح، وابن خزيمة في صحيحه: ٢/ ٢٢٥ برقم ١٢١٩؛ والحاكم في المستدرك: ١/ ٤٥٨ برقم ١١٨٠ وقال: صحيح على شرط الشيخين، وسلمه الحافظ الذهبي أيضا وخرجه في: ١/ ٧٠٧ برقم ١٩٣٠، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد؛ وعبد بن حميد في مسنده: ١/ ١٤٧ برقم ٣٧٩؛ والبخاري في التاريخ الكبير: ٦/ ٢٠٩ برقم ٢١٩٢؛ وابن أبي خيثمة في تاريخه؛ والبيهقي في دلائل النبوة: ٦/ ١٦٦، وقال بآخره: «ورويناه في كتاب الدعوات بإسناد صحيح»؛ وأخرجه البيهقي في الدعوات الكبير: ١/ ١٥١؛ فإضافة إلى ما مر من تصحيح ابن خزيمة بإدراجه في صحيحه والترمذي وأبو إسحاق والطبراني والحاكم والبيهقي وصححه المنذري في الترغيب والترهيب: ١/ ٢٧٣، لموافقته لتصحيح الطبراني، والحافظ =

بشارة الأقوال في صحة حديث عرض الأعمال:

حديث عرض الأعمال من الأحاديث التي عني بها الحفاظ وصحّحه الكثير ورواته لا خلاف فيهم بقول أهل الجرح والتعديل.

قال الحافظ البزار في البحر[1]: حدّثنا يوسف بن موسىٰ، قال: حدّثنا عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، عن سفيان، عن عبدالله بن السائب، عن زاذان، عن عبدالله، عن النبيّ ﷺ قال: إنّ لله ملائكةً سيّاحين يبلّغون من أُمّتي السلام، قال: وقال رسول الله ﷺ: «**حياتي خيرٌ لكم تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خيرٌ لكم تُعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه وما رأيت من شرّ استغفرت الله لكم**».

أقول: وهذا الحديث أخرجه جمعٌ كبير من الحفّاظ منهم: الحافظ (النووي)، و(السيوطي) في (الجامع الصغير) و(الخصائص)، و(الهيثمي) في (مجمع الزوائد): **٩/ ٢٤**، و(القاضي عياض) في (الشفا): **١/ ١٩**، والحافظ (العراقي) في (طرح التثريب): **٣/ ٩٤٢**، و(ابن الجوزي) في (الوفا)، ص**٨٢٦**، و(السخاوي) في (القول البديع)، ص **٣٢٤**، والحافظ (ابن حجر العسقلاني) كما نقل ذلك عنه في الجمع بينه وبين حديث الشفاعة كما في (الفتح): **١١/ ٣٨٥**، و(إسماعيل القاضي) في (فضل الصلاة علىٰ النبيّ)، ص**١٢٠** بأسانيد مختلفة، والحافظ (ابن التين)، والحافظ (القرطبي)، والحافظ (وليّ الدِّين العراقي أبو زرعة)، و(المناوي) في (فيض القدير).

= الهيثمي في مجمع الزوائد: **٢/ ٢٧٩**، كما صححه أيضا أبو عبدالله المقدسي صاحب المختارة، والحافظ عبد الغني المقدسي في كتاب النصيحة، والإمام النووي في الأذكار والحافظ السخاوي في القول البديع والحافظ السيوطي في الخصائص الكبرى.

(١) البحر الزخار: **٥/ ٣٠٨**، كشف الأستار: **١/ ٣٩٧**.

وبذلك ففي هذا الحديث الصحيح بشارة عظيمة لأُمّته ﷺ روحي فداه وهو استغفاره ﷺ لأُمّته وعلمه بأعمالهم وعرضها عليه وبيان علوّ مقامه وأنّ استغفاره لأُمّته في حياته وبعد موته ويوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣].

ما أعظم ذلك الفضل، والذي لم يَرِدْنا أنه كان لأحد من الأُمم، وقد عجبت لمن ينكر هذا الحديث أو ينكر التوسّل، والمصيبة أنّه يدّعي العلم وبالأخصّ علم الحديث!

اعلم يرحمك الله وينوّر لك البصيرة أنّ في هذا الحديث منفعةً عظيمةً نُغبط عليها نحن المسلمون.

اعلم أنّ الله أنقذنا بنبيّنا وجعله رحمةً لنا وللعالمين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

اعلم يا من تبتغي الآخرة أنّ هذا طريقها، وأنّ في هذا الحديث بشارةً لمن استبشر، وعِبرةً لمن اعتبر، وهدىً لمن اهتدىٰ، فلا تكن ممّن يغفل قلبه وهو حيّ، ولا تكن مخالفًا معاندًا من أجل الأهواء فإنّ العناد قد أخرج إبليس من الجنّة.

اعلم أنّ تضعيفك للحديث يكون سببًا لتعطيل الكثير بعدم العمل به.

اعلم أنّك رددته ولم تلحق بغيره، فالْحَقْ فإنّ الخير من عنده لا يردّ.

أقول: وقد ضعّف بعض المحدّثين هذا الحديث علىٰ قولهم لتفرّد عبد المجيد بن عبد العزيز بهذا الوجه، وتضعيفهم لعبد المجيد بن عبد العزيز، وممن قال بضعفه الألباني، وهو من صحّح أحاديث واعتبره بعض الناس حجّة

في عصره لهذا العلم، والغريب أنّ الألباني مع باعه الطويل في هذا العلم وتصحيحه للأحاديث فقد صحّح أحاديث أسانيدها أقلّ جودة من هذا الحديث.

أمّا عن سند الحديث فعبد المجيد بن عبد العزيز ثقة وهو من رجال مسلم والأربعة، وقد وثّقه أحمد بن حنبل وابن معين وأبو داود والنسائي والخليلي، وروىٰ عنه كبار المصنّفين كالشافعي والحميدي وأمثالهم.

قال ابن عدي[١]: وعامة ما أُنكر عليه الإرجاء.

أقول: وبذلك فإن قول ابن عدي في عقيدته لا في عدم توثيقه.

قال عنه ابن حجر[٢]: صدوق يخطئ، ولام ابن حبّان علىٰ إفراطه فيه، ووثّقه من المتأخّرين الغماريان في نهاية الآمال، وحسن السقاف في رسائله، وعبد الرحيم الطحّان.

وقال عنه شعيب وبشّار في التحرير[٣]: ثقة أخطأ في أحاديث كما يخطئ الناس وهو من أثبت الناس في ابن جريج.

أقول: وللحديث شاهد مرسل صحيح من طريق بكر بن عبدالله المزني، أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة علىٰ النبيّ[٤] ﷺ قال: حدّثنا سليمان بن حرب، قال: حدّثنا حمّاد بن زيد، قال: حدّثنا غالب القطّان، عن بكر بن عبدالله المزني، قال: قال رسول الله ﷺ: « **حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُحَدِّثُونَ**

---

(١) الكامل في الضعفاء (٦/ ٣٧٩).

(٢) تقريب التهذيب (٤١٦٠)، وقال: «رواد بفتح الراء وتشديد الواو صدوق يخطئ»، تهذيب التهذيب لابن حجر (٦/ ٣٨١- ٣٨٣)، «تهذيب الكمال» ١٨/ (٧٢١)،

(٣) تحرير تقريب التهذيب (٢/ ٣٧٩ترجمة ٤١٦٠).

(٤) فضل الصلاة على النبي ﷺ ص٣٨-٣٩.

وَنُحَدِّثُ لَكُمْ، وَوَفَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ، فَمَا رَأَيْتُ مِنَ خَيْرٍ حَمِدْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَمَا رَأَيْتُ مِنَ شَرٍّ اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ لَكُمْ».

وله شاهد آخر بمعناه: أخرجه مسلم في صحيحة قال: حدّثنا علي بن خشرم، أخبرنا عيسىٰ بن يونس، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَرَرْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ**» وزاد: «**مررت ليلة أُسري بي**»[(١)].

أقول: وفي هذا الحديث إشارة واضحة تدلّ علىٰ أنّ الأنبياء ﷺ أحياء في قبورهم يصلّون ويستغفرون.

خلاصة القول: إنّ حديث عرض الأعمال صحيح عندي ولا ريب فيه، وقد صحّحه جمع من الحفّاظ منهم الحافظ العراقي في طرح التثريب، والسيوطي في الجامع الصغير، والملاّ علي القاري في شرح الشفا: ١/ ٤٥، والهيثمي في مجمع الزوائد، والمناوي في فيض القدير، والغماري عبد الله في نهاية الآمال، وأخوه الغماري أحمد وتلميذهما محدث العصر شيخنا العلامة محمود سعيد ممدوح القاهري حفظه الله، ومحمد عوامة في القول البديع، والتليدي في إتحاف أهل الوفا، والسقاف في رسائله، وغيرهم فالحمد لله من قبل ومن بعد الذي سخر عباده العلماء الصالحين بفتوح العارفين.

ولنعلم أنّ الاستغفار من النبيّ ﷺ لا يأتي إلاّ بيقين صادق فإن كنت يا أخي مذبذبًا فلن تجد مطلبك.

اللّهمَّ لا تحرمنا الوسيلة إليه والاستغفار منه، إنّك سميعٌ مجيب.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣٧٥)، والبغوي في شرح السنة: (٣٧٦٠)، وابن حبان في صحيحه: (١٩)، وأحمد في المسند: ٣/ ١٢٠، باختلاف في الطريق، والبيهقي في كتابه البديع حياة الأنبياء في قبورهم: (٦).

۞ التبرّك بآثار النبيّ ﷺ ۞

التبرّك: ومعناه الاحتفاظ بالشيء الجامد الباقي من بعد تاركه.

وقد تبرّك الصحابة بالرسول ﷺ حال وجوده فكانوا يتسابقون إلىٰ مكان وضوئه للتبرّك بماء وضوئه جاهدين علىٰ أن لا تسقط قطرة منه علىٰ الأرض، فقد كانوا يتسابقون لالتقاطه وجمعه ويتنافسون للحصول علىٰ شعرة من بدنه الطاهر ويمسحون وجوههم بها وفمه الشريف استشفاء من الأسقام، ويقبّلون يديه الشريفتين ويحضرون مرضاهم عنده رجاء شفائهم، ويبنون المساجد في موضع صلاته، ويمشون تبرّكًا في المسير الذي يستخدمه بذهابه وإيابه لإقامة صلاته(١).

وممّا لا شكّ فيه أنّ كلّ ذلك لم ينههم ﷺ عنه، بل إنّه كان يتركهم ; لأنّ ذلك أمرًا مشروعًا فلم يأمرهم بهدم المساجد واتّخذها أماكن للتبرّك.

فهذا الإمام مالك إمام دار الهجرة لم يُرَ راكبًا ناقته في المدينة؛ لئلاّ يقع قدمها علىٰ أثر قدم رسول الله ﷺ، وفضّلَ المشي راجلًا عسىٰ أن تقع قدمه علىٰ أثر قدم رسول الله ﷺ، وعرف عنه أنّه لم يقضِ حاجته قطّ في المدينة احترامًا وتقديسًا لهذه الأرض التي آوت جسده الشريف.

---

(١) انظر: نسيم الرياض في شرح القاضي عياض، وشرح الشفا: ٣/ ٣٩٢؛ وفتح الباري شرح صحيح البخاري: ٥/ ٣٣٠؛ وزاد المعاد في هدي خير العباد: ٢/ ١٢٤؛ والخصائص الكبرى للسيوطي: ١/ ١٥٣؛ ومغني المحتاج: ٤/ ٢٩٦؛ وجواهر الإكليل: ١/ ٢٢٤؛ وصحيح مسلم مع النووي: ١٤/ ١٢٢.

وقد وصل عبد الله بن عمر رضي الله عنه من الإجلال والتقدير في تلك المسألة فلأجل إقامة الصلاة في الأماكن التي صلّىٰ بها النبيّ ﷺ فقد حمَّل نفسه من المشقّة والعناء ما يصعب تحمّله، وقد كان أيضًا يتبرّك بعصا وخاتم ووعاء وقدح ولباس وحذاء وسيف الرسول ﷺ، هذا وكان المسلمون قد اتّخذوا من قبره المطهّر والروضة النبويّة الشريفة وأسطوانات المسجد ومنبره ومحرابه مزارًا ومحلّ تبرّك خلال مئات السنين منذ وفاته ﷺ لا سيّما أنّ الأمر كان جاريًا في حياته، ولو كان مخالفًا للشرع لنهىٰ عنه الرسول ﷺ، بل إنّ مثل هذه الأعمال قد تمّت بتأييد منه ﷺ وتشجيعه علىٰ إتيانها؛ لأنّها من أبواب التزلّف إلىٰ الباري ﷻ.

واستمرّ الحال إلىٰ ما بعد مماته ﷺ ولم يعترض أحد من المسلمين وعلمائهم علىٰ مختلف مراحل التاريخ علىٰ اتّخاذ الناس ما بقي من آثاره ﷺ كملابسه وشعر رأسه وأماكن عبادته: كغار حراء وجبل ثور ومسجد قباء والقبلتين وأمثالها ومحلّ ولادته؛ وسائل للتبرّك، ولم يصف أحد هذه الأعمال بأنّها مخالفة للشرع والهدي النبوي.

حتىٰ جاء أتباع ابن تيمية من الوهابية بمساعدة الحاكم السياسي، وجازفوا بالتكفير واستشهدوا بشتّىٰ الذرائع، ولا اعتبار لقولهم ولا محلّ للنقاش معهم، ولم يصل الأمر إلىٰ ذلك فحسب، بل إنّهم اتّهموا المسلمين بالشرك وممارسة البدع والخروج عن الحقيقة المستقيمة وأصبحوا يعزلون الناس عن قبر الرسول الكريم ﷺ ووضعوا أيديهم علىٰ هذه الآثار وشتّتوا أماكنها ومحوا ملامحها وأنكروا صحّتها ولم يبقوا للتاريخ الإسلامي آثارًا إلا القليل، فالإسلام دين الحضارة وليس دين الجاهليّة، ونفوا كثيرًا من هذا التاريخ بطمس الآثار والوقائع وكأنّهم أرادوا تصوير الإسلام بأنه حديث عصر.

وأغلقوا صفحات الماضي وكأنّ الدعوة الإسلامية لم تكن علىٰ أرض الحجاز إلاّ منذ مائة عام، وكأنّ الحجاز كان في ظلام دامس والعياذ بالله من شرّهم، وبتروا ما بين العصور الأُولىٰ وربطوا عصرهم بالقرن الأوّل من الإسلام فمحوا الآثار المباركة ودمّروا معظم الآثار الإسلاميّة في الحجاز التي تعتبر جزءًا من التراث الثقافي والعقائدي للأُمّة الإسلاميّة، وتحكّموا وكأنّ مقدّسات النبيّ ﷺ مُلكٌ لهم، هيهات هيهات، وضربوا بالمسلمين في أنحاء العالم عرض الحائط! فلقد أصبح تشكيكهم في الآثار النبويّة والتي مرَّ علىٰ وجودها مئات السنين أمرًا ليس صعبًا، فاليوم نشاهد ونسمع من يقول: إنّه لابدّ من هدم الأثر الفلاني؛ لأنّه مزعوم وليس هنالك دليل! ألف وأربعمائة عام والأثر باقٍ، والآن أصبح مزعومًا؟! سبحان الله هذا بهتانٌ عظيم، لقد رأيت أثرًا مشهورًا بالمدينة المنوّرة في السبعة المساجد المشهورة خلف جبل سلع بجوار القبلتين حيث مسجد الفتح والذي ثبت بالسنّة استجابة دعوة النبيّ ﷺ فيه يوم الأربعاء بعد تكرّر الصلاة فيه من قبل النبيّ ﷺ وهو مسجد عظيم يقصده المسلمون من كلّ مكان وهو علىٰ سفح الجبل وهناك عدّة مساجد منها مسجد كان لأوّل الخلفاء الراشدين ثاني اثنين إذ هما في الغار سيّدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث هدم هذا المسجد بحجّة أنّه مهدّد بالسقوط وأنّه يحتاج إلىٰ ترميم، وبالفعل هُدم المسجد ووضعت اللافتات الهندسيّة المعماريّة التي تؤكّد بناء المسجد، وبعد فترة وجيزة اختلف الأمر ووضع في مكان المسجد (ماكينة) للصرف الآلي تتبع لأحد البنوك والتي رفعوها بعد ذلك بكل خذي، وتناسىٰ الناس اليوم أمر هذا المسجد! لقد أمرت الحكومة السعودية ببناء مسجد جامع في تلك المنطقة، وأغلقت المساجد الأثرية فهل ستهدمها من باب سد الذرائع؟!أو من باب توسعة المدينة المنورة.

لابدّ من الوقوف أمام هذه الادّعاءات الباطلة، ولابدّ من معرفة أنّ هذه الآثار بكلّ ما تحتويه هي لينتفع بها جميع المسلمين في العالم وليس لهؤلاء الغوغائية محو الآثار لمجرّد أهوائهم، ، ولابدّ من معرفة أنّ هذه الآثار بكلّ ما تحتويه هي ملكٌ لجميع المسلمين في العالم وليس لأيّ جهة حقّ التصرّف فيها إلاّ بإجماع من العلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي بعد دراسة صحيحة، لا سيما أنّ الآثار وإن كانت ليست متعلّقة بالإسلام فإنّها مَعْلَم حضاري تنصّ القوانين الدوليّة علىٰ بقائها ضمن شروط الآثار لكلّ بلاد العالم، والحقيقة الأمر كبير وليس هنا محلّ عرضه إنّما الشيء بالشيء يُذكر، ولو أردنا أن نتوسّع فيما حدث في آثار الرسول ﷺ لأُلّفت كتب مستقلّة ثبت ما ذهب واندثر علىٰ يد هؤلاء المتطرّفين.

الاستنكار والتناقض حول مفهوم التبرّك:

والعجيب أن يستنكر البعض التوسّل والتبرّك بسيّد المرسلين وأشرف المخلوقات ﷺ ويستكثرونه عليه في الوقت الذي يدّعي أنّه يتلو كتاب الله ويتدبّر آياته، وقد ورد فيه ما يثبت أنّ ذلك جرىٰ علىٰ يد من هو أقلّ مرتبة من سيّدنا محمّد ﷺ.

فكيف يكون طلب استغفار النبيّ والاستشفاع به وبآثاره بدعة وشركًا في الوقت الذي يصرّح القرآن في سورة يوسف بقوله تعالىٰ: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ

إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٣-٩٧].

فهذا القميص الذي لبسه سيّدنا يوسف عليه السلام قد أصبح وسيلة لشفاء عيني أبيه يعقوب عليه السلام وإرجاع البصر إليه. أفليس يجوز في العقل أن تكون للآثار المباركة لخير خلق الله وأشرف أنبيائه مثل هذه الخاصيَّة؟ فقميص يوسف عليه السلام ينفع وآثار النبيّ ﷺ وقبره لا تنفع؟! كيف هذا!! أعاذنا الله تعالىٰ من الغفلة والحرمان.

وسوف أستدلّ هنا بالنصوص المؤيّدة لجواز التبرّك، منها:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: ١١٤].

وقد روىٰ الإمام البخاري في أدبه المفرد: عن ابن جدعان، قال ثابت لأنس: « **مسستَ النبيّ بيدك؟ قال: نعم فقبّلها**»[(١)].

وأخرج ابن حجر في مطالبه: عن ثابت قال: كنت إذا أتيت أنسًا يخبر بمكاني فأدخل عليه وآخذ يديه وأُقبّلهما، وأقول: بأبي هاتين اليدين اللّتين مسّتا رسول الله ﷺ وأُقبّل عينيه وأقول: بأبي هاتين العينين رأتا رسول الله ﷺ[(٢)].

قال الهيثمي: رواه أبو يعلىٰ ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن بكير وهو ثقة. وروىٰ البخاري عن ابن عمر قال: «اتّخذ رسول الله ﷺ خاتمًا من وَرِقٍ وكان في يده ثمّ كان بعد في يد أبي بكر ثمّ كان بعد في يد عمر ثمّ كان بعد في يد

(١) الأدب المفرد: حديث رقم (٩٧٢).

(٢) رواه أبو يعلى: ٦/ ٢١١ حديث رقم (٣٤٩١)، قال في المجمع: ٩/ ٣٢٥: رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أبي بكر المقدمي وهو ثقة.

عثمان حتّىٰ وقع بعد في بئر أريس نَقْشُه: محمّد رسول الله»[١].

وروىٰ القاضي عياض في شفاءه: أنّ ابن عمر ﷺ رؤي واضعًا يده علىٰ مقعد النبيّ ﷺ[٢].

وروىٰ ابن أبي شيبة في مصنفه[٣]: عن أبي قسيط والصبّي: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا خلا المسجد جسُّوا رمَّانة المنبر التي تلي القبر بميامينهم ثمّ يستقبلون القبلة يدعون.

وقد أقرَّ هذا الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه من بعده، فروىٰ صالح بن أحمد بن حنبل في مسائل أبيه عنه قال: ويضع يده علىٰ الرمّانة والموضع الذي جلس فيه النبيّ ﷺ ولا يقبِّل حائطًا، وكان ابن عمر يمسح «مقعد» النبيّ وكان يتبع آثار النبيّ ﷺ[٤].

وقال ابن قدامة في مغنيه: قال أبو عبدالله -يعني أحمد بن حنبل- أمّا المنبر فقد جاء فيه يعني ما رواه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد القاري أنّه نظر إلىٰ ابن عمر وهو يضع يده علىٰ مقعد النبيّ ﷺ من المنبر ثمّ وضعها علىٰ وجهه[٥].

وقال ابن مفلح في فروعه[٦]، **والمرداوي في إنصافه**[٧]: ورخّص في المنبر؛ لأنّ ابن عمر وضع يده علىٰ مقعد رسول الله ﷺ ثمّ وضعها علىٰ وجهه.

---

(١) البخاري في اللباس باب نقش الخاتم حديث رقم (٥٥٣٥).
(٢) الشفا (ص٢٩٧).
(٣) المصنف ٣/ ٤٥٠.
(٤) مسائل الإمام أحمد: ٣/ ٦٠-٦١.
(٥) المغني: ٣/ ٥٩١.
(٦) الفروع: ٣/ ٥٢٣-٥٢٤.
(٧) الإنصاف: ٦/ ٥٣.

قال ابْنُ الزَّاغُونِيِّ أحد مشاهير الحنابلة[١] - وغيره: وليأت المنبر فليتبرّك به تبرّكًا بمن كان يرتقي عليه[٢].

وقد ثبت عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنّه سأل أباه عمّن يلمس رمّانة منبر النبيّ ﷺ ويمسّ الحجرة النبويّة، فقال: لا أرىٰ بذلك بأسًا[٣].

قال الذهبي في سيره[٤]: قال عبدالله بن أحمد: رأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي ﷺ فيضعها علىٰ فيه يقبلها.

وأحسب أني رأيته يضعها علىٰ عينه، ويغمسها في الماء ويشربه يستشفي به.

ورأيته أخذ قصعة النبي ﷺ فغسلها في حب الماء، ثم شرب فيها ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفي به، ويمسح به يديه ووجهه.

نصّ الفقهاء علىٰ زيارة الآثار:

قال الإمام النووي في المجموع: يستحبّ أن يزور المشاهد التي بالمدينة وهي ثلاثون موضعًا يعرفها أهل المدينة، فيقعد ما قدر منها، وكذلك يأتي الآبار التي كان رسول الله ﷺ يتوضّأ منها أو يغتسل، وهي سبع آبار، فيتوضّأ منها ويشرب . . . ينبغي له في مدّة مقامه بالمدينة أن يلاحظ بقلبه جلالتها أنّها البلدة التي اختارها الله تعالىٰ لهجرة نبيّه واستيطانه ومدفنه وتنزيل الوحي فيها بالوحي الكريم وغير ذلك من فضائلها[٥].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة: ١/ ٢١٦؛ واللباب: ١/ ٤٨٩؛ وشذرات الذهب: ٤/ ٨٠.

(٢) الفروع: ٣/ ٥٢٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١١/ ٢١٢؛ العلل: ٢/ ٤٩٢ برقم (٣٢٤٣).

(٤) سير أعلام النبلاء: ١١/ ٢١٢.

(٥) المجموع: ٨/ ٢٥٩.

ولقد أمر النبيّ ﷺ أصحابه أن يستقوا من بئر الناقة في الحِجْر يوم غزوة تبوك، قال القرطبي: وفيه دليل علىٰ التبرّك بآثار الأنبياء والصالحين وإن تقادمت إعصارهم وخَفيت آثارهم(١).

توهين بعض العلماء قصة قطع شجرة بيعة الرضوان:

وَهَّن بعض العلماء قصة سيّدنا عمر رضي الله عنه حين قطع الشجرة «شجرة بيعة الرضوان» فقد ذكر ابن جرير الطبري أنّ سيّدنا عمر ذهب يسأل عنها ولم يجدها، فقد جاء في تفسير الطبري: «وزعموا أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه مرَّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال: أين كانت؟ فجعل بعضهم يقول: هنا، وبعضهم يقول: هاهنا، فلمّا كثر اختلافهم قال: سيروا؛ هذا تكلّف، فذهبت الشجرة وكانت سمراء؛ إمّا ذهب بها سيل، وإمّا شيء سوىٰ ذلك. فلو كان سيّدنا عمر رضي الله عنه قطعها لما قيل ذلك، ولما خفي الأمر علىٰ مثل الحافظ ابن جرير ولكان نبّه عليه.

ومن حيث السند فهو منقطع؛ لأنّ نافعًا لم يلقَ عمر رضي الله عنه إنّما هو مولىٰ ولده عبد الله رضي الله عنه كما هو عند كلّ علماء الحديث، وقد ضعّفه الألباني وأعلَّه بالانقطاع، فنافع لا يروي عن عمر وإنّما يروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقد صرّح بذلك ابن حجر في التهذيب بقوله عن أحمد بن حنبل: «نافع عن عمر: منقطع»(٢).

والثابت لدىٰ أهل الحديث أنّ مثل هذا القول المنقطع ليس بحجّة لا سيما

(١) تفسير القرطبي: ١٠/٤٨.

(٢) التهذيب: ١٠/ ٣٧٠.

وقد صرّح بعض الحفّاظ كالإسماعيلي بأنّ هذا ومثله من قول نافع ولا يعتبر مسندًا[١].

ومن حيث المتن فهذا النصّ يعارضه روايات ضعيفة تدلّ علىٰ أنّ الشجرة خَفيت علىٰ الصحابة فكيف يقطع سيّدنا عمر الشجرة وهو لا يعلم موضعها؟! ولا نريد استعراض معارضة النصوص في أمر أسطورة قطع الشجرة؛ لثبوت عدم قطعها بالأخبار الصحيحة، ونحن نعلم حرص الفاروق علىٰ المحافظة علىٰ آثار النبيّ ﷺ؛ فقد حرص رضي الله عنه وأمر علىٰ إعادة الميزاب ; فعن يعقوب بن زيد أنّ عمر رضي الله عنه خرج في يوم جمعة فقطَر ميزاب عليه للعبّاس فأمر به فقُلع، فقال العبّاس: قلعتَ ميزابي، والله ما وضعه حيث كان إلاّ رسول الله ﷺ بيده، فقال عمر رضي الله عنه: والله لا يضعه إلاّ أنت بيدك ثمّ لا يكون لك سُلَّمٌ إلاّ عمر. قال: فوضع العبّاس رجليه علىٰ عاتقَي عمر، ثمّ أعاده حيث كان»، وللحديث روايتان عن عمر والعبّاس رضي الله عنهما[٢].

فلو كانت هذه كما نسبها البعض إلىٰ سدّ الذرائع لسدّها الصحابة من قبل، وإنّما شرّعت أنباء كثيرة كاستلام الحَجَر الأسود وتقبيله والركن اليماني والملتزَم.

وقد روىٰ الدارمي في سننه[٣] بسند صحيح عن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال: «قحط أهل المدينة قحطًا شديدًا فشكوا إلىٰ عائشة فقالت: انظروا إلىٰ قبر

(١) الفتح: ٦/١١٧ برقم ٢٩٥٨ وشرحه.

(٢) مسند أحمد برقم ١٧٩٠، والبيهقي برقم ١١١٤٥ واللفظ له.

(٣) سنن الدارمي ج١ باب «ما أكرم الله نبيه ﷺ بعد موته» ص٤٣.

النبيّ ﷺ فاجعلوا منه كُوَىً[١] إِلَىٰ السَّمَاءِ حَتَّىٰ لاَ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ سَقْفٌ، قَالَ: فَفَعَلُوا فَمُطِرْنَا مَطَرًا حَتَّىٰ نَبَتَ الْعُشْبُ وَسَمِنَتِ الإِبِلُ حَتَّىٰ تَفَتَّقَتْ مِنَ الشَّحْمِ، فَسُمِّيَ عَامَ الْفَتْقِ»[٢].

وبذلك يظهر لنا أنّ التبرّك بآثاره ﷺ هو نصّ أئمّة الإسلام وعلماء المسلمين من فقهاء ومحدِّثين وهو ما عليه أهل البيت والصحابة والتابعون، وقد تناقلتها الأجيال وعنوا بها، فلا خلاف في ذلك.

رؤية النبيّ في الدُّنيا والآخرة:

رؤية النبيّ ﷺ متّفق علىٰ أمرها فهو ظاهر لمن لَحِقَ وسعِد بعصره وزمانه، وقد كتب الله الخير لمن صحبه ﷺ فلم يصحبه شقيّ ولم يخالفه إلاّ منافق، وكتب الله علىٰ بعض من لم يره من عباده أن يروه رأي الحقّ في منامهم، فالشيطان لا يتمثّل به، ومن لم يرَه في الدُّنيا فحتمًا سوف يراه في الآخرة. اللّهمَّ لا تحرمنا اللقاء به عند الحوض المورود؛ كي نشرب من يده الشريفة شربةً هنيئةً مريئة لا نظمأ بعدها أبدًا.

تعبّد النبيّ ﷺ قبل البعثة:

والثابت أنه ﷺ لم يكن يلتفت إلىٰ الأصنام ; لأنّ ذلك لم يكن هو دين آبائه فهم كانوا مؤلّهين موحّدين وينكرون عبادة الأصنام علىٰ ما نرىٰ.

---

(١) الكوة ويضم الكو: الخرق في الحائط ... ج: كوى وكواء» انظر القاموس للفيروز آبادي.

(٢) إسناده صحيح أخرجه الدارمي في: المقدمة، باب ما أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بعد موته: ١/ ٤٣.

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج[١]: فأما الذين ليسوا بمعطلة من العرب، فالقليل منهم، وهم المتألهون أصحاب الورع والتحرج عن القبائح كعبد الله، وعبدالمطلب وابنه أبىٰ طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة الايادي، وعامر بن الظرب العدواني، وجماعة غير هؤلاء.

قال ابن دريد في الجمهرة[٢]: قال أبو بكر: المتألّه منسوب إلىٰ عِبادة اللّه.

لقد ورد أن رسول الله ﷺ صلّىٰ سبع سنين قبل الناس كلّهم، فإنّما يعني ما بين الثمان والخمس عشرة ولم يكن حينئذٍ دعوة ولا رسالة ولا ادّعاء نبوّة وإنّما كان رسول الله ﷺ يتعبّد ويتفكّر في مخلوقات الله، ويعتزل ويطلب الخلوة، وينقطع في جبل حراء، وكان عليّ عليه السلام معه كالتابع والتلميذ في حوزته، فلمّا بلغ الحُلم وجاء النبيَّ ﷺ الملائكة وبشّرته بالرسالة دعاه فأجابه[٣].

أقول: وهذا قول أبي جعفر الإسكافي نقله ابن أبي الحديد؛ أي أنّ النبيّ ﷺ كان علىٰ ملّة الحنيفيّة قبل البعثة.

وهذا ما ذهب إليه أبو جعفر؛ أي أنّه ﷺ كان علىٰ ملّة إبراهيم عليه السلام، وقاله البغوي في التفسير وأيّده الآلوسي في الروح.

وهو قول المعتزلة والأشاعرة والماتريدية والإباضيّة والصوفية والزيديّة والظاهريّة وجمع كبير من الفِرَق.

(١) نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٣/ ٢٤٨.
(٢) جمهرة اللغة ٣٥٣.
(٣) نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٣/ ٢٤٨.

قال أحمد بن حنبل: «من قال: إنّ رسول الله ﷺ كان علىٰ دين قومه فهو قول سوء، أليس كان لا يأكل ما ذُبح علىٰ النُّصُب؟»[١].

قال أبو الوفا علي بن عقيل: كان رسول الله متديّنًا قبل بعثه ونزول الوحي عليه بما يصحّ عنده أنّه من شريعة إبراهيم[٢].

وقد قالت الإماميّة والإسماعيليّة والعلويّة: وهو ما اتّفق عليه محققو الشيعة الذين يعتقدون أنّ النبيّ ﷺ كان يتعبّد بدين الإسلام منذ البداية، إلاّ أنّه وحتّىٰ الأربعين لم يؤمر بالتبليغ[٣].

وبهذا القول استدلّوا ليقولوا بأنّ النبيّ ﷺ ثبت عنه أنّه صلّىٰ قبل الناس بسبع سنين، وقد روىٰ ابن ماجه في سننه، والإمام أحمد في مسنده، والطبري في تاريخه، والنسائي في الخصائص نقله هكذا: «عبدتُ الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأُمّة تسع سنين»[٤].

أقول: علامات مبعثه ﷺ علىٰ ما جاء في الأحاديث هو بداية خلوته أي أنّه كان مؤمنًا علىٰ الحنيفيّة حتّىٰ بدأت الشرائع، الله تعالىٰ ألهمه الإيمان.

والظاهر عندي -والله أعلم-: أنّه كان علىٰ ملّة إبراهيم ما قبل البعثة بسنوات طويلة إلاّ أنّ أمره اختلف في سنواته العشر الأخيرة، والله العالم.

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى، ص ١٣٦.

(٢) الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي، ص١٠٠.

(٣) تأملات في الصحيحين، محمد فهمي، ص ٢٣١.

(٤) ابن ماجه: حديث رقم ١٢٠، والطبري: ٢/ ٣١٠، أسد الغابة: ٤/ ١٧.

تعبّده ﷺ بعد مبعثه:

وفيه أقوال: فأمّا بعد مبعثه فهل كان يتعبّد بشريعة من قبله؟ وفيه روايتان:

أحدهما: أنّه كان متعبَّدًا بما صحّ من شرائع مَنْ قبله بطريق الوحي إليه لا من جهتهم ولا بعلمهم ولا كتبهم المنزلة. واختاره أبو الحسن التميمي وهو قول أصحاب أبي حنيفة.

والرواية الثانية: أنّه لم يكن يتعبّد بشيء من الشرائع إلاّ ما أُوحي إليه في شريعته؛ وهو قول المعتزلة والأشاعرة والصوفية والظاهريّة والإباضيّة، ولأصحاب الشافعي قولان كالروايتين.

قال: واختلف القائلون بأنّه متعبّد بشرع من قبله، بأيّ شريعة كان متعبَّدًا، فقال بعضهم: بشريعة إبراهيم خاصّة، وإليه ذهب أصحاب الشافعي، وذهب قومٌ منهم إلىٰ أنّه كان متعبَّدًا بشريعة موسىٰ إلاّ ما نسخ في شرعنا، وظاهر كلام أحمد أنّه كان يتعبّد بكلّ ما صحّ أنّه شريعة النبيّ قبله ما لم يثبت نسخه، يدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال ابن قتيبة[(١)]: لم تزل العرب علىٰ بقايا دين إسماعيل.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢] يعني تفاصيل الإيمان ما كنت تعرف، الله تبارك وتعالىٰ امتنانًا عليه ليذكره نعمته التي أنعم بها عليه قال له ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ أي القرآن ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أي قبل أن ننزل عليك هذا الكتاب ما كنت تعرف ما الكتاب أي ما القرءان ولا الإيمان أي ولا تفاصيل الإيمان، ما كنت تعرف

(١) روح المعاني جزء ٣٠/ ٢٥٣.

أحكام الإيمان لكن هو كان مؤمنًا لكن لا يعرف التفاصيل إنما تعلم التفاصيل بعد أن أنزل عليه القرءان، بعد أن نزل القرءان عليه تعلم تفاصيل الإيمان من صلاة مفروضة وصيام ووضوء، الوضوء أيضًا علمه جبريل أول ما أنزلت عليه النبوة قبل ليلة المعراج، وكان يصلي قبل ليلة المعراج جبريل علمه كيف يصلي وكيف يتوضأ وإلىٰ أي جهة يستقبل الكعبة علمه هذا أول ما نزل عليه الوحي.

أما الصلوات الخمس بعد سبع سنوات ليلة المعراج فرض عليه قبل ذلك كان يصلي صلاة الليل كانت فرضًا عليه، بالليل كان يصلي فالمؤمنون الذين ءامنوا به كانوا يصلون بالليل، ليس عليهم فرض بالنهار إلا بالليل.



۞ الأولياء الصالحون ۞

من فضل الله علىٰ عباده المؤمنين ورحمته بهم أن فتح لهم أبوابًا للترقّي والكمالات إلىٰ آفاق العبادات العالية، فالإنسان المجتهد المؤمن هو في جهاد مع نفسه في عبادة الله والصبر علىٰ متاع الدُّنيا الذي هو قليل، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فكلّما تخلّص الإنسان من أهواء النفس ونزعات الشيطان وإخوان السوء، ولم يبحر في بحار المعاصي، ازداد إيمانه ويقينه بالله وأصبح عنده شعور بالصفاء والقُرب من الله أي من رِضَاه ولم يخف ممّا حوله فهو في حفظ الله ورعايته، وهذه الأحاسيس والفيوضات لا تغزو إلاّ القلوب النقيّة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وأُولئك المؤمنون الذين يؤمنون بالله إيمانًا صادقًا كامِلًا ويواظبون علىٰ الطاعات ويجتنبون المعاصي في الملذّات والشهوات المباحة، ويعملون بالسنن والآداب الشرعيّة يسمّون ويُنعتون في عرف الشرع بـ(الأولياء).

الولي: هو العارف بالله والمواظب علىٰ الطاعات المجتنب للمعاصي، الْمُعرض عن الانهماك في اللّذات والشهوات(١).

(١) شرح العقائد النسفية للتفتازاني، ص ١٣٩؛ شرح المقاصد: ٢/٢٠٣؛ والدواني: ٢/٢٨٢؛ والدردير على الخريدة، ص ١٢٢؛ ولوامع الأنوار: ٢/٣٩٧، وفيه شروط الولي؛ والرسالة القشيرية، ص ١٥٨ وما بعدها؛ والباجوري على الجوهرة: ٢/٥٤؛ واليواقيت والجواهر: ١/ ١٦٠-١٦٢.

وسمّي وليًا؛ لأنّه يتولّىٰ عبادة الله علىٰ الدوام، أو لأنّ الله تعالىٰ تولاّه برحمته ولطفه وعنايته.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

وقال النبي ﷺ: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللَّهِ لأَبَرَّهُ**»[١].

قال البغوي في شرح السنة[٢]: قال معاذ بن جبل: لا يبلغ عبد ذرىٰ الإيمان حتىٰ تكون الضعة أحب إليه من الشرف، وما قل من الدنيا أحب إليه مما كثر، ويكون من أحب ومن أبغض عنده في الحق سواء.

وقال النووي في المنهاج[٣]: **الْأَشْعَث**: الْمُلَبَّد الشَّعْر الْمُغَبَّر غَيْر مَدْهُون وَلَا مُرَجَّل. وقال أيضًا: مَدْفُوع بِالْأَبْوَابِ: أَيْ لَا قَدْر لَهُ عِنْد النَّاس فَهُمْ يَدْفَعُونَهُ عَنْ أَبْوَابهمْ، وَيَطْرُدُونَهُ عَنْهُمْ اِحْتِقَارًا لَهُ.

قال القاضي عياض[٤]: لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللَّه لَأَبَرَّهُ: أي لفضله، ومنزلته عند الله أنه يجيب رغبته ودعاءه، ولا يخيب أمله وبره لرجائه وعزيمته في رغبته لربه.

فالولي من الآية والحديث تولّىٰ عبادة الله بالإيمان والتقوىٰ، وتولاّه الله تعالىٰ برفع الخوف والحزن عنه وبإدخال السرور عليه بما يبشّره به من الخير والسعادة في الدُّنيا والآخرة.

---

(١) مسلم النيسابوري: الصحيح، ٤/ ٤٠٤، حديث ٢٦٢٢.
(٢) البغوي: شرح السنة، ٧/ ٣٠٧، حديث ٣٩٦٤.
(٣) النووي المنهاج شرح صحيح مسلم ١٨/ حديث ٧١١٩.
(٤) القاضي عياض: إكمال المعلم، ٨/ ١٠٣.

وقد ثبت في الحديث القدسي ما يوضح نفس المعنىٰ، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله تعالىٰ قال: مَنْ عادىٰ لي وليًا فقد آذَنْتُه بالحرب**[١]**. وما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتّىٰ أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه**[٢] **الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنّه**»[٣].

وممّا يبشَّر به الأولياء في الدُّنيا الرؤيا الصالحة الحسنة يراها الرجل الصالح أو تُرىٰ له.

ومن ذلك الكرامة يكرمهم الله بها ويتفضّل بها عليهم.

الكرامة: هي ما يكرم الله به أولياءه بما يظهر علىٰ أيديهم وليس من شرطها أن تكون خارقة للعادة ولا خارجة عن مألوف الناس.

وممّا يدلّ علىٰ الكرامة الاستقامةُ والتوفيق إلىٰ طاعة الله والزيادة في العلم والعمل وهداية الخلق إلىٰ الحقّ.

أسباب الكرامة: الإيمان والتقوىٰ والمثابرة علىٰ النوافل.

---

(١) آذنته: أعلمته، والمراد انتقمت للولي ممن آذاه.

(٢) معنى كنت سمعه وبصره إلخ . . . أي وفقته للزيادة في الطاعة.

(٣) أخرجه البخاري: **١٣/ ١٤٢**- الفتح، كتاب الرقاق: باب التواضع، حديث **٦٥٠٢**؛ وأبو نعيم في الحلية: **١/ ٥٢٤**؛ والبغوي في شرح السنة: **٣/ ٦٨**، كتاب الدعوات: باب التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالنوافل والذكر، حديث **١٢٤١**؛ وابن حبان في صحيحه: **٢/ ٥٨**، حديث **٣٤٧**- الإحسان، من طريق خالد بن مخلد.

وقد أثبتها جمهور المسلمين من أهل البيت والصوفية والأشعريّة والماتريديّة وتبعهم علىٰ ذلك الظاهريّة والإماميّة والزيديّة والإسماعيليّة والعلويّة والإباضيّة، وقال بها بعض المعتزلة وهو أبو الحسين البصري[(١)]، حتّىٰ أنكر الإمام أحمد بن حنبل علىٰ من أنكرها وضلّله[(٢)]، بل جعل بعضهم إنكارها فسقًا وابتداعًا[(٣)].

ومن أمثلة بعض الخوارق للعادات التي حصلت علىٰ أيدي بعض الأولياء الصالحين المخلصين والمتفرّغين لعبادته والذين سلمت فِطَرهم وزكَتْ نفوسهم ما وقع للسيّدة مريم ﷺ، والحجّة من كتاب الله علىٰ ذلك في قصّة مريم الصدِّيقة حيث وجد عندها الرزق بلا سبب، وحملت بعيسىٰ ﷺ بدون ملامسة رجل، وتساقط عليها الرطب من النخلة اليابسة، وأنطق الله لها وليدها في المهد صبيًّا.

قال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا

(١) لوامع الأنوار: ٢/ ٣٩٦.

(٢) لوامع الأنوار: ٢/ ٣٩٣.

(٣) الصاوي على الدردير، ص ١٢٢.

عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٥-٣٧].

ومنها قصّة أهل الكهف حيث مكثوا في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين تحسبهم أيقاظًا وهم رقود بلا طعام ولا شراب.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٢٥].

ومنها عرش بلقيس، فقد أحضره الذي عنده علمٌ من الكتاب قبل أن يرتدّ طرف سليمان إليه.

وهناك تواتر عن الصحابة الكرام عددٌ كبيرٌ من الكرامات حيث لا يمكن إنكارها.

وإثبات الكرامة أمرٌ ممكن والممكنات متعلَّقات القُدرة فلا يمتنع شيء منها علىٰ قدرته(١).

---

(١) شرح المواقف، ص ٥٧٨.

وإثبات الكرامة للوليّ هو إثبات معجزة الرسول ﷺ؛ لأنّه لن يكون وليًا إلاّ بعد أن يكون محقًا في ديانته، وديانته الإقرار بالقلب واللِّسان برسالة رسول الله ﷺ مع الطاعة له في أوامره; لأنّ الوليّ لو ادّعىٰ الاستقلال بنفسه وعدم المتابعة للنبيّ ﷺ لم يكن وليًا ولم تظهر الكرامة علىٰ يده علىٰ سبيل الولاية، وإنّما قد يظهر علىٰ سبيل الاستدراج[1].

قال سيدنا الشيخ أحمد الرفاعي الحسيني[2]: إنّ الأولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض! ومن هنا تختلف الكرامة عن المعجزة، فالمعجزة يتمّ إظهارها ليتمّ بها تبليغ الرسالة.

وقد أنكر الكرامة بعض من ينتسب إلىٰ الأشاعرة، وأكثر المعتزلة وابن حزم الظاهري[3]. وحجّتهم أنّها تشبَّه حينئذٍ بالمعجزة.

وعقيدتنا في مسألة الأولياء والصالحين أصحاب الكرامات أن لا تخلو الدنيا من وجودهم إلىٰ يوم يميت الله المؤمنين علىٰ وجه الأرض، فهم الآن موجودن مختصون بما آتاهم الله من فضله.

قبور أهل البيت والأولياء والتوسّل بهم:

لهذه القضيّة خلاف عند أهل الفرق والمذاهب الإسلاميّة، والحقّ إنّ لكلّ فريق أدلّته فإنّي سوف أطرح بعض القصص التي توسّل بها الناس بالأئمّة العلماء والصالحين.

---

(١) شرح العقائد للتفتازاني، ص **٢٩٢**؛ وشرح المقاصد: **٢/ ٢٠٣**.

(٢) البرهان المؤيد (ص**١٣**).

(٣) الفصل لابن حزم: **٥/ ١١**؛ وذكر رأي أهل الظاهر الطوسي في اللمع، ص **٣٩٣**.

فقد أخرج الخطيب عن أحمد بن جعفر القطيعي قال: سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلاّل -وهو شيخ الحنابلة في وقته- يقول: ما همّني أمرٌ فقصدت قبر موسىٰ بن جعفر -يعني الكاظم عليه السلام- فتوسّلت به إلاّ سهّل الله لي ما أحبّ(١).

وقد ورد توسّل الإمام أحمد بن حنبل والحافظ أبي حاتم وخروج إمام أهل الحديث ابن خزيمة وجماعة من العلماء إلىٰ قبر الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا عليه السلام وتضرّعهم إلىٰ الله عنده(٢).

وقد أورد (ابن حبّان) في كتابه (الثقات) في ترجمة الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا «**غريب طوس**» كلامًا نفيسًا حول زيارته وفرج الشدّة عند الكرب، وسوف أورده لما فيه من منفعة لأصحاب الاعتقاد.

يقول ابن حبّان: «وقبره بسناباذ خارج النوقان مشهور يُزار بجنب قبر الرشيد، قد زرته مرارًا كثيرة وما حلّت بي شدّة في وقت مقامي بطوس فزرت قبر عليّ بن موسىٰ الرضا صلوات الله علىٰ جدّه ودعوت الله إزالَتَها عنّي إلاّ استُجيب لي، وإلا زالت عنّي تلك الشدّة، وهذا شيء جرّبته مرارًا فوجدته كذلك، أماتنا الله علىٰ محبّة المصطفىٰ وأهل بيته صلّىٰ الله عليه وعليهم أجمعين(٣).

أقول: ونحن نعلم كثرة الأولياء الصالحين وأهل البيت المدفونين في أنحاء العالم الإسلامي وقبورهم تُزار، وإنّي لا أرىٰ بأسًا في ذلك علىٰ أن لا يتعدّىٰ

---

(١) تاريخ بغداد: ١/ ١٢٠.

(٢) تهذيب التهذيب: ٧/ ٣٣٩، في ترجمة علي بن موسى بن جعفر الرضا عليه السلام.

(٣) الثقات لابن حبان: ٨/ ٤٥٦-٤٥٧.

حدود الشرع في ذلك فإنّ قضاء الحوائج في الكرب يحدث علىٰ ما يعلم في النيّات ولا يُنكر التوسّل إلىٰ الله بهم.

ولكنّي أستنكر ما يحدث من بعض الجهلاء مما يستدعي التوعية وفي ذلك شواذ للمسلك يحسبون بأفعالهم أنهم علىٰ أهل الطريق فيكون ذلك من شطحات مُدَّعِي الصوفيّة، وإفراط بعض الإماميّة فإنّي أرىٰ أنّ هذه إساءة أدب عند أصحاب المقام وهم في قبورهم وتعدٍّ في مكان لهم فيه حرمتهم، ولا تُشدّ إليهم الرَّحال فإذا حلّ الإنسان بقربهم يستأنس بزيارتهم لما صحَّ عن الصادق المصدّق ﷺ في زيارة القبور والسلام علىٰ أهلها.



۞ السمعيّات ۞

الملأ الأعلىٰ، أو الملائكة أجسام لطيفة ليس لهم وجود جسماني كثيف يُقبَض باليَدِ، وهم لهم حقائق لا يعلمها إلاّ الله ﷻ.

الملائكة: جمع ملأك وملك وهو بدون الهمز أكثر وأشهر كلام العرب منه بالهمز وذلك أنّهم يقولون: مَلَك من الملائكة فيحذفون الهمز منه ويحرّكون اللاّم التي كانت مسكَّنة لو هُمز الاسم، وإنّما يحرّكونها بالفتح؛ لأنّهم ينقلون حركة الهمزة التي فيه بسقوطها إلىٰ الساكن قبلها.

والملائكة مطهّرون من الشهوات التي في البشر ومبرَّؤون من الميول النفسيّة إلىٰ الشهوات ومنزّهون عن الآثام والخطايا، وهم لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة، فمن قال: إنّهم إناث كفر، ومن قال أنهم ذكور فسق، أي: «ارتكب معصية صار بها فاسقًا» وهم ليسوا كالبشر يأكلون ويشربون وينامون، ولا يتزوّجون، وإنّما هم جنس آخر بذاته، لا يتّصفون بشيء ممّا يتّصف به البشر من الحالات الشهوانية، ولهم قدرة علىٰ أن يتمثّلوا بصور بشريّة وغيرها نحو الطير الأبيض، فقد ثبت أن جبريل جاء إلىٰ السيّدة مريم متمثِّلًا في صورة بشريّة.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: ١٦-١٧].

ودخلت جماعة علىٰ سيّدنا إبراهيم في صورة آدميين يحملون إليه البُشرىٰ وظنّهم ضيوفًا فقدّم إليهم الطعام، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ

بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٦٩-٧٣].

أنواع الملائكة:

وهم أنواع كثيرة نعلمهم ولا نعلمهم; فمنهم حَمَلة العرش، ومنهم رُسل الوحي، ومنهم الكَتَبة، والحَفَظة، والموكّلون بقبض الأرواح ورئيسهم ملك الموت، والموكّلون بالمطر ورئيسهم ميكائيل، والموكّلون بالجنّة ورئيسهم رضوان، والموكّلون بالنار ورئيسهم مالك، ومنهم القائمان بالسؤال في القبر، ومنهم ملائكة ذُكرت أسماؤهم في كتاب الله تعالىٰ، وهم جبرائيل، وميكائيل، ومالك.

وقد ذُكر وجودهم في أكثر من موضع من كتاب الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥].

والملائكة خلقهم الله من نور، كما خلق آدم من طين، وكما خلق الجانّ من نار.

وقد روىٰ مسلم عن عائشة رضي الله عنها قولها: إنّ رسول الله ﷺ قال: «**خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانّ من مارج من نار، وخُلق آدم ممّا وصف لكم**»[(١)].

وجوب الإيمان بهم:

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني الوارد في حديث أركان الإيمان الستّة التي ذُكِرَت في نصٍّ واحِدٍ.

والأدلّة علىٰ وجود الملائكة في الكتاب والسنّة والإجماع، فمَنْ كفر بعد هذا وأنكر وجودهم أو أنّهم لا وجود لأعيانهم في الخارج، فهو مكذّب لله ولرسوله، ومَنْ هذا حاله -والعياذ بالله- فهو كافر بالله.

وبالإجمال فالملائكة مخلوقاتٌ خلقها الله تعالىٰ علىٰ حقيقة يعلمها الله، وهذا وهم خَلْقٌ ينفّذ أوامر الله تنفيذًا دقيقًا، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرون، والله سبحانه وتعالى خلق العالمَ كلّه عالمه وهو تعالىٰ مدبّر أمره، وهو أعلم بما خَلَقَ ولا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون، ولا يحيط أحدٌ بشيء من علمه إلاّ بما شاء.

وللملائكة عملٌ في تدبير أُمور كثيرة في الكون من إرسال الرِّياح والهواء، ومِن سَوْق السُّحب وإنزال المطر، ومن سَقْيِ النبات، ونحو ذلك من الأعمال الخافية علىٰ الأنظار التي لا تقع تحت الحواسّ، ومنهم يسبِّحون في الأرض والسماء.

---

(١) أخرجه أحمد: ٦/ ١٥٣ برقم (٢٥٢٣٥)؛ ومسلم: ٤/ ٢٢٩٤، برقم (٢٩٩٦) وأخرجه أيضا: عبد بن حميد، ص ٤٣٠، برقم (١٤٧٩)؛ وإسحاق بن راهويه: ٢/ ٢٧٧، برقم (٧٨٦)؛ وابن حبان: ١٤/ ٢٥، برقم (٦١٥٥)؛ وأبو الشيخ فى العظمة: ٢/ ٧٢٦، برقم (٢)، والبيهقي: ٩/ ٣، برقم (١٧٤٨٧)؛ والديلمي: ٢/ ١٩١ برقم (٢٩٥٣).

عصمة الملائكة:

قول أهل الحقّ -وهو الذي تدلّ عليه الآيات القرآنيّة-: بأنّ الملائكة معصومون من الذنوب ومخالفة الله تعالىٰ في أيّ أمر.

والملائكة لهم أعمال منها ما نعلمها، ومنها ما هو غير معلوم; فهم موكّلون بكتابة الأعمال وقبض الأرواح وحضور مجالس الذِّكر والحضور في الليل والنهار إلىٰ ابن آدم، فهم ينزلون ويهبطون ويصعدون دون الشعور بهم، ويحضرون إلاّ في المجالس الصالحة

وهم قسمان: قسم هم العلّيون والمقرّبون والكروبيّون، قال تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقسم لوظائف أمر الله بها من وحي وسحاب.

إبليس من الجنّ وليس مَلَكًا

أختلف بعض العلماء في الكلام علىٰ إبليس أنه من الملائكة وليس من الجنّ؟

فقال جماعة: هو نوع من الملائكة خُلق من نار السَّموم وخُلق بقيّة الملائكة من نور. واستدلّوا علىٰ ذلك بأمر الله ﷻ بالسجود وأنّه لو لم يكن من الملائكة لما كان مأمورًا بالسجود لآدم ولم ينكر الله عليه عدم السجود، قالوا: والأصل في الاستثناء أن يكون متّصلًا؛ بأن يكون المستثنىٰ من جنس المستثنىٰ منه.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: ٣٤].

وقالوا: فاستثنىٰ إبليس بعد الملائكة، فدلّ علىٰ أنّه منهم. نُقِلَ أنه ذهب إلىٰ هذا القول ابن جرير رحمه الله في تفسيره[1].

وقال آخرون: إنّه ليس من الملائكة بل من الجنّ المخلوقين من نار أو من نار السَّموم أو من مارجٍ من نار؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

والقرآن دلَّ علىٰ أنّ الملائكة سجدوا جميعًا لآدم كما نطق بذلك في قوله تعالىٰ: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر: ٣٠].

فالملائكة وصفوا بأنّهم لا يعصون الله ما أمرهم، وقد ذكر القرآن أنّ إبليس كان من الجنّ. ومن اعترض علىٰ هذا بقول الملائكة لله في آدم قبل خلقه: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

أقول: فالملائكة لم تردَّ بهذا القول غيبة آدم ولا تزكية أنفسهم ولا الظنّ السيئ، كما قد يتوهّم الجاهل، إنّما أرادوا السؤال عن الحكمة في خلق آدم في الأرض، وكانوا قد علموا أنّ الأرض كانت مسكونة قبل آدم بمخلوقات أفسدت وسفكت الدماء.

والحقيقة أنّ الخطاب الإلهي الموجّه بالسجود لآدم شمل إبليس وهو من الجنّ موجود معهم، فلهذا صحّ استثناؤه منهم فقال: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾، وإلاّ فأصله ليس منهم بلا شكّ كما ورد في الآية السابقة من سورة الكهف، والقول عندي كما هو عندي جمهور الأمة إنّ إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجنّ، والله أعلم.

(١) تفسير ابن جرير: ١/٥٠٢-٥٠٨، معتقد فرق المسلمين، ص ٦٠.

القول في بني آدم والملائكة وأيّهما أفضل:

قال البيهقي: «وقد حكم الناس قديمًا وحديثًا في المفاضلة بين الملائكة والبشر»[(١)].

فذهب ذاهبون إلىٰ أنّ الرُّسل من البشر أفضل من الرُّسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة.

وذهب آخرون إلىٰ أنّ الملأ الأعلىٰ أفضل من سكّان الأرض كلّهم.

قال: ولكلّ واحد من هذين القولين حجّة.

وقال ابن أبي العز الحنفي[(٢)]: وقد تكلّم الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر ويُنسب إلىٰ أهل السنّة تفضيل صالحي البشر والأنبياء فقط علىٰ الملائكة.

وقد أجمع أهل الحديث والصوفية من الأشاعرة والماتريدية والإماميّة والإسماعيليّة والعلويّة بأنّ الأنبياء أفضل من الملائكة باعتبار النهاية، فإنّ الله قد أعدَّ لهم من الثواب والنعيم في دار الكرامة الشيء الكثير ممّا لم يذكره للملائكة الأبرار ﵈، وقد انقطع عملهم ولم يبقَ لهم إلاّ التمتّع بما أنعم الله به عليهم، وعمل الملائكة دائم لا ينقطع ولذلك يدخلون علىٰ المؤمنين ويسلّمون عليهم.

وأجمع المعتزلة والزيديّة والظاهريّة والإباضية علىٰ أنّ الملائكة أفضل من الأنبياء وصالحي البشر واستدلّوا بقوله تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ

(١) شعب الإيمان: ١/ ١٣٥.

(٢) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية (ص٢١٨).

جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧٢-١٧٣] ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾.

وقد قال بعض الأشاعرة منهم الحليمي: إنّ الملائكة أفضل من الأنبياء ما خلا نبيّنا محمّد ﷺ.

وقالت الإماميّة[1]: إنّ الملائكة أفضل من عامّة البشر والصالحين خلا الأنبياء والأئمّة المعصومين.

وقالت بعض الصوفيّة: إنّ الملائكة أفضل من عامّة البشر والصالحين خلا الأنبياء والأولياء الصالحين.

وقولنا وعقيدتنا وما نذهب إليه: إنّ ما نذهب إليه هو أنّ الملائكة المقرّبون هم أفضل من الأنبياء والأئمّة والأولياء وصالحي البشر خلا حبيبنا ونبيّنا محمّد ﷺ لما خصّه الله ﷻ في التفرقة بينه وبين الملائكة والأنبياء في الخطاب وتَرَقّيه في معراجه إلىٰ مكان لم يصله أحدٌ من الملائكة والنبيّين، وإمامته للملائكة والنبيّين، واختصاصه بالشفاعة العظمىٰ والمقام المحمود.

أقول: وسيدنا محمَّد خير الخلق وحبيب ربّ العالمين، وخصائصه ﷺ لا يتّسع لها المقام، ولو أُلّفت الطوامير لما أحصتها، إلاّ أنّي ذكرت بعضها، والحمد لله.

---

(١) أوائل المقالات (ص٢٣٩).

هاروت وماروت كانا رجلين:

اختلفت الأقوال في هاروت وماروت; فقال قوم: هم ملكان من الملائكة، وقال آخرون منهم ابن عبّاس رضي الله عنهما: هما رجلان ساحران كانا ببابل.

وروي عن الحسن: علجان (والعلوج: الرجل الضخم من كفّار العجم)[١].

وقال أبو الأسود: هما هاروت وماروت.

وقال ابن أبزي: هما داود وسليمان عليهما السلام.

وهذا القول حكاه البغوي وابن حبّان في تفسيريهما باختلاف، وحَكم به الإيجي.

وقال ابن حزم في الفِصَل[٢]: وهذا مبطل من ظنّ أنّ هاروت وماروت كانا ملكين فعصيا بشرب الخمر والزنا والقتل.

وقال القاسمي في المحاسن: والذي ذهب إليه بعضهم أنّ هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوىٰ في بابل -وهي مدينة بالعراق علىٰ نهر الفرات- وكانا يعلّمان الناس السحرَ، وبلغ حُسن اعتقاد الناس بهما أن ظنّوا أنّهما مَلَكان من السماء[٣].

أقول: وهذا القول هو الذي نذهب إليه؛ أنّهما رجلان من أهل الأرض.

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: ٤/ ٣٠٦.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١٤٥).

(٣) محاسن التأويل: ١/ ٢٢٢.

عقيدة اليهود في الملائكة:

لا تختلف عقيدة اليهود في الملائكة عن المسلمين في حقيقة الأمر، إلاّ أنّ هناك فرقة من اليهود ينكرون وجود الملائكة والأرواح وهم الصدوقيون؛ وهم فرقة صغيرة ولكنّها مؤلّفة من مثقّفين جُلُّهم أغنياء وذوو مكانة مرموقة وهم ضدّ تقليد الشيوخ الذي سار عليه الغربييون وإنّما يحصرون تعاليمهم في نصّ الكتاب المقدّس ويقولون: إنّ حرف الناموس المكتوب وحده ملزمٌ[(١)].

وممّا جاء عنهم في كتبهم قول: لأنّ الصدوقين يقولون: إنّه ليس قيامة ولا ملاك ولا روح، وأمّا الفرجينيون فيقرّون بكلّ ذلك[(٢)].

فهذه العقائد ما أصابوا فيه منها ممّا بقي عندهم من الكتب المقدّسة، وما أخطئوا فيه فهو ممّا أُدخل عليهم من عقائد الوثنيين قبلهم، وما أصابوا فيه قبلناه وما خالف عندنا رددناه، وما لم يوافق ولم يخالف نتوقّف، فلا نردُّ ولا نقبل، ولكن ينبغي إن ذكرناه أن ننسبه أنّه من عقائد بني إسرائيل، والله أعلم[(٣)].

عقيدة النصارىٰ في الملائكة:

إنّ عقيدة النصارىٰ في الملائكة موافقة لما عليه المسلمون في بعض المواضع ولكن لم يكن اختلافهم ممّا هو منتقد أو مخالف للحقيقة، ولكنّهم حرّفوا وهدموا الحقّ الذي وصلهم فيما اعتقدوه من ربوبيّة المسيح وربوبيّة الروح القدس، فقد أضلّوا الطريق.

(١) قاموس الكتاب المقدس، ص ٥٣٩.
(٢) أعمال الرسل: ٨/٢٣.
(٣) معتقد المسلمين، ص ٢٨٩.

۞ الجنّ والشياطين ۞

الجنّ: هم عالم من العوالم الغيبيّة، وهم جنس لا نعلم عن حقيقته إلا القليل، فلا يعلم كامل حقيقتهم إلاّ الله تعالىٰ.

وعلىٰ ما عُلم ووصل إلينا أنّ الجنّ نوع من ذوي الأرواح العاقلة المريدة المكلّفة علىٰ نحو ما عليه الإنسان، ولكنّهم مجرّدون عن المادّة البشريّة، مستترون عن الحواس لا يُرون علىٰ طبيعتهم ولا بصورتهم الحقيقيّة، ولهم قدرة علىٰ التشكّل.

ودليل وجودهم من الكتاب والسنّة وإجماع العلماء.

ففي الكتاب الكريم مواضع عديدة تذكر الجنّ، وهنالك سورة تسمّىٰ (سورة الجنّ) في الجزء التاسع والثلاثين من كتاب الله ﷻ.

وقد خُلق الجنّ من النار التي لهبها خالص من الدخان وصافٍ منه، قال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾ [**الرحمن: ١٥**].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [**الحجر: ٢٧**].

وقد خلق الله تعالىٰ الجنّ للعبادة كما خلق الإنسان، ومنهم المسلمون والصالحون، ومنهم العاصون، ومنهم الكفرة وهم الكثرة الكاثرة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [**الذاريات: ٥٦**].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ [**الجن: ١٤-١٥**].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ [**الجن: ١١**].

وقد مرّ حديث عائشة رضي الله عنها أنّ الرسول ﷺ قال: «**خُلقت الملائكة من نور،**

وخُلق الجانُّ من مارِجٍ من نار، وخُلق آدم ممّا وصف لكم»[١].

وأمّا حقيقتهم التي خُلقوا عليها فالله أعلم بها؛ لأنّه لم يرد ما يدلّ عليها ولكن العلماء استنبطوا من الأدلّة الصحيحة الكثيرة التي مرّ بعضها وسيأتي بعضها: أنّ الجنّ أجسام ناريّة تتشكّل بالأشكال الحسّية والأشكال القبيحة، وأنّهم يعقلون، ويأكلون ويشربون وينامون، ويتزوّجون ويتناسلون ومنهم من يفعل الخير[٢].

الجنّ والرسالة:

نحن نعلم أنّ بعثة النبيّ ﷺ كانت بعثة عامّة إلىٰ جميع الإنس والجنّ.

ولكن بعض العلماء خالفوا في الرُّسل الذين كانوا يُرسلون إلىٰ الجنّ قبل ذلك هل كانوا من الإنس أم من الجنّ؟ فجمهور العلماء سلفًا وخلفًا علىٰ أنّه لم يكن من الجنّ قطّ رسول، ولم تكن الرسالة إلاّ من الإنس، ولكن فيهم نُذر يبلغون عن الأنبياء.

وقد نُقل معنىٰ هذا عن ابن عبّاس وابن جريج ومجاهد والكلبي وأبي عبيدة والواحدي، وقال الضحّاك وابن حزم وغيرهما: لم يُرسل إلىٰ الجنّ قبل محمّد ﷺ رسول من الإنس.

قال ابن حزم: وباليقين ندري، أنّهم قد أُنذروا فصحّ أنّهم جاءهم أنبياء منهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾ [الأنعام: ١٣٠].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) تبسيط العقائد الإسلامية، ص ١٩٠، العقائد الإسلامية لسيد ياسين، ص ١١٥.

وقال: لم يُبعث إلىٰ الجنّ نبيّ من الإنس قبل محمّد ﷺ وأنّه ليس الجنّ من قوم الإنس، وقد قال النبيّ ﷺ: «وقد كان النبيّ يُبعث إلىٰ قومه خاصّة وبُعثت إلىٰ الناس كافّة»(١)، والناس تشمل الإنس والجنّ في اللغة.

والجنّ مكلّفون كالبشر وقد سخّروا لبعض الأنبياء كما سخّروا لسيّدنا سليمان عليه السلام قال تعالىٰ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

استماع الجنّ لكتاب الله من الرسول

حضر وفدٌ من الجنّ، وسمعوا القرآن من النبيّ ﷺ ولم يرهم وقت وجودهم ولم يعلم بحضورهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: «**ما قرأ رسول الله ﷺ علىٰ الجنّ، ولا رآهم، انطلق ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلىٰ سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأُرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلىٰ**

(١) أخرجه البخاري في: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، حديث رقم (٤٣٨).

قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيلَ بيننا وبين خبر السماء وأُرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذلك إلاّ من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فمرَّ النفر الذين أخذوا تهامة بالنبيّ ﷺ وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر، فلمّا سمعوا القرآن استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلىٰ قومهم فقالوا: إنّا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلىٰ الرشد فآمنا به ولن نشرك بربّنا أحدًا»، فأنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيّه ﷺ: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الجن: ١].

وقال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عبّاس رضي الله عنهما، إنّما هو أوّل ما سمعت الجنّ قراءة لرسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم، ولم يرهم، ثمّ بعد ذلك أتاه الجنّ فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلىٰ الله ﷻ . . . انتهىٰ[1].

الجنّ لا يعلمون الغيب

علم الغيب ممّا استأثر الله به والله لا يُطلع أحدًا علىٰ غيبه إلاّ إذا أراد أن يبلِّغ مَن ارتضاه من رسله وما يريد إبلاغه للناس وهو بعض ما غاب وليس كل الغيب، قال تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ **[الجن: ٢٦-٢٧]**، بل إنّهم يحاولون استراق السمع من الملائكة الذين يكونون عند السحاب لا في السماء الأولىٰ في بعض الأحيان فيكون لهم شهابٌ راصدٌ.

(١) العقائد الإسلامية، ص ١١٨.

الفرق بين الجنّ والشياطين

اختلف العلماء في الفرق بين الجنّ والشياطين:

فهناك رأي يقول: هما جنسٌ واحد، ويطلق الشيطان علىٰ المتمرّد من الجنّ وهو الأرجح الذي تدلّ الآية عليه كما سبق بعضها، وعلىٰ هذا رأي جمهور العلماء.

والرأي الآخر: يقول: إنّ الحقيقتين متغايرتان، فالجنّ أجسام هوائية لطيفة تتشكّل بالأشكال المختلفة وتظهر منها الأفعال العجيبة ومنهم المؤمن والكافر.

أمّا الشياطين فهي أجسام ناريّة شأنها إضلال الناس وإلقاؤهم في الغواية والهلاك.

إبليس أبو الجِنّ:

إبليس اسم أعجمي، ولهذا كان ممنوعًا من الصرف، وقيل: إنّه عربي مشتقٌّ منَ الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله، أو الإبعاد عن الخير، ومنع من الصرف؛ لأنّه نظير له في الأسماء أو لأنّه يشبه الأسماء الأعجميّة. وهو أبو الجِنّ[(١)]، وأصله الأوّل[(٢)].

ولَمَّا كانت الملائكة هم جند الله الذين يعملون بالخير، فإنّ إبليس ومَنْ معه من الشياطين الكفرة هم أعداء الله ودينه وعملون بالشرّ والفساد، فأعمال الملائكة والشياطين علىٰ طرفي نقيض.

---

(١) الشياطين جمع شيطان، والشيطان كل متمرد من الإنس والجن أو الحيوان، والمقصود المتمردون في عالم الجن.

(٢) وهو سيبقى إلى يوم القيامة، فقد طلب إنظاره فأجابه الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر: ٣٦-٣٨].

فأعمال الشياطين تتّجه دائمًا إلىٰ التمرّد علىٰ تعاليم دين الله وإلىٰ التفريق والتمزيق والتخريب والتدمير، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، ووصل ما أمر الله به أن يقطع، فكم من شرّ في الأرض وفساد لهم به صلة.

وكان الله له حكمة في خلق إبليس فإنّه يظهر للعباد قدرة الله تعالىٰ علىٰ خلق المتضادّات المتقابلات، فخلق هذه الذات وهي أخبث الذوات العاصية لأمره، وفي مقابلها خلق جبرائيل الروح الأمين والذي هو من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، والناظر إلىٰ هذا الكون إلىٰ الليل والنهار والداء والدواء والحياة والموت، فكلّ هذه المتضادّات هي بتدبير الله، ورغم أنّ الشيطان يزيّن للناس أعمالهم الخاطئة ويجعلهم في عصيان إلىٰ الله ويخذلهم في نهاية الأمر، فالشياطين هم مَن زيّنوا للأُمم السابقة سوء العمل، وحسّنوا لهم الكفر والمعاصي ودَعَوهم إلىٰ تكذيب الرُّسل ومخالفة أوامر الله ولا تزال هذه أعمالهم.

وتسعىٰ الشياطين إلىٰ تحريف الدِّين والخروج علىٰ الفطرة، وإلىٰ الإشراك بالله وتحريم الحلال وإحلال الحرام فهي لا تسعىٰ إلاّ في الشهوات وتوقع صاحبها في عصيان الله من حبّ الشهوات الفانية والطمع في المال أو الحرص علىٰ المنصب والطغيان والكِبر، ومع هذا كلّه رغم جحود الإنسان فإنّ الشيطان ضعيف عند العابد التقيّ يُصرف عن الإنسان بقوّة العبادة ولا يستطيع الإضرار بالإنسان إلاّ بأمر الله، والله غفورٌ رحيم يصرف السوء ويكشف البلاء، فما أعظم الباري جلّ جلاله.

الصلة بين الجنّ والبشر:

إنّ الاتّصال بين الجنّ والإنس ثابت بالكتاب والسنّة وإجماع الأئمّة، غير أنّه اتّصال من نوع خاصّ فهو ليس كاتّصال الإنس بالإنس؛ لأنّ الجنّ يرانا ولا نراه علىٰ حقيقته.

فالجنّ موجودٌ في كلّ مكان يكون فيه إنس، ويحضرون أكله وشربه ومآدبه ومجالسه لا يفارقونه أبدًا، وهؤلاء القُناء، فمع كل واحد مِنّ واحد منهم هو شيطان كافِر، فالجنّ مسلّطون علىٰ الإنس بالوسوسة والإغواء والإضلال، وأحيانًا بالتمثّل والتشبّه بأشياء تزيد من إضلالهم للإنس وتكفيرهم، وأحيانًا يلبسون جسد الإنسان، ويعيشون فيه بكيفيّة لا يعلمها إلاّ الله تعالىٰ.

فكلّ إنسان معه شيطان قَرِين، وكما أمدَّ الله الإنسان بملك يهديه ويؤيّده فإنّه كذلك معه شيطان يوسوس له ويزيّن له السوء، ويغريه بالمنكر، ويدعوه إلىٰ الفتنة. فقد يُصاب الإنسان عن طريقهم بمرض من الأمراض كالصرع والجنون والتشنّج وغير ذلك، وكلّ ذلك بتقدير الله.

والخلاصة: أنّهم يتشكّلون بالأشكال المختلفة التي عن طريقها يحاولون الإضرار بالإنسان أو نفعه، كما أنّ شياطينهم مسلّطون بالوسوسة للإنسان للإغواء والإضلال، فهم ظاهرًا وباطنًا، غير أنّه لا يُضرّ منهم إلاّ الكافرون أو الفاسقون، أمّا الصالحون منهم فشأنهم شأن صالحي الإنسان في أمور الخير، والله من فضله ورحمته أعطىٰ الإنسان السرّ الذي يفسد علىٰ الجنّ وسوستهم ويحفظ نفسه من أضرارهم وأذاهم.

وذكر اسم الله يحجبهم عن الإنسان ويمنعهم من إيذائه[1].

(١) تبسيط العقائد، ص ١٩٣.

وتظهر الجنّ والشياطين في صور شتّىٰ، وقد ذكر ابن إسحاق وغيره في سبب نزول الآية: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨] أنّ المشركين جاؤوا إلىٰ غزوة بدر ومعهم إبليس في صورة سراقة بن مالك الكناني -وكان سراقة من أشراف بني كنانة وكانت قريش تخشىٰ كنانة علىٰ نفسها- فقال لهم إبليس: أنا جارٌ لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه. فلمّا نزلت الملائكة ورآها إبليس نكص علىٰ عقبيه وهرب، فقال له الحارث بن هشام -وتشبّث به- إلىٰ أين يا سراقة، أين تفرّ؟ فلَكَمه إبليس لكمةً طرحه علىٰ قفاه، ثمّ قال: إنّي أرىٰ ما لا ترون . . . إلخ.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في هذه القصّة عدّة روايات[1].

هل يدخل الجنّ في بدن المصروع؟

أنكر طائفة من المعتزلة دخول الجنّي في بدن المصروع، وذكر أبو الحسن الأشعري أنّ أهل السنّة والجماعة يقولون: إنّ الجنّي يدخل في بدن المصروع[2].

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسير سورة الأنفال، وابن المنذر وابن مردويه ونقله عنهم السيوطي في الدرّ المنثور: ٣/ ١٦٩ وكذلك أخرجه البيهقي في دلائل النبوّة: ٣/ ٧٨-٧٩.

(٢) مجموع الفتاوىٰ لابن تيميّة: ٢٤/ ٢٧٦، ١٩/ ١٢.

واستدلّ أهل المذاهب الإسلامية والفرق كلّهم، وخالفهم المعتزلة، بهذه الآية علىٰ أنّ الجنّ تدخل في بدن المصروع.

وأخرج أحمد والدارمي والطبراني وأبو نعيم والبيهقي معًا في الدلائل[(١)] عن ابن عبّاس: إنّ امرأة جاءت بابن لها إلىٰ النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنّ ابني هذا به جنون، وإنّه يأخذه عند غدائنا وعشائنا، فيفسد علينا، فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا له فتع تعةً[(٢)] فخرج من جوفه مثل الجرو[(٣)] الأسود، فسعىٰ.

وممّا ورد فلا غرابة في ذلك وللعرب حكايات كثيرة في ذلك، ونحن اليوم نسمع من القصص عن الجنّ وتشكّلهم واتّصالهم بالإنس.

الرقية والاستعاذة منهم:

ويُستعان عليهم بالذِّكر والدُّعاء، وقراءة العوذ والصلاة، وإن تضمن مرضُ طائفة من الجنّ أو موتهم فهم الظالمون لأنفسهم، ومن أعظم ما يُنتصر به عليهم قراءة آية الكرسي وهي مجرّبة، والله الحافظ.

وأمّا نكاح الجنّي الإنسيّةَ والإنسي من الجنّية، فقيل: عسىٰ أن يكون ممكنًا.

قال الثعالبي: زعموا أنّ التناكح والتلاقح قد يقعان بين الجنّ والإنس، قال تعالىٰ: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤].

(١) أخرجه أحمد في المسند: ١/ ٢٣٩، ٢٥٤، ٢٦٨، والدارمي في سننه باب ٤ من المقدّمة، والبيهقي في الدلائل: ٦/ ١٨٢، والطبراني في الكبير.

(٢) أي: قاء قاءة - أو قيئة. لسان العرب: ١٥/ ٣٧٦.

(٣) الكلب الصغير الحديث الولادة. المحيط في اللغة: ٢/ ١٣٦.

وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير عن مجاهد قال: «إذا جامع الرجل أهله ولم يسمِّ، انطوىٰ الجانُّ علىٰ إحليله فجامع معه، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦].

وأمّا جوازه شرعًا ففيه خلاف بين الفقهاء، فالقلّة أجازته، والكثرة منعته.

علىٰ كلّ حال فالجنّ هم مخلوقات لهم أحوال من العبادة والصلاح ومن الكفر والعصيان، وقد خلقهم الله في عالمهم وكونهم فمنهم العلماء ومنهم رواة الحديث والقضاء، وحياتهم حياة بني الإنس فيما بينهم إلاّ أنّنا لا نراهم وهم يرونا، ومنهم يدخلون الجنّة ومنهم يدخلون النار وفيهم المذنبون ومنهم التائبون، وقد تقوَّىٰ الإنس عليهم بالآيات القرآنية التي تحجبهم وتسقط إمكانيّتهم.

عقيدة اليهود والنصارىٰ في الجنّ:

لا يختلف اليهود والنصارىٰ عن المسلمين في مسألة الجنّ والشياطين في أعمالهم وأفعالهم والاستعانة بهم بالسحر والشعوذة وبعمل رجال الدين فيهم علىٰ أطّرادهم في حالات الصرع بالقراءة من التوراة والإنجيل للتوقّي منهم، فهم بذلك لا يختلفون عنّا إلاّ أنّنا نحمل الكلام الأقوىٰ وهو كتاب الله ﷻ.

حقيقة الجنّ والشياطين مع الأنبياء:

إنّ ما نذهب إليه أنّه ليس للجنّ علىٰ الأنبياء سلطان، وما جاء في الآية الكريمة من سورة الأنعام في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١١-١١٣].

أي: أنّهم أعداء كما جعلنا لغيرهم أعداء والحكم عليهم بأنّهم أعداء ضعفاء، وهنا اتّفاق في تأويلات المعتزلة والمقصود هنا العداوة بمعنىٰ عدم الإيمان بنبوّة الأنبياء ولشياطين الجنّ والإنس؛ أي كفّارهم، وهو تمرّدهم علىٰ الإيمان بالله وغرورهم، وقد تكلّم جمعٌ من المفسّرين في هذه المسألة مثل البغوي والماوردي وغيرهم.

والمعتزلة تنفي رؤية الإنس للجنّ ولا تعتدُّ بها،

ومن ذهب إلىٰ القول بأنّ النبيّ ﷺ أثّر فيه السِحرُ نقول له بأنّ النبيّ لم يؤثر السحر لا بفكره بتغير ولا في جسمه بالألم، وما في البخاري ومسلم أنه صار يخيل له إنه فعل كذا ولم يفعله هذا غير مقبول وما قيل إنه كان يخيل إليه أنه يأتي النساء غير مقبول، فلا يجوز أن يؤثر السحر في فكر الرسول ﷺ ويجوز أن يؤثر في جسمه فيصيبه الألم والله أعلم.

تحضير الأرواح:

تعدّ هذه المسألة من القضايا المخلّة بأساس العقيدة، فلا صحّة لتسخير الأرواح، وإنّ ذلك يُعدُّ من الشعوذة والدّجل، وأنّ مسألة تحضير الأرواح وإن تمثّلت في بعض الحقائق فإنّ المنجّمين كذّابون فيما لو صدقوا في بعض أقوالهم من باب الصدفة أو الاستعانة بالشياطين، وهذا كلّه بعد خروجهم عن العقيدة الصحيحة فإنّ الجنّ والشياطين يمكنهم -كما قلنا- التمثّل في أشياء كثيرة وفي تقليد الأرواح والإيهام بحضورها.

والروح هي من أمر الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

كما أنّه لم يثبت عن الأنبياء أو الصحابة أو الأولياء تحضير الأرواح بمعرفة حاله بعد الممات، والعالَم الآخر بعد الممات هو عالَم له أسرار وخواصّ لم يطّلع عليها البشر قبل الموت إلا ما أخبرنا به من طريق الشرع، فالقول بعودة الأرواح وحدها فهذا ممّا لا يقبله العاقل، بل هو من السخف والتخريف! تحضير الأرواح فيه تمويه وهو أن الذين يحضرون ليست أرواح أجساد الأشخاص الذين ماتوا بل هم قرناء أولئك الأشخاص الذين ماتوا، والذي نذهب إليه أنّه لا صحّة لمسألة تحضير الأرواح، وأنّ مَن قال بذلك فقد تخبّط واستهوته الشياطين.

اللّهُمَّ أعذنا من الجهل والضلال.



الأصل الثالث
القضاء والقدر

اختلف المتكلمون في تفسير القضاء والقدر علىٰ أقوال متعددة، وأصبحت هذه المسألة محلَّ خلاف متعدد، بل إن كل فرقة ذهبت إلىٰ أدلة تقوِّي أقوالها، والقرآن الكريم ذكر في آياته البينات مواضع كثيرة حول آيات القضاء والقدر، ومع هذه الخلافات لم يستكثر أحد من الفرق الإسلامية بل اجتمعوا علىٰ أن الإيمان بالقضاء والقدر عقيدة من العقائد الإسلامية التي أُسست علىٰ الإيمان بالله. ويثبت علىٰ المعرفة الصحيحة لذاته تعالىٰ وأسمائه الحسنىٰ، وصفاته العظمىٰ الواجبة له تعالىٰ؛ فقد جاء فيما يجب الإيمان به أن الله تعالىٰ متَّصفٌ بالعلم والإرادة والقدرة، وأنه سبحانه فعَّال لما يريد، وعلىٰ هذا الأساس قامت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر وأنه ﷻ فعَّال لما يريد.

والقدر معناه: معناه التدبير وقال بعضهم التعيين ولكن التفسير بالتدبير هو المنقول عن أئمة اللغة، أما التعيين فلم ينقل عن أحد منهم، فمن أئمة اللغة الذين فسروا القدر بالتدبير الإمام اللغوي الزجاج وكذلك بدر الدين الشيرازي فمعنىٰ ﴿**إِنَّا كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ**﴾ أن الله تبارك وتعالىٰ خلق كل شيء من الأشياء بقدر أي بتدبير أزلي، الله تعالىٰ قدر الخلائق كلها، دبر الخلائق كلَّها بتدبيره الأزلي علىٰ حسب مشيئته تعالىٰ الأزلية وعلمه الأزلي.

والقضاء: الخلق والتكوين وهوو إيجاد الله تعالىٰ الأشياء علىٰ حسب علمه وإرادته.

وعرَّف بعض العلماء كلاًّ منهما بتعريف الآخر. ولقد شاع إطلاق لفظ القدريَّة بين علماء الكلام في الفرق، وقالت المعتزلة إن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله بإرادته واختياره وليس لله مشيئة في ذلك، كما شاع إطلاقه علىٰ القائلين بأن الأفعال مخلوقة لله ومقدَّرة علىٰ الإنسان سواء كانت خيرًا أو شرًا، وبذلك

فإن لفظ القدر يُستعمل في معنيين متضادين، وهو بمعناه الأول يرادف الاختيار وبمعناه الثاني يرادف الجبر.

وكانت ولا تزال هذه المسائل من أعقد مسائل العقائد وقد شاع النزاع فيها في القرن الأول وتوجهت الأفكار إليها بإعطائها الأهمية الكبيرة.

ورغم كثرة التوجه إلا أنه لم يتفق العلماء فيها علىٰ رأي واحد، ولم يستطيعوا أن يزيلوا الشكوك وأوجدوا الحلول التي تزيح الشبهة والشكوك حول أفعال الإنسان وتحدد مسؤوليته المترتبة عليها.

وتشير بعض الروايات إلىٰ أن الرسول ﷺ وآل بيته قد نهوا عن الخوض في أمثال هذه المواضيع التي لا تزيد الباحث إلا حيرة وضلالًا فقد قال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر، وملائكته ورسله، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[١].

ومما لاشك فيه أن الله سبحانه وتعالى يتصرف فيه بحكمته ومشيئته.

فالقضاء والقدر راجعان إلىٰ العلم والإرادة، لكن لما كان خطر الجهل في هذا الفن عظيمًا صرح المتكلمون بهما[٢].

الإيمان بالقضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان.

قال تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ

(١) أخرجه أحمد: ١/ ٣١٩ برقم (٢٩٢٦)؛ والبزار كما في مجمع الزوائد (١/ ٣٩).
(٢) الباجوري علىٰ الجوهرة: ٢/ ١٧.

كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس ٣٦-٤٠].

وقد ورد بالحديث الصحيح حين جاء جبريل يسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان يريد تعليم المسلمين أحكام دينهم قال جبريل: «فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت»(١)

مذاهب المسلمين في القضاء والقدر:

قسم العلماء الأفعال إلىٰ قسمين:

١- **أفعال اضطرارية**: وهي التي لا قدرة للإنسان ولا اختيار له فيها كحركة انتعاش اليد وحركة الجهاز العصبي والهضمي.

وقد اتفقت الفرق الإسلامية جميعها علىٰ أنها مخلوقة لله وليس للعبد دخل فيها إلا الكسب؛ فلا تكليف فيها ولا ثواب ولا عقاب بها.

٢- **أفعال اختيارية «أفعال العبادة»**: وهي التي للإنسان فيها قدرة واختيار كالسير والكلام، وهذه هي محل الخلاف بين الفرق الذين ذهبوا فيها مذاهب مختلفة، وسوف أستعرض رأي كل فرقة مشيرًا إلىٰ ما تذهب إليه.

مذهب أهل البيت:

ينهىٰ أهل البيت عن الحديث في مسألة القضاء والقدر، وقولهم في أفعال العباد أنه لا عبث في صنعه ولا تفاوت في خلقه ولا قبيح في فعله، جلَّ عن

(١) أخرجه البخاري: ١/ ٢٧، برقم (٥٠)؛ ومسلم: ١/ ٣٩ برقم (٩) من حديث أبي هريرة، ومعناه لأبي داود (٤/ ٢٢٣) (٤٦٩٥)، والترمذي (٥/ ٦) (٢٦١٠) من حديث ابن عمر.

مشاركة عباده في الأفعال وتعالىٰ عن اضطرارهم إلىٰ الأعمال، لايعذِّب أحدًا إلا علىٰ ذنب فعله ولا يلزم عبدًا إلا علىٰ قبيح صنعه. لايظلم مثقال ذرة فإن تكُ حسنة يضاعفها ويؤتِ من لدنه أجرًا عظيمًا. وبذلك هم يقولون بأن أفعال العباد حادثة لهم أو من جهتهم.

مذهب الزيدية والمعتزلة

قالوا إنّ العباد هم المحدِثون لأفعالهم، وأن أفعالهم ليست مخلوقة فيهم، وقد اتفقوا علىٰ أن أفعال العباد في تصرفهم وقيامهم وقعودهم حادثةٌ من جهتهم، وأن الله ﷻ أقدرهم علىٰ ذلك ولا فاعل ولا محدِث سواهم، وقد أثيرت مسألة القضاء والقدر عند علماء المسلمين، لما رأوا أن أدلة الكتاب والسنة والعقول معارضة لأقوال المعتزلة، لأنّ منهم من قال: إن الإنسان مجبر علىٰ فعله واستدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة: ١٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦].

وقوله ﷺ: «**الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ**»(١).

ومن حجج العقل: إننا لوقلنا: إن العبد مخيرٌ وهو خالق أفعاله، لكانت قدرة الله تعالىٰ محددة وغير شاملة، والعبد شريك الله تعالىٰ في إيجاد العلم!

واستدل من قال: إن الإنسان مخير ليس مجبورًا أو مسيرًا، بقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: ٣٨].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٣٧ حديث رقم(٢٦٤٥).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩].

ومن حجج العقل: أننا لو قلنا بأن الإنسان مجبر، فقدرته لا أثر لها ولكن لو لم تكن له قدرة لما كان معنىٰ للأوامر والنواهي وللثواب والعقاب[١].

ومنهم من قال: إن الله سبحانه خالقها ومحدِثُها فقد عظُم خطؤه، وأحالوا حدوث فعل من فاعلين[٢]. واستدلوا علىٰ مذهبهم بأن العباد هم المحدِثون لأفعالهم باستدلالات عقلية[٣]، ويتفق الزيدية والمعتزلة في أن الاستطاعة معنىٰ أو عرضًا يثيب للفاعل المستطيع فبل فعله الفعل.

مذهب الصوفية والأشاعرة

أفعال العباد الاختيارية مخلوقة لله ﷻ وليس للعبد تأثير في إيجادها، وأن الله تعالىٰ يخلق فيه بقدرته إصدار ذلك الفعل للعبد. فالفعل إبداع وإحداث لله وكسب للعبد[٤].

---

(١) أصول الدين الإسلامي، ص ١٦٤؛ ودراسات في الفرق والعقائد، ص ٢٤٥.

(٢) المحيط بالتكليف، ص ٢٣٠؛ شرح الأصول الجنة، ص ٣٢٤؛ المغني: ٣/٨، العدة، ص ١٨٤؛ الإيضاح، ص ٦٢،٦٣، شرح القلائد، ص ٧٧، بتصرف.

(٣) أصول العقيدة، ص ٢٤٨؛ شرح الأصول الجنة، ص ٣٣٢؛ المغني: ٦/٨؛ المختصر في أصول الدين، ص٣٣٧؛ المحيط بالتكليف، ص٣٤٠؛ شرح القلائد، ص ٧٣.

(٤) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، ص ٢٦٣؛ وشرح المقاصد: ١٢٥/٢؛ والمواقف، ص ٥١٥ وما بعدها.

قال في الإبانة: «أنه لا خالق إلا الله وأن أعمال العبد مخلوقة الله ومقدورته كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئًا وهم يُخلَقون كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٣].

وقال في مقالات الإسلاميين: في حكاية جملة قول أهل الحديث وأهل السنة: وأقروا أنه لا خالق إلا الله وأن سيئات العباد يخلقها الله، وأن أعمال العباد يخلقها الله، وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا منها شيئًا[(١)].

والكسب هو اقتران قدرة العبد بفعل الله: بمعنىٰ أن الإنسان إذا أراد أن يفعل فعلًا من الأفعال، فإن الله يخلق له في هذه اللحظة قدرةً علىٰ هذا الفعل، وهذه الأخيرة هي التي تكتسبه لكنها لا تخلقه[(٢)].

مذهب الإسماعيلية:

الإسماعيلية يثبتون القضاء والقدر حقيقة لا مجازًا، ولكنهم ينفون كونهما سالبتين للاختيار فيقول الداعي علي بن محمد بن الوليد: القضاء والقدر حقيقة لا مجاز، ولهما في الخلق أحوال يقولون: علىٰ ما رتَّب الفاعل سبحانه من غير جبر يُلزم النفوس الآدمية الدخول إلىٰ النار أو الجنة، وأنه فيما سواهما من سائر الخلق الذي كان، ذلك لذهاب النبوات والأوامر المسطورات والكتب المنزلة في ذمِّ قوم علىٰ ما اقترفوه ومديح قوم علىٰ ما فعلوه[(٣)].

---

(١) مقالات الإسلاميين: ١/ ٣٢١.

(٢) منهاج الأدلة، ص ١١٠؛ وأصول الدين، ص ١٦٧.

(٣) تاج العقائد، قسم الاعتقاد ٩٧- ١٦٩- ١٧٩.

وأما القضاء والقدر فهما اسمان، وكلاهما مشتق وتحت كل واحد منهما معانٍ مختلفة. والأصل جامع، واستدلوا بأدلة من الكتاب والسنة وسردوا أدلة عقلية ونقلية[١].

الإنسان مخير لا مسير:

مذهب الإسماعيلية: يقول الداعي علي بن محمد بن الوليد: ويعتقد أن الإنسان مجبور في حال تركيبه، ورزقه، ومدته، وحركات طبائعه والكيان بنشوئه وما يحدث عليه مقهور عليه، مغيَّب عن إدراكه، وعيانه، ليكون مفتقرًا بالدعاء والتضرع إلىٰ خالقه، إذ لو كشف لفسد حاله، ومخير غير مجبور فيما يعتقد لنفسه من علومه وصناعته ومذاهبه ومعتقداته. إلىٰ أن قال: ولولا ذلك لما كانت لها منفعة بإرسال الرسل وقبول العلم وتلقِّي الفوائد والإيضاح لأوامر الله تعالىٰ؛ إذ لو كانت مجبورة لاستغنت عن كل شيء تستفيده، ثم استدل بآيات[٢].

مذهب أهل الحديث (السلفية الوهابية):

لم يكن موقف مدعي السلفية (الوهابية) من القدر بعيدًا عن أهل المذاهب الأخرىٰ بل كان موقفهم يتجه إلىٰ الوسطية، وقد أشاروا إلىٰ إثبات حرية الإرادة المطلقة، وقد قرر ابن تيمية أن في كل من الكتاب والسنة ما يؤيد حرية الإرادة من جهة وما يثبت القدر من جهة أخرىٰ[٣].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تاج العقائد قسم الاعتقاد ٩٥ - ١٦٦- ١٦٨.

(٣) درء تعارض العقل والنقل: ١/ ١٠٤؛ أصول الدين، ص ٢٤-٢٥.

وقد أعلن ابن القيم أن ما يجب معرفته في هذه المسألة أربع مراتب[١]:

١- علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها.

٢- كتابته لها قبل كونها في اللوح المحفوظ.

٣- مشيئته لها.

٤- خلقه لها.

مذهب الإمامية والعلوية:

وقد ذكر مذهب الإمامية، ويتفق معه العلوية وقد ذكر الشيخ الصدوق بقوله: «اعتقادنا في أفعال العباد أنها مخلوقة خلق تقدير لا خلق تكوين؛ ومعنىٰ ذلك أنه لم يزل الله عالمًا بمقاديرها»[٢].

وأن أفعال العباد في ضوء النص مخلوقة لله تعالىٰ خلق تقدير، بمعنىٰ أن الله منذ الأزل يعلم مقادير هذه الأفعال، وهذا هو معنىٰ خلق التقدير، وهو يقابل في نفي الصدوق خلق التكوين؛ أي إيجاد الأفعال وإحداثها، وبناءً علىٰ ذلك قرر الصدوق أن القول الحق في مسألة أفعال العباد ودورانها بين الجبر والتفويض.

قال الشيخ أبو جعفر رَحِمَهُ اللهُ[٣]: لا جبر ولا تفويض[٤] بل أمر بين الأمرين، وروىٰ في ذلك حديثًا مرسلًا قال: فقيل: وما أمرٌ بين الأمرين؟ قال: مثل رجل

(١) العقيدة الواسطية، ص ١٦.

(٢) الاعتقادات، ص ٧٥.

(٣) الاعتقادات، ص ٢٩.

(٤) الكافي: ١/ ١٦٠/ ١٣، التوحيد ٨/٣٦٢ وعنه في البحار ٥: ٢٨/١٧، تصحيح الاعتقاد، ص ٤٦.

رأيته علىٰ معصيته فنهيته فلم ينتهِ، فتركته ففعل تلك المعصية، فليس حيث لا يقبل منك فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصية[١].

وهذا قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

وبذلك يرىٰ أهل الحديث مدعي السلفية الوهابية: أن الأفعال خلق الله عز وجل، وفي الوقت ذاته فهي كسب لهم. لقوله الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

يقول (ابن كثير) في تفسيره: يحتمل أن تكون (ما) مصدرية فيكون تقدير الكلام: خلقكم وعملَكم، ويحتمل أنها بمعنىٰ الذي وتقديره: (والله خلقكم والذي تعملون) وكلا القولين متلازم والأول أظهر[٢]. وبهذا فإن موقفهم في هذه المسألة ليس موقفًا جبريًا علىٰ الإطلاق، فهم يرون أن العبد فاعل علىٰ الحقيقة فهو له مشيئة ولكنها لا تخرج عن مشيئة الله وقدرته، فأفعال العباد تكون من الله خلقًا وتقديرًا وهي من العباد كسبًا وفعلًا[٣].

ويقول (ابن تيمية) في مسألة أفعال العباد: «مذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالىٰ خالق كل شيء وربه ومليكه، لا رب غيره ولا خالق، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهو علىٰ كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، والعبد مأمور بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، منهي عن معصيته ومعصية رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فإن أطاع كان ذلك نعمة، وإن عصىٰ كان مستحقًا للذم والعقاب، وكان لله عليه الحجة البالغة، ولا حجة لأحد علىٰ الله تعالىٰ. وكل ذلك كائن بقضائه وقدره

(١) رسالة الاعتقادات، ص ٧٥.

(٢) ابن كثير تفسير: ٤/ ٦٣.

(٣) مذاهب الإسلاميين، ص ٣٠٨.

ومشيئته، لكن يحب الطاعة ويأمر بها، ويثيب أهلها علىٰ فعلها ويكرمهم ويبغض المعصية وينهىٰ عنها ويعاقب أهلها ويهينهم وما يصيب العبد من النعم فالله أنعم بها عليه، وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه»[١].

وقد أطال (الصدوق) في هذه المسألة مما زادها تعقيدًا للمطَّلع فختم قوله بالعبارة الآتية:

«**نقول: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**» وليس لهذه العبارة معنىٰ سوىٰ أن الله تعالىٰ قد شاء -أي أراد- ما كان وما سيكون بها في ذلك المعاصي والآثام والشرور.

وفي ذلك أجد أن الشيخ الصدوق اقترب موقفه في قضية أفعال العباد كثيرًا من نظرية الأشاعرة وأهل الحديث بقدر ما يبتعد عن مذهب المعتزلة في هذه القضية فالتفرقة بين الإرادة والرضا تفرقة أشعرية معروفة فرقها الأشعري من جملة أقوال أهل الحديث وأهل السنة أنهم يقولون: «إن الله لم يأمر بالشر بل نهىٰ عنه وأمر بالخير، ولم يرضَ بالشر وإن كان مريدًا له»[٢].

وقد عالج الصدوق المشكلة في بعض نصوصه نقلها عن الإمام الرضا علي بن موسىٰ أن لله تعالىٰ إرادتين ومشيئتين:

الإرادة الأولىٰ يسميها إرادة عزم والإرادة الثانية يسميها إرادة حتم، وإرادة العزم هي الأمر والنهي في كلمة واحدة: التشريع، وهذه الإرادة لا تأثير لها في أفعال العباد وأن هاتين الإرادتين قد تتعارضان بمعنىٰ أنه قد يأمر وينهىٰ وهو لا يريد ولا يشاء، وقد ضرب مثالًا علىٰ ذلك في النهي: قصة آدم وزوجته: فقد

---

(١) الفتاوىٰ الكبرىٰ، لابن تيمية: ٨/ ٦٣.

(٢) مقالات الإسلاميين، ص ٢٩٤.

نهىٰ الله آدم وزوجته عن الأكل من الشجرة ومع ذلك فقد شاء أن يأكلا منها، كما يضرب مثلًا في الأمر: بأن الله تعالىٰ أمر إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل، مع عدم إرادته لذبحه(١).

وبذلك نلخص كلام الصدوق بأنه قد اضطرب بين جهتين، فهو لا يريد أن يقول إن الله يريد المعاصي والشرور، بينما يعتقد اعتقادًا جازمًا أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو ينحاز إلىٰ مدرسة الأشاعرة في التفرقة بين الإرادة والرضا، **وينحاز** إلىٰ المعتزلة والزيدية في أن الإرادة والرضا في الطاعات بمعنىٰ واحد(٢).

ونجد أن (الشيخ المفيد) يدعم نقده للشيخ الصدوق بمرويات أخرىٰ عن آل البيت تثبت أن أفعال العباد حادثة لهم أو من جهتهم فيقول ﵀: الصحيح عن آل محمد ﷺ أن أفعال العباد غير مخلوقة لله تعالىٰ، والذي ذكره أبو جعفر ﵀ قد جاء به حديث غير معمول به ولا أمر في الإسناد، والأخبار الصحيحة بخلافه،(٣) وأما التقدير فهو الخلق في اللغة؛ لأن التقدير لا يكون إلا بالفعل فأما بالعلم فلا يكون تقديرًا ولا يكون أيضًا بالفكر، والله تعالىٰ متعالٍ عن خلق الفواحش والقبائح علىٰ كل حال(٤).

وقد روي عن أبي الحسن علي بن محمد بن علي ابن موسىٰ الرضا -صلوات الله وسلامه عليهم- أنه سئل في أفعال العباد، فقيل له: هل هي مخلوقة لله

(١) التوحيد للصدوق، ص ٦٥-٦٦.

(٢) المغني المغني: ٦/ ٣؛ الإرادة، ص ٢١٨؛ التوحيد، ص ٣٤٦-٣٤٧.

(٣) تصحيح الاعتقاد خلق أفعال العباد، ص ٤٢.

(٤) بحار الأنوار: ٥/ ٢٠؛ تصحيح الاعتقاد خلق أفعال العباد، ص ٤٣٢.

تعالىٰ؟ فقال عليه السلام: لوكان خالقا لها لم يتبرأ منها. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]. ولم يرد البراءة من خلق ذواتهم، وإنما تبرأ من شركهم وقبائحهم[١]. ويستمر المفيد باستدلالات آل البيت ويذكر أن أبا حنيفة سأل أبا الحسن موسىٰ بن جعفر الكاظم عن أفعال العباد ممن هي؟ فقال أبو الحسن عليه السلام إن أفعال العباد لا تخلو من ثلاث منازل:

إما أن تكون من الله تعالىٰ خاصة، أو من الله ومن العبد علىٰ وجه الاشتراك فيها، أو من العبد خاصة، فلو كانت من الله تعالىٰ خاصة لكان أولىٰ بالحمد علىٰ حسنها والذم علىٰ قبحها، ولم يتعلق بغيره حمد ولا لوم فيها، ولو كانت من الله ومن العبد لكان الحمد لهما معًا فيها والذم عليهما جميعًا فيها، وإذا بطل هذان الوجهان ثبت أنهما من الخلق، فإن عاقبهم الله تعالىٰ علىٰ جنايتهم بها فله ذلك، وإن عفا عنهم فهو أهل التقوىٰ وأهل المغفرة[٢].

ويرىٰ المفيد كما يرىٰ المعتزلة والزيدية والإباضية أن مسألة خلق الأفعال فرع لمسألة العدل، ويقرر المفيد صراحة بأن أفعال العباد حادثةٌ وأن هذا هو مذهب الأئمة إلا أنه يرتضي أن يقال: إن العباد خالقون أو يخلقون أفعالهم، وأنه يقول: يفعلون ويُحدثون ويخترعون ويصنعون ويكتسبون[٣].

وهو في منعه إطلاق لفظ خالق علىٰ أحد العباد ملتزم بالقرآن، حيث لم يرد فيه هذا اللفظ وصفًا للعباد.

ويرىٰ أن هذا القول هو إجماع الإمامية، والبغداديين من المعتزلة، وأن

(١) بحار الأنوار ٥/ ٢٠؛ تصحيح الاعتقاد، ص ٤٢.

(٢) تصحيح الاعتقاد ٤٤.

(٣) أوائل المقالات ٦١.

معتزلة البصرة في قولهم: إن العباد يخلقون أفعالهم قد خرجوا علىٰ إجماع المسلمين[١]. ويقرر الشيخ المفيد في صراحة ووضوح أن «الحق في ذلك أن الله تعالىٰ لا يريد إلا ما أحسن من الأفعال ولا شاء إلا الجميل من الأعمال، ولا يريد القبائح ولا يشاء الفواحش، تعالىٰ الله عما يقول المبطلون علوًا كبيرًا»[٢]. ويتابع الشيخ المفيد معتزلة بغداد أيضًا بالتسوية بين معنىٰ الإرادة ومعنىٰ الاختيار بالنسبة للإنسان، وقد تقدم أن معتزلة البصرة وعلىٰ رأسهم أبو علي الجبَّائي والقاضي عبد الجبار يفرِّقون بين هذين المعنيين، وأن الاختيار أنه يسمىٰ إرادة إذا كان فيه إيثار أو ترجيح، وأن الاختيار قد يقع علىٰ اضطرار لا إرادة فيه، وفي هذا يقول المفيد: «أقول: إن الإرادة للشيء هو اختياره، واختياره هو إرادته وإيثاره، وقد يعبَّر بهذه اللفظة عن المعنىٰ الذي يكون قصدًا لأحد الضدين، ويعبر بها أيضًا عن وقوع الفعل علىٰ علم به . . . ويعبَّر للفظ مختار عن القادر خاصة، ويُراد بذلك أنه متمكِّن من الفعل وضدِّه، دون أن يراد به القصد والعزم وهو مذهب جماعة من المعتزلة البغداديين وكثير من الشيعة ويخالف فيه البصريون[٣]. ونجد أن تلميذ المفيد الشريف المرتضىٰ يتابع مدرسة البصريين من المعتزلة، وفيما يتعلق بمشكلة خلق الأفعال فهو يقرُّ ما أقرَّه القاضي عبد الجبار من قبلُ بأن الله تعالىٰ لا يخلق أفعال العباد ولكنهم هم المحدِثون لأفعالهم؛ لأن هذه الأفعال إنما تقع بحسب قصورهم وأحوالهم، ولأنَّا «وجدنا من أفعال العباد ما هو ظلم وعبث وفساد؛ وفاعل الظلم ظالم، وفاعل العبث عابث، وفاعل الفساد مفسد، فلما لم يجز أن يكون الله مفسدًا،

---

(١) المصدر السابق ٦١-٦٢.

(٢) تصحيح الاعتقاد ٣٥.

(٣) تصحيح الاعتقاد ١٣٣.

علمنا أنه لم يفعل الظلم ولا العبث ولا الفساد»[(١)].

ويروي المرتضىٰ تلك العبارات المعتزلية رغم إماميته فيقول: «إنه لا يجوز أن يعذّب العباد علىٰ طولهم وقصرهم، وألوانهم وصورهم، علمنا أن هذه الأمور فعل الله، وأن الطاعة والمعصية والإيمان والكفر فعل العباد[(٢)].

ونجد أن الشيخ الطوسي تلميذ المرتضىٰ فيقرر مع معتزلة البصرة في قضية خلق الأفعال أن الله تعالىٰ وإن كان قادرًا علىٰ فعل القبيح إلا أنه لا يفعله، ثم يطرح تساؤلًا يقول فيه في كتابه الاقتصاد[(٣)]: «هل أفعال العباد بقضاء الله وقدره أم لا؟ فيجيب الطوسي بقوله: إن القضاء في اللغة يطلق علىٰ أربعة أقسام أحدها: بمعنىٰ الخلق والإحداث. ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ١٢] أي: خلقهن وأحدثهن. ومعنىٰ الحكم: **كقوله تعالىٰ:** ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: ٢٠].

ومعنىٰ الأمر مثل قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣]. ثم بمعنىٰ الإعلام والإخبار كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء: ٤].

---

(١) رسالة الشرف المرتضىٰ، ص ٨٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٠-٨١.

(٣) الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، ص ٩٤-٩٥.

يقول (الطوسي) ولا يجوز أن يكون قضاء أفعال العباد بمعنىٰ إحداثها؛ لأن فعل العبد لا يخلو أن يكون قبيحًا، أو حسنًا.

فما هو قبيح «لا يجوز أن يكون فعلًا له؛ لأنَّا قد بيَّنَّا أنه لا يفعل القبيح وما هو حسن لا يجوز أيضًا أن يفعله؛ لأنه فعلنا، والفعل الواحد لا يكون من فاعلَيْن علىٰ ما نبينه». والأدلة التي ذكرها (الطوسي) علىٰ أن العباد هم المحدِثون لأفعالهم تقترب من أدلة المعتزلة لدىٰ القاضي.

ويرىٰ الطوسي في الاستطاعة رأي البصريين؛ فالاستطاعة هي القدرة «هذه القدرة تتعلق بالشيء وبمثله وبخلافه وبضده، . . . والقدرة قبل الفعل دون أن تكون مصاحبةً له. بدلالة أن القدرة يُحتاج إليها ليخرج بها الفعل من العدم إلىٰ الوجود، فلو وُجد مقدورها لاستغنىٰ عنها»[١].

ويرفض الطوسي مذهب البغداديين في الاستطاعة فلا يرىٰ أنها راجعة إلىٰ الصحة أو الطبع أو اعتدال الأمزجة؛ لأن جميع ذلك يرجع إلىٰ المحل دون الجملة»[٢].

ونجد أن (نصير الدين الطوسي) صاحب كتاب (تجريد الاعتقاد) والذي يعتبر أهم المصادر عند الإمامية في العقائد ويلخص هو فقهه في كتابه بعبارات موجزة يقول فيها: «واستغناؤه وعلمه يدلان علىٰ انتفاء القبح عن أفعاله تعالىٰ مع قدرته عليه؛ لعموم النسبة، ولا ينافي الامتناع اللاحق، وإرادة القبيح وكذا ترك إرادة الحسن والأمر والنهي . . . والضرورة قاضية باستناد أفعالنا إلينا»[٣].

---

(١) الاقتصاد للطوسي، ص ١٠٣-١٠٤؛ أصول العقيدة: ٥/ ٢٧٨.

(٢) الاقتصاد للطوسي، ص ١٠٣.

(٣) تجريد الاعتقاد، ص ٢٨٣-٢٨٥.

ونجد أن العلَّامة الحلّي شارح كتاب التجريد المسمىٰ بـ(**كشف المراد شرح تجريد الاعتقاد**) فقد أشار في مسألة: خلق أفعال العباد لأفعالهم، فقد تابع أقوال مشايخه الإمامية وهو يرىٰ أن القول بأن العباد هم المحدِثون لأفعالهم هو من أقوال الإمامية وأن المعتزلة هم الموافقون لهم، إذ يقول: اتفقت الإمامية والمعتزلة علىٰ أنَّا فاعلون، وادَّعوا الضرورة في ذلك فإن كل عاقل لا يشك في الفرق بين الحركات الاختيارية والاضطرارية، وأن هذا الحكم مركوز في عقل كل عاقل»[(١)].

أقول: وهذه الاستدلالات هي التي وجدت عند الإمامية والمعتزلة مع اختلاف الألفاظ، ونجد متأخري الإمامية الشيخ المظفر يصور لنا في كتابه عقائد الإمامية[(٢)] بقوله: إن أفعالنا من جهة، هي أفعالنا حقيقة ونحن أسبابها الطبيعية، وهي تحت قدرتنا واختيارنا، ومن جهة أخرىٰ هي مقدورة لله تعالىٰ وداخلة في سلطانه؛ لأنه هو مفيض الوجود ومعطيه، فلم يجبرنا علىٰ أفعالنا حتىٰ يكون ظلَمَنا في أعقابنا علىٰ المعاصي؛ لأن لنا القدرة والاختيار فيما نفعل، ولم يفوِّض إلينا خلق أفعالنا، حتىٰ يكون قد أخرجها عن سلطانه، بل له الخلق والحكم والأمر وهو قادر علىٰ كل شيء ومحيط بالعباد. وهذا هو معنىٰ ما روي عن الأئمة: لا جبر ولا تفويض ولكن أمرٌ بين أمرين[(٣)].

---

(١) نهج الحق وكشف الصدق، ص ١٠١؛ أصول العقيدة: ٥/ ٢٨٢.

(٢) عقائد الإمامية للمظفر، ص ٤٤.

(٣) الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، ص ٢١٢؛ عقائد الإمامية الاثني عشرية للسيد إبراهيم الزنجاني، ص ٣٦-٣٧، أصول الدين الإسلامي محمد علي ناسر، ص٤٠.

مذهب الإباضية:

القضاء وقد عرفه الثميني: بوجود الأشياء في اللوح المحفوظ إجمالًا[١]، وقد ذهب بأن الرضا بالقضاء أصل الطاعة فإنه القبول والعزم علىٰ امتثال ما أمر الله به، وسكون النفس إلىٰ قضائه وقدره وترك السخط عليه، نظرًا إلىٰ أن في قضائه حكمةً عظيمةً، ومصلحةً جليَّةً[٢] لكنها خفية علينا، علىٰ ما قال، ثم تابع بقوله: وقد حثَّ الله العباد علىٰ الرضا به وفي ترك الرضا بالقضاء والقدر آفة عظيمة، وهي اكتساب سخط الرب عزَّ وعلا، ويدعو الثميني إلىٰ النظر في أمر إبليس الذي لم يرضَ بقضاء ربه سبحانه، فكفر بترك الرضا[٣].

ويثبت (القلهاتي) أن الله خالق أفعال العباد؛ لأنه تعالىٰ خالق، وما سواه مخلوق من خير أو شر ونفع أو ضرر.

قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢]

والأفعال شيء موجود، فثبت أنها مخلوقة؛ لأن مخرج الآية عموم[٤].

ويقول (السالمي)[٥]: وذهب ما يسمَّىٰ أهل الاستقامة[٦] والأشعرية إلىٰ التوسط بين الحالين فقالوا: إن أفعالنا خلق لله، وهي لنا اكتساب فنُثاب

(١) معالم الدين: ٢/ ٩٨.
(٢) المصدر السابق: ٢/ ٩٧.
(٣) المصدر السابق: ٢/ ٩٧.
(٤) الموجز: ٢/ ٦٨.
(٥) مشارق أنوا ر العقول، ص ٤٢٤
(٦) المقصود بأهل الاستقامة الإباضية.

ونعاقب علىٰ ما اكتسبنا لا علىٰ خلق الله أفعالنا بدليل قوله تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وبذلك اتفق الإباضية مع الأشاعرة في قولهم بأن أفعال الإنسان مضافة إليه عن طريق الكسب، فأثبتوا للإنسان الاستطاعة علىٰ الفعل إلا أنهم قالوا بقول الأشاعرة بأن الاستطاعة تحدث مع الفعل لا قبله وأنها موجهة للفعل بعينه، ولهذا قالوا بأن الله ﷻ هو خالق الأفعال وأن الإنسان مكتسب لها، ولأنه مكتسب لهذه الأفعال وبسبب ذلك الاكتساب، فالمسؤولية تقع علىٰ الإنسان عن كل فعل من أفعاله.

ويرىٰ الإباضية أن المسلم عليه أن يعتقد بالقدر وأن خيره وشره من الله تعالىٰ مع العمل وعدم التواكل، والقدر عندهم يتمثل في القدرة المرتبطة بالمقدور بمعنىٰ الكسب، فالله ﷻ خلق في الإنسان القدرة وأما الحساب فيكون علىٰ الأعمال التي اكتسبها الإنسان عن طريق جوارحه وإرادته الحرة. فالله ﷻ يعذِّب الإنسان علىٰ المقدور ويعذِّب علىٰ القدر(١).

وخلاصة قول الإباضية يقوله السالمي: إنه تعالىٰ خيَّرنا في فعل الخير والشر، وبيَّن لنا عاقبة الأمرين فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩].

وجعل لنا قدرة علىٰ اكتساب أيهما شئنا لا علىٰ خلقه، فإنه هو الذي يخلقه فينا حال اكتسابنا له، وبهذا التخيير وهذا الاكتساب ارتفع الاتصاف بالجبر

(١) في مذاهب الإسلاميين، ص ٣٠٠.

فلا نقول إنه مجبر لنا علىٰ فعلنا، وفوق ما ذكرنا أنَّا قد أُمرنا بالكفِّ عنه وترك الخوض فيه قال تعالىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

علىٰ أنَّا نعلم أنه هو الخالق لفعلنا والخالق لقدرتنا التي نكتسب بها والخالق لاختيارنا الذي اخترنا به سلوك إحدىٰ الطريقتين، ومع هذا كله فلا نقول: إنه جبرنا علىٰ فعلنا وأنَّا نقول: إنه نشأ باختيار منا واكتساب لنا فإنْ رحمنا فبفضله وإن عذَّبنا فبعدله. قوله: «قد انتفىٰ الإجبار علىٰ رقابنا» أي: لذلك التخيير والاكتساب قد ارتفع الجبر عنا، فالإِجبار -بكسر الهمزة- مصدر أجبره بمعنىٰ: جبره، وعبَّر بالرقاب وهي الأعناق عن النفس كلها مع محلها الذي هو الجسد تعبيرًا بالبعض عن الكل، وفيه نوع لطافة وتنبيه علىٰ أن صورة الجبر عند الناس هو جعل حبل أو نحوه في رقبة المجبور، فيجبر قهرًا إلىٰ خلاف ما يريد، وفي التعبير بالانتهاء حسن اختتام للباب، والله الهادي إلىٰ طريق الصواب[1].

إلىٰ هنا ينتهي قول مذهب الإباضية في مسألة القضاء والقدر «أفعال العباد».

مذهب الماتريدية:

يعرِّف الماتريدي القضاء بأنه: «الحكم بالشيء والقطع علىٰ ما يليق به».

ويرتبط بالقضاء مسألة خلق الأشياء؛ لأنه تحقيق كونها علىٰ ما هي عليه «إن الذي خلق الخلق هو الحكيم العليم والحكمة إصابة الحقيقة لكل شيء، ووضعه موضعه.

---

(١) مشارق أنوار العقول، ص ٤٢٤- ٤٢٥.

قال تعالىٰ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ [فصلت: ١٢]، وعلىٰ ذلك يجوز وصف أفعال الخلق أنه: اقتضىٰ بهن، أي خلقهن وحكم، كقوله: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه: ٧٢] بمعنىٰ: احكم، ومن ثم سمي العالم قاضيًا بما يردُّ كل حق إلىٰ محقه، ويبن الذي هو حق ذلك، وكذا قوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وكذلك يجوز أن يقال: حكم الله أن فلانًا يفعل كذا في وقت كذا، فيكون منه كذا في وقت كذا . . . وحكم أيضًا بالذي يستحق الفاعل بفعله من ذم أو مدح، ثواب أو عقاب».

إذن معنىٰ لفظ «قضىٰ» هو أعلم وأخبر.

وفي تعريف آخر قد يكون لفظ «قضىٰ» يعني أمر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وهذا المعنىٰ لا يجوز أن يضاف إلىٰ الله إلا في الخيرات.

وقد يكون لفظ «قضىٰ» في معنىٰ «فزع»

كما في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] لكن هذا المعنىٰ لا يجوز أن يضاف إلىٰ الله لإضافة الشغل له بشيء أو فراغ له منه.

ويذكر الماتريدي معنىٰ القدر من وجهين، أو يقال بمعنيين:

أحدهما: الحد الذي عليه يخرج الشيء، وهو جعل كل شيء علىٰ ما هو عليه من خير أو شر، من حسن أو قبح، وعلىٰ مثل هذا المعنىٰ يدل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القمر: ٤٩].

الثاني: بيان ما عليه يقع كل شيء من زمان ومكان، وحق وباطل وماله من الثواب والعقاب[(١)]، وفي هذا المعنىٰ قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠].

وبيَّن الماتريدي بقوله: لا عذر لأحد من أن يبرر معاصيه بالقضاء والقدر بأوجه:

١- أن الله تعالىٰ قضىٰ بمعنىٰ أنه علم أن ذلك الشخص يختار ويؤثر، فليس له حق الاحتجاج؛ لأنه كان مختارًا للأشياء التي فعلها، مؤْثِرًا لها علىٰ غيرها.

٢- أن جميع من كان «للناس» لم يأمرهم «الله» بما هم فعلوه، بل هم علىٰ ما هم عليه . . . وقد مُكِّنوا أيضًا من مضادات ما عملوا «فالإنسان ليس مجبرًا علىٰ فعل المعاصي» وإنما هو «ممكَّن من الترك».

٣- «أنه لم يخطر شيء من ذلك، فالاحتجاج بما ليس لذلك الفعل عند المحتجِّ باطلٌ، وكذلك العذر بما لم يكن عند نفسه بالذي يفعل لكان ذلك باطلًا مضمحلًا[(٢)].

ويقول الماتريدية: إن الكسب هو صرف القدرة إلىٰ أحد المقدورَين، فجميع ما يتوقف عليه فصل الجوارح من الحركات وكذا التروك التي هي أفعال النفس من الميل والداعية والاختيار بخلق الله تعالىٰ، لا تأثير لقدرة العبد فيه، وإنما محلُّ قدرته عزمُه عقيب خلق الله تعالىٰ هذه الأمور في باطنه عزمًا مصممًا بلا تردد، وتوجيهًا صادقًا للفعل طالبًا إياه، فإذا وجد العبد ذلك العزم خلق الله

(١) التوحيد للماتريدي، ص ٣٠٥ - ٣٠٧.

(٢) التوحيد، ص ٣٠٩.

تعالىٰ له الفعل، فيكون منسوبًا إليه من حيث هو حركة ومنسوبًا إلىٰ العبد من حيث الوصف كالطاعة إذا صلىٰ والمعصية إذا زنىٰ[١].

ويوضح (التفتازاني) قول صرف العبد فيقول: «وتحقيقه أن صرف العبد قدرته وإرادته إلىٰ الفعل كسب، وإيجاد الله تعالىٰ الفعل عقيب ذلك هو خلق والمقدور الواحد داخل تحت قدرتين لكن بجهتين مختلفتين، فالفعل مقدور الله بجهة الإيجاد، ومقدور العبد بجهة الكسب»[٢].

ويقول (أبو المعين النسفي): وعندنا فعل العبد مخلوق الله تعالىٰ ومفعوله . . . والله تعالىٰ هو الذي يتولىٰ إيجاده وإخراجه من العدم إلىٰ الوجود والعبد اكتسبه وباشره[٣].

ويقول (صاحب مميزات مذهب الماتريدية): . . . فمذهب أهل الحق أن الله تعالىٰ خالق لأفعال العباد في الحقيقة حركات وسكون في الظاهر، والله قادر عليها، ولولا ذلك ما أقدرهم عليها فصارت أفعالهم تحت قدرته تعالىٰ، وقدرة العبد ناقصة يمكن أن تزول، ولكل إنسان قدرة علىٰ ما ليس لغيره، أما قدرة الله تعالىٰ فهي فوق كل منقوص -أي أنها كاملة تامّة- ولو جاز خروج شيء من تحت قدرته فكيف بوعده ووعيده؟ وكيف يطمئن السامع إلىٰ ما وعده

(١) كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي: ٣/ ١٢٤٣- ١٢٤٤؛ والروضة البهية لابن عذبه، ص٤٣؛ شرح العقائد النسفية، ص ٥٥؛ شرح الفقه الأكبر، ص ٧٨؛ ونسبة كتاب الإبانة، ص ١٢٤؛ كتاب أصول الدين؛ ص ١٦٨.

(٢) شرح العقائد النسفية، ص ٥٨- ٥٩؛ تبصرة الأدلة: ٢/ ٦٤٣.

(٣) التمهيد، ص ٦٢، تبصرة الأدلة: ٢/ ٥٩٤؛ الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية: ١/ ٤٤٠.

من البعث أن يكون؟ وما أخبر أنه لو شاء لخلق مثل الذي خلق، وهو لا يقدر علىٰ فعل بعوض فضلًا عن فعل هو أقوىٰ منه؟ حاشىٰ لله. إن الله هو مالك كل شيء؛ لأنه خالق كل شيء فإن كان غير مالك لفعل العباد فيكون ملكه ناقصًا، وهذا باطل(١).

وأما الإمام (النسفي) فقد أوضح في مسألة أن صانع العالم لا يكلِّف عباده ما ليس في وسعهم بقوله: «ولا يكلف العبد بما ليس في وسعه سواء كان ممتنعًا في نفسه جمع الضدين، أو ممكنًا في نفسه لكن لا يمكن للعبد كخلق الجسم، وأما ما يمتنع بناءً علىٰ أن الله علم خلافه كإيمان الكافر وطاعة العاصي، فلا نزاع في وقوع التكليف به؛ لكونه مقدرًا للمكلف بالنظر إلىٰ نفسه، ثم عدم التكليف بما ليس في الوسع متفق عليه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] للتعجيز دون التكليف، وقوله حكاية عن حال المؤمنين: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، ليس المراد بالتحميل هو التكليف بل إيصال ما لا يطاق من العوارض إليهم(٢).

ويؤكد (الماتريدي) ذلك إذ يقول: «الأصل أن تكليف من منع عنه الطاقة فاسد في العقل»(٣).

وأكد ذلك **(ابن الهمام)** بقوله: «ولا أعلم أحدًا منهم جوَّز تكليف ما لا يطاق»(٤). **ويقول الماتريدي**: إن الاستطاعة إنما هي قوة ولا قوة إلا بالله، وعلىٰ ذلك مجيء السمع واتفاق الألسن علىٰ سؤال المعونة من الله والتقوية

---

(١) التوحيد، ص ٢٣٠- ٢٣٢- ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٢) شرح العقائد النسفية للتفتازاني، ص ٦٢ - ٦٣.

(٣) التوحيد، ص ٢٦٦.

(٤) المسايرة، ص ٤٤٨.

علىٰ أمر العبادات، فلو كانت الاستطاعة موجودة وجودًا مسبقًا كان السؤال ضربًا من العبث، ومما يثبت أيضًا زوال الاستطاعة أن الله سيَّر الخلق جميعًا فقراء إليه، وهو الغني الحميد، لذلك لم يجز أن يقع لهم الغنىٰ عنه فلو كان للعبد استطاعة ذاتية ثابتة لكان غنيًا عن الله وذلك محال[1].

ويخالف الماتريدي الأشاعرة في قولهم: إن الاستطاعة لا تصلح للشيء وضده معًا، وهو اختلاف لفظي في معنىٰ الاستطاعة، ويذكر أن أبا حنيفة وجماعته «والماتريدي من جماعته» وكذلك أهل الاعتزال يقولون عن الاستطاعة: هل هي تصلح للأمرين جميعًا، ويتصوَّب الماتريدي هذا المذهب القائل بالقدرة علىٰ الشيء وضده[2].

مذهب الظاهرية:

يشير (ابن حزم) إلىٰ كثرة استعمال المسلمين للفظتي القضاء والقدر مما جعل بعض الناس يظنون أن فيهما معنىٰ الإكراه والإجبار، ويذكر ابن حزم للفظة «قضىٰ» أربعة معانٍ:

١- قضىٰ الله بكذا أي: حكم به.

٢- ويكون أيضًا بمعنىٰ أمر لقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

٣- ويكون كذلك بمعنىٰ أخبر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾ [الحجر: ٦٦].

---

(١) التوحيد، ص ٢٥٦-٢٦٢؛ تأويلات أهل السنة، ص ٦٦٩-٦٧٠.

(٢) التوحيد، ص ٢٦٦.

٤- بمعنىٰ أخبره؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء: ٤].

أي: أخبرناهم بذلك، وأما معنىٰ القدرة في اللغة العربية: الترتيب، والحدّ الذي ينتهي إليه الشيء نقول: قدرت البناء تقديرًا، إذا رتبته وحدّدته. قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ١٠] بمعنىٰ: رتّب أقواتها وحددها، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، يريد تعالىٰ: يرتّبه وحده.

ويلخص ابن حزم في النهاية إلىٰ أن معنىٰ قضىٰ وقدر: حكم ورتب، ومعنىٰ القضاء والقدر: حكم الله تعالىٰ في شيء بحمده أو ذمّه، وتكوينه وترتيبه علىٰ صفة كذا وإلىٰ وقت كذا فقط(١)؛ أي: يخلو معنىٰ اللفظين: القضاء والقدر من الإجبار والإكراه(٢).

ويقول الظاهرية بأن الله تعالىٰ خلق أعمال العبد كلها، ويبرهن ابن حزم علىٰ صحة القول بأدلة عقلية ونقلية فمن نصوص القرآن يستدل بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣]، وينبه ابن حزم علىٰ أن هذه الآية تتضمن من يعبدون المسيح، ومن يعبدون الجن، فصحّ أن كل مَنْ عبدوه -ومنهم المسيح والجن- لا يخلقون شيئًا ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، فثبت يقينًا أنهم مصرَّفون مدبَّرون، وأفعالهم مخلوقة لغيرهم. لقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ [النحل: ١٧].

(١) الفصل ٣/ ٥١-٥٢.

(٢) الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية: ١/ ٦٠٤.

إنما هو نص جليٌّ علىٰ إبطال أن يخلق أحد دون الله شيئًا. وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١] يدل علىٰ أن الله خالق كل ما في العالم، وأن كل من دونه لا يخلق شيئًا. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

هو نص جليٌّ علىٰ أن الله تعالىٰ خلق أعمالنا، وقد أثبت ابن حزم صحة خلق الله لأفعال العباد من طريق النظر العقلي فهو أمر بيِّن أيضًا، إذ إن ما يقال علىٰ جملة النوع فهو يقال علىٰ أشخاص ذلك النوع، ولابد فإن كان النوع مخلوقًا، فأشخاصه مخلوقة أيضًا، والعكس صحيح، فلو كان العالم شيئًا غير مخلوق لله ﷻ لكان من قال: العالم مخلوق والأشياء مخلوقة ومادون الله تعالىٰ مخلوق، وقد أطال ابن حزم في هذه المسألة واستعرض أقوال المعتزلة وهاجمهم بطريقة حادة واعتبر أن قولهم مزاعم جاهلة كاذبة[(١)].

وخلاصة قول الظاهرية الذي أوضحه ابن حزم: أن جميع أفعال العباد بما فيها الكفر والمعاصي هي من حيث إنها أعراض وحركات خلق الله تعالىٰ، وهو صواب.

خلاصة القول:

مع كثرة الاختلافات والآراء الناشئة عنها سواء بين المدارس الفلسفية القديمة أو الحديثة، تُعدُّ مشكلة الجبر والاختيار من أهم المسائل الكلامية رغم تعقيدها، واختلف الناس في هذه المسألة عقب بروز الفتن التي وقعت بين المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ بسبب افتراق الأمة من أن تكون تحت لواء واحد فظهرت قضية مرتكب الكبيرة، والفرق بين المؤمن والكافر وكذا

(١) الفصل ٣/ ٦١ - ٩٧ - ١٠٤.

العاصي، وما معنىٰ القضاء والقدر، وهل الإنسان مجبر علىٰ فعله أم مخير فيه؟ ونجد أن هذه المسألة قد تفرغ لها العلماء والمتكلمون في سردها والرد عليها، وقد ظهر علىٰ إثر ذلك مدارس مختلفة المناهج واختلط الأمر فنسب أهل المناهج إلىٰ البعد عن حقيقة مناهجهم الحقيقية، فإن مدرسة الاعتزال وهم المعتزلة ومن وافقهم علىٰ ذلك من المرجئة والإباضية والشيعة الزيدية فإنهم ذهبوا إلىٰ أن أفعال العباد محدَثة فعلها ففعلوها ولم يخلقها الله بمعنىٰ أن الإنسان خالق لأفعاله الاختيارية، ونجد أن ابن حزم الظاهري قد هاجمهم واعتبر هذا القول تخليطًا ويلزم عنه أقوال فاحشة[1]، لكنه لم يُصب في ذلك.

ونجد أن أهل الحديث السلفية قد خلطوا القضية واعتبروا أن هؤلاء ينسبون إلىٰ القدرية، وهذا لا يتوافق مع الحقيقة والفرق الأخرىٰ من أهل السنة كلهم وكل من قال بالاستطاعة مع الفعل من السلفية والأشعرية والجهمية وطوائف من الخوارج والمرجئة والشيعة الإمامية والإسماعيلية إلىٰ أن جميع الأفعال مخلوقة خلقها الله تعالىٰ في الفاعلين لها، ووافقهم علىٰ هذا بعض رجال المعتزلة أمثال ضرار بن عمرو.

وفي خضم هذه الاختلافات نشأت مدرسة أخرىٰ انشقَّت عن الطرفين وهم الجبريَّة أتباع الجعد بن درهم والجهم ابن صفوان الراسي، وهؤلاء نفوا القدرة والاختيار والإرادة عن الإنسان، وقالوا: بأن الإنسان مجبر في جميع أفعاله وأنه ليس له من الأمر شيء بل هو كالريشة في مهب الريح! وأن الله تعالىٰ خلق في الإنسان أفعاله بنوعيها الاضطرارية والاختيارية التي يخيَّل إلىٰ بعضهم إلىٰ أنها اختيارية ونسبتها إلىٰ الإنسان علىٰ سبيل المجاز كما تُنسب إلىٰ الجمادات

(١) الفصل لابن حزم: ٣/ ٥٤ وما بعدها.

والنباتات، وقالوا بأن الثواب والعقاب جبرٌ والتكاليف الشرعية أيضًا جبرٌ.

وقد ردَّ كثير من العلماء عليهم وقد وجدنا في قول القاضي عبد الجبار مالا يخالف الأصول الحقيقية للمؤمن بقوله: «خلق أفعال العباد والغرض به الكلام في أن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم، وأنهم المحدِثون لها»[(١)].

كما أننا نجد التوسط لدىٰ الأشعرية والماتريدية من أهل السنة والجماعة وبعض الشيعة الإمامية والإسماعيلية في قولهم: إن جميع أفعال العباد علىٰ الحقيقة واقعة بقدرة الله تعالىٰ، ويسميها الأشاعرة كسبًا، أما الماتريدية فيسمونها اختيارًا تارة وكسبًا تارة أخرىٰ.

ونجد لأهل البيت رأيًا في هذه المسألة بالنهي عن الخوض في هذه القضية إلا أنهم قالوا بأمرٍ بين الأمرين؛ تارةً فنجد أن المفهوم الحقيقي لديهم في هذه المسألة التوقف بما لم يعلم من الأجل والرزق وغير ذلك، وما هو منهي عنه من الأفعال القبيح أو السيئ.

وعلىٰ كل حال فإنني قد حاولت أن أختصر في هذه المسألة والتوضيح في أقوال أصحاب المذاهب الإسلامية فيها، وعرض جميع دلائلهم، وأن ما أذهب إليه هو أن الله ﷻ لا يأمر الإنسان بالمعاصي ويُعينه علىٰ فعلها ثم يعذِّبه وقد نهاه، وأن أفعال الإنسان من الخير هي أمر من الله بطاعته والاجتهاد بعبادة هي عون الخالق لعبده، وأن الأهواء من أفعال العباد المحدَثة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤١] فمن الاستطاعة والقدرة علىٰ النهي ومادون ذلك فهو أحداث، وأذهب إليه في الآجال والرزق وغير ذلك فإنها مخلوقة مقدَّرة من الله ﷻ، والله أعلم.

(١) شرح الأصول الخمسة، ص ٣٢٣-٣٣٦؛ رسائل العدل والتوحيد: ٥/ ٢٣٢.

إن جميع ما يتوقف عليه أفعال الجوارح من حركات وكذا التروك التي هي أفعال النفس من الميل والداعية والاختيار بخلق الله تعالىٰ لا تأثير لقدرة العبد فيه من حيث الخلق وإنما محل قدرته عزمه عقيب خلق الله تعالىٰ هذه الأمور في باطنه عزمًا مصممًا بلا تردد وتوجهًا صادقًا إلىٰ الفعل طالبًا إياه، فعن ذلك العزم صح تكليفه وعنه صح ثوابه وعقابه ومدحه وذمه وانتفىٰ بطلان التكليف والجبر المحض وكفىٰ في التخصيص لتصحيح التكليف هذا الأمر الواحد أعني العزم المصمم، وما سواه مما لا يحصىٰ من الأفعال الجزئية والتروك كلها مخلوقة لله تعالىٰ متأثرة عن قدرته بلا واسطة.

والدليل علىٰ ذلك أن فعل العبد ممكن من الممكنات العقلية وكل ممكن مقدور له ففعل العبد مقدوره ولا يحصل شيء من مقدوره إلا بإيجاده لأن قدرته عامة كما إنَّ إرادته عامة شاملة ولو قصرت قدرته عن بعض الممكنات لكان ذلك بمانع غالب ولا يجوز أن يمنع الواجبَ الوجودِ شيءٌ بل هو غالب علىٰ أمره، يتوهم كثير من الناس أن معنىٰ القدر من الله والقضاء منه الإجبار والقهر للعبد علىٰ ما قضاه وقدّره وليس كذلك وإنما معناه الإخبار عن تقدُّمِ عِلمِ الله بما يكون من أفعال العباد واكتسابها وصدورها عن تقدير منه وخلقه لها خيرها وشره، ولو كان فعل العبد بخلقه لكان عالمًا به علىٰ وجه الإحاطة ضرورة أنه مختار والاختيار فرع العلم لكنه لا يحيط علمًا بفعله لما يجد كل عاقل عدم علمه حال قطعه لمسافة معينة بالأجزاء والأحيان والحركات التي بين المبدأ والمنتهىٰ. وكذا حالة نطقه بالحروف يجد كل عاقل من نفسه عدم العلم بالأعضاء التي هي ءالتها والمَحال التي فيها مواقعها وعدم العلم بهيئاتها وأوضاعها. وكل ذلك ظاهر. وبيان الملازمة أن المحوج لفعل العبد إلىٰ مرجح

هو الإمكان والحدوث وكل منهما حقيقة واحدة في جميع الممكنات، فإذا وضح ذلك لزم القول بأن أفعال العباد مستندة في بروزها من العدم إلىٰ قدرة الله، وذلك لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد علىٰ وجه الكسب، بل الله تعالىٰ خلق قدرة العبد الحادثة ومقدورَه جميعا، وإرادتَه ومرادَه جميعًا فالحركة خلق لله وكسب للعبد، وهو أن فعل العبد مخلوق بقدرة الله ومكتسَب للعبد بمعنىٰ دون الخلق أي الإحداث من العدم.

قول أهل البيت في القدر:

وقد عرَّف سيد البلغاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام القدر: سرٌّ الله تعالىٰ، وحِرزٌ من حرزه، مكنون في حجاب الله، مطويٌّ عن خلق الله، سابقٌ في علم الله، قد وضع الله عن عباده علمه، ورفعه فوق منتهىٰ رأيهم، ومبلغ عقولهم، فلم ينالوه بحقيقة الربانية، ولا عظمة الوحدانية وعزة الفردانية، فهو بحر زاخر غامض، عمقه مابين الأرض والسماء، عرضه مابين المشرق والمغرب. أسود كالليل الدّامس، يعلو أوّله ويسفل آخره، قعره شمس تضيء، ولا ينبغي أن يراها إلا الفرد القديم، فمن طالعها فقد حادَّ الله في ملكه، ونازعه في سلطانه، وكشف عن سر ستره، وباء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير[١].

وعن الحارث قال: جاء رجل إلىٰ علي فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر. قال: طريق مظلم لا تسلكه. قال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر. قال: بحر عميق لا تلِجْه. قال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر. قال: سر

(١) البصائر والذخائر للتوحيدي: ٣/ ١٨٩، فقرة ٦٤٥.

الله قد خفي عليك فلا تُفْشِه. قال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر. قال: يا أيها السائل، إن الله خالقك كما شاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء، قال: فيستعملك كما شاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء. قال: فيبعثك يوم القيامة كما شاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء، قال: أيها السائل، ألست تسأل الله ربك العافية؟ قال: بلىٰ، قال:فمن أي شيء تسأله العافية، أمِنَ البلاء الذي ابتلاك به أم البلاء الذي ابتلاك به غيره؟ قال: من البلاء الذي ابتلاني به، قال: أيها السائل، تقول: لا حول ولا قوة إلا بمن؟ قال: إلا بالله العلي العظيم، قال: فتعلم ما تفسيرها؟ قال: تعلمني مما علمك يا أمير المؤمنين، قال: إن تفسيرها: لا يقدر علىٰ طاعة الله ولا يكون له قوة في ترك معصية الله في الأمرين جميعًا إلا بالله، أيها السائل، ألك مع الله مشيئة فإن قلت: لك دون الله مشيئة فقد اكتفيت بها عن مشيئة الله، وإن زعمت أن لك فوق الله مشيئةً فقد ادَّعيت مع الله شركًا في مشيئته، أيها السائل، إن الله يشجُّ ويداوي فمنه خَلْقُ الدواء ومنه خَلْقُ الداء، أعقلت عن الله أمره؟ قال: نعم. قال علي: الآن أسلم أخوكم فقوموا فصافحوه. ثم قال علي: لو أن عندي رجلًا من القدريَّة لأخذت برقبته ثم لا أزال كذلك حتىٰ أقطعها؛ فإنهم مجوس هذه الأمّة[١].

عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: قيل لعلي بن أبي طالب: إن هنا رجلًا يتكلم في المشيئة. فقال: ياعبد الله، خلقك الله بما شاء أولما شئت؟ قال: لما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيميتك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيميتك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال:

(١) كنز العمال، باب الإيمان: ١/٣٤٦- ٣٤٧حديث رقم (١٥٦١).

إذا شاء، قال: فيدخلك حيث شاء أو حيث شئت؟ قال: والله لو قلت غير هذا لضربتُ الذي فيه عيناك بالسيف، ثم تلا علي: ﴿يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] **(ابن أبي حاتم والأصبهاني واللالكائي والخلعي في الخلعيات)**[1].



(١) كنز العمال، باب الإيمان: ١/ ٣٤٤ حديث رقم (١٥٥٩).

۞ الصلاح والأصلح واللطف الإلهي ۞

قول المعتزلة وغيرهم بالصلاح والأصلح واللطف من الله:

هذه المسألة تعدُّ ممَّا جادل به المعتزلة وغيرهم في باب «العدل» ومفهوم الصلاح والإصلاح، فقالوا: الله ما دام عادلًا فهو يفعل لعباده ما هو صلاح لهم بل ما هو أصلح، فهذه القضية من المسائل التي أثارها المعتزلة، وتبعهم عليها أقوام مِنَ الشيعة الإمامية والزيدية والإسماعيلية والعلوية ويخالفهم في ذلك أهل السُنّة والجماعة من الصوفية والأشاعرة والماتردية،وأهل الحديث السلفية الوهابية والإباضية والظاهرية.

وذهب الشهرستاني في كتابه المِلل والنِّحَل إلىٰ أن النظَّام (إبراهيم بن سيار بن هانئ) هو الذي قال بهذه المقولة أخذًا عن الفلاسفة ومن قوله: إن فاعل العدل لا يوصف بالقدرة علىٰ الظلم، وزاد أيضًا علىٰ هذه الاختيار فقال: إنه يقدر علىٰ فعل ما يعلم أن فيه صلاحًا لعباده ولا يقدر علىٰ أن يفعل لعباده في الدنيا ما ليس في صلاحهم[(١)].

والمقصود بالصلاح والأصلح عند المعتزلة هو أن كل فعل من أفعاله تعالىٰ لا يخلو من الصلاح وهذا ما يقتضيه معنىٰ العدل، وهو يشمل كل القضايا عندهم كحرية الإدارة والاختيار والآلام والأعواض، قالوا: ففي كل ذلك صلاح للعباد.

ويقول القاضي عبد الجبار في مغنيه: «فأما الصلاح فهو النفع الذي فسرناه

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ٨٠-٨١.

في عبادتين عن معنىٰ واحد، يبين ذلك: أن كل ما علم نفعا علم صلاحًا، وما لم يعلم نفعًا لم يعلم صلاحًا، يستحيل الصلاح علىٰ من يستحيل النفع عليه، فلذلك لا يقال في الشيء: إنه صلاح للجماد والميت، ولا يستحيل ذلك في القديم سبحانه، ولذلك يضاف الصلاح إلىٰ مَنْ يصلح به، علىٰ حدِّ إضافة النفع إلىٰ مَنْ ينتفع به فيقال في الشيء: إنه صلاح لزيد ونفع له وإنه أصلح له وأنفع»[1].

وقد قرر (الشهرستاني) اتفاق المعتزلة في القول بوجوب الصلاح فقال: «واتفقوا علىٰ أن الله تعالىٰ لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد»[2] وإن كان المعتزلة قد اتفقوا فيما بينهم علىٰ وجوب فعل الصلاح علىٰ الله تعالىٰ فإنهم قد اختلفوا حول الأصلح، واختلافهم حول الأصلح يبدأ باختلافهم حول تعريفه، فالأصلح عند الجبَّائيين هو «**الأحوج في العاقبة والأصوب في العاجلة وإن كان ذلك مؤلمًا مكروهًا**»[3].

ونجد رأيًا ءاخر حول قولهم وجوب الأصلح لبشر بن المعتمر -وهو من معتزلة بغداد- فقد ذكر أبو القاسم البلخي في مقالاته أن بشر بن المعتمر وأتباعه من البغداديين كانوا يقولون: «إنه يجوز أن يقال: إن الله يفعل بالعباد أصلح الأشياء لهم من قبل أنه لا غاية لها عنده من الصلاح، وأنه قد فعل بهم جميعًا ما فيه صلاحهم في دينهم، وليس عليه أن يفعل أصلح الأشياء بل ذلك محال».[4]

(١) المغني: ١٤/ ٣٥.

(٢) الملل والنحل: ١/ ٤٥.

(٣) الملل والنحل: ١/ ٦٢-٨٣.

(٤) الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص٧٢؛ أصول العقيدة، ص٢٩١؛ وانظر مقالات الإسلاميين: ١/ ٢٤٦؛ والملل والنحل: ١/ ٧٢.

وبذلك نجد أن المعتزلة اختلفوا فيما يفعله تعالىٰ من الصلاح والأصلح للخلق فالبغدادية والنَّظَّام ذهبوا إلىٰ أنه يجب علىٰ الله أن يفعل الأصلح بعباده في مصالح الدين والدنيا، وأنكروا أن يبقي الله، وهو الحكيم الغني، أيَّ وجه ممكن لصلاح عباده في الحياتين الدنيا والأخرىٰ إلا ويفعله[١].

ويقول (أبو القاسم البلخي): يجب علىٰ الله تكليف زيد من الناس وإن كان المعلوم أنه لا يؤمن؛ لأن الاعتبار بكثرة الانتفاع[٢] وهذا يتفق فيه الزيدية مع المعتزلة، كما أنهم اعتبروا أن وجوب ذلك كوجوب الدين حتىٰ أنه لو قدر الاختلال به لاستحق الذم، ومن ثم قرروا بناء علىٰ هذا الأصلح قولهم: إن الله «لا يقدر أن يعطي عباده أصلح مما أعطاهم؛ لأنه لو كان عنده أصلح مما أعطاهم لكان بخيلًا ظلومًا»[٣].

ويروي (النجري) من الزيدية رواية هي أقرب لأن يكون رأيًا للبغدادية المعتزلة دون ما تقدم في قولهم فعل الأصلح، وهي عن البلخي في أن المراد بلفظ الوجوب علىٰ الله وجوب جود وتفضُّل؛ لأنه يصير مستحقًا عليه تعالىٰ كالدَّين علىٰ المدين، ويعلق النجري علىٰ قول البلخي بذلك بقوله: إنه خطأ في العبادة حيث سُمِّي الجود والتفضل واجبًا كالدين لا في غيره وفي الإخلال به مدخل في استحقاق الذم، والوجوب والتفضل ليس كذلك[٤]، وقد أوجب المعتزلة البغدادية علىٰ الله القول بالأصلح وجوب ابتداء الخلق؛ لأن ذلك -كما يرون- هو مقتضىٰ الحكمة ووجوب التكليف والتمكين من إزاحة العدل، وكذا

(١) الإرشاد للجويني، ص ٢٨٧.
(٢) شرح الأصول الخمسة، ص ٥١٨؛ شرح القلائد، ص ١٠٩.
(٣) المعتزلة لجار الله، ص ١٠٢.
(٤) شرح القلائد، ص ١٠٩؛ الصلة، ص ٢٤٥ وما بعدها.

قالوا بوجوب البعثة في مصالح الدين والدنيا، ويعللون وجوب النقطة الأخيرة بأنها إنما وجبت لمعرفة اللغات والمعادن والصنائع والسموم والأدوية والأغذية[1].

أما المعتزلة البصرية وبعض الزيدية فقد أنكروا علىٰ المعتزلة البغدادية رأيهم في الأصلح في أمور الدنيا وقالوا: إنما يجب الأصلح علىٰ الله فيما يتعلق بالدين فحسب، ومع ذلك فلم يوجبوا علىٰ الله خلق العالَم في ابتداء الخلق ولا تكليفه للعباد بل اعتبروه تعالىٰ متفضلًا بإكمال العقد بابتداء دون أن يعني ذلك ابتداء بالتكليف، كذلك لم يوجبوا تمكين المكلف إلا إذا كُلِّف، قالوا: ومن ثم يجب تمكينه وإقداره بالألطف بأقصىٰ درجات الصلاح[2].

وانتقد قول الذين مَرُّوا من المعتزلة في مسئلة الأصلح المعتزلة البغدادية وقالوا: إن القول بالأصلح في المصالح الدنيوية يؤدي إلىٰ مُحالات ثلاثة:

الأول: أنه لو وجب علىٰ الله كل أصلح لأوصل إلىٰ كل واحد من العباد جميع الملاذِّ والمسارِّ، إلىٰ حدٍّ تلبىٰ فيه كل رغباته من المنافع؛ لأن ذلك قطعًا أصلح له.

الثاني: أنه لو وجب علىٰ الله تعالىٰ فعل الأصلح، لوجب علينا كل ما كان أصلح له.

(١) شرح القلائد، ص ١٠٩.

(٢) شرح القلائد، ص ١٠٩؛ الصلة، ص٥٥؛ نظرية التكليف عبدالكريم عثمان، ص٤٠٣.

الثالث: أنه لو وجب الأصلح عليه تعالىٰ، لوجبت الزيادة في رفع درجات الجنة، وتبليغ كل واحد مبلغ الأنبياء في الدرجات العالية؛ لأن ذلك حالة أصلح لهم[١].

ونجد أن الزيدية تقول بالوجوب في فعل الأصلح في باب الدين التي يقول بها المعتزلة، وقالوا: إن ذلك الوجوب لا علاقة له بالتفصيل بابتداء الخلق وإكمال عقولهم وتكليفهم من قبله تعالىٰ، غير أن جمهور الزيدية يرفضون فكرة القول بالوجوب علىٰ الله أيًا كان المقصود بها، ذلك أن كلمة الوجوب تعني الكلفة والمشقة، ويقولون: وذلك يوهم الخطأ في حقه تعالىٰ وكل ما يوهم الخطأ لم يجز إطلاقه عليه تعالىٰ، ولأجل ذلك أنكر الزيدية استعمال لفظ الوجوب علىٰ الله.

ويقول الإمام الزيدي (القاسم بن محمد): «إن إطلاق لفظ الوجوب علىٰ الله مبتدع حادث، لم يطلقه علىٰ الله الرسول ﷺ، ولا الصحابة ولا التابعون، ولا قدماء أهل البيت»[٢].

وزيادة علىٰ نقد الزيدية القول الوجوب علىٰ الله وردّها علىٰ المعتزلة البصرية والبغدادية، فقد تضمن انتقادهم أيضًا الردّ علىٰ البصرية في قولهم بوجوب اللطف والإثابة والعوض والتناصف وقبول التوبة، وكذا ردّوا قولَ البغدادية بوجوب البعثة للمصالح الدنيوية، ويتفق الزيدية مع البصرية في إنكار هذه الفكرة الأخيرة، فمن ثم الخلاف يرتكز بينهم علىٰ القول بالوجوب علىٰ الله والتي

(١) شرح القلائد للنجري، ص١١٠.

(٢) العدة للشرفي، ص٢٨٥.

قالت به البصرية، وسبب الخلاف مع البصرية أن الزيدية يرون أن الطاعات هي ألطاف في الواجبات العقلية، وهذان رأيان مختلفان انبنىٰ عليهما أصل الخلاف بينهم في هذه المقالة.

الرأي الأول:

وهو رأي الزيدية؛ ومجمله: أنه إذا كانت الطاعات عبارة عن الشكر فإنه لا يلزم علىٰ المشكور واجب ما تجاه الشاكر، قالوا: وبالتالي تسقط فكرة الوجوب علىٰ أساسها فيكون الثواب تفضلًا وليس واجبًا ويكون العقاب حتمًا، وقبول التوبة كقبول عذر من اعتذر له ... إلخ[1].

والرأي الثاني:

وهو رأي المعتزلة البصرية إذ قالوا: إذا كانت الطاعات في العقليات فإن ذلك يعني أن تلك الطاعات في فعلها، تُعدُّ مانعًا من فعل القبائح، فيقولون: فعل الصلاة إنما هو لطف في جنب أفعال مشينة كالفحشاء والمنكر[2].

وإذا كانت تلك الطاعات ألطافًا فيما قرره العقل من القبح والحسن فإنه علىٰ مقتضىٰ ذلك تكون قد وجبت من قبله تعالىٰ لجواز الجهل علىٰ المكلفين ببعض المصالح الدينية فلذلك اقترنت بالتخويف والترغيب أو الثواب والعقاب وما ينطوي تحت هذين المفهومين من أعواض وألطاف وتمكين وإثابة وانتصاف[3].

ولا يسلِّم الزيدية للبصرية في أمر الشكر، ويقولون: بأن الشكر ليس

(١) العدة للشرفي، ص٢٨٠، نقلًا عن الصلة، ص٢٥٧.

(٢) العدة للشرفي، ص٢٩٢، نقلًا عن الصلة، ص٢٥٨.

(٣) العدة للشرفي، ص٢٩٥.

الاعتراف بضربٍ من الإجلال دون فعل الطاعات، بل هو فعل هذه الطاعات أي قول باللسان واعتقاد بالجَنان وعمل بالجوارح.

وقد أفاض في ذلك الإمام الزيدي (المتوكل علىٰ الله أحمد بن سليمان) في كتابه المسمَّىٰ: (حقائق المعرفة في باب حقيقة شكر النعم)، **وخلاصة ذلك أن رأي أكثر الزيدية في الشكر** أو كون الطاعة عبارة عن ذلك الشكر وقد بنوا عليه رأيهم في نفي تلك الواجبات العقلية التي قال بها المعتزلة، وقالوا: بعكسها تمامًا؛ أي قالوا: إن الثواب تفضُّلٌ محضٌ خالصٌ من شوائب الواجب وهو إن كان في مقابل عمل يسير من العبد هو طاعة وهو ما وعد به إلا أنه في حقيقة الأمر شكر له تعالىٰ لا تجب عليه نعمة أخرىٰ توازي الشكر، وضربوا علىٰ ذلك أمثلة في الخلق مع اختلاف أجناسهم.

وينتهي رأي الزيدية في الطاعات بأنه لا علاقة بين الواجب العقلي والواجب الشرعي، وهو عكس رأي المعتزلة، غير أن هنالك تفسيرات في كتب الزيدية قريبة من رأي المعتزلة في الطاعات، من ذلك ما يروىٰ عن علي بن أبي طالب في تفسيره لوجه بعض الطاعات أنه قال: «فرض الله الإيمان تطهيرًا من الشرك، والصلاة تنزيهًا من الكبر، والزكاة سببًا للرزق، والصيام ابتلاءً للإخلاص، والحج تقوية للدين، والجهاد عزًا للإسلام، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، والنهي عن المنكر ردعًا للسفهاء، وصلة الرحم منماةً للعدد، والقصاص حقنًا للدماء، وإقامة الحدود إعظامًا للمحارم، وترك الخمر تحصينًا للعقول، ومجانبة السرقة إيجابًا للعفة، وترك الزنا تحصينًا للنسب، وترك اللواط تكثيرًا للنسب، والشهادات استظهارًا علىٰ المجاحدات، وترك الكذب تشريفًا للسان، والسلام أمانًا من المخاوف للأمة، والطاعة تعظيمًا للإمامة»[1].

---

(١) العدة، ص٢٩٤، نقلًا عن الصلة، ص٢٦٠.

ويذكر (أبو مضر) في (شمس الشريفة) عن أهل البيت: أن الشرعيات من العبادات ونحوها وجبت عقلًا كالعقليات سواء، والسمع إنما كان شرطًا للأداء لا للوجوب.

وهناك قول لأئمة الزيدية منهم الإمام القاسم بن محمد، والإمام أحمد بن سليمان المتوكل علىٰ الله، والإمام المؤيد بالله يحيىٰ بن حمزة وغيرهم في نفي الوجوب علىٰ الله، وقد أشار شارح الأساس إلىٰ ذلك.

وقد اتفق المعتزلة والزيدية علىٰ التصديق بالبعثة وردّ حجة منكريها، واختلفوا في هل البعثة واجبة علىٰ الله أم جائزة، وقالوا إذا كانت واجبة فهل هذا الوجوب عقلًا أو سمعًا.

أقول: اختلفت المعتزلة والزيدية حول ذلك وذهبوا إلىٰ أقوال ثلاثة وهي الآتية:

القول الأول: أصحاب القول بالأصلح البغداديون فقد ذهبوا إلىٰ أن البعثة واجبة عقلًا علىٰ الله دينًا ودنيا، وقالوا: إنه لاشكّ أن إرسال الرسل أصلح للمكلفين في الدين والدنيا ولذلك وجب علىٰ المكلف أن يعلم عقلًا أنه لا بدّ من رسول.

القول الثاني: وهو قول أبي هاشم، والقاضي عبد الجبار، وبعض الزيدية كالمهدي، والرصاص، والقرشي، وقد قالوا: بأن البعثة تحسُن من الله ومتىٰ حسُنت وجبت وأنه ليس من طريق إلىٰ معرفة ذلك سوىٰ السمع، قالوا: وهذا هو وجه وجوبها وهي مع ذلك لا تخلو من أن تكون لطفًا في العقليات، فقولهم: إن النبوة هي من قبيل اللطف ولا يكون اللطف واجبًا إلا بعد حصول التكليف والتمكين فهم يعنون باللطف هنا أن ما تأتي به البعثة من الشرائع هو في

الأصل مسهلًا في الواجبات العقلية، ولذلك قالوا في الطاعات بأنها مدخل للعقليات.

القول الثالث: وهو يمثِّل رأي بعض الزيدية كالإمام لهادي، والقاسم بن محمد، ويقول هؤلاء: إن البعثة لا تجب علىٰ الله وإنما علم المكلفون أنه لا بدّ من رسول لينبئ ذلك الرسول عن الله بيان أداء شكره بما شاء من الشرائع التي يأتي بها الرسل شكرًا علىٰ ما مَنَّ به تعالىٰ عليهم من سوابغ النعم التي لا يعلم كيف هو إلا بالشرائع؛ قالوا: لأن الله تعالىٰ لا يُدرَك مشافهة فيخبر عباده بذلك ببيان ذلك الأداء من غير واسطة فلذلك علم المكلف أنه لا بدّ لله تعالىٰ من رسول إلىٰ خلقه تكميلًا للتفضل عليهم بالنِّعم التي لا تحصىٰ كما كمل التكليف بالتمكين، وقالوا: أيضًا لأجل أن يميز الله تعالىٰ بإرسال الرسل من شكره بامتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه، ومن لا يشكره وذلك بعصيانه وارتكاب نواهيه[١].

مذهب الإمامية والعلوية والإسماعيلية في مسألة بالأصلح واللطف:

ولا نجد اختلافًا كبيرًا بين رأي الشيعة الإمامية والعلوية والإسماعيلية، عن رأي أهل البيت والزيدية والمعتزلة؛ لأن هؤلاء يعتمدون في روايات أهل البيت مع اختلاف الروايات والطرق، والدليل علىٰ ذلك أننا نجد الشيخ الصدوق يروي طائفة من الأخبار الصحيحة المنسوبة إلىٰ النبي ﷺ، وإلىٰ الأئمة من آل محمد ﷺ، في كتاب التوحيد في باب بعنوان: (إن الله تعالىٰ لا يفعل بعباده إلا الأصلح لهم)[٢].

---

(١) العدة للشرفي، ص٢٨٨-٢٨٩.

(٢) التوحيد للصدوق، ص٣٩٨.

ومنها الحديث القدسي: «**قال تبارك وتعالىٰ: مَنْ أهان وليًا لي فقد بارزني بالمحاربة، وما ترددت في شيء أنا فاعله مثل ما ترددت في قبض نفس المؤمن يكره الموت، وأكره مساءته ولا بدّ منه، وما تقرَّب إليَّ عبد بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتنفَّل لي حتىٰ أحبه، ومتىٰ أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، وإن من عبادي المؤمنين، لمن لا يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالغناء ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك، إني أدبِّر عبادي لعلمي بقلوبهم فأنا عليم خبير**»[(١)].

ويتبن لنا أن (الصدوق) يؤكد عقيدة الشيعة الإمامية بقولهم: إن الله تعالىٰ يفعل الأصلح بعباده، والأصلح هنا هو الأنفع لهم ليس علىٰ مستوىٰ الدنيا، ولكن علىٰ مستوىٰ الدين، قالوا: فقد يكون الفقر أو المرض صلاحًا لإيمان بعض المؤمنين، فيفعله الله بهم، وقد يكون الغنىٰ أو الصحة أصلح لإيمان بعض آخر فيفعله الله بهم أيضًا.

وقد نقل الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إن الله تبارك وتعالىٰ أحسن نظرًا لعباده منهم لأنفسهم . . . . وإن الله تبارك وتعالىٰ لا يفعل لعباده إلا الأصلح لهم، ولا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه باختلاف في الرواية، وبسند آخر عن ابن جرير، حديث رقم (٨٩) كتاب الرقاق؛ وأخرجه الخطيب في تاريخه: ٦/ ١٤؛ والديلمي في مسند الفردوس: ٥/ ٢٥٠ برقم (٨٠٩٨)؛ وأبو نعيم في الحلية: ٨/ ٣١٩؛ وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، ص ١٢١.

(٢) التوحيد بتصرف، ص٤٠٣.

ورغم الاتفاق بين الصدوق والمعتزلة والزيدية في مسألة الأصلح بين ما يعود إلىٰ العدل بصورة أو بأخرىٰ عند البصريين والبغداديين والزيدية، إلا أنه يرتبط صراحة بمعنىٰ الفضل عند الشيخ الصدوق، وقد أفاد الشيخ المفيد بنفس الرأي بقوله: إن الله تعالىٰ يفعل الأصلح بعباده، غير أنه لا يحصر الأصلح في نطاق الدين فقط، كما كان عند شيخه الصدوق، ولكنه يقول به في مجال الدين والدنيا علىٰ السواء، فالغنىٰ أصلح للغني، والفقر أصلح للفقير، وكذلك الصحة والمرض وغيرها، من أنواع النعم وأنواع البلاء، فهو يقول: إن الله تعالىٰ لا يفعل بعباده ما داموا مكلفين إلا أصلح الأشياء لهم في دينهم ودنياهم، وأنه لا يدخرهم صلاحًا ولا نفعًا، وأن من أغناه الله فقد فعل به الأصلح في التدبير، وكذلك من أفقره ومن أصحَّه ومن أمرضه، فالقول فيه كذلك.

ونرىٰ الشيخ (الطوسي) يقرر في كلامه علىٰ الأصلح: أن الأصلح في باب الدنيا هو الأنفع والألذّ، وهو لا يجب علىٰ الله تعالىٰ ولا يتعلق به اللطف، واستدل علىٰ قوله بما ذكره بشر بن المعتمر والقاضي عبد الجبار أنه: «لو وجب ذلك لأدىٰ إلىٰ وجوب فعل ما لا يتناهىٰ وذلك محال، أو إلىٰ أن لا ينفعك القديم تعالىٰ من الإخلال بالواجب وذلك فاسد»[1].

ونجد الطوسي يقسم اللطف إلىٰ ثلاثة أقسام، كما قسم القاضي عبد الجبار من قبل.

القسم الأول: من فضل الله تعالىٰ: وهو الذي من فعل الله تعالىٰ إذا صاحب التكليف؛ أي: صاحب الفعل الذي هو لطف له، لا يكون واجبًا، أما ما يقع بعد التكليف، فإنه يكون واجبًا علىٰ الله تعالىٰ.

(١) الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد للطوسي، ص ١٤٠.

والقسم الثاني: من فعل من هو لطف له: أي الذي هو لطف من فعل المكلف نفسه، ينقسم أيضًا إلىٰ لطف واجب إذا تعلق بالعبادات الواجبة.

القسم الثالث: من فعل غيرهما: وهو ما يكون منه اللطف من فعل مكلف في مكلف آخر، قياسًا علىٰ جواز تمكين الشخص لشخص غيره من فعل الطاعات بسبب تيسير الآلات والأسباب[١].

فالطوسي يرىٰ أن اللطف واجب علىٰ الله تعالىٰ، ودليله علىٰ هذا الواجب، هو قياس الغائب علىٰ الشاهد إذ يقول: «والذي يدل علىٰ وجوب فعل اللطف، هو أن أحدنا لو دعا غيره إلىٰ طعامه وأحضر الطعام، وغرضه نفع المدعوِّ دون ما يعود إليه من مفسدة أو غيرها، ولم يغلب علىٰ ظنه أنه من تبسم في وجهه أو كلَّمه بكلام لطيف، أو كتب إليه رقعة، وأنفذ غلامه إليه وما أشبه ذلك مما لا مشقة عليه، ولا حطَّ له عن مرتبته حضر، ومتىٰ لم يفعل ذلك ولم يحضر، وجب عليه أن يفعل ذلك ما لم يتغير داعية عن حضور طعامه، ومتىٰ لم يفعله استحق الذمّ من العقلاء . . . . فلهذا صار منع اللطف كمنع التمكين في القبح، وهذا يقتضي وجوب فعل اللطف عليه تعالىٰ؛ لأن العلة واحدة[٢].

ونجد نصير الدين: ينحو في الأصلح منحًىٰ آخر يخالف به مذهب البغداديين والبصريين، وإن كان يرجع فيه إلىٰ مذهب أبي الحسين البصري من المعتزلة أيضًا. ويتلخص رأيه في هذه المسألة «أن الأصلح قد يجب لوجوب الداعي وانتفاء الصارف»[٣].

---

(١) الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، ص ١٣٠-١٣٣.

(٢) الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، ص ١٣٦.

(٣) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص٢٧٠.

أما اللطف فإنه واجب علىٰ الله تعالىٰ فيما يرىٰ نصير الدين الطوسي؛ لأن الغرض من التكليف وهو حصول الثواب، لا يتم إلا باللطف. ونستعرض أخيرًا رأي الإمامية بعرض سريع لآراء ابن المطهر الحلّي فهو يمثل المرحلة المتأخرة في علم الكلام الإمامي تجديدًا، وأفكارًا خاصة يختلف بها عن أسلافه من الإمامية، أو عن المعتزلة بشكل عام.

فأما الأصلح فإنه يبدو من شرح الحلّي علىٰ تجريد الطوسي، أنه يتابعه في أن الأصلح يجب مرة ولا يجب مرة أخرىٰ، حسب وجود الدواعي وانتفاء الصوارف[(١)].

ويعرِّف اللطف بقوله: «ما يقرب العبد إلىٰ الطاعة ويبعده عن المعصية، ولا حظَّ له فالتمكين، ولا يبلغ الإلجاء لتوقُّف غرض المكلف عليه».

وخلاصة القول: إنه فيما يتعلق بالأصلح واللطف فإن معتزلة البصرة يرون أنه واجب، ومصدر الواجب هنا، هو العدل بحيث يكون خلافه ظلمًا.

أما الإمامية فإن الصدوق منهم لا يرىٰ الأصلح واجبًا، وإنما هو تفضُّلٌ من الله تعالىٰ، والأصلح عنده مرتبط بمجال الدين فقط، والمفيد يتفق مع المعتزلة في وجوب الأصلح واللطف، غير أنه يقول بوجوب الأصلح في الدين والدنيا، وهو بهذا يتفق مع البغداديين ضدّ البصريين من المعتزلة، كما يرىٰ أن وجوب الأصلح واللطف لا يعود إلىٰ العدل، وإنما يعود إلىٰ الفضل. لا يختلف الإسماعيلية والعلوية عن هذا المفهوم.

---

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص٢٧٠.

الإباضية ونظرية الصلاح والأصلح:

يرفض الإباضية مبدأ أهل البيت ومواقفهم في وجوب مراعاة الأصلح للعباد، ويقول شيخ الإباضية (الثميني): إن مبدأ الصلاح والأصلح يجعل من أصحابه جبرية خالصة، ويشرح ذلك مبينًا أن المعتزلة أعلنوا أن الداعي للفعل في العبد هو الشهوة، وقوة تصميم العزم، ونحو ذلك من أسباب الفعل، ولما كانت هذه الأسباب منه تعالىٰ والفعل معهما واجب لا يمكن تركه، صار العبد إذن مضطرًا إلىٰ ذلك الفعل، وأن الله اضطره وألجأه إليه، بأن خلق له جميع أسبابه بحيث لا يجد مع تلك الأسباب انعكاسًا عن الفعل. وهو سبحانه مع ذلك علم بما يفعل هذا العبد من طاعة أو معصية، فكان للعاصي أن يحتجَّ علىٰ أصلحهم بزعمهم ويقول: يا ربّ لمَ خلقت الشهوة؟ ولمَ خلقتني إذ علمت أني لست ممن يصلح لطاعتك؟ وإذا خلقتني فلمَ لم تمتني صغيرًا قبل أن أبلغ سنّ التكليف؟ وإذ قد بلَّغتنيه فلمَ لم تجعلني مجنونًا، لا أميز بين الأرض من السماء! فذاك أسهل من تحمل العذاب؟ وإذ جعلتني عاقلًا فلمَ كلَّفتني وقد علمت أن التكليف لا يفيدني شيئًا، بل هو من أعظم المصائب عليَّ؟[1].

ويعلن (**الثميني**) أن الله ﷻ خلق العباد وخلق أعمالهم، وخلق الثواب، والعقاب عليها، من غير أن يجب عليه تعالىٰ مراعاة الصلاح والأصلح لهم، وإلا لوجب أن لا يكون تكليف، ولا محنة دنيوية ولا أخروية.

ويقرر (**الثميني**): أن الأفعال كلها خيرها وشرّها، نفعها وضرّها، مستوية بالنسبة إلىٰ الله تعالىٰ، وأنه مختار في جميعها[2].

---

(١) معالم الدين: ١/ ٢٧٣-٢٧٤؛ الكشف والبيان: ١/ ٣٩؛ مشارق أنوار العقول، ص٤٢٢.

(٢) معالم الدين: ١/ ٢٨٦؛ الكشف والبيان: ١/ ٣٩؛ مشارق أنوار العقول، ص٤٢٢.

ويرىٰ الإباضية عدم وجوب مراعاة الصلاح والأصلح عليه ﷻ، ولأن غرض العبد هو حصول لذّة له، أو دفع ألم عنه، والله تعالىٰ قادر علىٰ إيصال تلك المصلحة إلىٰ العبد، بلا واسطة فعل، وما يوجد في الكتاب والسنة موهمًا للتعليل بالأغراض، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

فإنه يؤول بجعل اللام للصيرورة والعاقبة[(١)].

تتبع الصوفية والأشاعرة والماتريدية للصلاح والأصلح:

يتفق الصوفية والأشاعرة والماتريدية في هذه القضية في الردّ علىٰ المعتزلة، فقد نقد (التفتازاني) لها بقوله: «وما هو الأصلح للعبد فليس ذلك بواجب علىٰ الله تعالىٰ، وإلا لما خلق الكافر والفقير المعذَّب في الدنيا والآخرة، ولما كان منه علىٰ العباد استحقاق شكر الهداية، وإفاضة أنواع الخيرات؛ لكونها أداءً للواجب، ولما كان امتنان الله علىٰ النبي ﷺ فوق امتنانه علىٰ أبي جهل لعنه الله، إذ فعل بكلٍّ منهما غاية مقدوره من الأصلح له، ولما كان لسؤال العظمة والتوفيق وكشف الضراء والبسط في الخصب والرخاء معنىٰ؛ لأن ما لم يفعله في حق كل واحد فهو مفسدة له يجب علىٰ الله تعالىٰ تركها، ولما بقي من قدر الله تعالىٰ بالنسبة إلىٰ مصالح العباد شيء، إذ قد أتىٰ بالواجب . . . .».

وقال في موضع آخر: «إن منع ما يكون حق المانع وقد ثبت بالأدلة القاطعة كرمه وحكمته ولطفه، وعلمه بالعواقب يكون محض عدل وحكمة، ثم ليت شعري ما معنىٰ وجوب الشيء علىٰ الله تعالىٰ؟ إذ ليس معناه استحقاق تاركه

(١) معالم الدين: ١/ ٢٨٨؛ الكشف والبيان: ١/ ٣٩؛ مشارق أنوار العقول، ص٤٢٢.

الذمَّ والعقاب وهو ظاهر، وإلا لزم صدوره عنه بحيث لا يتمكن من الترك، بناء علىٰ استلزامه محالًا من سفه أو جهل أو عبث أو بخل أو نحو ذلك»[١].

ويصرِّح (الغزنوي) في هذه المسئلة بقوله: «الأصلح ليس بواجب علىٰ الله ولا ما هو المصلحة؛ لأنه خلق الكفر والمعصية، فلو كان الأصلح واجبًا عليه لما خلقهما؛ لأنهما ليسا بمصلحة، بل هما مفسدة في حق العبد؛ لأنهما سبب للعقاب في الدنيا والآخرة»[٢].

إن للعبد الإيمان والرضىٰ بكل ما قضىٰ الله تعالىٰ عليه وقدَّره، ويلزم الصبر والتسليم. وقال أهل السنّة بالتفويض فإن الخوض في قضاء الله وقدره والبحثّ عن سِرّه لهو من الوسوسة مما يذهب بالعبد إلىٰ الوسواس، فالله عالم الغيب والشهادة، والله تعالىٰ أخفىٰ علم القدر عن عباده.

وللإمام جعفر الصادق عليه السلام كلام نقله الشهرستاني في الملل والنحل بقوله: إن الله تعالىٰ أراد بنا شيئًا، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أظهره لنا، فما بالنا نشتغل بما أراده عما أراده منا[٣]. قال تعالىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقالت الجبرية: الخير والشرّ من الله تعالىٰ ﷻ، ليس للعبد فيه فعل.

وقالت القدرية: الخير والشرّ فعل العبد ليس لله تعالىٰ صنع فيه.

---

(١) شرح العقائد النسفية، ص٦٦؛ التمهيد لقواعد التوحيد للنسفي، ص٣٣٩؛ شرح الفقه الأكبر للملا علي
القاري، ص١٩٠-١٩٢؛ تبصرة الأدلة: ١/ ٧٢٣؛ أصول الدين للغزنوي، ص١٧٢-١٧٣؛ أصول الدين
للبزدوي، ص١٠٤.

(٢) أصول الدين للغزنوي، ص١٧٢-١٧٣.

(٣) الملل والنحل للشهرستاني: ٢/ ٢.

۞ الذبح لغير الله تعالى ۞

الذبح الذي تحل به الذبيحة ويجوز الأكل منه نوعان:

١- ذبح أريد به التقرب إلىٰ الله تعالىٰ: كالذبح للهدي في الحج، والذبح للأضحية، وكل ما هو مطلوب ذبحه شرعًا علىٰ سبيل الندب أو الوجوب.

٢- ذبح أريد به الانتفاع بلحم الذبيحة وتحليله حيث لا يحلُّ إلا بالذَّكاة الشرعية: وذلك كالذبائح التي تذبح كل يوم وتتداولها الناس كل يوم بالبيع والشراء وغيرهما. مما يَحِلُّ أَكْلُهُ.

والذبح الذي لا تحلُّ به الذبيحة بحيث يحرم الأكل منها ثلاثة أنواع:

١- الذبح الذي لم يستوفِ شروطه الشرعية: مثل ذبح الحيوانات بعدم قطع ما يطلب قطعه إلىٰ غير ما ذُكر من شروط في كتب الفقه علىٰ المذاهب الإسلامية.

٢- أن يذكر الذابح علىٰ الذبيحة وقت الذبح اسم غير الله تعالىٰ: كأن يقول: باسم اللَّاتِ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المدثر: ٣]. ومعنىٰ «أُهِلَّ لغير الله» أي: رفع الذابح صوته عند الذبح بذكر اسم غير اسم الله تعالىٰ، علىٰ عادة العرب في ذكر أصنامهم عند الذبح، فكان الذابح يقول: باسم اللات، أو باسم العزىٰ، والله تعالىٰ لم يحدد اسمًا معينًا تحرم الذبيحة بذكره، بل حرَّم الله تعالىٰ كل ذبيحة يُذكر عليها اسمٌ غير اسم الله تعالىٰ، سواء كان اسم صنم، أم إنسان، أم جنيٍّ، أم أي اسم غير اسم الله علىٰ الإطلاق.

فقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي من أجل الشرك من أجل الكفر رفع عليه غير اسم الله للشرك، أمَّا التي ذبحت بلا تسمية ما دخلت. هذه الآية تفسر قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي إذا ترك ذكر اسم الله لأجل الشرك لأجل الكفر لا تحل. وعند مالك وأبي حنيفة إن ترك ذكر اسم الله عمدًا علىٰ الذبيحة لا تؤكل، هي ميتة.

٣- أن يريد الذابح بذبحه التقرب بالذبيحة لغير الله تعالىٰ: وذلك كأن يذبح الذبيحة تقربًا إلىٰ إمام، أو وليٍّ، أو نبيٍّ، أو حاكم، أو جنيٍّ، أو عفريت، أو غير هؤلاء.

أما ما يُذبح إكرامًا للضيف، أو استقبال الضيوف، فلا حرمة فيه، وهنالك فرق في إكرام الضيف، والذبح لغير الله، فالمقصود أن الذبيحة لاستقبال الضيوف أو قدومهم، نوعًا من الكرم عند العرب، وإجلالًا لقدر الضيف كما فعل سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وذكر إبراهيم المِرْوَزِيُّ: أن ما ذُبح عند استقبال السلطان تقربًا إليه، وأفتىٰ أهل بخارىٰ بتحريمه؛ لأنه مما أُهِلَّ به لغير الله، أما ما ذُبح فرحًا بقدومه أو تكريمًا له، فلا شيء فيه؛ لأن إكرام الضيف مشروع اهـ.

الذبح بمكان يذبح فيه لغير الله أو فيه معبود غيره:

والمقصود بذلك أنه لا يجوز الذبح بتحديد المكان؛ أي: إذا كان المكان مخصوصًا بقبور بعض الصالحين، أو كانت تُقام به أعياد غير المسلمين من الوثنية وغير ذلك.

وأمَّا النذر فهو حلال في الشريعة الإسلامية بضوابط وشروط، فلا بأس في تخصيص المكان للبعض بنذره فيها، إذا خلا من الموانع. كما أنه لا نذر

لابن آدم فيما لا يملك فإذا قال مثلًا: إن شفىٰ الله مريضي فلله عليَّ أن أذبح بقرة فلان، أو أتصدق بجزء معين من مال فلان، فإن النذر لاغٍ. أما إذا قال: إن شفىٰ الله مريضي فعليَّ أن أنحر بعيرًا مثلًا، وهو لا يملك البعير، فإن النذر يلزمه، ويتعلق بذمَّته كجميع الديون إن حصل شفاء المريض المذكور.

وقد أثبتت الأحاديث النبوية النذور، فعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانةَ[1] فسأل النبيّ ﷺ فقال: «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا. قال: «فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟» قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «**أوفِ بنذركَ، فإنه لا وفاءَ لنذر معصية، ولا فيما لا يملك ابنُ آدمَ**»[2].

النذر الخالص لوجه الله تعالىٰ:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وفي هذه الآية إشارة وتأكيد واضح للنبي الأعظم ﷺ أن يقول لمن يشركون مع الله غيره في العبادة والطاعة؛ أي إن الصلاة بجميع أحوالها وأنواعها، والذبيحة التي أذبحها، وما يفعله من القربات والأعمال عند الممات كالصدقة والوصية: كلّها خالصة لله وحده، خالية من إشراك أحد معه تعالىٰ.

والنذر بإجماع المسلمين نوعٌ من العبادة التي يُتقرب بها إلىٰ الله تعالىٰ، فإن كان خالصًا له فهو نذرٌ صحيحٌ ومشروعٌ، وإن كان دون ذلك كأن دخله الشرك فهو حرامٌ وباطلٌ عند جميع أهل العلم.

---

(١) بوانة هي هضبة من وراء ينبع قريبة من ساحل البحر. معجم البلدان: ١/ ٥٠٥.

(٢) رواه أبو داود في الأيمان والنذور حديث رقم (٣٣١٣)؛ والطبراني في الكبير: ٢/ ٥٧-٧٦/ ١٣٤١.

سهولة التكفير لأصحاب النذور:

اعلم -رحمك الله- أن النذر للمَشاهِد التي عند قبور الصالحين وغيرهم، فهو غالبًا من مقصود العامة فيقيمون النذر، وهذا باطل وفيه شرك مع الله من غير قصد، فإن هؤلاء الجهلة معتقدهم لهذه الأماكن بخصوصيات، ويرون أنها مما يدفع البلاء، ويُصِحُّ المريض، وينجي الغريق، ويشفي العقيم، وقدوم الغائب، وغير ذلك من المجازاة، فهذا النذر بهذا الوجه باطلٌ لا شكّ فيه؛ لأنه لمخلوق، لأنه عبادة والعبادة والتقرب لا يكون إلا لله وحده لا شريك له، وقد روىٰ بعضهم أن فلانًا ذبح لغير فلان فردَّ الله له غائبه، ومنهم من قال: اذهب إلىٰ فلان واذبح تحت قبته، فإنه يتقرب به إلىٰ الله فيشفىٰ المريض، ويولد العقيم، وعلىٰ ذلك فإن كثيرًا ليسوا من أهل العلم ذهبوا وذبحوا وقُضيت حوائجهم، وذلك بحسب نيتهم، وليس بفضل صاحب القبر، وهذا أمرٌ لابدّ من التحذير منه، وأخذ الناس علىٰ قدر عقولهم، فلا نكفِّرهم ونخرجهم من الملَّة، بل إننا ندعوهم بسلامة النية ونجادلهم بالحسنىٰ، أما إن علمنا أنهم يعتقدون النية وقصدهم الإشراك، فذلك هو كفر بَواحٌ، وعلينا أن ننبه بأسلوب حسن وندعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لأنهم غالب مَنْ يذهب إلىٰ هذه القبور، ويقيم الليالي من المرتزقة الذين يرتزقون من هذه التجمعات، فوقع أهل العلم بين هؤلاء ممن نسبوا لهم. ولا حرج في زيارة القبور سواء كان من أهل البيت أو الأولياء والصالحين والدعاء، أما الذبح وإقامة الليالي، فأني أخالف ذلك وإن فعلته فلي في ذلك شروط، والله أعلم بما تخفي الصدور، آمنت بالله واعتصمت به، لا ملجأ ولا منجا إلاّ إليه.

الاستعاذة بغير الله من الجن والشياطين وغيرها:

الاستعاذة لا تكون إلا لله، وهي الالتجاء والاعتصام، فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلىٰ ربّه ومالكه، واعتصم واستجار به والتجأ إليه.

قال ابن منظور في اللسان: (عوذ)[١]: عاذ به يَعُوذُ عَوْذًا وعِياذًا ومَعاذًا لاذ فيه ولجأَ إِليه واعتصم ومعاذَ اللهِ أَي عياذًا بالله.

قال الزبيدي في تاجه: **(العوذ)**[٢]: الالتجاء، كالعياذ بالكسر والمعاذ والمعاذة والتعوذ والاستعاذة عاذ

به يعوذ: لاذ به ولجأ إليه واعتصم. وعذت بفلان واستعذت به، أي لجأت إليه.

وبذلك فإن القرآن قد بيَّن أن الاستعاذة بالجنّ والشياطين لا تفيد المستعيذ شيئًا. قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

فالأمر محسوم في هذه القضية، لأنهم يقولون: لا يجوز الاستعانة أو الاستعاذة بغير الله، وإنَّ في ذلك إثمًا عظيمًا، وشركًا كبيرًا.

الاستغاثة:

الاستغاثة: هي طلب الغوث: وهو إزالة الشدّة كالاستنصار: طلب النصر.

والاستعانة: طلب العون، والفرق بين الاستغاثة والدعاء، أن الاستغاثة لا تكون إلا من الكروب، أما الدعاء فيكون من الكروب وغيره، فهو أعمُّ منها،

(١) لسان العرب مادة عوذ ٣/ ٤٩٨.

(٢) تاج العروس ١٠/ ٢٤٠٧.

وبينهما عموم وخصوص مطلق، ويجتمعان في مادة وينفرد الأعم، وعلىٰ هذا فكل استغاثة دعاء ولا عكس.

ولعل هذا الموضوع شائك وكبير وفيه اختلاف كبير لدىٰ المفهوم؛ فالأمر كله يعود إلىٰ النية، وما ينطوي علىٰ العبد في قلبه، فإن خطر الوقوع بقصد أو بغيره في الممنوع مما يؤدي إلىٰ الوقوع في الشرك الذي كفر المؤدي إلىٰ الخلود في النار أجارنا الله منها، فإن الاستغاثة لا تكون إلا بالله تعالىٰ فهي عبادة كالدعاء، وهو الفرد الصمد الأحق بأن يُستعاذ به، والأحق بالدعاء والطلب في كل شيء؛ لأنه هو المنجي المغيث القادر علىٰ إغاثة من يستغيث به، وإجابة من يدعوه، قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

فالآيات صريحة بأنه لا يجوز للعبد أن يستغيث بغير الله تعالىٰ، ولا أن يدعوه ويسأله قضاء حاجته، وإغاثته من مكروب نزل به، إلا إذا كان المستغاث به والمدعو قد أذن الشرع بأن تستغيث به وتدعوه، فالاستغاثة والدعاء الممنوع هما الاستغاثة بالأصنام والأموات والجن والملائكة؛ لأن هذا النوع من الشرك المضلّ الذي ضلّ به كثير من الناس، وانحرفوا عن الطريق الصحيح، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

واستغاثة: تحل في حال الأحياء من الناس، في حالات مأذونة أذن بها الشرع، وقد تكون واجبة، وهي في حال وقوع العبد في كارثة ومصيبة يرجو

الخلاص منها، كأن يقع في نهر أو بئر فيطلب مَنْ يغيثه وينقذه وغير ذلك من الكوارث والمصائب، فهذه أصبحت متعارفة بين الناس، أن يطلب الإنسان من الإنسان العون، ولم يأتِ الشرع بما يمنع ذلك.



۞ نحن أمة وسط ۞

لقد أكرم الله الأمة الإسلامية المحمَّديَّة بنبي الرحمة ﷺ، فله من المعجزات ما لا لغيره فحياته هي خير للأمة، ومماته خير للأمة، وأكرم الله المسلمين باستغفار النبي ﷺ في حياته وبعد مماته، وجعل قبره في وسط بيته ومسجده العظيم، ومسجده تُشدُّ إليه الرِّحال، وزيارته بشارة لكل مسلم زاره بعد وفاته، والصلاة عليه ﷺ تصله وتردُّ من أيّ مكان، وعلىٰ مرّ الألف والأربعمائة ونيف عام، لم نسمع أنَّ أحدًا قد عبد النبيَّ المصطفىٰ ﷺ، أو اتَّخذ قبره معبدًا كما ادعاه نفاة التوسّل من السلفية «الوهابية».

وقد روىٰ مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[1].

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها الصديق أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسةً رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور! فقال: «**أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ**»[2].

وأما ما يقال: إن المسلمين يطوفون حول قبر النبي ﷺ، فلا أصل لما يقال من اتهامات باطلة بأن زيارة القبر ما هي إلا لعبادة القبر فلا أصل لذلك ولا صحة لما يقال، بل إن مقامه منذ وفاته وإلىٰ أن تقوم الساعة خالٍ من الوثنية أو الاتخاذ معبدًا، بل هو ملاذُ المذنبين ومردُّ المتشوقين، وجامع المحبين المتبعين.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ: ١/ ١٧٢ حديث رقم (٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري: ١/ ١١١؛ ومسلم: ١/ ٣٧٥؛ وأحمد: ٦/ ٥١.

فتُسَنُّ زيارة قبر الرسول ﷺ بالإجماع، أي إجماع أئمة الاجتهاد الأربعة وغيرِهم للمُقِيم بالمدينة ولأهل الآفاق القاصدين بسَفَرِهم زيارةَ قبره الشريف، وهي من القُرَبِ العَظيمة، فمَن خَصَّ مَشروعية زيارةِ قَبرِه لغَير القاصِد بالسَّفر، وحَرَّم السَّفَر لزيارة قَبرِه ﷺ فلا يجوز العمل بكَلامه بل يجب نَبْذُه والإعراضُ عنه.



۞ الرياء ۞

وهو أن يعمل الإنسان عمل خير ليحمده الناس فأي عمل من أعمال الدين إذا كان الشخص بقصد محمدة الناس فليس له شىء من الثواب بل عليه ذنب كبير، وإنما يقبل الله ما خلص من عمل العبد لله، حتىٰ وإن المجاهد في سبيل الله وقصد مدح الناس له والأجرَ فليس له شىء من الأجر هكذا جاء في الحديث الصحيح. والرياء ينطبق علىٰ أفعال العبد في أقواله وأفعاله من حيث الصلاة، والزكاة وغي ذلك من أعمال البرّ فيصل الشخص بالمداومة عليه إلىٰ النفاق في العمل. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢].

أقول: والرياء عمل مستنكر فنسأل الله أن يُجيرنا منه، فالرسول ﷺ سمىٰ الرياء الشرك الأصغر، الشرك أكبر وأصغر والكفر كذلك أكبر وأصغر، الحكم بغير ما أنزل الله كفر دون كفر أي كفر أصغر وكذلك قتل المسلم بغير حق كفر أصغر.

والأولياء يخافون علىٰ أنفسهم يظنون أنهم عملوا بعض الأعمال وقد دخل في قلوبهم الرياء وهم لا يعملون رياء. الخوف أن يتهم الشخص نفسه إذا خاف يقول لَعَلِّي عملت هذا الشىء علىٰ وجه مخالف للشرع، هذا الخوف لا بأس به، وهم الأولياء يعملون مخلصين لله يخافون أن يكونوا عملوا العمل وفيه رياء.

وروىٰ أبو يعلىٰ عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحسن الصلاة حين يراه الناس، وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه** ﷻ»[(١)].



(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب: ١/ ٣٠٥ حديث رقم (٥٠٧)؛ البيهقي في سننه الكبرىٰ: ٢/ ٢٩٠ حديث رقم (٣٣٩٩)؛ أبي يعلىٰ في مسنده: ٩/ ٥٥ حديث رقم (٥١١٧).

۞ السحر ۞

وهو أعمال معينة أثره خارق للعادة يترتب عليها أعمال الهدف منها الإضرار بالآخرين، وخداعهم حتىٰ يتخيلوا أمورًا لا حقيقة لها، كأن يتخيل العصا حية، واللبن دمًا، وغير ذلك كالورق يتحول إلىٰ نقود، وكل هذا من الأعمال الباطلة، وقد اتفق العلماء علىٰ أن السحر من أكبر الكبائر ومنه ما هو كفر.

فالسحر كله حرام ليس هناك سحر يجوز عمله ولا فرق بين أن يكون السحر للتحبيب أو للتبغيض حتىٰ لو حصل نفورٌ بين المرأة وزوجها وكان النفور من المرأة لا يجوز للزوج أن يذهب الىٰ السحرة ليعملوا له شيئا من السحر يؤلف بينهما وكذلك العكس، فذلك حرام.

ولا يجوز مقابلة السحر بالسحر، فمن أصابه ضرر بسحر ليس له أن يذهب الىٰ ساحر ليفك هذا السحر عنه بسحر. والطريق الجائز الذي ليس فيه معصية لمن أراد إزالة النفرة بينه وبين زوجته أن يدعو الله ويتضرع إليه لجعل الألفة بينهما أو يقرأ يس بهذه النية أو نحو ذلك، ويجوز للمسحور أن يستعمل طريقة لفك السحر لكن بغير سحر كأن يطلب فكّه بالقرءان أو باستعمال بعض العقاقير التي جعل الله فيها خاصية لإبطال السحر.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال ﷺ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هِيَ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا،**

وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»[١].

ومما يحتال به بعض الغشّشين لترويج عمل السحر أنهم يخلطون بعض الآيات القرءانية بالسحر حتىٰ يوهموا الناس أن القرءان له دخل في السحر، والقرءان لا دخل له بالسحر لكن أولئك يخلطون بعض الآيات القرءانية بالسحر، يضعون كلامًا خبيثًا في الورقة ثم يكتبون قربه بعض الآيات القرءانية فيظن الجاهلون من البشر أن القرءان له دخل في السحر ومقصود الشياطين بذلك أن تضل الناس لترويج السحر بإدخال بعض الآيات القرءانية فيه، في عمل السحر، فإذا رأيتم شيئًا يكتب من السحر ويكون إلىٰ جانب هذا السحر ءايات قرءانية فاعلموا أن القرءان لا دخل له إنما الشياطين أدخلت هذا لتضل الناس بأن يظنوا أن القرءان فيه سحر، والقرءان ضد السحر، فعلىٰ المسلم الحذر من هؤلاء الذين الضالون المفسدون الذين يوقعون الناس في الضلال والكفر، لأن الإنسان إذا اعتقد السحر حلالًا، وأنه شىٰء حسن يكفر، يخرج من دين الإسلام، لأن السحر أمر محرم من المحرمات الكبائر، فاستحلاله كفر وخروج من الإسلام، وهؤلاء الذين يدعون أنه معهم جني رحماني أي معهم خدام من الجن، يوهمون الناس أن الذين معهم ملائكة السماء حتىٰ يعظم اعتقاد الناس فيهم لأنهم إن قالوا معنا شياطين، معنا جن لا يعتقد فيهم الناس اعتقادًا كبيرًا كما إذا قالوا معنا ملائكة وأن كانوا ذلك لنفعوا انفسهم قبل الناس.

---

(١) أخرجه البخاري: ٤/ ١٢برقم (٢٧٦٦) و٧/ ١٧٧برقم (٥٧٦٤) و٧/ ٢١٨برقم (٦٨٥٧)؛ ومسلم: ١/ ٦٤برقم (١٧٥)؛ وأبو داود برقم (٢٨٧٤)؛ والنَّسائي: ٦/ ٢٥٧.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

واعلم رحمك الله أن إتيان الكُهَّان والعرَّافين بجميع أنواعهم، الذين يدَّعون معرفة الغيبيات من أمور الناس، فأولئك فئة تأكل الأموال بالباطل وفعلهم حرام، ولا يجوز للمسلم الإتيان إليهم لهذا وسماعهم وتصديقهم، وقد اختلفت في عصرنا هذه الأمور فكثُر المدَّعون العلم بعواقب الأمور، وأصبحت صنعة بعض من لا صنعة له، وتوافد بعض الناس عليهم وصدقوهم وأصبح لهؤلاء المشعوذين المنحرفين رَوَاجٌ ولسان بيان، وقد كثر المصدقون بهم وذلك من ضعف تمكنهم في علم الدين واتباع الهوىٰ، وأما ما يحدث من الفراسة في الرجال فهو مخالف للكُهَّان والعرَّافين، فمنهم من يكون له الفراسة في معرفة الأمور وتقديرها، وليس التحديث بعلم الغيب.

وقد قال الإمام علي بن أبي طالب: (**اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بنورِ اللَّهِ**)[1] نور الله أي بإلهام من الله.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية: ٦/ ١١٨؛ وابن عدي في الكامل: ٤/ ١٥٢٣ و٦/ ٢٤٠١؛ الخطيب في التاريخ: ٧/ ٢٤٢؛ وكذا ابن الجوزي في صفة الصفوة: ٢/ ١٢٦؛ والبخاري في التاريخ الكبير: ٤/ ١؛ والترمذي: ٤/ ١٣٢؛ وابن جرير في التفسير: ١٤/ ٣١؛ والعقيلي في الضعفاء برقم (٣٩٦)؛ وأبو الشيخ في الأمثال برقم (١٢٧)؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق: ٤/ ٣٣٧/ ١، ٢ من طرق عن عمرو به. وقال الترمذي: حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

فقد روىٰ مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ**»(١).

وعن النبي ﷺ: «**مَنْ أتىٰ عرَّافًا فسأله عن شيءٍ فصدَّقه بما يقول، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**»(٢). أي ليس له ثواب وإن سقط عنه الفرض.

وقال الإمام (النووي) وغيره: معناه أنه لا ثواب له في هذه الصلاة، وإن كانت صحيحة ومجزية بسقوط الفرض عنه. ولا بدّ من هذا التأويل في هذا الحديث، والمتفق بين العلماء علىٰ أنه لا يلزم من أتىٰ العرَّاف إعادةُ الصلاة أربعين يومًا ولا أنه يترك الصلاة كما يظنّ كثير من الجهّال.

الأقوال التي تتنافىٰ مع الإيمان:

الذي يسبُّ الله أو الرسول والأنبياء ﷺ أو الدِّين أو الكتاب أو السنة، والطاعن في الدين، كل هذه الأفعال موجبة للكفر الصريح، ففاعلها مرتدٌّ حدُّه حدُّ المرتدِّ (يعني القتل).

وألفاظ الكفر كثيرة جدًّا لا تنحصر، وقد كثرُ في هذا الزمان التَساهِلُ في الكلام حتىٰ إنه يخرجُ من بعضهم ألفاظ تُخرجهم عن الإسلام ولا يرونَ ذلك ذنبًا فضلًا عن كونهِ كفرًا، يتكلمون بكلمةٍ لا يراها ضارة لهُ ولا يعتبرها معصية.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٤٢٩(٩٥٣٢)؛ ورواه أبو دواد في الطب، باب في الكاهن رقم (٣٩٠٤)؛ والحاكم في المستدرك: ١/٨.

(٢) أخرجه مسلم في السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (شرح النووي ١٥/٢٢٧).

وقد ظهر في عصرنا مَن ارتدّ عن الدين الإسلامي، وقال فيهم بعض أهل العلم: إنه لا حدّ عليهم؛ لأنه لا إكراه في الدين، والله أعلم، وحيث إن ذلك أمرٌ يتعلق ليس بالخروج عن الدين الإسلامي، فهو وقت أصبح فيه الأمر مسلم في عدم الإكراه، فالاعتراف بالدين ظاهرًا وباطنًا يفسر بعض ما ثبت من الدين بالضرورة، علىٰ أن يكون يعيش في بلاد الإسلام، أما مَنْ كان في بلاد الكفر فلا حدَّ عليه.



۞ الأجل ۞

اعلم أن لكل أجل كتابًا ولكل حادث نهايةً، وقد مات الأوَّلون ولحق بهم الآخرون وهذه سُنَّة الله في خلقه، فلا بدّ من الإيمان بأن الإنسان والجنّ وذي الأرواح لا يموت أحد منهم حتىٰ يتمَّ أجله المكتوب الذي قدَّره الله له والذي كُتب في صحيفة وإنهاء الآجل سواء كان حتف الأنف أو مات مقتولًا، بأي سبب من الأسباب، فقد تتعدد الأسباب، ولكن الموت واحد، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٩].

وملك الموت هو الذي يقبض الأرواح بأمر الله تعالىٰ، وله أعوان من الملائكة الكرام، فيمر المخلوق بلحظات خروج الروح (الاحتضار) يرىٰ فيها المحتضر الملائكة الذين يقبضون روحه، ويعرفون مصيره، إن كان إلىٰ الجنة أو إلىٰ النار، فالله تعالىٰ قد علم بالأزلي السرمدي الآجال.



۞ الإيمان والإسلام ۞

الإيمان مشتق من الأمن وهو ضدّ الخوف، يقال: الأمن والأمان والأَمَنَة.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

هذا من حيث اللغة[(١)].

وفي الاصطلاح: هو التصديق، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧].

أي: مصدق[(٢)].

وأما في الشرع قد اختلفت الفرق الإسلامية، وذهبت فيه إلىٰ مذاهب شتىٰ مختلفة[(٣)].

ولعله يرىٰ البعض الفرق بين الإسلام والإيمان بفارق اعتباري، والذي يظهر من قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

وقد صحّ عن أبي حنيفة أنه قال عن الإسلام والإيمان: فهما كالظهر مع البطن.

فقال بعضهم: الإسلام هو عبارة عن مجرد الدخول في الدين والتسليم لسيد المرسلين ﷺ.

---

(١) كتاب العين، للفراهيدي: ٨/ ٣٨٩.

(٢) مختار الصحاح، ص٢٦.

(٣) البغدادي أصول الدين، ص٢٤٩؛ الفصل لابن حزم: ٣/ ١٣٨.

وأن الإيمان عبارة عن اليقين الثابت في قلوب المؤمنين، مع الاعتراف به في اللسان، فيكون هنا أخصّ من الإسلام.

ونقول: اعلم أن كلمة الإسلام من السلام والاستسلام، بأن يسلِّم العبد أموره إلىٰ الحق أي ينقاد لما جاء في الشرع بالنطق بالشهادتين، والإيمان الإيمان هو التصديق بوجود الخالق عزوجل والتصديق بما أنزل علىٰ أنبيائه، وأن الدنيا دار فناء وأن الآخرة دار الحق، فالإسلام والإيمان متلازمان.

والإيمان هو التصديق في اللغة بلا ريب، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

أي: ما أنت بمصدِّق لنا، ولما كان الإيمان تصديقًا في اللغة، وجب أن يكون تصديقًا في الشريعة؛ وهو التصديق بالقلب والتصديق باللسان، وهو الاعتقاد بالقلب فالله وحده المستحق للألوهية، ولا إله سواه. ونعتقد بتعظيمه وجميع صفاته، ونصدق الأنبياء عليهم السلام بما جاؤوا به من عنده ﷻ بالقلب، ونعتقد جميع أركان الإسلام، ونقرُّ بذلك كله، وبذلك فكان الإيمان: إقرارًا باللسان، واعتقادًا بالقلب.

وقالت المعتزلة والزيدية: إن الإيمان في الشرع اسم لجميع الطاعات الفرائض والنوافل واجتناب المعاصي والمكروهات، وهو اسم يستحق المتَّصف به الثواب[1].

---

(١) هذا رأي أكثر الزيدية والمعتزلة، وخالف الشيخان أبو علي وأبو هاشم، وذهبا إلىٰ أن لا مدخل للنوافل في الإيمان إلا الواجبات فقط. راجع شرح الأصول الخمسة، ص٧٠٧؛ ومقالات الأشعري: ١/ ٣٢٩ وما بعده؛ وأصول الدين للبغدادي، ص١٢٩.

ويشمل هذا الوصف الملائكة والأنبياء ومَنْ له ثواب من الإنس والجنّ، وليس هذا الوصف مشتقًا من التصديق بمعنىٰ أنه إذا حصل تصديق يسمىٰ صاحبه مؤمنًا، بل من الفعل أي فعل الواجبات وترك المقبّحات، ولذلك كان المؤمن عند هؤلاء هو من اعتقد بقلبه وأقرّ بلسانه وعمل بجوارحه، فمَنْ أخلَّ بالأول عندهم كان منافقًا، ومَنْ أخلَّ بالثاني كان كافرًا، ومَنْ أخلَّ بالثالث كان فاسقًا.

ونجد السلفية الوهابية أتباع ابن تيمية يقولون بترجيح لفظ الإيمان: من الأمن في بعض الأقوال، فهذا ابن تيمية يرجِّح ذلك[١].

وذكر (ابن بطَّة): أن الإيمان في اللغة يعني التصديق، وقد أفرد بابًا في بيان الإيمان وفرضه، يعرِّف فيه الإيمان بأنه «تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح والحركات، لا يكون العبد مؤمنًا إلا بهذه الثلاث . . . . ويتبع قوله حتىٰ صار اسم الإيمان مشتملًا علىٰ المعاني الثلاثة لا ينفصل بعضها عن بعض، ولا ينفع بعضها دون بعض، حتىٰ الإيمان قولًا باللسان وعملًا بالجوارح ومعرفةً بالقلب»[٢].

قول الإمامية:

اتفقت الإمامية فيما بينها علىٰ أن الإسلام غير الإيمان، وأن كل مؤمن فهو مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، والعياذ بالله، وقالوا إنَّ الفرق بين هذين المعنيين في الدين كما كان في اللسان[٣].

---

(١) الإبانة: ق١/ ٧٦٠-٧٦١-٧٧٩، نقلًا عن التويجري: ٢/ ٥٩٦؛ وكذلك الآجري في الشريعة، ص١١٩.

(٢) مقالات الأشعري١/ ٢٠٦، الفصل لابن حزم: ٣/ ١٣٨.

(٣) أوائل المقالات، ص ٤٨ فقرة ١٤.

ويقول (الطوسي) في كتابه (الاقتصاد) معرِّفًا الإيمان: هو التصديق بالقلب بما يجري علىٰ اللسان وكل من كان عارفًا بالله تعالىٰ ونبيه ﷺ، وبما أوجب الله عليه معرفته مقرًا بذلك، فهو مؤمن(١).

ويذكر في موضع آخر قول بعض الإمامية بأن الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان والجوارح، ويقول: وعليه دلَّت كثير من أخبارنا المروية عن الأئمة عليهم السلام(٢).

وقد فصل ذلك (الكلّيني) في كتابه: (أصول الكافي) في كتاب الإيمان والكفر، ونجد في الكتب الحديثة للإمامية قولًا آخر، فقد ذهبوا إلىٰ أن الإيمان: هو التصديق بالله وحده وصفاته وعدله، وبالنبوة وكل ما جاء به النبي ﷺ، إلا أنهم أضافوا إلىٰ ذلك التصديق بإمامة الاثني عشر(٣). وهذا قول محدَث ليس له أصل في أصول العقيدة.

قول الإباضية:

يذهب الثميني في معالمه: إلىٰ أن ألفاظ الدين، والإسلام، والإيمان، كلها تدل علىٰ معنىٰ واحد، وتطلق هذه الألفاظ الثلاثة علىٰ شيء واحد وهو جميع ما أمر الله به، والإيمان عند الإباضي يركَّب من ثلاثة أركان ذات الإيمان هو: مجموع المعرفة، والإقرار، والعمل، ويقول: إنَّ المؤمن هو المؤمن بدين الله

(١) الاقتصاد للطوسي، ص ٢٢٧.

(٢) الاقتصاد، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، ص ٢٦٨.

سبحانه وكذا لا يكون مسلمًا حتىٰ يقرَّ بالتوحيد، ويعمل بالفرائض؛ لأن الإسلام لا يتم إلا بقول وعمل[١].

ويستطرد قوله: بأن الشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن ما جاء به حق من ربه. وأما العمل فالإتيان بجميع الفرائض، وهذه الأمور (العملية) تكون بين المرء وبين الخلائق[٢].

ونجد (نور الدين السالمي) يقول: إيماننا التصديق ... إلخ. اعلم أن للإيمان والإسلام استعمالين: أحدهما لغوي والآخر شرعي، وكل منهما حقيقة في موضعه، أما الإيمان اللغوي فهو التصديق بالقلب[٣].

وبذلك نجد أن علماء الإباضية رأوا أن الشرع جاء باستعمال الإيمان والإسلام علىٰ سبيل الترادف، ويستدلون علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ **[الذاريات: ٣٥-٣٦]**.

وبذلك فإن الإسلام والإيمان عندهم بمعناه الشرعي يأتيان علىٰ سبيل الترادف، والإيمان له عندهم مقامات ثلاثة: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، وبذلك هم يتفقون مع الإمامية والمعتزلة والزيدية، وبذلك إذا أخلَّ العبد بأي مقام من هذه المقامات لا يجوز إطلاق وصف مسلم أو مؤمن عليه، وهذا الرأي مجمَع عليه من سائر علماء الإباضية.

ويقول صاحب المشارق السالمي: (من ضيَّع واحدًا من هذه الثلاثة: التصديق، القول، والعمل، بعد لزومه عليه فهو هالك استوجب بتضييعه ما

---

(١) معالم الدين: ٢/ ٨٤-٨٥.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٨٨.

(٣) المسمَّىٰ مشارق الأنوار، ص ٤٢٦.

افترضه الله عليه هلاك المعاند؛ لأنه حينئذ يكون كافرًا إما كفر شرك أو كفر نعمة)[١].

ومن زاوية ثانية، فإن بعض رؤساء الإباضية يرون أن الإسلام والإيمان جاءا في الشرع علىٰ جهة الاختلاف، واستدلوا علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا﴾ **[الحجرات: ١٤]**.

فالمقصود بالإيمان في هذه الآية: (تصديق القلب فقط، وبالإسلام: الاستسلام ظاهرًا باللسان والجوارح)[٢].

ونجد أن (الجيطالي) أحد كبار علماء الإباضية: يوضح ماذا يفهمون من معنىٰ الترادف بين الإسلام والإيمان فيقول: (فإن قال قائل: قد نص رسول الله ﷺ في حديث جبريل «علىٰ تعريف الإسلام والإيمان والإحسان» أن الإيمان وهو ما يتعلق بالقلب في الاعتقادات، وأن الإسلام هو ما يتعلق بالجوارح من العبادات ولم يذكر الدِّين، وأنت تستوجب أن الإيمان هو الإسلام، وأن الإسلام هو الإيمان، وهما الدين، فاعلم أن الإيمان أصله التصديق، وأن الإسلام أصله الاستسلام والخضوع، وأن الإسلام كله من قبل التصديق إيمان، وأن الإيمان من قبل الاستسلام والخضوع إسلام، والدين من قبل الإيمان تصديق، والإيمان من قبل الدين طاعة، وأن الإسلام من قبل الدين طاعة، والدين من قبل الاستسلام إسلام، وكل خصلة من الإيمان فهي إسلام ودين، وكل خصلة من الإسلام فهي إيمان ودين، وكل خصلة من الدين إيمان وإسلام وإلىٰ هذا ذهب أصحابنا رحمهم الله)[٣].

---

(١) مشارق أنوار العقول، ص ٣٣٣.

(٢) قناطر الخيرات: ١/ ٢٦٣.

(٣) قناطر الخيرات: ١/ ٢٦٣.

فهنا في رأي الإباضية ما أوضح لنا المعنىٰ بأسلوب واضح وسلس.

قول الصوفية والأشعرية:

وفيه يعرض الإمام (الباقلاني) معنىٰ الإيمان عند الأشاعرة فيقول: فإن قال قائل: خبِّرونا ما الإيمان عندكم؟ قلنا: الإيمان هو التصديق بالله تعالىٰ، وهو العلم والتصديق يوجد بالقلب، ودليلهم عليه إجماع أهل اللغة قاطبة علىٰ أن الإيمان في اللغة قبل نزول القرآن وبعثة النبي محمد ﷺ، هو التصديق، لا يعرفون في لغتهم إيمانًا غير ذلك.

فمذهب الأشاعرة: هو أن الإيمان تصديق بالقلب دون الأعمال، ويوضح هذا المذهب الجويني بقوله: (والمرضيُّ عندنا أن حقيقة الإيمان التصديق بالله تعالىٰ فالمؤمن بالله مَنْ صدَّقه، ثم التصديق علىٰ التحقيق كلام النفس، ولكن لا يثبت إلا مع العلم، فإنَّا أوضحنا أن كلام النفس يثبت علىٰ حسب الاعتقاد. والدليل علىٰ أن الإيمان هو التصديق، صريح اللغة وأصل العربية. وهذا لا ينكر فيحتاج إلىٰ إثباته.[(١)] وفي التنزيل قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

ولقد تعرض تعريف الإيمان لدىٰ الأشاعرة والصوفية إلىٰ نقد شديد من شتىٰ الطوائف.

فهذا القاضي **(عبد الجبار)** اعتنىٰ بنقد شديد لما ذهبت إليه الأشاعرة، واعتبر بأن قولهم بأن الإيمان هو مجرد التصديق بالقلب قول فاسد الاعتقاد.

(١) الإرشاد، ص٣٣٩؛ والفصل لابن حزم: ٣/ ١٣٧.

ونجد أيضًا أن شيخ السلفية ابن تيمية يتفق مع القاضي المعتزلي (عبد الجبار) في نقد مذهب الأشاعرة بلا دليل، حيث يقول: ثمة نزاع في أن الإيمان في اللغة مرادف للتصديق، رغم أن أحمد بن حنبل كان يفسر قول موسىٰ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] بأنه أول المصدقين.

وأما قول السَّحَرة ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١] يعني أول المصدقين بموسىٰ من أهل مصر من القبط[(١)].

فابن تيمية انتقد القول بأن الإيمان مرادف في اللغة للتصديق، أو أنه بمعنىٰ الإقرار؛ أي قال: ليست هذه المسألة من المسلَّمات عند أهل اللغة، ولم تكن موضع إجماع عندهم، وإن قدِّر أن قال واحد أو اثنان: إن الإيمان في اللغة هو التصديق فليس هذا إجماعًا.

ونجد (عبد القاهر البغدادي) وهو أشعري، صرَّح بأن أصل الإيمان في اللغة التصديق، وأن المؤمن بالله هو المصدِّق لله، إلا أنه لم يقتصر علىٰ هذا المعنىٰ وحده، بل ذهب إلىٰ لفظ المؤمن في اللغة يكون مأخوذًا من الإيمان فيقال: الله مؤمن أولياءَه من العذاب[(٢)]. ونجد ابن حزم الظاهري نقد معنىٰ الإيمان عند الأشاعرة.

قال بعض الصوفية: الإسلام ظاهر والإيمان باطن، وقال بعضهم: الإيمان تحقيق واعتقاد، والإسلام خضوع وانقياد ... وقالوا: الإيمان عقد القلب بحفظ السرّ ومعرفة البرّ، والإسلام مشاهدة قيام الحق بكل ما أنت به مطالب[(٣)]. واصطلاح الصوفية ليس في كل شيْء كاصطلاح غيرهم.

(١) الرد علىٰ الزنادقة والجهمية- عقائد السلف، ص٦٠٠.
(٢) أصول الدين للبغدادي، ص ٢٤٧-٢٤٨.
(٣) التصوف للكلاباذي: ٨٣-٨٤.

ونجد أن الأمام أبو حامد الغزالي له قول يختلف عن بعض علماء الأشاعرة وهو من أشهر علمائهم:

قول الغزالي من الأشاعرة: فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلا فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزمًا من غير اختلاج ريب واضطراب نفس وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان إذ اكتفىٰ رسول الله ﷺ من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل. ومشهور في كتب السير والحديث كالذي عند مسلم وهو قصة ضمام بن ثعلبة فإذا فعل ذلك فقد أدىٰ واجب الوقت وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعا لله ﷻ[(١)].

قول الماتريدي: يذكر الماتريدي في مسألة هل الإيمان هو الإسلام أم غيره؟ أن الناس قد اختلفوا بصدد الإجابة عن هذا السؤال. فأما مَنْ فرَّق بينهما فكان ذلك استدلالًا بتفريق القرآن: قال تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [**الحجرات**: ١٤].

فأذن الله لهم بالخبر عن الإسلام، ولم يأذن لهم بالإخبار عن الإيمان، وكذلك روي في حديث جابر وسؤاله عن الإسلام والإيمان واستدل أيضًا مَن فرَّق بين الإسلام والإيمان، بأن الكَفَرة أبت أنفسهم التسمي بالإسلام، وليس أحد منهم يأبىٰ التسمي بالإيمان. ثم إن الماتريدي يعترف لما بين الإسلام

(١) أحياء علوم الدين ١/ ٢٥، وكذلك ١/ ٦٢.

والإيمان من اختلاف، ولكنه اختلاف ظاهري لفظي فقط بقوله: (وأما القول عندنا في الإيمان والإسلام أنه واحد في أمر الدين في التحقيق بالمراد، وإن كانا قد يختلفان في المعنىٰ باللسان) ويضيف قائلًا: هما واحد في التحصيل، وإن كانت العبارة من الاسم في الإطلاق ربما تختلف، كإنسان وابن آدم، ورجل، وفلان.

ويدل علىٰ ذلك أيضًا قوله: (من البعيد عن العقول أن يأتي المرء بجميع شرائط الإيمان ثم لا يكون مسلمًا، أو يأتي بجميع شرائط الإسلام، ثم لا يكون مؤمنًا، لهذا ثبت في الحقيقة واحدًا)[١].

ويدعم الماتريدي موقفه بقوله: (ثم اتفاق أهل المذاهب في الإسلام أن ما يخرج من الإيمان يخرج من الإسلام، وكذلك الذي يخرج من الإسلام يخرج من الإيمان، ثم ما لا تنازع «فيه» في الآخرة في جميع الفرق أن الدار التي لأهل الإسلام هي لأهل الإيمان، وأن التي هي لهؤلاء هي لهؤلاء)[٢] أي والمؤمنون هم المسلمون.

أقول: ومَن ذهب أيضًا إلىٰ أن الإيمان والإسلام شيء واحد، وأنهما اسمان لمسمىٰ واحد، فضلًا عن الماتريدية وبعض رجال المعتزلة كالقاضي عبد الجبار، والصوفية مثل: الكلاباذي، والإباضية وأكثر أصحاب مالك وطائفة من السلفية كأبن تيمية.

قال أبو عبد الله محمد بن نصر المِرْوَزِي: إن مذهب «الجمهور الأعظم من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث، الإيمان الذي دعا الله العباد إليه،

---

(١) التوحيد، ص ٣٩٢-٣٩٨.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وافترضه عليهم هو الإسلام، الذي جعله الله دينًا وارتضاه لعباده ودعاهم إليه . . . فمدح الله الإسلام بمثل ما مدح به الإيمان، وجعله اسم ثناء وتزكية» ويدلل محمد بن نصر المِرْوَزِي علىٰ صحة ذلك ببعض الآيات مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال أيضًا: قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [البقرة: ١٣٧]. فحكم الله بأن مَن أسلم فقد اهتدىٰ، ومَن آمن فقد اهتدىٰ، فسوَّىٰ بينهما.

قول الإسماعيلية:

ويعتقد الإسماعيلية أن: «الإيمان قول وعمل ونية؛ لأن فيه تحصل النجاة، ومتابعة الرسول ﷺ علىٰ الحقيقة، وأنه مقسم علىٰ جوارح بني آدم حتىٰ تصير حركاته كلها طاعات وعبادات، وقالوا: لا يسوغ القول بدون عمل، ولا العمل بدون القول، وأنه لا يتم أحدهما إلا بقرينة، فقرين النية القول وقرين القول العمل، وفيه بيان المنافق من المطيع؛ قالوا: لأن القول مكان النفاق، فإذا أصحبه بالعمل كان الأمر موقوفًا فإذا داوم العامل علىٰ عمله، وحافظ عليه مع الاجتناب لدواعي النفس في المحرمات المنهيِّ عنها في الشريعة، وحمّل النفس المشقة من غير رياء، ولا طلب تفاخر، عُلم منه عند ذلك أن قد قرن القول بالعمل، وشفَعَهما بالنية الخالصة، فعند ذلك يُوسَم بالإسلام والإيمان، لما تظاهر بهذه الصفات؛ وقالوا: لأنه اسم من الأسماء فلا يستحق هذا الاسم علىٰ الحقيقة إلا مَنْ أمن الناس من غوائله ومكره وجَوْره، وسوء نيته، وأصبحت أخلاقه تابعة لاعتقاده، فعند ذلك يؤمَن علىٰ المال والدم والنسب، ويصلح له أن يقدَّم ويوسم بالاسم، ويستفاد منه أسباب الشرع واليقين بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والجزاء والثواب، والعقاب في الحشر،

والنشر، والوعد والوعيد، وأحوال الآخرة المستفادة من الرسل علىٰ الحقيقة، والخلوص من غير شك في شيء منها ولا ريب»[١].

ويعتقد الإسماعيلية أن الإسلام: «قولٌ باللسان، ونطقٌ به، وتعبير عن الانقياد والطاعة للأمر، والشهادة للأمور بها، وأن الله تعالىٰ واحد لا شريك له ولا قرين، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ الذي اصطفاه، وكرَّمه وبعثه، والتسليم لأمره والكون معه وترك مخالفته، ولزوم طاعته، والعمل بما يأمر به ساء ذلك أم سرًا، وقالوا: قد بيَّن الله تعالىٰ ذلك، وأعلمنا أن القائل بلسانه الناطق بالوحدانية والشهادة مسلم لا مؤمن، قوله تعالىٰ: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [**الحجرات: ١٤**]، وبذلك نستنتج أن الإسماعيلية لا يختلفون عن الفرق الإسلامية الأخرىٰ في تعريف الإسلام، بل هم قائلون إن الإسلام محمول علىٰ القول والنطق بالشهادة وترك العصبية وهو الباب المدخول منه إلىٰ تطلب حقائق ما جاء به في شريعة الخالق من الظاهر الأنيق، والباطن العميق، والتطلع لجنايات الناموس، وما رمز فيه، إذا قاد الطالب بإخلاص نال السعادة»[٢].

ويؤكد صاحب (دعائم الإسلام) بأن المرويات الموجودة لدىٰ الإسماعيلية عن الإمام جعفر الصادق، هي قولهم: الإيمان قول باللسان، وتصديق بالجَنَان، وعمل بالأركان، وهذا الذي لا يصح غيره[٣].

(١) تاج العقائد: ١٣٢-١٣٣/ فقرة ٧٣.

(٢) تاج العقائد: ١٣٢.

(٣) دعائم الإسلام: ١/ ٣.

قول الإسماعيلية في الفرق بين الإيمان والإسلام:

تقول الإسماعيلية: الإسلام في اللغة علىٰ معنيين: أحدهما الانقياد بالطاعة، والاستسلام، والمسلم في الوجه الآخر من الإسلام وهو الانقطاع، يقال: أسلمه إذا قطعه، ويقولون: الإيمان معناه: التصديق وأصله الأمان. ويقولون: الإيمان يشرك الإسلام، والإسلام لا يشرك الإيمان، بل الإسلام هو الظاهر، والإيمان هو الباطن الخالص في القلب[١].

قول العلوية:

ونجد أن العلويين لا يختلفون عن حقيقة الإسلام والإيمان، بل إنهم قد اتفقوا مع جميع الآراء حول المعنيين، ولم تكن لهم فلسفة في ذلك الأمر، بل اقتصروا علىٰ تعريف ذلك بأسلوب سلس، يخاطب النفس البشرية علىٰ اختلاف العقول. فهم يقولون تحت عنوان: (الدين والإسلام والإيمان): نعتقد أن الدين هو الإقرار بإله موجود للكائنات، والقيام بعبادته تعالىٰ، وامتثال أوامره، والانتهاء عن مناهيه، وآخر الأديان الإلهية وأكملها هو دين الإسلام.

والإسلام: هو الإقرار بالشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله).

والإيمان: هو الاعتقاد الصادق بوجود الخالق سبحانه، والإقرار بمعنىٰ الشهادتين، والتزام العمل بأحكام الدين الإسلامي[٢].

---

(١) دعائم الإسلام: ١/ ١٢.

(٢) عقيدتنا وواقعنا نحن الجعفريون (العلويون)، ص ٢٣.

اعتقاد الدروز في مسألة الإيمان والإسلام:

ترىٰ الدروز في العقيدة عندهم مبدأ أساسيًّا في الكلام علىٰ الإيمان، فهم نطقوا ببعض الألفاظ التي تدلّ علىٰ التوحيد للمولىٰ في والرضا بفعله كيفما كان، والتسليم لأمره في السرّ والحَدَثان، وأنه يجب أن يعلم كل واحد أن المولىٰ يراه لكن هذا من حيث الظاهر، أما من حيث الباطن فهم ليسوا مسلمين ولا مؤمنين، فهم يُسقطون الفرائض الدينية التكليفية، ويقولون بعدم إقامة الفرائض الدينية الإسلامية، فعندهم الأمر كله موقوف علىٰ الاعتراف بما يسمُّونه الخصال التوحيدية، فمن اعترف بها فهو عندهم من الموحدين.

اعتقادهم: ويقول الدروز الموحدون: ويعتقد الموحدون الدروز إن الله واحد أحد لا إله إلا هو ولا معبود سواه الواحد الأحد الفرد الصمد المنزه عن الأزواج والعدد وهو الحاكم الفعلي والأزلي للكون وممثوله في القرآن قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، و(أحكم الحاكمين) فهو الحاكم الأحد المنزه عن عباده ومخلوقاته فالله تعالىٰ عن وصف الواصفين وإدراك العالمين وهو في مواضع كثيرة من رسائل الحكمة: حاكم الحكام المنزه عن الخواطر والأوهام جل وعلا فلا مجال لتشبيه لاهوته أو حلوله في أحد من البشر.

قول الظاهرية:

لقد بيّن ابن حزم مذهبه بقوله: (الإسلام) يطلق ويُراد به معنيان: أحدهما بمعنىٰ الإيمان؛ أي: إن الإسلام والإيمان لفظان بمعنىٰ واحد، أو اسمان لمسمىٰ واحد. والمعنىٰ الآخر للفظ (الإسلام) فيطلق ويُراد به شيءٌ آخر غير (الإيمان).

ويقول ابن حزم: إن الإيمان أصله في اللغة التصديق، وأوقعته الشريعة علىٰ الأعمال المأمور بها وعلىٰ اجتناب المعاصي المنهي عنها، والإسلام أصله في اللغة: التبرُّؤ، فقيل للمسلم: مسلم؛ لأنه تبرَّأ من كل شيء إلا الله. وهذا عند ابن حزم معنىٰ التصديق بعينه وأنه لا فرق بينهما. وقال: ثم أوقعت الشريعة أيضًا اسم الإسلام علىٰ الأعمال المأمور بها، وعلىٰ اجتناب المعاصي المنهيِّ عنها، فالإسلام أيضًا إذا أُريد به هذا المعنىٰ هو الإيمان الواقع علىٰ الطاعات بعينه لا فرق بينهما. والإسلام أيضًا يكون بمعنىٰ الاستسلام؛ أي من: استسلم للديانة فدخل في الإسلام خوفَ القتل، وإن كان غير معتقد له، فالإسلام إذا أُريد به هذا المعنىٰ فهو غير الإيمان، وهو الذي أراده الله تعالىٰ بقوله: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [**الحجرات**: ١٤] وبيَّن ما قلناه قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [**آل عمران**: ٨٥] وقول الرسول ﷺ: «**لن يدخل الجنةَ إلا نفسٌ مؤمنةٌ**». فلو كان هؤلاء المستسلمون مسلمين الإسلام الذي لا يُدخِل الجنة إلا مَنْ كان عليه لكانوا من أهل الجنة، ولا خلاف أنهم من أهل النار، فصحَّ بهذا أن هذا الإسلام غير الإسلام الذي يستحق به الجنة.

وينتقد ابن حزم الأشاعرة والجهمية والكرَّامية[١] ولم يوافق (الباقلانيَّ) في «أن الإيمان أصله في اللغة التصديق»، ولكن قال: معناه في الشرع أوسع من هذا المعنىٰ اللغوي فقد أوقعته الشريعة علىٰ الأعمال المأمور بها وعلىٰ اجتناب المعاصي المنهيِّ عنها[٢]؛ أي: أن الإيمان عنده عندما صار مصطلحًا شرعيًا

---

(١) الفصل: ٣/ ١٨٩ وما بعدها.

(٢) الأصول والفروع: ١/ ١٣٢.

أصبح له معنًىٰ يزيد علىٰ معناه اللغوي علىٰ ما يقول. ويؤول ابن حزم الظاهري الآية القرآنية: قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] بأنّ الله تعالىٰ في هذا القول الكريم يريد عملًا[١].

ويبطل ابن حزم مذهب المرجئة والأشاعرة وغيرهم ممن قالوا: إن الإيمان هو الإقرار باللسان والمعرفة بالقلب دون الأعمال، ذلك أن الله أخبر عن كفار قريش، أنهم لو سُئلوا عمَّن خلقهنَّ ليقولنَّ: الله[٢]. لقد كانوا عارفين بذلك بقلوبهم فلما سجدوا للأوثان وهم مع ذلك يعلمون أنها مخلوقة كانوا بذلك مشركين[٣].

قول أهل البيت عليهم السلام:

قال آباؤنا وأجدادنا أهل البيت عليهم السلام، فيما رُوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، حينما سُئل عن الإسلام والإيمان، فقال عليه السلام: الإسلام الإقرار، والإيمان الإقرار والمعرفة، فمن عرَف الله نفسه ونبيه، ثم أقرَّ بذلك فهو مؤمن، قيل له: فالمعرفة من الله الإقرار من العبد؟ قال: المعرفة من الله حجة، ومِنَّة، ونعمة، الإقرار مِنَّة يمُنُّ الله بها علىٰ مَنْ يشاء، والمعرفة صنع الله في القلب، والإقرار فعل القلب بمَنٍّ من الله وعصمة ورحمة، فمَنْ لم يجعله الله عارفًا فلا حجة عليه، وعليه أن يقف ويكفَّ عما لا يعلم، ولا يعذبه الله علىٰ جهله، ويُثيبه علىٰ عمله بالطاعة، ويعذبه علىٰ عمله بالمعصية، ولا يكون شيء من ذلك إلا بقضاء الله وقدره، وبعلمه وبكتابه، بغير جبر؛ لأنهم لو كانوا

(١) المصدر السابق: ١/ ١٣٤.

(٢) راجع سورة العنكبوت آية ٦١.

(٣) الأصول والفروع: ١/١٢٨-١٤٠.

مجبورين لكانوا معذورين وغير محمودين، ومن جهل فعليه أن يردَّ إلينا ما أشكل عليه، قال ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

قال أمير المؤمنين وكبير أهل البيت عليه السلام: إن الإيمان ذروة الإسلام.

وفي الحديث عن علي قال: سألت النبي ﷺ عن الإيمان ما هو؟ قال: «معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»[١]، وعن ابن مردويه وقيل: في سنده ضعف، وقد رواه الطبراني مرفوعًا، إلا أن الرواية لا خلاف في صحتها عن علي بن أبي طالب قال: قال ﷺ: «**الإيمان إقرار باللسان، وعقد بالقلب، وعمل بالجوارح والأركان، وهو يزيد وينقص**»[٢].

ويروي ابن تيمية رأي أهل البيت في الإيمان برواية أبي جعفر الإمام محمد بن علي بن الحسين، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا وهب بن جرير، حدثني أبي، عن فضيل بن يسار، عن أبي جعفر محمد بن علي أنه سُئل عن قول النبي ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»؟ فقال أبو جعفر: هذا الإسلام، ودَّر دارةً واسعة، وهذا الإيمان، ودَّر دارةً صغيرة في وسط الكبيرة، فإذا زنىٰ أو سرق خرج من الإيمان إلىٰ الإسلام، ولا يُخرجه من الإسلام إلا الكفر بالله[٣].

ويروي ابن حزم ذلك بقوله: إن محمد بن علي المعروف بـ(الإمام الباقر)، سُئل عن قول النبي ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق**

(١) كنز العمال: ١/ ٢٧٣ حديث رقم (٣٦١) الباب الأول من كتاب الإيمان الإسلام.
(٢) كنز العمال: ١/ ٣٧٤ حديث رقم (١٣٦٢) الباب الأول من كتاب الإيمان الإسلام.
(٣) الإيمان لابن تيمية، ص ٢٥٠.

السارق وهو مؤمن» فأدار (الباقر) دائرة واحدة في الأرض، ثم أدار في وسطها أخرىٰ دونها أصغر منها، وقال: الدائرة الأولىٰ هي الإسلام، والدائرة التي في وسطها هي الإيمان، فإذا خرج من الإيمان وقع في الإسلام، ولا يُخرجه من الإسلام إلا الشرك وحده[1].

ونجد أن هذه الرواية قد رُويت عن طريق الإمام الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه في بعض الكتب، وهي بلاغة في المعاني من أهل البيت عليهم السلام، وتصوير ظاهر للمؤمن عن حقيقة الإيمان والإسلام، وهي تؤكد قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الأحاديث السابقة التي أوردتها، وظلّ مفهوم التعريف بالإيمان لدىٰ أهل البيت واضحًا لا اختلاف فيه.

فقد روىٰ ابن ماجه في سننه عن الإمام علي بن موسىٰ الرضا روايات عن أبيه وجده يتصل سندها بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2]. حدثنا سهل بن أبي سهل[3] ومحمد بن إسماعيل[4]، قال: حدثنا

(١) الإيمان، ص٢٧٤.

(٢) سنن ابن ماجه باب الإيمان حديث رقم ٦٥.

(٣) سهل بن أبي سهل: هو سهل بن زنجلة بن أبي الصفدي الرازي، أبو عمرو الخياط، الأمير الحافظ. قال

أبو حاتم: صدوق ثقة. وذكره ابن ماجه في الثقات. وقال النسائي: ثقة. وقال صاحب التهذيب ابن حجر:

صدوق من العاشرة. وقال الذهبي في الكشف: ثقة.

(٤) محمد بن إسماعيل: هو محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمسي، أبو جعفر السراج. قال أبو حاتم: صدوق

ثقة. وقال النسائي: ثقة. وذكره ابن حبان في الثقات. وقال ابن حجر: ثقة من العاشرة. وقال الذهبي في الكاشف: ثقة.

عبد السلام بن صالح بن أبي الصَّلْت الهروي، ثنا علي بن موسىٰ الرضا، عن أبيه، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي ابن أبي طالب عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان**» قال أبو الصَّلْت: لو قُرِئ هذا الإسناد علىٰ مجنون لَبَرأَ. والقول لأهل البيت بمعنىٰ الإيمان معرفة بالقلب؛ أي: التصديق به، وقوله: باللسان؛ هو الشهادتان، وعمل بالأركان؛ أي: الجوارح كالصلاة والصوم والزكاة والحج، وفيه: الإيمان الكامل لا يوجد بلا إسلام.

وقوله: برأ من جنونه؛ لما في الإسناد من خير العباد، وهم خلاصة أهل بيت النبوة عليهم السلام، وهو من: برأ المريض من الداء، لا من برئت من الأمر بكسر الراء، أي تبرأت. وهو من إضافة أبي الصلت.

أقول: وقد تكلم في الحديث جمعٌ من أهل الحديث، وعدَّه ابن الجوزي في الموضوعات، وهذا ليس حقًا. وفي الزوائد: إسناد هذا الحديث ضعيف؛ لاتفاقهم علىٰ ضعف أبي الصَّلْت الراوي، وأخرجه أبو نعيم بسند مختلف عن ابن ماجه، ثم قال: وقال أبو علي: قال لي أحمد بن حنبل: إن قرأت هذا الإسناد علىٰ مجنون بَرأَ من جنونه، وأعيب هذا الحديث إلا جودة إسناده[١].

فهو عندي حديث صحيح بإذن الله[٢].

---

(١) أخبار أصفهان: ١/ ١٣٨.

(٢) هذا البحث منتخب من كتابي (صحيح أهل البيت) ولنا في ذلك تحقيق مفصل حول صحة الحديث والسند.

ونجد أن مسألة الإيمان والإسلام كانت قضية فلسفية عند كثير من أهل المذاهب والفرق:

«فمَنْ قال: إن الإيمان والإسلام شيئان متغايران، وإن مسمىٰ أحدهما ليس مسمىٰ الآخر» ولكن انقسم أصحاب هذا الرأي إلىٰ قسمين:

أحدهما: ذهب إلىٰ أن الإسلام والإيمان متغايران، ولكنهما متلازمان، وذهب هذا المذهب بعض علماء السلف، وهذا لا يختلف عن أهل البيت والاثني عشرية، والإسماعيلية، والإباضية، وقد قال بعض صوفية أهل السنة من الأشاعرة ممن فرقوا بين الإسلام والإيمان: الإسلام ظاهر والإيمان باطن.

وقال بعضهم: الإيمان تحقيق السرّ ومعرفة البرّ، والإسلام مشاهدة قيام الحق بكل ما أنت به مطالب[1].

وقال جمهور أهل السنة:

إن الإيمان أعلىٰ منزلة من الإسلام، وأفضل مكانة، وإن هذا مستفاد من إجابة الرسول ﷺ علىٰ أسئلة جبريل، إذ جعل الناس في الدين ثلاث طبقات متفاوتة في الفضل، وهي علىٰ الترتيب: الإسلام، والإيمان، والإحسان. أول المراتب مرتبة الإسلام، تليها مرتبة الإيمان، فمَنْ وصل إليها يكون قد حصل علىٰ مرتبة الإسلام، ثم تجاوزها، وأما مَنْ وصل إلىٰ أعلىٰ المراتب وهي مرتبة الإحسان، فهو حاصل علىٰ المرتبتين السابقتين، أو أنها مرتبة عليا تتضمن المرتبتين الآخرتين.

---

(١) التصوف للكلاباذي، ص ٨٣-٨٤.

ويقول الأشاعرة فيما ذكر الباقلاني: «وكل إيمان إسلام، وليس كل إسلام إيمانًا»(١).

ولابن تيمية من السلفية قول حول ذلك: «كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا»(٢).

وقد استدل ابن تيمية في مذهبه بما أجاب به الرسول ﷺ لما سُئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: (الإسلام). فقيل: أي الإسلام أفضل؟ فقال: (الإيمان). رواه الطبراني، وأحمد(٣).



(١) التمهيد، ص ٣٩٢.

(٢) الإيمان لابن تيمية، ص٣١٠-٣١٢-٣١٣؛ شرح صحيح مسلم للنووي ١/ ١٢٤.

(٣) هذا قطعة من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه أخرجه أحمد في المسند: ٤/ ١١٤، وعزاه الهيثمي إلىٰ الطبراني في الكبير مجمع الزوائد: ١/ ٥٩، ورجال الحديث ثقات، إلا أن أبا قلابة لم يسمع من عمرو. انظر: تهذيب الكمال: ٢/ ١٠٤١؛ وأخرجه اللالكائي: ٥/ ٩٣١، من رواية أبي قلابة عن رجل من أسلم عن أبيه وفيه رجل مجهول.

۞ الإيمان والإسلام والدين ۞

يفرِّق المعتزلة والزيدية بين مصطلحات الإيمان والإسلام والدين، فالإيمان في اللغة هو التصديق، والإسلام هو الاستسلام، والدين يكون بمعنىٰ العادة، والجزاء، والطاعة، ويستدلُّون علىٰ اتحادها في المعنىٰ ببعض الآيات القرآنية، وأما ورد من الأحاديث النبوية، ومن الآيات التي استدلوا بها في معنىٰ الدين والإسلام: قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومعلوم -كما يقولون- أنه لو اتخذ الإيمان دينًا لقُبِل منه. وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦] فلو لم يكن أحدهما هو الآخر لكان لا يصح الاستثناء علىٰ هذا الوجه.

ومن الأحاديث التي رويت عن النبي ﷺ قوله: «**بُنيَ الإسلام علىٰ خمس: شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**». وقوله أيضًا: «**الإيمان بضع وسبعون بابًا، أعلاه شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأدناه إماطة الأذىٰ عن الطريق**»(١).

(١) شرح الأصول الخمسة، ص ٧٦. والحديث أخرجه أحمد في مسنده: ٢/ ٤١٤ حديث رقم (٩٣٥٠)؛ وأبو داود في سننه: ٤/ ٢١٩ حديث رقم (٤٦٧٦)؛ وأخرجه الترمذي: ٥/ ١٠ حديث رقم (٢٦١٤) وقال: حسن صحيح.

الإيمان والفسق والكفر:

اختلف الناس في الإيمان[1]، يخالف الإمامية في الإسلام والإيمان، بأنهما معنىٰ واحد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

فقد قالوا: إن الله تعالىٰ قد فصل بين الإيمان والإسلام، فلو كانا بمعنىٰ واحد، لم يكن للفصل بينهما وجهٌ. وهذا أيضًا رأي الأشعرية.

ويرىٰ الإمامية إلىٰ أن الإيمان هو المعرفة، وهو مذهب جهم بن صفوان ويميل إليه أبو الحسن الأشعري.

وذهب الأشاعرة: إلىٰ أنه عبارة عن التصديق.

وذهب الماتريدية: إلىٰ أن الإيمان والإسلام واحد في أمر الدين في التحقيق بالمراد، وإن كانا قد يختلفان في المعنىٰ باللسان.

وذهب الجبَّائيان وأتباعهما إلىٰ أنه عبارة عن فعل الواجبات، والاجتناب عن المحرمات.

وذهب القاضي عبدالجبار المعتزلي، وأبو الهُذيل العلَّاف: إلىٰ أنه اسم لجميع الطاعات.

وذهب جماعة السلف: إلىٰ أنه عبارة عن اعتقاد بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان. **ويتفق معهم من الإمامية الشيخ المفيد.**

---

(١) للتوسع في اختلاف الآراء حول حقيقة الإيمان، انظر: المواقف للعضد الإيجي، ص٣٨٤؛ والتفتازاني، شرح المقاصد: ٥/١٧٦؛ والفاضل المقداد، اللوامع الإلهية، ص٣٩٢.

وقال بعضهم: إنه عبارة عن الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، أو حكمه كما في حق الساكت، والنائم، والمكرَه.

ونجد أن الإسماعيلية والعلوية قد وافقوا الرأي الأول، ثم إن الإباضية كان وافقوا الزيدية، والمعتزلة، مع اختلاف كلامي فيما بينهم لا يخرج عن المعنىٰ الحقيقي.

وممن ذهب إلىٰ أن الإيمان والإسلام شي واحد، وأنهما اسمان لمسمىٰ واحد فضلا عن الماتريدية بعض رجال المعتزلة كالقاضي عبدالجبار(١)، والصوفية كالكلاباذي(٢)، وبعض الإباضية، وأكثر أصحاب مالك، وطائفة الوهابية السلفية(٣).

قال أبو عبد الله محمد نصر المروزي: إن مذهب الجمهور الأعظم من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث: الإيمان الذي دعا الله العباد إليه، وافترضه عليهم، هو الإسلام الذي جعله دينا، وارتضاه لعباده، ودعاهم إليه .... فمدح الله الإسلام بمثل ما مدح به الإيمان، وجعله اسم ثناء وتزكية(٤).

قول أهل البيت: ونجد أن في قولهم خلاصة الأقوال، فلم يخرجوا عن المعنىٰ الحقيقي لمعنىٰ الإيمان، والإسلام، بأنه معرفة بالقلب: أي التصديق به، وقول باللسان، وهو الشهادتان، وعمل بالأركان أي الجوارح، كالصلاة والصوم، والزكاة، والحج. وفيه الإيمان الكامل لا يوجد بلا إسلام.

(١) شرح الأصول الخمسة ٧٠٦-٧٠٧.
(٢) التعرف لأهل التصوف ٨٣.
(٣) الإيمان لابن تيمية ٢٠٥-٣٦١.
(٤) الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية ١/ ٤٥٩.

۞ مرتكب الكبيرة ۞

اختلفت آراء علماء الفرق الإسلامية في تحديد معنىٰ الكبيرة والصغيرة من الذنوب، كما اختلفت بعض فرق المبتدعة أيضًا هذه الفرق بالحكم علىٰ مرتكب الكبيرة، فقالوا هل هو داخل في الملَّة الإسلامية أو هو خارج دائرة هذه الملَّة أو هو في منزلة بين حدود هذه الملَّة، وحدود الكفر، غير أن الفرق لم تختلف في كون مرتكب الكبيرة فاسقًا، لقوله تعالىٰ: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١].

والمؤمن الفاسق: هو مَنْ شهد ولم يعمل واعتقد «ويفسق المسلم المكلف المذنب، بإتيانه للمعصية الكبيرة، وأصل الفسق: الخروج عن الاستقامة، والجور، وبه يسمىٰ العاصي فاسقًا، وسمي الرجل الفاسق لخروجه عن أمر الله، والمذنب هو المقترف للذنب الآثم[(١)].

والفسق في اللغة: الخروج[(٢)]؛ يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرتها، وفسق عن أمر ربه؛ أي: خرج عنه، والفسيق: الدائم الفسق، والفسق في عرف اللغة: الخروج عن الحدِّ في عصيان أهل الشرك؛ أي: زائد علىٰ معاصيهم في الفحش، ولذلك قيل للزاني: فاسق لاستهجان فعله، وكذا قيل للمرأة التي تمارس الفجور: يا فِساق (بكسر الفاء) أي: فاسقة، ومنه قيل للفأر: فُويسقة؛ لأن ضررها زائد عن الحدَّ المعروف من سائر الضواري.

(١) لوامع الأنوار البهية: ١/ ٣٦٥.
(٢) غريب القرآن: ١/ ٢٩.

وحقيقة الفسق في اصطلاح الشرع: هي ارتكاب المكلف معصية كبيرة عمدًا، ولا يخرج المكلف من الدين الإسلامي، كالزنا، والقتل، وشرب الخمر، من غير استحلال لذلك الفعل، وقد دلَّ القرآن علىٰ أن إتيان تلك الأفعال من الكبائر، يُعدُّ فسقًا(١).

من قوله تعالىٰ في قذف المحصنات: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: ٤].

وقد وقع الخلاف في تحديد معنىٰ الكبيرة وهو يعود إلىٰ المعاني المشتركة، التي تجمعها هذه الكلمة، فمن نظر إليها علىٰ أنها مطلقة اعتبرها من باب الكفر، ومن ذلك أشار (التفتازاني) حيث يقول عن الكبيرة: «وقد اختلفت الراويات فيها، فروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنها تسعة: الشرك بالله، وقتل النفس بغير حق، وقذف المحصنة، والزنا، والفرار من الزحف، والسحر، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين، والإلحاد في الحرم. وزاد أبو هريرة: وأكل الربا.

وزاد الإمام علي عليه السلام: السرقة، وشرب الخمر. وقيل: كل ما كانت مفسدته مثل مفسدة شيء مما ذكر أو أكثر منه، وقيل: كل معصية أصرّ عليها العبد فهي كبيرة، وكل ما استغفر عنها فهي صغيرة.

وقال صاحب الكفاية: «الحق أنهما اسمان إضافيان لا يعرفان بذاتهما.

فكل معصية إذا أُضيفت إلىٰ ما فوقها فهي صغيرة، وإن أُضيفت إلىٰ ما دونها فهي كبيرة، والكبيرة المطلقة: هي الكفر؛ إذ لا ذنب أكبر منه. وبالجملة: المراد ها هنا، أن الكبيرة التي هي غير الكفر، لا تُخرج العبد المؤمن من الإيمان ببقاء التصديق الذي هو حقيقة الإيمان»(٢).

---

(١) اللغات: ٥/ ٣١١٤؛ العدة للشرفي، ص ٤٩٣؛ الصلة، ص ٢٨٦.

(٢) انظر شرح العقائد النسفية، ص ٧١.

مسألة: صاحب الكبيرة مؤمن لما بيَّنَّا من أن الإيمان هو التصديق القلبي بما علم بالضرورة مجيء الرسول به[(١)].

قال المعتزلة والزيدية: إن مرتكب الكبيرة فقَد الإيمان لكنه لم يكفر، إلا أنه لا كافر ولا مؤمن، بل هو منزلة بين المنزلتين[(٢)].

وذهب الحسن البصري: إلىٰ أنه منافق.

وقال الزيدية: إنه كافر نعمة.

قال الإباضية: إن مرتكب الكبيرة يقسمون إلىٰ قسمين: كفر الشرك، وكفر النعمة، وصاحب كفر الشرك مخلَّد في النار، أما كفر النعمة المتمثل عندهم في اقتراف الكبائر الذنوب والمعاصي، قسموه إلىٰ نوعين: الأول: صغائر الذنوب وهي التي لم يثبت علىٰ فاعلها حدٌّ في الدنيا، أو هي تلك الذنوب التي قلَّ فيها الإثم.

وقد اختلف إباضية المغرب عن إباضية المشرق في هذا الموضوع حيث قال المغاربة: إن الذنوب الصغيرة مجهولة، ولو وُجدت لكان وجودها إغراء بارتكابها، من حيث إنها معفوٌّ عنها، باجتناب الكبائر، بينما إباضية المشرق، قد ذهبوا إلىٰ القول بأن الصغائر من الذنوب موجودة في الخارج، ومعلومة

---

(١) مناهج اليقين للحلي، ص ٥٣٥.

(٢) وهذه المسألة مبدأ ظهور الاعتزال، حينما خالف واصل بن عطاء شيخه الحسن البصري، واعتزل عنه، وذلك عقيب البحث في أن مرتكب الكبيرة، من المسلمين هل يسمىٰ مؤمنًا أم كافرًا؟ فقام واصل واعتزل الحسن البصري، وقال: إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، بل له منزلة بين المنزلتين. الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ٢٨؛ الفرق بين الفرق، ص ١١٧ -١٢٠؛ التبصير في أصول الدين، ص٣٧.

للبشر، ومثَّلوا لها بالكذب الخفيف، واللعب غير المباح. وقالوا: حكم صغائر الذنوب مرتبط بالكبائر، بمعنىٰ غفران الصغائر عند اجتناب الكبائر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١].

أما إذا أصرَّ العبد علىٰ الصغائر، فهو عند الإباضية هالك، ويعبَّر عن الإصرار عندهم بعدة أشياء منها: الإقامة علىٰ الذنب، والاستمرار فيه، والإعراض عن التوبة، أو العزم علىٰ عدم التوبة، وحكم مرتكب الصغيرة في الدنيا عندهم، أنه موحِّد لا يُوصف بالفسق، ولا بالضلال، ومن ثم ولا بالكفر حتىٰ يُعلم منه الإصرار عليها، والعزم علىٰ عدم التوبة.

أما صاحب الكبيرة:

فلا خلاف بين الإباضية علىٰ أن صاحب الكبيرة كافر النعمة، إذا خرج من الدنيا غير مقلع عن الكبيرة، وتائبًا منها، فهو كافر مخلَّد في النار. والكبيرة التي اقترفها ولم يتُبْ منها، أو لم يُقم عليه حدُّها، قد أحبطت الطاعات التي قام بها[(١)]. وهم بذلك يتفقون مع المعتزلة، والزيدية، وقد استدلوا بأنه مخلَّد في النار مع سائر الكفار، بأن إبليس كفر وما ارتكب الكبيرة، حيث أُمر بالسجود لآدم عليه السلام فامتنع[(٢)].

قول المرجئة:

نجد أن المرجئة أتباع جهم بن صفوان، يرجئون أصحاب الكبائر، فإنهم يرون أن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، فإنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة[(٣)].

---

(١) في مذاهب الإسلاميين، ص ٣١٠.

(٢) العقيدة الواسطية، ص ١٧.

(٣) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين، ص ١٣١-١٣٥؛ في مذاهب الإسلاميين، ص٣١١.

قول أهل البيت:

بإجماع أهل السنة، والإمامية، والإسماعيلية، والعلوية، والصوفية، والأشاعرة، والماتريدية، وأهل الحديث: أن مَن اقترف كبيرة غير مستحلٍّ لها، ولا مستخفٍّ بمن نهىٰ عنها، بل لغلبة شهوته أو حميَّته، يرجو الله تعالىٰ أن يغفر له، أو يخاف أن يعذبه عليها، فهذا اسمه المؤمن، وبقي علىٰ ما كان عليه من الإيمان، ولم يزل عنه إيمانه ولم ينقص، ولا يخرج من الإيمان إلا من الباب الذي دخله، وحكمه أنه لو مات من غير توبة، فلله تعالىٰ فيه المشيئة إن شاء عفا عنه بفضله وكرمه، أو ببركة ما معه من الإيمان والحسنات، أو بالشفاعة، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه، ثم عاقبة أمره الجنة لا محالة، ولا يخلد في النار.

أما المراد من المعصية في الآية الكريمة: قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النساء: ١٤] فهو الشرك والمراد من القاتل في الآية الكريمة قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾ [النساء: ٩٣] هو المستحلُّ القتلَ، أما ما ورد في الحديث الشريف، فإن المنفي فيه الإيمان الكامل، أو أن المقصود أنه لا يُقدِم علىٰ الكبيرة، وهو مستحضر للإيمان، والخشية من الله تعالىٰ، وإلا لامتنع عنها.

وهذا مؤيَّد بقوله: «**مَنْ قال: لا إله إلا الله، دخل الجنة**» فقال أبو ذر: وإن

زنىٰ وإن سرق؟ قال عليه الصلاة والسلام: «**وإن زنىٰ وسرق**» فلما كرر أبو ذر سؤاله قال عليه الصلاة والسلام: «**وإن زنىٰ وسرق رغم أنف أبي ذرّ**»[(١)].

وقد أجمع الجمهور علىٰ أن المعاصي تنقسم إلىٰ قسمين: كبائر وصغائر، وهو الصحيح؛ قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

ولقوله ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَىٰ الجُمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغشَ الكَبَائِرُ**»[(٢)].

ونجد أن الإمامية قد ذهبوا أن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان بالمعصية، مهما كان نوعها؛ لأنه لا يعتبر في الإيمان أكثر من التصديق بالقلب، وهذا قول أكثرهم، إلا أن بعضهم أضاف إليه: الإقرار باللسان[(٣)]، فالعصاة إذا لم يبلغ بهم الحال إلىٰ الجحود والتشكيك واستحلال الذنب، لا يخرجون عن الإيمان، فهم يلتقون مع الأشاعرة، وأهل المذاهب الأخرىٰ، غير المعتزلة، والزيدية، والإباضية، والمرجئة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، الثياب البيض: ٧/ ٤٣، وأخرجه في مواطن أُخرىٰ كذلك؛ ومسلم في كتاب الإيمان، من مات لا يشرك بالله شيئًا: ١/ ٩٥ رقم (٩٤)؛ والتِّرمِذيُّ في كتاب الإيمان، ما جاء في افتراق الأمة: ٥/ ٢٧ رقم (٢٦٤٤)؛ وأحمد: ٥/ ١٥٢، ١٥٩، ١٦١، ١٦٦، والنَّسائيُّ في عمل اليوم والليله، ص ٥٩٨ - ٦٠٠ من رقم (١١١٦-١١٢٣)؛ وابن حِبَّان: ١/ ٣٩٢ رقم (١٦٩)؛ والبغوي في شرح السنه: ٥٤ رقم.

(٢) أخرجه: مسلم ١/ ١٤٤ كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (٢٣٣).

(٣) الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة،ص ٢٧٥.

وأما بالنسبة للفسق: فإنه يعني الخروج، فإن كل معصية كبيرة فيها خروج عن طاعة الله، يسمىٰ صاحبها فاسقًا، والكفر منه الخروج عن طاعة الله تعالىٰ فهو فسق مطلق، وعلىٰ هذا فالفسق لفظ مشترك بين المعاصي جميعها بما فيها الكفر، إلا أنه يتفاوت بتفاوت المعاصي[١].

ونجد أنه نقل عن الإسفراييني والسبكي من أهل السنة أنهما ذهبا إلىٰ أن كل الذنوب كلها كبائر، وليس هنالك صغائر، وهو قول غير صحيح، وذلك رعاية لعظمة الله وحرمة أمره، ونهيه. واختار العز بن عبد السلام: أن كل مفسدة ثابتة في كتاب الله والسُّنة، وما كان مفسدة مماثلة، وإن لم ينصَّ عليها فهي كبيرة[٢].

ويقول شمس الأئمة (الحلواني): إن الكبيرة ما كان من المعاصي شنيعًا بين المسلمين، وفيه هتْكُ حرمة الله، وهتْكُ الدين[٣].

وقال الإمام (الزيلعي) تعليقًا علىٰ هذا التعريف في حدِّ الكبيرة: «وهذا التعريف هو الأوجَه والأوفق».

أما الإمام الغزالي: فإنه لا يحدُّ الكبيرة أو الصغيرة، بل يعتبر أن الكبيرة والصغيرة، تُحدد باعتبار حال مرتكبها. ومهما كان الحال.

وإن أهل البيت والماتريدية، والإمامية، والزيدية، والإسماعيلية، والإباضية، والمعتزلة، والعلوية، والصوفية، والأشاعرة، وأهل الظاهر، والإجماع عليه بالاتفاق، أن مرتكب الكبيرة، مستحقٌّ للعقاب إذا لم يتُبْ من معصيته، إلا أن

(١) التمهيد للنسفي، ص٣٦٣.
(٢) الكبائر والصغائر لابن نجيم، ص٣.
(٣) المحيط البرهاني٩/ ١٦٨.

المعتزلة والزيدية، والإباضية، يرون أنه من المخلدين في جهنم، وغيرهم كأهل البيت وموافقيهم، يرون أن الخلود في جهنم لا يكون إلا للكافرين بالله.

أما الفاسق إذا خرج من دنياه من غير توبة، وقد خُتم له علىٰ الإيمان، فمن يمت بعد أن ارتكب ذنبًا من الكبائر غير المكفِّرة، بلا استحلال، والحال أنه لم يتب من ذنبه، فأمره مفوَّض وموكول إلىٰ ربه، فلا نقطع بالعفو عنه؛ لئلا تكون الذنوب في حكم المباحة، ولا بالعقوبة، وعلىٰ تقدير العذاب، فإنَّا نقطع له بعدم الخلود في النار . . . أما تعذيب بعض العصاة من هذه الأمة، فمَن ارتكب صغيرة أو كبيرة بتأويل، كما يقع من بعض البُغاة المتأولين، أو ارتكبها من غير تأويل، لكنه مات بعد التوبة، والمقصود بهم هنا: أمة التوبة. أما الزُّناة، وقَتَلة الأنفس، وشاربو الخمر، فلا بدّ من نفوذ الوعيد، في طائفة من كل صنف، أقلّها واحد، وهذا ما يذهب إليه الماتريدية وموافقوهم، من أنه لا يجوز تخلُّف الوعيد، إلا أن الأشاعرة وموافقيهم، ذهبوا إلىٰ جواز تخلُّفه؛ لأنه علىٰ تقدير المشيئة، فإن شاء عذب، وإن شاء غفر.

وخلاصة القول وعقيدتنا: مما استعرض باختصار في مسألة مرتكب الكبيرة وكبائر الذنوب، وصغائرها، والتخليد في النار، فإن الناس قسمان: مؤمن وكافر، والكافر مخلَّد إجماعًا في النار، والمؤمن قسمان: طائع وعاصٍ، فالطائع إجماعًا في الجنة، والعاصي قسمان: تائب وغير تائب. فالتائب إجماعًا في الجنة، وغير التائب من أهل الكبيرة متروك للمشيئة، وعلىٰ تقدير عذابه لا يخلد في النار.

قال تعالىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

فإن الله إن شاء عفا عنه، بفضله وكرمه، أو تجاوز عنه ببركة ما معه من الإيمان، أو ارتضىٰ بشفاعة الشافعين، أو يعذبه ثم يدخله الجنة، وهذا من العدل الإلهي، لا يضيع علىٰ الإنسان شيء من أعماله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

فالمؤمن في أعماله ما هو منها حسن؛ لأنه غير كافر، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾ [الزلزلة: ٧].



۞ التبيان في أحوال أهل الأديان ۞

ما أعظم الخالق في عدله فهو المقدر وان الخلق كلهم بأديانهم المختلفة ليعيشوا بالعدل والمساواة، وقد كثر الحديث في حال أهل الأديان، حول مخالفة أهل الكتاب للإسلام ولعمر الله أنه كثر القول في ذلك، وكتب فيه الجمع من الأمة من إعلامها الإعلام وهو حديث الخواص والعوام، وقد كنت ممن اشغل فكري بذلك ليس لأمر خاص إنما لان ثقتي برحمة الله واسعة المدىٰ ويقيني بأرحم الراحمين وأن الخالق لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ونظرتي إلىٰ تلك الحياة بين الأمم أن الإنسانية هي مقدمة الكون وان الكون خلق للبشر بقدرة الباري وإرادته وان الإنسان هو حراك هذه الأكوان من بين آنس وجان وعبادة الرحمن، كيف لا وقد شرعت الأديان السماوية للعدل والمساواة وحفظ الحقوق، ولعل امرًا العدل لهو يقين حتمي بأنه وهو ما يكون أصلًا في عبادة الأقوام فقد جبلت الحياة الإنسانية بذلك العمل، والحديث في ذلك فلسفي كبير ومهما تكلم المتفلسفة إلا أنهم يعجزوا عن العزوف في مسألة العدل الآلهي فهي أساس الحكم، لم يخلق الله تلك الاقوام عبث، ولم يبعث الأنبياء إلا لتبليغ الرسالة، ولم تنزل الاديان السماوية الا لغاية اكرام الاقوام بالجزاء والإحسان لمن أحسن عملًا، ولم يكن ذلك التشريع منذ إن خلق الله الناس علىٰ البسيطة في إحيائهم وسلوكهم حتىٰ مماتهم ومبعثهم، ومن هنا الكل يدرك بالعقل أن الباري سيجازي من اتبع عدله فالله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك، علمنا إن الحق أحق أن يتبع ورأيت في زماننا وعلمنا من الأقوام الذين من سبقونا من أهل الملل من هم كانوا للعدل أهلًا وللحق نصرًا وللظلم منابذين رأيت في زماننا من أهل الملل من هم للصدق صادقين، وللكذب مستنكرين.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ رأيت من أهل الملل من هم بالحيوان رافقين، وللخير فاعلين، رأيت من أهل الملل من هم عن الرزائل مترفعين وعن الآثام متجنبين، رأيت من أهل من للسلم اسلم وللدعوة له أقوم مجاهرين، رأيت من أهل الملل للعطف سباقون وللرحمة منادون، رأيت من أهل الملل من هم للوعود حافظون وللأمانة راعون، رأيت من أهل الملل من سلم الناس من لسانهم ويدهم، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

رايتهم يطبقون التشريع الإسلامي وهم للتشريع الإسلامي متقنون، لولا أنهم حرفوا وبدلوا فكانوا ليسوا مسلمون، ولعل الكثير سوف يختلف معي في قولي ولكن أرجو أن لا نأخذ الأمر بالهواء بل نأخذه بالعقل، ولعل امرًا مهم قد يحول في حقيقة هذا الأمر وفيصل ظاهر يفصل بين الحق والباطل ويظهره، وهي المشيئة والرحمة والمغفرة الآلهية، قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقد أختلف أهل العلم وقال أكثرهم بأن أصحاب الملل من غير المسلمين في النار، وخلطوا في مسألة الخلود وقد فصلنا في مسألة الخلود لمرتكب الكبيرة في موضعه.

إن الإيمان هو في الحقيقة الإيمان بوجود الله والتصديق بحقيقته الكونية الخلقية فمن قال بذلك فهو مؤمن مع اختلاف ديانته فهو اعتقاد قلبي روحي دون العمل، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والإيمان بوجود الله هو أول درجات الإيمان وأعلاها إلىٰ طريق النجاة والعبادة وهو الإيمان جملة، ويأتي الإيمان تفصيلًا في حقيقة الإيمان بالله وملائكته وبالكتب السماوية المنزلة والتصديق بالرسل والأنبياء والموت والبعث والحساب والجنة والنار والإيمان بالقدر من الخير والشر، وهذا من التشريعات باتباع الدعوة التشريعية لجميع الرسل والأنبياء، والإيمان بأن هذه الرسالات مرتبطة ببعضها البعض فمن آمن بموسىٰ وعيسىٰ لابد أن يؤمن بمحمد ومن يؤمن بمحمد لابد أن يمؤمن بموسىٰ وعيسىٰ ومن أنكر محمد فقد أنكر موسىٰ وعيسىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وفي حديث جبريل المشهور عن النبي، قال ﷺ عن الإيمان: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[1].

وهذه هي أسس الإيمان لولا ما حدث من التبديل والتحريف إلا أن أتباع الرسالات السابقة من أهل الملل قد حرفوا دينهم شيعًا أي فرقًا، فانقطعت الرسالات من الأرض حتىٰ بعث الله الرسالة المحمدية ليختم بها الأديان

(١) رواه البخاري ١٥٠/ ١١٤، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله ... (١/ ٣٦، ٣٨) حديث رقم (٨). جزء من حديث جبريل المشهور وهو في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب وأبي هريرة رضي الله عنهما، والترمذي: الإيمان (٢٦١٠)، والنسائي: الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، وأبو داود: السنة (٤٦٩٥)، وابن ماجه: المقدمة (٦٣)، وأحمد (١/ ٢٧، ١/ ٢٨، ١/ ٥١).

السماوية، ويبقي ملة الإسلام قائمة إلىٰ يوم الدين، وكلمة الإسلام هو الاستسلام لله تعالىٰ بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله، بأن تعبد الله ولا تشرك به أحدًا، والإسلام مقرون بالإيمان من الأعمال الظاهرة من الأقوال والأعمال، وذلك أن تَشهدَ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وتُقيمَ الصَّلاة، وتؤتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتَحُجَّ البيْتَ إن استطعت إليه سبيلًا، والمراد: بأقران الإسلام بالإيمان الإقرار بتوحيده باللسان والإيمان بفعل جميع أنواع العبادات بالجوارح.

والحقيقة أن هذه المسألة من الاعتقاد كبيرة وطويلة، وقد تعشىٰ بصيرة أناس وتتوه قلوبهم، ويحير عقلهم إلا انه ظاهر في حقيقة مختصرة وهي مسألة التوحيد فأن الإيمان الحقيقة الكونية للباري ﷻ هي بصيرة تنير البصيرة، وتهدي القلوب، وترشد العقل بصواب الأمر.

وقد جاء حديث الفطرة بمعاني كثيرة تؤل بعدة تأويلات تدل علىٰ أن المولود يولد مؤمن ليس مسلمًا، وان ذلك هي حقيقة وجوده فالفطرة أنه يولد مؤمنا حتىٰ ينطق لسانه من الاعتقاد بوجود الله ووحدانيته وهذا هو الإيمان الحقيقي البعيد عن الكفر.

الفطرة: السنة، والخلقة الأولىٰ، والطبيعة السليمة لم تشب بعيب.

والفطرة التي فطر الله تعالىٰ عليها الخلق فجعلهم، ما لم يفصحوا بالقول فيختاروا أحد القولين: الإيمان أو الكفر -لا حكم لهم في أنفسهم- إنما الحكم لهم بآبائهم فما كان آباؤهم يوم يولدون فهم بحاله إما مؤمن فعلىٰ إيمانه أو كافر فعلىٰ كفره.

قال ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يُولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوِّدانه ويُنصرانه ويمجسانه**»[(١)]

وذلك بأن الناس بدايتهم يولدون علىٰ تلك البداية التي كانت في صلب آدم عليه السلام من الإقرار لله بالمعرفة، ثم أعربت عنهم ألسنتهم ونسبوا إلىٰ آبائهم، فمنهم من يجحد بعد إقراره الأول وفطرته التي فطر عليها من مولده حتىٰ نطق لسانه بما يخالفها وأولئك هم الزنادقة الملحدين الذين لا يعترفون بالله ولا يقرون به وهم أهل الكفر الحقيقي وذلك بكفرهم باعتقاد الوحدانية وكفرهم بالوجود ولا يدينون دينا، فأنك لن تلقىٰ أحدًا من أهل الملل وإن كان غير مسلم إلا وهو مقر بأن الله ربه وخالقه ورازقه، وهو في ذلك مؤمن بالله علىٰ غير دين الإسلام وهو بذلك مؤمن بالله ليس كافر بالوجود الإلهي.

فقد جاء في الحديث عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ حَتَّىٰ يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ، فَإِذَا أَعْرَبَ عَنْهُ لِسَانُهُ، فَإِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**[(٢)]»

وتعد مسألة الكفر من المسائل التي حدث فيها الاختلاف بحقيقة أهل الكفر ومن هم الكفار وما أنواعه، فقد صنف العلماء الكفر بأصناف ووضعوه علىٰ

---

(١) رواه أحمد في المسند «٢/ ٣٩٣» والبخاري رقم «١٣٥٩» في الجنائز، ورقم «١٣٨٥ و٤٧٧٥» ومسلم رقم «٢٦٥٨»، والترمذي رقم «٢١٣٨». وابن حبان رقم «١٢٨» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والآجري في «الشريعة»: ١٩٤، وابن حبان(١٢٨-١٣٠)، والخطيب في «تاريخه» ٣/٣٠٨، وأبو نعيم في «الحلية» ٩/ ٢٢٨ من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٥٣، رقم ١٤٨٤٧). قال الهيثمىٰ (٧/ ٢١٨): فيه أبو جعفر الرازىٰ، وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات ومن غريب الحديث: «يعرب» أىٰ يبين.

درجات متعددة بقولهم بكفر الجحود وهو جحود للحق الذي عرفه الجاحدون، أي عرفوه وجحدوا به عزوفًا عن الحق.

وكفر الجهل والتقصير، وهناك كفر من بلغته الدعوة، وكفر من لم تبلغه الدعوة، أو بلغته مشوهة، ودون إقامة الحجة عليها وإزالة الشبهات عنها.

وقد تحدث الفقهاء: عن «كفر النعمة» الذي هو مغاير «لكفر الاعتقاد»، وقالوا بوجود «كفر دون كفر»، وبكفر «المقولة» دون كفر «القائل»، الذي قد يكون لديه تأويل حتىٰ ولو كان فاسدًا، وبذلك فقد صنف الكفر وقسم إلىٰ درجات، وهذه مسألة يعرف فيها بقول المعنىٰ الحقيقي لكلمة الكفر والنطق الأساسي لها من بين استخدام كلمة الكفر كما نص عليها القران أو في مواضع نطق بها البشر في مسائل متعددة.

فذهب الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في هذا إلىٰ أن الله تعالىٰ خلق المولود لا حكم له في نفسه وإنما هو تبع لوالديه في الدين في حكم الدنيا حتىٰ يعرف عن نفسه بعد البلوغ، وأما في الآخرة فمنهم من ألحقهم بآبائهم في حكم الآخرة أيضا.

ونجد أن الجاحظ ذهب في هذه المسألة مخالفة أهل الكتاب للإسلام إلىٰ أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارىٰ والدهرية إن كان معاندا علىٰ خلاف اعتقاده فهو آثم وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور وإنما الآثم المعذب هو المعاند فقط لأن الله تعالىٰ لا يكلف نفسا إلا وسعها وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالىٰ إذ استد عليهم طريق المعرفة[١].

---

(١) المستصفىٰ ٢/ ٤٠١.

ويأتي رأي الإمام أبوحامد الغزالي: الذي صرف بقوله «إن أكثر نصارىٰ الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء الله تعالىٰ، أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك، ولم تبلغهم الدعوة، فإنهم ثلاثة أصناف:

صنف لم يبلغهم اسم محمد، أصلًا، فهم معذورون.

وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات، وهم المجاورون لبلاد الإسلام والمخالطون لهم، وهم الكفار الملحدون.

وصنف ثالث بين الدرجتين، بلغهم اسم محمد، ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا أيضًا منذ الصبا أن كذابًا متلبسًا اسمه محمدًا ادعىٰ النبوة، كما سمع صبياننا أن كذابًا يقال له المقفع بعثه الله، تحدىٰ بالنبوة كاذبًا، فهؤلاء عندي في معنىٰ الصنف الأول «الذين لم يبلغهم اسم الرسول»، فإنهم مع أنهم سمعوا اسمه، سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر في الطلب»[1].

أقوال العلماء: ومنهم من ألحق ذراري المسلمين بهم وزعم أن أولاد المشركين خدم أهل الجنة

ومنهم من توقف في الجميع ووكل أمرهم إلىٰ الله ﷻ.

ونجد أن هذا أشبه الأقاويل بالسنن الصحيحة والله تعالىٰ أعلم، وقد ذكرت أقاويل للسلف في ذلك وما احتج به كل فريق منهم فمن قال متىٰ ما أسلم الأبوان أو أحدهما صار الولد مسلمًا بإسلام أبويه أو أحدهما، وإذا سبي الصغير من دار الحرب ومعه أبواه أو أحدهما فدينه دين من معه من أبويه وإن سبي وحده فدينه دين السابي لأنه وليه الذي أولىٰ به منه فقام في دينه مقام أبويه كما قام في الولاية والكفالة مقامهما والله تعالىٰ أعلم.

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص٩٤.

خلاصة الأقوال في أحوال أهل الأديان:

أن الأديان باختلاف شعائرها فالأصل فيها التوحيد، إلا أن كل دين له شعائره وطقوسه ولا شك أن رسالة الإسلام لخاتم النبيين سيدنا محمد هي خاتمة الأديان وشعائرها هي أصح الشعائر وهي خلاصة شعائر الأديان، وبذلك فأن النبي محمد ﷺ أمر بالصلاة والزكاة ضرورة فيعلم أيضا ضرورة أنه أمر اليهود والنصارىٰ بالإيمان به وإتباعه وذمهم علىٰ إصرارهم علىٰ عقائدهم ولذلك قاتل جميعهم وكان يكشف عن مؤتزر من بلغ منهم ويقتله ويعلم قطعا أن المعاند العارف مما يقل وإنما الأكثر المقلدة الذين اعتقدوا دين آبائهم تقليدا ولم يعرفوا معجزة الرسول عليه السلام وصدقه والآيات الدالة في القرآن علىٰ هذا لا تحصىٰ كقوله تعالىٰ ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٧]، وقوله تعالىٰ ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ [فصلت: ٢٣]، قال تعالىٰ: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، قال تعالىٰ: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ﴾ [المجادلة: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ [البقرة: ١٠].

أقول: ومن هنا التأكيد أن من أدرك الرسالة المحمدية وعلم بها ولم يؤمن بها فأنه يعتبر قد خالف الطاعة في الإيمان والعبودية لله، أي شك وعلىٰ الجملة ذم الله تعالىٰ والرسول عليه السلام المكذبين من الكفار مما لا ينحصر في الكتاب والسنة وأما قوله كيف يكلفهم ما لا يطيقون قلنا نعلم ضرورة أنه كلفهم أما أنهم يطيقون أو لا يطيقون فلا ننظر فيه بل أن الله تعالىٰ خلقهم وكلفهم كما أنه تعالىٰ أقدرهم عليه بما رزقهم من العقل ونصب من الأدلة وبعث من الرسل المؤيدين

بالمعجزات الذين نبهوا العقول وحركوا دواعي النظر حتىٰ لم يبق علىٰ الله لأحد حجة بعد الرسل وهذا ما نذهب إليه وأصوب ما نقول في ذلك والله العالم.



۞ الوعد والوعيد ۞

هذه المسألة أحدىٰ الأصول الخمسة عند المعتزلة.

قال أبو الحسن الخياط في انتصاره: وليس أحد يستحق اسم الاعتزال، حتىٰ يجمع الأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١).

وينشأ النزاع بين المعتزلة، والزيدية، والإباضية، وغيرهم كأهل البيت والإمامية، والصوفية، والأشاعرة، وأهل الحديث، والإسماعيلية، والعلوية، والظاهرية، في وجوبها عليه ﷻ وعدمه لا يجري، لأنهم يدَّعون أن الإنسان لا يستحق علىٰ الله شيئًا، ولا يقبح من الله شيءٌ أيضًا، ومع أنه قد وعد المطيعين بالثواب تفضلًا منه، وتوعد العصاة بالعقاب، لا يجب عليه شيء مما وعده، أو توعد به، وله أن يعذب المطيع، ويُثيب العصاة، وإنما يصبح النزاع فيها، عند القائلين باستحقاق المطيعين الثواب، والعاصين والعقاب.

وذهب المعتزلة ومن تبعهم: إلىٰ وجوب الوفاء عليه تعالىٰ، بوعده ووعيده، فيجب عليه أن تعذيب العصاة، وإعطاء المطيعين ما وعدهم به، واستدلوا علىٰ ذلك بأنه سبحانه قد توعَّد بالعقاب علىٰ المعاصي، وأخبرهم بنوع العقاب الذي يستحقُّونه، ويرىٰ المعتزلة وموافقوهم، لو قلنا بعدم وجوب الوفاء عليه، لزم الخُلف والكذب فيما أخبر به، وكلاهما قبيح عليه تعالىٰ، وأيضًا علم الناس بأن الله سيعفو عنهم، وأن العقاب الذي وعد به قد لا يحصل، فتضعف في

(١) الفرق بين الفرق، ص١١٧-١٢٠؛ التبصير في أصول الدين، ص٣٧؛ الملل والنحل: ١/٤٦-٤٩.

نفوسهم، وواضح الاستشكال. فإن الكثير من الناس لولا خوفهم من العقاب، واعتقادهم بوقوعه، لا يطيعون حكمًا، ولا ينتهون عن معصية ينهىٰ عنها الله. فالمعتزلة وموافقوهم جعلوا في هذه المسألة رهبة للناس، بحيث إنهم دائمًا متَوقُّون عن الذنب، حتىٰ لا يقع في العقاب والخلود.

أقول: إلا أن رحمة الله ومغفرته، قد وسعت كل شيء.

ونجد أن أهل البيت وموافقيهم يطرحون الأمر بشكل أفضل وأوسع، فيقولون: يجب علىٰ الله أن يفي بما وعد، ولا يجب عليه الوفاء بما توعَّد؛ لأن وجوب الوفاء بالوعد من العدل والإنصاف، الواجبين عليه تعالىٰ، هذا بالإضافة إلىٰ أن التكاليف إنما شُرعت لمنفعة العباد، ويجب عليه إيصال النفع إليهم، علىٰ أن عدم الوفاء مستقبَحٌ بنظر الناس والعقلاء، ولا يجب عليه أن يفي بما توعَّد به؛ لأن العقاب حقٌّ له سبحانه، وله أن يُسقطه باعتباره حقًا مملوكًا له، فهو أحق بفعله وإسقاطه متىٰ شاء، وكيفما شاء سبحانه وتعالىٰ.

قال الصدوق في اعتقاداته:[1] اعتقادنا في الوعد والوعيد، أن مَنْ وعده الله علىٰ عمل ثوابًا فهو منجزه، ومَنْ أوعده علىٰ عمل عقابًا فهو فيه بالخيار، فإن عذبه فبعدله، وإن عفا عنه فبفضله، وما الله بظلام للعبيد.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال المفيد من الإمامية: واتفقت الإمامية علىٰ أن الوعد بالخلود في النار متوجِّه إلىٰ الكفار خاصة، دون مرتكبي الذنب من أهل المعرفة بالله تعالىٰ، والإقرار بفرائضه، من أهل الصلوات. ووافقهم علىٰ هذا القول كافة

(١) تصحيح الاعتقادات، ص٦٧.

(المرجئة)، سوىٰ (محمد شبيب) وأصحاب الحديث قاطبة.

وأجمعت المعتزلة: علىٰ خلاف ذلك وزعموا أن الوعيد بالخلود في النار عامٌّ في الكفار وجميع فُسَّاق أهل الصلوات.

واتفقت الإمامية: علىٰ مَنْ عُذِّب بذنبه من أهل الإقرار والمعرفة والصلوات، لم يخلد في العذاب، وأُخرج من النار إلىٰ الجنة، فينعَّم فيها علىٰ الدوام. ووافقهم علىٰ ذلك ما عددناه. وأجمعت المعتزلة علىٰ خلاف ذلك، وزعموا أنه لا يخرج من النار أحدٌ دخلها للعذاب[1]، وهذا القول للإمامية يتفق مع جميع أهل المذاهب والفرق، وقد أورد الإمامية في أصول كتبهم الحديث الصحيح والمخرَّج في كتب السنة عن أبي عبد الله عن آبائه ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ وعده الله علىٰ عمل ثوابًا فهو منجزه، ومَنْ أوعده علىٰ عمل عقابًا فهو فيه بالخيار**»[2].

ويروي الإمامية: أنه جاء عن محمد بن عمر، أن الإمام موسىٰ بن جعفر قال: لا يخلد في النار إلا أهل الكفر والجحود، وأهل الشرك والضلال[3].

وقد تصدىٰ الإمامية بشكل واضح لفكر المعتزلة في مسألة الوعد والوعيد، وأدْلَوا بحجج قوية للردّ عليهم، وهذه الفكرة كانت من أوائل اهتمامات مفكري

(١) أوائل المقالات، ص٤٦-٤٧.

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ الموصلي في مسنده: ٦/٦٦؛ وأخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق: ٣٤ باب الوفاء
بالوعد وكراهية الخلف. وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة: ٢/٤٥٢.

(٣) التوحيد للصدوق، ص٢١٧-٢١٨.

الإمامية في الرد علىٰ المعتزلة، ما عدا (بني نوبخت)[(١)].

فإنه -كما أوضح المفيد- أن (بني نوبخت) يخالفون في ذلك، ويقولون بأن: «كثيرًا من المطيعين لله ﷻ يثابون علىٰ طاعتهم في دار الدنيا، وليس لهم في الآخرة من نصيب»[(٢)].



(١) تعد أسرة بني نوبخت من أكثر أسر التاريخ فلاسفة ومنجمين، وعلماء وأدباء، ويربو عدد رجالتهم اللامعةفي هذه الجوانب علىٰ ستة وعشرين ما بين عالم وفيلسوف، منهم أكبر شخصية شيعية ظهرت في أواخر القرن الثالث الهجري، وهو أبو الحسن بن موسىٰ بن الحسن المعروف بالنوبختي، وهو صاحب كتاب (فرق الشيعة) وتنسب هذه العائلة إلىٰ (نوبخت) المنجم المجوسي الذي أسلم هو وولده أبو سهل وزوجته، فسماه الخليفةالمنصور العباسي عبد الله، ونال عنده حظوة كبيرة ... ونجد المتكلمين حين يقررون فكرة أو نظرية قد خالف فيها النوبختيون يستثنونهم بقولهم: (خلا بني نوبخت) أو (إلا النوبختيين) ويعنون بذلك جميع بني نوبخت الذين كانت لهم نظريات موحدة في أغلب الأحيان.. ومما تجدر الإشارة إليه أن بني نوبخت خالفوا الإمامية في المواضع ذات الخصام العنيف بينهم وبين المعتزلة، وقد تبنوا بعض الآراء التي كان يذهب إليها المعتزلة ويتفردون بها.انظر عبد الله نعمة، فلاسفة الشيعة، ص١٥٢-١٨١.

(٢) أوائل المقالات، ص٩٣.

۞ الكفر والشرك ۞

كفر بالله خرج من دينه بإحدىٰ خصال الكفر، وأشرك بالله أدخل معه في العبادة غيرَه، وقد يأتي الشرك بمعانٍ أخرىٰ غير الشرك في العبادة بفعل في ترك عدم تأدية بعض العبادات كعدم أداء الزكاة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝﴾ [فصلت: ٦-٧]. أو شرب الخمر كما في الحديث: «مدمِنُ الخمر كعابد وثَنٍ»[١].

والكفر في اللغة: التغطية: ومنه سُمِّي الزارع كافرًا؛ لأنه يغطي البذر، وسُمِّي الليل كافرًا؛ لأنه يستر بظلمته كل شيء، ولذلك سمي الشخص كافرًا؛ لأنه ستر نعمة الله بجحوده آياته الساطعة التي تدل علىٰ عدله وتوحيده[٢].

وقد انتقل هذا المعنىٰ اللغوي بالشرع فصار كل مَنْ أتىٰ خصلة مخرجة عن الدين كافرًا، كأن يسجد لصنم، أو ينطق بألفاظ مستهجنة تدل علىٰ استخفافه بالله أو برسول من رسله[٣].

والكفر نوعان: صريح كما تقدم، ومبطَّن؛ ويطلق علىٰ صاحبه منافق، وهو مَنْ آمن بالإسلام ظاهرًا وأبطن إنكاره؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ

---

(١) الهادي رسائل العدل والتوحيد: ٢/ ١٠١. والحديث أخرجه ابن أبي شَيْبَة: ٨/ ٥ برقم (٢٤٠٦٠)؛ وابن ماجهفي سننه: ٢/ ١١٢٠ حديث رقم (٣٣٧٥)؛ وأحمد في مسنده: ١/ ٢٧٢ حديث رقم (٢٤٥٣)؛ وأخرجه الرافعي من طريق أبىٰ نعيم في مسلسلاته: ٣/ ٤٠٩، وقال: قال أبو نعيم: صحيح ثابت؛ وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير: ١/ ١٢٩؛ والبيهقي في شعب الإيمان: ٥/ ١٢ رقم (٥٥٩٧) بنحوه.

(٢) اللسان: ٥/ ٣٨٩٩.

(٣) النجري، شرح القلائد، ص١٩٧.

وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ﴾ [الأنفال: ٤٩].

وقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

ويستحق الكافر بذلك أعظم أنواع العقاب؛ لتصريحه وإبطانه الكفرَ[١].

وقد أجمعت الأمة الإسلامية: علىٰ أن مَن اعتقد مع الله ثانٍ، أو تكلم بالألفاظ التي تدل علىٰ الاستخفاف والاستهجان بالكتب المنزلة وبالرسل وإنكار القيامة والجنة والنار وما إلىٰ ذلك؛ فقد كفر وخرج عن الدين، وللإمام استتابته، وإلا هدر دمه، وإنما اختلفت بعض الفرق في المنافق وهو المقرُّ شفاهةً بالإسلام مع اعتقاده في الباطن بغير ذلك، فالكراميَّة قالوا: بإيمانه وكذا كل من ذهب إلىٰ أن الإيمان هو الإقرار فحسب، وكذا أيضًا في المتأوِّل الذي فعل خصالًا تخرجه عن الملَّة، كاعتقاده التجسيم والتشبيه والجبر؛ أي بأنه لا تأثير مطلقًا للعبد في أفعاله، أو نسبة الفعل إلىٰ العبد وبأنه من إحداثه وتأثيره، وهذه المسائل قد تبادل فيها التكفير أهل السنة والمعتزلة.

قال (أبو القاسم البلخي): يذهب بعضهم إلىٰ أن المشبِّه والمجبرة كفار تجب استتابتهم ولا يُصلىٰ عليهم، ولا تحلُّ ذبيحتهم ولا مناكحتهم وموارثتهم[٢]، ويوافقه علىٰ ذلك من الزيدية (أبو القاسم البستي) وقال: إن الكفر لا يخرج عن الجهل بالله أو التشبيه أو الخروج من التوحيد، أو التجوير والتظليم أو التكذيب[٣].

---

(١) النجري، شرح القلائد، ص١٩٧.

(٢) النجري، شرح القلائد، ص٢٠٠.

(٣) الإكفاروالتفسيق: ق١٠.

ويقول (النجري): «اعلم أنه لم يُنقل عن أحد من أهل البيت ولا من المعتزلة خلاف في كفر المشبِّهة، وأما المجبرة فقال جمهور المعتزلة البصريين البغداديين وأكثر أهل البيت وبه صرح الهادي والقاسم والناصر وأبو طالب والمنصور بالله عبد الله بن حمزة أنهم كفار، وادعىٰ أبو عبد الله الداعي إجماع أهل البيت علىٰ ذلك.

وقال ابن شبيب من المعتزلة وروي عن المؤيد بالله (الهاروني) وبه قال الإمام يحيىٰ بن حمزة: إنهم ليسوا بكفار بل مخطئين خطأ محتملًا»[1].

وقد اختلف بعض القائلين بكفر المجبرة والمشبِّهة في الحكم عليهم:

فأبو علي الجبَّائي وأبو الحسين البصري وجعفر بن مبشر من المعتزلة: ذهبوا إلىٰ أن لهم حكمَ المرتد، وقد وافقهم من الزيدية كالقاسم الرسي وأبو طالب، والمنصور بالله.

وذهب (أبو القاسم البلخي): بأن للمجبرة والمشبِّهة حكمَ المسلمين في المعاملة، وإنما يختلفون في العقاب فحسب، حيث يعاقبون معاقبة الكفار.

ويذهب (ثمامة بن الأشرس): بأنهم كالذمِّيين في الحكم.

وأما (الناصر الأطروش) فقال: إنهم في حكم أهل الحرب[2].

لا يجوز التكفير والتفسيق إلا بدليل:

ليس هناك خلاف بين علماء الأمة، في أنه لا يجوز التكفير والتفسيق إلا بدليل قطعي يقيني؛ كمخالفة نص من القرآن والسُّنَّة أو إجماع من الأمة، وفي

---

(١) النجري، شرح القلائد، ص٢٠٠-٢٠١.

(٢) المصدر السابق: ٢٠١.

هذين الأخيرين بعض الخلاف فقد أنكرهما النَّظَّام والإمامية والظاهرية- كما تقدمت الإشارة- وما عداهم فقد أخذوا بها واعتبروها مصدرًا أساسيًا للتشريع.

أما أنه لا بدَّ من الدليل القطعي في مسائل التكفير والتفسيق؛ فلأنه علىٰ ذلك أحكام تُخرج المحكوم عليه من الدائرة الإسلامية إلىٰ الكفر، أو تعزله عن الحياة الإسلامية وتعتبره فاعلًا للفسق، فلذلك كان واجبًا -كما يقول الإمام المهدي- معرفة مسائل الإكفار والتفسيق وأسبابها؛ «لأن الله قد تعبَّدنا بأحكام في حق المؤمن والكافر والفاسق تتعلق بالموالاة والمعاداة والتوارث والكفاءة ونحو ذلك، فيجب علىٰ كل ملتزم بأحكام الشريعة معرفة تلك الأمور ليمكنه تأدية ما كُلِّف به من الأحكام الشرعية المتفرِّعة عليها ...».

ويقول الإمام الزيدي المهدي: عن الدليل السمعي في الإكفار والتفسيق عند كلٍّ من المعتزلة والزيدية: «وجملة الأمر أن الطريق السمعي ليس إلا أحد ثلاثة أشياء إما نصًا جليًا متواترًا»[(١)].

كقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

أو في حكم النص، وهو الذي عُلم من دينه ضرورةً كما عُلم من دينه أن تكذيبه كفر ونحو ذلك، وإما إجماعًا معلومًا أصله وفرعه وعلَّته بدليل قطعي أو ضرورة، فالأول وهو النص الجليُّ أو ما حكمه متفق علىٰ جواز التكفير به، والآخران مختلف فيهما (أي الإجماع والقياس).

أما الإجماع فالخلاف فيه لمن جعل الدليل علىٰ كونه حجةً لا قطعية، وكذلك إجماع العِتْرة وخبر المعصوم.

---

(١) النجري، شرح القلائد، ص٢٠٠-٢٠١.

وأما القياس والاعتبار فنوعان: أحدهما يصح الاستدلال به علىٰ الإكفار والتفسيق بلا خلاف؛ وذلك حيث علمنا ذنبين أحدهما أعظم من الآخر وعلمنا أن الأصغر كفرٌ فإنَّا: نعلم أن الأعظم كذلك، وهذه الدلالة هي دلالة الفحوىٰ، وكذلك حيث علمنا بدلالة سمعية في ذنبين أنهما مستويان في العقاب، وعلمنا أن أحدهما كفرٌ، فإنَّا: نعلم أن الآخر كفرٌ، فهذا النوع لا خلاف في صحة الاستدلال به.

والنوع الثاني مختلف فيه وذلك حيث يعلم في ذنب أنه كفر أو فسق بدليل سمعي، ثم تُستنبط العلة الموجبة لكونه كفرًا أو فسقًا استنباطًا لا بنصّ ولا إجماع، ثم نعمد إلىٰ ذنب آخر لا نعلم قدرَ عقابه فنُلحقه بذلك الذنب لحصول العلة، مثاله ما نقوله من كفر المجبرة؛ قد علمنا يقينًا أن مَنْ وصف الله بأنه ظالم فقد كفر وأجمعت الأمة علىٰ كفره، ثم نظرنا في علة كفره بطريقة السَّبْر فلم نجد له علةً إلا كونه أضاف وجود الظلم إليه (الله) فقِسْنا عليه من وصفه بكونه موجودا للظلم؛ لحصول تلك العلة، ولذلك أمثلة كثيرة هذا أجلاها.

وقد اختلف العلماء في صحة الاستدلال به علىٰ الإكفار والتفسيق.

فالذي عليه أكثر الشيوخ كأبي علي وأبي هاشم والقاضي عبد الجبار وغيرهم، وأكثر أهل البيت: يصح الاستدلال بهذه الطريقة علىٰ الإكفار والتفسيق، والذين امتنعوا من الإكفار لأهل القبلة منعوا من ذلك»[(١)].



(١) الشرفي، العدة، ص٥٠٦-٥٠٧.

۞ التوبة ۞

التوبة هي: الندم علىٰ فعل المعصية من مع عزم ألا يعود إليها إذا قدر عليها، والمراد بهذا الأخير الإجبار كأن يكون مكرهًا(١).

والتوبة واجبة علىٰ مرتكب الذنب لورود كثير من الآيات القرآنية كقوله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

وتجب التوبة مباشرة بعد فعل المعصية؛ لأن التراخي عن التوبة يُعدُّ إصرارًا، والإصرار من الكبائر، وهي مقبولة عند الله، وكما تقدم، فإن المعتزلة قد اعتبروا أن الله قد أوجب علىٰ نفسه قبول التوبة، ولا تُقبل التوبة في حال الاحتضار(٢). قال تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ﴾ [النساء: ١٨].

ويُشترط في التوبة: إصلاح ما تعلَّق بحق الآدمي سواء كان قصاصًا، أو دَيْنًا، أو وديعة أو ما يشابه ذلك من الحقوق التي لأجلها قد يكون ارتكب الذنب، كذلك أيضًا يُشترط أن يكون ندمه لأجل وجه القبح من الإضرار بالغير أو النفس وعصيان الله، أما إذا كان الندم لأجل أمر دنيوي له مدخل في تحسين أوضاعه المادية أو الحياتية فلا تُعدُّ توبةً، إن لم تتضمن الندم من وجه ذلك القبح نفسه(٣).

(١) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون: ١/ ٢٣٢.

(٢) الشرفي، العدة، ص٥٢٢.

(٣) المصدر السابق، ص٥٢٣.

وقد اتفق المعتزلة والزيدية بل إن ذلك إجماع الأمة أن حدوث التوبة بشروطها الشرعية تكون مكفرة بنفسها لكل معصية كبيرة كانت أو صغيرة، لقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠﴾ [الفرقان: ٧٠]. وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه: ٨٢].

أما إذا عاد بعد التوبة لفعل تلك المعصية، فإن (بشر بن المعتمر) ذهب إلىٰ أنه يبوء بعقابين عقاب الأولىٰ وهذه الأخيرة، وليس إلىٰ ذلك ذهب البصرية والزيدية إلىٰ أنه يكون العقاب علىٰ ما اقترفه من جيد فحسب[١].

أما إذا مات المرتكب للكبيرة دون توبة فإن المعتزلة والزيدية- بناء علىٰ مبدأ وعده ووعيده تعالىٰ- يرون أنه يستحق الخلود في نار جهنم، بعكس رأي أهل السُّنَّة الذين أوكلوا ذلك إلىٰ الله فإن شاء عذَّبه وإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة[٢].

والرأي الأول: مبنيٌّ علىٰ قولهم إن الله تعالىٰ لا يُخلف وعده ووعيده.

والرأي الثاني: مبنيٌّ علىٰ أن الله تعالىٰ قد نصَّ في محكم كتابه بأنه تعالىٰ يغفر ما دون الشرك، كما تقدم ذلك في المبحث السابق.

حكم الهجرة من دار الكفر والفسق:

المقصود بالدار هنا دار الإيمان ودار الكفر، وقد أثبت جمهور المسلمين هاتين الدارين، وإنما اختلف في إثبات ديار أخرىٰ كدار الفسق والوقف،

(١) الشرفي، العدة، ص ٥٢٤.

(٢) انظر هذا الرأي في كتاب الجويني، الإرشاد، ص٣٩٢.

وخاصة دار الفسق؛ إذ لم يقل بدار الوقف[١] إلا قليل من المعتزلة.

ونعني بالهجرة: ترك الديار التي يحيق الخطر فيها بحياة المسلم ودينه، كالدار التي غلب الكفر عليها، والدار التي تظهر فيها المعاصي جهرةً دون النكير عليها، وترك أهلها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمثل هذه الديار يجب الهجرة عنها إلىٰ دار الإيمان. والأصل في الهجرة: مكة والمدينة؛ فمكة قبل الفتح كانت دار شرك وكفر؛ إذ لم تظهر فيها الشهادتان والصلاة من المسلمين إلا بجوار المشركين، وظهر فيها الكفر من المشركين بغير جوارٍ، وكانت المدينة بعد الهجرة دار الإسلام؛ إذ كانت علىٰ العكس من مكة[٢].

أهل السنة قالوا: إن الديار دار إيمان أو كفر وليس هناك ديار ثالثة، وبذلك قال الخوارج، وإن اعتبروا أن الديار كلها ديار كفر وشرك فيما عدا مواطن إقامتهم كما يحكي عنهم ذلك البغدادي[٣].

ويثبت المعتزلة والزيدية هذه الدار الثالثة: دار الفسق، وما من شك أن دار الفسق نتاج طبيعي لقولهم بالمنزلة بين المنزلتين. وقد عرَّف المعتزلة والزيدية هذه الدور فقالوا في دار الإيمان: إنها الدار التي تظهر فيها الشهادتان، ولم تظهر فيها خصلة كفرية، ولو ثبتت تلك الخصلة الكفرية تأويلًا إلا بجوار وذمة من المسلمين كإظهار اليهود والنصارىٰ لعباداتهم. هذا رأي أكثر المعتزلة

(١) هي الدار التي يكون فيها مؤمنون وكفَرَة، ولا إمرة لفريق علىٰ آخر. قال الإمام يحيىٰ حول إثبات هذهالدار: «والذي عليه أئمة الزيدية وشيوخ المعتزلة أن لا معنىٰ لإثبات دار الفسق، ومعتمدنا أنه لم تدل عليها دلالة شرعية وليس لها حكم يكون دلالة عليها» د. أحمد صبحي، الزيدية، ص٣٤٠.

(٢) النجري، شرح القلائد، ص٢٤٥.

(٣) أصول الدين، ص٢٧٠.

والزيدية في تعريف دار الإسلام والإيمان، وقد ذكره (النجري) عن الحاكم بأنه اختيار أهل المذهب.

وفي تعريف آخر لدار الإسلام: بأنها ما لم يكن أهلُ الحق فيها في تقيَّة من الكفار، وما سواها دار كفر؛ أي: تلك التي يكون فيها أهل الحق في تقيَّة من الكفار[١].

أما دار الفسق فهي: ما ظهر فيها العصيان دون النكير عليه. ولم يُثبت من الزيدية دار الفسق الإمام المؤيد بالله (الهاروني)، والإمام (يحيىٰ)، ومن المعتزلة القاضي (عبد الجبار) كما يُفهم من كلام (النجري)، وقال هؤلاء في نفيهم لدار الفسق: «إنه لا دار للفسق مطلقًا سواء كان فسقًا بالبغي أو بغيره، فإن الدار إنما تثبت لاستفادة أحكام ساكنها، ودار الفسق ليست كذلك؛ إذ لا حكم يُستفاد منها لساكنها بخلاف دار الكفر ودار الإسلام فإنه يُستفاد من كلٍّ منهما أحكام لساكنها، فوجب الاقتصار عليهما»[٢].

ويردُّ الإمام القاسم علىٰ كلام هؤلاء النُّفاة: «قلنا: تحريم الموالاة حكم يُستفاد منها، وكذلك وجوب المعاداة وردّ الشهادة وتحريم الصلاة علىٰ موتىٰ أهلها وتحريم غسلهم ونحو ذلك»[٣].

وإذا ما أُثبتت دار الكفر والفسق فإنه تجب الهجرة منها إلىٰ دار الإيمان أو إلىٰ دار هي أقل كفرًا وفسقًا، وإنما تجب الهجرة من هذين الدارين؛ «لأن الهجرة هي تميِّز المهاجر عن نفسه عمن يستحق اللعن والبراءة، وتثبت له أحكام

(١) شرح القلائد، ص٢٤٤-٢٤٥.
(٢) الشرفي، العدة، ص٤٧٢.
(٣) المصدر السابق: ٤٧٢.

مخصوصة، وإلا في حال عدم الهجرة كان الشخص معرضًا لنفسه إلىٰ التبري وإجراء أحكام الكفار والفُسَّاق عليه»(١).

ويستدل القائلون بالهجرة من دار الكفر والفسق بالنصوص القرآنية، وما جاء في بعض الأحاديث النبوية، فمما استدلوا به من القرآن.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧]. وما استدلوا به من الأحاديث قوله ﷺ: «**لا يحلُّ لعينٍ ترىٰ الله يُعصىٰ فتَطْرِفَ حتىٰ تغيّر أو تنتقلَ**»(٢).

والهجرة واجبة دون انقطاع ما دام هنالك ديار للكفر أو الفسق؛ وهي ليست محددة بفترة محددة عند بعض الزيدية كالإمام المؤيد بالله؛ لقوله ﷺ: «**لا هجرةَ بعد الفتح**»(٣).

ويفسر الإمام (القاسم بن محمد) هذا الحديث بأن المراد به: «**لا هجرةَ بعد الفتح من مكة؛ لأنه كان مَنْ أسلم من مكة قبل الفتح أمر بالهجرة إلىٰ المدينة فأخبر النبي ﷺ بأن حكم مكة بعد الفتح كحكم المدينة إذ صارت دار إسلام كالمدينة لا أنه أراد لا هجرةَ من ديار الكفار**» وما يدل علىٰ عدم انقطاعها

(١) النجري، شرح القلائد ٢٤٧.

(٢) الشرفي، العدة: ٤٧٤.

(٣) رواه البخاري (٢/ ٦٥١، ٣/ ١٠٢٥، ١٠٤٠، ١١٢٠، ١١٦٤) (١٧٣٧، ٢٦٣١، ٢٦٧٠، ٢٩١٢، ٣٠١٧)؛ مسلم (٣/ ١٤٨٧) (١٣٥٣)؛ أبو داود (٣/ ٣) (٢٤٨٠)؛ النسائي (٧/ ١٤٦)؛ الترمذي (٤/ ١٤٨) (١٥٩٠)؛ أحمد (١/ ٢٢٦، ٢٦٦، ٣٥٥)؛ وهو عند ابن حبان (١٠/ ٤٥٢، ١١/ ٢٠٦) (٤٥٩٢، ٤٨٦٥)؛ والدارمي (٢/ ٣١٢) (٢٥١٢)؛ وعبد الرزاق (٥/ ٣٠٩). وتتمته: وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا.

قوله ﷺ من حديث معاوية بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ**»(١).

وما روىٰ عبد الله السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا قُوتِلَ الْعَدُوُّ**»(٢).

وما رواه السيوطي في الجامع الكبير: «**لا تنقطع الهجرة ما قُوتل الكفار**»(٣).



(١) رواه أحمد (٤/ ٩٩)؛ أبو داود (٣/ ٣) (٢٤٧٩)؛ النسائي في الكبرىٰ (٥/ ٢١٧) (٨٧١١)؛ وهو عند الدارمي (٢/ ٣١٢) (٢٥١٣)؛ والبيهقي (٩/ ١٧)؛ وأبي يعلىٰ (١٣/ ٣٥٩) (٧٣٧١)؛ والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٨٧).

(٢) حديث عبد الله السعدي عن محمد بن حبيب: أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٥/ ٢١٧، رقم ٨٧١٠) وقال: محمد بن حبيب هذا لا أعرفه. وأخرجه ابن أبىٰ عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ١١٤، رقم ١٤٣٦). وأورده الحافظ في الإصابة (٦/ ١٠، ترجمة ٧٧٧١ محمد بن حبيب) وعزاه للبغوي. وروىٰ هذا الحديث أيضًا الإمام أحمد (٥/ ٢٧٠)؛ وابن حبان (١١/ ٢٠٧) (٤٨٦٦).

(٣) الشرفي، العدة، ص٤٧٤. والحديث أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٠، رقم ٢٢٣٧٨)؛ قال الهيثمي (٥/ ٢٥١): رجاله رجال الصحيح؛ والبيهقي (٩/ ١٧، رقم ١٧٥٥٧). وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ١١٨، رقم ٨٢٠)؛ والنسائي (٧/ ١٤٧، رقم ٤١٧٣)؛ وابن حبان (١١/ ٢٠٧، رقم ٤٨٦٦).

الأصل الرابع
الإمامة

۞ الإمامة ۞

كلمة لا بدّ لي من قولها: لم يختلف المسلمون في مسألة من المسائل الشرعية أو الأصولية مثلما اختلفوا حول مسألة الإمامة، ولعل هذه المسألة أصبحت علىٰ مرّ الأزمان، مدارَ الحديث والخلاف، ولم يقف الأصوليون عند حدٍّ، بل إن هذه المسألة تعني دورًا هامًا للأمة الإسلامية وبكل المقاييس، فهم لم يعطوا هذه المسألة حقَّها ولم يجتمعوا علىٰ كلمة سواء.

ونجد أن (**الشهرستاني**) في ملله يقول: (ما سُلَّ سيف في الإسلام علىٰ قاعدة دينية مثلما سُلَّ علىٰ الإمامة)(١).

الإمامة لغة: الإمامة من: أَمَّ، والأَمُّ -بالفتح- القصد، أمَّه، يؤمُّه: إذا قصده، أمَّ القوم، وأمَّ بهم: تقدمهم، وهي الإمامة.

والإمام: كل مَن ائتمَّ به قوم كانوا علىٰ الصراط لمستقيم، أو كانوا ظالمين، وفي التنزيل: قال تعالىٰ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَيِمَّةَ﴾ [التوبة: ١٢].

ومعنىٰ ذلك: رؤساء الكفر وقادهم الذين ضعفاؤهم تبعًا لهم.

قال الجوهري: (الإمام الذي يُقتدىٰ به، وجمعه: أئمة وأصله (أئممة) علىٰ (أفعلة) مثل إناء: آنية، ، فأُدغمت الميم فنُقلت حركتها إلىٰ ما قبلها، فلما حكوه بالكسر جعلوا الهاء ياءً، وإمام كل شيء قيمه، والمصلح له؛ والقرآن إمام المسلمين، وأممت القوم بالصلاة إمامةً)(٢).

ويقول الفيروز آبادي: الإمام ما ائتُمَّ به من رئيس وغيره، والخيط يُمدُّ علىٰ

---

(١) الملل: ١/٢٨.

(٢) تهذيب اللغة: ١٥/٦٣٨-٦٣٩.

البناء فيبنىٰ، والطريق، وقيِّم الأمر المصلح له، والنبي، والدليل، والحادي للإبل[١].

والنبي إمام أمته وعليهم جميعًا الائتمام بسنته التي مضىٰ عليها[٢].

وخلاصة القول: إن الإمامة تعني القيادة والإمام هو القائد والقدوة، وهو الصالح لقيادة الأمر.

الإمامة اصطلاحًا بأقوال أهل الفرق والمذاهب:

هناك تعريفات كثيرة حول الإمامة عند أهل السُّنَّة والفرق الإسلامية، إلا أننا نجد أنه في الاصطلاح عند أهل السُّنَّة نستعرض بعضها بإيجاز.

قال الإيجي في المواقف: «هي خلافة الرسول ﷺ في إمامة الدين بحيث يجب إتباعه علىٰ كافة الأمة»[٣].

أما التفتازاني فقد عرَّفها بقوله: «هي رياسة عامة في أمر الدين والدنيا خلافة عن النبي وأحكامه في الفروع»[٤]، وهو رأي الحنفية.

أما ابن خلدون: والذي كان أوسع وأشمل من تعريفات الآخرين فقد قال فيها: «هي حمل الكافة علىٰ مقتضىٰ النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلىٰ اعتبارها

(١) القاموس المحيط: ٤/ ٧٧.

(٢) تهذيب اللغة: ١٥/ ٦٣٨.

(٣) المواقف، ص٣٩٥.

(٤) شرح المقاصد: ٥/ ٢٣٢.

بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»[١].

وهي تشمل رأي المالكية.

أما الماوردي فعرَّفها بقوله: «هي خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[٢]. ونجد أنه لا يختلف فيه. ونجد أن ابن خلدون رغم أنه مالكيٌّ فهو يتفق في تعريفه مع الشافعية، فالماوردي يمثِّل رأي الشافعية.

أما تعريف الفرق الإسلامية الأخرىٰ:

تعريف الزيدية: رئاسة عامة لشخص مخصوص بحكم الشرع، ليس فوقه يدٌ إلا يدُ الله تعالىٰ[٣].

تعريف الإمامية: رياسة في الدين والدنيا ومنصب إلهي يختاره الله بسابق علمه، ويأمر النبي ﷺ بأن يدل الأمة عليه، ويأمر باتباعه[٤].

تعريف الإباضية: عرَّف الإباضية الإمامة بأنها: «الرئاسة العامة في أمور الدين والدنيا نيابةً عن الرسول ﷺ»[٥].

أما الإسماعيلية فقد عرَّفوها بأنها: هو وراثة يحتاج إليها الخلق، وهي أقرب إلىٰ النبوة في نسبة النفس والجوهر والطبيعة؛ لأنها مَعْلَم للهداية وأنها استمرار الوجود، وأن الإمام هو الوارث[٦].

(١) مقدمة ابن خلدون، ص١٩٠، ط ١٣٩٨٤هـ.

(٢) الأحكام السلطانية، ص٥.

(٣) التاج المذهب لأحكام المذهب للصنعاني: ٤/ ٤٠٤، الإيضاح علىٰ المصباح، حابس، ص١٢٢.

(٤) عقائد الإماميةالاثنىٰ عشرية، للزنجاني، ص٧٢.

(٥) اعوشت ودراسات، ص١٤٥.

(٦) تاج العقائد ص٦٦.

قول العلوية: تُعدُّ الإمامة كذلك من أصول الدين، وهي الأصل الرابع عندهم، كما تشمل ذلك عند الاثنىٰ عشرية، ويعرِّف العلوية الإمامة باتفاقهم مع الإمامية مع اختلاف في المعنىٰ الفلسفي فيقولون: إن الإمامة منصب تقتضيه الحكمة الإلهية لمصلحة البشر في مؤازرة الأنبياء بنشر الدعوة الإلهية، وفي القيام بعدهم بالمحافظة علىٰ تطبيق أحكامها بين الناس، وبِصَون التشريع من التغيير والتحريف والتفسيرات الخاطئة، فهم يرون اقتضاء اللطف الإلهي بأن يكون الإمام معينًا بنص إلهي، وتكون عصمته كعصمة الأنبياء؛ ليطمئن المؤمنون إلىٰ الاقتداء به في جميع أقواله وأعماله[1].

قول الدروز في الإمامة: لا يختلف الدروز في أصل الإمامة عن الإسماعيلية إلا أنهم يكونون في محور العقيدة في أن الإمام المنصوص عليه، والمهدي بهداية إلهية، أن النظرة إلىٰ الإمام بصفته حامل النور الإلهي[2].

قول المعتزلة: لم يختلف المعتزلة عن وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ وقالوا أن نصب الإمام واجب عقلًا، أي أن دليل الوجوب دليل عقلي، وقالوا أنه واجب على العقلاء (أي الناس)، وقد اختلف المعتزلة في وجوب نصب الإمام على الأمة بدون النص، وهذا رأي الجبَّائيين، ووافقهم الأشاعرة المحدِّثون، وقد شذ من المعتزلة الأصم بقوله: نصب الإمام عند ظهور الفتن واجب، وأما عند الأمن والعدل فلا».

---

(١) عقيدتنا وواقعنا نحن المسلمين العلويين ص٢٥.

(٢) الدروز في سوريا، سيدر كبده، ص٢٨.

أما جمهور المعتزلة: بين من يقول وجوب نصبه على الأمة بالنص على ذلك من الله، وهم معتزلة البصرة، وبين من يقول بوجوبها على الأمة بحكم العقل، وهم البغداديون من المعتزلة، أما الإمامية والإسماعيلية والزيدية والعلوية والدروز فكلهم متفقون على وجوبها من طريق العقل والشرع، وأن اختياره يعود إلى الله وحده؛ لأن وجود الإمام لطف من الله، يقرِّبهم من الطاعات ويصدُّهم عن المعاصي والمنكرات، ويقولون: اللطف واجب عليه سبحانه بحكم العقل، أما اللطف فهو التسهيل لأسباب الطاعة على العباد، وعلى كل حال فإن الإمامية والإسماعيلية والعلوية والدروز تفردوا في وجوب نصب الإمام بوصفه واسمه، واحتجوا بقاعدة اللطف وغيرها من الأدلة، ومع أن المعتزلة يقولون بوجوب اللطف والأصلح على الله سبحانه، ولكنهم لم يلتزموا بها في المقام، هو أنهم لو قالوا بها في هذه المسألة لزمهم بعدم صحة خلافة المتقدمين؛ لأن قاعدة اللطف عندهم تقتضي أن يكون الخليفة منصوصًا عليه من الله سبحانه وتعالى.

وقد كانت هذه المسألة محلًا للجدل والخصومة بين المعتزلة وأهل المذاهب الأخرىٰ، وبالأخص الإمامية[1].

وبذلك يتضح لنا أن مسألة الإمامة من أعظم المسائل في أصول الدين كلامًا، وهذا ما يذهب إليه الزيدية فيقول الشرفي: (واعلم أن مسألة الإمامة من أكبر مسائل أصول الدين وأعظمها؛ لأنه يترتب عليها طاعة الله وطاعة الرسول، والقيام بالشرائع والجهاد والموالاة والمعادة، والحدود وغير ذلك، فتجب معرفتها علىٰ كل مكلف»[2].

غير أن قول الزيدية بأن الإمامة: «اختيار من الشارع كالنبوة»، وبنص المتقدمين من الزيدية علىٰ ذلك بالأئمة الثلاثة علي والحسنين، فلو كان

(١) المواقف، ص٣٤٦-٣٤٧؛ شرح النهج وشرح التجريد، ص٢٢٧؛ أوائل المقالات، ص٨.

(٢) عدة الأكياس، ص٣٨١.

الاختيار بإطلاق فإنهم في هذه الحال يذهبون مذهب الإمامية والعلوية والإسماعيلية، والدروز في قولهم بالوصية والإرث في أعقاب بيت النبوة، وليس كذلك مذهب الزيدية، فإنهم يقولون: بأن الإمامة بعد هؤلاء الثلاثة إنما تكون بالدعوة إلىٰ النفس والتجرد بالسيف؛ لإزالة سلطان أئمة الجَوْر والظلم.

وفي هذا نجد هنا عندهم أنه لا مجال للاختيار فيها من طريق أهل الحلِّ والعقد، ولا شورىٰ في الأمر، وهذا الرآي عند السلفية، والأشاعرة، والإباضية، والمعتزلة، والظاهرية، إذ هي عندهم من المسائل الاجتهادية التي للأمة اختيار مَنْ تراه كفؤًا لمنصبها(١).

يقول الخيالي في تعليقاته علىٰ النسفية: ولا نزاع في أن مباحث الإمامة بعلم الفروع السبق لرجوعها إلىٰ القيام بالإمامة، ونصب الإمام الموصوف بالصفات المخصوصة من فروض الكفايات وهي أمور تتعلق بها مصالح دينية ودنيوية، لا ينتظم الأمر إلا بحصولها، فيقصد الشارع تحصُّلها في الجملة من غير أن يقصد حصولها من كل واحد، ولا خفاء في أن ذلك من الأحكام العملية دون الاعتقادية(٢). أما أن الإمامة في قريش فلا خلاف في ذلك سوىٰ في بعض المعتزلة كالأصم وأقوال للنظَّام(٣).

ونجد أن الإمامة عند القدامىٰ من أهل السلف إحدىٰ المسائل الفقهية أي أنَّها لا تدخل في مسائل أصول الدين، فيقول القاضي أبو يعلىٰ: «**نصبة الإمام واجبة**»(٤).

---

(١) المغني للقاضي عبد الجبار: ١٢/ ٤١؛ الحاكم الجشمي التأثير والمؤثر، ص١٠٥.
(٢) حاشية الخيالي علىٰ العقائد النسفية، ص٤١.
(٣) أصول الدين للبغدادي، ص٢٧٥.
(٤) الماوردي الأحكام السلطانية، ص٢٩-٣٠.

وقال أحمد بن حنبل: الفتنة إذا لم يكن إمام يقوم بأمر الناس[(١)].

ويقول علماء السلف في مسألة وجوبها: العقل أم الشرع بأن قال أبو يعلىٰ: وطريق وجوبها السمع لا العقل، وأن العقل لا يُعلم به فرض شيء وإباحته ولا تحليل شيء ولا بتحريمه، وهي فرض علىٰ الكفاية، يخاطَب بها طائفتان من الناس:

أحدهما: أهل الاجتهاد حتىٰ يختاروا.

وثانيهما: من يوجد فيه شرائط الإمامة حتىٰ ينتصب أحدهم للإمامة[(٢)].

وإننا نجد عند أهل السلف وغالبية أهل السُّنَّة، والإمامية أن مسألة الخروج علىٰ الإمام الجائر تختلف عن غيرها من المذاهب الإسلامية، فإن بعض أهل البيت، والزيدية، والإسماعيلية، والإباضية، والمعتزلة قاطبة، أوجبت الخروج علىٰ الإمام إذا كان ظالمًا أو فاسقًا، أما مدَّعو السلفية «الوهابية» فقد أوجبوا طاعة الإمام ولو كان جائرًا فاسقًا، أو صاحب بدعة في عقيدته؛ لما يترتب علىٰ الثورة علىٰ الحكَّام من فتنة ومحن واضطراب وفساد[(٣)].

وقد استدلوا علىٰ ذلك بأدلة منها: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

(١) الأحكام السلطانية لأبي يعلىٰ، ص ١٩؛ والمسند من مسائل الإمام أحمد للخلال، ص٢٣، وطبقات الحنابلة: ١/ ٣١١ بلفظ بأمر المسلمين.

(٢) الماوردي الأحكام السلطانية، ص٢٩-٣٠.

(٣) الشرح والإبانة، ص٢٧٦-٢٨١.

وما رواه البخاري عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»[(١)].

ويروىٰ عن أحمد بن حنبل أنه قال: ومَنْ خرج علىٰ إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه، وأقروا له بالخلافة بأي وجه كان: بالرضا أو الغلبة، فقد شقَّ هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ، فإن مات الخارج مات ميتةَ الجاهلية أي من حيث التشبيه، ولا يحل قتال السلطان، ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن فعل ذلك، فهو مبتدع علىٰ غير السُّنَّة والطريق[(٢)].

ولابن تيمية قول: (إن مجرد وجود البغي من إمام أو طائفة لا يجب قتالهم، بل لا يُبيح، بل من الأصول التي دلت عليها النصوص أن الإمام الجائر الظالم، يؤمر الناس بالصبر علىٰ جَوْره وظلمه وبغيه ولا يقاتلون)[(٣)].

ونجد أن هذه الأقوال لا تمثل العصور الأولىٰ بل إنها تمثل العصور المتأخرة، ولعل ذلك مما استُحدث علىٰ الأمة الإسلامية بعد الملك العَضُوض، الذي بدأ من معاوية فامتثل في الدولة الأموية، ومنها إلىٰ الدولة العباسية فلم تكن هنالك بيعة شرعية في بيعة معاوية المغتصبة، وهي تخالف منهاج النبوة في الخلافة الإسلامية، ولنا حديث مفصل في طيّات الكتاب في أمر الملك والخلافة والإمامة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام (١/ ٢٤٦،٦/ ٢٦١٢) (٦٦١ ، ٦٧٢٣)؛ ابن ماجه (٢/ ٩٥٥) (٢٨٦٠)؛ أبو يعلىٰ (٧/ ١٩١) (٤١٧٦)؛ أحمد (٣/ ١١٤).

(٢) الاستقامة. تحقيق: د.حمد إرشاد سالم: ١/ ٣٢.

(٣) الاستقامة: ١/ ٣٦.

قول الأشاعرة: قال الأشاعرة بوجوب نصب الإمام في كل حال يستطاع ولا يكون فيها إمام ظاهر، ووجوب طاعته إن كان ظاهرًا،[١]، وهذا الرأي بطبيعة الحال يخالف آراء بعض الفرق كالإمامية والإسماعيلية، والعلوية، ونجد أن الأشاعرة لا يجوّزون أن يكون في الوقت الواحد إمامان واجبا الطاعة، وإنما تعتقد إمامةَ واحد في الوقت، ويكون الباقون تحت رايته، وإن خرجوا عليه من غير سبب يوجب عزله فهم بُغاةٌ، إلا أن يكون بين البلدين بحر مانع من وصول نُصرة أهل كل واحد منهما إلىٰ الآخرين، فيجوز حينئذ لأهل كل واحد منهما عقدُ الإمامة لواحد من أهل ناحيته ففي المسئلة تفصيل وكلام[٢].

ونجد أن الأشاعرة قد اهتموا بنفي أن الإمامة تكون بالنص، وتكون بالاختيار، وكأنهم يردُّون في ذلك علىٰ بعض أهل المذاهب الإسلامية، بل إنهم قد صرحوا في بعض أقوالهم بالردِّ علىٰ الإمامية والزيدية، فتجد أن القاضي أبا بكر الباقلاني يُبطل الزعم أن الإمامة تكون بالنص، ويثبت أنها تصح بالاختيار للأمة، ونجد من الأشاعرة المتأخرين مَنْ تبنَّىٰ أيضًا فكرة الردّ علىٰ مسألة الإمامة بالنص، وهو من كبار علماء الأشاعرة في زمانه الشيخ عبد العزيز ابن ولي الله الدهلوي.

طرق إثبات الإمامة عند الأشاعرة: إذا فسد النصّ علىٰ إمام بعينه، فكيف طريق إثبات الإمامة؟

وبما يصير الإمام إمامًا؟

(١) أصول الدين- البغدادي، ص٢٧٣.

(٢) أصول الدين- البغدادي، ص ٢٧٤.

يقول الباقلاني[1]: إنما يصير الإمام إمامًا بعقد مَنْ يعقد له الإمامة من أفاضل المسلمين الذين هم من أهل الحلِّ والعقد، والمؤتمنين علىٰ هذا الشأن، وذلك عن طريق اختيار من تتوافر فيه شروط الإمامة. والإمامة تنعقد وتتمُّ برجل واحد من أهل الحلِّ والعقد، إذا عقدها علىٰ صفة ما يجب أن يكون علىٰ الأئمة.

القرشية واجبة عند الأشاعرة: ويؤكد الأشاعرة اتفاقهم مع أغلب أهل المذاهب علىٰ وجوب قرشية الخليفة من حيث النسب، فمن الشروط الواجب توافرها في الإمام: أن يكون قرشيًا من الصميم، وأن يكون مع العلم بمنزلة مَنْ يصلح أن يكون قاضيًا من قضاة المسلمين، وأن يكون ذا بصيرة بأمر الرب وتدبير الجيوش والسرايا، وسدّ الثغور، وحماية البيضة، وحفظ الأمة والانتقام من ظالمها والأخذ لمظلومها.

ويرىٰ الباقلاني الأشعري وغيره من الأشاعرة: أن من الأمور التي توجب خلعَ الإمام وسقوط فرض طاعته، كفرُه بعد الإيمان وتركه إقامة الصلاة والدعاء إلىٰ ذلك، وتطابق الجنون، وذهاب تميزه، أو عجزه التام عن النهوض بما نُصب من أجله.

ويذهب الباقلاني: بأن فسقه فظلمه بغصب الأموال، وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود، إن هذه الأمور توجب خلعَ الإمام عند كثير من الناس.

الإمامة عند الظاهرية: يقول ابن حزم في كتابه المفقود في السياسة قال فيه: لما كانت الخلافة من الله علىٰ منهاج رسوله وإقامة شعائر دينية، احتاج الناس إلىٰ مَنْ يقوم فيهم مقام نبيهم لتتألف برهبته الأهواء المختلفة وتجتمع بهيمنته الأقوال المتفرقة، وتنكفَّ بسَطْوَته الأيدي المتغالبة، وتنقمع من خوفه النفوس

---

(١) التمهيد ص ١٨١: باب الكلام في صفة الإمام الذي يلزم العقد له.

المعاندة؛ لأن في طباع البشر مَنْ أحب المغالبة والقهر، ما لا ينكفُّون عنه إلا بمانع قوي ورادع كافٍ[١].

ويؤكد ابن حزم أنه قد اتفق أهل السُّنَّة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج، حاشا النجدات من الخوارج، علىٰ وجوب الإمامة، وأن الأمة واجبٌ عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيها أحكام الله، ويسوِّيهم بأحكام الشريعة، والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

ويرىٰ الظاهرية كغيرهم أنه لا تصح إقامة الدين إلا بالإستناد إلىٰ رئيس واحد، إذ أن الأمر لا يتمُّ إذا كان الاستناد إلىٰ أكثر من واحد، فلم يبقَ وجه تتمُّ به الأمور إلا الاستناد إلىٰ واحد فاضل عالم حسن السياسة قوي النفوذ، وقد أجاز كون إمامين في وقت واحد، محمد بن كرَّام المتوفىٰ سنة **٢٥٥**هـ وأصحابه[٢]؛ **أي علىٰ رأي الكراميَّة**، وقد احتجوا بقول الأنصار أو مَنْ قال منهم يوم السقيفة: منا أمير ومنكم أمير[٣].

وهذا يخالف الكثير من أهل المذاهب الإسلامية.

ويخص الظاهرية -فيما نقل ابن حزم- ما يلزم الإمامَ من أمور الأمة، وعدَّه في عشرة أشياء، وهنا يحدد ابن حزم مهام يجب علىٰ الحاكم أن يقوم بها، وهي باختصار:

---

(١) نوادر الإمام ابن حزم: ١/ ١٨٥.

(٢) التجسيم عند المسلمين -مذهب الكرامية- دكتور سهير مختار، رسالة ماجستير.

(٣) الفصل: ٤/ ٨٧-٨٨.

١- حفظ الدين علىٰ أصوله المستقرة.

٢- تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين؛ حتىٰ تعمَّ النّصْفة، فلا يتعدىٰ ظالم ولا يستضعف مظلوم.

٣- الحماية والذَّبُّ عن الحريم.

٤- إقامة الحدود لتُصانَ محارم الله تعالىٰ عن الانتهاك.

٥- تحصين الثغور بالعدة المانعة، والقوة الدافعة.

٦- جهاد مَنْ عاند الإسلام بعد الدعوة حتىٰ يسلم، أو يدخل في ذمَّة، ليقام بحق الله تعالىٰ في إظهاره علىٰ الدين كلِّه.

٧- جباية الفيء والصدقات علىٰ ما أوجبه الشرع نصًا واجتهادًا.

٨- تقدير العطاء وما يستحق من بيت المال من غير سَرَف ولا تقصير ودفعه في وقته، لا تقديم ولا تأخير.

٩- استكفاء الأُمَناء وتقليد النصحاء، فيما يفوضه إليهم من الأعمال، ويَكِل إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالأكفاء مضبوطة، والأموال بالأُمَناء محفوظة.

١٠- أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، وتصفُّح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملَّة[(١)].

سلوك الإمام: ويؤكد الظاهرية علىٰ أن الإمام لابدّ أن يقوم بسلوكيات هامة، من حيث مباشرةُ أعماله، وأن ينتظم أمور البلاد، وينصُّ ابن حزم علىٰ أمور كثيرة لا بدّ أن يقوم بها الإمام في توسع البلاد العمراني، والاهتمام بالشؤون

(١) الفصل الرابع من الباب الأول من الشهب اللامعة، لابن رضوان نقلًا عن نوادر الإمام ابن حزم: ١/ ١٨٦-١٨٨، الفرق الإسلامية وأصولها: ١/ ٥٦٢.

الدينية في دعم إقامة الصلاة ودعم حفظ القرآن الكريم، وأن يقوم الإمام باختيار الأمراء الصالحين من الرعيَّة لإدارة الأمور، وعلىٰ الإمام زيادة كل جهة من جهات بلده، واستخبار أهلها علىٰ الأحوال، وعن حال أميرهم، أو حاكمهم وأن ينفرد بهم واحدًا بعد واحد، حتىٰ يقف علىٰ الحق من الباطل في أمن الناس وأمور ولاته، وجميع أحوال عماله.

ابن حزم يحذِّر من طول بقاء الأمراء: ونجد ابن حزم يحذِّر من خطورة بقاء أمراء الأقاليم فترات طويلة ومناصبهم فيقول: «والذي نختاره للإمام علىٰ كل حال أن لا يطوِّل مُدَدَ أمير البلد لا سيما البعيد عنه»[١]. ويقول ابن حزم بأن يكون حازمًا ويحزم في الشؤون المالية، وأن يتَّخذ خازنًا وثيقًا عفيفًا دَيِّنًا، ضابطًا يختزن كل ما يرد علىٰ الإمام من الأموال.

الشروط الواجب توافرها في الإمام علىٰ قول الظاهرية: يشير ابن حزم إلىٰ اختلاف الآراء في الإمامة، وكيف تكون، وما الطريقة التي يتم بموجبها إقامة الإمام؟ وكيف تُسند له الإمامة؟

فذهب الخوارج كلها وجمهور المعتزلة وبعض المرجئة إلىٰ أنها جائزة من كل مَنْ قام بالكتاب والسُّنَّة، قرشيًا كان أو عربيًا أو ابنَ عبدٍ[٢].

وقال (مزار بن عمرو):[٣] إذا اجتمع حبشي وقرشي كلاهما قائم بالكتاب والسنة، **قالوا**: الواجب أن يُقدَّم الحبشي؛ لأنه أسهل لخلعه إذا حاد عن الطريق[٤].

(١) الفرق الإسلامية-فواد: ١/ ٥٦٧

(٢) الفرق الإسلامية-فواد: ١/ ٥٦٨

(٣) الفصل: ٤/ ٨٧-٨٨

(٤) الفصل: ٤/ ١١١؛ الأصول والفروع: ٢/ ٢٩١؛ الفرق الإسلامية: ١/ ٥٦٨

ولا يوافق ابن حزم علىٰ تقديم الحبشي علىٰ القرشي، بل يرجِّح كِفَّة القرشي، أو بقول أدق: يشترط في الإمام أن يكون قرشيًا[١].

وقال قوم: لا تصلح الإمامة إلا بإجماع فضلاء الأمة، حيث كانوا، ويبطل ابن حزم هذا الرأي؛ لأنه تكليف ما لا يطاق، إذ ليس في الوسع التعرف علىٰ إجماع فضلاء العالم الإسلامي المترامي الأطراف[٢]. **وقال آخرون**: لا تتمُّ الإمامة بأقل من خمسة رجال عدول؛ علىٰ شورىٰ الخليفة عمر ﵁، وبهذا يقول الجبَّائي. ويبطل ابن حزم هذا الرأي أيضًا؛ لعدم استناده علىٰ دليل من الكتاب والسُّنَّة، وهنا نجد أن ابن حزم يتسم بالمرونة الإمامة، وله نماذج كثيرة قد استند عليها؛ فهو يؤكد أن الفقيه الظاهري لا يحصر الإمامة في إطار ضيق، بل هو منفتح مراعاةً للظروف المتغيرة.

ويوافق ابن حزم جميع أهل القبلة في أنه ليس منهم أحد يجيز إمامة امرأة.

قرشية الخلافة:

نجد أن مسألة قرشية الخلافة بأنها تكون في قريش فضلًا عن غيرهم من القبائل العربية والأجناس الإسلامية، ولم يكن هذا الأمر مأخوذًا علىٰ علة، بل إن هذا الأمر نُصَّ عليه، وقد احتج القائلون بأحقيَّة قريش بالخلافة بحجج مختلفة، بعضها شرعية حسب ما يقولون وأخرىٰ اعتبارية، وسوف أخوض في مسألة الخلافة بعد تتبع روايات الحديث ودراستها، فإن أحاديث جعل الإمامة في قريش كثيرة.

---

(١) الفرق الإسلامية: ١/ ٥٦٨.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٥٦٨.

وأشهر ما رُوي في ذلك ما رُوي من طريق سهل بن الأسد، عن بكير الجزري، عن أنس بن مالك قال: كنا في بيت رجل من الأنصار فجاء رسول الله ﷺ حتىٰ وقف فأخذ بعمادَتَي الباب، فقال: «**الأئمة من قريش، ولهم عليكم حقٌّ، ولكم مثل ذلك ما إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا عاهدوا وفَوا، فمَنْ لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**» رواه ابن أبي شيبة[١]، وأحمد[٢]، وأبو يعلىٰ[٣]،وابن أبي عاصم[٤]، والطيالسي[٥] وإسناد الطيالسي صحيح علىٰ شرط الستة كما ذكر الألباني، والبيهقي، وابن عساكر.

وقد ضُعفت هذه الرواية ببكير الجزري، رغم أن ابن حبان وثَّقه وعدَّه في الثقات، وعدَّه ابن حجر مقبولًا من الخامسة، إلا أن الذهبي نصّ علىٰ جهالته[٦].

وضعَّفه الأزدي[٧].

قال المِزِّي: روىٰ له النسائي هذا الحديث الواحد[٨].

---

(١) في المصنف: ٦/ ٤٠٢.

(٢) المسند: ٣/ ١٢٩.

(٣) مسند أبي يعلىٰ: ٧/ ٤٩.

(٤) السنة: ٢/ ٥٣١.

(٥) المسند: ٤/ ٢٨٤،٤٢٤. قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد: ٥/ ١٩٢.

(٦) ميزان الاعتدال: ٢/ ٦٩.

(٧) تهذيب التهذيب: ١/ ٤٣٥.

(٨) تهذيب الكمال: ٤/ ٢٥٥.

ثم إن أشهر رواة هذا الحديث عنه هو سهل بن الأسد وهو مجهول أيضًا، وقد اختلفوا في معرفة اسمه فضلًا عن مكانته[١].

أقول: واستدل القائلون باشتراط القرشية في الإمام بهذا الحديث، وبغيره رغم أننا نذهب إلىٰ صحته، وللحديث شواهد صريحة واضحة فضلًا عن المنهج المأخوذ به عندنا، وهو شهادة اثنين في الجرح والتعديل، وهذا الراوي الذي نص الذهبي وغيره علىٰ جهالته، وضعَّفه غيره، شهد له اثنان من أهل الجرح والتعديل، فقد وثقه ابن حبان، ومن قبله الحافظ ابن حجر، وقد ذهب الأغلب من الجمهور علىٰ اختلاف المذاهب إلىٰ هاشميته فضلًا عن أن يكون من قريش، وعن أن يكون معصومًا أو أفضل الناس.

قول الماتريدية: ذهب جمهور الماتريدية إلىٰ اشترط القرشية في الخلافة، وفقًا لما ذهب إليه أكثر الأئمة، وقد صرح بذلك الأئمة الفقهاء الإربعة الإمام الشافعي، والإمام أحمد، والإمام أبي حنيفة، والإمام مالك[٢].

قول الأشاعرة: ذهب جلُّ الأشاعرة لاشتراط القرشية إلا أنه ذهب بعضهم كإمام الحرمين الجويني: إلىٰ عدم اشتراطها، كما هو مصرح في كتابه الإرشاد[٣].

قول المعتزلة والخوارج: ذهب المعتزلة والخوارج إلىٰ عدم اشتراط

(١) تهذيب الكمال: ٧/ ٣٤٧.

(٢) طبقات الحنابلة: ١/ ٢٦؛ أصول الدين للبغدادي، ص ٢٧٥؛ أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٧٢١؛ والتمهيد للنسفي: ٣٩٧-٣٩٨؛ شرح العقائد الشيعية، ص٩٦، المواقف للإيجي، ص٣٩٨.

(٣) الإرشاد، ص٤٢٧.

القرشية، بل إنها تكون في المفضول[١].

قول أهل البيت، والزيدية، والإمامية، والإسماعيلية، والعلوية: ذهب الجمع من الفرق الإسلامية إلىٰ ضرورة القرشية، بل ذهبوا إلىٰ ضرورة هاشميته، وقد نصّ الإمامية والإسماعيلية، والعلوية علىٰ العصمة، ونصّ الإمامية، والعلوية علىٰ أن تكون في الأئمة الاثني عشر من أولاد الإمام الحسين، المنصوص عليهم، حتىٰ ظهور القائم من آل محمد ﷺ، الإمام الثاني عشر الحجة محمد المهدي بن الإمام الحسن العسكري بن الإمام علي النقي بالنون إبن الإمام محمد التقي بالتاء إبن الإمام علي الرضا بن الإمام موسىٰ الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين السجاد بن الإمام الحسين الشهيد بن الإمام علي المرتضي بن أبي طالب، وهو الغائب عن الإنظار ولم يقدر خروجه، وقد اجتهد متأخري الإمامية بمنصب سياسي ديني يعرف بـ «ولاية الفقيه» وهو الذي ينصب بالإختيار من أهل الحل والعقد لينوب عن الإمام الثاني عشر مدة غيبته، حيث يعتبرها فقهاء ولاية وحاكمية الفقيه الجامع للشرائط في عصر غيبة الإمام الحجة، حيث ينوب الولي الفقيه عن الإمام الغائب في قيادة الأمة، وإقامة حكم اللّه علىٰ الأرض لحين ظهور الإمام الثاني عشر.

ونجد أن الزيدية قالوا في قرشية الخلافة: هي مخصوصة هاشمية تكون لمن تقع عليه علامة وشروط الإمام من بني الحسن والحسين أبناء علي وفاطمة، ولا تصح لغيرهما عند الجميع.

وقد خرج بعض الزيدية المتأخرين علىٰ عدم وجوب القرشية.

---

(١) الملل والنحل: ١/ ١١٦، وكذلك: ١/ ١٠٩؛ أصول الدين للبغدادي، ص٢٧٥.

وهنا نستعرض بعض الأحاديث النبوية في ذلك الشأن، جاء في البخاري: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا عاصم بن حمد، سمعت أبي يقول: قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان**»(١).

كذلك ورد في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الناس تبعٌ لقريش هذا الشأن مسلمهم تبعٌ لمسلمهم، وكافرهم تبعٌ لكافرهم**»(٢).

قول الإسماعيلية: قالوا بضرورة القرشية، وأنّ الإمامة في آل بيت رسول الله ﷺ من نسل علي وفاطمة فرض من الله سبحانه أكمل به الدين، فلا يتم الدين إلاّ به، ولا يصحّ الإيمان بالله والرسول إلاّ بالإيمان بالإمام والحجة، ويدلّ علىٰ فرض الإمامة إجماع الأُمّة علىٰ أنّ الدين والشريعة لا يقومان ولا يصانان إلاّ بالإمام، وهذا حق، لأنّه سبحانه لا يترك الخلق سدىٰ، وإنّ الرسول نصّ علىٰ ذلك نصًّا تشهد به الأُمّة كافة بقوله: «الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا، وأبوهما خير منهما» ولم يحوج الأُمّة إلىٰ اختيارها في تنصيب الإمام، بل نص عليها بهذا، لأنّ بالإمامة كمال الدين، وتنص الإسماعيلية علىٰ وجوب العصمة(٣).

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأحكام الأمراء من قريش: ٨/ ١٠٤-١٠٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب المناقب باب المناقب: ٤/ ١٥٤؛ ورواه مسلم في كتاب الإمارة باب الناس تبع لقريش والخلافة: (١-١٨١٨) ٦/ ٤٣٩.

(٣) تاج العقائد: ٦٠-٦٤.

يقول عارف تامر[١]: إنّ هذا الموضوع من أدق المواضيع وأصعبها، بل هو بالحقيقة من الدعائم المتينة في عقائد الإسماعيلية، وقد يبدو لكلّ باحث فيها انّ دعاتها حافظوا علىٰ سريته التامة طيلة العصور الماضية، وجعلوا معرفته مقتصرة علىٰ طبقة خاصة من العلماء والدعاة.

ونجد أن الإسماعيلية قد سبقوا الإمامية في مسالة ولاية الفقيه أو النائب عن الإمام، وأعتبروها أصل موجود في مسألة الإمامة، وهي التي أصبحت ظاهرة منذ مئات السنين إلا أن دورها وعملها الفعلي يعتبر في سرية تامة.

قول الإمامية: اشترط الإمامية العصمة فضلًا علىٰ تعداد الأئمة الاثني عشر المشهورين المعصومين سلام الله عليهم.

وبذلك فإن مسألة قرشية الخلافة في الإمامة من المباحث المختلف عليها، رغم أن السواد الأعظم من الجمهور يقول بضرورة القرشية، واختلف البعض بين القرشية والهاشمية، وإنَّا في ظلّ هذا الزمان، والذي أصبح فيه الملك والرئاسة بمثابة الملك العَضُوض، والجبري، فإننا نعمل بالإصلاح في هذه الأمة، ونفضِّل وجود القرشي الهاشمي من أبناء علي وفاطمة فقط في أوائل الأمر، وإن لم يوجد فبالقرشي، وإن لم يوجد فبعامة الناس والأصلح فالأصلح.

الإمام أفضل الناس:

من المسائل المختلف فيها بين بعض العلماء، إلا أن أكثر أهل السُّنَّة والجماعة، وكذا المعتزلة والإباضية، والزيدية، يرون جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، وهو أن يكون مجتهدًا، عالمًا بأمور الدين في الأصول والفروع.

---

(١) الإمامة في الإسلام: ١٤١.

قال الإيجي في المواقف: فمنعه قومٌ؛ لأنه قبيح عقلًا، فإن مَنْ ألزم الشافعي حضور درس بعض الفقهاء، والعمل بفتواه، عدَّ سفيهًا قاضيًا بغير العقل، وجوَّزه الأكثرون، إذ لعله أصلح للإمامة من الفاضل، إذ المعتبر في ولاية كل أمر معرفةُ مصالحه ومفاسده، وقوة القيام بلوازمه، ورُبَّ مفضول في علمه وعمله، هو بالزعامة أعرف، وبشرائطها أقوم، وفصَّل قوم فقالوا: نَصْبُ الأفضل إن أثار الفتنة لم يجب وإلا وجب[١].

وقد نقل ابن حزم هذا الإجماع، ولعل مدار الأمر راجع إلىٰ مصلحة المسلمين، فإن كانت المصلحة تقتضي تقديم المفضول قُدِّم، وإن كانت تقتضي تقديم الفاضل قُدِّم[٢].

الإمامة والاختيار للإمام:

تتفق أكثر المذاهب الإسلامية[٣] علىٰ أن طريق الاختيار أول الطرق التي يتولىٰ بها الإمام منصب الإمامة، وأفضلها وأصحُّها، ولم يعترض علىٰ طريق الاختيار إلا مذهب الإمامية والعلوية والإسماعيلية وبعض الزيدية.

قول الإباضية: فقد أجمعوا علىٰ أن الإمام بعد الرسول ﷺ لا تجب لإمام من بعد إمام أو عزله إلا عن مشورة أهل العلم، ورضي منهم علىٰ النصح لله ثم يكون حجة علىٰ مَنْ غاب[٤].

---

(١) المواقف، ص٤١٢-٤١٣.

(٢) الفصل: ٥/ ٣.

(٣) منهاج الطالبين: ٨/ ٤٤؛ الأحكام للماوردي، ص٦؛ والمغني للقاضي عبد الجبار: ٢٠/ ق١/ ٢٥١؛ التاج للصنعاني: ٤/ ٤١٠؛ الجامع للقرطبي: ١/ ٢٨١.

(٤) قول الكندي في المصنف من علماء الإباضية: ١٠/ ٩٥.

وتثبت الإمامة باختيار أهل الصلاح، أو أهل الحل والعقد وأهل الاختيار والشورىٰ القادرين علىٰ إبداء الرأي السديد والنُّصح للأئمة والأمة، وحلِّ المشاكل، وإليه يُرجع في الملمَّات، وسُمُّوا بذلك؛ لأنهم يوثقون العقدة في الأمر بإمضائه وتأكيده، كما يملكون حلَّ ما عقدوه، ونقض ما أبرموه.

وقد استدل بعض العلماء علىٰ ضرورة الرجوع إلىٰ أهل الشورىٰ أهل الحلِّ والعقد، بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [النساء: ٨٣].

أما الشروط التي يجب أن تتوافر فيهم أهمها:

الإسلام. العقل. الذكورة. الحرية. العدالة. العلم الرأي الحكمة.

وقد ذهب كثير إلىٰ القول بشرعية الاستخلاف واعتباره طريقًا من طرق تولية الإمامة.

وانتصر ابن حزم لهذا القول وعدَّه من أفضل الطرق وقال: «وهذا هو الوجه الذي نختاره ونكرَهُ غيره»[(١)].

وقد استدلوا فيها بما روىٰ البخاري من حديث عائشة ﵂: قَالَتْ عَائِشَةُ وَارَأْسَاهْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاكِ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ فَأَسْتَغْفِرَ لَكِ وَأَدْعُوَ لَكِ فَقَالَتْ عَائِشَةُ وَاثُكْلِيَاهْ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَظُنُّكَ تُحِبُّ مَوْتِي وَلَوْ كَانَ ذَاكَ لَظَلِلْتَ آخِرَ يَوْمِكَ مُعَرِّسًا بِبَعْضِ أَزْوَاجِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهْ لَقَدْ هَمَمْتُ أَوْ

(١) الفصل: ٥/ ١٦.

أَرَدْتُ أَنْ أُرْسِلَ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ وَأَعْهَدَ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُونَ أَوْ يَتَمَنَّىٰ الْمُتَمَنُّونَ ثُمَّ قُلْتُ يَأْبَىٰ اللَّهُ وَيَدْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ أَوْ يَدْفَعُ اللَّهُ وَيَأْبَىٰ الْمُؤْمِنُونَ»[(١)].

وذهب الأشاعرة والمعتزلة والإباضية وأبو يعلىٰ وابن تيمية إلىٰ عدم شرعية الاستخلاف، وأن الإمامة لا تنعقد إلا بالاختيار والشورىٰ.

وبه قال بعض المتأخرين كالشيخ سيد قطب، والشيخ تقي الدين النبهاني، وعبدالوهاب خلاف[(٢)].

وقد استدل هؤلاء بأن النبي ﷺ توفي ولم يستخلف أحدًا، وإنما ترك للأمة حرية اختيار إمامها[(٣)].

وأن الإمامة عقدٌ بين المسلمين والخليفة، فيشترط انعقادها ببيعة من المسلمين، وقبول من الشخص الذي بايعوه، والاستخلاف أو العهد لا يتأتَّىٰ أن يحصل فيه ذلك فلا تنعقد به خلافة، والحقيقة أن مسألة الخلافة والإمامة مسألة تركها النبي ﷺ شورىٰ بين المسلمين.

أما قول الإمامية والعلوية، والإسماعيلية: علىٰ النصّ الصريح في تولية الإمام من العِتْرة النبوية، فلهم أدلتهم الكافية والله العالم.

أقول: والصحيح عندي أن الإمامة والخلافة تنصُّ علىٰ الولاية، فالمسلمون يحتاجون لولي يقضي لهم أمورهم في العبادات والأحكام

---

(١) صحيح البخاري: ٦٧٩١، فتح الباري: ١٣/ ٢٠٥.

(٢) السير: ١/ ٦٩؛ نهضة الأعيان: ٤٢٤-٤٢٥-٤٣١؛ أصول الدين، ص ٢٨٥؛ المغني: ٢٠/ ق١/ ٢٠٥؛ الأحكام
السلطانية، ص٢٥؛ منهاج السنة: ١/ ١٤٢؛ العدالة الاجتماعية، ص١٠٧، السياسة الشرعية، ص٦٣-٦٤.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٢/ ٢٠٥.

الشرعية، وإن لم يكن هنالك حاكم سياسي، فالفرق ظاهر واسع بين الإمام والخليفة للمسلمين، وبين الحاكم السياسي فالملوك ورؤساء الدول والممالك الإسلامية في عصرنا الحالي لا تنطبق عليهم الإمامة أو الخلافة ما لم تخضع للأختيار والبيعة الشرعية لأهل الحل والعقد.

وقد اختلفت الثقافة في أمر الإمامة والخلافة علىٰ عهد السلطتين الأموية والعباسية، ومما جرىٰ في تلك، فقد أصبح دور الخليفة منذ بداية عهد الأمويين دورًا سياسيًا بعيدًا كلَّ البعد عن قضايا الخليفة أو الإمام عند المسلمين، وقد أصبحت نقطة التحول في هذه القضية علىٰ يد معاوية بن أبي سفيان حينما خالف الأمة بتورّيث الحكم لإبنه يزيد، وبذلك سَنَّ مسألة الملك، فهو ملكٌ جبريٌّ أُخذ بالقوة، ويشيد به بعض علماء السلطة في زماننا بأنه اول ملك في الإسلام، ولا ملك في الإسلام، وجاء من بعد دولة بني امية وبنو العباس والذين استظلوا وساروا علىٰ نهج الأمويين بحجة أن الخلافة في قريش، ضاربين النصّ علىٰ بني هاشم عرض الحائط، ولا شك عندي أن هذه المسألة تعد من أكبر المسائل التي فرقت الأمة، ونعود هنا إلىٰ مبحث هام وهو مسألة الإمامة وقرشيتها، فمن ذلك العهد، والذي لم تتجاوز فيه الخلافة البيت الهاشمي القرشي، نشأ تحت تأثير ذلك الواقع المفروض، علماء وفقهاء فتناولوا تلك المسألة علىٰ أساس ديني واعتبروها مسألة شرعية، وبالغ بعضهم وجعلها أصلًا من أصول الدين، واستحضرت فيها الروايات، وسُخِّرت لها الأحاديث بالاجتهاد، ومضىٰ عليها السلف، رغم أن البعض اعتبرها حالة عابرة فرضتها ظروف معينة.

المفاضلة بين الصحابة:

قال الأشعري في مقالاته[١]: في قولهم في أفضل الناس بعد الرسول: واختلفوا في التفضيل:

١- **قال قائلون**: أفضل الناس بعد رسول ﷺ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

٢- **وقال قائلون**: أفضل الناس بعد رسول ﷺ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان.

٣- **وقال قائلون**: نقول: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نسكت بعد ذلك.

٤- **وقال قائلون**: أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ: علي ثم بعده أبو بكر.

٥- **وقال قائلون**: لا ندري أبو بكر أفضل أم علي؟.

وقال ابن حزم في فِصَله[٢]: اختلف المسلمون فيمن هو أفضل بعد الأنبياء عليهم السلام، فذهب بعض أهل السُّنَّة، وبعض المعتزلة، وبعض المرجئة، وجميع الشيعة، إلىٰ أن أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد رُوينا هذا القول نصًا عن بعض الصحابة رضي الله عنهم، وعن جماعة من التابعين والفقهاء، وذهب بعض أهل السنة، وبعض المعتزلة، وبعض المرجئة، إلىٰ أن أفضل الصحابة بعد رسول الله ﷺ أبوبكر، ثم عمر.

وقال ابن عبد البر في استيعابه[٣]: وروي عن سلمان، وأبي ذر، والمقداد، وخبَّاب، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن الأرقم: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول من أسلم، وفضَّله هؤلاء علىٰ غيره.

---

(١) مقالات الإسلاميين: ٢/ ١٤٧.

(٢) الفِصَل في الملل والنحل: ٤/ ١٨١.

(٣) الاستيعاب: ٣/ ١٩٧.

وقال ابن أبي الحديد في شرح النهج عن المعتزلة(١): واختلفوا في التفضيل، فقال قدماء البصريين كالجاحظ والنظَّام والفوطي وغيرهم: إن أبا بكر أفضل من علي عليه السلام؛ ويجعلون ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

وقال البغداديون قاطبة قدماؤهم ومتأخِّروهم كأبي جعفر الإسكافي، والخياط والبلخي وتلامذته: إن عليًا عليه السلام أفضل من أبي بكر.

وإلىٰ مذهب البغداديين ذهب من البصريين: أبو عبد الله البصري، وأبو محمد الحسن بن متويه، وأبو علي الجبَّائي، والقاضي عبد الجبار من البصريين، بعد ماكانا متوقفين.

وذهب كثير من شيوخ المعتزلة للتوقف فيهما، وهم من المتقدمين: واصل بن عطاء، وأبو الهذيل العلاف، قاطعين علىٰ تفضيله علىٰ عثمان، وممن توقف أيضًا: أبو هاشم عبد السلام الجبَّائي، وأبو الحسين الطيب البصري.

وقال أيضًا: والقول بالتفضيل قديم، قد قال به كثير من الصحابة والتابعين، فمن الصحابة: عمار، والمقداد، وأبو ذرٍّ، وسلمان، وجابر بن عبد الله، وأُبي ابن كعب، وحذيفة، وبريدة، وأبو أيوب، وسهل بن حنيف، وعثمان بن حنيف، وأبو الهيثم بن التيهان، وخزيمة بن ثابت، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، والعباس بن عبد المطلب وبنوه، وبنو هاشم كافة، وبنو المطلب كافةً.

وكان الزبير من القائلين به في بدء الأمر؛ ثم رجع، وكان من بني أمية قوم يقولون بذلك، منهم: خالد بن سعيد بن العاص، ومنهم عمر بن عبد العزيز.

وقال أيضًا: فأما مَنْ قال بتفضيله علىٰ الناس كافة من التابعين فخلقٌ كثيرٌ كأويس القرني، وزيد بن صوحان، وصعصعة أخيه، وجندب الخير، وعَبيدة السلماني وغيرهم، ممن لا يحصىٰ كثرةً.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٧.

أقول: وذهب ابن أبي الحديد إلىٰ مذهب شيوخه من البغداديين من تفضيل علي عليه السلام.

وقال الباقلاني في مناقبه[١]: عن مسألة المفاضلة بين الصحابة: إن الكلام في التفضيل مسألة اجتهاد لا يبلغ الخطأ بصاحبه فيها منزلة الفسق، وما يوجب البراءة؛ لأن الفضائل المرويَّة أكثرها متقابل متعارض في الفضل، وما يُذكر من السبق إلىٰ الإسلام والجهاد وغير ذلك محتمل التأويل.

وقال الباقلاني أيضًا[٢]: فأما القائلون بأنَّا نقف فيهم من غير قطع علىٰ تفضيل أحد منهم أو قطع تساويهم في الفضل، فإنهم أقرب إلىٰ الصواب، وأقدر علىٰ الاحتجاج.

وقال أيضًا: وقد علمنا أن الصحابة مختلفة في التفضيل.

وقال المازري في المُعلِم[٣]: أما تفضيل الصحابة بعضهم علىٰ بعض فقد ذهبت فرقة إلىٰ الإمساك عن هذا، وأنه لا يفضَّل بعضهم علىٰ بعض، وقالت: هم كالأصابع فلا ينبغي أن يتعرَّض للتفضيل بينهم.

قال الإيجي في مواقفه[٤]: واعلم أن مسالة الأفضلية لا مطمعَ فيها في الجزم واليقين، وليست مسألة يتعلق بها عمل فيكتفىٰ فيها بالظن.

أقول: كما علم سابقًا أن الأمة اختلفت في المفاضلة بين الصحابة، ومنهم مَنْ توقف في ذلك، وكلٌّ له من الأدلة والبراهين، والله العالم.

---

(١) المناقب، ص ٢٩٥.

(٢) المناقب، ص ٥١٣.

(٣) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض: ٧/ ١٩٠.

(٤) المواقف، ص ٤١٢.

۞ الخبر اليقين في فضل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ۞

قال أبو عبدالبر في استيعابه[١]: وقال أحمد بن حنبل، وإسماعيل بن إسحاق القاضي: لم يُروَ في أحد من الصحابة بالأسانيد الحِسَان ما رُوي في فضائل علي ابن أبي طالب، وكذا قال أحمد بن شعيب بن علي النسائي رحمه الله، وزاد ابن حجر في الفتح:[٢] أبو علي النيسابوري.

قال أحمد في فضائله[٣]: حدثنا عبد الله، قال: حدثني أبي، ثنا محمد بن جعفر، نا شعبة، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن علقمة، عن عبد الله قال: كناً نتحدث أن أفضل (عند ابن عبد البر «أقضىٰ») أهل المدينة علي بن أبي طالب.

قال ابن عبد البر في استيعابه[٤]: عن أحمد بن زهير قال: أخبرنا يحيىٰ بن معين، قال: حدثنا عبدة بن سليمان، عن عبد الملك بن أبي سليمان، قال: قلت لعطاء: أكان في أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم أحدٌ أعلم من علي، قال: لا والله، ما أعلمه!

قال ابن حجر في تهذيبه[٥]: في ترجمة علي بن أبي طالب: قال ابن عبد البر: رُوي عن سلمان، وأبي ذرٍّ، والمقداد، وخبَّاب، وجابر،

---

(١) الاستيعاب: ٣/ ٢١٣.
(٢) فتح الباري: ٤/ ٧٩٥.
(٣) أخرجه أحمد في الفضائل (١٠٣٣)، (١٠٩٧)؛ وابن عبد البر في الاستيعاب: ٣/ ٢٠٦.
(٤) الاستيعاب: ٣/ ٢٠٦.
(٥) تهذيب التهذيب: ٣/ ٢٠٢.

وأبي سعيد الخدري، وزيد بن الأرقم أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول مَنْ أسلم.

وقال ابن حزم أيضًا[١]: ورُوينا عن عشرين من الصحابة أن أكرم الناس علىٰ رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام.

وقال ابن حزم أيضًا[٢]: وأيضًا فإن يوسف بن عبد الله النمري حدثنا قال: حدثنا خلف بن قاسم، ثنا أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن علي الكندي، حدثنا محمد بن العباس البغدادي، ثنا إبراهيم بن محمد البصري، ثنا أيوب بن سليمان بن داود الشاذكوني، قال: كان عمار بن ياسر والحسن بن علي يفضِّلان علي بن أبي طالب علىٰ أبي بكر الصديق وعمر.

قال ابن حجر في إصابته[٣]: في ترجمة الصحابي عامر بن واثلة، أبو الطفيل: وقال صالح ابن أحمد بن حنبل، عن أبيه: أبو الطفيل مكي ثقة، وذكر البخاري في التاريخ الصغير عن أبي الطفيل، قال: أدركت ثمان سنين من حياة النبي ﷺ، قال أبو عمر: كان يفضِّل أبا بكر وعمر، لكنه يقدِّم عليًا.

قال ابن حزم في فِصَله[٤]: اختلف المسلمون فيمن هو أفضل بعد الأنبياء عليهم السلام، فذهب بعض أهل السُّنَّة، وبعض المعتزلة، وبعض المرجئة، وجميع الشيعة، إلىٰ أن أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد رُوينا هذا القول نصًا عن بعض الصحابة رضي الله عنهم،

(١) الفصل في الملل والنحل: ٤/ ١٨١.
(٢) الفصل في الملل والنحل: ٤/ ٢٠٩.
(٣) الإصابة: ٤/ ٢٢٧٨.
(٤) الفصل في الملل والنحل: ٤/ ١٨١.

وعن جماعة من التابعين والفقهاء، وذهب بعض أهل السنة، وبعض المعتزلة، وبعض المرجئة، إلىٰ أن أفضل الصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبو بكر، ثم عمر.

قال الباقلاني في مناقبه[1]: القول بتفضيل علي رضوان الله عليه مشهور عند كثير من الصحابة، كالذي يروىٰ عند عبد الله بن عباس، وحذيفة بن اليمان، وعمار، وجابر بن عبد الله، وأبي الهيثم بن التيهان وغيرهم.

ثم قال: وإن كانت الرواية في تفضيل أبي بكر أشهر عند أصحاب الحديث.

وقال أيضًا[2]: قد رُوي أن قومًا من الصحابة رضي الله عنهم كانوا يذهبون إلىٰ تفضيل علي علىٰ أبي بكر.

قال القاضي عبد الجبار في مغنيه[3]: وأما تفضيل أمير المؤمنين عليه السلام فمرويٌّ عن الزبير، وحذيفة بن اليمان، وجابر بن عبد الله، وعمار، وسلمان، وأبي ذرٍّ، والمقداد، وعن طبقة من التابعين ومَنْ بعدهم كمجاهد، وعطاء، وسلمة بن كهيل، والحكم.

قال عبد الجبار في شرحه[4]: فأما عندنا: إن أفضل الصحابة أمير المؤمنين علي ثم الحسن ثم الحسين، وقال أيضًا: ومما يدل علىٰ ذلك إجماع أهل البيت.

(١) المناقب، ص ٢٩٤.

(٢) المناقب، ص ٢٧١.

(٣) المغني: ٢٠/ ٢/ ١١٥.

(٤) شرح الأصول الخمسة، ص٧٦٧.

قال ابن أبي الحديد في شرحه للنهج[١]: والقول بالتفضيل قديم، قد قال به كثيرٌ من الصحابة والتابعين، فمن الصحابة: عمار، والمقداد، وأبو ذرٍّ، وسلمان، وجابر بن عبد الله، وأُبيٌّ بن كعب، وحذيفة، وبريدة، وأبو أيوب، وسهل بن حنيف، وعثمان بن حنيف، وأبو الهيثم بن التيهان، وخزيمة بن ثابت، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، والعباس بن عبد المطلب وبنوه، وبنو هاشم كافة، وبنو المطلب كافة.

وكان الزبير من القائلين به في بدء الأمر؛ ثم رجع، وكان من بني أميةَ قومٌ يقولون بذلك، منهم: خالد بن سعيد بن العاص، ومنهم عمر بن عبد العزيز.

وقال أيضًا[٢]: فأما مَنْ قال بتفضيله علىٰ الناس كافة من التابعين فخلقٌ كثير كأويس القرني، وزيد بن صوحان، وصعصعة أخيه، وجندب الخير، وعَبيدة السلماني وغيرهم، ممن لا يُحصىٰ كثرةً.

أقول: ذكر ابن أبي الحديد في شرحه للنهج[٣] نكتة في لفظة الشيعة وعلىٰ مَنْ أُطلقت، قال: ولم تكن لفظة الشيعة تُعرف في ذلك العصر -يقصد عصر التابعين- إلا لمن قال بتفضيله، ولم تكن مقالة الإمامية ومَنْ نحا نحوها من الطاعنين في إمامة السلف مشهورةً حينئذٍ علىٰ هذا النحو من الاشتهار، فكان القائلون بالتفضيل هم المسمَّون بالشيعة، وجميع ما ورد من الآثار والأخبار في فضل الشيعة وأنهم موعودون بالجنة، فهؤلاء هم المعنيُّون به دون غيرهم، ولذلك قال أصحابنا المعتزلة في كتبهم وتصانيفهم: نحن الشيعة حقًا، فهذا القول هو أقرب إلىٰ السلامة وأشبه بالحق من القولين المقتسمين طرفي الإفراط والتفريط إن شاء الله.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٢٢١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٢٢٦.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٢٢٦.

قال ابن عبد البر أيضًا[١]: واختلف السلف في تفضيل علي وأبي بكر.

وقال أيضًا[٢]: في اختلاف أهل السُّنَّة والسلف في علي وعثمان، قال: وقف جماعة من أئمة أهل السُّنَّة والسلف في علي وعثمان رضي الله عنهما، فلم يفضِّلوا أحدًا منهما علىٰ صاحبه، منهم مالك بن أنس، ويحيىٰ بن سعيد بن القطان، وأما اختلاف السلف في تفضيل علي فقد ذكر ابن أبي خيثمة في كتابه من ذلك ما فيه كفاية، وأهل السُّنَّة اليوم علىٰ ما ذكرت لك من تقديم أبي بكر في الفضل علىٰ عمر، وتقديم عمر علىٰ عثمان، وتقديم عثمان علىٰ علي رضي الله عنهم، وعلىٰ هذا عامة أهل الحديث من زمن أحمد بن حنبل إلا خواص من جلَّة الفقهاء وأئمة العلماء، فإنهم علىٰ ما ذكرنا عن مالك ويحيىٰ القطان وابن معين؛ فهذا ما بين أهل الفقه والحديث في هذه المسألة، وهم أهل السُّنَّة، وأما اختلاف سائر المسلمين في ذلك يطول ذكره، وقد جمعه قوم، وقد كان بنو أمية ينالون منه، وينقصونه فما زاده الله بذلك إلا سموًّا وعلوًّا ومحبة عند الأمة.

قال ابن الجزري في غايته[٣]: وأجمع المسلمون على أنه قُتِلَ شهيدًا يوم قتل وما على وجه الأرض أفضل منه.

أقول: ذكر شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمود سعيد ممدوح القاهري في كتابه (المفاضلة بين الصحابة): في القائلين بأفضلية علي عليه السلام علىٰ غيره، وهم أهل البيت منهم: الحسن بن علي وجملة من الصحابة وعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، ومحمد بن أبي بكر، وعدي بن حاتم، وحجر بن عدي، ومن التابعين منهم: الحارث بن الأعور الهَمْداني،

---

(١) الاستيعاب: ٣/ ٢١٤.

(٢) الاستيعاب: ٣/ ٢١٤، ٢١٥.

(٣) غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ٤٣٨ ترجمة رقم ٢٢٣٤.

وعطية بن سعد بن جنادة الكوفي، وأبو عبد الله الجدلي، والمسيب بن نجية الفزاري، والكميت بن زيد، ومعاوية بن إسحاق الأنصاري، ودعبل الخزاعي، ونصر بن خزيمة الأسدي، وحبة بن جوين العرني، وعدي بن ثابت، وأبو الأسود الدؤلي، والأشتر النخعي، وسلمة بن كهيل، وكدير بن قتادة الضبي.

أقول: وما نذهب إليه في أمر الخلفاء الأربعة أن لكل واحد منزلته، وان عليًا يعد من العترة ومن القربىٰ قبل أن يكون صحابيًا، ولا سيما أنه أثبتت له جميع المنازل التي كانت لهارون من موسىٰ ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ باستثناء النبوة، والإمامة من المنازل الثابتة لهارون من موسىٰ والأمر في ذلك متواتر، وفضائله أكبر من أن تحصى ومناقبه أعظم من أن تستقصى، وأن كل المناقب التي كانت متفرقة في الصحابة اجتمعت في الإمام علي ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾، وهذا بالإجماع لا سيما أنه من نفس رسول الله ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ﴾ بما أجمع به المفسرون في آية المباهلة، وبما ثبت عن عصمته في آية التطهير واجتمع عليه المفسرون والمحدثون والثابت عندي والمتفق عليه عند أهل الحق بالإجماع على أن الإمام علي ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ مصيب في قتاله مع الخارجين عليه من الناكثين أصحاب الجمل والقاسطين البغاة من أصحاب صفين والمارقين من أصحاب النهروان، ولا شك أن الحق معه فيما فعل من خروجه وحروبه، وأن ما حدث في الجمل وصفين والنهروان كان من المخالفة الظاهرة وكان من أسباب الانشقاق في الأمة في العصور الأولى.

والناكثون من النَّكْث: أي نَقْض العَهْد، والاسْمُ: النِكثُ بالكسر. وقد نَكَث يَنْكُث وأرادَ بهم أهلَ وقْعة الجَمل لأنَّهم كانوا بايعوه ثم نَقَضوا بَيْعَتَه وقاتَلوه فالناكثون هم الذين نكثوا العهد والبيعة له وخرجوا عليه في البصرة وفي مقدمهم طلحة والزبير، وقاتلوه ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ بجيش كان في مقدمته أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها وخرجت وقد أرتقت هودج على جمل أخذ بخطامه كعب بن مسور

فسميت تلك الحرب حرب الجمل، واصحاب الجمل فهم عندنا كلهم مخطئون خارجون متأولون مطالبين بدم عثمان رضي الله عنه وجانبوا الصواب في خروجهم فخلعوا طاعة إمام المسلمين فكانوا ناكثون، خلا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وطلحه والزبير رضي الله عنهما، فإنهم ندموا وتابوا على ما ورد من الأخبار الصحاح بتوبتهم ورجوعهم ولا خلاف علىٰ ذلك.

قال ابن الأثير في أُسده[1]: وقال علي لما بلغه مسير طلحة والزبير وعائشة: «منُيت بأربعة: أدهى الناس وأسخاهم طلحة وأشجع الناس الزبير وأطوع الناس في الناس عائشة وأكثر الناس غنى يعلى بن مُنية، والله ما أنكروا علي شيئًا، ولا استأثرت بمال ولا ملْت بهوى، وإنهم يطلبون حقًا تركوه، ودمًا سفكوه، ولقد وّلُوه دوني، وإن كنت شريكهم في الإنكار لما أنكروه، وما تَبِعة عثمان إلا عندهم، بايعوني ونكثوا بيعتي وما استأنوا في حتى يعرفوا جوري من عَدَّلي وإني لراضي بحُجَّة الله عليهم وعلمه فيهم، وإني مع هذا لداعيهم ومعذر إليهم فإن قبلوه فالتوبة مقبولة والحق أولى ما انصرف إليه وإن أبوا أعطيتهم حد السيف وكفى به شافيًا من باطل وناصرًا».

قال الذهبي في سيره[2]: ولا ريب أن عائشة ندمت ندامة كلية على مسيرها إلى البصرة وحضورهما يوم الجمل.

وقال أيضًا: روى عن «إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال قالت عائشة وكانت تحدث نفسها أن تُدفن في بيتها، فقالت: إني أحدثتُ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثا، ادفنوني مع أزواجه، فدُفنت بالبقيع رضي الله عنها»[3]. قلت: تعني بالحدث

(١) أسد الغابة ٣/ ٨٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٧٧.

(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ٧٤، وصححه الحاكم ٤/ ٦، ووافقه الذهبي.

مسيرها يوم الجمل، فإنها ندمت ندامة كلية، وتابت من ذلك، على أنها ما فعلت ذلك إلا متأولة قاصدة للخير، كما اجتهد طلحة بن عبدالله والزبير بن العوام وجماعة من الكبار رضي الله عن الجميع».

قال التفتازاني في شرحه[١]: والذي اتفق عليه أهل الحق أن المصيب في جميع ذلك علي رضي الله تعالى عنه لما ثبت من إمامته ببيعة أهل الحل والعقد وظهر من تفاوت ما بينه وبين المخالفين سيما معاوية وأحزابه وتكاثر من الأخبار في كون الحق معه وما وقع عليه الاتفاق حتى من الأعداء إلى أنه أفضل زمانه وأنه لا أحق بالإمامة منه والمخالفون بغاة لخروجهم على الإمام الحق بشبهة هي تركه القصاص من قتلة عثمان رضي الله تعالى عنه ولقوله ﷺ لعمار تقتلك الفئة الباغية وقد قتل يوم صفين على يد أهل الشام ولقول علي رضي الله تعالى عنه إخواننا بغوا علينا وليسوا كفارا ولا فسقة ولا ظلمة لما لهم من التأويل وإن كان باطلا فغاية الأمر أنهم أخطأوا في الاجتهاد

وقال أيضًا[٢]: وقد صح ندم طلحة والزبير رضي الله عنهما وانصراف الزبير رضي الله عنه عن الحرب واشتهر ندم عائشة رضي الله عنها.

قال ابن عبدالبر في استيعابه[٣]: وروى إسماعيل بن علية عن أبي سفيان بن العلاء عن ابن أبي عتيق قال قالت عائشة: إذا مر ابن عمر فارونيه فلما مر ابن عمر قالوا: هذا ابن عمر، فقالت: يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهاني عن مسيري؟ قال: رأيت رجلًا قد غلب عليك، وظننت أنك لا تخالفينه يعني ابن الزبير. قالت: أما إنك لو نهيتني ما خرجت.

---

(١) شرح المقاصد ١/٣٠٧-٣٠٨.
(٢) شرح المقاصد ١/٣٠٧-٣٠٨.
(٣) الاستيعاب ٢/١٣.

قال الزيلعي في نصبه[١]: «وقد أظهرت عائشة الندم، كما أخرجه ابن عبد البر في «كتاب الاستيعاب» عن ابن أبي عتيق وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال: قالت عائشة لابن عمر: يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهاني عن مسيري؟ قال: رأيت رجلا غلب عليك -يعني ابن الزبير- فقالت: أما والله لو نهيتني ما خرجت انتهى».

قال الألباني في سلسلته الصحيحة[٢]: ولا نشك أن خروج أم المؤمنين كان خطأ من أصله ولذلك همت بالرجوع حين علمت بتحقق نبوءة النبي ﷺ عند الحوأب، ولكن الزبير رضي الله عنه أقنعها بترك الرجوع بقوله «عسى الله أن يصلح بك بين الناس» ولا نشك أنه كان مخطئا في ذلك أيضا. والعقل يقطع بأنه لا مناص من القول بتخطئة إحدى الطائفتين المتقاتلتين اللتين وقع فيهما مئات القتلى ولا شك أن عائشة رضي الله عنها المخطئة لأسباب كثيرة وأدلة واضحة، ومنها ندمها على خروجها، وذلك هو اللائق بفضلها وكمالها، وذلك مما يدل على أن خطأها من الخطأ المغفور بل المأجور.

أقول: والحق أن خروج أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام كان من الخطأ وقد أجتهدت وتأولت رضي الله عنها وما كان قصدها إلا إجتهادًا للإصلاح بين الطائفتين، وتسكين الفتنة إلا أنها جانبها الصواب، فتعجلت في الأمر خشية ضياع دم عثمان، لكنه ظهر خلاف مقصدها، فوقعت الحرب وكانت الفتنة العظمى بأقتتال فئتين من المسلمين، وفي مسيرها تذكرت قول الصادق المصدوق ﷺ «كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ إِذْ نَبَحَتْ عليها كِلَابُ

(١) نصب الراية (٤/ ٦٩-٧٠).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٨٥٤.

الْحَوْأَبِ»[١]، وهذا من علاماته نبؤته ﷺ، وأنه لا ينطق عن الهوى، فندمت وهمت بالرجوع إلا أنه غلب عليها الأمر من قبل الزبير رضي الله عنه وتهيج والذي أقنعها بترك الرجوع، بقوله «عسى الله أن يصلح بك بين الناس» فأكملت مسيرها ووقعت الحرب وكان ما كان، ولا راد لأمر الله.

لكنها رضي الله عنها تابت بعد حدوث االحدث الذي أحدثته بعد وفاته ﷺ، وعندها ثبت لنا خطائها بإدلة واضحة بخروجها على إمام زمانه، فكان من ذلك ندمها وتوبتها، ولم تزل رضي الله عنها نادمة مستغفرة ربها على ذلك حتى آخر عمرها، كما صح عنها أنه كانت تردد قولتها الشهيرة «وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا»[٢]، ولا شك عندنا أن في ذلك تحققت لنا فضيلتها برجوعها إلى الحق، وذلك يعد من فضلها وعلمها ومقامها فهي أم المؤمنين بنص كلام رب العالمين، وهي زوجته في الدنيا والآخرة، ومات صلوات راب وسلامه عليه على صدرها بين سحرها ونحرها فأية فضيلة وكرامة توازيها، قَالَ حبيبي وقرة عيني صلوات ربي وسلامه عليه «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[٣].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٧٧١)، وأحمد في المسند (٢٤٢٥٤)، (٢٤٦٥٤)، والبزار (٤٧٧٧)، وأبي يعلى (٤٨٦٨)، وابن حبان (٦٧٣٢)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٢٠) واللفظ له.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٧٣٥)، وأحمد في المسند (٢٤٩٦)، (٣٢٦٢) وفي الفضائل (٧٥٠)، والبخاري (٤٧٥٣) واللفظ له، وأبي يعلى (٢٦٤٨) واللفظ له، والحاكم في المستدرك ٤/ ٨.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٢٢٣١)، وأحمد في المسند (١٢٥٩٧)، والدارمي (٢١١٣)، والبخاري (٥٤١٩)، ومسلم (٢٤٤٦).

أما القاسطين البغاة فهم معاوية وأصحابه الخارجين على إمام المسلمين، ولا شك عندنا بالحديث الصحيح أن معاوية وأصحابه بُغاة بلا خلاف، ولا اعتبار بقول البعض أن الفئة الأخرى لا إثم عليهم وأنهم مجتهدون، وقد فصل الحديث الصحيح في بغي معاوية وأصحابه، وبذلك أن تأويل قولهم ظني الدلالة، وقولنا قطعي الدلالة بأن معاوية وأصحابه بُغاة، وقد دل على ذلك حديث الصادق المصدوق في الصحيحين وفي غيرهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**ويح عمار تقتله الفئة الباغية**»[(١)].

فأنه صلى الله عليه وآله وسلم لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وكل هذا وقع مثل فلق الصبح، فأن الفئة الأخرى بإصرارها على مقاتلة من كان معه عمار معاندة للحق وتماد في الباطل.

قال الإمام النووي بعد قوله صلى الله عليه وسلم: «بؤس ابن سمية تقتلك فئة باغية»[(٢)] (قال العلماء: هذا الحديث حجة ظاهرة في أن عليًّا رضي الله عنه كان محقًّا مصيبًا والطائفة الأخرى بغاة).

قال أيضًا في تهذيبه[(٣)]: وكانت الصحابة يوم صفين يتبعونه حيث توجه؛ لعلمهم بأنه مع الفئة العادلة لهذا الحديث. قالوا: وكان عمارًا أول من بنى مسجدًا لله تعالى فى الإسلام، بنى مسجد قباء، وشهد قتال اليمامة فى زمن أبي بكر، رضي الله عنه، فأشرف على صخرة ونادى: يا معشر المسلمين، أمن الجنة تفرون؟ إليَّ إليَّ أنا عمار بن ياسر، وقطعت أذنه وهو يقاتل أشد القتال.

---

(١) ابن أبي شيبة في المصنف (٣٩٠٣٠، ٣٩٠٠٠، ٣٩٠٣١)، وأحمد (١١٨٦١)، والبخاري (٣/ ١٠٣٥، رقم ٢٦٥٧)، واللفظ له، ومسلم (٢٩١٦)، والترمذي (٣٨٠٠) وقال حسن صحيح غريب، والنسائي في الكبرى (٨٥٤٧)، وابن حبان (١٥/ ٥٥٤، رقم ٧٠٧٩) وغيرها.

(٢) رواه مسلم ٢٩١٥.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٨.

قال ابن كثير في بدايته[١]: كان علي وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحق من أصحاب معاوية، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: حدثني من هو خير مني -يعني أبا قتادة- أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**».

قال الذهبي في سيره[٢]: هُم طَائِفَةٌ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ بَغَتْ عَلَى الإِمَامِ عَلِيٍّ، وَذَلِكَ بِنصِّ قَوْلِ المُصْطَفَى -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ- لِعَمَّارٍ: «**تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةُ**».

قال ابن حجر في فتحه[٣]: «وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة وفضيلة ظاهرة لعلي ولعمار ورد على النواصب الزاعمين أن عليًا لم يكن مصيبًا في حروبه.

وقال أيضًا[٤]: واحدة الرد على الخوارج ومن تبعهم في تكفيرهم كلا من الطائفتين ودل حديث تقتل عمارًا الفئة الباغية على ان عليا كان المصيب في تلك الحرب لان أصحاب معاوية قتلوه.

قال ابن تيمية في فتاويه[٥]: بعد ذكره لقوله ﷺ: «**تقتل عمارًا الفئة الباغية**»، (وهذا أيضًا يدل على صحة إمامة علي ووجوب طاعته وأن الداعي إلى طاعته

(١) البداية والنهاية ٧/ ٢٧٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٠٩.
(٣) فتح الباري ١٣/ ٩٢.
(٤) فتح الباري ١٣/ ٩٢.
(٥) مجموع الفتاوى ٤/ ٤٣١.

داع إلى الجنة والداعي إلى مقاتلته داع إلى النار وإن كان متأولًا وهو دليل على أنه لم يمكن يجوز قتال علي وعلى هذا فمقاتله مخطئ وإن كان متأولًا، أو باغ بلا تأويل وهو أصح القولين لأصحابنا وهو الحكم بتخطئة من قاتل عليًا وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين وكذلك أنكر يحيى بن معين على الشافعي استدلاله بسيرة علي في قتال البغاة المتأولين.

أما المارقون[1] بلا خلاف فهم أصحاب النهروان الخارجون المارقون نزعوا يدهم عن طاعة الإمام علي عليه السلام عنه بعدما بايعوه وتابعوه في حرب أهل الشام، وزعموا أنه كفر حيث رضي بالتحكيم، وذلك أنه لما طالت محاربته عليه السلام ومعاوية بصفين، واستمرت حتى اتفق الفريقان على تحكيم أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص في أمر الخلافة وعلى الرضا بما يريانه فاجتمع الخوارج على عبد الله بن وهب الراسبي وساروا إلى النهروان وسار إليهم الإمام علي عليه السلام بعسكره وكسرهم وقتل الكثير منهم، وهم المارقة وقد أطلقت عليهم عدة مسميات فهم الخوارج والمحكمة والحرورية[2].

---

(١) قال الشهرستاني في ملله ج١ ص١١٥: «وهم المارقة الذين اجتمعوا بالنهروان»، ويؤكد الأشعري في مقالاته ٢٠٧/١ بقوله: وهم يرضون بهذه الألقاب كلها إلا المارقة، فإنهم ينكرون أن يكونوا مارقة من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

(٢) **الحرورية**: نسبة إلى الموضع الذي خرج فيه أسلافهم حينما انشقوا وخرجوا عن جيش الإمام علي فاتجهوا إلى هذا الموضع، فنسبت هذه الطائفة إليه وهو موضع قريب من الكوفة يسمى حروراء، والمحكمة وهو من أوائل أسمائهم التي أطلقت عليهم، وقد أطلق عليهم بسبب إنكارهم تحكيم الحكمين وقولهم: «لا حكم إلا لله»، ويؤكد الأشعري: مبينًا سبب تسميتهم بالحرورية: «والذي سموا له حرورية نزولهم بحروراء في أول أمرهم» وتبعه البغدادي في الفَرق بين الفِرق ص٧٥.

وبذلك فإن من حارب الإمام علي فقد حارب النبي ﷺ كما جاء في الحديث الصحيح **فقد أخرج أحمد عن تليد بن سليمان، عن أبي الجحاف، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: «نظر النبي ﷺ إلىٰ علي والحسن والحسين وفاطمة فقال: أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم»**[1] وقد حارب معاوية الإمام علي، وقلب الأمور وسعىٰ فيها حتىٰ حول الخلافة والشورىٰ إلىٰ الملك العضوض فأصبحت بدعة من بعده ابتدعها وسنوها أقوام حتىٰ أصبح ملكًا جبريًا وهو ما نحن فيه اليوم وهو ما ليس لها أصل في الإسلام، وستكون بإذن الله خلافة علىٰ منهاج النبوة.

قال النبي الله ﷺ: «**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة علىٰ منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة علىٰ منهاج النبوة، ثم سكت**»[2].

أقول: أن نصر وتمكين المسلمين لا يحتاج إلىٰ من يتسمىٰ اليوم بأسماء منظمات وجماعات وتحزبات، مجهولة المصدر معلولة المقصد، ممن تقمصوا في زماننا قميص الدولة الاسلامية، وشوهوا حقيقة عودة الخلافة الإسلامية، بأفعالهم الشنيعة وما ذلك إلا لإجهاض اي عمل شريف من أجل إقامة دولة

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٤٤٣، صحيح الترمذي. كتاب المناقب، فضائل فاطمة ٥/ ٦٥٦، سنن ابن ماجه - فضائل الحسن والحسين ١/ ٥٢، المعجم الكبير ٣/ ٤٠ رقم: ٢٦١٩، ٢٦٢٠، ٢٦٢١، المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ١٤٩.

(٢) (مسند أحمد: ١٨٤٠٦).

الخلافة الاسلامية، أن النصر والتمكين يكون تحت راية معلومة المصدر، مفهومة المقصد، خلافة تنادي بأمان الشعوب جهادها الكلمة الطيبة والدعوة الىٰ سبيل الله بحكمة وموعظة حسنة وليس بالقتل وارهاب الشعوب، ان دولة الخلافة الاسلامية هي دعوة الىٰ حوار الاديان وتقارب المذاهب وهذا كله تفتقده تلك المسميات التي ظهرت في زماننا، والله غالب علىٰ امره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فاللهم أقر أعيننا بعودة الخلافة الإسلامية في البلاد الإسلامية.



۞ صحة خبر معاوية في أمره بسبِّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ۞

قال الإمام (مسلم)[١]: حدثنا قتيبة بن سعيد، ومحمد بن عباد (وتقاربا في اللفظ) قالا: حدثنا حاتم (وهو: ابن إسماعيل) عن بكير بن مسمار، عن عامر ابن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعدًا، فقال: ما منعك أن تسبَّ أبا التراب؟ فقال: أمَّا ما ذكرت ثلاثًا قالهنَّ له رسول الله ﷺ فلن أسبَّه، لَأَنْ تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حُمْر النَّعَم؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول له خلفه في بعض مغازيه فقال له علي: يا رسول الله! خلفتَني مع النساء والصبيان! فقال له رسول الله ﷺ: «**أما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ؟ إلا أنه لا نبيَّ بعدي**» وسمعته يقول يوم خيبر: «**لأعطينَّ الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**». قال: فتطاوَلْنا لها، فقال: «**ادعوا لي عليًا**». فأُتي به أرمدَ، فبصق في عينه، ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه.

ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾ دعا رسول ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، فقال: «**اللَّهُمَّ هَؤُلاَءِ أَهْلِي**»[٢].

---

(١) مسلم (٤/ ١٨٧٢) برقم (٢٤٠٤)؛ البخاري (٣/ ١٠٨٦، ١٣٥٧، ٤/ ١٥٤٢) (٢٨١٢، ٣٤٩٩، ٣٩٧٢)؛ أحمد (٤/ ٥١)؛ ابن أبي شيبة (٦/ ٣٧٠).

(٢) أخرجه البخاري بمعناه (٣٧٠٣)؛ وابن ماجه (١٢١)؛ والترمذي (٤٠٥٨) من طريق عامر ابن سعد، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه؛ وقال ابن حجر في الإصابة (٢/ ١٢٩٦): سنده قوي، وقال الألباني وشعيب: صحيح؛ والنسائي في الكبرىٰ (٨٣٤٢)؛ وبمعناه (٨٣٤٣) والحاكم في المستدرك ٣/ ١٠٨ وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا السياق، ووافقه الذهبي علىٰ تصحيحه إلا أنه تعقَّبه بقوله: مسلم فقط.

وقال الإمام (مسلم) أيضًا[١]: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا عبد العزيز (يعني: ابن أبي حازم) عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: استُعمل علىٰ المدينة رجلٌ من آل مروان. قال: فدعا سهلَ بن سعد، فأمره أن يشتم عليًا. قال: فأبىٰ سهلٌ، فقال له: أما إذ أبيتَ فقل: لعن الله أبا التراب! فقال سهل: ما كان لعليٍّ اسمٌ أحب إليه من أبي التراب، وإن كان ليفرح إذا دُعي بها، فقال له: أخبرنا عن قصته لم سُمِّي أبا تراب؟ قال: جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة، فلم يجد عليا في البيت، فقال أين ابن عمكِ؟ فقالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني، فخرج فلم يُقِلْ عندي. فقال رسول الله ﷺ لإنسان: «**انظر أين هو**»، فجاء فقال: يا رسول الله! هو في المسجد راقد، فجاءه رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رِداؤه عن شقِّه، فأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول: «**قُمْ أَبَا التُّرَابِ قُمْ أَبَا التُّرَابِ**»[٢].

قال أبو العباس القرطبي في مفهمه[٣]: قول معاوية لسعد بن أبي وقاص: ما منعك أن تسبَّ أبا تراب. يدل علىٰ أن مقدم بني أمية كانوا يسبّون عليًا وينتقصونه، وذلك كان منهم لِما وقَر في أنفسهم من أنه أعان علىٰ قتل عثمان، وأنه أسلمه لمن قتله، بناءً منهم علىٰ أنه كان بالمدينة، وأنه كان متمكنًا من نصرته، وكل ذلك ظنّ كذب، وتأويل باطل غطىٰ التعصب منه وجه الصواب.

---

(١) مسلم في صحيحه: ٤/ ١٨٧٥ حديث رقم (٢٤٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٠٣) من طريق هشام بن عمار، في باب فضائل أصحاب النبي، باختلاف بسيط في اللفظ؛ابن حبان في صحيحه: ١٥/ ٣٦٩ حديث رقم (٦٩٢٥) من طريق هشام أيضًا، وقال شعيب: حديث صحيح.

(٣) المفهم شرح صحيح مسلم: ٦/ ٢٧٢.

وقال النووي في منهاجه[١]: قوله (إن معاوية قال: لسعد بن أبي وقاص: ما منعك أن تسبَّ أبا تراب؟) قال العلماء: الأحاديث الواردة التي في ظاهرها دخل علىٰ صحابي صحابي، يجب تأويلها؛ قالوا: ولا يقع في روايات الثقات إلا ما يمكن تأويله، فقول معاوية هذا ليس فيه تصريح بأنه أمر سعدًا بسبِّه، وإنما سأله عن السبب المانع له من السبِّ؟ كأنه يقول: هل امتنعت تورعًا أو خوفًا أو غير ذلك؟ فإن كان تورعًا، وإجلالًا له عن السبِّ، فأنت مصيب محسن، وإن كان غير ذلك، فله جواب آخر . . . . . .).

قال المحدث السِّنْدي عند شرحه لرواية ابن ماجه[٢]: قوله: (فنال منه) أي: نال معاوية من عليٍّ ووقع فيه وسبَّه، بل أمر سعدًا بالسبِّ كما قيل في مسلم والترمذي، ومنشأ ذلك الأمور الدنيوية التي كانت بينهما، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والله يغفر لنا ويتجاوز عن سيئاتنا.

قال المسعودي في مروجه[٣]: عند ذكره لأتباع معاوية واشتدادهم في طاعته: ثم أرتقىٰ بهم الأمر في طاعته إلىٰ أن جعلوا لعن عليّ سنّة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير.

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج[٤]: ورویٰ أبو عثمان أن قومًا من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين، إنك قد بلغت ما أملت، فلو كففت عن

---

(١) شرح مسلم للنووي - المنهاج: ١٥/ ١٧٥-١٧٦ أو طبعة خليل الميس: ١٥/ ١٨٤-١٨٥.

(٢) حاشية السندي، ص ١٢١.

(٣) مروج الذهب ٣: ٤٢.

(٤) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ٤: ٥٧.

لعن هذا الرجل! فقال: لا والله حتىٰ يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلا.

قال ابن الطقطقي في الفخري في ترجمته عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ[1]: **وهو الذي قطع السب عن أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وسلامه، وكان بنو أمية يسبونه علىٰ المنابر.**

أقول: تواترت الأخبار الصحيحة علىٰ سبِّ بني أمية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد عرضنا أقوال الحفَّاظ الشارحين: كالقرطبي، والنووي، والسِّنْدي، وقد أيَّدا القرطبي والسِّنْدي ما جاء في سبِّ معاوية ومن خلفه من بني أمية لعلي بن أبي طالب، أما الحافظ النووي فقد أقرَّ بصحة الحديث، وأنه جاء من طرق الثقات، إلا أنه رَحِمَهُ اللهُ يبرر لمعاوية قوله لسعد: ما منعك ان تسب أبا تراب؟ بقوله: أن معاوية لم يصرح بأنه أمر سعدًا بسبه وإنما سأله عن السبب المانع، ردَّ السبَّ بالتأويل والاحتمالات وأوَّلها بالرأي الظني مخالفًا للنص القطعي والله العالم، ونقول في مقابل الرأي والتأويل والاحتمالات الظنية ردًا علىٰ من قال أن معاوية لم يسب أو أنه لم يأمر بالسب، لماذا لم يمنع معاوية رعاياه عن السب، وبأعتباره الحاكم السياسي وصاحب منصب اول ملك في الإسلام في ذلك الوقت لماذا لم يأمر بأيقاف السب للإمام علي، إن الحق والصحيح ما ثبت بلا خلاف في الروايات الصحيحة والأخبار الصريحة أن معاوية هو من أمر الناس في الحجاز والعراق والشام وغيرها بسب ولعن الإمام علىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ والبراءة منه، وخطب بذلك علىٰ منابر الإسلام، ولقد استمر معاوية في رفض البيعة لعلي، حتىٰ بدأ بحربًا إعلامية لمحو أحقيت الإمام علي وأبنائه

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص١٢٩.

من الخلافة، واتخذها ملكًا لنفسه ولإبنه من بعده، فأمر بأن يسبوه علىٰ المنابر في كل صلاة، إلا أن بعض الصحابة رفضوا ذلك ومنهم سعد بن أبي وقاص الذي جاء أمر امتناعه في حديث صحيح مسلم الذي اوردناه، وصار ذلك اللعن والسب سنُةٍ في أيام بنىٰ أميه أستمرت لإكثر من خمسين عامًا إلىٰ أن قام عمر بن عبد العزيز فأزاله[١]، والحقيقة أن مسألة التعدي والبغض لإمير المؤمنين علي عليه السلام وأهل بيته وذريته لم تنتهي وتنقطع بخلافة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، إنما ما قام به الخليفة عمر بن عبدالعزير هو قطع ذلك مجاهرة علىٰ المنابر، وهو الذي يؤكد أن معاوية كان بأستطاعته منع سب الإمام علي وإيقافه كما فعل عمر بن عبدالعزيز، وهذا ما يؤكد صحة أمره بالسب والشتم.

اجتهاد جماعة من أهل العلم لمسألة سب الأصحاب:

تعرض جماعة من أهل العلم لمسألة سب الأصحاب -رضوان الله عليهم- كالقاضي عياض وابن تيمية وابن قدامة والتقي السبكي، وابن عابدين، والإلوسي الحفيد، وغيرهم من المعاصرين اليوم، وجميعهم يتناولون من تعرض للشيخين، وعثمان، وعائشة، وطلحة، والزبير، رضي الله عنهم، والتي تعتبر مسالة سب من ذكرنا لم تكن في القرون السالفة أي القرنيين الاول والثاني، وأنهم لم يختصوا بمسألة حكم سب أمير المؤمنين علي عليه السلام، وأن ذُكِر فإنما يكون تبعًا وليس تخصيصًا أو استقلالًا، لمسألة حادثة علىٰ الإسلام، ورغم أن مسألة سب الإمام علي عليه السلام أعظم جرمًا من سب الشيخين لما ورد في ذلك من أحاديث صحيحة صريحة أوردناها، لا سيما انها من القضايا الأسبق والتي حدثت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وفي العهود الاولىٰ من تأريخ الدولة الإسلامية، فكان من

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٣٥٦، ٣: ٢٥٨.

الصواب إفراد حكم من تناول عليًا بالسب والشتم على المنابر، فقد أختص عليه السلام عن سائر الصحابة رضي الله عنهم بأن من سبه فقد سب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخلاصة القول أنه كان ينبغي لمن كتب عن حكم سب الصحابة رضوان الله عليهم أن يفصح عن حكم المتعدي على أمير المؤمنين علي عليه السلام، وموقف الدين منه وحكمه، لا سيما أن الإمة حتى اليوم تجني الكثير من الفرقة وعدم اللحمة بسبب بغض وسب الإمام علي عليه السلام، والتي ترتب عليها الكثير من القضايا التي اوجدت فتن وأحداث سياسية كبرى شقت صفوف المسلمين وفرقت جماعتهم .

قال الإمام أحمد في مسنده[1]: حدثنا يحيى بن أبي بكير، قال حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عبد الله الجدلي، قال: دخلت على أم سلمةَ، فقالت لي: أيُسَبُّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيكم؟! قلت: معاذ الله، أو سبحان الله أو كلمةً نحوها، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**مَنْ سبَّ عليًا فقد سبَّني**»[2].

قال الطبراني في معجمه الكبير[3]: حدثنا يحيى بن عبد الباقي الأذني ثنا محمد بن عوف الحمصي ثنا أبو جابر محمد بن عبد الملك ثنا الحكم بن محمد شيخ مكي عن فطر بن خليفة عن أبي الطفيل قال سمعت أم سلمة تقول أشهد أني

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٢٣، رقم ٢٦٧٩١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢١٠٤)، والحاكم ٣/ ١٢١، من الطريق نفسه، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي؛ وأخرجه في تاريخ الإسلام ٢/ ٣٥٩؛ والطبراني في الثلاثة، وأبو يعلى بمعناه (٧٠١٣)؛ والألباني في الصحيحة (٣٣٣٢)، وقال شعيب: إسناده صحيح.

(٣) المعجم الكبير ٢٣/ ٣٨٠ برقم (٩٠١).

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أحب عليا فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله ومن أبغض عليا فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله**»[(١)].



(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب المناقب (ج٩/ ١٢٩) **١٤٧٥٧** وحسنه، وتبعه السيوطي في تاريخ الخلفاء **٢٩٢**، وفي جمع الجوامع **١٦٩٦/ ٢٠١٩٢** ج٨ ص**٣٩٥** وذكره الالباني في الصحيحة **٣/ ٢٨٨** برقم **١٢٩٩**.

۞ أهل الحل والعقد ۞

أهل الحلِّ والعقد: هم أهل الصلاح للاختيار والشورىٰ القادرون علىٰ إبداء الرأي السديد والنُّصح للإمام والأئمة، وحلِّ المشاكل، وإليهم يُرجع في الملمَّات، وسُمُّوا بذلك؛ لأنهم موثَّقون يوثقون العقدة في الأمر بإمضائه وتأكيده كما يملكون حلَّ ما عقدوه ونقض ما أبرموه، وهم أهل حق ليسوا مُسيَّسين معيَّنين من قِبل السلطان يتبعون الهوىٰ، وفي الحقيقة أنهم أصبحوا نادرين في زماننا فقد استطاع الحكام في العالم وضعَ أهل الحلِّ والعقد في رجال الدين العلماء، والحقيقة أن العلماء اليوم الظاهرين بأنهم أهل الحلِّ والعقد هم علماء سلطة مُسيَّسين، والأصل أن يكون أهل الحلِّ والعقد ليسوا من أتباع النظام بل إنهم لا بدَّ أن يكونوا من سواد الناس الأعظم، ولا يختارهم السلطان بل يختارهم ويجمع عليهم الناس، أي ليس بالشرط أن يكونوا علماء أو مثقفين، بقدر أن يكونوا حكماء مخلصين ليسوا مأجورين لا تأخذهم في الحق لومة لائم، والحقيقة انني أؤكد بل أكاد أجزم أن في زماننا لا يوجد أهل حلٍّ وعقد ظاهرين تنطبق عليهم الاهلية، إلا ما رحم ربي فالخير باقي في الأمة، والله المستعان.

ونجد أن الإمامة من شرائطها أن يكون قرشيًا؛ لقوله ﷺ: «**الأئمة من قريش**» فقد رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس رضي الله عنه، وتمامه: «أن رسول الله ﷺ قام علىٰ باب البيت ونحن فيه فقال: «**الأئمة من قريش، إن لهم عليكم حقًا ولكم عليهم حقٌّ مثل ذلك، إن استرحموا رحموا، وإن عاهدوا وفَوا، وإن حكموا عدلوا،**

فَمَنْ لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[١].

ومن الاستدلال علىٰ اشتراط القرشية في الإمام أحاديث كثر، ومن ذلك ما ورد في البخاري، قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان**»[٢].

وقد ورد في صحيح البخاري وصحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الناس تبعُ لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبعٌ لمسلمهم، وكافرهم تبعٌ لكافرهم**»[٣].

والأدلة في ذلك كثيرة رغم تغييبها وتضعيفها، ولكن الأمر يظل قائمًا في نفوس المسلمين الذين قلوبهم تهوي إلىٰ الحقيقة، وهو أمر لا يصلح إلا بقريش فالنبي ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ.

قول الماتريدية:

فقد ذهب جمهور الماتريدية إلىٰ اشتراط القرشية، وفقًا لما ذهب إليه أكثر الأئمة والفقهاء كالإمام الشافعي والإمام أحمد والإمام أبي حنيفة والإمام مالك[٤].

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٣٠).

(٢) سبق تخريجه(ص٣٣١).

(٣) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب (١) المناقب: ٤/ ١٥٤؛ ورواه مسلم في كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة، رقم ١/١٨١٨، ٦/ ٤٣٩.

(٤) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلىٰ: ١/ ٢٦؛ أصول الدين للبغدادي، ص ٢٧٥؛أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٧٢١؛ والتمهيد للنسفي، ص ٣٩٧ - ٣٩٨؛ شرح العقائد النسفية، ص ٩٦؛ المواقف للإيجي، ص ٣٩٨.

وقد ذهب أحد الأشاعرة -رغم أن قولهم الأكثر هو الاشتراط بالقرشية- إلا أن قومًا منهم -قلَّة- كإمام الحرمين (الجويني) قال بعدم الاشتراط كما هو مصرح في كتابه (الإرشاد)[١].

والأصل في اشتراط القرشية يعود إلىٰ أن قريشًا هذه القبيلة العظيمة في مكة المكرمة، والتي نالت شرف أن يكون منها خاتم النبيين ﷺ، فهي من كبرىٰ القبائل العربية ذات القوة، فكان لها الفضل بظهور النبي ﷺ منها ففيها المَنَعة والنسب والرفعة وعلوُّ الكعب ومكارم الأخلاق، وهم أهل رئاسة وسيادة وكياسة منذ أمد بعيد من قبل ظهور الدعوة.

ويقول ابن خلدون في ذلك: ونحن إذا بحثنا في الحكمة في اشتراط النسب القرشي وقصد الشارع منه لم يقتصر علىٰ التبرك بها بوصلة النبي ﷺ، وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلًا -أي عند اختيار الخليفة من قريش- لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية. فلابدَّ إذن من المصلحة في اشتراطها وهي المقصود من مشروعيتها.. وإذا سَبَرْنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية «أي القوة والمَنَعة» التي تكون بها الحماية، والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب، فتسكن إليه الملَّة وأهلها، وينتظم حبل الألفة فيها)[٢].

أما العصمة فقد اشترطها الإمامية والإسماعيلية -كما ذكرنا سابقًا- فقط، وليس شرطًا عند أهل السُّنَّة؛ إذ إن العصمة عندهم تجب فقط للأنبياء والرسل عليهم السلام والأولياء معصومون من الكفر.

---

(١) الإرشاد، ص ٤٢٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ١٨٤ بتصرف.

قول الإباضية:

وتجد أن الكثير من الإباضية يوافقون في عقيدتهم حول الإمام الكثير من النصوص التي توافق المعتزلة، وهذا ما يقول به اليوم الكثير من أهل السُّنَّة والجماعة، ووافقهم بعض الزيدية بأنه يجوز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، وقد فصَّل الإيجي في مواقفه ونقل عنه هذا الإجماع ابن حزم في الفصل.

أقول: ولعل المدار لا يعود هنا في زماننا إلىٰ مصلحة المسلمين فإن كانت المصلحة تقتضي تقديم المفضول في ذلك قُدِّم؛ لما فيه مصلحة الأمة مما لا ينكر وجود الفاضل، ولكن إن وُجد الفاضل فلا يتقدم عليه المفضول، ولعل حديث الثقلين يوافق ما نقول بأنه لا بدَّ من إمام لكل زمان، وأهل البيت وعِتْرة النبي ﷺ هم أصلح الناس لتولي الأمر إن وُجد فيهم صالح الأمر مَنْ أن يحمل همَّ الأمة الإسلامية ويصلح حالها، فقلوب الناس مع أهل بيته، وتتألف وتهوي إليهم.

غياب القرشية اليوم

وفي ظل غياب القرشية في اغلب أنظمة الحكم في العالم الإسلامي، وبالأخص في بلاد الحرمين الشريفين أدعو بشكل صريح علىٰ الحكام والأنظمة أن يشكلوا مجالس بأختيار عوام الناس ليختاروا ويرشحوا أشخاص من أهل الحكمة والرأي السديد أهل تقوىٰ وصلاح من السادة الأشراف الهاشميين، والقرشيين، ليكون لهم دور في أختيار الحاكم وبيعته بالبيعة الشرعية، ويكون لهولاء دور كبير في حل القضايا الإسلامية المتعسرة، لا سيما أن منهجهم هو أفضل مدخل لتأصيل فكرة التقارب المذهبي وتجاوز حالة الاحتراب الطائفي التي تعيشها المجتمعات الإسلامية التي تغذيها الدوافع والنزاعات السياسية.

الأصل الخامس

علامات الساعة وأشراطها

الأشراط: جمع شرط، وهو العلامة، ومنها علامات الساعة وأشراطها.

وأشراط الساعة: علاماتها الدالة علىٰ قرب وقوعها، قال تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [محمد: ١٨]، فقوله: (فهل ينظرون)

أي: ينتظرون، وقوله: (بغتة) أي: لا يعلم وقتها إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال جبريل للنبي ﷺ: «أخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل؟ قال: أخبرني عن أماراتها، قال: إن تلد الأمة ربتها، وأن ترىٰ الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»[(١)].

وتنقسم أشراط الساعة علىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: العلامات الصغرىٰ، وهذه حصلت وانقضت.

القسم الثاني: العلامات الوسطىٰ، هذه ما تزال تحدث مثل ما حدث في زماننا من تقدم الصناعات والاتصالات، واستخراج الكنوز من الأرض، وتقارب البلدان، حتىٰ كأن العالم قرية واحدة، واجتماع اليهود في فلسطين انتظارًا للدجال، وتوطئة للملاحم التي ستقوم هناك، وقد أختلف في إحدىٰ العلامات وهي خروج المهدي واعتبروه من أواخر العلامات الصغرىٰ لقيام الساعة، وذهب الكثير من الناس أن المهدي يخرج لنصرة الأمة.

ومن العلامات الصغرىٰ التي أخبر بها الحديث:

١- أنه ستحدث أمور عظيمة لم تكن تخطر علىٰ البال.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم٥٠) مسلم (رقم٩، ١٠).

٢- أنه ستستخرج معادن كثيرة علىٰ غير أيدي المسلمين.

٣- أن المساكن ستتزين وتطال.

٤- وأن أجزاء الأرض ستتقارب.

٥- وأن الإبل لن تستخدم للسفر، وسيركب الناس علىٰ مياثر ينزلون بها علىٰ أبواب المساجد، وأن سرعة سير الدجال في الأرض ستكون كسرعة سير السحب.

٦- وأن السباع ستكلم الإنس وأن الجماد سينطق.

٧- وأنه ستكون نهضة علمية مع جهل بالدين.

٨- وأن الحركة التجارية ستتسع ويزيد دخل الفرد.

٩- وأن النساء ستتبرج.

١٠- وأن النساء ستتشبه بالرجال وأن الرجال سيتشبهون بالنساء.

١١- وأنه سيكثر شرب الخمر كما سيكثر الزنا.

١٢- وأن الناس سيكرهون تربية أولادهم يحبون تربية الكلاب.

١٣- وأن الناس سيأكلون الربا ويصيبهم من غباره.

١٤- وأنه سيأتي جيل يحيي بعضه بعضًا بالتلاعن.

١٥- وأنه سيظهر شياطين تقرأ علىٰ الناس كتابًا بالقرآن.

١٦- وأنه سيختلف الأخوان في الدين.

١٧- وأنه سيكثر الموت بالسكتة القلبية.

١٨- وأنه سيكثر القتل.

١٩- وأن الناس سيحسنون القول ويسيئون العمل.

٢٠- وأن السيف سيعطل من الجهاد.

٢١- وأن الفتن ستكثر.

٢٢- ولا تزال طائفة من أمة محمد ﷺ علىٰ الحق ظاهرين - أجر المتمسك بسنة الرسول ﷺ كأجر شهيد عند بدء الفساد، وكأجر مائة شهيد عندما يبلغ أقصاه.

٢٣- وأن اليهود سيقاتلون المسلمين وسينصر الله المسلمين عليهم، وأن الدجال سيظهر في اليهود، وأن عيسىٰ عليه السلام سينزل في المسلمين، وسيقتل المسيح حق المسيح الدجال وأن معارك ستدور بين المسلمين والدجال علىٰ نهر الأردن، المسلمون شرقيه واليهود غربيه.

*** هناك حكمة من ذكر علامات الساعة:**

١- تقوية استعداد المسلم للقاء ربه.

٢- تأكيد الإيمان بأن الله حق وأن الساعة لا ريب فيها، ودليل علىٰ نبوة محمد ﷺ.

٣- يعطىٰ المؤمن ثباتًا أمام الفتن الهوجاء.

٤- دراستها جزء من الدين، لأنها آيات قرآنية، وأحاديث نبوية.

القسم الثالث: العلامات الكبرىٰ، من خروج الدجال، ونزول عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، ثم طلوع الشمس من مغربها، فهذه إذا حصل أحدها تتابعت البقية، وهي الأمارات القريبة الكبيرة التي تعقبها الساعة، وأنها تتابع كانفراط حبات السبحة.

وقد ذكر النبي هذه العلامات في حديثه الصحيح الذي رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري ﵁ قال: اطلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر فقال: «**ما تذاكرون؟**».

قلنا: نذكر الساعة قال: «**إنها لن تقوم حتىٰ تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسىٰ بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلىٰ محشرهم**»(١).

اعلم أيها الإنسان وهذا ما حدث علىٰ مرِّ الأزمان أن لك نهايةً، وليس ذلك فحسب فالإنسان وسائر الحيوانات والجن والملائكة لهم آجالٌ ولكل أجلٍ كتابٌ، وهذا ما اتفقت عليه أكثر البشرية في من فلا يستطيع أحد أن يعيش أكثر مما قدَّره الخالق، ولم يستطع العلم بتقدُّمه أن يمنع الموت عن أحد، إلا أنه لا يموت أحد من الخلائق حتىٰ يتمَّ أجله الذي قدَّره الله له سواء مات حتفَ أنفه أم مات مقتولًا بأي سبب من الأسباب.

قال تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

والأمة تشمل الأمة الإنسانية وغيرها.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٩٠١) فى الفتن، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال، وأبو داود رقم (٤٣١١) ي الملاحم، باب أمارات الساعة، والترمذي رقم (٢١٨٤) في الفتن، باب ما جاء في الخسف.

ولهذا الموت قدَّر الله له أسبابًا كثيرة ليقبض بها الأرواح، فالموت واحد والأسباب تتعدد.

والموت: ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلُّق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما وتبدُّل حال وانتقال من دار إلىٰ دار(١).

ملك الموت:

هو الذي يقبض به الأرواح بأمر الله تعالىٰ، وله أعوان من الملائكة قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١].

وعند الاحتضار -أي: خروج الروح- يرىٰ المحتضر الملائكة الذين يقبضون روحه ويعرف مصيره إن كان في الجنة أو في النار.

قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

قال القرطبي في جامعه: إن الله تعالىٰ خلق ملك الموت وجعل علىٰ يديه قبضَ الأرواح وانتزاعها من الأجسام وإخراجها منها، وخلق الله تعالىٰ جندًا يكونون معه يعملون عمله بأمره، فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون، والله تعالىٰ يزهق الروح(٢).

والموت هو توقف نبضات القلب وتعطل الأعضاء، وقد حاول مؤخرًا بعض الأطباء بأبحاثهم أن يجعلوا من الموت أمرًا غير يقيني ولكنهم لم يستطيعوا، فصانع العالَم يميت الخلائق ويبقىٰ وجهه الكريم.

---

(١) التذكرة، ص ٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٩٤.

قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

ومع ذلك ورغم علم الإنسان بحقيقة الموت إلا أن الإنسان يسعىٰ دومًا للخلود -فسبحان الله تلك سُنَّة الله في خلقه- وهو لا يعلم ماذا يكسب غدًا.

واعلم أن أول مراحل اليوم الآخر للإنسان هي الموت، وهي بداية منازله أو هي الطريق الأول الذي يعرف منه مكانه.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النحل: ٣٢].



۞ البرزخ ۞

البرزخ لغةً: ما بين كل شيئين من حاجز، وفي الآية قال تعالىٰ: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمن: ٢٠].

أي: حاجز يمنعهما من أن يختلط أحدهما بالآخر.

والبرزخ اصطلاحًا: الحاجز بين الدنيا والآخرة(١).

قال تعالىٰ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠].



(١) النهاية لابن الأثير «برزخ»، والروح لابن القيم، ص ٧٣، ١٠٨؛ لوامع الأنوار البهية للسفاريني: ٢/ ٤؛ أصول الدين للبغدادي، ص ٣٨٠.

۞ القبر أول منازل الآخرة ۞

سؤاله ونعيمه وعذابه:

القبر: مفرده قبر، وجمعه القبور وهو جمع كثرة، وأَقْبُر وهو جمع قلة، ويقال لمدفن الموتىٰ: مَقْبَر ومَقْبَرَة[(١)].

واعلم أنه عليك الوجوب بالإيمان بأن أول ما تُنزع الروح ويطهر الجسد ويغسل ويُذهب به إلىٰ مثواه الأخير وهو القبر، وينزل بالجسد إلىٰ القبر يستعدُّ للسؤال، وسؤال القبر بأن الله يُحيي العبد ويردُّ إليه روحه وسمعه وبصره فيجعله من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه، ليعقل ما يُسأل عنه وما يُجيبه وما أعدَّ له في قبره من كرامة أو هوان[(٢)].

وسؤال الملكين منكر ونكير عن ربه ودينه ونبيه ﷺ فإما أن ينعَّم أو يعذَّب حسب حُسن إجابته أو سوئها[(٣)].

والأدلة علىٰ ذلك وردت في كتب السُّنَّة كثيرة صحيحة بلغت الشهرة والتواتر.

حكم الإيمان بسؤال القبر:

الإيمان به واجب؛ وذلك لكثرة الأحاديث الصحيحة المتواترة حول ذلك ومذهب الجمهور عليه.

(١) التذكرة، ص ٨٨؛ لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٤، أصول الدين، ص ٣٨٠.
(٢) التذكرة، ص ٢٤٥.
(٣) تبسيط العقائد، ص ٢٠٩.

عذاب القبر:

عذاب القبر حق والإيمان به واجب وهو قول الجمهور، وقد أثبت الجُبَّائي من المعتزلة وابنه والبلخي عذابَ القبر ولكنهم نفَوه عن المؤمنين الأتقياء وأثبتوه لأصحاب التخليد من الكفار والفُسَّاق، ولكن أغلب المعتزلة والإباضية أنكروا ما ورد به الشرع عن الحياة البرزخية، وتأوَّلوا ما ورد فيها عن القبر وعذابه أو نعيمه.

قول الأشاعرة: يوجب الأشاعرة العلمَ بعذاب القبر ونعيمه، ويقول العلامة الباقلاني: والدليل علىٰ إثبات عذاب القبر قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

ويذهب الأشاعرة بقولهم: إن كل ما ورد به الشرع من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير، وردِّ الروح إلىٰ الميت عند السؤال ونَصْب الصراط، والميزان والحوض والشفاعة حقٌّ، وأن الجنة والنار مخلوقتان حقٌّ وصدقٌ[(١)].

قول الظاهرية: يقول ابن حزم: إن المراد عنده بعذاب القبر وفتنته والمساءلة فيه أن ذلك كلَّه يلقاه المرء إثرَ موته، سواء كان له قبر أو لم يكن أو تُرك غير مقبور، وإنما نسب العذاب إلىٰ القبر؛ لأن المعهود في أكثر الموتىٰ أنهم يقبرون إلا الشاذ من غريق أو حريق أو أكيل سبع وما أشبه ذلك مما لا يقع إلا في الندرة.

ويؤكد ابن حزم: أن النفس بعد مفارقة الجسد في نعيم إن كانت نفسًا صالحة أو في شقاء إن كانت نفسًا ظالمة، وهي في الحالتين حاسة بكل ذلك ذاكرة له

(١) رسالة الإنصاف للباقلاني، ص ٥١، الفرق الإسلامية: ١/٣٢٦.

إلىٰ أن تحل يوم القيامة، ويؤكد أيضًا أن أرواح أهل الشقاء معذبة في القبور إلىٰ يوم القيامة ولكنها معذَّبة في غير نار جهنم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

وبذلك فصحَّ أن النفس معذَّبة من حين موتها إلىٰ يوم القيامة[١].

قول الإمامية والعلوية: وهو ما صح من إجماع الشيعة أن الله تعالىٰ ينزل علىٰ مَن يريد تنعيمه بعد الموت ملكين اسمهما **(مبشّر)** و**(بشير)** فيسألانه عن ربه جلَّت عظمته، وعن نبيه ووليه فيجيبهما بالحق الذي فارق الدنيا علىٰ اعتقاده، والصواب والغرض استخراج العلامة بما يستحق من الصواب، وينزل علىٰ مَن يريد تعذيبه في البرزخ ملكين هما **(ناكر)** و**(نكير)** فيوكِّلهما بعذابه، ويجعل الله لهم أجسامًا كأجسامهم في دار الدنيا ينعِّم مؤمنيهم فيها ويعذِّب كفارهم فيها وفُسَّاقهم فيها دون أجسامهم التي في القبور يشاهدها الناظرون تتفرق وتندرس وتبلىٰ علىٰ مرور الأوقات، وينالهم ذلك في غير أماكنهم من القبور[٢].



(١) الأصول والفروع: ١/ ٢٣٢ - ٢٣٥؛ الفصل: ٤/ ٦٦-٦٨.

(٢) أوائل المقالات للمفيد، ص ٧٦ رقم ٥٣ - ٥٤.

۞ البعث ۞

وهو إحياء الله الموتىٰ من القبور، وإعادة الأرواح إليهم، بأن يجمع أجزاءهم الأصلية ليلقىٰ كلٌّ منهم جزاءه، الذي قدّر له من نعيم أو عذاب.

والنشور: يرادف البعث في المعنىٰ، يقال: نشر الميت: إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله: أحياه[(١)].

فالبعث بعد الموت حق وإن الله يحيي الخلق بعد فنائهم، والتصديق بذلك واجب علىٰ كل مؤمن، ومعاد الأبدان متَّفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارىٰ[(٢)].

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ **[المؤمنون: ١٥-١٦]**.

وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ **[الحج: ٦-٧]**.

وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ **[المجادلة: ٦]**.

وقال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

---

(١) أصول الدين الإسلامي، ص٣٨٦؛ الفروق اللغوية، ص١٩٠؛ تهذيب اللغة: ١١/ ٢٣١.

(٢) الروح لابن القيم، ص٥٢، لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٥٧، أصول الدين الإسلامي، ص ٣٨٧.

وجاء في الحديث عن كعب بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّمَا نَسْمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَىٰ جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ**»(١).

وهذا البعث مع ثبوته شرعًا بأدلة قطعية فهو يعتبر مرحلة ضرورية للإنسان للوصول إلىٰ نهاية الأمر، فمَن اكتمال الإيمان بالله تعالىٰ أن يؤمن الخلائق أن الله تعالىٰ خلقهم لغاية، فقد أنزل إليهم الكتب وأرسل الرسل من أجل تحقيق هذه الغاية؛ فمنهم مَن استجاب، ومنهم مَن أعرض، فمَن استجاب لله تعالىٰ وأدرك أن وجوب عمله في سبيل مرضاة الله ﷻ، ومَن أعرض فقد ظلم نفسه وأدخلها في الأعمال المخالفة لمرضاة الله، وعاث في الأرض فسادًا؛ من ظلم وفساد وفسق وفجور وضلال وذلك هو الخسران الكبير، فالعاقل والمهدي إلىٰ الصراط المستقيم يعلم ويدرك أن الأمر عند الله فيه المجازاة للمحسن علىٰ إحسانه إن الله لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملًا، وللمسيء مجازاته علىٰ إساءته، فلكل أجل كتاب، ويومئذ تُنصب الموازين القسط وتُجزىٰ، كل نفس بما كسبت رهينة، فالله يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

الاختلاف في مسألة البعث:

حدث الاختلاف علىٰ قولين:

الأول: نفاه الدهريون أو الطبيعيون وذهبوا إلىٰ أن الإنسان هو هذا الهيكل المحسوس، الذي يفنىٰ بصورته وأعراضه فلا يُعاد، فهم لا يدركون لا بحسِّهم

(١) أخرجه مالك في الموطأ: ١/ ٢٤٠ حديث رقم (٥٦٨)؛ وأحمد في مسنده: ٣/ ٤٦٠ حديث رقم (١٥٨٣٠)؛ ابن ماجه في سننه: ٢/ ١٤٢٨ حديث رقم (٤٢٧١)؛ والنسائي في سننه: ٤/ ١٠٨ حديث رقم (٢٠٧٣).

ولا بأعينهم ميتًا بُعث حيًا، وحكىٰ لهم ما جرىٰ له بعد موته، وقد حكىٰ القرآن الكريم في عقيدتهم المتمثلة بإنكارهم الحساب والجنة والنار.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

الثاني: أثبته الحكماء والمِلَيون[1].

قال الجلال الدَّوَّاني: المعاد الجسماني يجب الاعتقاد به، ويكفر منكره، وهو حق بإجماع أهل الملل الثلاثة «أي: المسلمون واليهود والنصارىٰ»، وثبوت ذلك بالنصوص القرآنية في المواضع المتعددة بما لا يقبل التأويل[2].

قال تعالىٰ: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء: ٩٧-٩٩].

وفي ذلك آيات كثيرة[3].

وقد اختلفوا في كيفيته علىٰ أقوال هي:

قول الفلاسفة: المعاد روحاني، بأن البدن ينعدم بصورته وأعراضه، فلا يعاد، وأن النفس جوهر مجرد باقٍ لا سبيل إليه للفناء، فيعود إلىٰ عالم المجردات بقطع التعلُّقات.

---

(١) المقاصد وشرحه: ٢/ ٢١٠-٢١١.

(٢) شرح الجلال الدَّوَّاني علىٰ العقائد العضدية: ٢/ ٢٤٧؛ والكلنبوي عليه؛ ولوامع الأنوار: ٢/ ١٥٨؛ أصول الدين الإسلامي، ص٣٨٨ نقلًا عنه.

(٣) منها: الرعد الآية ٥، النحل ٦٠، الإسراء ٤٩-٥١، ومريم ٦٦-٦٨، الحج ٥-٦، المؤمنون ٧٤، ٨١-٨٣، والنمل ٤-٥-٦٦-٦٧، والجاثية ٢٤، والتغابن ٧.

قول جمهور المسلمين: المعاد جسماني؛ لأن الروح جسم سارٍ في البدن سريان النار في الفحم والماء في الورد.

قول الشيعة وكثير من الصوفية والكراميَّة، وجمهور من النصارىٰ، والتناسخية وافقهم جمع من العلماء كالغزالي والحَليمي والراغب وأبي زيد الدبوسي(١): **وهو أنه روحاني وجسماني معًا.**

وقال الإمام الرازي(٢): إلا أن الفرق أن المسلمين يقولون بحدوث الأرواح وردها إلىٰ الأبدان لا في هذا العالم بل في الآخرة، والتناسخية بقِدَمها وردِّها إليها في هذا العالم، وينكرون الآخرة والجنة والنار.



(١) شرح المقاصد: ٢/ ٢١١؛ شرح المواقف للسيد الشريف، ص٥٨٢؛ أصول الدين الإسلامي، ص ٣٨٨-٣٨٩.

(٢) دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: ١/ ١٧٠.

۞ الحشر ۞

الحشر في أصل اللغة: الجمع[١]. يقال: حشرت الناس، إذا جمعتهم، وهو انقياد الناس إلىٰ مكان الحساب الذي يجتمع فيه الخلق، وفيه يُحاسبون وتُوزن أعمالهم، ويعرف كلٌّ مصيره.

حكم الإيمان به:

الإيمان به واجب وهذا ما هو عليه جميع أهل المذاهب الإسلامية والفرق.

قال (المباركفوري): والمراد به حشر الأموات من قبورهم وغيرها بعد البعث جميعًا إلىٰ الموقف، قال تعالىٰ: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

عن المغيرة بن النعمان قوله: (يحشر الناس) أي: يبعثون، ويكون بعضهم (حُفاة) بضم الحاء: جمع حافٍ وهو الذي لا نعل له ولا خف (عُراة) بضم العين المهملة: جمع عار وهو مَنْ لا ستر له.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [يونس: ٤٥].

والمقصود من حشر الآخرة هو: حشر الأموات من قبورهم بعد البعث. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا بموعظة فقال: «**يَا أَيُّهَا**

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس: ١٩/١١ مادة: (حشر)؛ التوقيف علىٰ مهمات التعاريف، ص٢٨٠.

النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورونَ إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا[(١)]»[(٢)] وليس المعنىٰ أن كل محشور يكون علىٰ هذه الصفة، إنما الأتقياء ومن كان فوقهم في المرتبة يكون منعَّمًا.

قال تعالىٰ: ﴿بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ **[الأنبياء: ١٠٤]**.

«ألا وإن أول الخلائق يُكسىٰ يوم القيامة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ». «ألا إنه سيُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوه بعدك**!**»

فأقول: كما قال العبد الصالح[(٣)]: قال تعالىٰ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ **[المائدة: ١١٧-١١٨]**.

قال: فيقال لي: «**إنهم لم يزالوا مرتدِّين علىٰ أعقابهم منذ فارقتَهم. فأقول: سُحْقًا، سُحْقًا**»[(٤)] أي بعض أمته يرتد.

---

(١) أي: غير مختونين.تاج العروس من جواهر القاموس: ٣٠/ ٨٧ مادة: (غرل)؛تهذيب اللغة: ٦/ ١٧٧.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر: ٤/ ٢١٩٤ برقم (٢٨٦٠)؛ البخاري: ٤/ ١٦٩ برقم (٣٣٤٩).

(٣) هو عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٤) أخرجه: البخاري ٤/ ١٦٩ (٣٣٤٩)؛ ومسلم ٨/ ١٥٧ (٢٨٦٠) (٥٨)؛ ومالك (١/ ٤٩-٥٠)؛ والنسائي (١/ ٣٥)؛ وابن ماجه (٢/ ٥٨٠)؛ والبيهقي (٤/ ٧٨)؛ وأحمد (٢/ ٣٠٠، ٤٠٨).

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يُحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف رُكبان، وصنف علىٰ وجوههم**». **قيل**: يا رسول الله، كيف يمشون علىٰ وجوههم؟ قال: «إن الذي أمشاهم علىٰ أقدامهم قادر أن يمشيهم علىٰ وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حَدَب[١] وشوك»[٢].

أقسام الحشر:

١- حشر الأموات من قبورهم.

٢- حشرهم إلىٰ موقف الحساب.

٣- حشرهم إلىٰ الجنة والنار[٣].

وقال بعضهم: إن الحشر إذا أُطلق يُراد به شرعًا الحشر من القبور ما لم يخصَّه دليل[٤].

وقال محمد بن كعب القُرظي: يُحشر الناس يوم القيامة في ظلمة وتُطوىٰ السماء وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي منادٍ فيتبع الناس الصوت يومئذ؛ فذلك قول الله ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٨].

---

(١) الحدب: بفتحتين: المرتفع من الأرض. المخصص: **٣/ ٥٣**؛ تاج العروس من جواهر القاموس: **٢/ ٢٤٤**.

(٢) أخرجه أحمد (**٢/ ٣٦٣**، رقم **٨٧٤٠**)؛ والترمذي (**٥/ ٣٠٥**، رقم **٣١٤٢**)، وقال: حسن؛أبي يعلىٰ في مسنده: **٧/ ٢٦٥** حديث رقم (**٤٢٧٩**).

(٣) التذكرة للقرطبي، ص**٢٠١**، وما بعدها؛ولوامع الأنوار البهية **٢/ ١٤٥-١٥٥**؛ والمسامرة لابن أبي شريف علىٰ المسايرة للكمال ابن الهُمَام، ص**٢٥٠-٢٥١**.

(٤) أصول الدين الإسلامي، ص **٤٠٦**، نقلًا عن لوامع الأنوار البهية للسَّفَّاريني: **٢/ ١٥٥**.

قال تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ [الانفطار: ١-٣].

أي: فُجِّر عذبها في ملحها وملحها في عذبها.

وفي تفسير قتادة: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾ [الانفطار: ٤] أي: أُخرج ما فيها من الأموات.

وقال تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣﴾ [الانشقاق: ١-٤].

أي: سمعت وأطاعت.

﴿وَحُقَّتۡ﴾ أي: وحقَّ لها أن تفعل. ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣﴾ تُمد مدَّ الأديم، وهذا إذا بدلت بأرض بيضاء كأنها فضة لم تُعمل عليها خطيئة قطُّ، وألقت ما فيها من الأموات فصاروا علىٰ ظهرها.

فإذا قيل: إن كانت الصيحة للخروج، كيف يسمعونها وهم أموات؟

قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ۝٤٢﴾ [سورة ق: ٤٢].

قيل: إن نفخة الإحياء تمتد وتطول، فتكون أوائلها للإحياء وما بعدها للإخراج من القبور، فلا يسمعون ما يكون للإحياء ويسمعون ما يكون للإخراج، ويحتمل أن تتطاول تلك النفخة والناس يحيون منها أولًا فأولًا، وكلما حيي واحد سمع ما يحيىٰ به من بعده إلىٰ أن يتكامل الجميع للخروج[1].

---

(١) التذكرة، للقرطبي، ص٢٠٢.

۞ العرض ۞

العرض: إذا بُعث الناس من قبورهم إلىٰ الموقف وقاموا فيه ما شاء الله، يُعرضون علىٰ الله تعالىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨].

قال تعالىٰ: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨].

والعرض يوم القيامة كما جاء في السنة الشريفة بالأحاديث الصحيحة يكون ثلاث عرضات من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ: فَأَمَّا عَرْضَتَانِ، فَجِدَالٌ، وَمَعَاذِيرُ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الأَيْدِي، فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ، وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ»[١].



(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في العرض رقم (٢٤٢٧)؛ وابن ماجه، كتاب الزهد رقم (٤٢٧٧)؛ وأحمد في مسنده: ٤/ ٤١٤ حديث رقم (١٩٧٣٠).

۞ الحساب ۞

الحساب لغةً: العدد[١].

واصطلاحًا: توقيف الله عبادَه قبل الانصراف من المحشر علىٰ أعمالهم خيرًا كانت أو شرًا، تفصيلًا لا بالوزن إلا مَن استثنىٰ منهم[٢].

واختلف العلماء في معنىٰ محاسبته تعالىٰ عبادَه علىٰ أقوالٍ:

أحدها: أن الله تعالىٰ يخلق فيهم علمًا ضروريًا بمقادير أعمالهم.

وثانيها: أن يوقفهم بين يديه ويؤتيهم كتب أعمالهم[٣].

واعلم -رحمك الله- أن الإيمان بالحساب واجب؛ لأنه حق ثبت بالكتاب والسُّنَّة والإجماع من جميع الفرق الإسلامية.

أقول: والناس في أعمالهم متفاوتون (**فمنهم**) مَنْ يُحاسب حسابًا يسيرًا بأن يُعرض عمله عليه فيُطلعه الله علىٰ سيئاته ثم يعفو عنه ويأمر به إلىٰ الجنة.

والناس يوم القيامة ثلاث فرق:

١- فرقة لا يحاسبون أي لا يناقشون الحساب بل تعرض عليهم أعمالهم أصلًا وهي الأتقياء والأولياء، وأما الأنبياء فهم ليسوا بحاجة إلىٰ أن توزن أعمالهم.

٢- فرقة تحاسب حسابًا يسيرًا وهي من المؤمنين.

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس: ٢/ ٢٦٧.

(٢) الفواكه الدواني علىٰ رسالة ابن أبي زيد القيرواني: ١/ ٢٨٨.

(٣) المصدر السابق نفسه.

٣- فرقة تحاسب حسابًا عسيرًا يكون منها مسلم وكافر.

صحائف الأعمال:

وهي الكتب التي كتبت فيها الملائكة ما فعله العباد في الدنيا من اعتقادات وأقوال وأفعال، وهي ثابتة بالكتاب والسُّنَّة والإجماع، فمنكرها كافر، وقد سبقت الأدلة العديدة علىٰ ذلك في الحساب وغيره.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

وجاء في الحديث عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نُوقِش الحسابَ عُذِّب**». فقلت: أليس يقول الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ [الانشقاق: ٧-٩] فقال: «**إنما ذلك العرض، وليس أحدٌ يُحاسَب يوم القيامة إلا هلك**»[١] معناه من دُقِّقَ عليه معناه من يدخل بلا حساب يعرض عليه عمله لكن لا يصيبه حزن.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾، ٨/ ٦٩٧ رقم (٤٩٣٩)، وذكره تعليقًا في كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، ١١/ ٤٠٠ رقم (٦٥٣٦)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ٤/ ٢٢٠٤ رقم (٢٨٧٦)؛ والترمذي في أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ ٥/ ٥٣٥/ رقم ٣٣٣٧ وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ والنسائي في الكبرىٰ، كتاب التفسير رقم (٦٧٩) عن عائشة رضي الله عنها.

واعلم -رحمك الله- أنه سيشهد علىٰ العاصي يوم القيامة أحد عشر شاهدًا: اللسان، والأيدي، والأرجل، والسمع، والبصر، والجلد، والأرض، والليل، والنهار، والحَفَظة والكرام، والمال، فضلًا عن الشهداء من الناس.

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت: ٢٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [سورة ق: ٢١].

وجاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [الزلزلة: ٤].

قال: «**أتدرون ما أخبارها**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإن أخبارها أن تشهدَ علىٰ كل عبدٍ وأمةٍ بما عمل علىٰ ظهرها، أن تقول: عمل عليَّ يوم كذا وكذا كذا وكذا**». قال: «**فهذه أخبارها**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة، باب الأرض تحدِّث أخبارها يوم القيامة: ٧/ ١١٦ وقال: «هذا حديث حسن غريب». وفي التفسير: ٩/ ٢٨٦؛ والنسائي في التفسير: ٢/ ٥٤٤؛ وصححه الحاكم: ٢/ ٢٥٦ علىٰ شرط الشيخين وأقره الذهبي، ثم كرره في ٢/ ٥٣٢ فتعقَّبه الذهبي بقوله: «يحيىٰ هذا يحيىٰ بن أبي سليمان، منكر الحديث، قاله البخاري». وصححه ابن حبان برقم: (٢٥٨٦)، ص٦٤١ من موارد الظمآن؛ وأخرجه الإمام أحمد: ٢/ ٣٧٤؛ والمصنف في شرح السنة: ١٥/ ١١٦-١١٧، وله شاهد عند الطبراني: ٧/ ١٤١-١٤٢. وانظر: الكافي الشافي، ص١٨٦-١٨٧؛ والدر المنثور: ٨/ ٥٩٢.

واعلم -رحمك الله- أن من الحكمة من الحساب للعباد هي إعلامهم بما لهم وما عليهم، فيؤتي الله السعداء كتبهم بيمينهم، ويؤتي الأشقياء كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم[1].

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].



(١) التذكرة، ص٢٥٣ وما بعدها؛ لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٧١، ١٨٠-١٨١؛ أصول الدين الإسلامي، ص٤١٠.

۞ الميزان ۞

الوزن والميزان: الوزن في أصل اللغة: معرفة كمية بأخرىٰ علىٰ وجه مخصوص[١].

والميزان: هو الكِّفَة التي يُعرف بها الراجح والمرجوح.

أما في الاصطلاح فقد اختلفوا فيه علىٰ قولين:

الأول: إن الله تعالىٰ ينصب ميزانًا وله لسان وكِفَّتان يوم القيامة، تُوزن به أعمال العباد خيرها وشرها.

الثاني: الميزان هو العدل والقضاء في تقدير ما به يكون الجزاء علىٰ الأعمال؛ لأن حمل الوزن علىٰ هذا المعنىٰ شائع في اللغة، وهو قول مجاهد والضحَّاك والأعْمَش.

وهو ذو كِفَّتين ولسان (كالميزان المعهود) تُوزن فيه أعمال مَنْ يحاسب بقدرة الله تعالىٰ دفعة واحدة، وأجمع أهل السُّنَّة علىٰ أن أعمال العباد توزن يوم القيامة، كما نطق بذلك القرآن الكريم في أكثر من موضع، وكذلك السُّنَّة المطهرة، كما نص علىٰ ذلك أئمة أهل السُّنَّة والجماعة.

وقول الأشعري: وأن كَفَّة السيئات إلخ، يدل بوضوح علىٰ أن الميزان له كَفَّتان، وهذا من معتقد السلف، وسيأتي ذكر ما يؤيد ذلك من أقوالهم، حتىٰ يتبين لنا صحة قول الأشعري.

---

(١) الصحاح في اللغة: ٢/ ٢٧٧؛ شرح عبد السلام علىٰ الجوهرة، ص٢٣٤.

قال الإمام أحمد: «والميزان حقٌّ توزن به الحسنات والسيئات كما يشاء الله أن توزن»[١].

وختم البخاري جامعه الصحيح بقوله: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧] ثم قال: وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن»[٢].

كما ذكر الإيمان به عند أهل السُّنَّة[٣].

قال (أبو إسحاق الزجَّاج): «أجمع أهل السُّنَّة علىٰ الإيمان بالميزان وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكِفَّتان ويميل بالأعمال»[٤].

وذهب المعتزلة: «إلىٰ أن الميزان هو العدل؛ لأن الأعمال عندهم هي أعراض يستحيل وزنها، إذ لا تقوم بنفسها فخالفوا غيرهم من أصحاب الحديث»[٥].

قال (ابن فورك): «أنكر المعتزلة الميزان بناءً منهم علىٰ أن الأعراض يستحيل وزنها؛ إذ لا تقوم بأنفسها»[٦].

---

(١) انظر رسالة السنة، ص٧٣.

(٢) البخاري كتاب التوحيد: ٨/ ٢١٩.

(٣) ابن أبي زمنين في كتابه أصول السنة ق٨/ ب؛ وابن منده في كتابه الإيمان ٣/ ٩٥٧؛ والبيهقي في الاعتقاد، ص١٠٢.

(٤) فتح الباري ١٣/ ٥٣٨.

(٥) رسالة في التوحيد والفرق المعاصرة، ص ١١٤.

(٦) فتح الباري: ١٣/ ٥٣٨.

وذهب الإباضية[١]: وهم يتفقون مع المعتزلة وينكرون هذا الوصف، أن له كَفَّتين حسيتين مشاهدتين توزن فيهما أعمال العباد كما يوزن العامل نفسه، ويثبتون وزن الله للنيات والأعمال بمعنىٰ تمييزه بين الحسن منها والسيئ، وأن الله يفصل بين الناس في أمورهم، ويقفون عند هذا الحد غير مثبتين ما جاءت به النصوص من وجود الموازين الحقيقية في يوم القيامة وعلىٰ الصفات التي جاءت في السنة النبوية.

وقد ذهب جمهور أهل السنة إلىٰ أن الميزان له كَفَّتان.

قال بعض شُرّاح الطحاوية: «والذي دلت عليه السُّنَّة أن ميزان الأعمال له كِفَّتان حسيَّتان مشاهدتان».

وقد صرح (ابن عباس): فقال: «إن الله يخلق الأعراض أجسامًا»[٢].

قال (السفاريني): «والحاصل أن الإيمان بالميزان كأخذ الصحف ثابت بالكتاب والسُّنَّة والإجماع، فقد دلت الآثار علىٰ أنه ميزان حقيقي ذو كَفَّتين ولسان، كما قال ابن عباس والحسن البصري»[٣].

وقد خالف ابن حزم في ذلك، فنفىٰ كِفَّتي الميزان[٤].

وقيل: إن حقيقته لا يعلمها إلا الله تعالىٰ. قال العلماء: إذا انقضىٰ الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن

(١) متن النونية، ص ٢٥؛ غاية المراد، ص ٩.

(٢) ذكره القرطبي في التذكرة، ص ٣٦٤؛ وابن كثير في النهاية: ٢/ ٥٢؛ والتفسير: ٢/ ٢١٠؛ وابن حجر في الفتح: ١٣/ ٥٣٨.

(٣) لوامع الأنوار: ٢/ ١٨٤، ١٨٥.

(٤) الفصل: ٤/ ٦٥، ٦٦.

المحاسبة لتقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها[١].

والأدلة في الميزان ثابتة بالقرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية الصحيحة، وما نذهب إليه في مسألة الميزان هو العدل.

قال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦-١١].

وما ثبت عن السُّنَّة النبوية: جاء عن الحسن، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **ما يبكيك؟** قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحدًا عند الميزان حتىٰ يعلم أيخفُّ ميزانه أم يثقل؟ وعند الكتاب حين يقال:** ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] **حتىٰ يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وُضع بين ظهري جهنم حتىٰ يجوز**»[٢].

(١) أصول الدين الإسلامي، ص ٤١٥.

(٢) رواه أبو داود في سننه عَنْ عَائِشَةَ كتاب السنة، باب في ذكر الميزان حديث ٤٧٥٥؛ ورواه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٠١؛ والحاكم في المستدرك وقال: «هذا حديث صحيح إسناده علىٰ شرط الشيخين لولا إرسال فيه بين الحسن وعائشة، علىٰ أنه قد صحت الروايات أن الحسن كان يدخل وهو صبي منزل عائشة رضي الله عنها وأم سلمة» وأقرَّه الذهبي؛ المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم: ٤/ ٦٢٢، وقال العراقي في المغني حديث ٤٤٦٩: وإسناده جيد.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إن الله عز وجل يستخلص رجلًا من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعةً وتسعين سجلًا كلّ سجل مدَّ البصر، فيقول: أتُنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أظلمكَ كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلكَ عذرٌ أو حسنةٌ؟ فيقول: لا يا رب، فيقول الله عز وجل: بلىٰ إن لك عندنا حسنةً، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقةً له فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقول: إنك لن تُظلم. فتوضع السجلات في كِفَّة، والبطاقة في كِفَّة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله تعالىٰ شيءٌ**»[(١)].

قال (ابن ماجه): قال محمد بن يحيىٰ: البطاقة: الرقعة، وأهل مصر يقولون للرقعة: بطاقة[(٢)].

وقال (حذيفة)[(٣)]: صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام، يقول الله تعالىٰ: (يا جبريل زِنْ بينهم فَرُدَّ من بعض علىٰ بعض).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**كلمتان خفيفتان علىٰ اللسان ثقيلتان**

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله: ٧/ ٣٩٥-٣٩٦، وقال: هذا حديث حسن غريب؛ وابن ماجه في الزهد، باب ما يرجىٰ من رحمة الله يوم القيامة برقم (٤٣٠٠): ٢/ ١٤٣٧، وصححه الحاكم علىٰ شرط مسلم: ١/ ٦ ووافقه الذهبي؛ وأحمد: ٢/ ٢١٢، وصححه ابن حبان في الزهد، باب في الخوف والرجاء برقم (٢٥٢٣) ص(٦٢٥) من موارد الظمآن؛ والبغوي في شرح السنة: ١٥/ ١٣٤ (١٣/٢٣).

(٢) سنن ابن ماجه، باب ما يرجىٰ من رحمة الله يوم القيامة حديث: ٢/ ١٤٣٧ حديث رقم ٤٣٠٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٧/ ١٦٧.

في الميزان، حبيبتان إلىٰ الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[١].

سُئل رسول الله ﷺ عمَّا يوزن يوم القيامة؟ فقال: الصحف[٢]. قال ابن عمر: توزن صحائف الأعمال[٣].

وقد صحح هذا القول (القرطبي) و(ابن عبد البرِّ)، وصوَّبه الشيخ (مرعي) وذهب إليه جمع من المفسرين.

اعلم -رحمك الله- أن الحكمة من الميزان أن يوزن عمل كل مَنْ يحاسب حتىٰ مَنْ لا حسنة له، وبالوزن يظهر العدل وبيان الفضل في العذاب والعفو عن الآثام، حيث إنه يَزِن مثاقيل الذَّرِّ من خير وشر، فهو العلامة لأهل السعادة والشقاوة، وبه يعرف العباد ما لهم وما عليهم من الخير والشر، فتُقام الحجة عليهم[٤].

واعلم -رحمك الله- أن الله غفور رحيم يدخل مَنْ يشاء في رحمته بغير حساب -كما ورد في الحديث- فلا يُرفع لهم ميزان، ولا يأخذون صحفًا، وإنما

---

(١) صحيح البخاري برقم (**٧٥٦٣**) في الأيمان والنذور، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم: **١١/ ٥٦٦**؛ ومسلم في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء برقم: (**٢٦٩٤**): **٤/ ٢٠٧٢**؛ والمصنف في شرح السنة: **٥/ ٤٢**؛ وسنن الترمذي برقم (**٣٤٦٧**)؛ وسنن النسائي الكبرىٰ برقم (**١٠٦٦٦**)؛ وسنن ابن ماجه برقم (**٣٨٠٦**).

(٢) لوامع الأنوار البهية: **٢/ ١٨٧**.

(٣) ذكره القرطبي في التذكرة بلا سند، ص **٣٦٤**.

(٤) لوامع الأنوار**٢/ ١٨٨**؛الباجوري علىٰ الجوهرة: **٢/ ٨٠**؛ التذكرة، ص**٢١٣**؛ تبسيط العقائد، ص**٢٢٥**، أصول الدين الإسلامي، ص **٤١٨**.

هي براءات مكتوبة: **لا إله إلا الله محمد رسول الله، هذه براءة فلان بن فلان، قد غُفر له، وسعد سعادة لا يشقىٰ بعدها.**

وعقيدتنا أن الإيمان بالميزان واجب؛ لثبوته ما لم نر أن من ينكره خلاف في ذلك، إلا أن مَنْ أنكره فقد أنكر من حيث التشبيه ولم ينكره من حيث الوجوب.

ولا نقول بضلالهم بل نقول بإيمانهم، ولا نجازف بتكفيرهم بل إن مَنْ يكفر ويضلل فهو معسر غير متفهم، والله العالم من وراء القصد.



۞ الصراط ۞

الصراط لغة: الطريق.

واصطلاحًا: هو جسر ممدود علىٰ ظهر جهنم يمرُّ عليه الأولون والآخرون، المؤمن والكافر، كلٌّ بحسب عمله، فمنهم مَنْ يمرُّ كلمح البصر، ومنهم مَنْ يمرُّ كالبرق الخاطف، ومنهم مَنْ يمرُّ كالريح العاصف، وناس كالجواد، وناس هرولة، وناس حَبْوًا، وناس زحفًا، وناس يتساقطون في النار، وعلىٰ جوانبه كلاليب، لا يعلم عددها إلا الله تخْطف بعض الخلائق (الكلاليب مثل الخطاطيف)[1].

قال الفيروزآبادي في قاموسه[2]: السراط لغةٌ في الصراط، وهو: جسر ممدود علىٰ متن جهنم.

وقد أجمع أهل السُّنَّة علىٰ الإيمان بالصراط، وأنه جسر ممدود علىٰ ظهر جهنم، وقالوا: إن المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١] المرور علىٰ الصراط في صحيح الأقوال[3].

وقد دلَّت الأدلة من الكتاب والسُّنَّة علىٰ إثبات الصراط.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

---

(١) لوامع الأنوار: ٢/ ١٨٩، الفواكه الدواني١/ ٢٩٢. شرح الطحاوية، ص٤٧٠، تبسيط العقائد، ص٢٢٧.

(٢) القاموس المحيط، ص ٦٧٥مادة: (صرط).

(٣) الفصل، لابن حزم: ٤/ ٢٦٦؛ وعقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني: ١/ ١٢١؛ ومجموع الفتاوىٰ ٤/ ٢٧٩؛ ولوامع الأنوار: ٢/ ١٨٩.

قال بعض شُرّاح الطحاوية: «واختلف بعض المفسرين في المراد بالورود المذكور في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ما هو؟ والصحيح أنه المرور علىٰ الصراط».

قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: والذي نفسي بيده، لا يَلِج النارَ أحدٌ بايع تحت الشجرة، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال: ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾؟[(١)].

جاء في حديث أبي سعيد الخدري: «ثمَّ يُضرَبُ الجسرُ علىٰ جهنَّمَ وتحلُّ الشفاعة، ويقولون: اللَّهمَّ سلِّم سلِّم، قيل: يا رسول الله، وما الجسرُ؟ قال: دحضٌ مزلَّةٌ، فيه خطاطيفُ وكلاليبُ وحسك، تكون بنَجد فيها شُويْكةٌ يُقال لها: السَّعدان، فيَمُرُّ المؤمنون كطرْف العين، وكالبرق، وكالرِّيح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والرِّكاب، فناجٍ مُسلَّمٌ، ومخدوشٌ مرسَلٌ، ومكدوسٌ في نار جهنَّمَ»[(٢)].

وعن ابن مسعود: الصراط علىٰ جهنم مثل حدِّ السيف. فتمر الطبقة الأولىٰ كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب ٣٧ ج٤/ ١٩٤٢؛ وأحمد في المسند: ٦/ ٤٢٠؛ وابن أبي عاصم في السنة، وقال الألباني: إسناده جيد علىٰ شرط مسلم وقد أخرجه، انظر السنة: ٢/ ٤١٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الرؤية: ١/ ١٦٩.

يمرون والملائكة يقولون: «اللهم سلِّمْ سلِّمْ»[١].

وعن السُّدِّي، عن مُرّةَ، عن عبد الله بن مسعود قال: يرِدُ الناس جميعًا الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم مَنْ يمرُّ مثل البرق، ومنهم مَنْ يمرُّ مثل الريح، ومنهم مَنْ يمرُّ مثل الطير، ومنهم مَنْ يمرُّ كأجود الخيل، ومنهم مَنْ يمرُّ كأجود الإبل، ومنهم مَنْ يمرُّ كعَدْو الرجل، حتىٰ إن آخرهم مرًّا رجل نوره علىٰ موضعي إبهامَي قدميه، يمرُّ يتكفَّأ به الصراط، والصراط دَحْضٌ مَزَلّةٌ، عليه حَسَكٌ كَحَسك القَتَاد، حافَتَاه ملائكة، معهم كلاليب من نار، يختطفون بها الناس. وذكر تمام الحديث[٢].

وعن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ قال: شعار المؤمنين علىٰ الصراط يوم القيامة: «**ربِّ سلِّم سلِّم**»[٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [**الحديد**: ١٣].

قال: «علىٰ قدر أعمالهم يمرُّون علىٰ الصراط.. منهم مَنْ نوره مثل الجبل، ومنهم مَنْ نوره مثل النخلة، ومنهم مَنْ نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورًا مَنْ

---

(١) أخرجه ابن جرير، ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما، من رواية أنس، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وجابر، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، أما حديث أنس فرواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٣٦٧) وضعَّف إسناده، وأما حديث أبي هريرة فهو في صحيح البخاري برقم (٦٥٧٣)؛ وصحيح مسلم برقم (١٨٢)، وأما حديث أبي سعيد فهو في صحيح البخاري برقم (٦٥٧٤)؛ وصحيح مسلم برقم (١٨٣).

(٢) الحديث أخرجه ابن حاتم، وذكره ابن كثير وقال: لهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما من رواية أنس وأبي سعيد وأبي هريرة، وجابر وغيرهم، ولشدة الهول حينئذٍ يقول المؤمنون: «ربِّ سلِّم سلِّم».

(٣) أخرجه الترمذي: ٤/ ٦٢١، رقم (٢٤٣٢) وقال: غريب؛ والحاكم: ٢/ ٤٠٧، رقم (٣٤٢٢) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم؛ والخطيب: ٤/ ٢٢٢.

نوره في إبهامه يتَّقد مرة ويطفأ مرة»[١].

وحين يمرُّ المؤمنون علىٰ الصراط فيُعطَون نورهم علىٰ قدر أعمالهم، فمنهم مَنْ يعطىٰ نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم دون ذلك، وقد أشارت لذلك الأحاديث الصحيحة فيما رواه البيهقي وصححه الحاكم علىٰ شرط الشيخين.

والسلف علىٰ اعتقاد أن الصراط جسر فوق جهنم وأن العباد يمرون عليه سرعة وبطئًا حسب أعمالهم، ومنهم مَنْ تخطفه كلاليب النار فيهوي فيها[٢].

قول الصوفية في الصراط: يؤكد الشيخ عبد القادر الجيلاني في تعاليمه علىٰ وجوب الإيمان بالصراط فقال: والإيمان بالصراط علىٰ جهنم واجب؛ وهو جسر ممدود علىٰ متن جهنم يأخذ مَنْ يشاء الله إلىٰ النار ويجوز مَنْ يشاء ويسقط في جهنم مَنْ يشاء، ولهم في تلك الأحوال أنوار علىٰ قدر أعمالهم؛ فهم بين ماشٍ وساعٍ وراكب وزحف وسحب[٣].

قول المعتزلة: أنكره بعض المعتزلة؛ لأنه لا يمكن العبور عليه وإن أمكن فهو تعذيب للمؤمنين.

قول الإباضية: ينكر الإباضية الميزان وأنكروا كذلك الصراط وقالوا: إنه ليس بجسر علىٰ ظهر جهنم[٤].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٢/ ٥٢٠، وقال: «هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٢) مقالات الإسلاميين: ٢/ ١٦٤، ١٦٥.

(٣) الغنية: ١/ ٧٠.

(٤) انظر غاية المراد، ص ١٠٦، وذهب بعضهم -وهم قلة- إلىٰ إثبات الصراط بأنه جسر ممدود علىٰ متن جهنم حسبما نقله د. صابر طعيمه عن الجيطالي من علماء الإباضية (١٠٧) قناطر الخيرات: ١/ ٣١٨ - ٣١٩ نقلًا عن الإباضية عقيدة ومذهبًا، ص ١٠٧.

وصف الصراط:

قال أبو سعيد الخدري: بلغني أن الجسر أدقُّ من الشَّعر وأحدُّ من السيف[١]، وفي رواية[٢]: أرقُّ من الشِّعر.

وذهب بعض المتكلمين كالقرافي والعز بن عبد السلام والحليمي إلىٰ تأويل هذا الوصف، فقالوا: إنه راجع إلىٰ يسره وعسره علىٰ قدر الطاعات والمعاصي، ولا يعلم حدود ذلك إلا الله، وقد جرت العادة بضرب دقة الشَّعر مثلًا للغامض الخفي، وضرب حدِّ السيف لإسراع الملائكة في المضيِّ لامتثال أمر الله، وإجازة الناس عليه[٣].

قال القَرافي تبعًا للحافظ البَيْهقي: كون الصراط أدقَّ من الشَّعر وأحدَّ من السيف لم أجده في الروايات الصحيحة، وإنما يُروىٰ عن بعض الصحابة[٤].

وللقرطبي ردٌّ حول هذا الرأي.

قوله بعضهم: الصراط صراطان.

يذكر بعض العلماء أن في الآخرة صراطين:

أحدهما: مجاز لأهل المحشر كلِّهم ثقيلهم وخفيفهم إلا مَنْ دخل الجنة بغير حساب أو مَنْ يلتقطه عنق النار، فإذا خلص مَنْ خلص من هذا الصراط الأكبر

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية: ١/ ١٧١.

(٢) التذكرة للقرطبي، ص٣٣١.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٨/ ٤٣٨؛ التذكرة، ص٣٣٣؛ لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٩٤؛ شرح المقاصد ٢/ ٢٢٣؛ وشرح المواقف للسيد الشريف، ص ٥٩٢؛ وإحياء علوم الدين: ١/ ١٢٠.

(٤) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٩٣؛ التذكرة، ص٣٣٣.

الذي ذكرناه، ولا يخلص إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم حُبسوا علىٰ صراط آخر خاصٍّ لهم ولا يرجع إلىٰ النار من هؤلاء أحد إن شاء الله؛ لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب علىٰ متن جهنمَ، الذي يُسقط فيها من أَوْبَقَه ذنبه وأربىٰ جرمه علىٰ الحسنات بالقصاص(١).

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخلص المؤمنون من النار فيُحبَسون علىٰ قنطرة بين الجنة والنار فيُقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم كُانت بينهم في الدنيا، حتىٰ إذا هذِّبوا ونقوا أُذِن لهم في دخول الجنة، والذي نفس محمَّد بيده، لأحدهم أهدىٰ بمنزله في الجنة منه بمنزله كان له في الدنيا**»(٢).

ذكر الدارَقُطْني في حديثٍ أن الجنة بعد الصراط، إلا أن القرطبي يقول: ولعله بعد القنطرة؛ مستندًا علىٰ حديث البخاري في صحيحة.

أقول: اعلم -رحمك الله- ما أحوج كل عاقل بالغ إلىٰ أن يتذكر هذا اليوم ويتزود له ويعدّ لذلك الموقف العظيم، والتزود بما ينفع فإن خير الزاد التقوىٰ، ولا شك أن الصراط هو آخر المراحل التي يمرُّ بها العبد لدخول الجنة، فمع اختلاف الأقوال لدىٰ الفرق إلا أنهم كلَّهم يقرُّون به ولا ينكر هذا الاختلاف في حقيقته لديهم بقدر اختلاف تفاصيله المعنوية والحسية، ولا ننكر قولهم، أو نخرجهم بل إننا نتزود من أصول عقيدتهم.

واعلم -رحمك الله- أن الإيمان بالصراط واجب حق علىٰ كل مؤمن، والله أعلم بذلك، والله من وراء القصد.

---

(١) التذكرة، ص٣٣٨-٣٣٩؛ لوامع الأنوار البهية: ٢/ ١٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: ٥/ ٢٣٩٤ حديث رقم (٦١٧٠).

۞ الحوض ۞

الحوض لغة: الجمع، فيقال: حاض الماء يحوضه؛ إذا جمعه، ويطلق علىٰ مجمع الماء.

وفي الاصطلاح: فهو حوض الماء النازل من الكوثر في عرَصات القيامة.

والكوثر: هو نهر أُعطيه النبي ﷺ في الجنة.

قال الزبيدي في تاجه[١]: الحَوْضُ مَعْرُوف؛ وهو مُجْتَمَعُ الماءِ. وحَوْضُ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي يَسْقِي منه أُمَّتَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ. حَكَىٰ أَبُو زَيْدٍ: سَقَاكَ اللهُ بِحَوْضِ الرَّسُولِ، ومِنْ حَوْضِهِ.

اعلم -رحمك الله- أنه يجب الإيمان بأن لكل رسول حوضًا يرِدُه الطائعون من أمَّته، ولَعَمْرُ الله إن حوض الحبيب المصطفىٰ ﷺ، أعظمها وأكبرها وهو مُنْيةُ كل مؤمن من أمته أن يرِدَ هذا الحوض، وأن يشرب منه شربةً هنيئةً مريئةً، شربةً لا يحدث بعدها ظمأٌ أبدًا.

واعلم أن هذا الحوض جاء وصفه في الحديث الشريف بأن طوله مسيرة شهر، مربَّع الشكل له مِيْزابان يصبان فيه من الكوثر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلىٰ من العسل، كِيْزانُه أكثر من نجوم السماء، مَنْ شرب منه شربةً لا يظمأ بعدها أبدًا ظمأ ألم، يرِدُه المؤمنون بالنبي ﷺ الآخذون بسُنَّته، والمهتدون بهديه.

أما مسألة ثبوت الحوض بالقرآن الكريم في سورة الكوثر فهو احتمال وليس بصريح؛ لأن العلماء اختلفوا في تفسير الكوثر، هل هو في الحوض، أو الخير الكثير، أو النهر الذي في الجنة[٢].

---

(١) تاج العروس مادة: حوض.

(٢) الأقوال العديدة في المراد بالكوثر في تفسير القرطبي: ١٠/٧٣٠٦-٧٣٠٨.

أقول: أن مسألة الحوض ثابتة بأحاديث مشهورة تفيد التواتر المعنوي، وقد أكَّدت الروايات عن صحة وجود الحوض، وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة في بطون أمهات الكتب[١].

قال الحافظ (جلال الدين السيوطي)[٢]: «ورد ذكر الحوض من رواية بضعة وخمسين صحابيًا منهم الخلفاء الأربعة الراشدون وحفَّاظ الصحابة المكثرون وغيرهم -رضوان الله عليهم أجمعين- ثم ذكر الأحاديث عنهم واحدًا واحدًا».

فقد جاء في الحديث عن ابن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكِيْزانُه كنجوم السماء، مَنْ يشرب منه فلا يظمأ أبدًا**»[٣].

وفي حديث ثوبان أن النبي ﷺ قال: «**إني لبِقَعْر حوضي أَذُوْد الناس عنه لأهل اليمن أضرب بعصاي حتىٰ يرْفَضَّ عليهم، فسُئل عن عرضه فقال: من مقامي إلىٰ عمان، وسُئل عن شرابه فقال: أشد بياضًا من اللبن، وأحلىٰ من**

(١) كتاب الشريعة للآجري، ص٣٥٢، وأصول السنة لابن أبي زمنين ق/٨/أ؛ والإيمان لابن منده: ٣/ ٩٥٣؛ والفرق بين الفرق للبغدادي، ص٣٤٨؛ والفصل لابن حزم: ٤/ ٦٦؛ وعقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني: ١/ ١٣٢ ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، والفتن والملاحم لابن كثير: ٢/ ٣-٣٩ بتصحيح وتعليق الشيخ إسماعيل الأنصاري.

(٢) البدور السافرة عن أمور الآخرة، ص ١٦٤.

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري برقم (٦٥٧٩)؛ وصحيح مسلم برقم (٢٢٩٢).

العسل، يُغتّ فيه مِيْزابانِ يمدَّانه من الجنة. أحدهما من ذهب والآخر من وَرِق»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد إذ أغفىٰ إغفاءةً[(٢)] ثم رفع رأسه ضاحكًا فقيل: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت عليَّ سورة آنفًا فقرأ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ فقال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: إنه نهرٌ وعَدَنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، وهو حوض عرد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلِج العبد منهم فأقول: ربي إنه من أمتي! فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك.[(٣)]

قال الإمام أحمد: وحوض محمد ﷺ حق ترِدُه أمَّته، وله آنية يشربون بها منه[(٤)].

قال بعض شرّاح الطحاوية: الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حدَّ التواتر رواها من الصحابة بضعٌ وثلاثون صحابيًا.

---

(١) رواه مسلم ١/ ٢١٧/ حديث رقم (٢٤٨) في الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء؛ وابن ماجه ٢/ ١٤٣٨ حديث رقم (٤٣٠٢) في الزهد باب ذكر الحوض.

(٢) الإغفاء: ليس المراد به النوم الحقيقي.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوىٰ براءة برقم (٤٠٠): ١/ ٣٠٠؛ وأبو داود في كتاب السنة، باب ٢٦ ج٥/ ١١٠؛ والنسائي في كتاب الافتتاح باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم ٢/ ١٣٣، ١٣٤؛ وسنن النسائي الكبرىٰ برقم (١١٧٠٢)؛ أخرجه أحمد ٣/ ١٠٢(١٢٠١٧ و١٢٠١٩).

(٤) رسالة السنة، ص٧٣.

(٥) لوامع الأنوار: ٢/ ١٩٤- ١٩٥.

قال السفاريني[١]: وحوض النبي ﷺ حقٌ ثابتٌ بإجماع أهل الحق.

من الناس مَنْ لا يرِدُ الحوض:

اعلم -رحمك الله- أن هنالك يُحرَمون من الورود على الحوض، اللهم لا تجعلنا منهم فقد جاء في الحديث عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي الْحَوْضَ حَتَّىٰ إذا عَرَفْتُهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي، فَأَقُولُ أَصْحَابِي! فَيَقُولُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»[٢].

وفي حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي عَلَىٰ الْحَوْضِ حَتَّىٰ أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، وَسَيُؤْخَذُ نَاسٌ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، مِنِّي ومِنْ أُمَّتِي! فَيُقَالُ: هَلْ شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ؟ وَاللهِ مَا بَرِحُوا يَرْجِعُونَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ**»[٣].

قال العلماء: فكل مَن ارتدَّ عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه، ولم يأذن به الله، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه[٤].

والحكم بالإيمان بالحوض واجب، فيُثاب عليه مَنْ صدَّق به، ويُبدّع ويُفسَّق جاحده، وهو مذهب أكثر أهل المذاهب الإسلامية، وقد خالفهم المعتزلة؛ فهم ينكرونه، ولا نرىٰ هنا لهم حجةً عقليةً ظاهرةً، وقد ضلُّوا في ذلك مما

---

(١) أخرجه البخاري باب: في الحوض، حديث رقم ٦٢٠٥، ومسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات الحوض رقم ٥٩٥١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم (٦٥٩٣)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب إثبات حد في نبينا ﷺ، وصفاته، رقم (٥٩٢٨٩).

(٣) التذكرة، ص ٣٠٦؛ لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٢٠٠.

لا يفسِّقهم ويطردهم من الورود على الحوض، والله العالم.

وقد صحَّح الغزالي أن الحوض قبل الصراط، وكذا القرطبي وقال: المعنىٰ يقتضيه. فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشًا، فناسب تقديم الحوض، وأيضًا فإنه مَنْ جاز الصراط لا يتأتىٰ طردُه عن الحوض فقد كملت نجاته.

(ورجح) القاضي عياض أنه بعد الصراط، وأن الشرب منه يقع بعد الحساب والنجاة من النار، ويؤيده من جهة المعنىٰ أن الصراط يسقط منه مَنْ يسقط من المؤمنين، ويُخدَش فيه مَنْ يُخدَش، ووقوع ذلك للمؤمن بعد شربه من الحوض بعيدٌ، فناسب تقديم الصراط حتىٰ إذا خلص مَنْ خلص شرب من الحوض.

عقيدتنا وما نذهب إليه أن الحوض بعد الصراط وهو آخر عهد المؤمن بالحساب، والله العالم.

وما وجب اعتقاده هو أن للنبي ﷺ حوضًا، ومسألة تقدُّم الحوض علىٰ الصراط أو تأخره، لا تعتبر من أساس أصول الدين العقائدية عند المؤمن، فلو جهل بها ما ضرَّه ذلك، واللهَ نسأل أن يبلِّغنا هذا الموقف العظيم وقد نجونا من الحساب والعذاب، وأن ندخل الجنة آمنين مطمئنين.



۞ الشفاعة ۞

الشفاعة لغة: الوسيلة والطلب.

الشفاعة اصطلاحًا: هي سؤال الغير أن ينفع غيره، أو أن يدفع عنه مضرةً. ولا بدَّ من شافع ومشفوع له، ومشفوع فيه، ومشفوع إليه[١].

أو هي: « السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع الجناية في حقه»[٢].

فتكون الشفاعة دائرةً علىٰ أمرين: جلب المنفعة ودفع البلاء[٣].

ولعلَّنا نعرف الشفاعة عرفًا: وهي سؤال الخير للغير.

وهي مشتقة من الشَّفْع ضد الوَتْر، وتكون الشفاعة من الأنبياء والعلماء العاملين والشهداء وبعض الأولياء الصالحين.

قال ابن فارس في مقياسه[٤]: الشين والفاء والعين أصلٌ صحيحٌ يدلُّ علىٰ مقارنة الشيئين. من ذلك الشَّفْع خلاف الوَتْر. تقول: كان فردًا فشفَعْتُه.

قال الجرجاني في تعريفاته[٥]: الشفاعة: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع الجناية في حقه.

---

(١) شرح الأصول الخمسة، ص ٦٨٨.

(٢) انظر التعريفات للجرجاني، ص ٢١١؛ والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير ٢/ ٤٨٥؛ والكليات لأبي البقاء، ص ٥٣٦.

(٣) شرح العقيدة الواسطية: ٢/ ١٦٨.

(٤) مقاييس اللغة، ص ٥٣١، باب الشين والفاء.

(٥) التعريفات، ص ١٢٧.

قال ابن منظور في لسانه[١]**، ووافقه الزبيدي في تاجه**[٢]: الشَّفاعةُ كلام الشَّفِيعِ لِلْمَلِكِ في حاجة يسأَلُها لغيره.

قال ابن حجر في فتحه[٣]: الاستشفاع طلب الشفاعة وهي انضمام الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ؛ ليستعين به علىٰ ما يرومُه.

قال السفاريني في لوامعه[٤]: هي سؤال الخير للغير، وقال أيضًا: والمشفّع -بكسر الفاء: الذي يقبل الشفاعة، والمشفَّع- بفتح الفاء: الذي تُقبل شفاعته[٥].

ومن التعريفات السابقة نرىٰ أن الجرجاني جعل الشفاعة في الصفح والعفو عن الذنوب فقط، أما ابن منظور والإمام الزبيدي جعلاها مطلقة في الصفح وطلب الزيادة دون سابق ذنب.

أقول: الشفاعة هي الطلب للغير بأن يُعفىٰ عنه، أو يُدفع عنه أذىٰ، وهي لم تعرف إلا بشفاعة النبي العظمىٰ.

قال الإمام أبو حنيفة في الفقه: «شفاعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حقٌّ، وشفاعة نبينا ﷺ للمؤمنين المذنبين، ولأهل الكبائر منهم المستوجبين للعقاب حقٌّ ثابتٌ»[٦].

---

(١) لسان العرب: ٢/ ٣٣٤.

(٢) تاج العروس: ٥/ ٤٠١.

(٣) فتح الباري: ١٣/ ٢٥٦.

(٤) لوامع الأنوار البهية: ١/ ٢٠٤.

(٥) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٢٠٤.

(٦) الفقه الأكبر: أبو حنيفة، ص ٤١.

قال أبو الحسن الأشعري في مقالاته: «وقال أهل السُّنَّة والاستقامة بشفاعة رسول الله ﷺ لأهل الكبائر من أمَّته . . . وقال أهل السُّنَّة والاستقامة: إن الله يُخرج أهل القبلة الموحِّدين من النار ولا يخلِّدهم فيها»[١]،

ويقول في موضع آخر: «إن الله ﷻ يُخرج قومًا من النار بعد أن امتَحَشُوا بشفاعة رسول الله ﷺ؛ تصديقًا لما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ[٢]».

ويؤكد أبو الحسن الأشعري إجماعَ أهل السُّنَّة والجماعة علىٰ شفاعة النبي ﷺ لبعض أهل الكبائر من أمَّته، وعلىٰ أنه يشفع عند الله تعالىٰ فيُخرج قومًا من أمَّته من النار بعدما صاروا حُمَمًا[٣].

قال ابن قدامة في لمعته: «ويشفع نبينا محمد ﷺ فيمَنْ دخل النار من أمَّته من أهل الكبائر، فيخرجون بشفاعته بعد ما احترقوا وصاروا فحمًا وحممًا، فيدخلون الجنة بشفاعته، ولسائر الأنبياء والمؤمنين والملائكة شفاعات، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ولا تنفع الكافر شفاعةُ الشافعين»[٤].

قال الإيجي في مواقفه: «أجمعت الأمة علىٰ أصل الشفاعة وهي عندنا -يقصد أهل السُّنَّة- لأهل الكبائر من الأمَّة؛ لقوله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمَّتي**»[٥]، ولقوله تعالىٰ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

---

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن الأشعري: ٢/ ١١٦.

(٢) الإبانة في أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري: ١/ ٢٠.

(٣) انظر رسالة إلىٰ أهل الثغر، ص٩٧.

(٤) لمعة الاعتقاد، للشيخ عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ١/ ١٣٤.

(٥) الترمذي، كتاب صفة القيامة (٤/ ٢٤٣٥/ ٥٣٩) وقال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وابن ماجه، كتاب الزهد (٢/ ١٤٤١) حديث رقم (٤٣١٠)؛ وأحمد (٢٠/ ٤٣٩) حديث رقم (١٣٢٢٢).

أي: ولذنب المؤمنين؛ لدلالة القرينة وطلب المغفرة شفاعةً»[(١)].

قال ابن تيمية في فتاويه: «ومذهب سلف الأمَّة وأئمَّتها وسائر أهل السُّنَّة والجماعة إثباتُ الشفاعة لأهل الكبائر، والقول بأنَّه يخرج من النار مَنْ في قلبه مثقالُ ذرَّة من إيمان»[(٢)]، **ويقول في موضع آخر:** «ومذهب الصحابة والتابعين. .أنَّه ﷺ يشفع في أهل الكبائر، وأنه لا يخلد في النار من أهل الإيمان أحدٌ؛ بل يخرج منَ النَّار مَنْ في قلبه مثقالُ حبةٍ من إيمان، أو مثقالُ ذرَّةٍ من إيمان»[(٣)].

قال أبو العز الحنفي في شرحه: «والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره في أهل الكبائر، وأما أهل السُّنَّة والجماعة فيقرُّون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحدٌ حتىٰ يأذنَ الله له ويحدَّ له حدًا»[(٤)].

واعلم -رحمك الله- أن الحبيب المصطفىٰ ﷺ أول مَنْ يفتح باب الشفاعة حين يشفع في فصل القضاء، وهي الشفاعة العظمىٰ المختصة به، والتي يغبِطه عليها الأولون والآخرون، وهي المقام المحمود المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: سُئل النبي ﷺ عن المقام المحمود في الآية فقال: «**هو المقامُ الذي أشفعُ فيه لأمَّتي**»[(٥)].

---

(١) المواقف: الإيجي ص ٣٨٠.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ١/١١٦.

(٣) مجموع الفتاوىٰ ١/٣١٨.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٢٩٤.

(٥) أخرجه أحمد (٢/٤٧٨)؛ وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٧٢) من طريق داود الأودي =

وروي عن عبد الله بن عمرَ قال: «**إن الشمس تدنو يومَ القيامة حتىٰ يبلغَ العرقُ نصفَ الأُذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدمَ، ثم بموسىٰ، ثم بمحمد ﷺ، فيشفع ليُقضىٰ بين الخلق فيمشي حتىٰ يأخذَ بحَلْقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهلُ الجمع كلُّهم**»[(١)].

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمَّتي**»[(٢)].

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**أنا سيِّدُ ولد آدمَ يومَ القيامة، وأولُ مَنْ ينشقُّ عنه القبر، وأولُ شافع، وأولُ مشفَّعٍ**»[(٣)].

= عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا. وأخرجه أحمد أيضًا (٢/ ٤٤١ و٤٤٤ و٥٢٨)؛ والترمذي (٢/ ١٩٣)؛ الطحاوي في « مشكل الآثار » (١/ ٤٤٩)؛ وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٨٤)، وابن خزيمة في التوحيد، ص ١٩٨).

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في الزكاة باب: من سأل الناس تكثرًا: ٣/ ٣٣٨، ورواه موصولًا ؛الطبري في التفسير: ١٥/ ١٤٦؛ والبزار والطبراني في «الأوسط»؛ وابن منده في «الإيمان» ٣٠/ ٨٣٣، وقال: «هذا إسناد ثابت علىٰ رسم البخاري». وانظر: فتح الباري: ٣/ ٣٣٩؛ الدر المنثور: ٥/ ٣٢٥.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣، رقم ١٣٢٤٥)؛ وأبو داود (٤/ ٢٣٦، رقم ٤٧٣٩)؛ والترمذي (٤/ ٦٢٥، رقم ٢٤٣٥) وقال: حسن صحيح غريب؛ وابن أبي عاصم (٢/ ٣٩٩، رقم: ٨٣١)؛ وأبو يعلىٰ (٦/ ٤٠، رقم ٣٢٨٤)؛ وابن حبان (١٤/ ٣٨٧، رقم ٦٤٦٨)؛ والطبراني (١/ ٢٥٨، رقم ٧٤٩)؛ والحاكم (١/ ١٣٩، رقم ٢٢٨) وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين؛ والبيهقي فىٰ شعب الإيمان (١/ ٢٨٧، رقم ٣١٠)؛ والضياء (٤/ ٣٨٢، رقم ١٥٤٩)، شرح المناوي الكبير، رقم ٤٨٩٢ (ج٤ ص١٦٣).

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل: باب تفضيل نبينا محمد ﷺ علىٰ جميع الخلائق برقم (٢٢٧٨): ٤/ ١٧٨٢؛ والمصنف في شرح السنة: ١٣/ ٢٠٣-٢٠٤؛ وأبو داود (٤/ ٢١٨، رقم ٤٦٧٣)؛ وأخرجه أيضًا: أحمد (٢/ ٥٤٠، رقم ١٠٩٨٥).

الشفاعة قسمان:

الأولىٰ الشفاعة المثبتة:

هي التي تكون بإذن الله جلَّ وعلا وبرضاه، وقد أثبتها الله تعالىٰ لأهل الإخلاص، كما قال جلَّ وعلا: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

الثانية الشفاعة المنفيَّة:

ما يزعمه الكفار والمشركون من أن أصنامهم ومعبوداتهم تشفع لهم ولو لم يأذَن الله جلَّ وعلا، وهي التي تُطلب من غير الله تعالىٰ، فهذه نُفيَت في كتاب الله.

أنواع الشفاعة[1]:

١- **الشفاعة العظمىٰ**: وهي مختصَّة بسيدنا ونبينا محمد ﷺ عن سائر الأنبياء، في فصل القضاء؛ بعد أن يحوّل الأنبياء وأصحاب الشرائع آدم إلىٰ نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام جميعًا الناس إلىٰ سيّدنا محمَّد لذلك سُميت بالشفاعة العظمىٰ، وهي المقام المحمود، وقد وردت بذلك حدَّ التواتر، وفي لفظ له: «**أَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ**»[2]،

---

(١) لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٢٠٤؛ شرح العقيدة الطحاوية، ص١٩١-١٩٨؛ الشرح الجديد، ص١٤١؛ أصول الدين الإسلامي، ص٣٣٦.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قول النبي ﷺ ...، رقم (٣٣٢)؛وأخرجه أحمد: ٣/ ١٤٠ حديث رقم (١٢٤٤٦)؛ والدَّارِمي حديث رقم (٥١).

وقوله: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ»(١).

٢- الشفاعة في إدخال فريق الجنة بغير حساب: وهي له ﷺ، أيضًا، بدليل حديث عُكَاشَةَ بن مِحْصَن في الصحيحين حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنةَ بغير حساب، وهم الذين لا يَسْتَرْقون ولا يَكْتَوون ولا يَتطيَّرون وعلىٰ ربهم يتوكلون، ويدلُّ له قوله:

«أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا»(٢).

٣- الشفاعة في زيادة الدرجات: وهذه ليست خاصةً بالنبي ﷺ فقط، وهي لرفع درجات أناس في الجنة.

وهذه الأنواع الثلاثة لم يخالف فيها أحدٌ من علماء التوحيد.

٤- الشفاعة في مرتكب الكبيرة: المستحقِّ دخولَ النار قبل أن يدخلها.

٥- الشفاعة في إخراج مرتكب الكبيرة من النار: وهذان النوعان الأخيران أنكرهما المعتزلة والخوارج، وكل مَنْ قال: إن مرتكب الكبيرة مخلَّد في النار، وأثبتها الأشاعرة والماتريدية وأهل السُّنَّة؛ لوجود الأدلة في ذلك، وقد مرَّ بعضها، وهناك شفاعات أخرىٰ داخلة تحت ما ذُكر.

---

(١) أخرجه مسلم: ١/ ١٨٨ حديث رقم (١٩٧)؛ وأحمد في مسنده: ٣/ ١٣٦ حديث رقم (١٢٤٢٠).

(٢) أخرجه مسلم: ١/ ١٨٨ حديث رقم (١٩٦)؛ وأخرجه أبو يعلىٰ: ٧/ ٤٦، حديث رقم (٣٩٥٩)

شفاعة غير النبي الأعظم ﷺ:

واعلم أن بعد شفاعة النبي ﷺ، يُفتح باب الشفاعة لمن ارتضاه الله، وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**فيقول الله تبارك وتعالىٰ: شفعت الملائكة وشفع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضةً منَ النار فيُخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قطُّ**»[(١)].

وجاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إن من أمَّتي مَنْ يشفع للفِئامِ**[(٢)] **مِنَ الناس، منهم مَنْ يشفع للقبيلة، ومنهم مَنْ يشفع للعُصبة، ومنهم مَنْ يشفع للرجل حتىٰ يدخلوا الجنة**»[(٣)].

ومن الشفاعة شفاعة الشهيد لأهله وهي ثابتة في الحديث الشريف؛ فقد جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُشَفَّعُ الشَّهِيدُ فِىٰ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ**»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية: ٢/ ٢٥، ٢٦ برقم (١٨٣)؛ رواه الإمام أحمد في المسند: ٣/ ٩٤؛ وعبد الرزاق في المصنف: ١١/ ٤١٠ برقم (٢٠٨٥٧).

(٢) الفئام: الجماعة من الناس، ولا واحد له من لفظه، وتجمع علىٰ فؤم. تاج العروس من جواهر القاموس: ٣٣/ ١٩٤.

(٣) أخرجه الترمذي: ٤/ ٦٢٧، برقم (٢٤٤٠) وقال: حسن؛ وأحمد: ٣/ ٦٣، برقم (١١٦٢٣)؛ وأبو يعلىٰ: ٢/ ٢٩٢، رقم (١٠١٣)؛ وابن أبي شيبة: ٦/ ٣١٣، برقم (٣١٧٠٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٢٢) في الجهاد، باب في الشهيد يشفع، قال الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٨٠٩٣ في صحيح الجامع؛ وحسَّنه السيوطي في الجامع الصغير، انظر فيض القدير للمناوي برقم (١٠٠١٢) - (٦/ ٤٦٢)؛ وخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ (٩/ ١٦٤) برقم: (١٨٣٠٨)؛ وأخرجه ابن حبان كما في الموارد، ص(٣٨٨)؛ والآجري في الشريعة، ص٣٥٠.

حقيقة خبر المعتزلة في الشفاعة:

تتبَّع أهل العلم المتقدِّمون والمتأخِّرون مسألة أن المعتزلة ينكرون شفاعة النبي ﷺ وغيره فيمَنْ استحقَّ النار من أهل الكبائر، والحقيقة أنّ في المسألة اشتباهًا ظاهر، وهؤلاء في زعمهم لا يخرجون من النار بعد دخولها، ويقصرون الشفاعة علىٰ التائبين من المؤمنين دون الفُسَّاق من أمَّة محمد ﷺ، وتكون برفع درجاتهم في الجنة[١] لأن إثبات الشفاعة للفُسَّاق ينافي مبدأ الوعيد الذي هو أصلٌ من أصول المعتزلة الخمسة التي يقوم عليها مذهبهم.

قال القاضي عبد الجبار في شرحه: في بيان رأي المعتزلة في الشفاعة: «لا خلاف بين الأمَّة في أنَّ شفاعة النبي ﷺ ثابتة للأمَّة، وإنما الخلاف في أنها تثبت لمَنْ». ثم قال: «فعندنا أن الشفاعة للتائبين من المؤمنين»[٢].

ويقول في موضع آخر: «فحصل لك بهذه الجملة العلمُ بأن الشفاعة ثابتةٌ للمؤمنين دون الفُسَّاق من أهل الصلاة»[٣].

ويذهب المفسِّر الزمخشري المعتزلي في كشافه[٤]: إلىٰ أنَّ الشفاعة لا تُقبل للعُصاة من أمَّة محمد ﷺ. وذلك في تفسيره لقول تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾ [البقرة: ٤٨].

---

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، محمد السفاريني: ٢/ ٢١٢.

(٢) شرح الأصول الخمسة، ص٦٩٠.

(٣) شرح الأصول الخمسة، ص ٦٩٠.

(٤) تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فىٰ وجوه التأويل، للزمخشري: ١/ ١٣٦.

قال الأشعري في مقالاته: عند عرضه اختلافَ الفرقة وأصحاب المقالات في شفاعة الرسول ﷺ هل هي ثابتة لأهل الكبائر أم لا؟: «فأنكرت المعتزلة ذلك وقالت بإبطاله، والشفاعة من النبي ﷺ للمؤمنين أن يُزادوا في منازلهم من باب التفضيل»[(١)].

ويقول في موضع آخر: «فإن كثيرًا منَ الزائغين عن الحق منَ المعتزلة وأهل القدَر مالت بهم أهواؤهم إلىٰ تقليد رؤسائهم ومَنْ مضىٰ من أسلافهم . . . وأنكروا شفاعة رسول الله ﷺ للمذنبين، ودفعوا الروايات في ذلك عن السلف المتقدِّمين»[(٢)].

قال ابن حزم في فِصَله: اختلف الناس في الشفاعة، فأنكرتها المعتزلة وقالوا بعدم خروج أحد من النار بعد دخوله فيها، بينما ذهب أهل السُّنَّة والأشعرية والكراميَّة وبعض الرافضة إلىٰ القول بالشفاعة[(٣)].

قال الآجري في شريعته: «اعلموا -رحمكم الله- أن المنكر للشفاعة يزعم أن مَنْ دخل النار فليس بخارج منها، وهذا مذهب المعتزلة يكذِّبون بها»[(٤)].

قال ابن تيمية في فتاويه: إنَّ الخوارج والمعتزلة يقولون: إن مَنْ دخل النار لا يخرج منها بل يخلد فيها، وينكرون شفاعةَ محمد ﷺ في أهل الكبائر قبل الدخول وبعده، وينكرون خروجَ أحد من النار[(٥)].

---

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: ٢/ ١٦٦.

(٢) الإبانة في أصول الديانة: ١/ ١٤.

(٣) انظر الفصل والملل: ٤/ ٥٣.

(٤) الشريعة: ١/ ٣٣٧.

(٥) مجموع الفتاوىٰ الكبرىٰ: ٦/ ٦٥٩، ٦٣٧.

ويقول: «**الوعيدية** الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلَّدين في النار، ويخرجونهم من الإيمان بالكلية، ويكذِّبون بشفاعة النبي ﷺ»[(١)].

قال ابن القيم في طريقه: «ردَّ الخوارج والمعتزلة النصوص المتواترة الدالَّة علىٰ خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة وكذَّبوا بها، وقالوا: لا سبيل لمن دخل النار إلىٰ الخروج منها بالشفاعة ولا غيرها .....، أحالوا بالشفاعة علىٰ زيادة الثواب فقط لا علىٰ الخروج من النار، فردُّوا السُّنَّة المتواترة قطعًا، وصاروا مضغةً في أفواه الأمَّة وعارًا في فِرَقها»[(٢)]

تعريف الشفاعة عند المتكلمين:

قال الشريف المرتضىٰ في رسائله[(٣)]: وحقيقة الشفاعة وفائدتها: طلبُ إسقاط العقاب عن مستحقِّه، وإنما تُستعمل في طلب إيصال المنافع مجازًا وتوسعًا، ولا خلاف في أن طلب إسقاط الضرر والعقاب يكون شفاعةً علىٰ الحقيقة.

وقال في موضع آخر[(٤)]: وشفاعة النبي ﷺ إنما هي في إسقاط عقاب العاصي لا في زيادة المنافع؛ لأن حقيقة الشفاعة تختصُّ بذلك، من جهة أنها لو اشتركت لكنَّا شافعين في النبي ﷺ إذا سألنا في زيادة درجاته ومنازله.

ويعرِّف المرتضىٰ الشفاعة[(٥)]: بأنها طلب رفع المضارِّ عن الغير ممن هو أعلىٰ رتبةً منه، لأجل طلبه.

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٣٧٤.

(٢) طريق الهجرتين: ابن القيم: ١/ ٥٦٨، ٣٧٤.

(٣) رسائل المرتضىٰ: ١/ ١٥٠.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ١٧.

(٥) المرجع السابق: ٢/ ٢٧٣.

قال أبو الصلاح الحلبي في الكافي[1]: وقلنا: إن الشفاعة وجهٌ عندنا لإجماع الأمَّة علىٰ ثبوتها له ﷺ ومضىٰ إلىٰ زمان حدوث المعتزلة علىٰ الفتوىٰ بتخصيصها بإسقاط العقاب، فيجب الحكم بكونها حقيقةً في ذلك؛ لانعقاد الإجماع في الأزمان السابقة لحدوث هذه الفرقة.

وجاء في تفسير التبيان[2]**في قوله تعالىٰ**: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣] وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ٣] فالشفيع هو السائل في غيره لإسقاط الضرر عنه. وعند قوم أنه متىٰ سأله في زيادة منفعة تصل إليه كان شفيعًا، والذي اقتضىٰ ذكره هاهنا صفات التعظيم مع اليأس من الاتّكال في دفع الحق علىٰ الشفيع.

والمعنىٰ هاهنا: أنَّ تدبيره للأشياء وصنعته لها، ليس يكون منه بشفاعة شفيع، ولا تدبير مدبِّر لها سواه، وأنه لا يَجسُر أحدٌ أن يشفع إليه إلا بعد أن يأذن له فيه، من حيث كان تعالىٰ أعلم بموضع الحكمة والصواب من خلقه بمصالحهم.

وإنما ذكر الشفيع في الآية لأن المخاطبين بذلك كانوا يقولون: الأصنام شفعاؤهم عند الله، وذكر بعدها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ وإذا كانت الأصنام لا تعقل فكيف تكون شافعة! مع أنه لا يشفع عنده إلا مَن ارتضاه الله.

---

(١) الكافي، ص٤٦٩.

(٢) التبيان: ٥/ ٣٣٤.

قال النسفي في كنز الدقائق[(١)]: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾. واستدلت المعتزلة بهذه الآية علىٰ نفي الشفاعة لأهل الكبائر.

قال البيضاوي في أنواره[(٢)]: وأُجيب بأنها مخصوصة بالكفار للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة، قال: ويؤيده أن الخطاب معهم، والآية نزلت ردًا لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم.

جاء في مجمع البحرين[(٣)]: في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾ [النساء: ٨٥].

قيل: معناه مَنْ يُصلح بين اثنين يكنْ له جزءٌ منها. ومَنْ يشفع شفاعةً سيئةً؛ أي: يمشي بالنميمة مثلًا، يكنْ له كِفْلٌ منها؛ أي: إثم منها.

وقيل: المراد بالشفاعة الحسنة الدعاء للمؤمنين، وبالشفاعة السيئة الدعاء عليهم.

قوله: ولا يشفعون إلا لمن ارتضىٰ دينَه، وهو مرويٌّ عن الرضا عليه السلام وعن بعض المفسرين، ولا يشفعون إلا لمن ارتضىٰ دينَه من أهل الكبائر والصغائر، فأمَّا التائبون من الذنوب فغير محتاجين إلىٰ الشفاعة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ٤٨﴾ [المدثر: ٤٨].

قيل في معناه: لا شافع ولا شفاعة، فالنفي راجع إلىٰ الموصوف والصفة، كقوله: ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

(١) كنز الدقائق: ١/ ٢٣٨.
(٢) تفسير البيضاوي الشهير بأنوار التنزيل: ١/ ٥٥؛ تفسير روح المعاني: ٣/ ٢٥٣.
(٣) مجمع البحرين: ٢/ ٥٢٢.

وفي الحديث تكرر ذكر الشفاعة فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم، ومنه قوله ﷺ: «أُعطيت الشفاعة».

قال الشيخ أبو علي الجبَّائي: واختلفت الأمَّة في كيفية شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة فقالت المعتزلة ومَنْ تابعهم: يشفع لأهل الجنة ليزيد في درجاتهم. وقال غيرهم من فرق الأمة: بل يشفع لمذنبي أمَّته ممن ارتضىٰ الله دينَهم؛ ليسقط عقابهم بشفاعته.

وفي حديث الصلاة علىٰ الميت: وإن كان المستضعف بسبيل منك فاستغفر له علىٰ وجه الولاية.

وفي الخبر: «**اشفع تشفَّعْ**»؛ أي: تُقبل شفاعتك، وفيه: «أنت أولُ شافع وأولُ مشفَّع»، هو بفتح الفاء؛ أي: أنت أول مَنْ يشفع وأول مَنْ تُقبل شفاعته.

وفي الحديث: «**لا تشفع في حق امرئ مسلم إلا بإذنه**». وفيه: يشفعون الملائكة لإجابة دعاء مَنْ يسعىٰ في المسعىٰ؛ كأنهم يقولون: اللهم استجب دعاءَ هذا العبد.

قال الفخر الرازي في تفسيره[1]: أجمعت الأمة علىٰ أن لمحمد ﷺ شفاعةً في الآخرة، وحمل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾.

ثم اختلفوا بعد هذا في أن شفاعته عليه السلام لمن تكون، أتكون للمؤمنين المستحقِّين للثواب، أم تكون لأهل الكبائر المستحقِّين للعقاب، فذهب المعتزلة

(١) تفسير الرازي: ٢/ ٥٥.

إلىٰ أنها للمستحقِّين للثواب . . . وقال أصحابنا: تأثيرها في إسقاط العذاب عن المستحقِّين للعقاب.

حجّة المعتزلة في عدم استحقاق العُصاة الشفاعة:

ذهب المعتزلة إلىٰ عدم استحقاق العُصاة من أمَّة محمد ﷺ الشفاعةَ، والذي حمل المعتزلة علىٰ هذا الاعتقاد أمران:

أحدهما: زعمهم أن المؤمن إذا خرج من الدنيا بكبيرة من الكبائر دون أن يتوب منها فإنه يستحقُّ الخلودَ في النار، لكن عقابه يكون أخفَّ من عقاب الكافر[1]، وأن آيات الوعيد تتناول الفُسَّاق من المسلمين كما تتناول الكَفَرَة، وهذا ما يُعرف بمسألة الوعد والوعيد عند المعتزلة.

وثانيهما: اعتقادهم عدَّة شبهات اعتقدوها أدلةً نتيجة فهمهم الخاطئ لنصوص القرآن الكريم، بالإضافة إلىٰ ما زعموه من الأدلة العقلية.

الحكمة من الشفاعة:

والحكمة من الشفاعة تكريم الشافعين، ورفع شؤونهم علىٰ رؤوس الأشهاد وإفاضة الكرم الإلهي علىٰ المشفوع له.

وليس القول بالشفاعة إعداد الناس للجرأة والجسارة علىٰ المعاصي، كما توهَّمه البعض؛ لأنه ليس في علم أي شخص أنه يشفع له، حتىٰ يكون ذلك جالبًا لإقدامه عليها.



(١) الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ٤٥.

۞ النار ۞

وهي دار العذاب والعقاب أعدَّها الله للكافرين والعُصاة، وثبتت بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الأئمة، لها سبعة أبواب لكل باب جزء مقسوم.

والعذاب فيها مختلف الأنواع والأقسام، **وهي موجودة الآن باقية لا تفنىٰ، والكفار فيها مخلَّدون.**

قال تعالىٰ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

قال تعالىٰ: ﴿أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

قال تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

وعن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**ناركم هذه التي تُوقدون فيها جزءٌ من سبعين جزءًا من حرِّ جهنمَ**».

قالوا: والله إن كانت لكافيةً يا رسول الله**!** قال: «**فإنها فُضِّلت بتسعة وستين جزءًا كلهم مثل حرِّها**»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**تخرج عُنقٌ من النار يومَ القيامة، لها عينان تُبصران، وأُذنان تسمعان، ولسانٌ ينطق يقول: إني وُكلتُ بثلاثة: بكلِّ جبار عنيد، وبكلِّ مَنْ دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصوِّرين**»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**لو أن قطرةً من الزَّقُّوم قطَرت في دار الدنيا لأفسدتْ علىٰ أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمَنْ يكون طعامَه؟**»[٣].

واعلم رحمك الله وهذا ما نذهب إليه: أنه لا يخلد في النار مَنْ مات علىٰ التوحيد ولو ارتكب الكبائر، أما مَنْ مات علىٰ الشرك والكفر فإنه لا يخرج منها أبدًا.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يخرج منَ النار مَنْ قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزنُ شعيرة من خير، ويخرج منَ النار مَنْ قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزنُ بُرَّة من خير، ويخرج منَ النار مَنْ قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزنُ ذرَّة من خير**»[٤].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار حديث رقم (٣٠٢٥)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها حديث رقم (٥٠٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٤) أخرجه أحمد والشيخان والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة: ٦].

أسماء النار:

للنار أسماء ذكرت في القرآن، وهي ثمانية، أولها وأشهرها النار.

وأما البقية فهي كالتالي:

١- سعير:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: ٥].

٢- جهنم: جهنم اسم لنار الآخرة وهو من الجهامة وهي كراهة المنظر، قال المفسرون وبجهنم أودية منها الموبق والويل.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١﴾ [النبأ: ٢١].

وكلمة «**جهنم**»، يرىٰ بعض العلماء انها من الكلمات المعربة. ويظن المستشرقون أنها من أصل عبراني[١].

قال الأنباري في زاهره[٢]: في جهنم قولان: قال يونس: وأكثر النحويين جهنم اسم للنار التي يعذب الله بها في الآخرة وهي أعجمية لا تجري للتعريف والعُجْمة.

وقال آخرون: جهنم اسم عربي سميت نار الآخرة به لبعد قعرها وإنما لم تَجْرِ لثقل التعريف وثقل التأنيث، أنّه قال ركِيّة جِهِنام يريد بعيدة القعر.

---

(١) المفصل من تاريخ العرب قبل الإسلام ١٢/ ٥٥.

(٢) الزاهر فىٰ معانىٰ كلمات الناس٢/ ١١٩.

٣- لظىٰ: اللظىٰ: اللهب الخالص[١].

قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾ **[المعارج: ١٥]**.

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ **[الليل: ١٤-١٥]**.

والتظاء النار: التهابها، وتلظيها: تلهبها.

أي: تتوهج وتتوقد.

٤- سقر: والسقر معناه البعد

قال تعالىٰ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ **[المدثر: ٢٦-٣٠]**.

قال ابن منظور في لسانه: السقر: البعد، وسقرته الشمس: لوحته وآلمت دماغه بحرِّها، ويوم مسمقر شديد الحر[٢].

قال الجوهري في صحاحه: سقر[٣]: سقرات الشمس: شدة وقعها. وسقرته الشمس: لوحته. ويوم مسمقر

ومصمقر: شديد الحر. وسقر: اسم من أسماء النار.

وسميت سقر بذلك إما لبعد قعرها أو لشدة حرها، وكلا المعنيين ثابت لها.

٥- الهاوية: والهاوية ففعلها هَوَىٰ يَهْوِي هُوِيا وهَوَيانا. ويعني سقط من علو. والهاوية هي الحفرة العميقة التي يَهْلِك ويُصابُ من يقع فيها، الهاوية

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب، ص٧٤٠.

(٢) لسان العرب (٤/ ٣٧٢).

(٣) الصحاح ٤/ ٩٠.

(بفتح الهاء) وهي تعني الحفرة العميقة، والأُخدود. وجاء إطلاقها في القرآن علىٰ جهنم.

قال تعالىٰ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾ [القارعة: ٩-١١].

٦- **الحطمة**: والحُطَمَةُ: النّار، وقيل: الحُطَمَةُ: بابٌ من جهنّم[١].

وسميت النار بذلك: لأنها تحطم رأس وعظام كل من يدخلها.

قال تعالىٰ: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [الهمزة: ٤-٦].

قال البخاري: في تفسيرسورة الهمزة: ?وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ?، الحطمة: اسم النار مثل سقر ولظىٰ[٢].

٧- **الجحيم**: الجحيم: خاصة من بين أسماء النار مذكر، وسائر أسمائها مؤنث مثل سقر ولظىٰ وجهنم[٣]، وكل نار عظيمة في مهواة فهىٰ جحيم.

قال الفراهيدي في عينه[٤]: الجَحيمُ: النّارُ الشديدة التَأَجُّج والالتِهاب، جَحَمَت تَجحَمُ جُحُومًا.

قال الليث[٥]: الجحيم: النار الشديدة التأجج كما اجحوا نارا لإبراهيم النبي عليه السلام فهي تجحم جحوما أي توقد توقدا.

---

(١) العين١/ ٢٠٦.
(٢) رواه البخاري - كتاب تفسير القرآن - سورة ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾.
(٣) المذكر والؤنث ١/ ٣.
(٤) العين ١/ ١٨٤،المحيط في اللغة ٣/ ٣٩٦.
(٥) تهذيب اللغة ١/ ٤٩٢.

قال تعالىٰ: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ [الدخان: ٤٧].

وقد ذكر بعض أهل العلم تسمية دركات النار فقال: الأولىٰ جهنم، والثانية لظىٰ، والثالثة الحطمة، والرابعة السعير، والخامسة سقر، والسادسة الجحيم، والسابعة الهاوية والصواب أن هذه أسماء للنار، والله أعلم.

أبواب النار:

وقد ثبت أن للجنة ابواب، وعددها سبعة أبواب، قال تعالىٰ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٤٤]، أي: أن لكل باب مجموعة من أتباع إبليس يدخلون معه بحسب عملهم، ثم يستقرون في النار.

وقد جاء أن الأبواب تفتح حين يَرِد الكفار علىٰ النار فيدخلونها خالدين.

قال تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١].

وقود النار: الأحجار والفجرة والكفار هم وقود النار، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

والمراد بالناس الذين توقد النار بهم الكفرة والمشركون، وأما نوع الحجارة التي تكون للنار وقودًا فالله أعلم بحقيقتها.

شدة حرها: وقد ورد أن نار جهنم أشد حرارة من نار الدنيا وقد جاء في الحديث الشريف بما أخبر به النبي ﷺ عن حر جهنم فقال: «**نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ**

سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً قَالَ: **فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**.(١)

طعام أهل النار: أن لأهل النار طعام الزقزم والضريع وقد جاء في الذكر الحكيم وصف لطعام أهل النار، قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ **[الغاشية: ٦-٧]**.

وشجرة الزقوم هي شجرة من أصل الجحيم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ **[الدخان: ٤٣-٤٦]**.

وقد وصف سبحانه شجرة الزقوم في آية أخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾ **[الصافات: ٦٢-٦٨]**.

ومن طعام أهل النار الغسلين، والضريع: شوك، والغسلين والغساق: بمعنىٰ واحد، وهو ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد.

وقيل: ما يسيل من فروج النساء الزواني.

وقال القرطبي في جامعه(٢): قال محمد بن كعب: هو عصارة أهل النار.

شراب أهل النار: إن لأهل النار شراب يشربونه فإذا دخلوا فيها أصابهم

(١) رواه البخاري ـ كتاب بدء الخلق ـ باب صفة النار (٣٠٢٥)، ومسلم ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ـ باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها (٥٠٧٧).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٢٢).

الجوع والعطش، فإذا أكلوا من شجرة الزقوم أصابهم عطش شديد، فيشربون من الحميم.

قال تعالىٰ: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ۝٥٥﴾ [الواقعة: ٥٤-٥٥].

أي: علىٰ الزقوم ليطفأ غليانه، و[الْهِيمِ]: هي الإبل العطاش، واحدها أهيم والأنثىٰ هيماء، ويقال: هائم وهائمة، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة: الهيم الإبل العطاش الظماء، وعن عكرمة أنه قال: الهيم الإبل المراض تمص الماء مصًا ولا تروىٰ، وقال السدي: الهيم داء يأخذ الإبل فلا تروىٰ أبدًا حتىٰ تموت، فكذلك أهل النار لا يروون من الحميم أبدًا[1]. والآيات والأدلة في هذا كثيرة.

لباس أهل النار وكسوتهم: أما لباس أهل النار فقد أخبرنا الله تعالىٰ أنه يُفصّلُ لأهل النار حلل من النار، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

وكان إبراهيم التيمي إذا تلا هذه الآية يقول: سبحان من خلق من النار ثيابًا[2].

هل يرىٰ أحد النار قبل يوم القيامة:

الثابت أن رسول الله ﷺ رأىٰ النار، جاء ذلك في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ أَوْ أُرِيتُ الْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ**

(١) تفسير القرآن لابن كثير (٧/ ٥٣٨).

(٢) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوارقسم الزهدوالرقائق والأخلاق ١/ ١٦٣.

كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ». (١)

وفي صحيح البخاري عن أسماء رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**دَنَتْ مِنِّي الْجَنَّةُ حَتَّىٰ لَوْ اجْتَرَأْتُ عَلَيْهَا لَجِئْتُكُمْ بِقِطَافٍ مِنْ قِطَافِهَا وَدَنَتْ مِنِّي النَّارُ حَتَّىٰ قُلْتُ أَيْ رَبِّ وَأَنَا مَعَهُمْ فَإِذَا امْرَأَةٌ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ قُلْتُ مَا شَأْنُ هَذِهِ قَالُوا حَبَسَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ جُوعًا لا أَطْعَمَتْهَا وَلا أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ قَالَ نَافِعٌ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ خَشِيشِ أَوْ خَشَاشِ الْأَرْضِ**»(٢).

النار خالدة لا تفنىٰ ولا تبيد:

قال الطحاوي: والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان ولا تبيدان(٣).

وهذا هو ما ذهب أهل السنة والجماعة أن النار خالدة لا تبيد، وأهلها فيها خالدون، ولا يخرج منها إلا عصاة الموحدين، أما الكفرة والمنافقون فهم حطب جهنم خالدون فيها.

وقد خالف الجهمية: البعض في هذا الأمر وزعموا أن النار تفنىٰ.

قال المعتزلة والإباضية: وقالوا: إن كل من دخل النار يخلد فيها ولو من عصاة الموحدين.

قول اليهود: قالت اليهود وزعموا أنهم يعذبون في النار وقتًا ثم يخرجون منه ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

---

(١) رواه البخاري -كتاب النكاح- باب كفران العشير (٤٧٩٨)، ومسلم -كتاب الكسوف- باب ما عرض علىٰ النبي ﷺ «في صلاة الكسوف» (١٥١٢).

(٢) رواه البخاري. كتاب الأذان. باب ما يقول بعد التكبير (٧٠٣).

(٣) شرح الطحاوية (٣/ ٣٣، ٤٠).

وخالف بعض أهل الحديث في ذلك وقالوا أن الله يخرج من شاء منها ثم يبقيها أمدًا ثم يفنيها، فقد جعل الله لها أمدًا محددًا، وهذا القول منسوب لابن تيمية وتلميذه ابن القيم، لكنه قول غير صحيح.

وقد قيل أنهما رجعا عنه، وفي كلامهما ما يفيد أن النار لا تفنىٰ، وهذا يؤكد أنهما رجعا عن هذا القول والله أعلم.

فأهل الكبائر: مَنْ مات منهم قبل التوبة يُدخله الله النار ليَصْلىٰ جزاءَ ما فعل، ثم تكون نهايته ومأواه الجنة إلا أن يغفر الله له فيدخله الجنة بدون سابق عذاب.

القول بأن النار لم تخلق بعد:

قال بعض شرّاح الطحاوية: وأما شبهة من قال إنها لم تخلق بعد وهي أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارًا أن تفنىٰ يوم القيامة، وأن يهلك كل من فيها ويموت.

لقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وجاء في الحديث: لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّهَا قِيعَانٌ وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ(١).

وجاء في الحديث: مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ(٢).

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٥١٠) رقم (٣٤٦٢).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٥١١) رقم (٣٤٦٤)

قالوا: فلو كانت مخلوقة مفروغًا منها لم تكن قيعانًا، ولم يكن لهذا الغراس معنىٰ. قالوا: وكذا قوله تعالىٰ عن امرأة فرعون: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

حسنة قليلة قد تعتق من النار:

رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال «**لا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»(١).

وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَال «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»(٢) **مَعْنَاهُ أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ مَالٍ حَلالٍ مُخْلِصًا للهِ وَلَوْ كَانَتْ صَدَقَتُهُ بَعْضَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ قَدْ يُعْتِقُهُ اللهُ مِنَ النَّارِ بِسَبَبِ ذَلِكَ**».

قال النووي في شرح صحيح مسلم(٣): «**شق التمرة -بكسر الشين- نصفها وجانبها، وفيه الحث علىٰ الصدقة، وأن قليلها سبب للنجاة من النار. والترجمان: هو المعبر عن لسان بلسان وفيه أن الكلمة الطيبة سبب للنجاة من النار**».

وَفي صَحيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ عَطَسَ رَجُلانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَشَمَّتَ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الآخَرَ فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَمَّتَّ هَذَا وَلَمْ

---

(١) حديث صحيح. أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٢٦، رقم ٢٦٢٦)، وأخرجه أحمد (٥/ ١٧٣، رقم ٢١٥٥٩)، والترمذىٰ (٤/ ٢٧٤، رقم ١٨٣٣) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضًا: ابن حبان (٢/ ٢٨٢، رقم ٥٢٣) والبيهقىٰ فىٰ شعب الإيمان (٣/ ٢٥٢، رقم ٣٤٦٠).

(٢) أخرجه: البخاري ٢/ ١٣٦ (١٤١٧) و٩/ ١٨١ (٧٥١٢)، ومسلم ٣/ ٨٦ (١٠١٦) (٦٧) و(٦٨).

(٣) صحيح مسلم ٤/ ١٠٩ (١٠١٦).

تُشَمِّتْني، فَقَالَ «**إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللهَ وَلَمْ تَحْمَدِ اللهَ**». وَالرَّجُلانِ هُمَا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَابْنُ أَخيهِ، وَالَّذِي حَمِدَ اللهَ هُوَ ابْنُ الأَخِ، وَقَوْلُهُ «فَشَمَّتَ» أَيْ قُلْتَ يَرْحَمُكَ الله، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ الدُّعَاءُ لَهُ وَكُلُّ دَاعٍ بِخَيْرٍ فَهُوَ مُشَمِّتٌ، وَقَوْلُهُ «وَلَمْ يُشَمِّتِ الآخَرَ» أَيْ لَمْ يَدْعُ لَهُ، وَقَوْلُهُ «فَقَالَ الرَّجُلُ» هُوَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ. وَقَدْ رَوَىٰ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسىٰ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «**إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتُوهُ وَإِذَا لَمْ يَحْمَدِ اللهَ فَلا تُشَمِّتُوهُ**»، قَالَ الْفُقَهَاءُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ حَضَرَ الْعَاطِسَ الَّذِي لَمْ يَحْمِدِ الله أَنْ يُذَكِّرَهُ الْحَمْدَ لِيَحْمَدِ اللهَ تعالىٰ فَيُشَمِّتَهُ.

وقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ في فَتْحِ الْبَارِي أَخْرَجَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ أَبِي دَاودَ صَاحِبِ السُّنَنِ أَنَّهُ كَانَ في سَفِينَةٍ فَسَمِعَ عَاطِسًا عَلَىٰ الشَّطِّ حَمِدَ اللهَ تَعالىٰ فَاكْتَرَىٰ (أَيِ اسْتَأْجَرَ) زَوْرَقًا بِدِرْهَمٍ حَتَّىٰ جاءَ إلىٰ الْعَاطِسِ فَشَمَّتَهُ فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: لَعَلَّهُ كَانَ مُجابَ الدَّعْوَةِ، فَلَمَّا رَقَدُوا سَمِعُوا قَائِلًا يَقُولُ: يَا أَهْلَ السَّفِينَةِ إِنَّ أَبا دَاودَ اشْتَرَىٰ الْجَنَّةَ مِنَ اللهِ تعالىٰ بِدِرْهَمٍ. اهـ



۞ الجنة ۞

الجنة لغة: هي البستان. والمراد هنا دار الثواب والنعيم المقيم التي أعدَّها الله للمؤمنين.

فيها الحور العين، والوِلدان المخلَّدون، ولحم طير مما يشتهون، وأنهار من الماء العذب والعسل المصفَّىٰ، واللبن الذي لم يتغيَّر طعمه، والخمر الذي لا يُسْكِر فيها لذَّة للشاربين، وفيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، أهلها إخوان علىٰ سُرُر متقابلين، نزع الله ما في قلوبهم من غِلٍّ فصاروا أحبَّةً متمتعين، تحيَّتهم فيها سلام، ونعيمهم دائم في دار السلام.

وللجنة ثمانية أبواب، وهي أنواع وأقسام ودرجات، أعلاها جنة الفردوس، وأقلُّ الناس في الجنة له من النعيم ما يعدِل الدنيا وعشرة أمثالها معها، لا يلقىٰ أهلها موتًا ولا يقربهم فناء.

دلَّ علىٰ ذلك كلِّه الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأئمَّة.

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٧-١٠٨].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧-٨].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

قال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾ [محمد: ١٥].

وعن أبي هريرةَ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالىٰ: «**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطَرَ علىٰ بال بشرٍ**».

وجاء في الحديث عن أبو هريرةَ قال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أخرجه السبعة إلا أبا داوود.

وعنه قال: قلت: يا رسول الله، الجنة ما بناؤها؟ قال: «**لَبِنَةٌ من فضَّة ولَبِنَةٌ من ذهب، ومِلاطُها المسك الأذْفَر، وحَصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، مَنْ دخلها ينعَّم ولا يَبْؤس، ويخلد ولا يموت، لا تَبلىٰ ثيابهم، ولا يفنىٰ شبابهم**»[1].

---

(١) حديث أبىٰ هريرة: أخرجه أحمد (٢/ ٣١٣، رقم ٨١٢٨)، والبخارىٰ (٣/ ١١٨٥، رقم ٣٠٧٢)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤، رقم ٢٨٢٤)، والترمذىٰ (٥/ ٣٤٦، رقم ٣١٩٧) وقال: حسن صحيح.

١٤٩٣٢- قال الله إن أحب عبادىٰ إلىٰ أعجلهم فطرا (أحمد، والترمذىٰ -حسن غريب- وابن حبان، والبيهقىٰ عن أبىٰ هريرة) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٧، رقم ٧٢٤٠)، والترمذىٰ (٣/ ٨٣، رقم ٧٠٠)، وابن حبان (٨/ ٢٧٥، رقم ٣٥٠٧)، والبيهقىٰ (٤/ ٢٣٧، رقم ٧٩٠٩). وأخرجه أيضًا: أبو يعلىٰ (١٠/ ٣٧٨، رقم ٥٩٧٤)، والطبراني في الأوسط (١/ ٥٤، رقم ١٤٩)..

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن أولَ زمرةٍ يدخلون الجنةَ علىٰ صورة القمر ليلةَ البدر، ثم الذين يَلُونَهم علىٰ أشدِّ كوكب دُرِّيٍّ في السماء إضاءةً، لا يبولون ولا يتغوَّطون، ولا يَتْفلون ولا يَمْتَخِطون، أمشاطهم الذهب، ورَشْحهم المسك، ومَجَامِرهم الألْوَة، أزواجهم الحور العِيْن، علىٰ خلق رجل واحد، علىٰ صورة أبيهم آدم ستونَ ذراعًا في السماء**»[١].

أسماء الجنة:

١- **الجنة**: وهو الاسم المشهور لها، وقد ورد في أكثر من موضع في القران الكريم قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

الجنة في اللغة: كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [الكهف: ٣٩].

وقيل سميت الجنة بذلك: إما تشبيهًا بالجنة في الأرض -وإن كان بينهما فرق كبير جدًّا- وإما لستره نعمها عنا المشار إليها[٢] بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وهناك أسماء تأتي مقترنة بهذا الاسم (الجنة):

الأول: **جنة الخلد**: هي الجنة التي فيها الخلود الذي لا يزول عنه المرء ولا يَحُولْ، وسميت بذلك لخلود أهلها فيها.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١، رقم ٧١٦٥)، والبخارىٰ (٣/ ١٢١٠، رقم ٣١٤٩)، ومسلم (٤/ ٢١٧٩، رقم ٢٨٣٤)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٩، رقم ٤٣٣٣).

(٢) المفردات للراغب ص٢٠٤.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الفرقان: ١٥].

الثاني: جنة النعيم: جنة النعيم هي جنة الآخرة ونعيمها نعيمٌ في البدن ونعيمٌ في القلب، الدنيا في الغالب لا يجتمع النعيمان، وسميت بذلك لما فيها من النعيم المقيم الكريم. قال تعالىٰ: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء: ٨٥].

الثالث: جنة المأوىٰ: وسميت بذلك لأنها مأوىٰ المؤمنين.

قال تعالىٰ: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٥] وأما قوله تعالىٰ: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة ص: ٥٠]، فهي درجة مندرجات الجنة كما سيأتي.

٢- دار السلام: وسميت دارُ السَّلامِ الجنة لأَنها دارُ اللَّه ﷻ التي يدعو الناس لها وهي دار السلامة والبقاء التي لا تفنىٰ وتبقىٰ. قال تعالىٰ: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام: ١٢٧].

٣- دار المتقين: هي دار الحق فالجنة حق وهي دار المتقين، وسميت دار المتقين لأن أهلها هم المؤمنين، والنار حق وهي دار الكافرين، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل: ٣٠].

٤- دار الآخرة: والغالب أن تذكر بلفظ التعريف للدار، فيقال: الدار الآخرة، أي: الدار التي إليه النهاية وليس بعدها دار وهي التي تحدد بعد الحساب والجزاء.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧].

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢].

٥- **الحسنىٰ**: قال تعالىٰ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦].

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ قَالَ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ** ﷻ» حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ بِهَذَا الإِسْنَادِ وَزَادَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾(١).

٦- **دار المقام أو دار المقامة**: والمقصود بها دار الإقامة، حيث إنهم يقيمون فيها ولا يظعنون(٢).

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

صفة الجنة:

الجنة فيها من النعيم ما يفوق الوصف، ويقصر دونه الخيال، وليس لنعيمها يوم ينتهي فيه بل يتجدد دائمًا، ويكفي أن نقول لا مثل لها أبدًا في النعيم.

قال بعض العارفين:(٣) لو كانت الدنيا ذهبًا فانيًا والآخرة خزفًا باقيًا لكانت

(١) رواه مسلم -كتاب الإيمان- باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة ﷻ (٢٦٦).

(٢) مفردات القرآن للراغب ص٦٩٣.

(٣) تفسير روح المعاني ١٤٨/٤.

الآخرة خيرًا من الدنيا فكيف والدنيا خذف فأن والآخرة ذهب باق.

وصدق الله تعالىٰ إذ يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٠].

وما أخفاه الله عنا من نعيم الجنة شيء عظيم لا تدركه العقول ولم تراه الأبصار،

قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقد وصفها الصادق المصدوق والذي لا ينطق عن الهوىٰ لما سئل عنها وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله.. الجنة ما بناؤها؟ قال: «**لَبِنَةٌ**[1] **مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَمِلاطُهَا**[2] **الْمِسْكُ الأَذْفَرُ**[3] **وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ مَنْ دَخَلَهَا يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ وَيَخْلُدُ لا يَمُوتُ لا تَبْلَىٰ**[4] **ثِيَابُهُمْ وَلا يَفْنَىٰ شَبَابُهُمْ**»[5].

وقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا**

---

(١) اللَّبِنَة: واحدة اللَّبِن وهي التي يُبْنَىٰ بها الجِدَار.

(٢) الملاط: الطين الذي يكون بين اللبنتين، أو التراب الذي يخالطه الماء.

(٣) أذفر: جيد إلىٰ الغاية رائحته شديدة.

(٤) بَلِيَ الثوب: قَدُمَ ورثَّ وتلف.

(٥) أخرجه أحمد برقم (٨٠٤٣)، وأخرجه الترمذي برقم (٢٥٢٦) وهذا لفظه، صحيح سنن الترمذي رقم (٢٠٥٠).، والدارمي، وخرجه الألباني في مشكاة المصابيح (ج٣ رقم ٥٦٣٠)، وقال صحيح بشواهده، قال المناوىٰ: ورجاله رجال الصحيح)

خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ[١]: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧]».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لَقَابُ قَوْسٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ وَقَالَ لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ**»[٢].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[٣].

أبواب الجنة:

للجنة أبواب يدخل منها المؤمنون يوم القيامة كما يدخل منها الملائكة، قال تعالىٰ: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠﴾ [سورة ص: ٥٠].

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

وما أعظم الفضل من الله سبحانه وتعالى حينما يكرم المؤمنين أن هذه الأبواب تفتح عندما يصل المؤمنون إليها، فتستقبلهم الملائكة، وتحييهم، وتهنئتهم بحسن المنازل، قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) وسنن الترمذي برقم (٣١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري -كتاب الجهاد والسير- باب الغدوة والروحة في سبيل الله (٢٥٨٤).

(٣) أخرجه البخاري -كتاب بدء الخلق- باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠١١).

وعدد أبواب الجنة ثمانية، فعن عمر بن الخطاب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»**[1].

ولهذه الأبواب أسماء منقولة، مثل: الصلاة والجهاد والصدقة والأيمن وباب الكاظمين الغيظ، ومنها ما اختاره بعض العلماء لإشارات وإيماءات في النصوص مثل: باب التوبة أو الذكر أو العلم أو الراضين أو الحج، وباب الريان، وهو خاص بالصائمين، ففي الصحيحين عن سهل بن سعد ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فِيهَا بَابٌ يُسَمَّىٰ الرَّيَّانَ لا يَدْخُلُهُ إِلا الصَّائِمُونَ»[2].

قال النووي[3]: **قال القاضي**: وقد جاء ذكر بقية أبواب الجنة في حديث آخر في باب التوبة وباب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس وباب الراضين فهذه سبعة أبواب جاءت في الأحاديث، وجاء في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم يدخلون من الباب الأيمن، فلعله الباب الثامن.

وقال ابن حجر[4]: وقع في الحديث ذكر أربعة أبواب من أبواب الجنة . . . وبقي من الأركان الحج فله باب بلا شك، وأما الثلاثة الأخرىٰ فمنها« باب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . . . ومنها: باب الأيمن وهو باب المتوكلين الذي يدخل منه من لا حساب عليه ولا عذاب. وأما الثالث: فلعله

(١) أخرجه مسلم -كتاب الطهارة- باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٣٤٥).
(٢) أخرجه البخاري -كتاب بدء الخلق- باب صفة أبواب الجنة (٣٠١٧).
(٣) شرح صحيح مسلم ٧/ ١١٨.
(٤) فتح الباري ٢١/ ٣٩.

باب الذكر، فإن عند الترمذي ما يومئ إليه، ويحتمل أن يكون باب العلم.

طعام أهل الجنة وشرابهم:

إن الله ﷻ أعد لعباده الصالحين في الجنة ألذ وأشهىٰ أنواع الطعام والشراب، ومعروف أن من ملذات الدنيا وشهواتها الطعام، ولكنه يحتاج إلىٰ الوقت والجهد من أجل تحضيره، ويحتاج وقت لهضمه وإخراجه، وأيضًا يخرج في أبغض صورة وأنتن رائحة، ولكن في الآخرة تنال ألذ الشهوات وأطيب الطعومات وليس فيها من منغصات الدنيا كما مر بنا، فالجنة لا جوع فيها ولا عطش، فهي دار السعادة والهناء، والراحة والسرور، واللذة والحبور، والحكمة في ذلك أن الله تعالىٰ عرفهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا، وزادهم علىٰ ذلك ما لا يعلمه إلا الله ﷻ»[١].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨-١١٩].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلا يَتْفُلُونَ وَلا يَبُولُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ وَلا يَمْتَخِطُونَ**» قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «**جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ**»[٢].

ومن طعام أهل الجنة الفواكه بأنواعها، قال تعالىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [**الواقعة: ٢٠**]، ومن هذه الفاكهة العنب قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ [**النبأ: ٣١-٣٢**].

---

(١) التذكرة للقرطبي: ص ٤٧٥، وانظر فتح الباري: (٦/ ٣٢٥).

(٢) رواه مسلم -كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب في صفات الجنة وأهلها (٥٠٦٦).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (خَسَفَتْ الشَّمْسُ عَلَىٰ عَهْدِ رسول الله ﷺ فَصَلَّىٰ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ، قَالَ: **إِنِّي أُرِيتُ الْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا**)[1].

وأيضًا من طعام أهل الجنة لحم الطير، قال تعالىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [**الواقعة: ٢٠-٢١**]، وأما شراب أهل الجنة، فإنه شراب طهور طيب لا كما يفعل بعض الضالين الذين يشربون النجاسة، فتجدهم يشربون الخمر وبعضهم يشرب الدم المسفوح، وبعضهم يشرب العرق وغير ذلك من النجاسات والقاذورات، وأما أهل الجنة فشرابهم طاهر طهور طيب، قال تعالىٰ: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [**الإنسان: ٢١**].

ومن شراب أهل الجنة أيضًا العسل واللبن والماء قال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [**محمد: ١٥**].

وأيضًا من شراب أهل الجنة الكافور: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [**الإنسان: ٥-٦**].

وأيضًا من شرابهم الزنجبيل التي تتفجر من عين السلسبيل: قال تعالىٰ: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [**الإنسان: ١٧-١٨**].

(١) رواه البخاري- كتاب الأذان- باب رفع البصر إلىٰ الأمام في الصلاة (٧٠٦).

خمر أهل الجنة:

من الشراب الذي يتفضل الله علىٰ أهل الجنة الخمر، وخمر الجنة خالٍ من العيوب والآفات التي تتصف بها خمر الدنيا، فخمر الدنيا تذهب العقول، وتصدع الرؤوس، وتوجع البطون، وتمرض الأبدان، وتجلب الأسقام، وقد تكون معيبة في صنعها أو لونها أو غير ذلك، أما خمر الجنة فإنها خالية من ذلك كله، جميلة صافية رائقة.

لقد وصف الله جمال لونها (بيضاء) ثم بين أنها تلذ شاربها من غير اغتيال لعقله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٤].

قال ابن كثير في تفسيره: «لا تصدع رؤوسهم، ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة، وروىٰ الضحاك عن ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله خمر الجنة، ونزهها عن هذه الخصال»[(١)].

الجنة خالدة وأهلها خالدون أعلم رحمك الله: أن الدنيا فانية والجنة خالدة لا تفنىٰ ولا تبيد، وأهلها فيها خالدون لا يرحلون عنها، ولا يظعنون ولا يموتون، وذلك هو الفوز العظيم الذي ليس بعده فوز.

قال تعالىٰ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان: ٥٦-٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٥١٤.

ومقتضىٰ النصوص الواردة أن الجنة تخلق خلقًا غير قابل للفناء، وكذلك أهلها، ولم يقل أحد من القدماء بفناء الجنة إلا الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وقوله باطل شنيع، فخلود الجنة مما يعلم بالضرورة، وقد قطعت به النصوص من الكتاب والسنة.



الكلام حول الجنة والنار إنهما مخلوقتان؟

هذه المسألة التي حدث فيها خلاف بين أصحاب بعض الفرق باختلاف أهل الفرق أنفسهم هي مسألة خلق الجنة والنار فقد ذهب الصوفية والأشاعرة والماتريدية والمحدثون والظاهرية والأمامية والأسماعلية والعلوية وبعض من رجال المعتزلة كالجبائي وبشر بن المعتمر وأبو الحسين البصري إلىٰ أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، وهو ما يذهب إليه الكثير من أهل الفرق الإسلامية، وقد استدلوا علىٰ ذلك بالآيات الكريمة التي تنص علىٰ وجودهما وكذلك بقصة آدم وحواء عليهما السلام بسكناهما الجنة وأكلا من ثمارهما وهذا دليل قطعي بنص قرءاني كريم: قال تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥].

وذهب أكثر المعتزلة ووافقهم الإباضية وبعض الزيدية إلىٰ أنهما سيخلقان يوم يحشر الله الناس للجزاء، وبقولهم أنه لا فائدة من خلقهما قبل ذلك اليوم، وقد استدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]، وبذلك فقد ذهب أبو علي الجبائي وبشر بن المعتمر وأبو الحسين البصري إلىٰ أنهما مخلوقتان الآن وأنكر ذلك أكثر المعتزلة كعباد الضيمري وضرار ابن عمرو وأبي هاشم وعبد الجبار وقالوا إنهما يخلقان يوم الجزاء.

قال العلامة السالمي الإباضي(١): إن بعض العلماء القائلين بوجود الجنة والنار أخذوا في تعيين محلهما فقال جمهورهم إن الجنة فوق السماء السابعة

---

(١) مشارق انوار العقول ص٣٦٤-٣٦٥.

عند سدرة المنتهىٰ، وإن النار تحت الأرض السفلىٰ، وقال البيضاوي في قوله تعالىٰ «وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين»[1]: بمعنىٰ هيئت لهم وفيه دليل علىٰ أنها خارج هذا العلم اهـ. ورأىٰ السعد التوقف وحققه شارح الرائية وهو الحق كما في النظم (قوله أولىٰ بنا) أي أحق بنا لجهلنا بما غاب عنا إلا إذا أطلعنا علىٰ علمه.

قال الطحاوي[2]: والجنة والنار مخلوقتان لاَ تَفْنَيَانِ أَبَدًا وَلا تَبِيدَانِ، قال بعض شرّاح الطحاوية[3]: وأما قوله: إن الجنة والنار مخلوقتان، فاتفق أهل السنة والجماعة علىٰ أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أكثر أصحاب الفرق علىٰ ذلك حتىٰ كان للمعتزلة فلسفة كلامية فأنكرت ذلك وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة وهو ما ذهب أكثرهم بأنها لم تخلق بالعقل وذهب أبو هاشم بدليل السمع إذ ليس عنده للعقل دلالة علىٰ ذلك قال عَبّاد لو وجدتا فإما في عالم الأفلاك أو العناصر أو في عالم آخر.

وقد استدلت الفرق علىٰ خلق الجنة والنار بنصوص من الكتاب والسنة وهي نصوص قطعية ليست ظنية فما ورد من الآيات القرانية والأحاديث النبوية وذلك من وجهان الأول قصة آدم وحواء وإسكانهما الجنة وإخراجهما عنها علىٰ ما نطق به الكتاب وإذا كانت الجنة مخلوقة فكذا النار.

---

(١) سورة آل عمران آية رقم١٣٣

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٢٠-٤٣٢)،

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٤٢٠

ومنها قال تعالىٰ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال عن النار قال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

ونجد أن فيما سبق من عرض الآيات نصت علىٰ تكرار كلمة الإعداد: والمقصود بالأعداد هو التهيئة(١)، وفي قوله تعالىٰ في صفتهما أعدت للمتقين أعدت للكافرين بلفظ الماضي وهو صريح في وجودهما ومن تتبع الأحاديث الصحيحة وجد فيها شيئا كثيرا مما يدل علىٰ وجودهما دلالة ظاهرة.

وقد ذهب الإمامية والعلوية والإسماعلية بالإجماع علىٰ خلقهما.

قال العلامة في شرح التجريد(٢): وقد دل السمع علىٰ أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وجميع المعارضات متأولة، والنصوص التي تصرح بوجودهما تبلغ حد التواتر.

وجاء أيضًا في أوائل المقالات(٣): أن الإجماع قائم علىٰ أنهما مخلوقتان، بالإضافة إلىٰ الأخبار الكثيرة.

---

(١) شرح الطحاوية في العقيدة الوسطية (٣/ ٣٢)، وشرح لمعة الاعتقاد ص١٣١.

(٢) شرح التجريد ص٢٧٠، اوائل المقالات ص١٠٣، المواقف ص٣٠١.

(٣) أوائل المقالات ص١٠٣.

قال الكرماني الإسماعيلي[١]: إنّها موصوفة بالسرمد والأبد ووجود الملاذ فيها أجمع، وإنّها لا تستحيل ولا تتغيّر ولا يطرأ عليها حال ولا تتبدّل.

وعقد البخاري في كتاب بدء الخلق في صحيحة بابًا بعنوان: باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة؛ قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الموضع: قوله: باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة؛ أي موجودة الآن.

ومن الأدلة أيضًا علىٰ أنهما موجودتان الآن الأحاديث التي يذكر فيها النبي ﷺ أنه رأىٰ الجنة والنار ورأىٰ أهلهما، كحديث عبد الله بن عباس أنه قال: خَسَفَتْ الشَّمْسُ عَلَىٰ عَهْدِ رسول الله ﷺ فَصَلَّىٰ رسول الله ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلا .... الحديث، وفيه: قالوا: رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ، فَقَالَ: «**إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ أَوْ أُرِيتُ الْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ**»، قَالُوا: لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «**بِكُفْرِهِنَّ**»، قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ، قَالَ: «**يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَىٰ إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ**»[٢].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: .. «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُمَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**» قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

(١) راحة العقل ص١٦٥.

(٢) رواه البخاري كتاب النكاح باب كفران العشير (٤٧٩٨)، ومسلم كتاب الكسوف باب ما عرض علىٰ النبي ﷺ «في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار» (١٥١٢).

قَالَ: «رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ»[١]، والمعدوم لا يُرىٰ وقد أجاب ابن أبي العز علىٰ من قال أنهما لم تخلقا بعد أو أنهما تبيدان[٢].

وعقيدتنا في ذلك وما نذهب إليه هو أنهما مخلوقتان ولا خلاف لدينا بالدلالة القطعية والله العالم.

وهذا آخر مبحث لنا والحمد لله أولًا وآخرًا

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات



---

(١) رواه مسلم -كتاب الصلاة- باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما (٤٦٤).

(٢) شرح الطحاوية: (٢/ ٦١٨).

المصادر والمراجع

١- الآيات البينات في عدم سماع الأموات علىٰ مذهب الحنفية السادات - المؤلف: نعمان بن محمود الألوسي (المتوفىٰ: ١٣١٧هـ).

٢- الإبانة الكبرىٰ لابن بطة - المؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري (المتوفىٰ: ٣٨٧هـ).

٣- اثبات عذاب القبر - المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفىٰ: ٤٥٨هـ).

٤- اجتماع الجيوش الإسلامية علىٰ غزو المعطلة والجهمية - المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفىٰ: ٧٥١هـ).

٥- الاحتجاج بالقدر - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ).

٦- الإرشاد شرح لمعة الاعتقاد - المؤلف: عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن جبرين (المتوفىٰ: ١٤٣٠هـ).

٧- الأسماء والصفات - المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفىٰ: ٤٥٨هـ).

٨- أصول الإيمان - المؤلف: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان (المتوفىٰ: ١٢٠٦هـ).

٩- أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة - المؤلف: محمد بن عبد الرحمن الخميس.

١٠- أصول السنة - المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسىٰ بن محمد، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين (المتوفىٰ: **٣٩٩**هـ).

١١- اعتقاد أئمة الحديث - المؤلف: أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس بن مرداس الإسماعيلي الجرجاني (المتوفىٰ: **٣٧١**هـ).

١٢- الاعتقاد - المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفىٰ: **٤٥٨**هـ).

١٣- الاعتقاد - المؤلف: أبو الحسين ابن أبي يعلىٰ، محمد بن محمد (المتوفىٰ: **٥٢٦**هـ).

١٤- الاعتصام - المؤلف: إبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفىٰ: **٧٩٠**هـ).

١٥- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: **٧٢٨**هـ).

١٦- الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع - المؤلف: عبد الرحمن بن أبو بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفىٰ: **٩١١**هـ).

١٧- أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي ***الدمشقي (المتوفىٰ: **٧٢٨**هـ).

١٨- الإيمان - المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفىٰ: **٢٣٥**هـ).

١٩- الإيمان - المؤلف: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفىٰ: **٢٢٤**هـ).

٢٠- الإيمان - المؤلف: ابن منده عبد الرحمن بن محمد بن اسحاق (المتوفىٰ: **٤٧٠**هـ).

٢١- الإيمان الأوسط - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: **٧٢٨**هـ).

٢٢- البعث لابن أبي داود السجستاني - المؤلف: أبو بكر عبد الله بن سليمان الاشعث ابن أبي داود السجستاني (المتوفىٰ: **٣١٦**هـ).

٢٣- البعث والنشور للبيهقي - المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفىٰ: **٤٥٨**هـ).

٢٤- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية - المؤلف: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (المتوفىٰ: **٧٢٨**هـ).

٢٥- تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد - المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفىٰ: **١٤٢٠**هـ).

٢٦- التحف في مذاهب السلف - تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفىٰ: **١٢٥٥**هـ).

٢٧- تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد - المؤلف: محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني (المتوفىٰ: **١١٨٢**هـ).

٢٨- ثلاثة أصول - المؤلف: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان (المتوفىٰ: **١٢٠٦**هـ).

٢٩- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: **٧٢٨**هـ).

٣٠- الجواهر المضية - المؤلف: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان (المتوفىٰ: **١٢٠٦**هـ).

٣١- الجوهرة الفريدة في تحقيق العقيدة - المؤلف: حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المتوفىٰ: **١٣٧٧**هـ).

٣٢- خلق أفعال العباد - المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي البخاري (المتوفىٰ: **٢٥٦**هـ).

٣٣- درء تعارض العقل والنقل - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: **٧٢٨**هـ).

٣٤- دلائل النبوة - المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفىٰ: **٤٥٨**هـ).

٣٥- الرؤية - المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفىٰ: **٣٨٥**هـ).

٣٦- الرد علىٰ الجهمية - المؤلف: ابن منده عبد الرحمن بن محمد بن اسحاق (المتوفىٰ: **٤٧٠**هـ).

٣٧- الرد علىٰ الجهمية - المؤلف: أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني (المتوفىٰ: ٢٨٠هـ).

٣٨- الروح في الكلام علىٰ أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة - المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفىٰ: ٧٥١هـ).

٣٩- السنّة - المؤلف: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (المتوفىٰ: ٢٨٧هـ).

٤٠- السنّة - المؤلف: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي (المتوفىٰ: ٣١١هـ).

٤١- السنّة - المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (المتوفىٰ: ٢٩٠هـ).

٤٢- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة - المؤلف: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي (المتوفىٰ: ٤١٨هـ).

٤٣- شرح العقيدة الطحاوية - المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٩٢هـ).

٤٤- شرح العقيدة الواسطية - المؤلف: صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

٤٥- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل - المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفىٰ: ٧٥١هـ).

٤٦- الشريعة - المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفىٰ: ٣٦٠هـ).

٤٧- الشيعة والتشيع - فرق وتاريخ المؤلف: إحسان ظهير الباكستاني (المتوفىٰ: ١٤٠٧هـ).

٤٨- الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ).

٤٩- صب العذاب علىٰ من سب الأصحاب - المؤلف: أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألوسي (المتوفىٰ: ١٣٤٢هـ).

٥٠- الصفات - المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفىٰ: ٣٨٥هـ).

٥١- الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة - المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفىٰ: ٧٥١هـ).

٥٢- العبودية - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ).

٥٣- العرش وما روي فيه - المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفىٰ: ٢٣٥هـ).

٥٤- المسمَّىٰ العقيدة التدمرية - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ).

٥٥- العقيدة الواسطية - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ).

٥٦- العقيدة الطحاوية - المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفىٰ: ٣٢١هـ).

٥٧- العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم - المؤلف: ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضىٰ بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير (المتوفىٰ: ٨٤٠هـ).

٥٨- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - المؤلف: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (المتوفىٰ: ١٢٨٥هـ).

٥٩- الفتن - المؤلف: أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية المروزي (المتوفىٰ: ٢٢٨هـ).

٦٠- الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ).

٦١- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ).

٦٢- القدر - المؤلف: أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المُسْتَفَاض الفِرْيابِي (المتوفىٰ: ٣٠١هـ).

٦٣- القصيدة النونية - المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفىٰ: **٧٥١**هـ).

٦٤- القضاء والقدر - المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفىٰ: **٤٥٨**هـ).

٦٥- قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر - المؤلف: محمد صديق حسن خان القنوجي (المتوفىٰ: **١٣٠٧**هـ).

٦٦- القواعد الأربعة - المؤلف: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان (المتوفىٰ: **١٢٠٦**هـ).

٦٧- القول السديد شرح كتاب التوحيد - المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي (المتوفىٰ: **١٣٧٦**هـ).

٦٨- كتاب التوحيد - المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفىٰ: **٣١١**هـ).

٦٩- كتاب التوحيد - المؤلف: ابن منده عبد الرحمن بن محمد بن اسحاق (المتوفىٰ: **٤٧٠**هـ).

٧٠- كلمة الإخلاص وتحقيق معناها - المؤلف: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (المتوفىٰ: **٧٩٥**هـ).

٧١- لمعة الاعتقاد - المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفىٰ: **٦٢٠**هـ).

٧٢- المفهوم الصحيح للتوسل علىٰ ضوء السنة - المؤلف: حماد بن محمد الأنصاري الخزرجي السعدي (المتوفىٰ: **١٤١٨**هـ).

٧٣- الملل والنحل - المؤلف: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (المتوفىٰ: ٥٤٨هـ).

٧٤- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية - المؤلف: أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ).

٧٥- النزول - المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفىٰ: ٣٨٥هـ).

٧٦- نونية القحطاني - المؤلف: أبو محمد الأندلسي القحطاني (المتوفىٰ: ٣٧٠هـ).

٧٧- هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ - المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفىٰ: ٧٥١هـ).

٧٨- قواعد العقائد - المؤلف: الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي.

٧٩- الاقتصاد في الاعتقاد - المؤلف: الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي.

٨٠- كتاب أصول الدين - المؤلف: أبو منصور البغدادي.

٨١- الخريدة البهية - المؤلف: أحمد الدردير.

٨٢- جوهرة التوحيد - المؤلف: إبراهيم اللقانىٰ المالكي.

٨٣- حقائق الإيمان: تأليف: الشهيد الثاني علي بن أحمد العاملي (ت٩٦٥هـ)، تحقيق: مهدي الرجائي، وقد أشرف علىٰ التحقيق محمود المرعشي.

٨٤- «الإيقاظ من الهجعة بالبرهان علىٰ الرجعة» تأليف الحر العاملي محمد ابن الحسن (ت١١٠٤ هـ). صاحب (وسائل الشيعة) أحد الكتب الحديثية الثمانية. وقد خاض في الكلام عن الرجعة والاستدلال عليها.

٨٥- «نور الأفهام في علم الكلام» للحاج السيد حسن الحسيني اللواساني، وبدأ في كتابه الكلام عن التوحيد، وأنهاه بخاتمتين الأولىٰ في الآجال، والثانية في الأرزاق، ثم ذكر مكارم الأخلاق والحقوق.

٨٦- «موسوعة العقائد الإسلامية في الكتاب والسنة المعرفة» تأليف محمد الريشهري، وقد ساعده فيها رضا برنجكار، وعبد الهادي المسعودي.

٨٧- «عقائد الإمامية الاثنىٰ عشرية» تأليف إبراهيم الموسوي الزنجاني.

٨٨- «عقائد الإمامية» تأليف محمد رضا المظفر.

٨٩- «تفسير التبيان» لمحمد بن الحسن الطوسي (ت/ ٤٦٠هـ).

٩٠- «مجمع البيان» لأبي علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، (ت٥٤٨ هـ).

٩١- العلويون والتشيع علي عزيز الإبراهيم.

٩٢- إسلام بلا مذاهب، د. مصطفىٰ الشكعة.

٩٣- «تفسير الميزان» لمحمد بن حسين الطباطبائي.

٩٤- «تحرير الأحكام الشرعية علىٰ مذهب الإمامية» تأليف جمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن المطهر، المعروف بالعلامة الحلي (٦٤٨ - ٧٢٦ هـ).

٩٥- «كفاية الأصول» لمحمد كاظم الخراساني الآخوند.

٩٦- الأساس وشرحه للإمام أحمد الشرفي طبعة دار الحكمة اليمانية، وهو بمجلدين، والكتاب مفيد للغاية وخاصة في مناقشاته للمعتزلة والأشاعرة.

٩٧- ينابيع النصيحة في العقائد الصحيحة لإمام المجتهدين شرف الدين الحسين بن بدر الدين.

٩٨- البحر الزخار لمذاهب العلماء الأمصار وهو في الفقه المقارن، للإمام المجتهد الفذ أحمد بن يحيىٰ المرتضىٰ، طبع حديثا بدار الكتب العلمية ببيروت في ستة مجلدات، والكتاب ملئ بالأحاديث التي يحتج بها في المسائل الفقهية.

٩٩- هداية العقول إلىٰ غاية السؤل في علم الأصول للإمام المجتهد الحسين بن القاسم، طبعة وزارة المعارف المتوكلية في صنعاء لسنة **١٩٣٩**.

١٠٠- الإرشاد إلىٰ سبيل الرشاد - بحث في حكم الاختلاف في الدين المؤلف: الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد.

١٠١- تحكيم العقول في تصحيح الأصول المؤلف: الشيخ الإمام الحاكم أبو سعيد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي المتوفىٰ سنة **٤٩٣** هـ.

١٠٢- حقائق المعرفة المؤلف: الإمام المتوكل علىٰ الله أحمد بن سليمان.

١٠٣- سبيل الرشاد إلىٰ معرفة رب العباد المؤلف: السيد العلامة محمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد.

١٠٤- منهاج المتقين في علم الكلام المؤلف: العلامة يحيىٰ بن الحسن القرشي.

١٠٥- العقيدة الصحيحة المؤلف: الإمام المتوكل علىٰ الله إسماعيل بن القاسم.

١٠٦- الرسالة النافعة بالأدلة الواقعة المؤلف: الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزه.

١٠٧- مصباح العلوم في معرفة الحي القيوم المؤلف: العلامة أحمد بن الحسن الرصاص.

١٠٨- مسائل الشاك (مسائل الشاك في كتاب الله وجوابات أمير المؤمنين) المؤلف: أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب.

١٠٩- مسائل الإباضية المؤلف: الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الإمام الهادي يحيىٰ بن الحسين.

١١٠- مسائل نافع بن الأزرق المؤلف: حبر الأمة (ابن عباس) عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب بن هاشم.

١١١- التبصرة المؤلف: الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين بن هارون الحسني.

١١٢- إثبات نبوة النبي ﷺ المؤلف: الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين ابن هارون.

١١٣- مجموع رسائل الإمام زيد بن علي المؤلف: الإمام زيد بن علي (ع).

١١٤- مجموع رسائل الإمام القاسم الرسي المؤلف: الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي (ع).

١١٥- مجموع رسائل الإمام الهادي المؤلف: الإمام الهادي إلىٰ الحق يحيىٰ ابن الحسين (ع).

١١٦- مجموع رسائل الإمام الحسين بن القاسم العياني المؤلف: الإمام الحسين بن القاسم العياني.

١١٧- تاج العقائد ومعدن الفوائد. علي بن الوليد. تحقيق عارف تامر.

١١٨- راحة العقل. المؤلف: حميد الدين الكرماني.

١١٩- إثبات النبوات - لأبي يعقوب السجستاني (السيستاني).

١٢٠- كتاب الكشف - للداعي جعفر بن منصور اليمن.

١٢١- الينابيع - لأبي يعقوب السجستاني.

١٢٢- أربعة كتب إسماعيلية - للمستشرق ر. شتروطمان.

١٢٣- تاريخ الدعوة الاسماعيلية - الدكتور مصطفىٰ غالب.

١٢٤- أربع رسائل إسماعيلية - تحقيق الدكتور عارف تامر.

١٢٥- مجموعة رسائل الكرماني - الداعي (حجة العراقين) أحمد الكرماني.

١٢٦- كتاب كنز الولد - إبراهيم الحامدي.

١٢٧- كتاب زهر المعاني - إدريس عماد الدين.

١٢٨- شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب.

١٢٩- المدونة الكبرىٰ في جزأين أبي غانم الخرساني.

١٣٠- قاموس الشريعة جميل بن خميس السعدي، وهو يشتمل علىٰ **٩٢** مجلدا.

١٣١- بيان الشرع للعلامة محمد بن إبراهيم الكندي، ويشتمل علىٰ **٧٢** مجلدا.

١٣٢- المصنف أبي بكر أحمد بن عبد الله بن موسىٰ الكندي، ويشتمل علىٰ ٧٢ مجلدا.

١٣٣- النيل وشفاء العليل، وتيسير التفسير محمد بن يوسف اطفيش.

١٣٤- مشارق أنوار العقول في جزئين عبد الله بن حميد السالمي.

١٣٥- اللمعة المرضية من أشعة الإباضية عبد الله بن حميد السالمي.

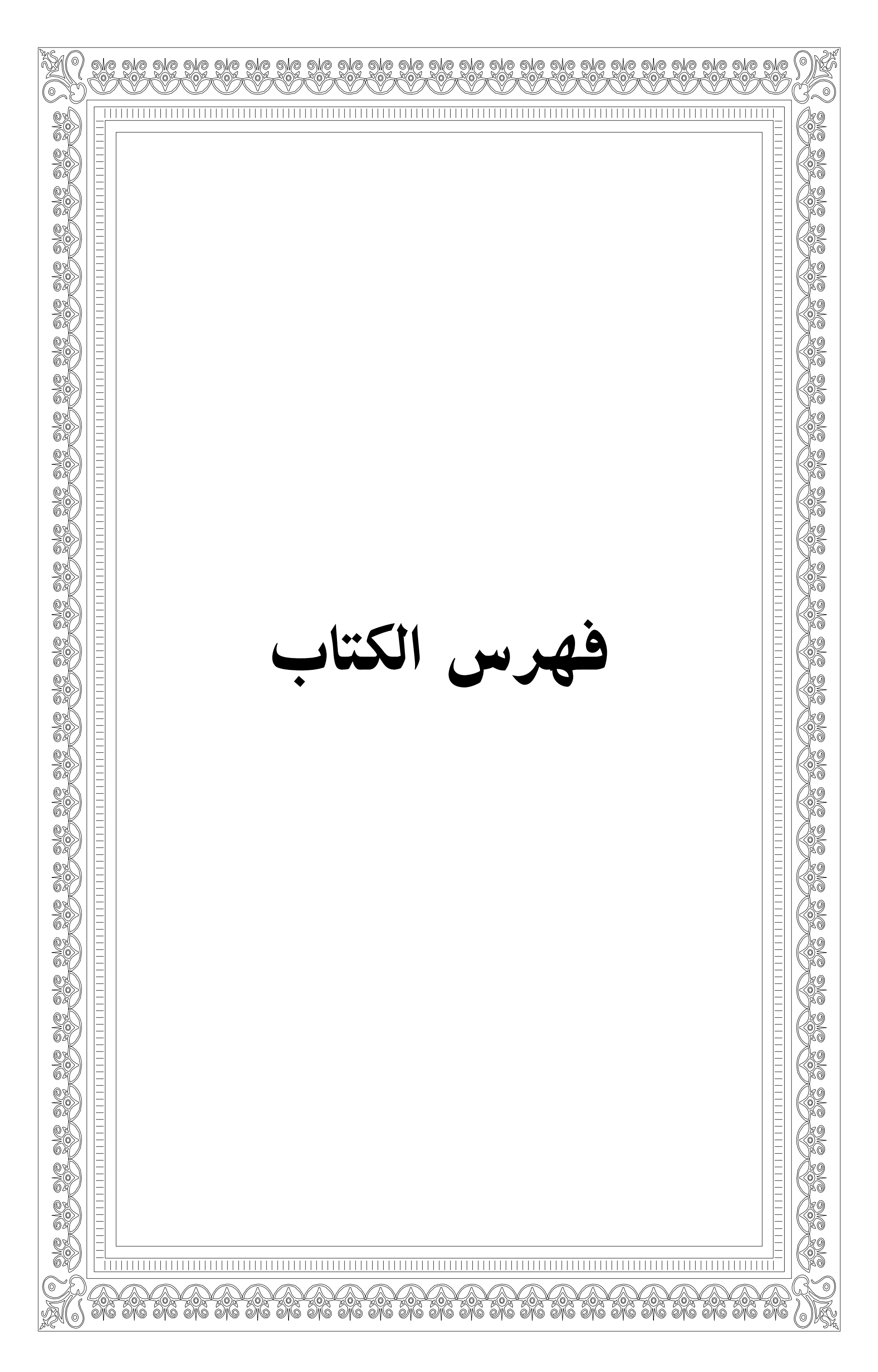
١٣٦- الإباضية في موكب التاريخ في أربعة أجزاء علي يحيىٰ معمر.

١٣٧- الإباضية بين الفرق الإسلامية علي يحيىٰ معمر.

١٣٨- الإسلام والقيم الإنسانية علي يحيىٰ معمر.

١٣٩- الحق الدامغ للشيخ أحمد الخليلي.





فهرس الكتاب

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

